يَسين كالفجر
علامةُ الأسد ٥ الكتاب ٣
فرنسين ريغرز
مكتبة ياسمين

علامةُ الأسد ♌ الكتاب ٣

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة
مكتبة ياسمين
معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك

As Sure as the Dawn

Copyright © 1995, 2002 by Francine Rivers. All rights reserved.
Published by arrangement with Browne & Miller Literary Associates, LLC.

يقين كالفجر

فرنسين ريفرز © ١٩٩٥، ٢٠٠٢. حقوق الطبع محفوظة.
تم نشرها باللغة العربية بالترتيب مع براون آند ميلر لتراري أسوسيتس. إل. إل. سي.

Arabic Edition @ 2016 by **Ophir Printers & Publishers**. All rights reserved.

No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

يقين كالفجر

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٦
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+
فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٦/١/٤٨٨
ISBN 978-90-5950-234-5

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

يقين كالفجر

فرنسين ريڤرز

ترجمة: سعيد باز

أوفير
ophir

أُهدي هذا الكتاب إلى:

أخي أقَرِت ملبورن كِنغ الابن (Everet Melbourne King, Jr)

وزوجته إيڤلين (Evelyn)

أُحِبُّكما كِلَيكُما وأشكر الله على وجودنا معًا في أيَّام العُسر

الفهرس

كلمة شُكر ٩

خرائط: الإمبراطوريَّة الرومانيَّة نحو ١١٧م ١١
الرِّحلة إلى جِرمانيا نحو ٧٢م ١٢
الطريق البرِّيُّ من روما إلى جِرمانيا ١٣
تمهيد ١٧

القسم الأوَّل: البِذار ٢٣
القسم الثاني: التُّربة ١٥٣
القسم الثالث: النُّموُّ ٣٢٧
القسم الرابع: الشَّوك ٣٤٩
القسم الخامس: التَّضحية ٤٦٩
القسم السادس: الحَصاد ٥٠٧

خاتمة ٥٢٥

مسردٌ أَلِفبائيٌّ (شَرحُ ألفاظ) ٥٢٩

كلمةُ شكر

أودُّ أن أشكُرَ زوجي رِك (Rick) على دعمه الدائم وتشجعيه إيَّاي على بسط جناحيَّ والطَّيران. كذلك أيضًا أشكر الله من أجل أولادي، تريڤور (Trevor) وشانُن (Shannon) وترافِس (Travis)، إذ علَّموني عدَّة دروس لا تُقدَّر بثمن عن الحياة والمحبَّة.

وأشكر أيضًا مُحرِّرتي، كارين بُول (Karen Ball)، على استخدامها قُدراتِها وخبراتِها في دوزنة أفكاري وتحسين عملي. وعلى نحوٍ أهمَّ، أشكر الله على إرشادي إلى مُحرِّرٍ يُشارِكني في رؤياي وله إيمانٌ يفوق إيماني.

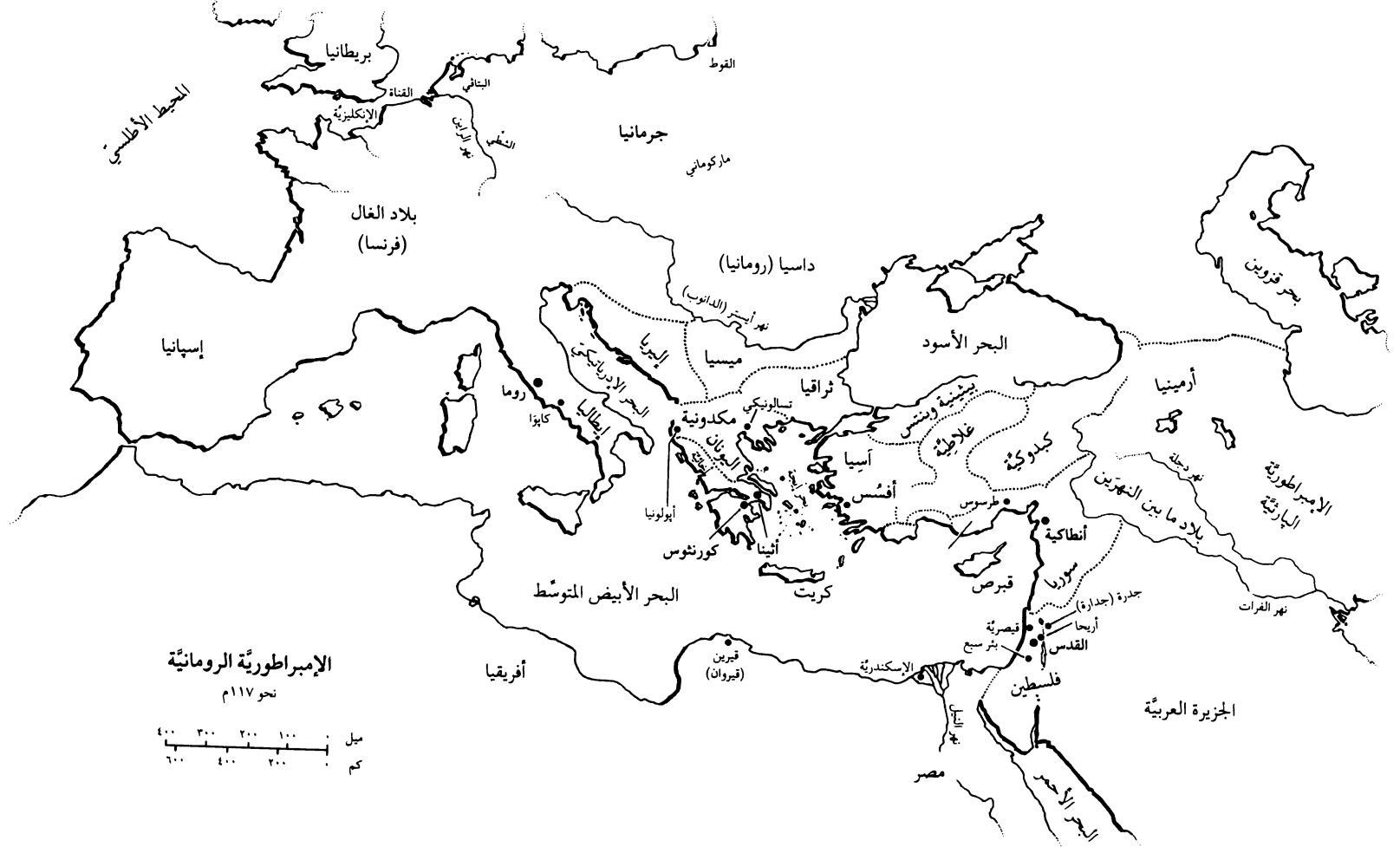
بريطانيا
القناة
الإنكليزيّة
البالتي
المحيط الأطلسي
جرمانيا
القوط
ماركومانيّ
بلاد الغال
(فرنسا)
إسپانيا
داسيا (رومانيا)
نهر أيستر (الدانوب)
البحر الأسود
بحر قزوين
أرمينيا
ميسيا
ثراقيا
البحر الأدرياتيكي
البحر الأيونيّ
روما
كاپوا
إيطاليا
مكدونية
تسالونيكي
أپولونيا
كورنثوس
أثينا
كريت
البحر الأبيض المتوسّط
آسيا
أفسُس
بيثينية وپنتس
غلاطية
كبدوكية
طرسوس
قبرص
أنطاكية
سوريا
جدرة (جدارة)
أريحا
القدس
قيصريّة
بئر سبع
الإسكندريّة
فلسطين
الجزيرة العربيّة
نهر الفرات
بلاد ما بين النهرين
الإمبراطوريّة البارثيّة
قيرين
(قيروان)
أفريقيا
مصر
نهر النيل
البحر الأحمر
الإمبراطوريّة الرومانيّة
نحو ١١٧م
ميل
كم

الرحلة إلى جرمانيا (نحو عام ٧٢م)

الطريق البحريُّ من أفسس إلى روما

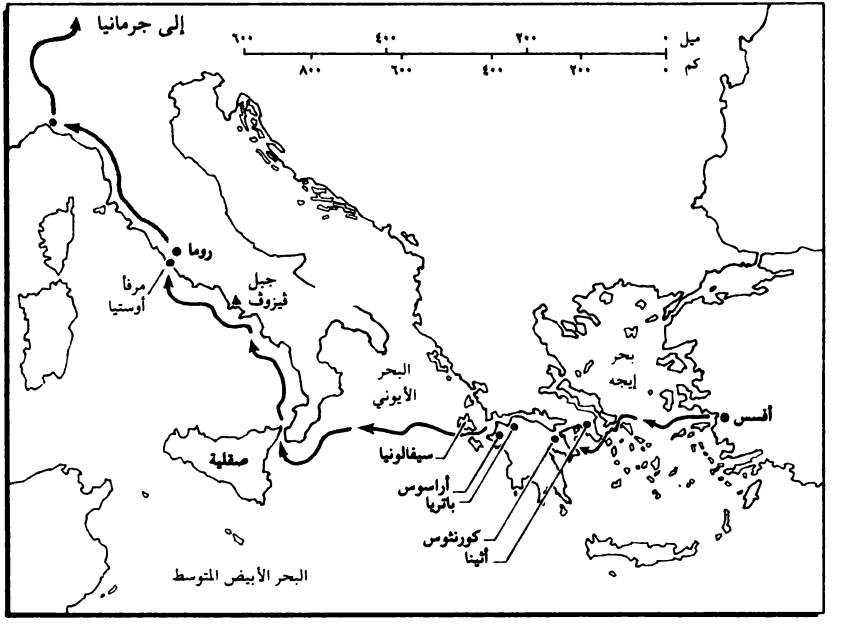

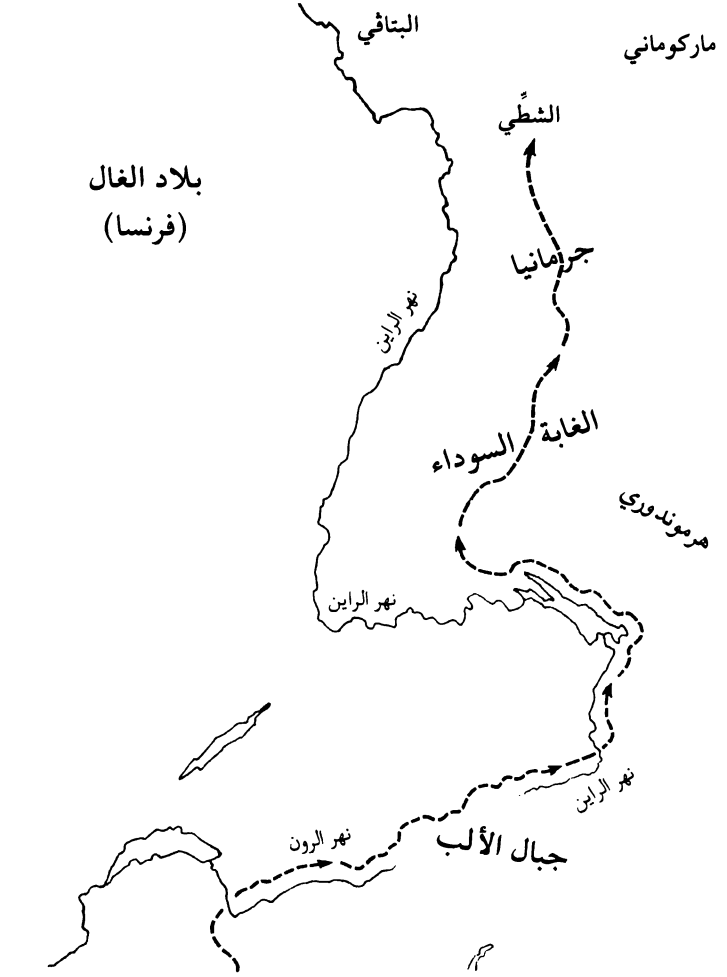

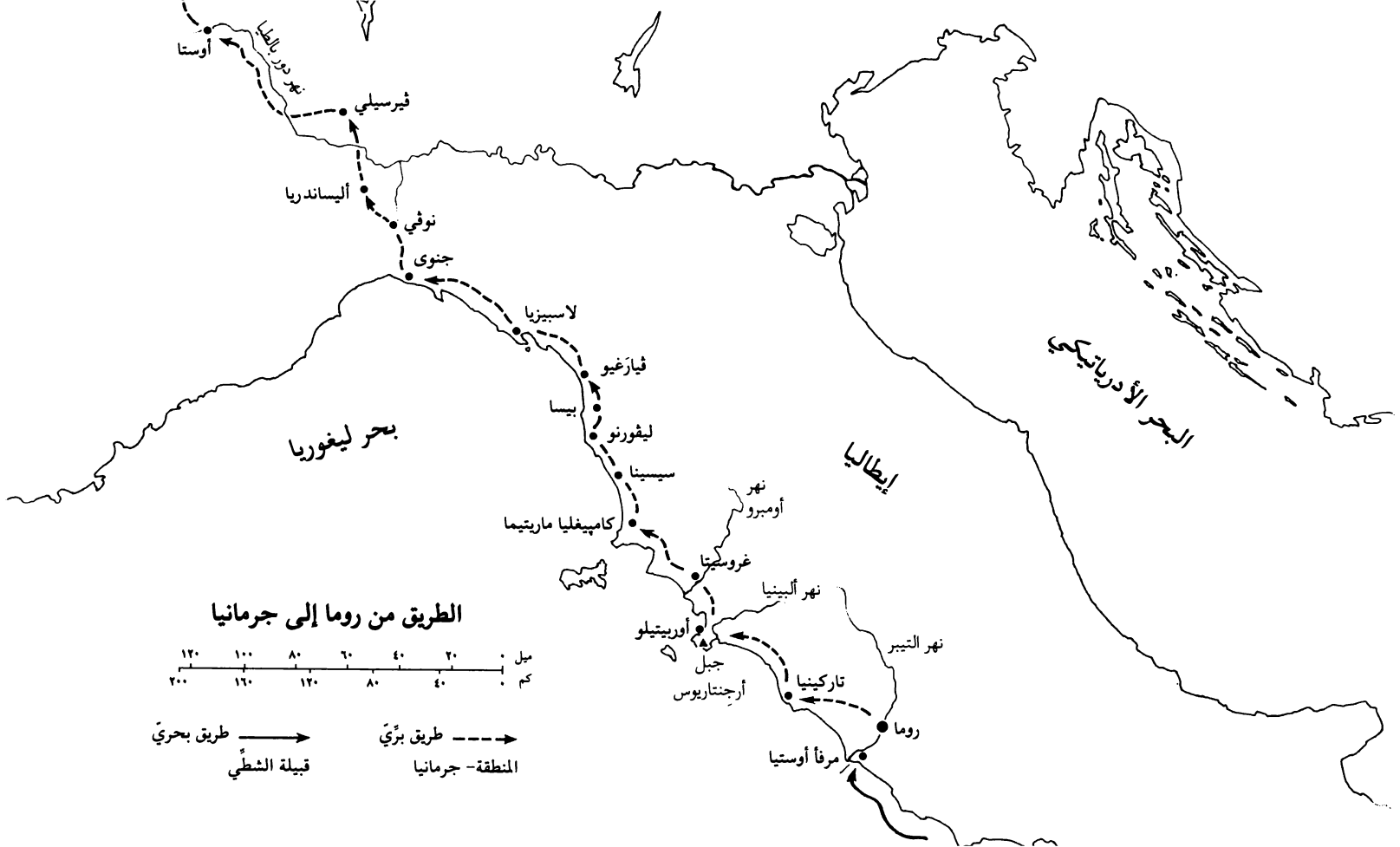
أوستا
نهر دور بالطيا
ڤيرسيلي
أليساندريا
نوڤي
جنوى
لاسبيزيا
ڤيارَغيو
بيسا
ليڤورنو
سيسينا
كامپيغليا ماريتيما
نهر أومبرو
غروسيتا
نهر ألبينيا
أوريبيتيلو
جبل أرجِنتاريوس
تاركينيا
نهر التيبر
روما
مرفأ أوستيا
بحر ليغوريا
إيطاليا
البحر الأدرياتيكي
الطريق من روما إلى جرمانيا
ميل ٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ ١٢٠
كم ٠ ٤٠ ٨٠ ١٢٠ ١٦٠ ٢٠٠
طريق برّيّ
طريق بحريّ
المنطقة- جرمانيا
قبيلة الشطّي

''اسمعوا. هوذا الزارعُ قد خرجَ ليزرَع. وفيما هو يزرعُ سقطَ بعضٌ على الطريق فجاءتْ طيورُ السماء وأكلَتهْ. وسقطَ آخرُ على مكانٍ مُحجرٍ حيث لم تكنْ له تربةٌ كثيرة فنبتَ حالًا إذ لم يكن له عمقُ أرض. ولكنْ لما أشرقت الشمس احترقَ وإذ لم يكنْ له أصلٌ جفّ. وسقط آخر في الشوك فطلعَ الشوكُ وخنقَه فلم يُعطِ ثمرًا. وسقطَ آخرُ في الأرض الجيِّدة فأعطى ثمرًا يصعدُ وينمو فأتى واحدٌ بثلاثين وآخرُ بستِّين وآخرُ بمئة''.

مرقس ٤:٣-٨

''وأمَّا يسوع فأجاب...«الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إن لم تقع حبَّة الحنطة في الأرض وتُمت، فهي تبقى وحدها. ولكنْ إن ماتت تأتي بثمر كثير»''.

يوحنَّا ١٢:٢٣ و٢٤

تمهيـد

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

٧٩م

رفعَ حارِسُ الزَّنزانة السُّفلى مِزلاجَ الباب ومشى مُتقدِّمًا. وإذا بوَقْع حذاء الرُّومانيِّ ذي المسامير القصيرة الغليظة يُعيد أتريتِس بالذَّاكرة إلى كابوَا. وإذ تبعَ الحارِسَ، تصبَّبَ العرَقُ من جلده بسبب رائحة الحجارة الباردة والخوف البَشَريّ. وقد صرَّخَ أحدُهم من وراءِ بابٍ مُقفَل، وأنَّ آخرون يائسين. ومن ثَمَّ، فيما كانا ما يزالان يمشيان، سمعَ أتريتِس شيئًا مُنبعثًا من أقصى الدَّهاليز الرَّطبة...صوتًا عذبًا جدًّا بحيثُ اجتذبَه. ففي مكان ما وسَطَ الظَّلام، كانتِ امرأةٌ تُغنّي.

تباطأ الحارس، مُميلًا رأسَه قليلًا، وقال: "هل سمعتَ في حياتِكَ كلِّها صوتًا مثل ذلك؟" ثمَّ توقَّف الغِناء، وأسرع الحارس في مِشيَتِه، حتَّى توقَّف أمام بابٍ ثقيل، قائلًا: "ما برِحَت محبوسةً هُنا منذُ أشهُر، ولكنْ لا يبدو أنَّ ذلك يؤثِّر فيها. ليس كما يؤثِّر في الآخرين. أمرٌ يُرثى له أنَّها ستموت مع الباقين أجمعين غدًا". وما لبِثَ أن رفعَ المِزلاج.

وقف أتريتِس على العتبة، وأجال بصَرَه من وجه إلى وجه داخل الغُرفة القاتمة. كان مشعل وحيد يخفق مُعلَّقًا على الجِدار الجانبيّ، ولكنَّ أشكال القابعين في المؤخَّر كانت غارقة في العَتمة. وكان مُعظم السُّجَناء من النساء والأولاد، كما كان هنالك نحو خمسة رجال كبار السِّنِّ ذوي لِحًى. فلم يُفاجأ أتريتِس، إذ إنَّ الرِّجال الأصغر سنًّا يوفَّرون للقتال في ساحة المُحارِبين.

ثمَّ نادى صوتٌ أتريتِس بِاسمِه، ورأى امرأةً نحيلة في ثوبٍ رثٍّ تنهض من حشد الأسرى القَذِرين.

هَدسَّة.

وسأله الحارس: "أتِلكَ هي؟"

"نعم".

فقال: "المُغنِّية. أنتِ هُناك! تعالَي!"

راقبَها أتريتِس تشقُّ طريقها بحَذَر عبْرَ الغُرفة. وقد مدَّ الناس أيديَهم كي يلمسوها. وأمسك بعضُهم يدَها، فابتسمَت وهمسَت بكلمةِ تشجيع قبل أن تُجاوِزَهم. ولمَّا وصلَت إلى

مدخل الباب، رَنَت إلى أتريتِس بعينَين مُشرِقتين. "ماذا تفعل هُنا، أتريتِس؟"

وإذ لم يشأ أن يقولَ أيَّ شيء أمام الحارس الرُّومانيِّ، أمسكَها بذراعها وجذبها إلى الدِّهليز. فأغلق الحارس الباب، وأنزل المِزلاج. وعادَ ففتحَ بابًا آخر في الجِهَة الأُخرى من الدِّهليز، وأضاء المشعل، ثَمَّ مضى ليقف في آخِر الدِّهليز.

فيما لحِقَ أتريتِس بهَدسَّة إلى داخل الغُرفة التي فتحَها الحارس، أصغى إلى وَقْع الأحذية ذات المسامير على الأرضيَّة الحجريَّة، وأطبقَ قبضتَه بشِدَّة. كان قد أَقسمَ إنَّه لن يدخُلَ من جديد مكانًا كهذا، إلَّا أنَّه وجدَ نفسَه هُنا، وذلك بمحضِ اختيارِه.

التفتَت هَدسَّة إليه فرأت عذابه، وقالت برِقَّة: "لا بُدَّ أنَّك تكره هذا المكان. ماذا جاء بكَ إليَّ هَهُنا؟"

"لقد حلَمتُ حُلمًا، ولا أعرِف مَدلولَه".

فأحسَّت يأسَه، وصلَّت طالبةً أن يُعطيَها الله الأجوبة التي يحتاج إليها. ورُغمَ ضعفها من جرَّاء الاحتِجاز وعدم الأكل أيَّامًا، قالت: "اقعُد معي، وأخبِرني. لئن كنتُ لا أعرِف الأجوبة، فإنَّ الله يعرِفُها".

"رأيتُني ماشيًا وسطَ ظُلمة، ظُلمةٍ ثقيلة جدًّا بحيثُ أستطيع أن أشعُرَ بها ضاغِطةً على جسمي، وكلُّ ما يسَعُني أن أراه هو يداي. ظلَلتُ أمشي وقتًا طويلًا، غيرَ شاعرٍ بشيء، باحثًا عمَّا يبدو إلى الأبد، ثُمَّ رأيتُ نحَّاتًا. وأمامَهُ صنيعُه، تِمثالٌ لي. إنَّه واحد كتِلك التي يبيعونها في الدَّكاكين حول ساحة المُحارِبين، غيرَ أنَّ هذا حقيقيٌّ جدًّا بحيث يبدو أنَّه يتنفَّس. وإذا بالرَّجُل يتناولُ مِطرقةً، فأعلَمُ ماذا يهمُّ بأن يفعل. وأصرَخُ إليه ألَّا يفعل ذلك، إلَّا أنَّه يضرب التِّمثال ضربةً واحدة فيتحطَّمُ مليونَ شظيَّة".

وما لبِثَ أتريتِس أن نهضَ وهو يرتجف. "شعرتُ بألَم، ألَم لم أشعُر بمثله قطُّ من قبل، ولم أستطِع الحَراك. ثُمَّ رأيتُ حَواليَّ غابةَ مَوطِني، ورأيتُني غارقًا في المُستنقَع، فيما الجميع وُقوفٌ حوالَيَّ: أبي، أُمِّي، زوجتي، أصدقائي الذين ماتوا من عهدٍ بعيد. وصرَّختُ، غيرَ أنَّهم جميعًا اكتفَوا بالتحَّديق إليَّ وأنا أغرق إلى القعر. وقد أطبقَ المُستنقَعُ عليَّ كالظَّلام. إذ ذاكَ رأيتُ أمامي رجُلًا مادًّا إليَّ كِلتا يَديَه، والدَّمُ يسيلُ من كفَّيه".

شاهدَت هَدسَّة أتريتِس يتهالك مَوهونًا ويُسنِدُ ظهرَه إلى الجِدارِ الحجريِّ في الجانب الآخر من الزَّنزانة، فسألَته: "هل أمسكتَ بيدَه؟"

قال بكآبة: "لستُ أدري. لا أستطيعُ أن أتذكَّر".

"ثُمَّ استيقظتَ؟"

"لا!" وسحَبَ نفَسًا على مهل، مُجاهِدًا كي يُبقيَ صوتَهُ ثابتًا. "ليس بعد". ثمَّ أغمضَ عينَيه وابتلعَ رِيقه مُتَشنِّجًا. "سمِعتُ طفلًا يبكي، وهو مطروحٌ عاريًا على الصُّخور قُربَ البحر. ورأيتُ موجةً آتيةً من البحر، فعَلِمتُ أنَّها ستجرفُه بعيدًا. حاولتُ أن أصِلَ إليه، ولكنَّ الموجة طَمَت عليه. ثُمَّ استيقظتُ".

أغمضَت هَدسَّة عينَيها.

وأسندَ أتريتِس رأسَه على الجِدار. "إذًا، قولي لي: ماذا يعني هذا كلُّه؟"

فصلَّت هَدسَّة طالِبةً أن يُعطَيها الرَّبُّ حِكمة. وقد جلسَت وقتًا طويلًا مُطأطئةً رأسَها. ثمَّ رفعَت رأسها من جديد، وقالت: "لستُ عرَّافة، إنَّما الله وحدَه يستطيع أن يُفسِّر الأحلام. غير أنِّي أعلَمُ يقينًا أنَّ أُمورًا بعينها حَقٌّ، يا أتريتِس".

"أيُّ أُمور؟"

"الرَّجُلُ المادُّ يدَيه هو الرَّبُّ يسوع. لقد أخبرتُك كيف مات، مُسمَّرًا على صليب، وكيف قام حيًّا من جديد. وهو يمدُّ لك كِلتا يدَيه. فأمسِكهُما، وتشبَّثْ بهما. إنَّ خلاصك قريبٌ منك". ثمَّ تردَّدت. "أمَّا الطِّفل..."

توتَّرَ وجهُ أتريتِس بعاطفةٍ لم يكَد يتمكَّنُ من السَّيطرة عليها. "أنا أعرِف أمرَ الطِّفل. هو ابني. وقد فكَّرتُ في ما قُلتِه لي ليلةَ جئتِ إلى التِّلال، لمَّا قلتُ لكِ: ليَمُتِ الطِّفل، لستُ أُبالي!" وتوقَّفَ هُنَيهةً ثُمَّ أضافَ قائلًا: "لقد أرسلتُ خبَرًا بأنِّي أُريد الطِّفلَ عندما يُولد".

وإذ رأى أتريتِس نِظرةَ هَدسَّة المُضطرِبة، هبَّ واقفًا في الحال، وراح يذرَعُ الحُجرةَ قلِقًا. "أوَّلَ الأمر، كان ذلك لإيذاء جوليا، لانتزاعِ مَولودِها منها. ثمَّ أردتُه حقًّا. لقد قرَّرتُ أن أصطحِبَ الولَد وأرجِعَ إلى جرمانيا. وبعدَما انتظرتُ، جاءني خبَرٌ يُفيدُ أنَّ الطِّفلَ قد وُلِدَ مَيْتًا".

ثمَّ أطلقَ أتريتِس ضِحكةً مُفعَمةً بالمرارة. "ولكنَّها كذَبَت. فإنَّ الطِّفلَ لم يُولَد مَيْتًا، بل هيَ أمرَت بأن يُترَك على الصُّخور كي يموت". وخنقَت صوتَهُ الدُّموع، فمرَّرَ أصابعه في شَعرِه. "قلتُ لكِ إنَّه لو وضعَت جوليا الطِّفلَ عند قدمَيَّ، لأدرتُ ظهري ومضَيتُ مُبتعِدًا. وذلك تمامًا هو ما فعَلته هيَ، أليسَ كذلك؟ وضعَته على الصُّخور، ومضَت مُبتعِدةً. لقد كرِهتُها. لقد كرِهتُ نفسي. وأنتِ قُلتِ مرَّةً: ليَرحمْني الله. فليرحَمْني!"

فقامَت هَدسَّة وتقدَّمَت إليه. "ابنُكَ حيٌّ!"

فتصلَّبَ ونظرَ إليها من عَلُ.

ووضعَت يدَها على ذِراعه. "لم أعلَم أنَّك أرسلتَ خبَرًا بأنَّك تُريد الطِّفل، أتريتِس. ولو علِمتُ، لَجئتُ به إليك مُباشرةً. رجاءً، سامِحْني بما سبَّبتُ لكَ من ألم". ثُمَّ هَوَت يدُها مُرتخيةً إلى جنبها.

فأمسكَ بذراعها. "قُلتِ إنَّهُ حيٌّ؟ أين هو؟"

وصلَّت هَدسَّة طالبةً أن يجعل الله ما فعلَته صَوابًا. "أخذتُ طِفلَك إلى الرَّسول يوحنَّا، فوضعَه على ذِراعَي رِصفة، وهي امرأةٌ فتيَّةٌ كانت قد فقدَتِ ابنتها. وقد أحبَّته لحظةَ ألقَت نظرَها على وجهه".

فارتخَت يدُه، وهَوَت مُبتعِدةً عنها. وقال مُتعجِّبًا: "ابني حيٌّ!" وقدِ انزاحَ عنه حِملُ الألَم والذَّنْب. ثمَّ أغمضَ عينَيه مُنفرِجَ الأسارير. "ابني حيٌّ!" وفيما ظهرُه إلى الحائط الحجريِّ، انزلَقَ عليه نُزولًا، وقد ضَعُفَت رُكبتاه من جرَّاء ما أخبرَته به، قائلًا بصوتٍ مخنوق: "ابني حيٌّ!"

قالَت هَدسَّة برِقَّة: "الله رَحوم!" ومسَّت شعرَه مسًّا خفيفًا.

ذكَّرَت التَّربيتَةُ الخفيفةُ أتريتِس بأُمِّه. فتناولَ يدَ هَدسَّة وأمسكَها على خدِّه. وإذ رفعَ نظرَه إليها، رأى من جديدٍ الرُّضوضَ التي وسمَت وجهَها اللَّطيف، ونُحولَ جِسمِها تحتَ التُّنكِ الوَسِخ المُمزَّق. لقد أنقذَتِ ابنَه. فكيفَ يمكن أن يمضيَ مُبتعِدًا عنها ويترُكَها تموت؟

ثُمَّ نهضَ مُفعَمًا بالعَزم، وقال: "سأذهب إلى سَرتِس".

"لا".

وردَّ بتصميم وطيد: "بلى". فمعَ أنَّه لم يُحارِبِ الأُسودَ قطُّ من قبل، وقد علِمَ أنَّ فُرصةَ نجاتِهِ ضئيلةٌ، وجَبَ عليه أن يُجرِّب. "كلِمةٌ واحدةٌ في الأُذن الصَّحيحة، فأكونَ في ساحة المُحارِبين نصيرًا لكِ".

"لَدَيَّ نصيرٌ أصلًا، أتريتِس. لقد انتهَتِ المعركة. وهو قدِ انتصرَ فعلا". وأمسكت يده بإحكام بين يدَيها. "ألا تَرَى؟ إذا عُدتَ إلى ساحة المُحاربين الآن، فستموتُ دونَ أن تكون قد عرَفتَ الربَّ تمامَ المعرِفة".

"ولكنْ ماذا سيجري لكِ؟" فغدًا ستُواجِه هَدسَّة الأُسود.

"إنَّ يدَ الله في هذا، أتريتِس. فلتكُن مشيئتُه".

"ستموتين".

قالت: "حتَّى لو قتَلَني، فسأبقى مُتوكِّلةً عليه". وابتسمَت لأتريتس. "مهما يحدُث، فذاكَ لقصده الصالح ولأجل مجده. لستُ خائفة".

وإذ حدَّقَ أتريتِس إليها، أحسَّ جُوعًا مُوجِعًا إلى إيمانٍ كإيمانها، إيمانٍ في وسعهِ أن يؤتيَهُ السَّلام. وتأمَّل وجهها بِضعَ لَحَظات، مُكافحًا المشاعر الجائشة في داخله. "سيكونُ كما تقولين".

"سيكون كما يشاء الله".

"لن أنساكِ أبدًا".

قالت: "ولا أنا". وبعدَما دلَّته على مكان إقامة الرَّسول يوحنَّا، وضعَت يدَها على ذِراعه ونظرَت إليه، وفي عينَيها سلام. "والآن، غادِرْ مكانَ الموتِ هذا، ولا تلتفِتْ إلى الوراء".

ثمَّ خرجَت إلى الدِّهليز المُظلِم ونادَتِ الحارس.

وقفَ أتريتِس حاملًا المشعل، فيما أقبلَ الحارس ورفعَ مِزلاجَ باب الزِّنزانة. ولمَّا فتحَه، دارت هَدسَّة ورفعَت نظرَها إلى أتريتِس، وأشرقَت عيناها حنانًا.

وقالت بابتسامة رقيقة: "ليُباركْكَ الربُّ ويحرُسْك، ليُضئ الربُّ بوجهه عليك، وليرحَمْك. ليرفَعِ الربُّ وجهَهُ عليك ويمنحْك سلامًا!" ثمَّ دارت ومضَت إلى داخل الزِّنزانة.

رحَّبَت بها هَمهماتُ أصواتٍ رقيقةٌ، ثُمَّ أُغلِقَ الباب بخَبطةِ حَسمٍ قويَّة.

البذار

"هوذا الزارع قد خرج ليزرع [بِذارَه]..."

I

طفَحَ كَيلُ أتريتِس بعدما أُنهِكَ جسميًّا ورُضَّت كبرياؤه. لقد نفِدَ صبرُه.

ما إن أخبرَته هَدسَّة أنَّ ابنَه حيٌّ وأنَّ الرَّسول يوحنَّا يعرِفُ أين يجِدُه، حتَّى بدأ يرسمُ خُطَطًا. ولأنَّ الرَّعاع كانوا مشغوفين به، لم يكُن يستطيع أن يدخل مدينة أفسُس ساعةَ يشاء، بل كان عليه أن ينتظرَ حتَّى يُرخيَ الليلُ سُدولَه. وهكذا فعل. لم يكُن العثور على بيت الرسول صعبًا جدًّا، فإنَّ هَدسَّة كانت قد زوَّدته بتوجيهات دقيقة. ولكنْ حتَّى في جوف اللَّيل، كان رجُل الله مُنهمِكًا في شؤون خدمته، إذ عزَّى ولدًا مريضًا ثُمَّ سمعَ اعترافَ شخصٍ يُحتضَر.

كان أتريتِس قد انتظر يوحنَّا، ثُمَّ قيلَ له بعد ساعاتٍ من الانتظار إنَّ الرَّسول بعَثَ خبَرًا بأنَّه سيمضي مُباشرةً إلى خدمةِ عبادةٍ عندَ الفجر على ضفَّة النَّهر. فلحِقَ به أتريتِس غاضبًا، ووصَلَ بُعَيدَ اجتماعِ حَشدٍ كبير للاستماع إلى يوحنَّا مُتكلِّمًا عن يسوع المسيح، إلهِهم القائم حيًّا من بين الأموات. رجُل من الجليل؟ إله؟ سدَّ أتريتِس أُذُنَيه حِيالَ الكلام المُجاهَر به، وانكفأ إلى مكانٍ هادئ تحتَ شجرةِ بُطم، مُصمِّمًا على الانتظار.

أمَّا الآن، فما كان لينتظِرَ بَعد! لقد بزَغَ الفجر ومضى، وما زال هؤلاء العابدون يُنشِدون التسابيح لمليكهم السماويِّ ويحكون قِصَص إنقاذهم الشخصيِّ من المرَض والغَمِّ والعادات، بل من الأرواح الشِّرِّيرة أيضًا! لقد سئمَ الاستماعَ إليهم. وكان بعضٌ منهم الآن، بكاملِ ثيابهم، يُغطِّسُون في النَّهر! هل جُنُّوا كلُّهم؟

نهض أتريتِس ومشى نزولًا إلى مؤخَّر الجُمهور، ووكَزَ رجُلًا. "كم تدوم هذه الاجتماعات؟"

رمقَهُ الرجُل نظرة خاطفة، قائلًا: "ما دام الرُّوح يُحرِّكنا". ثُمَّ عادَ يُرنِّم من جديد.

الرُّوح؟ ما معنى ذلك؟ كان أتريتِس مُتعوِّدًا انضِباطَ برامج التدريب ونُظُمِه، التعامُلَ مع الواقع الملموس؛ فلم يستطع فهمَ جواب الرَّجُل.

"أهذه أوَّلُ مرَّة فيها تسمع..."

قاطع أتريتِس الرجُل قائلًا: "وآخِرُ مرَّة!" مُتمنِّيًا أن يدعَه وشأنه.

فبادَلَه الرجُل النَّظر، وقد ارتسمَت على وجهه ابتِسامةٌ ثابتة، واتَّسعَت عيناه. "أنت أتريتِس!"

جرَت في أوصال أتريتِس دفقةُ أدرينالين صلَّبَت عضلاتِه. كان في وسعه أن يهرب أو يُقاتِل. فشدَّ حنَكَه، وثبَتَ في مكانه. ذلك أنَّ الخِيارَ الأوَّل كان ضدَّ طبيعته، وليلة الانتظار الطويلة جعلَته مُستعِدًّا للثاني.

مُغفَّل! لقد فضَحَ نفسَه. كان ينبغي له أن يلوذَ بالصَّمت وينتظر بِلا تطفُّل في ظلِّ شجَرة بدل أن يلفت الانتباه إليه. ولكنَّ الأوانَ قد فات الآن.

التمس أعذارًا عن غلطته. كيف أمكنه أن يحزر أنَّ الناس ما زالوا يتذكَّرونه؟ لقد مضت ثمانيةُ أشهُر على مُغادرته ساحةَ المُحارِبين، وخُيِّلَ إليه أنَّه بات مَنسيًّا الآن.

الظاهر أنَّ ذاكرة أهل أفسُس قويَّة.

التفت آخرون عندَ ذِكرِ اسمه. وشهقَتِ امرأةٌ ثمَّ دارت في الحال هامِسةً للقريبات منها. لقد انتشر خبر حضوره كريحٍ تجرف أوراقًا يابسة. ونظر الناس إلى الوراء ليرَوا سبَبَ الجلَبة فلمحوه، رأسُه فوقَ باقي الرؤوس وشعرُه الأشقر اللَّعين كنارٍ على جبَل تجذب انتِباهَهُم.

سبَّ في سِرِّه.

قال أحَدُهم: "إنَّه أتريتِس!" فانتَصبَ الشَّعرُ على قفا رقَبَتِه. وعلِمَ أنَّ من الحكمة أن يُغادِرَ بأسرعِ ما يمكن، إلَّا أنَّ العِنادَ وجُزءَ طبيعتهِ الأشرسَ توليًّا السَّيطرة. إنَّه لم يعُد عبدًا لروما، ولا مُصارِعًا يُقاتِلُ في ساحة المُحاربين. فينبغي أن تخُصَّه حياتُه من جديد! وماذا كان الفرق بينَ جُدران دارةٍ فخمة وجُدران اللُّودُس؟ كِلتاهُما حبَسَتاه!

لقد آنَ الأوان! هكذا فكَّر بغضبٍ خائب. سيتبيَّن ما ينبغي أن يعرِفَه ثُمَّ يرحل. وأيُّ رجُل يُحاوِل أن يوقِفَه سيكون لديه سبَبٌ وجيه كي يندم على ذلك.

دفَعَ جانبًا الرجُلَ الذي ما زال فاغِرًا فمَه انشِداهًا، وبدأ يشقُّ طريقه إلى الأمام وسطَ الحشد.

تردَّدَت عبْرَ بَحرِ الناس همَساتُ تأثُّرٍ بالغ.

وصاحَ أحدُهم: "أفسِحوا في المجال! إنَّه أتريتِس. إنَّه يتقدَّم إلى الأمام!" فتوقَّف الذين في الأمام عن ترنيم التسابيح ليلتفتوا ويُحدِّقوا.

"حمدًا للربِّ!"

انطبقَ فمُ أتريتِس بإحكام إذ حاوطَته هَمهماتُ التأثُّر الشديد. فحتَّى بعدَ عشرِ سنينَ من القِتال في ساحة المُحاربين، لم يكُنِ الجرمانيُّ قطُّ قد تعوَّد صخَبَ الحماسة الذي بثَّهُ حضورُه حتمًا في أيِّ تجمُّع.

كان سَرتِس، مُنسِّقُ الألعاب الأفسُسيَّة والرجُلُ الذي اشتراه من "لودُس روما الكبير"، قد وجد متعة بالغة في تفاعُل الرَّعاع مع مُصارِعه المُمتاز واستغلَّ أتريتِس في كلِّ فُرصة جانبًا الذَّهَب لنفسه. وقد تلقَّى الأفسُسيُّ رُشًى من أغنياء وأحضرَهُ إلى الولائم ليُدَلِّل ويُرفِّه. فكان المصارعون الآخرون يستمتعون بمثل تلك المُعاملة الملوكيَّةَ، ناهبينَ أيَّة مسرَّات تُقدَّم، مُتنعِّمين بساعاتهم الأخيرة قبل مَصرَعِهم في ساحة المُحاربين. أمَّا أتريتِس فأكلَ وشرِبَ قليلًا. لقد نوى أن يبقى حيًّا. وكان دائمًا قد وقف نائيًا، مُتجاهِلًا مُضيفيه، مُحدِّقًا إلى الضيوف بضراوة وازدراءٍ احتقاريٍّ شديدَين حتَّى باتوا يمشون حولَهُ في دائرة واسعة.

تذمَّرَ سَرتِس مرَّةً قائلًا: "أنت تتصرَّف مثلَ وحش في قفص!"

"مثلَما جعلَتني أنت والآخرون".

إنَّ ذِكرى تلك المرَّة وحدها أضرمَت غضبَه الآن وهو يشقُّ طريقه عَنوةً وسطَ الجُمهور بجانب النَّهر. كانت هَدسَّة قد قالت له أن يذهب إلى يوحنَّا الرَّسول. فهؤلاء الحمقى المُتثائبون المُغمِغمون ما كانوا ليُوقِفوه بعدُ عن القيام بذلك عينه.

ارتفعَت دَندنةُ الأصوات المُنفعِلة. ورغمَ طولِ المُحارِب الزائد، ظلَّ يُحِسُّ أنَّ الجُمهور يُضيِّق عليه. وإذ لمسَه بعضُهم وهو يشقُّ طريقه إلى الأمام، توتَّرَ غريزيًّا ودفعهم بعيدًا عنه. انتظرَ منهم أن يتشبَّثوا به أو يجذبوه مُنفعلين على غِرار المُعجَبين (أموراتَيي) الذين كثيرًا ما لحقوا به عبْرَ شوارع روما، ولكنَّ هؤلاء القوم، مُتأثِّرين جدًّا بحضوره، ما وضعوا أيديَهُم عليه إلَّا كي يحثُّوه على التقدُّم.

"حمدًا للربّ..."

"لقد كان مُصارِعًا مُحارِبًا..."

"...شاهدتُه يُقاتِلُ مرَّةً قبلَما صرتُ مسيحيًّا..."

أطبقَ الناسُ عليه من وراء، فبدأ قلبُه يقرع بقوَّة. وانسابَ عرَقٌ بارد على جبينه. لم يكُن يروقُه أن يكون أيُّ شخصٍ وراءه.

وقال أحَدُ الرِّجال: "أخلوا الطريق، دعوه يمرَّ!"

"يوحنَّا! يوحنَّا! أتريتِس يتقدَّم إلى الأمام!"

هل علِموا أصلًا لماذا جاء إلى هذا الاجتماع الذي احتشدَ فيه أتْباعُ الطريق؟ هل سبقَت هَدسَّة فأرسلَت خبرًا بطريقةٍ ما؟

"شخصٌ آخر! شخصٌ آخر يخصُّ الربَّ؟"

وبدأ أحَدُهم يُرنِّم من جديد، فأخذ ارتفاعُ الأصوات يتعاظم حولَه، باعثًا القُشَعريرة عبْرَ عموده الفقريِّ نزولًا. وانفتحَ ممرٌّ أمامه، فلم ينتظر ليتساءل عن السبب، بل اجتاز المسافة القصيرة الباقية إلى ضفَّة النهر بخُطًى عريضة.

كان بضعة رجال ونساء واقفين في الماء. وكان واحدٌ منهم يُغطِّس. وكان آخر، بعدما تغطَّس تمامًا، يُنفِّض عنه الماء في الهواء، باكيًا وضاحكًا في آنٍ معًا، فيما خوَّضَ آخرون ليُقبِّلوه قُبلةَ المحبَّةِ المُقدَّسةَ.

ساعدَ رجلٌ كبيرُ السِّنِّ، يرتدي تُنكًا منسوجًا ووشاحًا مُقلَّمًا، شخصًا آخر على النُّهوض من الماء، قائلًا وهو يفعل ذلك: "لقدِ اغتسلتَ وتطهَّرتَ بدَمِ الحمَل". ثمَّ بات الترنيم أعلى وأكثرَ ابتهاجًا. وخوَّضَ الرَّجُل بسُرعة نحو الأصدقاء، فعانقَه أَحَدُهم باكيًا، وأحاط به آخرون.

أراد أتريتِس بكلِّ جوارحه أن ينصرف من هذا المكان، ليكون بعيدًا جدًّا عن هذا الحشد الذي ضمَّ رجالًا ونساءً مُخبَّلين. فصاح بِلابِس الوشاح المُقلَّم: "أنتَ هُناك! أأنت يوحنَّا؟ ذاك الذي يدعونه «الرَّسول»؟"

"أنا هو".

خوَّضَ أتريتِس في النَّهر، مُتعجِّبًا من تفجُّرِ التأثُّرِ وراءه. كان سَرتِس قد قال مرَّةً إنَّ يوحنَّا الرَّسول شكَّل على الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة خطَرًا أعظم ممَّا شكَّلته جميعُ العِصيانات الحدوديَّة مُجتمِعةً، ولكنْ لمَّا قيَّم أتريتِس الرجُلَ الواقفَ أمامه لم يرَ أيَّ شيءٍ يخشاه. فبالحقيقة أنَّ يوحنَّا بدا مغمورًا على نحوٍ استِثنائيٍّ.

غير أنَّ أتريتِس كان قد تعلَّم ألَّا يفترِضَ أنَّ الأُمور هي ما تبدو عليه. وقد علَّمه الاختبارُ المرَّ ألَّا يبخس قدْرَ أيِّ رجُل. فرُبَّ جَبانٍ يكونُ له أحيانًا دهاءٌ يفوق ما لشخصٍ شُجاع، حتَّى إنَّ شخصًا يبدو بِلا دِفاع قد يُحدِث جراحًا أعمقَ من أن تشفى. ألم تنتزع جوليا قلبَه منه بخداعها وأكاذيبها؟

كان في يد هذا الرَّجُل سِلاحٌ واحد ضدَّ أتريتِس، سلاحٌ نوى أتريتِس أن يُجرِّده منه.

فغرز قدمَيه بثبات، وأبدى وجهًا ولهجةً في صلابة الصَّخر.

"لدَيكَ ابني. أتت به هَدسَّة إليك قبلَ نحوِ أربعة أشهُر. أُريد استِرجاعَه".

فقال يوحنَّا، وقد لانَت قَسَماتُ وجهه: "هَدسَّة! كنتُ قلِقًا علَيها. لم نرَ أُختَنا الصغيرة منذُ بضعة أشهُر".

"ولن ترَوها. إنَّها بين المحكومين في الزَّنزانات تحتَ ساحة المُحارِبين".

أطلَقَ يوحنَّا نفَسَه كما لو كان قد أخذ شهقةً، ثُمَّ تمتمَ همسًا برِقَّة.

وقال أتريتِس. "قالَت إنَّكَ أعطيتَ ابني لأرملة اسمُها رِصفة. فأينَ أجِدُهما؟"

"رِصفة مُقيمة في المدينة".

"أينَ تمامًا؟"

تقدَّم يوحنَّا ووضع يدَه على ذراع أتريتِس. "تعال. سنتحدَّث".

فدفعَ أتريتِس يدَ الرَّجُل بعيدًا: "قُل لي فقط أين أجِدُ المرأة التي لدَيها ابني".

وواجهَه يوحنَّا مُجدَّدًا. "لَمَّا أحضرَت هَدسَّة الطِّفلَ إليَّ، قالت إنَّها أُمِرَت بوضعه على الصُّخور ليموت".

"أنا لم أُصدِر أيَّ أمرٍ كهذا".

"قالت لي إنَّ والِدَ الطِّفل لم يُرِده".

فتدفَّقَت الحرارة إلى وجه أتريتِس، وتصلَّبَ فمُه. "الطِّفلُ لي. ذلك كلُّ ما ينبغي لك أن تعرِفَه".

وعبَّسَ يوحنَّا. "ألِأنَّ هَدسَّة أحضرَت الطِّفلَ إليَّ تقِفُ الآن محكومًا عليها؟"

"لا". كان عدم طاعة هَدسَّة في عدم وضع الطِّفل على الصُّخور كافيًا لإدانتها، ولكنْ لم يكُن من أجل ذلك السبب أنَّ جوليا بعثَت بها إلى الموت. وقد كان أتريتِس مُتيقِّنًا بذلك. فعلى حدِّ عِلمه، لم تكُن جوليا قطُّ على عِلم بأنَّ طفلها ما زال حيًّا. ولكنْ كان في وسع جوليا أن تستصدِرَ الحُكمَ على هَدسَّة لقاء أيَّة نزوةٍ خطرَت في تَصوُّرِها. ولم يعلَم أتريتِس سوى حقيقةٍ واحدة بشأن ما جرى لهَدسَّة.

"قال لي أحَدُ الخُدَّام إنَّ هَدسَّة أُمِرَت بأن تُوقِدَ البَخور إكرامًا للإمبراطور. فرفضَت واعترفَت بمسيحكم أنَّه الإله الحقيقيُّ الوحيد".

فتلألأتْ عينا يوحنَّا. "الحمدُ لله!"

"كانت مجنونة".

"مجنونة لأجل المسيح".

وقال أتريتِس غيرَ مُصدِّق: "أأنت مسرور؟ ستموت هَدسَّة من أجل تلك الكَلِمات القليلة".

"لا، أتريتِس. كلُّ مَن يؤمن بالرَّبِّ يسوع فلن يَهلِك، بل تكونُ له الحياةُ الأبديَّة".

فنفِدَ صَبرُ أتريتِس. "ما جئتُ للنِّقاش في آلِهَتِكم أو إيمانكم بالحياة بعد الموت. لقد جئتُ لأجل ابني. إذا كنتَ تطلُب بُرهانًا على كوني والِدَهُ، فهل تُرضيكَ كلِمَةُ أُمِّه الزانية؟ سأجرُّ جوليا ڤاليريان إلى هُنا وأجعلُها تجثو على رُكبتَيها أمامك كي تُدليَ باعترافها. أيكونُ ذلك كافيًا؟ عندئذٍ يمكنِك أن تُغرِقها، إذا أردتَ، لكونها البَغِيَّ التي تكونُها. حتَّى إنِّي قد أُساعِدُك".

قابل يوحنَّا غضَبَ الهَمَجيِّ باللُّطف. "لستُ أشكُّ في كونك الوالد. كنتُ أُفكِّر في حاجات الولَد، أتريتِس. ليس هذا وضعًا لا عواقِبَ وخيمةً له. ماذا سيحلُّ برِصفة؟"

"أيُّ حاجاتٍ للطِّفل سوى أن يُطعَم ويُدفأ؟ أمَّا المرأة، أعطِها طفلًا آخر، طِفلَ شخصٍ آخر. لا حقَّ لها في طفلي".

"لقد تدخَّل الرَّبُّ لمصلحة ابنك. فلَولا..."

"هَدسَّة تدخَّلَت".

"لم يكُن من قبيل الصِّدفة أنَّها أحضرَتِ الولدَ إليَّ لحظةَ أحضرَته".

"هَدسَّة نفسُها قالت إنَّها لو علِمَت أنِّي أردتُ الطِّفلَ لأحضرَتهُ إليَّ!"

"لماذا لم تعلم؟"

أطبقَ أتريتِس أسنانه. لولا الجُمهورُ مُراقبًا، لاستعملَ القُوَّة للحصول على المعلومات التي أرادها. "أين هو؟"

"في مأمن. حسَبَت هَدسَّة أنَّ السبيل الوحيد لإنقاذ ابنك كان بإعطائي إيَّاه".

ضاقت عينا أتريتِس ببرودة. وانتفضَت عضَلةٌ في حَنَكه إذ تدفَّقَت الحرارة إلى وجهه. لقد حاوَلَ إخفاءَ خِزيهِ وراء جِدارٍ من الغضَب، ولكنَّه علِمَ أنَّه أخفق في ذلك. كان شخصٌ واحد فقط قد نظر إليه مرَّةً كما لو كان يرى ما تحتَ جِلدِه، داخِلَ قلبِه وعقله تمامًا، ألا وهو هَدسَّة. أعني حتَّى الآن. فإنَّ هذا الرَّجُلَ الآنَ فعَلَ ذلك عينَه.

غمرَت الذِّكرَياتُ ذِهنَ أتريتِس. لَمَّا جاءت إليه الفتاةُ العَبدةُ وقالت له إنَّ الطِّفل الذي حمَلته جوليا كان له، قال إنَّه لا يُبالي. فأيُّ إثباتٍ كان لديه أنَّ الولَدَ كان ولَدَه أصلًا؟ رُغمَ توكيدات هَدسَّة، كان أتريتِس ما يزالُ يُعاني توًّا جرَّاء خيانة جوليا له مع رجُل آخر، وكان أكثرَ غضبًا من أن يُفكِّرَ بجلاءٍ. لقد سبق أن قال لهَدسَّة إنَّه لو وضعَت جوليا ڤاليريان الطِّفلَ عند قدَمَيه، لمشى مُبتعِدًا وما نظرَ إلى الوراء قطُّ. وما كان لِيَنسى قطعًا الأسى الذي أتت به كلِماتُه إلى وجهِ الفتاةِ العَبدة...ولا النَّدَمَ الذي غمرَهُ لدى مُغادرتها. غير أنَّه كان أتريتِس! فقد أبى أن يدعُوَها لِتَرجِع.

كيف أمكنه أن يتوقَّع من أيَّة امرأة أن تكون مُتبلِّدةَ الحِسِّ إلى هذا الحدِّ تُجاهَ وليدها على غِرار ما كانت جوليا؟ ما مِن امرأةٍ جِرمانيَّة تُفكِّر في إصدارِ أمرٍ بالتخلِّي عن طفلها فوق الصُّخور كي يموت. ولا جِرمانيَّة. إنَّما امرأةٌ رومانيَّة مُتمدِّنة فقط تقوم بعمل كهذا.

لولا تدخُّلُ هَدسَّة، لكان ابنُه مَيْتًا.

ومرَّةً أُخرى ركَّزَ أتريتِس على الحاضر، على الرجُل الواقف بصَبرٍ بالغ أمامه. "الولَد لي. مهما سبق أن قلتُه أو لم أقُله ليس مُهِمًّا بَعد. لقد بعثَت هَدسَّة بي إلى هُنا، وسآخُذُ ابني".

هزَّ يوحنَّا رأسَه إيجابًا. "سأستدعي رِصفة وأتكلَّم إليها. قُل لي أينَ تُقيم أنت، وسأُحضِرُ ابنَك إليك".

"قُل لي أين هي، فأذهبَ لإحضاره بنفسي".

فعبَّس يوحنَّا. "أتريتِس، سيكون هذا صعبًا جدًّا. رِصفة تحبُّ الولَد كما لو كان ابنَها. لن يكونَ سهلًا عليها أن تتخلَّى عنه".

"هذا سبَبٌ أوجَهُ لذهابي أنا. لا يكادُ أن يكونَ من الحكمةِ السَّماحُ لكَ بإعلام هذه المرأة بنيَّاتي مُسبَّقًا لِيُتاحَ لها أن تُغادِرَ المدينة".

"لا أنا ولا رِصفة سنَمنعُ ابنَكَ عنكَ".

فرمَقَ أتريتِس جُمهورَ العابدين بنظرةٍ نامَّة، وقال: "ليس لي إلَّا كلِمَتُك بشأن ذلك، ومَن أنت لي سِوى غريب؟ بل غريبٌ مخبولٌ أيضًا! ليس لديَّ سببٌ للوثوق بك". ثمَّ ضَحِكَ ضِحكةً ساخرة. "ولا أدنى سبَب بَعدُ للوثوق بأيَّة امرأة".

"لقد وثِقتَ بهَدسَّة".

فتغيَّر لونُ وجهُه.

وتأمَّلَهُ يوحنَّا هُنَيهةً، ثُمَّ دلَّه أينَ يجِدُ رِصفة. "صلاتي أن يتأثَّرَ قلبُك بالحنان والرَّحمة اللذين أبداهما لك الله بإنقاذه حياةَ ابنِك. إنَّ رصفة امرأةٌ ذاتُ إيمانٍ مُجرَّب".

"ما معنى هذا؟"

"لقد احتملَت مآسيَ كثيرة في صِباها".

"هذه المأساة ليست من صُنعي".

"لا، ولكنّي أطلُبُ إليك ألَّا تُلقيَ عليها أيَّ لومٍ على ما جرى".

"كان العَيب لدى والدته. لا أُلقي أيَّ لومٍ على هَدسَّة أو عليك أو على هذه الأرملة". وقد لانَ أتريتِس الآن بعد حصوله على المعلومات التي جاء لأجلها. ثُمَّ أضاف بابتسامةٍ ساخرة: "فضلًا عن ذلك، لا يُساوِرُني أيُّ شكٍّ بأنَّ أرملتك هذه ستشعر شعورًا أحسنَ بكثير عندما تُكافأ بسخاءٍ على عنائها". وتجاهَلَ إجفال يوحنَّا إزاءَ كلِماته. وإذ أشاحَ وجهَه، رأى الجُمهورَ لائذينَ بالصَّمت. "ماذا ينتظرون؟"

"ظنُّوا أنَّكَ جئتَ لكي تُعمِّد".

وبضحكةٍ ساخرة، مضى أتريتِس صاعدًا بخُطًى عريضة، غيرَ باذِلٍ التِفاتةً أُخرى إلى أُولئك المُجتمِعين عند النَّهر.

رجَعَ أتريتِس إلى دارته على الطريق الخارجيّ، وانتظرَ من جديد. سيكونُ أسلَمَ أن يدخُلَ المدينة بعد هبوط الظَّلام، وكان هنالك أُمورٌ أخرى أهملَ، في عجلته، أن يُعنَى بها.

"لاغُس!" وتردَّدت أصداءُ صوته المُدَوّي فوق الدَّرَج الرُّخاميّ. "لاغُس!"

فركَضَ رجُلٌ عبْرَ الرِّواق الأعلى. "سيِّدي!"

"اذهَب إلى سوق العبيد واشترِ لي مُرضِعةً".

وأسرع لاغُس نازلًا الدَّرج. "مُرضِعةً...سيِّدي؟"

"تيقَّنْ بأنَّها جِرمانيَّة". ومشى عبْرَ الفِناء نحو الحمَّامات.

تبِعَهُ لاغُس مُتضايقًا. لقد كان له بِضعةُ أسياد على التَّوالي، وما يزال هذا السيِّدُ أكثرَهُم تقلُّبًا حتَّى الآن. كان لاغُس قد تشرَّفَ جدًّا بأن يُحسَب في عِداد العبيد الذين يخصُّون أتريتِس، المُصارِعَ الأوَّل في أنحاء الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة كلِّها، ولكنَّه لم يتوقَّعْ قطُّ أن يغدوَ الرَّجُل على عتَبة الجُنون. ففي أثناء الأُسبوع الأوَّل الذي أمضاه في هذه الدَّارة، حطَّمَ أتريتِس

الأثاثَ كلَّه، وأضرم النار في غُرفة نومه، ثمَّ توارى عن الأنظار. وبعدَ شهر، خرَجَ للبحث عنه سيلُس وأيِّلس، المُصارِعان اللذان كان أتريتِس قد اشتراهُما من سَرتِس كحارِسَين.

ولدى عودتهما، أفاد سيلُس قائلًا: "إنَّه مُقيمٌ في كهوف الجَبَل".

"علَيكُما أن تُرجِعاه إلى هُنا!"

"ونتعرَّض لخطَرِ القتل؟ انسَ الموضوع! اذهب أنتَ، يا عجوزُ. أمَّا أنا فلا. إنَّ لحياتي قيمةً عندي".

"سيموتُ جوعًا".

فأعلَمَهُ أيِّلس: "إنَّه يأكل لحوم الحيوانات التي يصطادها بفراميا من تلك الرِّماح الفتَّاكة التي يستعملها الجِرمانيُّون. لقد عاد إلى طبعهِ الوحشيِّ".

وقالت ساتُرنينا: "ألا ينبغي أن نفعل شيئًا ما؟" وكان واضحًا أنَّ الفتاة العَبدة كانت مُتضايقة جدًّا من ارتداد سيِّدها إلى هَمَجيٍّ مُتوحِّش يعيش كحيوانٍ بَرِّيٍّ.

قال سيلُس قارصًا خدَّها: "ماذا تقترحين أن نفعل، حبيبتي؟ أن نُرسِلَكِ إلى داخل كهفه لتحسين مِزاجه؟ سيكونُ لكِ حظٌّ أفضَلُ معي". فصفعَت يدَه مُبعِدةً إيَّاها وضحِكَت. "أنت تعلم أنَّك سعيدٌ في سرِّك لأنَّ السيِّدة جوليا رفضَت سيِّدَك بازدراء. فإن عادَ إلى رُشده يومًا ورجَعَ إلى هُنا، فستكونُ مُنتظِرًا في مدخل الباب".

وبينما سيلُس وأيِّلس يتكاسلان، شارِبَين ومُتحدِّثين بشأن المعارك القديمة في ساحة المُحارِبين، تولَّى لاغُس تدبيرَ شؤون المنزل. فحُفِظَ كلُّ شيء مُرتَّبًا ومُعَدًّا، عسَى أن يعودَ السيِّدُ إلى رُشدِه ويرجِع إلى دارته.

وهو قد فعل ذلك، دونَ سابقِ إنذار. فبعدَ غيابٍ دام خمسة أشهُر، دخلَ الدَّارةَ ذاتَ يوم فجأةً بخُطًى حثيثة، وطرَحَ عنه الفِراء التي كان يرتديها، ثُمَّ استحمَّ وحلَقَ وارتدى تُنكًا. وما لَبِثَ أن بعثَ أحَدَ الخُدَّام لإحضار سَرتِس. فلمَّا جاء مُنسِّقُ الألعاب، اختلَيا معًا وقتًا قصيرًا. وفي عصر اليوم التالي، جاء مُرسَلٌ يُخبِر أتريتِس بأنَّ المرأة التي يُفتِّش عنها كانت في الزَّنزانة. فحالَما هبطَ الظَّلام، غادرَ أتريتِس الدَّارة.

والآن، ها قد رجَعَ طالِبًا إحضارَ مُرضِعة. مُرضِعة جِرمانيَّة، كما لو كانت المُرضِعات يطلعن كعناقيد العِنَب على دوالي كرمة! لم يكُن في البيت أيُّ طِفل، ولم يُرِد لاغُس مُجرَّدَ التفكير في أسباب سيِّده للطَّلَب الذي طلَبَه. لقد كان في ذهنه هَمٌّ واحد أسمى، ألا وهو البقاء سالمًا.

فصلَّبَ عزيمته، واستجمعَ شجاعته، وفتحَ فمَهُ لتنبيه سيِّده إلى حقائق مُعيَّنة لا مفرَّ منا. ”ربَّما لا يكون ذلك ممكنًا، سيِّدي“.

”ادفَع أيَّ سِعرٍ يُطلَب. لا يهمُّني كم يكون غاليًا“. ورمى أتريتِس حِزامَه جانبًا.

”ليست المسألة دائمًا مسألةَ سِعر، سيِّدي، فالجِرمانيَّات مطلوباتٌ جدًّا، لا سيَّما إذا كُنَّ شقراوات، والعَرضُ شحيح...“ وأحسَّ الدَّمَ ينزحُ من وجهه حيال النظرة الساخرة التي رمقَهُ أتريتِس بها. إذا كان أيُّ شخص يعرف هذه الحقائق، فلا بدَّ أن يعرفها هو. وقد تساءل لاغُس هل علِمَ أتريتِس أصلًا أنَّ تِمثالًا جديدًا لمارس قد نُصِب، وأنَّ مُشابهَتَه للمُحارِب الواقف ناظِرًا إليه بنفادِ صَبرٍ شديد كانت لافتةً جدًّا. وكانت تماثيلُ صغيرة لأتريتِس ما تزال تُباع خارج ساحة المُحاربين. ومنذ بضعة أيَّام، شاهدَ لاغُس في السُّوق دكاكينَ صانِعي أصنام تبيع تماثيل لأبولو بدَت شبيهةً بأتريتِس، وإن كانت قد مُنِحَت أكثرَ قليلًا ممَّا حَبَته الطبيعةُ لأيِّ إنسان.

”آسِفٌ، سيِّدي، ولكنْ ربَّما لا تكون مُرضِعةٌ جِرمانيَّةٌ في مُتناوَل اليد“.

”أنت يونانيٌّ. واليونانيُّون واسِعو الحيلة. جِدْ واحدة! ليس من الضَّروريِّ أن تكون شقراء، إنَّما تيقَّنْ بأنَّها جيِّدةُ الصِّحَّة“. وتجرَّدَ من تُنكِه، كاشِفًا الجِسمَ الذي تعبَّدَ له كثيرٌ من المُعجَبين (أموراتَيي). ”ولتكُن هُنا صباحَ غَدٍ“. ثُمَّ مشى إلى حافة البِركة.

فقال لاغُس مُتجهِّمًا: ”نعم، سيِّدي!“ مُقرِّرًا أن أفضلَ شيءٍ كان أن يتصرَّف بسُرعة ولا يُبدِّدَ وقتًا في مُحاوَلةِ مُجادَلةِ هَمَجيٍّ مخبول. وإذا أخفق، فلا شكَّ أنَّ أتريتِس سيأكل كبِدَهُ كالغُرابِ الأسود الذي استمتعَ استمتاعًا بالغًا كلَّ حين بنهش لحم الإله بروميثيوس.

غطس أتريتِس في البِركة، فأراح الماء البارد ذِهنَهُ المحموم. ثُمَّ صعد ونفَّضَ الماء عن شعره. سيرجِعُ إلى المدينة الليلة، وحدَه. فإذا اصطحبَ سيلُس وأيِّلِس، يجذبان الانتباه. أضِف أنَّه حتَّى حارسان مُدرَّبان لم يكونا أهلًا لمواجهة حشدٍ من الرَّعاع. فيكونُ أفضلَ بكثيرٍ أن يدخل المدينة وحدَه. سيرتدي ثيابَ رجُل من العامَّة ويُبقي شعرَه مُغطًّى. وإذ يتنكَّر هكذا، لا ينبغي أن يلقى أيَّةَ صعوبة.

لمَّا فرغَ من الاستحمام، طافَ في أنحاء المنزِل. وإذ كان قلِقًا ومُتوتِّرًا، هامَ من غُرفة إلى أُخرى حتَّى وصل إلى الكُبرى في الطَّبقة الثانية. لم يكُن قد وضعَ قدَمًا في هذه الحُجرة منذُ أن أضرمَ فيها النار قبلَ خمسة أشهُر. فأجالَ بصَرَه في أنحائها، ورأى أنَّ الخَدَمَ قد تَولَّوا إزالةَ الأثاثِ المُفخَّم، وستائرِ الجُدران، والزَّهريَّاتِ الكورنثيَّة المُحطَّمة. ومع أنَّهم فرَكوا الرُّخام دون

شكّ، فقد بقِيَت بَعدُ أدِلَّةٌ مادِّيَّةٌ على سُخطهِ والخرابِ الذي تعمَّدَ إحداثَه. كان قد اشترى هذه الدَّارة لأجل جوليا، ناويًا أن يأتيَ بها إلى هُنا زوجةً له. وكان يعلَم جيِّدًا كيف لقِيَت جوليا متعةً بالغة في التنعُّم، وقد تذكَّرَ كم كان فخورًا لمَّا أثَّثَها بأغلى الأشياء. فكان من شأنهما أن يتشاركا في هذه الغُرفة.

غير أنَّها بالأحرى تزوَّجَت رجُلًا آخر.

كان في وسعه بعدُ أن يسمعها تَجهَرُ الصَّوتَ بأكاذيبها وأعذارها التافهة لمَّا جاء يطلبُها بعدَ أشهُر قليلة من إحرازِهِ لحُرِّيَّته. فقد قالت إنَّ زوجَها كان مِثليًّا ولدَيه مأبونٌ (كتامَيت)، ولم يكُن مَعنيًّا بها. وقالت إنَّها تزوَّجَته لحماية استقلالها الماليِّ، أي حرِّيَّتها.

يا لها من ساحرة كاذبة!

كان ينبغي له أن يعرِفَ ما كانَتهُ من البداية. ألَم يسبق أن ذهبَت إلى الأرطميسيون، بقَلبِ خداعٍ خالص، مُرتديةً زِيَّ واحدةٍ من بغايا المعبد لكي تأسِرَ انتباهَه؟ ألم يسبق أن رَشَت سَرتِس لكي تستدعيَه من اللُّودُس في أيِّ وقتٍ أرادت؟ وما دام ذلك لا يتدخَّل في برنامجِ تدريبِ سَرتِس له، فقد مُنحَ ذلك الوقت. إلَّا أنَّه، مِثلَ غبيٍّ، مضى إليها بمُجرَّدِ إيماءةٍ من إصبَعِها المُرصَّعة بالجواهر. فإذ سلَبَ جمالُها عقلَه، وتاق إلى هواها الداعر، مضى إليها...وهيَ ذبَحَته.

يا له من غبيٍّ!

لمَّا ضمَّ جوليا ڤاليريان بين ذراعَيه، ألقى الكبرياء في مهبِّ الرِّيح واحترِامَ الذَّات في التُّراب. لقد طوَّقَ الخِزيَ. وطوالَ أشهُرِ علاقتهما السرِّيَّة، كان يعودُ إلى حُجرته في اللُّودُس مُحبَطًا قلِقًا، غيرَ راغبٍ في مُواجهة الحقيقة. لقد عرَفَها على حقيقتها، حتَّى في ذلك الحين. ومع ذلك سمَحَ لها بأن تستخدِمَه، كما استخدمَه كلُّ شخصٍ آخر مُنذُ أن وقع في الأسر، وسُلِخَ عن حبيبته الجرمانيَّة. لقد كانت ذِراعا جوليا الحريريَّتان الناعمتان أقوى حولَ جسمه من أيِّ قيدٍ طُوِّقَ به يومًا.

آخِرَ مرَّةٍ رآها، قالت صارِخةً إنَّها تحبُّه. الحبُّ! ما أقلَّ ما عرفَته عن الحُبِّ، وعن أتريتِس، حتَّى اعتقدَت فعلًا أنَّ زواجها من شخصٍ آخر ما كان ليُحدِثَ أيَّ فرق! وقد اعتقدَت أنَّه سيستمرُّ مسرورًا في المجيء إليها كُلَّما لاءمها المِزاج.

قَسَمًا بالآلِهة، لقد علِمَ أنَّ في وسعه أن يغتسِلَ على مدى سنين ولا يُزيلَ عنه وصْمتَها أبدًا! والآن، إذ نظر إلى الغُرفة القاحلة الخَرِبة أمامه، أقسَمَ إنَّه لن يكونَ لأيَّةِ امرأةٍ ذلك النَّوعُ من السَّيطرة عليه مرَّةً أُخرى!

لمَّا غابت الشَّمس، ارتدى أتريتِس عباءةً صوفيَّة، وشكَّ خَنجرًا في حزامه، ثُمَّ انطلقَ إلى أفَسُس. توجَّهَ نحو الشمال الغربيِّ بمُحاذاة التِّلال، سالكًا سبيلًا يعرفه جيِّدًا قبل السَّير على الطريق المعهود. كانت بيوتٌ صغيرةٌ منتَشرةً في أنحاء الرِّيف، ولكنَّها باتت أكثر عددًا وأقربَ بعضُها إلى بعض لمَّا اقتربَ من المدينة. وسارت عرَباتٌ مُحمَّلةٌ بَضائعَ على الطريق العامِّ نحو أبواب المدينة. فمشى مُتخفِّيًا في الظِّلال القاتمة بجانب إحداها، مُلتمِسًا ما يسترُه عن الحشد المُتعاظِم.

ولاحظَهُ سائق العرَبة. "أنتَ هُناك! ابتَعِد عن العرَبة!"

فأومأ أتريتِس بيده إيماءَةً فظَّة.

وصاح السائق، ناهضًا عن المقعد: "أتُريدُ قِتالًا؟!" فضحك أتريتِس ساخرًا، إلَّا أنَّه لم ينبِس بكلمة. لا بُدَّ أن تُلاحَظ لهجتُه، إذ لم يكُن الجِرمانيُّون كثيرين في هذا الجُزء من الإمبراطوريَّة. فغادرَ الظُّلمة ومشى بخُطًى سريعة بمُحاذاة المشاعِل والخُفَراء الرومانيِّين.

ونظرَ إليه أحَدُ الجنود، فتلاقت أعينُهُما هُنَيهةً وجيزة جدًّا. ولمَحَ أتريتِس يقظةَ اهتمام في عينَي الرُّومانيِّ فطأطأ رأسَه حتَّى لا يُرى وجهُه بوضوح. فكلَّم الحارِسُ أحَدَ رُفقائه، وتَغلغلَ أتريتِس وسطَ جماعةٍ من المُسافِرين، ثُمَّ فرَّ إلى أوَّلِ شارعٍ مُتاح. وانتظرَ في الظَّلام، إلَّا أنَّ الخفير لم يُرسِل أيَّ نفَر يتعقَّبُه.

استأنف أتريتِس سيره، شاكرًا على كون القَمَر بدرًا بحيثُ ينعكِس ضوؤه عن الحجارة البيضاء المرصوفة على الطريق المُبلَّط بألواح الصَّوَّان.

كان يوحنَّا قد شرحَ لأتريتِس أنَّ المرأة التي لديها ابنُهُ تسكن في الطَّبقة الثانية من إنسولا مُتهدِّم في حيِّ الفُقراء، إلى الجنوب الشَّرقيِّ من مُجمَّع المكتبات بقُرب الأرطميسيون. فعلِمَ أتريتِس أنَّه يستطيع العُثور على المبنى الصحيح إذا اخترقَ قلبَ المدينة.

لدى اقترابه من المعبد، ازدادت الحُشود. وإذ سلكَ متاهةً من الأزِقَّة في محاولة لتجنُّب الجُموع، تعثَّرَ برجُل نائمٍ بلِزقِ حائط. فأنَّ الرجُلُ وشتَم، وجذبَ عباءته فوق رأسه، والتفَّ على جنبه.

سمعَ أتريتِس أصواتًا وراءه، فسارَعَ في خَطوِه. وإذ دارَ حولَ زاوية، سفَحَ أحَدُهم من نافذة الطَّبَقة الثالثة سَمادًا بَشَريًّا إلى الشَّارع. فوَثَبَ مُتراجِعًا من الاشمئزاز وصاحَ على النافذة المفتوحة.

صمتَتِ الأصوات، ولكنَّه سمع حركة في ظلام الزُّقاق وراءه. فالتفَتَ مُضيِّقًا عينَيه.

وإذا بستَّة أشكال تتقدَّم نحوه مُتحرِّكةً خِلسةً. فاستدارَ تمامًا، على أتمِّ استِعداد. وإذ أدرك المُطارِدون المُتخَفُّون أنَّه رآهم، تحوَّلَت طريقةُ تصرُّفِهم إلى الجُرأة. فأصدر بعضٌ منهم أصواتًا ساخرة بقصدِ تخويفه. واتَّضحَ أنَّ واحدًا منهم كان القائد، إذ أومأ بيده فانتقل الخمسةُ إلى أوضاعٍ مُدبَّرة بحِرص مُصمَّمة لصدِّ الضَّحيَّة عن الهرَب.

رأى أتريتِس وميضَ شَفرةٍ، فابتسم ببرودة. "لن تجِدوني سهلَ المنال".

قال القائد: "صُرَّةَ مالِك!" ومن صوته، علِمَ أتريتِس أنَّه شابٌّ.

"اذهب إلى بيتك وسريرك، يا صبيُّ، عسى أن تبقى حيًّا هذه الليلةَ!"

فضحِكَ الفتى ضِحكةَ سُخريَة، وهو ما زال مُقبِلًا على أتريتِس.

وقال واحدٌ منهم بعَصَبيَّة بادية: "مهلًا، پالُس!"

ثُمَّ قال آخر في الظَّلام: "لا يُخالِجُني شعورٌ طيِّب. إنَّه أطوَلُ قامَةً منَّا بمقدارِ رأس..."

أطبِق فمَك، توماس! نحنُ ستَّة وهو واحدٌ فقط".

"لعلَّه لا يحمل مالا".

"إنَّه يحمل مالًا. لقد سمعتُ الدَّراهِم تُخَشخِش. دراهِم ثقيلة". واقتربَ پالُس أكثر، فحذا الآخرون حذوَه. "الصُّرَّة!" وفرقَعَ أصابِعَه. "ارمِها إليَّ".

"تعالَ وخُذها".

لم يتحرَّك أحد. ورشقَهُ پالُس بلَقَبٍ سفيه، وصوتُه الغَضُّ يهتزُّ بالكِبرياء المُسخَطة.

فقال أتريتِس- جارِحًا كبرياءَ مُهاجِمه مُجدَّدًا- "ما تصوَّرتُ أنَّكَ ستفعل ذلك!" واندفعَ الشابُّ الحامِل السِّكِّين نحوَه بقوَّة.

كانت قد مرَّت شُهورٌ منذُ قاتلَ أتريتِس أخيرًا، ولكنَّ ذلك لم يهمَّ. فإنَّ كامِلَ التَّدرُّب والغرائز المصقولة جيِّدًا رجَعَت في لحظةٍ واحدة. إذ تحرَّكَ أتريتِس بسُرعة، مُتجنِّبًا طعنة الخَنجَر. وإذ أمسكَ بمِعصَم الفتى، جذَبَ ذِراعه نزولًا وبرَمَها، خالِعًا إيَّاها من تجويفة الكَتِف. فسقطَ پالُس أرضًا زاعقًا.

لم يعرِف الباقون أيهرُبون أم يُهاجِمون، حتَّى لجأ أحَدُهم إلى الخِيار الثاني، وجاراه الآخرون. فلكَمَ واحدٌ منهم أتريتِس على وجهه، فيما وثَبَ آخَرُ على ظهره. فصدَم أتريتِس الحائط وراءه بكاملِ ثقلِه وركَلَ الذي أمامه ركلًا خفيضًا شديدًا.

تلقَّى أتريتِس لكمتَين على جانب رأسه فيما رفعَ مِرفَقَه بحدَّة وسدَّد ضربةً إلى صدر

أحد المُهاجِمين. فهوى اللِّصُّ لاهثًا لأخذ النَّفَس.

في أثناء العِراك، انحلَّت عباءة أتريتِس وانحسَرَت عن رأسه، تاركةً شعرَه الأشقر يَبرُق تحت ضوء القمر.

"بحقِّ زَفْس! إنَّه أتريتِس!" وتبدَّدَ الذين ما زالوا قادرين على الحركة كالجِرذان في قلب الظلام.

صاح پالُس: "ساعدوني!" ولكنَّ أصحابه هجَروه. فانطلقَ مُتراجِعًا بسُرعة حتَّى صار ظهرُه بلِزق الحائط، وهو يئنُّ من الألم مُسنِدًا ذراعه المكسورة إلى صدره. وقال ناشِجًا: "لا تقتُلْني، لا تقتُلْني، رجاءً! لم نعرِف أنَّكَ أنت".

"يا صبيُّ، الأدنى شأنًا في ساحة المُحارِبين كانوا أكثرَ شجاعةً منك". ثُمَّ تخطَّاه وتوجَّه ماشيًا في الزُّقاق.

سمعَ أصواتًا قُدَّامه. "قَسَمًا! كان هو! كان كبيرًا وشعرُه أبيض تحت ضوء القمر. لقد كان أتريتِس!"

"أين؟"

"هُناك، في الزُّقاق! ربَّما قتل پالُس".

فشتَمَ أتريتِس في سرِّه، وجرى في شارع ضيِّق حمَلَهُ في الاتِّجاه المُعاكِس للمكان الذي أراد أن يذهب إليه. وإذ هَروَلَ في شارع بين المساكن (إنسولايي)، انعطَف إلى جادَّة أُخرى ودار حول زاوية أعادَته إلى السبيل الصحيح. كان أمامه طريقٌ عامٌّ غير بعيد عن الأرطميسيون. فأبطأ لمَّا اقترب إليه، غيرَ مُريدٍ أن يجتذب الانتِباه بعَجَلته. ولدى دخوله السُّوقَ المسائيَّة، جذَبَ قلنسُوَةَ العباءة فوق رأسه ليُغطِّيَ شعره من جديد، وخفَضَ ذقنه.

حفَّ بالشارِع أكشاكٌ وباعةٌ جوَّالون يُنادون على بضائعهم. وإذ شقَّ أتريتِس طريقه مُتعرِّجًا بين الجُموع، رأى هياكلَ مُصغَّرةً وتماثيلَ صغيرةً لأرطميس، وصوانيَّ تعاويذ، وصُرَرَ بَخُور. ووصل إلى دُكَّانِ صانِع أصنام، فألقى نظرة على المنضدة المُثقَلة بتماثيل الرُّخام الصغيرة. وإذِ اصطدمَ به أحَدُهم اقتربَ أكثر، مُتظاهِرًا بالاهتمام بالبضاعة المعروضة. لقد اضطُرَّ إلى الاختلاط بحشود مُتَسوِّقي المساء. وكان زُوَّارٌ من جميع أنحاء الإمبراطوريَّة يجيئون ويروحون، باحثين عن صفقات. وقد تجمَّد أتريتِس إذ نظرَ إلى التماثيل الصغيرة الدقيقة.

حسِبَهُ البائع مُهتمًّا. "ألقِ نظرةً أوفى، سيِّدي. هذه نُسَخٌ مُطابِقة للتِّمثال الجديد الذي

نُصِبَ حديثًا إكرامًا لمارس. لن تجد صَنعةً أفضل في أيِّ مكان".

تقدَّم أتريتِس بعدُ، والتقطَ تُمَيثيلًا. ما كان قد تصوَّر ذلك. إنَّه هو! فحدَّق إلى الصَّنَم الكريه، وقال بدمدمةٍ شاكية: "مارس؟" مُريدًا أن يسحق الرُّخامَ غُبارًا.

"لا بدَّ أنَّك جديد في المدينة. أتقومُ بزيارة حجٍّ لإلاهتنا؟" وأتى البائع بتمثال صغير مُزدانٍ بالأثداء وعلى رأسه غِطاءٌ مُرقَّم بالرُّموز، وكان واحدًا منها شِعارُ الإله طِيواز، ذاك الذي تعبَّد له أتريتِس في الماضي.

"ذاك هو! هُناكَ أمامَ دُكَّانِ صانعِ الأصنام".

أجالَ أتريتِس بصرَه بحِدَّةٍ حوالَيه، فرأى فوقَ عشَرةِ شُبَّان يشقُّون طريقهم وسطَ الجُموعَ نحوَه. "قلتُ لكُم إنَّه كان أتريتِس!"

"أتريتِس! أين؟"

التفَتَ الناسُ عن يساره ويمينه ليُحَملِقوا. ووقف صانعُ الأصنام فاغرًا فمَهُ بانشِداه، مُحدِّقًا إليه. أنت هو. قسَمًا بالآلِهة!"

أجرى أتريتِس ذراعه بقوَّة عبْرَ الطاولة، فتشبَّث بطَرفِها وقلَبَها. وإذ دفَعَ بِضعةَ أشخاص جانبًا، حاولَ أن يهرب. وتشبَّث رجُلٌ بتُنكِه. فأطلقَ صيحةَ غضَب، وضرب الرَّجُلَ على وجهه. وإذ هوى الرَّجُلُ أرضًا، أخَذَ معه ثلاثةً آخرين.

تفجَّرَتِ الحماسةُ في الشارع ذَهابًا وإيابًا. "أتريتِس! أتريتِس هُنا!"

وقعَت عليه أيادٍ أُخرى، ونادت الأصواتِ باسمِه على نحوٍ مسعور.

لم يكُن أتريتِس مُتعوِّدًا الخوفَ الفعليَّ، إلَّا أنَّه اختبرَه الآن إذ تعاظَمَ الإعجابُ الحماسيُّ في السُّوق. بعد لحظةٍ أُخرى سيحدث شَغبٌ ويعلَقُ هو في الوسَط. فشقَّ طريقه وسطَ ستَّة أجسام مُخَمِّشة، عالِمًا أنَّ عليه أن يلجأ إلى الهرب...الآن.

زعقَتِ امرأةٌ: "أتريتِس!" مُرتميةً عليه. وإذ أبعدَها عنه فورًا، خمشَت أظفارُها عُنقَه. واقتلع شخصٌ آخر خُصلةً من شعره. ومُزِّقَتِ العباءةُ عن كتِفَيه. وكان الناس يُصرِّخون.

تحرَّر أتريتِس منهم وركض، مُزيحًا الناس جانبًا إذ اعترضوا في سبيله. وقد صاحَ المُعجَبون (أموراتَيي) ولحقوا به كسِربٍ من الكِلاب البرِّيَّة. وإذِ اندفع مُسرعًا إلى داخل الرِّواق الضَّيِّق بين الدَّكاكين، اصطدم بطاولة أُخرى. فتبعثَرَت الفواكِهُ والخُضَر عبْرَ المَمشى. وقلَبَ منضدةً أخرى عليها أوانٍ نُحاسيَّة، ناشرًا مزيدًا من العوائق في سبيل الرَّعاع. وانطلقَت صرَخاتٌ

وراءه إذ سقط بعضُهم أرضًا. وإذ قفَزَ فوق عرَبة صغيرة، انعطفَ بحدَّة وجرى في زُقاقٍ بين مَبنَيين سكَنيَّين (إنسولايي). فلمَّا رأى أنَّه طريقٌ مسدود، قارَبَ الذُّعرَ أكثر ممَّا قارَبَه مرَّةً في حياته. كان ذاتَ مرَّة قد شاهد سِربًا من الكِلاب البرِّيَّة يُطارِدُ رجُلًا في ساحة المُحارِبين. ولمَّا أدركته الكِلاب، شقَّته شطرَين. فهؤلاء المُعجَبون (أمواريَتيي) يُرجَّح أن يفعلوا به مِثلَ ذلك إذا أمسكَته أيديهم.

تلفَّتَ أتريتِس مسعورًا يلتمس مفرًّا. ولمَّا رأى بابًا، ركَضَ إليه. وإذا هو مُقفَل. فصدَمَه بكَتِفه بقوَّة، ففتحَه كسرًا وجرى صاعدًا ممرَّ دَرَجٍ مُظلِمًا. وصعِدَ طبَقةً، ثُمَّ اثنتَين. وإذ توقَّفَ على مُنبسَط، لبِثَ ينتظر مُصغيًا، حابِسًا نفَسَه.

تناهَت إليه أصواتٌ مكتومة من الشارع في الخارج. "لا بدَّ أنَّه دخَلَ أحَدَ المساكن".

"انظُروا هُناك!"

"لا، مهلًا! هذا الباب كُسِرَ واقتُحِم".

توجَّهَت خُطًى حثيثةٌ صاعدةً الدَّرَج. "إنَّه في الداخل هُنا".

ركَضَ أتريتِس على طول الرِّواق بأهدإ ما أمكنه. ومع أنَّ أبواب الشُّقَق كانت مُغلَقة، فاحَت من المكان روائحُ بشريَّةٌ كريهة. ثمَّ انفتَحَ بابٌ وراءه، وراح أحَدُهم ينظر خارجًا لدى اندفاعِ أتريتِس صاعدًا في مجازٍ ضيِّق مُزعِج الرُّطوبة. فوصلَ إلى الطابق الثالث ثُمَّ الرابع. وإذ كان مُطارِدوه ما يزالون يصيحون، أيقظوا كلَّ مَن في المبنى. حتَّى إذا بلَغَ السَّطح، وجد نفسه في العَراء وليس من مكانٍ للاختِباء.

تعالَت الأصوات على الدَّرج صعودًا.

وإذ رأى أتريتِس سبيلًا واحدًا فقط للفِرار، سلكه. فركض بكلِّ قوَّته وقفز قفزةً طائرة فوق المسافة الواسعة إلى المبنى الآخر. فهبطَ على السَّطح بخبطةٍ قويَّة وتدحرج. ثمَّ وقف على قدَمَيه، واندفعَ مذعورًا إلى مدخل باب آخر، فغاصَ داخِلَه، واختبأ في ظِلالِ بيتِ دَرَجٍ آخر، تمامًا حينَ تدفَّقَ اثنا عشر شخصًا إلى السَّطح الذي قفز عنه توًّا.

تراجعَ أتريتِس بحِدَّة، لاهثًا لأخذِ نَفَس، وقلبُه يخبط خبطًا.

خَفَتَت الأصوات إذ ركض أصحابُها على الدَّرَج نازلين من جديد واحدًا بعدَ واحِد، باحثين عنه في أنحاء المُجمَّع السَّكنيِّ المُعتِمة. فأسند أتريتِس ظهرَه مجدَّدًا إلى الحائط وأغمض عينَيه، مُحاوِلًا أن يسترجِعَ نفَسَه.

كيفَ سيعبرُ المدينة، ويعثُر على أرملة لدَيها ابنُه، ثُمَّ يخرج مع الولَد من المدينة دونَ أن يفقدا حياتَيهما كِلتَيهما في أثناء تلك العمليَّة؟

لعَنَ صانِعي الأصنام لأنَّهم جعلوه صورةً منحوتةً لهؤلاء القوم المُتعطِّشين إلى الأصنام، وأقفَلَ ذِهنَه دونَ أيِّ أمرٍ آخر ما عدا الخروجَ من المدينة سالمًا. فإذا تمَّ له ذلك، يتأتَّى له أن يجِدَ سبيلًا آخر للإتيانِ بِابنِه.

انتظَرَ ساعةً قبل أن يتجرَّأ على سلوك الدَّرَج والأروِقَة إلى داخل الإنسولا. وقد جعلَهُ كلُّ صوتٍ يُجفِل. حتَّى إذا وصل إلى الشارع، ظلَّ على مقربة من الجُدران، مُستخدِمًا حِجابَ الظِّلال القاتمة للحماية. وما لبِثَ أن ضَلَّ السبيل. وإذِ استنفَدَ ساعاتِ الظَّلامِ الثمينةَ، التمسَ طريقَه كجُرَذ في متاهة الأزِقَّة والشوارع الضيِّقة.

ثمَّ وصَلَ إلى أبواب المدينة عندَ شروق الشمس تمامًا.

٢

سمعَ لاغُس البابَ يُسفَق، فعلِمَ أنَّ سيِّدَهُ رجَعَ. وكان هو قد رجَعَ قبلَ سُوَيعاتٍ فقط، بعدَما أمضى العصرَ والمساء ومُعظمَ اللَّيل باحثًا في سُوق العَبيد عن مُرضِعة جِرمانيَّة. وقد وجد واحدةً أخيرًا، وكان على يقين بأنَّ أتريتِس سيُسَرُّ بها. إذ كانت قويَّةً بيضاء مائلةً إلى الحُمرة ولها شعرٌ بلَون شعر أتريتِس.

أقبَلَ إلى بَهوِ المدخل شاعِرًا بالثِّقة نوعًا ما، ورأى عينَ أتريتِس المُسوَدَّة وطبعَه الأشدَّ اسوِدادًا بَعد. وكانت خُدوشٌ عميقة دامية ما تزال تنزُّ على رقَبته، مُضرِّجةً عباءته المُمزَّقة بالدَّم. فبدا الجِرمانيُّ مُتأهِّبًا لقتلِ شخصٍ ما...أيِّ شخص.

"هل وجدتَ مُرضِعةً؟"

شكَرَ لاغُس الآلهة، راعِدَ القلب، لأنَّه وجدَ واحدةً. وقال بسُرعة: "نعَم، سيِّدي!" وقطَراتُ العرَق تُنَدِّي جبينَه. ثُمَّ أضاف: "إنَّها في المسكن". وكان على يقين بأنَّه لو أخفق لكانت حياتُه هيَ الغَرامة. "هل تودُّ أن تراها، سيِّدي؟"

"لا!" ومشى أتريتِس بخُطًى واسعة إلى الفِناء الداخليّ. ثمَّ انحنى ووضعَ كاملَ رأسهِ تحت الماء في النافورة. فتساءل لاغُس هل نوى الرَّجُل أن يُغرِّقَ نفسه. وبعدَ لحظةٍ طالت، استقام أتريتِس ونفَّضَ رأسه مُطَرطِشًا الماء في كلِّ اتِّجاه كأنَّه كلب. وما كان لاغُس قطُّ قد شهِدَ مِثلَ هذا التصرُّف الهمجيِّ من قِبَلِ سيِّد.

سألَ أتريتِس ببرودة: "أفي وسعِك أن تكتُب؟" ولم تكُن سيماؤه أقلَّ ضراوةً.

"باليونانيَّة فقط، سيِّدي".

فأجرى أتريتِس يدًا على وجهه نُزولًا ونفَّضَ الماء عن يده، وأمَرَ بمرارة: "إذًا اكتُبْ هذا: «إنِّي أُذعِنُ لاقتراحك. أحضِرِ ابني إليَّ بأسرعِ ما يمكن». ثمَّ وقِّعِ اسمي وخُذِ الرِّسالة إلى الرَّسول يوحنَّا. ودُلَّهُ كيف يصل إلى هُنا!" وزوَّدَه بتعليمات الوصول إلى البيت الصغير بقُرب مجرى ماء في حواشي المدينة الخارجيَّة. "إن لم يكُن هُناك، فابحَثْ عنه على ضِفَّة النَّهر". ثُمَّ خرج من الفِناء بخُطًى حثيثة.

زفَرَ لاغُس نفَسَه وشكَرَ الآلِهة على كونه ما يزال حيًّا.

انشقَّت العصا الغليظة في يدَي سيلُس إذ أهوى أتريتِس بعَصاه. فانكفأ الخادم بحِدَّة ليتفادى من الضَّربة وترنَّح، مُبقيًا قدَمَيه بالكادِّ ثابتَتين. وتراجَعَ أتريتِس شاتمًا. فاستعادَ سيلُس توازُنَه بفَمٍ كالح، ورمى السِّلاحَ غيرَ النافع.

تناوَلَ غالُص عصا مُلاكَمة أُخرى من برميل بلِزق الحائط ورماها. فالتقطَها سيلُس واتَّخذَ وضعيَّةً قِتاليَّة مرَّةً أُخرى. إنَّ الرَّجُل ما كان لِيَستسلِم!

وقفَ غالُص بقُرب قَنطرة المجاز المؤدِّي إلى الحمَّامات، مُشاهِدًا باعتِناقٍ خفيٍّ. كان سيلُس يتصبَّب عرَقًا ووجهُه أحمَرُ من فرط الإجهاد. أمَّا سيِّدُهما، في المقابِل، فكان يتنفَّس بسهولة كحالِهِ عند بدء مُباراة المُصارَعة.

صاح أتريتِس: "بادِر إلى الهجوم!"

وتصاعد صوت اصطدام العصي...

واستطاع سيلُس صدَّ الضَّربة ثانيةً، إلَّا أنَّه بدا فاقدًا قوَّته.

كراك! قال سيلُس لاهثًا: "كنتُ سأفعل...لو استطعتُ". ولوَّحَ بعصاه في ضربةٍ واسعة، إلَّا أنَّه أخطأ الهدَف تمامًا. ثمَّ أحسَّ انفِجارَ ألَمٍ وراء رُكبتَيه. وإلى لحظة، لم يكُن تحتَهُ أيُّ شيء سوى الهواء، ثُمَّ ارتطمَ ظهرُه بالأرضيَّة الرُّخاميَّة. فنَخَرَ وانطرَحَ عاجزًا، مُحاوِلًا أن يستردَّ نفَسَه، فيما وقف أتريتِس فوقه. ورأى عصا المُلاكمة تهوي على حنجرته، فخُيِّلَ إليه أنَّه يُوشِكُ أن يموت. إلَّا أنَّ العصا توَّقفت قبلما كادت تُصيبُه.

أصدرَ أتريتِس صوتَ اشمئزاز. "تُرى، كيفَ نجَوتَ في ساحة المُحارِبين؟" ورمى العصا مُقَرقِعةً على الأرض ثمَّ مُرتدَّةً عن الحائط.

كشَّرَ سيلُس مُرتبِكًا. وراقبَ أتريتِس بحذَر، متسائلًا إذا كان مُقدَّرًا له أن يخوض جولةً أُخرى معه.

ركَلَ أتريتِس البرميل، شاتمًا بالجِرمانيَّة، فانقلَبَ وتناثرَت عِصِيُّ المُلاكمة على الرُّخام. وأطلق أتريتِس صيحة إحباطٍ تبعث القُشَعريرةَ في العمود الفقريِّ، وتفوَّه بسَيلٍ من الكلمات الجرمانيَّة غير المفهومة.

بعدما استعادَ سيلُس نفَسَه، نهَضَ ببُطء، مُجفِلًا من الألم. وصلَّى إلى أرطميس كي تُنهِكَ أتريتِس نفسَه بتكسير العِصِيِّ على رُكبته ولا يُقرِّر أن يُكسِّرَه هو بدلًا من ذلك. ثمَّ رأى لاغُس ينظر بتوتُّر إلى داخل الغُرفة، فرأى سبيلًا إلى تجنُّب مزيدٍ من الإذلال. "حسنًا،

حسنًا، ها قد رجَعَ الخِنزير".

استدار أتريتِس بسُرعة وفي سيمائه أماراتُ شراسة. "ما الذي أخَّرَك هكذا؟"

دخل لاغُس الجِمنازيوم كما لو كان داخلًا إلى جُبِّ أسَد. "كان الأمرُ..."

"لا تهمَّك الأعذار. هل وجدتَه؟"

"نعم، سيِّدي. في وقتٍ مُتأخِّرٍ البارحة".

"ثُمَّ؟"

"رسالتُك سُلِّمَت، سيِّدي".

"ماذا قال؟"

"قال إنَّها ستُنفَّذ، سيِّدي".

"حالَما يَصِل، أعلِمني". ونخَعَ أتريتِس رأسه مؤذِنًا بالانصِراف. وإذِ التقطَ مِنشفة عن الرَّفِّ بقُرب الباب، مسح وجهَه وعُنقه. ثُمَّ رمى المِنشفة على الأرض ورمق سيلُس وغالُص بنظرةِ شؤم. وانتظرا أمرَه. فقال بلهجةٍ جافَّة: "هذا كافٍ اليومَ. اذهبا!"

قعَدَ أتريتِس على بنك، وحدَه في الجِمنازيوم. ودفَعَ يديه رجوعًا في شعره، مُحبَطًا. سيُعطي يوحنَّا بضعة أيَّام للوفاء بوعده، وإن لم يَفِ فسيُطارِدُ الرَّسولَ ويكسِرُ عُنقه!

نهضَ أتريتِس مُضطرِبًا، وخرَجَ من الجِمنازيوم بخُطًى واسعة، فاجتاز الحمَّامات ودخل رِواقًا يؤدِّي إلى بابٍ ثقيل في مؤخَّر الدَّارة. ففتحَهُ خبطًا وعبَرَ مُسرِعًا التُّرابَ الناعِمَ إلى بابٍ آخَر في السُّور. وقد كان هذا مفتوحًا. فدخل حارسٌ منه وأومأ برأسه قائلًا: "الطريقُ خالٍ، سيِّدي!" بعدما تحقَّق فعلًا عدَم وجود مُعجَبين (أموراتَيي) كان يمكن أن يتمركزوا خارِجَ السُّور على أمَلِ ظهور أتريتِس. فغالبًا ما أتى بعضُهم آمِلين أن يحظَوا بإلقاء نظرةٍ عليه.

هَرولَ أتريتِس في التِّلال حتَّى باتَ جِسمُه دبِقًا من العرَق. وأبطأ إلى مِشيةٍ سريعة حتَّى وصل إلى قِمَّةِ تَلٍّ مُواجِهٍ للغَرب. في البعيد، كانت أفسُس، المدينة العظيمة، مُنتشِرةً كمَرَضٍ على طُول التِّلال الشماليَّة والجنوبيَّة والغربيَّة. ومن حيثُ وقف أتريتِس، استطاعَ أن يرى الأرطميسيون ومُجمَّع المكتبات بقُربِ المرفأ. وإذ أدارَ رأسه قليلًا، استطاعَ أن يرى ساحة المُحارِبين.

عبَّس. غريبٌ أنَّه وجدَ نفسَه دائمًا آتيًا إلى هذه التلَّة وناظرًا إلى الوراء. لمَّا كان مُصارِعًا، كان لحياته هدَفٌ واحد: أن يبقى حيًّا. والآنَ باتت حياتُه بلا هدَف. لقد ملأ أيَّامه بالتَّدرُّب، ولكنْ لأيِّ هدَف؟

تذكَّرَ بَغناكْس، المُصارِعَ السابق الذي امتلك فُندُقًا في روما، قائلًا له: "لن تكونَ البتَّة حيًّا كما حينَ تُواجِهُ الموت كلَّ يوم". وقد ظنَّه أتريتِس مجنونًا آنذاك. أمَّا الآن فقد تساءل. في أوقاتٍ مُتفرِّقة، وجد نفسه توَّاقًا إلى إثارة القِتال حتَّى الموت. البقاء. لا شيءَ أقلَّ من الكِفاح في سبيله قد أعطاه ذلك الدَّفق: مفهومَ المعنى الحقيقيِّ في الحياة. البقاء.

أمَّا الآن، فهو موجودٌ فحسْب. لقد أكل وشرب وتمرَّن ونام. وأحيانًا استمتعَ بمسرَّاتِ امرأة. ولكنْ على وجه العموم، كرَّتِ الأيَّام واحِدًا إثرَ آخر، وكلٌّ منها فارغٌ، عديمُ المعنى.

كان ابنهُ في مكانٍ ما من تلك المدينة الفاسدة، وكان هو السبب الوحيد الذي من أجله بقي في إيونيا. في مكانٍ ما، وراءَ الرُّقعةِ اللازورديَّة الفسيحة، كانت إيطاليا، وإلى الشمال كان موطِنُه. لقد كان التَّوقُ لأن يعودَ إلى جرمانيا قويًّا جدًّا حتَّى انطبقَت حَنجرَتُه. كانت له حرِّيَّتُه. وكان له مال. فما إن يغدو ابنُه في حَوزَته، حتَّى لا يبقى شيءٌ يُبقيه هُنا. ستُباعُ الدَّارة، وسيَشتري حقَّ السَّفَر في أوَّلِ سفينة تُبحِر إلى الغَرب.

وعندما يصِلُ إلى موطِنه، سيُعلِّم قومَه طُرُقًا أفضل لمُقاتلة آلة الحرب الرُّومانيَّة.

لدى رجوعه إلى الدَّارة، أمضى المساء شاربًا الخمر في التريكلينيوم. وقد أتَته پيليا بصينيَّةِ فَواكِه. وراقبَها تحطُّها على الطاولة الرُّخاميَّة أمامَه. كانت قد أرخَت شعرها. والتمسَت عيناها عينَيه بأمَلٍ وجوع. "هل لكَ في درَّاقة، سيِّدي؟"

كانت جوليا قد أرادت الجمال في الأشياء المُحيطة بها، بما في ذلك العَبداتُ اللواتي خدَمنها. فما عدا هَدسَّة، كانت جميعُ خادماتها جميلاتٍ، كهذه الواقفةِ أمامه. وتحرَّكت عيناه ببُطء نزولًا على جسَدِ پيليا، فجاشَ دمُه. لقد اشتراها كي تخدم جوليا؛ أمَّا الان فعليها أن تخدِمَه هو.

وإذ تذكَّر النِّساء اللواتي كان يؤتى بهنَّ إلى حُجرته في اللودُس، أعطى پيليا الخِيارَ، فقالَ رافعًا حاجِبَه قليلًا: "أترغبين أن تخدِميني؟"

"نعم، سيِّدي".

"انظُري إليَّ، پيليا". ولمَّا فعلَت ذلك، ابتسمَ ابتسامةً فاترة. "لستُ جائعًا إلى درَّاقة".

فردَّتها إلى الصِّينيَّة. وارتجفت يدُها قليلًا، إلَّا أنَّ عينَيها كانتا داكنتَين ونامَّتَين. فلمَّا مدَّ يده، أقبلَت إليه طائعةً.

وفوجئ على نحوٍ سارٍّ بمهارتها وشغَفها.

ثُمَّ سألها بعد حين: ''هل خدَمتِ سيِّدَكِ الأخير بمِثل هذه البراعة؟''

فابتسمَت بخُبث. ''لهذا السَّبب باعتني زوجتُه!''

وتقسَّت قَسَماتُ أتريتِس وتحوَّلَ عنها.

فعبَسَت پيليا قليلًا، مُرتبِكةً. ''هل أثَرتُ استياءك، سيِّدي؟''

فالتفتَ ونظر إليها بفُتور. وقال بجفاف: ''لقد خدمتِني جيِّدًا جدًّا''.

نهضَت مُرتابةً. ''أتُريدُ منِّي أن أُرافِقَك إلى مَهاجعِك؟''

''لا''.

طرَفَت عيناها دهشًا. ''لا، سيِّدي؟'' وجرَّبَتِ ابتِسامةَ إغراء.

فنظرَ إليها مُباشرةً في عينَيها. ''لكِ أن تنصرِفي''.

شُحِبَت إزاء بُرودته، وخفضَت حَملقَتَها عن حَملقَتِه. ثُمَّ قالت: ''نعم، سيِّدي''. وغادرَت الغُرفة مُسرِعةً.

مسَحَ أتريتِس فمَه بإحدى يدَيه كأنَّه يُزيلُ أثَرها عنه. ثمَّ تناولَ زِقَّ الخمر، وشرِبَ عميقًا. وما لبِثَ أن غادرَ التريكلينيوم. فسُمِعَت أصداءُ خُطاه بخِفَّة على البلاط الرُّخاميِّ في غُرفة الانتظار. وقد أطبقَت الوَحدة والوحشة عليه من كلِّ جهة، ضاغِطةً إيَّاه حتَّى وجِعَه قلبُه. من أجلِ ماذا؟ بَغِيٍّ مثل جوليا؟

تسلَّقَ الدَّرَج ومضى إلى مَهاجِعه. وإذ جلس على حافة سريره، قَلَبَ الزِّقَّ فوق فمه ثانيةً، مُريدًا أن يسكر...سُكرًا شديدًا يجعله يغوصُ في النِّسيان وينامُ بِلا أحلام.

أسقطَ الزِّقَّ من يده، واستلقى على سريره، غائمَ البَصَر وخفيفَ الرأس. كان ذلك شعورًا طيِّبًا، شعورًا مألوفًا. غدًا، لن يكون شعورُه طيِّبًا هكذا؛ أمَّا الآن فلا بأس. وما لبِثَ أن أغمضَ عينَيه مُنساقًا، وفكَّرَ في غابات جِرمانيا الكثيفة والاستحمام في النَّهر. ثُمَّ لم يكُن شيء.

استيقظ في الظُّلمةِ، سُخنًا وغيرَ مُستريح. فانقلَبَ أنًّا وجلس، غيرَ مُعتادٍ نُعومةَ الفِراش. وإذ سحَبَ معه أحد الفِراء، استلقى على الأرض وتنهَّد. لقد كان الرُّخام البارد مِثلَ بنك الصَّوَّان الذي كان ينام عليه في حُجرة اللُّودُس.

وجدَه لاغُس هُناك في الصَّباح. ولو كان بيَدِه خِيار، لَغادَر. ففي هذه الحال، ما كان يستطيع أن يُغادِرَ دونَ إثارة غضَبِ السَّيِّد، ورُبَّما المزيد من العواقب الوخيمة. فابتلَعَ ريقَه

بصعوبة، وعبَرَ الأرضيَّة المُزَخرفة، وانحنى. قال: "سيِّدي!" ولكنَّ أتريتِس شخَرَ شخيرًا عاليًا. فاستجمعَ لاغُس شجاعتَه، وحاولَ ثانيةً: "سيِّدي!"

فتَحَ أتريتِس إحدى عينَيه، وركَّزَ ببُطء على قدمٍ تنتعل صندلًا بقُربِ رأسه. وإذ تمتمَ بشتيمة، غطَّى رأسَه بالفَرو. "اخرُج من هُنا".

"قُلتَ أن أُعلِمَكَ حالَما يصِلُ الرَّسول".

تمتمَ أتريتِس بشتيمة بذيئة باليونانيَّة، وأزاح الفَروَ جانبًا. "أهُوَ هُنا؟"

"لا، سيِّدي، ولكنَّ سيلُس أرسَلَ خبَرًا بأنَّ امرأةً عند البوَّابة. اسمُها رِصفة، وهي تقول إنَّك تتوقَّع قُدومَها".

طرح أتريتِس الفَروَ بعيدًا. وقامَ مُغمِضًا عينَيه نِصفَ إغماضة حِيالَ نور الشمس المُتدفِّق من الشُّرفة إلى الداخل.

"على ذراعَيها طِفلٌ، سيِّدي".

أومأ أتريتِس بنَفادِ صبر. "قُل لِسيلُس أن يأخُذَ الطِّفلَ منها".

"سيِّدي؟"

فجأرَ أتريتِس: "سمِعتَني!" وأجفَلَ من الألَم. "الطِّفلُ لي، وليس لها. أعطِها مئة دينار واصرِفها في سبيلها، ثُمَّ خُذِ الطِّفلَ إلى المُرضِعة". ولمَّا اكتفى لاغُس بالوقوف مُحدِّقًا إليه، صاح به: "افعَل ذلك!" وأجفلَ ثانيةً.

"سيكونُ كما أمَرتَ، سيِّدي".

كان رأس أتريتِس يخبط، وفمُه جافًّا، فبحَثَ عن شيءٍ يشربُه. وإذ ركَلَ زِقَّ الخمرِ المُترهِّلَ من طريقه، ذهبَ إلى طاولة منحوتة بإتقان. فنبَذَ الكأس الفِضِّيَّة، وشرِبَ من الإبريق. ثُمَّ حطَّه، وفرَكَ وجهَه، مُتحسِّسًا شعرَ لحيته القصيرَ الخَشِن بعد بضعة أيَّامٍ بِلا حلاقة. ومشى عائدًا إلى سريره، وتهالكَ عليه، ناويًا أن ينام حتَّى تُوقِظَهُ الطبيعة.

"سيِّدي؟"

استيقظَ أتريتِس كفايةً ليسأل: "هل تمَّ الأمر؟"

نظَّفَ لاغُس حَنجرتَه مُتَنحنِحًا. "قالت المرأة إنَّ الطِّفل لها".

فجأر: "قلتُ لك إنَّه لي!" وما زال رأسُه النابِضُ على الفِراء الليِّنة.

"نعم، سيِّدي، ولكنَّها تأبى أن تُسلِّمه، وسيلُس يتردَّد في استخدام القوَّة. قالت إنَّها

جاءت لتتكلَّم إليك نيابةً عن ابنها".

ابنها؟ انقلَبَ أتريتِس وجلس، حاميًا طَبعُه إذ ذاك. وسأل بسُخرية: "هل قالت المرأة أيَّ شيء آخر؟"

بلَعَ لاغُس ريقه. "نعم، سيِّدي".

وهدَرَ أتريتِس: "تبدو أقلَّ من مُتلهِّف لتبليغي كلامَها. انطق به!"

"قالت لي أن أردَّ الدَّنانير إليك وأقولَ لك أن تأكلها". ومدَّ يده بصُرَّة المال المُغيظة.

شُحِبَ وجهُ أتريتِس غضبًا. ومشى مُتقدِّمًا، فانتزع الصُّرَّة، وحدَّق إلى لاغُس، قائلًا من بين أسنانٍ مُطبَقة: "ادعُها إلى الدَّاخِل".

إذا أرادَت المرأة خوضَ معركة، فسيُجبِرُها.

نظَرَ سيلُس إلى لاغُس وهو يعبر الفِناء. كان في وسعه أن يعلم من بسمة اليونانيِّ الباهتة أنَّ الأمرَ كلَّه لم يجرِ حسنًا مع أتريتِس.

قال لاغُس مُشيرًا بيده: "سيتكلَّم السيِّد معكِ، سيِّدتي. رجاءً، اتبعيني".

أحسَّت رِصفة فرَجًا ضئيلًا إذ فعلَت كما طُلِبَ منها. فرفعَت صلاةَ شُكرٍ صامتةً إلى الربِّ، وتبِعَتِ الخادم. لقد ندِمَت على كلماتها الفظَّة بشأن الدَّراهم حالَما خرجَت من بين شفَتَيها، ولكنْ لم تُتَح لها الفُرصة لِسَحبها. لعلَّ الخادِمَ كان أحكمَ منها بكثير ولم يُوصِل إهانتَها التي تهوَّرت في النُّطقِ بها.

نظرَت حوالَيها، مُنزعجةً من المُحيط. فرُغمَ فخامة الدَّارة ذاتها، لم تُوجَد حدائق. وكانت المساحة كلُّها حول البيت قاحلةً. فشعرَت كما لو أنَّها دخلَت أبوابَ قلعة، وليس بيتًا.

وإذ صعِدَت الدَّرَج، حاولَت أن تُهدِّئ الارتجاف في معدتها. فالقليل الذي عرَفَته عن أتريتِس علِمَته من يوحنَّا، وقد تمكَّن فقط من إخبارها أنَّ الرجُلَ كان أسيرًا من بِلاد الجِرمان دُرِّبَ مُصارِعًا في ساحة المُحارِبين، وأُعطيَ حرِّيَّتَه لمَّا بقيَ حيًّا في مُباراةٍ تصفيةٍ في أثناء الألعاب الأَفسُسيَّة. وقد جسَّدَت تلك الكَلِماتُ القليلة مِقدارًا كبيرًا من البَلاء والعُنف. همَجيٌّ من الحدود؛ رجُلٌ دُرِّبَ كي يقتُلَ الرِّجال.

كانت قد سألت يوحنَّا: "أهوَ مسيحيٌّ؟" مُتشبِّثةً بذلك الأمل الضئيل مُقابِلَ جَبَلٍ من اليأس. ففي وسع المسيح أن يُغيِّر الإنسان. وربَّما كان لدى إنسانٍ مُغيَّر شفَقةٌ عليها!

فقال يوحنَّا بحُزن: "لا، ولكنَّه والِدُ كالِب".

"والِدٌ من أيِّ نوعٍ يأمُرُ بأن يُترَكَ ابنُه على الصُّخور ليموت؟"

"والِدةُ كالِب هي التي أمرَت بذلك، يا رِصفة. هو يقول إنَّه لم يعلم بالأمر".

"وأنت تُصدِّقُه؟"

فأجاب يوحنَّا ببساطة: "هَدسَّة أرسلَته ليَجِدَ ابنه". وبكت رِصفة.

"لا أستطيع أن أُرجِعَه. لا أستطيع. ألَم أخسَرْ ما يكفي؟ آهِ يوحنَّا، لا أستطيعُ أن أتخلَّى عنه. إنَّه حياتي الآن، كلُّ الحياة التي ستكون لي يومًا..."

"اهدإي، يا محبوبة". وقد تكلَّم يوحنَّا معها حتَّى وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل، مُعزِّيًا إيَّاها ومُصلِّيًا معها. ولمَّا أقبلَ الفجرُ، قال: "سآخُذُ الولَد إلى والده".

فقالَت: "لا! سأذهب أنا". لعلَّه يلين ويسمح لها بأن تحتفظ بالطِّفل.

وتردَّد يوحنَّا قليلًا. "هل تُريدين منِّي أن أُرافِقَكِ؟"

قالت- وحَنجرتُها مسدودةٌ بالدَّمع- "لا، سأذهب وحدي". وإذ ودَّعَت يوحنَّا عند باب شِقَّتها الصغيرة، خطرَت في بالها فِكرةٌ عابرة: في وسعها أن تأخُذَ كالِب وتهرُبَ إلى حيثُ لا يستطيع أحَدٌ أن يجِدَها.

وهل تختبئين منِّي أيضًا، يا محبوبة؟

لقد جاء السؤالُ بصورةٍ غاية في الوضوح، حتَّى علِمَت أنَّها لا تستطيع أن تتظاهر بأنَّها لم تعرِف مشيئة الله. فوضعت جبينها على الباب، والدُّموع تجري على خدَّيها. وقد علِمَت أنَّها لو انتظرَت أصلًا، لاستسلمَت للتجربة ولم تذهب قطعًا.

كان كالِب دائمًا يستيقظ جائعًا. فإذ شالت الطِّفلَ من مَهده الصُّندوقيِّ، أرضعَته قبل الانطلاق للقاء والده. وطوالَ مسافةِ المشي الطويلة، صلَّت طالبة أن يُليِّن الله قلبَ أتريتِس وأن يُتركَ كالِب في عُهدتها.

والآن، إذ عبَرَت هذا الفِناءَ القاحل ودخلَتِ البيتَ الصامت، شعرَت بعُزلة المكان الباردة. فهل كان صورةً للرَّجُل؟

يا ربُّ، ساعدني. ساعدني!

تبِعَت الخادمَ عبْرَ الباب الأماميِّ، ودخلت إلى أتريوم كبير كان مُصمَّمًا لاستقبال الضُّيوف. وقد تدفَّق النُّور من فُتحةِ السَّقف، جاعلًا بِركة النافورة تتلألأ بالنُّور المُنعكِس.

وارتفعَ رذاذٌ رقيق من الماء الساقط، مُبرِّدًا الغُرفة. فكان ذلك إراحةً مُرحِّبًا بها بعدَ ساعات عديدة على الطَّريق التُّرابيِّ.

قال الخادم: "انتظِري هُنا، سيِّدتي". وشاهدَته رصفة يَمشي تحت القناطر ويتوارى خلفَ الزاوية.

ذرَعَت الغُرفة بتوتُّر، فارِكةً ظهرَ كالِب. كان يتململ ولا بُدَّ أن يجوع عاجلًا. وكان صدرُها ملآنًا، استعدادًا لإطعامه.

سمِعَت وقْعَ خُطًى مُقبِلة، فخبَّطَ قلبُها. وإذ أغمضَت عينَيها، صلَّت بحرارةٍ طالبةً أن يُراعيَ أتريتِس حاجاتِ ابنه قبلَ كلِّ شيء آخر.

يا ربُّ، ساعِدني. أيُّها الآب، كيف يمكنني أن أتخلَّى عنِ ابني؟ كيف يمكن أن تطلب ذلك منِّي؟ ألا يكفي أنِّي فقدتُ شمعي وراحيل؟ أنتَ أعطيتَني كالِب. يقينًا أنَّك لا تُعطي لكي تعودَ فتأخُذ؟

قال الخادم: "السيِّدة رِصفة، سيِّدي". ففتحَت عينَيها. وسرى الخوفُ في أوصالها لمَّا رأتِ الرَّجُلَ معه. كان طويل القامة، قويَّ البنية، شعرُه طويل وأشقر وأشعَث، وقد حدَّقَ إليها وعيناه الزرقاوان تتأجَّجانِ ضَراوةً. لم تكُن قطُّ قد رأت وجهًا شرِسًا كهذا. وقد أحسَّت سطوةَ غضَبِه مُنتقِلةً عبْرَ الغُرفة.

قال أتريتِس: "اترُكنا!" فانصرف الخادم برشاقةٍ كانت أكثرَ إنذارًا بالخطَر بعد.

وتفاقمَ ذُعرها إذ وجدت نفسَها وحيدةً مع سيِّد البيت المَهيب. وكان الصَّوت الوحيد هو صوت الماء الجاري في النافورة. فخفَقَ قلبُها بضراوة إذ مشى أتريتِس نحوها ببُطء، وعيناه تضيقان ببُرودة إذ تَشيمانِها من رأسها إلى قدَمَيها، متوقِّفتَين باهتمام شِبهِ سطحيٍّ عند ابنه، ثُمَّ ترجعان إلى عينَيها. لقد أحسَّتِ العُنفَ فيه. وكان في وسعها أنْ تُحِسَّ قوَّةَ العُنفِ القاتمةَ مُنبعِثةً منه.

هذا الرَّجُل كان والِدَ كالِبَ الصغيرِ الحبيب؟ كيف أمكَنَ ذلك؟

ضمَّت إليها ابنَها أكثر، مُحتضِنةً إيَّاه بين ذِراعَيها.

أحسَّ أتريتِس الغضب يزداد فيه مع كلِّ خطوة خطاها. إنَّ المرأةَ الحاملةَ ابنَهُ بأقصى التَّملُّك ذكَّرَته بجوليا. كانت صغيرة الحجم، والشَّالُ الأسمر المنسوجُ الذي غطَّى شعرها أخفقَ في إخفاءِ حقيقةِ كونِها جميلةً. وقد شكَّلَت خُصَلٌ من الشَّعر الأسود الجَعد النَّديِّ

إطارًا لوجهها الناعم البيضَويِّ الشَّكل، الزَّيتونيِّ البشَرة. وكان فمُها مُكتنِزًا ورقيقًا، كفَم جوليا. كما كانت عيناها بُنِّيَّتين، كعينَي جوليا؛ وجِسمُها غضًّا، كجسمِ جوليا.

لو لم يكُن ابنُه ملفوفًا بشالها، لانتزعَهُ منها.

رمى صُرَّةَ النُّقود عند قدَمَيها. وزمجَرَ: "مئتا دينار!"

انفرجَت شفَتا رِصفة من الصَّدمة حِيالَ تلك الإشارة. وخطَت إلى الوراء. ما كانت قطُّ قد رأت مثل ذلك الوجه القاسي، البارد، الحقود.

فسألَ ببرودة: "ألا تكفي؟"

"أتحسَبُ أن تستردَّ الصَّبيَّ منِّي بشِرائه؟"

"لا، بل أدفعُ لكِ لقاءَ خِدماتٍ مؤدَّاة".

أثارت الكلِماتُ الجارِحةُ فيها غضَبًا ضاريًا. "المال؟ أيُّ تعويضٍ ذاك عنِ انتزاع طفلٍ تحبُّه امرأةٌ من بين ذراعَيها؟ لا يبدو أنَّك تفهم. أنا أُحِبُّ كالِب".

قال: "كالِب؟" مُتذكِّرًا مُصارِعًا عِبرانيًّا منذُ عهدٍ بعيد في روما، رجُلًا احترَمه...وقتلَه.

"اسمُ الطِّفل".

"ليس اسمًا سمَّيتُه أنا به".

"لم تكُن هُناك لتُسمِّيَه!"

قال أتريتِس ببرودة: "قيلَ لي إنَّه مات"، لاعِنًا نفسه من أجل تقديم أيِّ تفسير. فلم يكُن لها أيُّ دَخلٍ في الأمر. "الطِّفلُ لي، يا امرأة. حُلِّيه وأعطيني إيَّاه".

حاولت رِصفة أن تحبس الدُّموع، ولكنَّها جرَت. "لا".

"لا؟"

"رجاءً! يجب أن نتكلَّم".

لم يتأثَّر أتريتِس. كانت جوليا أيضًا قد استخدمت الدُّموع لتنالَ منه مهما أرادت. "لا شيءَ تقولينَه يمكن أن يُحدِثَ فرقًا".

"ربَّما حصَلَ التباس. لِكالِب شعرٌ أسوَد وعينان داكنتان..." وتضاءلَ صوتُها لمَّا أظلمَت عيناه بغضَب لم تفهمه.

فقال باقتِضابٍ وجَفاء: "كان لأُمِّه شعرٌ أسوَد وعينان داكنتان". واقتربَ منها خطوةً،

فتراجعَت هيَ مسافةً مُساوِية. فقال بسُخرية: "رُغمَ أنّي رُبَّما شكَكتُ في كلِمة أمِّه، فلا سبَبَ عندي للشَّكِّ في خادمتها، هَدسَّة. الولَدُ لي!"

"تتكلَّم عنه كما لو كان ملكًا! ليس هو حِصانًا يُشترى، ولا دارةً تُباع". ونظرَت حوالَيها. "ليس هذا بيتًا. إنَّه قلعة. أيُّ نوعٍ من الحياة يمكنك أن تُقدِّم له؟"

"هذا أمرٌ لا يعنيكِ".

"إنَّه يعنيني جدًّا. هو ابني".

"ما كان ابنَكِ قطُّ، يا امرأة. إنَّ مُجرَّد وضعِ ولَدٍ على ذراعَيكِ ليس سببًا يجعلُه لكِ".

فقالت: "لقد صار جُزءًا منّي لحظةَ وضعَهُ يوحنَّا على ذِراعيَّ".

"جميعُ النِّساء لهُنَّ قلبُ زانية، ولن أترُكَ ابني في يَدَيْ واحدةٍ منهنَّ!"

اغرَورقَت عيناها من جديد. "أنتَ مُخطئ في الحُكم على جميع النِّساء بسبب ما فعلَته بك إحداهُنَّ".

"قلَّما يهمُّ رأيُكِ إذا وُزِنَ مُقابِلَ حقِّي الشَّرعيِّ فيه". وأومأ برأسه نحو الطِّفل، فتَصلَّبَ ظهرُها.

"أنتَ تتكلَّم عن الحقِّ الشَّرعيِّ. ماذا عن المحبَّة؟ أينَ كُنتَ لمَّا كانت والدتُه تأمُر بالتخلِّي عنه؟ لماذا لم تبعثْ به إليك؟ أنتَ أيضًا لم تُرِده، أأردتَه؟ لقد أدرتَ له ظهرَكَ؟ ثُمَّ تتكلَّمُ عن جِنس النِّساء؟ أين كان كالِب الآن لو لم تُنقِذه هَدسَّة؟ لماذا تُريد استِردادَهُ الآن وأنتَ لم تُبالِ به قطُّ من قبل؟"

أراد أن يخنُقَها من أجل أسئلةٍ كهذه، لأنَّها أسئلةٌ أيقظَت لديه الشُّعورَ بالذَّنْبِ والألَم، كما أيقظَت أيضًا تملُّكيَّةً شرِسة. فقال ببرودة: "إنَّه لحمٌ من لحمي".

"إنَّ مُجرَّدَ كونِك قد أمضَيتَ بضع ساعات في سرير امرأة ليس سببًا يجعلُكَ أباه!"

فانقبضَت عضَلةٌ في حنَكِه.

وقالَت، مُكافِحةً الغضَب والأسى. "لم تكَد تنظرُ إليه. فلماذا تُريده، أتريتِس؟ ماذا تنوي أن تفعلَ به؟"

"أنوي أن آخُذَه معي راجِعًا إلى جِرمانيا".

فأطلقَت تنهُّدةً رقيقة، وقالَت بكَرْب: "جِرمانيا! كيف ستعتني، وأنت رجُلٌ وحيد، برضيع عُمرُه أربعة أشهُر في رحلةٍ كهذه طويلة وشاقَّة؟ أليس لديكَ تفكيرٌ في مصلحته؟ لن يبقى حيًّا!"

قال بتصميمٍ ضارٍ: ”سيبقى حيًّا. والآن، أعطيني إيَّاه“.

”إنَّه صغيرٌ جدًّا...“

”أعطيني إيَّاه، وإلَّا- قسَمًا بالآلِهة- أخذتُه منكِ عَنوةً!“

استيقظ كالِب وبدأ يبكي برِقَّة. وأحسَّت رِصفة قبضتَيه الصغيرتَين تضغطان على صدرها. وبعينَين مُغرَورِقتين رفعَت نظرها إلى أتريتِس فعلِمَت أنَّه سيفعل تمامًا ما هدَّد به. ولم يكُن في وسعها أن تُعرِّض كالِب لخطَر الأذى. فحلَّت شالَها وناولَته كالِب. فاشتدَّ بُكاء الطِّفل وأخذَت ذِراعاه الصغيرتان تخفقان. وفاضَ حليبُها، مُضاعِفًا كرْبَها. ”إنَّه جائع“.

تردَّد أتريتِس. لقد بدا ابنُه صغيرًا وهشًّا. ونظر إلى رِصفة فرأى كرْبَها. وقد جرَت الدُّموع بصمتٍ على خدَّيها. وبِوَجهٍ قاسٍ، مدَّ يدَيه وأخذ ابنه. فازدادت حِدَّةُ بُكاء الطِّفل.

صالبَت رِصفة ذراعَيها على قلبها. ورفعَت نظرَها إليه. ”رجاءً، أتريتِس، لا تفعل هذا“. وما كان قد رأى قطُّ سيماءَ كرْبٍ كهذه على وجهِ امرأة.

فقال بخشونة: ”اخرُجي من هُنا“.

”رجاءً...“

فصاح: ”اخرُجي!“ وبدأ الطِّفل يُصرِّخ.

ودارَت رِصفة لتمضي، مُطلِقةً نَشْجةً.

فقال: ”لا تنسَي هذه!“ وركَلَ صُرَّة المال وراءها.

التفتَت بسُرعة عند الباب. والتقطَتِ الصُّرَّة فقذفَتها بقوَّة إلى بِركة النَّافورة، مُحدِّقةً إليه من خِلال دموعها. ”ليُسامِحكَ الله، لأنِّي أنا لا أستطيعُ ذلك!“ وبنظرةٍ أخيرة واحدة إلى الطِّفل، فرَّت ناشِجةً.

تقدَّم أتريتِس بخُطًى واسعة وراقبَها تهبط الدَّرَج بسُرعة ثمَّ تجتاز الفِناء. ثُمَّ ركَلَ الباب فأغلقَه قبلما وصلَت إلى البوَّابة.

نظرَ من عَلُ قلِقًا إلى وجه ابنهِ المُحمَرِّ وشعَرَ بالشكِّ لحظةً. ولَمَسَ الشَّعر الأسود والخدَّ الأملس. فتصلَّبَ الطِّفل على ذِراعَيه وصرَّخَ صُراخًا أعلى. فقال أتريتِس بصوتٍ أجشَّ: ”صرِّخ قدْرَ ما تُريد. أنتَ لي. لستَ لها. أنتَ لي!“ وضمَّ ابنه إليه أكثر، مُهَزهِزًا إيَّاه وذارِعًا الغُرفة ذهابًا وإيابًا. إلَّا أنَّ الطِّفل لم يكفَّ عنِ البكاء.

”لاغُس!“

وفي الحال تقريبًا، ظهَرَ الخادم. ”نعم، سيِّدي“. فتساءل أتريتِس هل كان مُتواريًا وراء الزاوية، مُصغيًا إلى كلِّ كلمة.

”أحضِرِ المُرضِعة“.

”نعم، سيِّدي“. ما كان لاغُس قطُّ من قَبلُ قد رأى سيِّدَه يبدو مُضطرِبًا. أمَّا الان، وعلى ذِراعَيه طِفلٌ زاعِق، فبدا خلوًا من الثِّقة على نحوٍ هزليٍّ تقريبًا.

لَمَّا أحضرَ الخادمُ المرأةَ إلى الأتريوم، كان أتريتِس توَّاقًا جدًّا إلى تسليمها الطِّفل الباكي. ”خُذيه. قالت المرأة إنَّه جائع“. فخرجَت به من الغُرفة، وتنفَّس أتريتِس الصُّعَداءَ إذ خفَّ صُراخُ ابنِه.

لَمَحَ لاغُس صُرَّة المال في الماء. ”ما قبِلَت أن تأخذها، سيِّدي؟“

”لا، كما هو واضح“.

فتقدَّم لاغُس كي يشيلَ الصُّرَّة، إلَّا أنَّه سحَبَ يده نَترًا بسُرعة لَمَّا زجَرَه أتريتِس: ”اترُكْها!“ وعرف الخادم من السِّيماء الكالِحة على وجه سيِّده، لَمَّا استدارَ ومضى بخُطًى حثيثة، أنَّه سيُمضي اليوم في الجِمنازيوم.

٣

أيقظَت خادِمةُ لاغُس في وقت مُتأخِّر تلك اللَّيلة. "إنَّه ابنُ أتريتِس. المُرضِعة قلِقة". فقامَ مُترنِّحًا وتبعَ الخادمة في الرِّواق. وإذِ اقتربَ إلى المطبخ أكثرَ، استطاعَ أن يسمع بُكاء الطِّفل. ثمَّ دخلَ فرأى المُرضِعة تذرَعُ الأرضَ وعلى ذِراعَيها صُرَّةٌ.

قالت: "يأبى أن يرضَع!" وقد غمَرَ القلَقُ وجهَها.

أجاب: "ماذا تُريدين منِّي أن أفعل بشأنِ هذا؟" وقد أزعجَه أن يُوقَظ في نصف اللَّيل.

"يجب أن تُخبِرَ السيِّد، لاغُس".

فقال هازًّا رأسه: "آه، ليس أنا. يكفي أنَّكِ أيقظتِني في نصف اللَّيل. لن أضعَ رأسي في فم الأسد مُتعمِّدًا". وحكَّ رأسه مُتثائبًا. "سيرضَعُ الطِّفل عندما يجوع كفايةً". ودارَ ليمضي.

"أنتَ لا تفهم. ما يزال يبكي منذُ أن أعطاني السَّيِّدُ إيَّاه!"

تريَّثَ لاغُس في مدخل الباب والتفتَ: "هذا الوقتَ الطويل؟"

"نعم، وفي وسعي أن أقول لك أنِّي أشعر به آخِذًا في الضَّعف على ذراعيَّ. إنِ استمرَّ على هذه الحال، فقد يموت".

"إذًا يحسُنُ بكِ أن تفعلي شيئًا ما!"

"ذلك هو ما كنتُ أقولُه لك! لقد فعلتُ كلَّ ما أعرف كيف أفعلُه. إنَّ طفلًا صغيرًا هكذا يحتاج إلى حليب".

فقال بغضَب: "هل رابَ حليبُكِ، يا امرأة؟" وهو لا يعرف شيئًا عن هذه الأُمور. كيف سيقولُ للسَّيِّد إنَّ المُرضِعةَ جفَّ حليبُها؟

فاغتاظت المرأة وقالت بنَزَق: "ليس من مُشكِلة في حليبي. إنَّه مُتلهِّفٌ إلى أُمِّه".

قال مُتجهِّمًا: "آه، أُمُّه لا تُريده".

"قالت پيليا إنَّها كانت مُنتظِرةً خارج البوَّابة".

فقال: "المرأة التي أحضرَت الولدَ إلى أتريتِس ليست أُمَّه". وكان قد سمع خلسةً الحديثَ في الأتريوم. "والسيِّد يُريد ألَّا تكونَ لها أيَّةُ علاقة بالولَد".

قالت: "آه!" وأطلقَت تنهُّدةً حزينة. ثمَّ وضعَت الطِّفل في مهدٍ صُندوقيٍّ قُربَ نار الطَّبخ. "لعلَّها إذًا مشيئةُ الآلِهة أن يموت. أمرٌ يُرثى له. إنَّه جميل".

أحسَّ لاغُس قُشَعريرةً باردة. "أتعنين أنَّكِ ستتركينَه هناك؟"

"لقد فعلتُ كلَّ ما أستطيع".

تفكَّرَ لاغُس في الجهود والمخاطِر التي تكلَّفَها أتريتِس لاستعادة ابنه، فشكَّ في أنَّه سيتقبَّل موتَ الطِّفل بطريقة هادئة جدًّا. "سأُطلِعُ السيِّدَ على الوضع حالَما يستيقظ. وأنتِ، يا امرأة، إذا كانت لحياتكِ قيمةٌ في نظرِك، فأقترِحُ عليكِ جادًّا أن تظلِّي تُحاوِلين جعْلَ الطِّفل يأكُل".

لم يستطِع أتريتِس أن ينام. ووقف على شُرفته ينظر إلى التِّلال التي ترامى عليها ضوءُ القمر.

منذُ عشرِ سنينَ طويلة، قادَ قبيلة الشَّطِّي في ثورة على روما. ولمَّا هُزِمَ، أُسِرَ وبيعَ إلى لودُس في كاپوَا، ثمَّ إلى لودُس روما العظيم. عشرُ سنين! عُمرٌ آخَر.

أما زال أحَدٌ من بني قومه على قيد الحياة؟ هل نجا أخوه قارُس من المعركة؟ ماذا عن أُخته مارتا، وزوجها أُصيبي؟ ماذا جرى لأُمِّه؟ حنَّ مُتلهِّفًا أن يعود إلى دِياره في جِرمانيا ويتبيَّن هل كان بعضٌ من أحبَّائه أحياءً بَعد. وإذِ اتَّكأ على أريكة، حدَّق عاليًا إلى السَّماء المُرصَّعة بالنُّجوم، وهو لا يكادُ يشعر بهواء اللَّيل الساكن. أرادَ أن يتنشَّق رائحة الصَّنوبر الحادَّة، ويشربَ بيرةً ومِزرًا مُحلًّى بالعسَل. أراد أن يقعد مع المُحارِبين حول نارٍ مُشاوَرة في البُستان المقدَّس. أراد أن يكون في سلامٍ مع نفسه من جديد.

أغمضَ عينَيه مُتنهِّدًا، مُتسائلًا كيف يكون ذلك ممكنًا ذاتَ يوم. أراد أن ينام، أن ينسى، أن يرجع إلى الماضي، إلى الماضي البعيد لمَّا كان ولدًا صغيرًا يركض مع أبيه في غابات جِرمانيا الكثيفة. كانت الحياة آنذاك ملآنةً وغنيَّة جدًّا، مُنبسِطةً أمامه، جاهزة لأنْ تؤخذ. أراد لابنهِ أن يتربَّى في الغابة، برِّيًّا وحُرًّا كما كان هو، غيرَ مُلوَّث بِروما.

أصغى بتركيزٍ مُعبِّسًا. وأقسمَ إنَّ في وسعه أن يسمع ابنه ما زال باكيًا مثلما كان لمَّا أخذه عن ذِراعَي الأرملة. إلَّا أنَّ ذلك كان قبل ساعات.

زفَرَ نفَسَه ببطء، محاوِلًا أن يصرِفَ ذهنه إلى المستقبل وبعيدًا عن الماضي. إلَّا أنَّ ما خطَرَ له كان صورة واضحة لوجه رِصفة، والدُّموع تجري على خدَّيها الأملسَين من عينَينِ سوَّدَهُما الكرْب.

"ليُسامِحْكَ الله، لأنّي أنا لا أستطيع ذلك!"

أغمضَ عينَيه بإحكام، مُتذكّرًا الليلةَ التي فيها جاءت هَدسَّة إليه في التّلال وقالت له كلِماتٍ مُشابِهةً. "لِيَرحمْك الله!" وكان الصَّوت الذي خرج من حَنجرته دَمدمةَ ألَم. فقام عن الأريكة بسُرعةِ حيوانٍ قويٍّ، وتشبَّث بالحائط كما لو ابتغى أن يقفزَ عنه إلى رُقعة التُّراب المُسوَّرة. وكان قلبُه يُخبّط بشِدَّة، ونفَسُه يَصِرُّ بخُشونةٍ في حنجرته.

ثمَّ سمعَ الطِّفلَ يبكي من جديد.

وإذ غادَرَ الشُّرفة، رجَعَ إلى داخل غُرفة نومه. فوجدَ السُّكونَ سائدًا.

تمدَّد على سريره، واستلقى مُستيقظًا. فما سمعَ شيئًا بَعد.

غمرَه التَّوتُّر حتَّى اندفعَ عن السرير وسارَعَ الخَطوَ إلى الباب. فسفَقَه على الجِدار، ومشى في الرِّواق، ثمَّ توقَّف فوقَ الفِناء الداخليّ. ونصَبَ رأسَه مُصغيًا بانتباه، مُحاوِلًا أن يسمع أيَّ شيءٍ غير سَويّ. كانت النافورة في الأتريوم جاريةً. عدا ذلك، لم يكُن مُمكِنًا تمييزُ أيّ صوتٍ آخر في الدَّارة الكبيرة.

كان الليل قدِ انتصف. غالبًا ما كان الأطفالُ في قريته يستيقظون جائعين ويحتاجون لأنْ يُرضَعوا. فربَّما كان ذلك كلَّ ما في الأمر.

غيرَ أنَّ الشُّعور بالقلَق استمرَّ. لا بدَّ أنَّ شيئًا ما كان سيِّئًا. لم يعلَم ماذا كان ذلك، ولكنَّه أحسَّه. وكان قد تعلَّم أن يثِق بغرائزه في أثناء القِتال في ساحة المُحارِبين، فلم يسَعْه أن يتجاهلها الآن.

وإذ تمتمَ بشتيمة، اجتازَ الرِّواقَ الأعلى كلَّه وهبَطَ الدَّرَج. سيرى ابنه ويُريحُ بالَه. تُرى، أيَن وضع لاغُس المُرضِعة؟

فتَحَ أبوابًا ونظر داخِلَ غُرَفٍ خالية، مُتوجِّهًا نحو مؤخَّر الدَّارة. وإذ سمعَ وقْعَ خُطًى، انعطَف حولَ زاوية، فرأى لاغُس وفي يده سِراجٌ فخَّاريٌّ صغير. فوثَبَ الخادم، ثُمَّ أقبَلَ صوبَه.

"سيِّدي، كنتُ آتيًا من تَوّي..."

"أين ابني؟"

"في المطبخ، كنتُ آتيًا من توّي لأرى هل أنت مُستيقِظ".

"أين المطبخ؟"

قال لاغُس: "من هنا، سيِّدي". وسار أمامه بالسِّراج.

سأل أتريتِس: ''ما المشكلة؟'' محاولًا أن يدفعَ الرجُل إلى مِشيةٍ أسرع.

''إنَّه يرفض أن يرضَع. ما يزال يبكي منذُ...منذُ هذا الصباح''.

لم يقُل أتريتِس شيئًا. باتَ في وسعه الآن أن يسمع الولد، واخترقَ الصَّوتُ قلبه. فتبعَ لاغُس إلى داخل المطبخ، وصدَمته رائحةُ المِرحاض المُغثية. وقد كان الطِّفلَ في سرير صُندوقيٍّ بقُربه. ولمَّا كان الفجر يُوشِكُ أن يبزغ، كانت الطاهية تصنع عجينًا للخُبز.

تقدَّم أتريتِس نحو الطِّفلَ وحدَّقَ إليه من عَلُ. ''أهوَ مريض؟''

فقالَت المُرضِعة بتَوتُّر: ''لا أظنُّ ذلك، سيِّدي''. وقد وقفت على مقربة فارِكةً يدَيها.

وسأل بغضَب: ''ماذا تظنِّين؟''

كانت ترتجف خوفًا. لقد بدا سيِّدُها بعدُ أشرسَ ممَّا كانت شُهرتُه قد صوَّرته. وتذكَّرَت تنبيهَ لاغُس لها، فخشِيَت أن يُلقيَ السيِّدُ اللَّومَ عليها وحدها من أجل رفْض الولد. ولم تجرؤ أن تقول له إنَّ الطِّفلَ قد يموت لأنَّه انتزعَهُ من أمِّه.

''الأطفال سريعو العطَب، سيِّدي. فأحيانًا يمرضون ويموتون بِلا سبَب''.

''كانَ بخَير هذا الصَّباح''.

ولمَّا التفت إليها، تراجعَت خوفًا. ''لم يكفَّ عن البُكاء منذُ أن وضعَه لاغُس على ذراعيَّ، سيِّدي. لقد فعلتُ كلَّ ما في وسعي، ومع ذلك أبى أن يرضع''.

فتجهَّمَ ونظر إلى ابنه ثانيةً. ثُمَّ انحنى فشاله. وتحوَّل البُكاء الرقيق المُحزِن إلى زعقاتِ انتِحابٍ جرحَته أسوأ ممَّا جرحه أيُّ سيفٍ يومًا.

لم يكُن لاغُس قطُّ قد رأى سيِّده مُنجَرِحًا أكثرَ منه الآن.

قال أتريتِس: ''ماذا نفعل؟'' حاملًا الطِّفلَ على طيَّة ذِراعه، وقد بدأ يتمشَّى في المطبخ. ''لن أدَعَهُ يموت''.

قال لاغُس: ''في وسعنا أن نستدعيَ أمَّه''. وما لبِثَ أن ندِمَ حالًا على كلماته لدى النظرة التي رمقه أتريتِس بها. فاستدركَ مُسرِعًا: ''أعني المرأةَ التي أحضرَته إليك، سيِّدي''.

ظلَّ أتريتِس يتمشَّى. ومسَّ خدَّ ابنه برِفق، فدار رأسُ الطِّفل بحدَّة، فاتحًا فمه. فقال بخشونة: ''انظُري. إنَّه جائع الآن. أطعِميه''.

لم ترَ المُرضِعة أيَّ سبيلٍ آخر لإقناعه. فأخذت الطِّفلَ، وقعدَت، وأخرجَت ثَديَها الكبير. فالتقطَ الطِّفلُ الحَلَمة، ثمَّ انكفأ بحِدَّة، باكيًا بصوتٍ أعلى، والحليبُ يجري مرفوضًا

من فمه. فرفعَت نظرَها إلى أتريتِس. "أرأيتَ، سيِّدي؟"

أجرى أتريتِس إحدى يدَيه رُجوعًا في شعره. لقد كان مسؤولًا عن مقتلِ أكثرَ من مئة وخمسين رجُلًا. فهل يغدو مسؤولًا عن موت ابنه الطِّفل أيضًا؟ أغمضَ عينَيه وأشاحَ وجهَه، فارِكًا قفا رقَبَتِه. كان هنالك أمرٌ واحد فقط استطاعَ أن يُفكِّر فيه. فأمرَ بتجهُّم: "أيقظ سيلُس!"

غطَّتِ المُرضِعةُ نفسها، وأعادَتِ الطِّفل إلى المهد. فقال أتريتِس بغضب: "أعطيني إيَّاه!" وقد رأى كم كانت سريعةً في التَّملُّص من واجباتها. "لعلَّكِ أحكمتِ لفَّه كثيرًا". ثمَّ قعد وحطَّ الطِّفل على فخِذَيه، حالًّا الأقمِطة التي كان ملفوفًا بها، وقد جعلَته يبدو كمومياء. كان جِلدُ الطِّفل شاحِبًا ومُبقَّعًا. وأتى الهواءُ البارد بدفقةٍ من البَول رُشَّت على صدر أتريتِس. فسَبَّ مُنكمِشًا من المُفاجأة.

فقالت المُرضِعة بسُرعة: "هذا يحدث كلَّ حين، سيِّدي. هل تودُّ أن آخُذَه؟"

حدَّقَ أتريتِس من علُ إلى ابنه. وقال بابتسامةٍ ساخِرة: "لا! أظنُّ أنَّه يُعبِّر عن رأيه فيَّ".

ثمَّ دخل سيلُس الغُرفة، وعيناه تبدوانِ غائمتَين من الشَّراب وقلَّة النَّوم. "قال لاغُس إنَّكَ أرسلتَ في طلَبي، سيِّدي".

فقال أتريتِس: "اذهبْ إلى أفسُس. إلى الجنوب الشَّرقيِّ من الأرطميسيون شارعٌ فيه شِقَقٌ سكنيَّة (إنسولايي) على كِلا جانبَيه. ادخُلِ المبنى الغربيَّ. في الطابق الثاني، الباب الرابع إلى اليمين، فتجِدَ الأرملة رِصفة".

"المرأة التي أحضَرتِ الطِّفل هذا الصَّباح؟"

"نعم. أعِدها إلى هُنا بأسرعِ ما يمكن".

"إنَّها لم تُغادِر قطُّ، سيِّدي".

"ماذا؟" واكفَهرَّ وجهُ أتريتِس. "ماذا تعني بقولك إنَّها لم تُغادِر قطُّ؟ لقد أمرتُها بالانصِراف!"

"لقد غادرَتِ الدَّارة، سيِّدي. خرجَت من البوَّابة وقعدَت بجانب الطريق. ومُنذ ذاك الحين ما تزال هُناك".

تجهَّمَ أتريتِس، مُنزعِجًا ومُنفرِجًا في الوقت نفسه. "أحضِرها".

فانصرَفَ سيلُس حالًا.

وتَرَ بُكاءُ الطِّفل أعصابَ أتريتِس. فتمشَّى قليلًا ثُمَّ قعد، والطِّفلُ في حضنه. وقال

مُتَمتِمًا: "لماذا هذا التأخير؟" شاعِرًا كأنَّ في يدَيه جَمرةً ساخِنة. وما لبِثَت خُطواتٌ خفيفة أن أسرعَت على طول الرِّواق الخارجيِّ، وظهرَتِ الأرملةُ في مدخَل الباب.

وبوجهٍ شاحب من البرد ومُنتفخ من البُكاء، دخلَت رِصفة المطبخ. وانتظرَ أتريتِس منها أن تنهالَ عليه بالاتِّهامات. إلَّا أنَّها لم تفعل ذلك. ولم تقُل شيئًا سِوى "كالِب" بهَمسٍ مُنكسِر إذ عبرَتِ الغُرفة. فرفعَ أتريتِس يدَيه عنِ ابنه. وشالَت هي الطِّفل عن حضنه. وإذ ضمَّتِ الصغير بشِدَّة، ظلَّ يبكي، ولكنَّ الصوت باتَ مُختلِفًا. فأشاحت وجهها، وأزاحت شالها وحلَّت كتِفَ تُنكها اليُمنى. ورأى أتريتِس كتِفَيها تَنتخِعانِ مرَّةً إذ بدأ ابنُه يرضع.

خيَّمَ السُّكونُ على المطبخ.

أطلقَت المُرضِعة الجِرمانيَّة تنهُّدةً عميقة، كانت صدًى لانشراح صدر أتريتِس. "الطِّفلُ يعرِفُ أُمَّه".

فقام أتريتِس بحِدَّة. "اخرُجي من هُنا!"

وبشَهقةِ ذُعر، غادرت المُرضِعة المطبخ حالًا. وحوَّل أتريتِس حَملقتَه الغَضبى نحو لاغُس وسيلُس، صارِفًا كِلَيهما بنَخعةٍ من رأسه.

ثُمَّ خيَّم السُّكون على المطبخ من جديد إذ وقف أتريتِس وحدَه في الغُرفة مع الأرملة التي تُرضِعُ ابنَه. وإذ عقَفَ الكُرسيَّ بقدَمِه، شحَطَهُ أقربَ إلى النَّار. "اقعُدي". ففعلَتِ المرأةُ ذلك دونَ أن تنظُرَ إليه. وكان ظهرُها مُنحنيًا فوقَ الولد، وقد دندنت له برِقَّة وهو يرضَع.

تنقَّل أتريتِس قلِقًا في المطبخ، حتَّى توقَّفَ أخيرًا وأتْكأ وَركَه على منضدة. وإذ صرَّ بأسنانه، التفتَ من جديد. كانت قد أسدلَت الشالَ باحتشامٍ على كتِفها، واستقرَّ الطِّفل على صدرها تحتَ الشال. ولاحظَ أتريتِس الرُّطوبة تنساب عبْرَ جانب تُنكِها الأيسر.

أزاحت رِصفة كالِب برِفق، مُبقيةً الغِطاء إذ حلَّت الرُّبُطَ على كتِفها الأيسر. وأحسَّت أتريتِس يُراقِبُها، فارتبكَت. وخفَقَت عيناها نحوَه.

فوجئَ أتريتِس لدى رؤية خدَّيها يتورَّدان. كم من السِّنين قد مضت منذ رؤيته امرأةً ترتبِكُ من أجل أيِّ شيء؟ ودارت على الكُرسيِّ بحيثُ باتَ ظهرُها صوبَه، مُنزعجةً بوضوح من حضوره. وكان في وُسعِها أن تتحمَّل ذلك؛ فهو ما كان لِيترُكها وحدَها مع ابنه.

استطاعت رِصفة أن تُحِسَّ حَملقَته مُخترِقةً ظهرها. واستطاعت أن تشعُرَ بحماوةِ غضَبِه.

وما لبِثَ أن قال عابِسًا: "قلتُ لكِ أن تُغادِري".

"لستَ تملكُ الطريق".

فضحِكَ ضِحكةً كئيبة. "يبدو أنَّكِ تملكين ابني".

نظرَت رِصفة إلى الوراء من فوق كتِفها، فرأت في وجهه شيئًا علِمَت أنَّه كان يودُّ أن يُخفيَه. وقد انبسَطَ فمُه وتألَّقت عيناه إذ لاقَتا عينَيها. ثمَّ قالت برِقَّة: "كان لي وقتٌ طويل لأُفكِّر".

"فيمَ؟"

"أعرِفُ عنكَ القليلَ القليل. فقَط تفاصيلَ قاتمة عن حياةِ العُنفِ التي عِشتَها".

فجاءتِ ابتسامتُه باردةً وساخرة.

نظرَت إلى كالِب قلِقةً. سينام عاجلًا على صدرها. لقد كان جميلًا جدًّا وغاليًا عندها كثيرًا، إلَّا أنَّها علِمَت أنَّه كلَّما تشبَّثَت به تشبُّثًا أشدَّ ازدادَ أتريتِس ضراوةً في تصميمه على انتزاعه منها.

ولمَّا أزاحت كالِب قليلًا، اشتغَلَ فمُه من جديد، بطريقةٍ مسعورة تقريبًا، مُتمسِّكًا بها. وإذ مسَّت صدرَها بإحدى أصابعها، أوقفَتِ المَصَّ. وتقطَّرَت من فمه دفقةُ حليب، فمسحَتها. وإذ قبَّلَته قُبلةً خفيفة، حطَّته برِفقٍ على فخِذَيها، وربطَت تُنكها. وكان ما يزال في وسعها أن تُحِسَّ أتريتِس مُراقِبًا إيَّاها.

عدَّلَتِ الشال لِتُغطِّيَ صِدارَ تُنكِها المُبتَلَّ، مُتذكِّرةً كيف فاضَ حليبُها لحظةَ دخلَتِ الردهة وسمِعَت كالِب يبكي. لقد كان الله عجيبًا حقًّا! وإذ رفعَت كالِب إلى كتِفها، فرَكَت ظهرَه برِفقٍ وهي تقِف. وتمشَّت ببُطء، مُربِّتةً إيَّاه بلُطف. فكان دافئًا ومستريحًا على صدرها. ونظرَت إلى أتريتِس فرأت عبسَته المُضطرِبة.

وإذ رأت رِصفة انطِباقَ حَنَكِه، تذكَّرَت قصَّةَ الملِك سُلَيمان والمرأتين المُتنازِعتَين على ولَد. فالتي كانتِ الأُمَّ الحقيقيَّة كانت على استِعداد للتخلِّي عن الولَد حِفاظًا على حياته.

إنَّ أُمَّ كالِب أرادت له الموت. أمَّا هذا الرجُل، فما كانت قطُّ قد رأت أيَّ شخص بقَساوته ووسامته البالغتَين! لقد بدَت ملامِحُه منحوتةً بيَدِ نحَّاتٍ بارع. وكلُّ ما فيه نضَحَ برُجولة جزيلة غامرة. ولم يكُن لديه أدنى أثَرٍ من اللين. وقد نمَّت سيماؤه عن عِنادٍ كُلِّيٍّ. ولكنْ هل كان كذلك فعلًا؟

أيُّها الربُّ إلهي، ليِّنْ قلبَه تُجاهي!

ثمَّ تقدَّمَت رِصفة ووقفت أمامه، وقلبُها يدقُّ بتبلُّد. ومدَّت يديها تُناوِلُه ابنَه النائم. "خُذه". فاستقام مُتجهِّمًا. وضاقت عيناه عليها باحتِراسٍ إذ أخذَ ابنه. فاستيقظ كالِب في

الحال وبدأ يبكي، ورأت رِصفة إجفالةَ ألَمٍ دامٍ تخفق على وجه أتريتِس.

قالت بلُطف، مُدافِعةً الدُّموع: "ضُمَّه إلى قلبك. نعم، هكذا. والآنَ افرُك ظهرَه برِفق". وكانت يدُه ضخمةً على ظهر كالِب.

حمَلَ أتريتِس ابنه باضطِراب، مُتوقِّعًا إلى حدٍّ ما أن يتحوَّل البُكاء الرقيق المُحزِن إلى صُراخ.

قالت رِصفة- وهي تعني ما تقول- "أرجو أن تُسامِحَني، أتريتِس. لِساني كالنَّار أحيانًا. أنا آسِفة على الكَلِمات الفظَّة التي قلتُها لك. لم يكُن لي أيُّ حقٍّ في أن أدين".

خفقَت الدَّهشة على وجهه الكئيب، ثُمَّ التوى فمُه بابتسامةٍ ساخرة، وقال هازئًا: "حلو".

لماذا ينبغي أن يُصدِّقها بعدَما تصرَّفت كما تصرَّفت؟

نظرَت إلى كالِب مُستكِنًّا على ذِراعَي أتريتِس القويَّتين، وفكَّرت كم بدا سريعَ العطَب هُناك. فانسَدَّت حَنجرتُها وحَنَت رأسها على مهل، طارِفةً بعينَيها حَبسًا للدَّمع.

تأمَّلها أتريتِس بتركيز، وقدِ انزعجَ من المشاعر التي حرَّكتها فيه. كانت عيناها البُنِّيَّتان قاتمَتَين من الإرهاق، وخدَّاها مُلطَّخين بالوسخ ومُقلَّمَين حيث جرَتِ الدُّموع. والآن رفعَت نظرَها إليه، وسيماؤها مُفعمَةٌ استِعطافًا.

وقالت بصوتٍ راعش: "أعلَمُ أنَّ كالِب لكَ، بمُقتضى جميع قوانين روما، تفعلُ به ما تشاء، ولكنِّي أطلب إليك أن تُفكِّر في حاجاته". ولمَّا لم يقُل شيئًا، غاصَ قلبُها. "كالِب وأنا مُترابِطان بقوَّة كما لو كان قد وُلِدَ من أحشائي".

"أنتِ لستِ أمَّه".

"أنا الأُمُّ الوحيدة التي عرَفَها".

"كلُّ امرأةٍ عرفتُها منذ أن جيء بي مُقيَّدًا من جِرمانيا كانت بَغيًّا، ما عدا واحدة. وأنت تَبدينَ غير مُختلفة عن الأكثريَّة".

شدَّتِ الشالَ أكثر حول كتِفَيها، وقد أصابتها قُشَعريرةٌ من جرَّاء الغضب الذي رأته في عينَيه الزَّرقاوين. لم يُحدِث فرقًا لدَيها أنَّه دانَها حتَّى دونَ أن يعرِفها. فإنَّ أُمورًا أخرى همَّتها أكثر. "سوف يستيقظ كالِب بعد ساعات قليلة. إذا أبى أن يقبل المُرضِعة بَعد، فأرسِلِ الحارِسَ ثانيةً. سأكونُ خارجَ البوَّابة".

راقبَها أتريتِس تُغادِر، مدهوشًا. وأصغى مُتجهِّمًا إذ تلاشَت خطواتُها الخفيفة في قلبِ الرِّواق المُعتِم. ولمَّا قعد ونظر إلى ابنه النائم، أحسَّ قلَقًا غامضًا.

مشى أتريتِس مُكشِّرَ الفَمِ عبْرَ الفِناء الأجرد، وصرَفَ غالُص بنخعةٍ من ذقنه، ودفعَ الرِّتاجَ جانبًا بقوَّة، وفتحَ البوَّابة. ثمَّ خرج وتطلَّع حوالَيه. فإذا الأرملةُ تمامًا حيثُ قالت إنَّها ستكون، قاعِدة وظهرُها إلى الجِدار. وقد كانت رُكبتاها مرفوعتين ومُلامِستَين صدرَها، وشالُها ملفوفًا حولها طلبًا للدِّفء.

لمَّا وقع ظِلُّه عليها، استيقظَت ورفعَت رأسها. وكانَ تحت عينَيها دوائرُ سوداء.

وقفَ فوقها واضِعًا يدَيه على خاصِرتَيه. وقال: "حاولَت المُرضِعة من جديد ولم تُحرِز نجاحًا أكثر من البارحة". وقد نمَّت لهجتُه عن إلقاء اللَّوم عليها بطريقةٍ ما. "تعالَي أطعِميه".

لاحظت رِصفة أنَّه جاء ليُصدِرَ أمرًا، لا ليُقدِّم طلَبًا. فقامت مُتيبِّسةً، موجوعًا جِسمُها من سهرها الطويل في البرد. ولم يكُن كالِب هو الوحيدَ الذي كان جائعًا. فهي لم تأكُل منذ أن غادرَت أفسُس صباحَ أمس.

قال أتريتِس: "سوف تبقَين". وذلك بلهجةٍ دلَّت على أنَّ القرار قدِ اتُّخِذ، سواءٌ أعجَبَها أم لا. وإذِ ابتسمَت فرَجًا، رفعت صلاةَ شُكرٍ صامتةً وهي تتبعُه صعودًا على الدَّرج فإلى داخل الدَّارة. وقال أتريتِس: "سيذهب سيلُس لإحضار أشيائكِ. سيكون لكِ مكانٌ تُقيمين فيه بقُرب المطبخ". والتفتَ إلى الوراء فرأى ابتسامتها. "لا تظُنِّي أنَّكِ فُزتِ".

وإذ تبِعَته في الأتريوم، قالت: "لن أشُدَّ على كالِب كما لو كان عظْمةً بين كلبَين". وكان في وسعها أن تسمع صُراخ الطِّفل باكيًا. "سيكون أفضل إذا كان معي".

فتوقَّف أتريتِس وحدَّقَ إليها. "لن تأخُذيه خارجَ هذه الأسوار".

"لم أعنِ ذلك. عنيتُ أنَّ الوضع يكون أفضل إذا كان معي في مسكني، حيثُ أستطيع أن أسهر عليه وأُلبِّي حاجاتِه حالَ ظهورِها".

فتردَّد. ثُمَّ قال عابسًا: "كما تشائين. راضيَة؟"

نظرت إلى وجهه القاسي وعلِمَت أنَّ كبرياءه جُرِحَت. وإذِ ابتلعت كبرياءها قدَّمت طلبًا بسيطًا جعلها تُحِسُّ كأنَّها مُتسوِّلة. "هل لي بشيءٍ آكلُه وأشربه؟"

ارتفع حاجِباهُ بعضَ الشيء إدراكًا. "أطلِعي لاغُس على ما تُريدين، فيُعنى بإعداده لكِ". والتوى فمُه بابتسامةٍ سُخرية. "أكبادَ وزّ، لحمَ عِجلٍ أُطعِمَ بَلُّوطًا، لحمَ نَعام، خمرًا من شمال إيطاليا؟ مهما كان ذوقكِ. أنا على يقين بأنَّ أيَّ شيء تشتهينَه يُمكِنُ الحصول عليه".

ضمَّت رِصفة شفتَيها معًا، صادَّةً جوابًا غاضِبًا. فمن شأن أيِّ جوابٍ فظٍّ أن يؤدِّيَ فقط

إلى إثارة غضَبِه بَعد، وهي قد أحدثَت أصلًا ضرَرًا كافيًا بِلسانِها المُشاكِس. "خُبزٌ مصنوع من الحُبوب السَّبعة، وعدَس، وفاكهة، ونبيذ مُخفَّف بالماء، سيكونُ أكثرَ من كافٍ لي، سيِّدي. عدا ذلك، لا أطلب شيئًا".

وإذ شرَعَ يقطع الرِّواق المؤدِّي إلى المطبخ، قال: "ستنالين دينارًا كلَّ يوم طالَما بقيتِ في بيتي".

"لن أقبِضَ مالًا لِقاءَ..."

وتوقَّفت لمَّا وقف أتريتِس ورجَعَ نحوها. ثُمَّ انحنى وقرَّبَ وجهَه إلى وجهها تمامًا. وقال من بينِ أسنانه: "دينارًا كلَّ يوم". وقد تأجَّجت عيناه الزَّرقاوان. "حتَّى تفهمي أنَّكِ هُنا بأُجرتكِ. فعندما يُفطَم ابني، تذهبين!"

أبَت أن ترتاع. وفكَّرت: سنة واحدة، على الأقلّ، مع كالِب، شاكرةً الله من جديد. كفاها بُكاء. ستتشبَّث بعِلمها أنَّ أشياءَ كثيرة يمكن أن تتغيَّر في غضون سنة، وليس أقلَّها قلبُ رجُل.

ضاقت عينا أتريتِس. ولمَّا لم تُدلِ المرأة بأيِّ تعليق آخر، استقامَ على مهل. لقد روَّع رجالًا بغضبٍ أقلَّ ممَّا أبداه لها، ومع ذلك وقفَت هادئةً، جليَّةَ العينَين، محدِّقةً إليه دون أدنى قلَق. فقال بحذر: "تعرفين الطريق".

فتخطَّته رصفة ومشت في البهو.

وإذ صُعِقَ أتريتِس برشاقتها وجلالها، حدَّقَ إليها حتَّى دخلَت المطبخ. وبعدَ ذلك بلحظة، كفَّ الطِّفلُ عن البكاء.

٤

اتَّكأ سَرتِس على بابٍ في سُورِ الدَّارة الشَّرقيِّ، مُبتسِمًا وهو يُراقِب أتريتِس من بعيد. وقال: "إنَّه يُحافِظ على لياقته البدنيَّة!" إذ شاهدَ الجِرمانيَّ يركض نازِلًا مُنحدَرًا صخريًّا.

ضحِكَ غالُص ضِحكةً هشَّة. "لا تُفرِط في الافتراض، سَرتِس. إنَّ أتريتِس يعمل جاهدًا لطرد الأرواح الشِّريرة من رأسه".

فقال سَرتِس بابتسامة خفيفة: "عسى أن تمنعه الآلِهةُ من النَّجاح. إنَّ الرَّعاع مُشتاقون إليه. ما أثارهم أيُّ رجُل كما أثارهم هو".

"في وسعك أن تنسى ما أنت مُفكِّر فيه. إنَّه يأبى أن يرجِع".

ضحِكَ الإيونيُّ برِقَّة. "هو مُشتاقٌ إلى المُصارعة. لعلَّه لا يعترِف بهذا الآن، ولا لنفسه، إلَّا أنَّه سيعترِف ذاتَ يوم". عاجِلًا، كما رجا سَرتِس. وإلَّا، فهو سيُضطرُّ إلى ابتكار طريقة لجعله يُريد الرُّجوع، الأمرُ الذي كان سهلًا كلَّ حين عندما يكون الرَّجُل مُكيَّفًا بوصفه مُصارِعًا في ساحة المُحاربين بحيثُ لا يستطيع أن يشتغل في أيِّ مَيدان آخر. ثُمَّ إنَّ مُصارِعًا له شغَفُ أتريتِس وتأثيرُه السِّحريُّ كان يُساوي ثروة.

راقبَ سَرتِس أتريتِس يتسلَّق مُسرِعًا آخِرَ تلَّة قبل الدَّارة. واكفهَرَّ وجه الجِرمانيِّ لمَّا رأى سَرتِس، غيرَ أنَّ هذا لم يستأ، بل بالأحرى تبسَّم.

وإذ أبطأ أتريتِس إلى مِشية سريعة، نفَّضَ عنه الأثقال، طارِحًا إيَّاها جانبًا وهو يمشي بخُطًى واسعة مُتخطِّيًا سَرتِس إلى داخل فناء الدارة الأجرد. وقال دون أن يتوقَّف: "ماذا أنت فاعِلٌ هُنا، سَرتِس؟"

تبِعَه سَرتِس بخُطواتٍ أكثرَ إراحةً. وقال بمَرَح طيِّب: "جئتُ لأرى كيفَ حالُكَ مع حرِّيَّتك". إنَّه يُتاجِر بالمُصارِعين منذ عشرين سنة، واستطاعَ أن يرى أنَّ الحياة الهادئة باتَت مُضنيةً فعلًا. فما إن يختبر الرَّجُلُ الإثارةَ والتعطُّش إلى الدِّماء في ساحة المُحارِبين، حتَّى لا يعود قادرًا على مُغادرة تلك الحياة دونَ إنكارِ جُزءٍ أساسيٍّ من طبيعته. وقد رأى سَرتِس تلك الطبيعةَ عينها تنخَسُ الجِرمانيَّ دافعةً إيَّاه، مع أنَّ أتريتِس لم يُدرِك ذلك بعد. كان سَرتِس مرَّةً قد شاهد نَمِرًا يمشي في قفَصِه ذهابًا وإيابًا. وقد بدا أتريتِس الآن في مِثلِ تلك الحالة.

لدى دخول أتريتِس الحمَّامات، تجرَّد من تُنكهِ وغطس في الفريجيداريوم. فدخلَ سَرتِس وجلس على الممشى الرُّخاميِّ بمُحاذاة الجِدار، مُراقِبًا إيَّاه بإعجاب. لقد كان تجسيدَ القوَّة والرَّشاقة الرجوليَّة. فلا عجَبَ أنَّ النِّساء صرخنَ مُتلهِّفاتٍ إليه. وخرَجَ أتريتِس من البِركة عند الطَّرفِ الآخر بحرَكةِ قوَّةٍ مُتدفِّقة واحدة، والماء يُطَرطِشُ عن جسمهِ الرائع. لقد كان سَرتِس فخورًا به. "ما زالوا يهتفون باسمك، كما تعلم".

تناول أتريتِس مِنشفةً ولفَّها على خصره. "لقد انتهَت أيَّامُ قتالي".

ابتسم سَرتِس قليلًا، وداخلَت عينَيه السَّوداوَين مسحةُ سخرية. "أليس من تقديمِ خمرٍ لصديق؟"

فقال أتريتِس مُومئًا بيده: "لاغُس". فسكب لاغُس خمرًا في كأسٍ فضِّيَّة وأتى بها إلى سَرتِس.

رفعَ سَرتِس الكأس إشارةً إلى شُربِ نَخْب، قائلًا: "من أجل رجوعك إلى ساحة المُحارِبين!" ثُمَّ شرِبَ غيرَ مُنزعِجٍ من النَّظرة التي رمَقَه بها أتريتِس زامًّا شفَتَيه. ثُمَّ خفض الكأس. "جئتُ أقدِّمُ إليك عرضًا".

"احتفِظ به".

"اسمعني".

"احتفِظ به!"

برَمَ سَرتِس الخمر. "أتخشى أن تُغيِّر رأيك؟"

"لا شيءَ يمكن أن يحملني على القتال في ساحة المحاربين من جديد".

"لا شيء؟ أنتَ تتحدَّى الآلِهةَ بالذَّات، أتريتِس. وذلك ليس من الحِكمة أبدًا. لا تنسَ أنَّ أرطميس هي التي دعَتك إلى أفَسُس".

فضحِكَ أتريتِس ضِحكةَ سُخرية. "أنتَ دفعتَ سِعرَ فَسبازيان. ذلك هو ما أتى بي إلى هُنا".

أُهين سَرتِس، ولكنَّه فكَّر في ما هو أفضلُ من التعليق على تجديفةٍ كهذه. "ستُرحِّب بخبَر وفاة فَسبازيان".

فرمَقَه أتريتِس بنظرةٍ نامَّة. "وفاتِه قتلًا، كما أرجو". وفرقَعَ إصبعَيه. "خمرًا، لاغُس. املإ الكأس حتَّى حافتها. أشعرُ بميلٍ إلى الاحتفال".

وضحِكَ سَرتِس برِقَّة. "سيؤسِفُكَ أن تسمع أنَّه مات بأسباب طبيعيَّة. ليس أنَّه لم

يكُن أشخاصٌ نظيرك ممَّن تمنَّوا له المرَض، ولا سيَّما الأرِستوقراطيِّين القُدامى الذين وجدوا أنفُسَهم يتشاركون في مجلس الشُّيوخ مع ريفيِّين جُنِّدوا من إسپانيا. وقد سرَت شائعاتٌ بأنَّ والد فَسبازيان كان جابيَ ضرائبَ إسپانيًّا، ولكنْ مَن يدري بعد؟"

"مَن يَعنيه الأمرُ؟"

"أتصوَّر أُولئك الذين في إسپانيا. لقد بدا مُنحازًا إليهم فعلًا. فهو منحَهُم الحقوق اللاتينيَّة فضلًا عن الجنسيَّة الرُّومانيَّة لجميع الحُكَّام". وضحِك.

"أمرٌ لم يرُقِ العائلات القديمة التي حسبت فَسبازيان من العامَّة". ثُمَّ رفعَ كأسه ثانيةً. "رُغمَ سُلالته، كان إمبراطورًا عظيمًا".

"عظيمًا؟" غمغمَ أتريتِس بكلمة بذيئة وبصق على بَلاطِ الرُّخام.

"نعم، عظيمًا. ولعلَّه الأعظم منذ يوليوس قيصر. فرُغمَ اشتهارِ فَسبازيان بالجشَع، أنقذت إصلاحاتُه الضَّريبيَّة روما من الخراب الماليِّ. لقد كانت سياستُه أن يُعيدَ الاستقرار أوَّلًا إلى الدَّولة المُترنِّحة، ثُمَّ يُجمِّلَها. وقد أنجز الكثير من ذلك. ويقوم الفُورُم ومعبد السَّلام في روما شاهِدَين يُثنِيان على مجهوداته. وممَّا يُرثى له أنَّه لم يتمكَّن من إنجاز ساحة المحاربين الضَّخمة التي شرع في بنائها على أساسات بيت نيرون الذهبيّ".

فقال أتريتِس مُتهكِّمًا: "نعم، أمرٌ يُرثى له".

"آه، أعلَم أنَّك كرِهتَه. لِسبَبٍ وجيه. فرُغمَ كلِّ شيء، ألَم يكُن ابنُ عمِّ فَسبازيان هو مَن سحَقَ الثَّورة في جِرمانيا؟"

رمقَهُ أتريتِس بنظرةٍ قاتمة. "الثَّورة مُستمرَّة".

"ليس بعد، أتريتِس. لا تزال بعيدًا عن موطنِكَ زمانًا طويلًا جدًّا. لقد ضمَّ فَسبازيان مناطق الأغري في جِرمانيا الجنوبيَّة، وعزَلَ الزاوية المعكوسة التي يُكوِّنها نهر الرين في بازِل. فالجِرمانيُّون أكثرُ تفرُّقًا من أن يُشكِّلوا أيَّ خطَر على روما الآن. لقد كان فَسبازيان عبقريًّا عسكريًّا". واستطاع سَرتِس أن يرى أنَّ أتريتِس لم يحبَّ سماع الإطراءات الحماسيَّة لأعدائه. فقد أضرمَتِ الضغينةَ في داخله. وذلك تمامًا هو ما أراده سَرتِس: أن يُبقيَ النار ساخنة.

"لا بدَّ أن تتذكَّر ابنه الأصغر، دوميتيان".

لقد تذكَّر أتريتِس ذلك كلَّه جيِّدًا.

وقال سَرتِس عَرَضًا: "أظنُّ أنَّه هو رتَّبَ مُباراتك الأخيرة في روما". وبذلك دفع السِّكِّينَ

إلى الداخل أعمق. "أخوه الأكبر، تيطس، هو الإمبراطور الآن".

فتجرَّع أتريتِس ما بقي من كأسه.

وقال سَرتِس: "إنَّ مسيرته العسكريَّة لامعةٌ كسيرةِ أبيه. فتيطس هو الذي سحَقَ الثَّورة في منطقة اليهوديَّة ودمَّرَ مدينة القُدس. وما عدا ارتباطه التَّاعِس بالأميرة اليهوديَّة برنيكة، لا تشوبُ مسيرتَهُ شائبة. السِّلمُ الرُّومانيُّ بأيِّ ثمَن. ولنا أن نرجوَ فقط أن تمتدَّ قُدراتهُ إلى الإدارة أيضًا".

حطَّ أتريتِس كأسه الفارغة جانبًا وأخذَ مِنشفةً أُخرى عن الرَّفِّ. فنشَّفَ شعره وأعلى جسمه، وعيناه الزَّرقاوان تأتلِقان.

تأمَّله سَرتِس برِضًى مُقنَّع. وقال: "تكاثرَت شائعاتٌ بأنَّك كنتَ في المدينة قبل بضعِ لَيالٍ"، كأنَّه يُلمِّح إلى حادثة مُتقطِّعة. ولم يُضِف أنَّ غالُص أكَّد الشائعات، رغمَ أنَّه لم يعلم سبب زيارة أتريتِس السرِّيَّة. لا بُدَّ أنَّ أمرًا مهمًّا قد جرى، وأراد سَرتِس أن يعلم ماذا كان. فلعلَّه يُبرهِنُ نفعَه في حمْل أتريتِس على الرُّجوع إلى ساحة المُحارِبين.

قال أتريتِس: "ذهبتُ لتأدية احتراماتي للإلاهة، فوجدتُ نفسي وسطَ شَغَبٍ بدلًا من ذلك". وقد وافَتِ الكِذبةُ بسهولة.

وإذ رأى سَرتِس فُرصةً، التقطَها. "أنا أعرف البروقُنصل جيِّدًا جدًّا. وأنا على يقين بأنَّه، بكلمة واحدة، سيضع مجموعة من الجنود تحتَ تصرُّفك. ففي وسعك أن تدخل المدينة في أيِّ وقتٍ شئتَ، وتُقدِّمَ التكريم اللائق لإلاهتنا متى اخترتَ، دون أن تقلق بشأن بقائك حيًّا بعد ذلك".

ابتسمَ سَرتِس بينَه وبين نفسه. إنَّ إجراءاتٍ كالتي اقترحَها سَرتِس لا بدَّ أن تجذب الانتباه. فما إن يُعرَف أتريتِس، حتَّى تنتشِرَ الإثارة كحُمَّى، وحُمَّى كهذه يمكن أن تُسخِّن دمَ أتريتِس البارد. فليسمَعِ الجماهير يُنادون بِاسمِه هاتفين. وليرَ كيف ما يزالون يتعبَّدون له.

قال أتريتِس: "أودُّ أن ينسى الرَّعاعُ أنِّي وُجِدتُ أصلا". فإنَّ مكايدَ سَرتِس لم تَجُزْ عليه. وأضاف رافعًا أحد حاجبَيه تهكُّمًا: "ثمَّ إنَّ إجراءاتِكَ ستُثير شهيَّتهم فحَسب، ألَن تُثيرَها؟"

ابتسمَ سَرتِس تهريجًا وهزَّ رأسه. "أتريتِس، صديقي العزيز، يُفزِعُني أن أجِدَك لا تثِق بي. ألَم تكن مصالِحُك الفُضلى في فِكري دائمًا؟"

أطلقَ أتريتِس ضِحكةً باردة. "ما دامت تتوافق مع مَصالِحك".

أخفى سَرتِس انزِعاجه. لطالما كانت إدراكيَّة أتريتِس الحِسِّيَّة مُشكلةً كلَّ حين. فنجاحُه في ساحة المُحاربين لم يتوقَّف فقط على براعته البَدنيَّة الفائقة وشجاعته. لقد كان أتريتِس ذكيًّا على نحوٍ مُدهِش لهمَجيٍّ جِرمانيٍّ. وكان اتِّحادُ الحِقد بالذَّكاء خَطِرًا، إلَّا أنَّه جعلَه أكثرَ إثارةً بكثير.

قال سَرتِس: "ربَّما أمكننا أن نُجريَ ترتيباتٍ أكثرَ مُناسَبةً لرغباتك".

"رغبتي أن أُترَكَ وحدي".

لم تُثبِّط همَّةُ سَرتِس. لقد عرَفَ أتريتِس أكثرَ ممَّا عرَفَ المُقاتِلُ نفسَه. وقد راقبَه في الأسْر وخارِجَه. فقال له: "لقد تُرِكتَ وحدَك". وقد راقبَ أتريتِس يُسقِط المِنشفة من حول خصره ويرتدي تُنكًا نظيفًا منسوجًا بغِنًى. لقد كان الرجُلَ الأروعَ بنيةً بين مَن رآهم سَرتِس على الإطلاق. "على مدى بضعة أشهُر. تبدو قليل الرِّضى بوَحدتك".

وإذ لبِسَ أتريتِس حِزامًا جِلديًّا سميكًا مُرصَّعًا بأزرار زينة نُحاسيَّة، نظَرَ إلى سَرتِس بعينَين باردتَين جدًّا بحيثُ علِمَ الأخيرُ أنَّه ضغط على المُقاتِل إلى حدٍّ كافٍ اليوم. ولم يتضايق من إخفاقه في كسب موافقة أتريتِس على دخول ساحة المُحاربين مجدَّدًا. فلا بُدَّ أن تُتاحَ فُرَصٌ أُخرى. وسوف ينتهزها حالما تأتي. فلوَّحَ بيده في إشارةِ صَرفِ نظَر. وقال بابتسامة: "حسَنٌ جدًّا. سنتحدَّث بأُمور أخرى". وشرَعَ يفعل ذلك. ثُمَّ غادر سَرتِس بعد ساعة، إنَّما ليس قبلما دعا أتريتِس إلى واحدة من الولائم السابقة للألعاب. وقال إنَّ بروقُنصل روما كان توَّاقًا إلى تقديم الاحترام والتكريم. وأحسَّ أتريتِس تيَّارَ الإنذارِ الخفيّ. فالمرءُ لا يُهينُ موظَّفًا رومانيًّا رفيعَ المَنصِب بِلا عواقِب. ومع ذلك أبى.

فغدا سَرتِس مُباشِرًا أكثر. "على المرء أن يكون حذِرًا جدًّا بشأنِ إهانة الرُّومانيِّ الخطإ".

"لقد تعلَّمتُ أشياءَ كثيرةً في أثناء أسْري، سَرتِس. حتَّى قَيصرُ نفسُه يخافُ من الرَّعاع. وكما تعلم جيِّدًا، ما زال الرَّعاع يُحِبُّونَني".

"وأنت أيضًا حكيمٌ كفايةً بحيث تعلَمُ أنَّ الرَّعاع يُشبِهون امرأةً مُتقلِّبة. ابقَ بعيدًا عنها مدَّةً طويلة كافية، فتنسى. أضِف أنَّ ما يُريده الرَّعاع أكثرَ الكُلِّ هو أن يرَوكَ تُقاتِلُ من جديد".

لم يقُل أتريتِس شيئًا، ولكنَّ سَرتِس رأى أنَّ كلماتِه نقَرَت وتَرًا نابضًا. جيِّد! وفيما هو نازِلٌ الدَّرج وأتريتِس إلى جانبه، رأى شابَّةً معها طفل، ماشيةً تحت نور الشَّمس في الفِناء الأجرد قُدَّامَ الدَّارة. أوَّلَ الأمر حسِبَها جوليا ڤاليريان ودُهِش. لقد أخبرَه جواسيسُه أنَّ

العلاقة انتهَت قبلَ شُهور. وقد أعلموه أيضًا أنَّ جوليا ڤاليريان كانت حامِلًا بطِفلٍ أُشيع أنَّ أتريتِس والِدُه. وكان قد أمر جواسيسَه بأن يُراقِبوا البيت حتَّى ولادة الطِّفل. وبلَّغوه أنَّ الولَد طُرِح على الصُّخور ليموت. أمرٌ يدعو إلى الرِّثاء. لو كانَ الطِّفلُ من أتريتِس وعاش، لرُبَّما تبيَّن أنَّ ذلك نافِعٌ جدًّا.

توقَّف سَرتِس مُمسِّدًا ذقنَه وراقبَ الشابَّة باهتمامٍ سافِر. كانت صغيرة الحجم وحسَنةَ التكوين كثيرًا. ونظرَت صوبَهُما. فعرُضَت ابتسامتُه. ثمَّ دارت المرأة ثانيةً وتوارَت حول زاوية المبنى. "طالَما كانت لك دائمًا عينٌ تهوى الجَمال". ورمَق أتريتِس بنِظرةِ سلوى. "مَن هي؟"

"خادِمة بيتيَّة".

أحسَّ سَرتِس تنصُّلَ أتريتِس المُنزعِجَ وتساءل بشأنه. وألقى نظرةً في الاتِّجاه الذي ذهبَت فيه المرأة. "والولَد؟ أهُوَ لك؟"

"الولَدُ لها".

لم يقُل سَرتِس مزيدًا، ولكنَّ بِزرةَ تخمينٍ زُرِعَت في ذهنه الخصيب.

التفتَت رِصفة فرأت أتريتِس مُقبِلًا نحوها بخُطًى حثيثة. وعلِمَت أنَّه غاضب. فكلُّ ما فيه أفصح عن مزاجه المُكدَّر. وإذ أزاحَت كالِب على ذراعَيها، تنهَّدَت، مُتسائلةً عمَّا فعلَته لتُثيرَ استياءَه الآن.

"ليس لكِ أن تُغادري الدَّارة إلَّا إذا أمرتُكِ بأن تفعلي ذلك!"

فقالت مُجاهِدةً لأجل الهدوء: "أترغبُ أن تجعل ابنك أسيرًا، سيِّدي؟"

"أرغَبُ في أن أحميَه!"

"كما أرغبُ أنا، أتريتِس. أنا داخِلَ الأسوار".

"سوف تبقَين في الدَّارة!"

"أيُّ أذًى مُحتمَلٍ يمكن أن يُصيب كالِب هُنا في الخارج؟ عندَكَ حُرَّاسٌ..."

"يا امرأة، ستفعلين كما أقول!"

قفَّ الشَّعرُ على قفا رقَبتها حيالَ لهجته المُتغطرِسة. لقد كان الرجُل مُستحيلًا! وما كانت هي قد تقبَّلَت بسهولة قطُّ أن تؤمرَ لتُطيع. فلطالما عاملها شمعي كلَّ حين بطريقة ألطف

من طريقة هذا الجرمانيِّ الضئيل العقل. "إذا كنتَ مسؤولًا عنِّي، فسأُطيع. أمَّا في هذه الحالة، فلستَ مسؤولا".

ضاقت عيناه على نحوٍ يُنذِرُ بالخطَر. "اضغطي عليَّ، فأرميَكِ خارجَ تلك البوَّابة".

فبادلَته النَّظرَ مُباشرةً. "لا، لن تفعل ذلك".

وغمَرَ اللَّون الأحمرُ المُتأجِّج وجهَه. "ماذا يجعلُكِ على يقينٍ هكذا؟"

"لأنَّك معنيٌّ بصِحَّة كالِب الجيِّدة عِنايتي بها. لستُ أدري لماذا أنت مُسخَطٌ جدًّا، يا أتريتِس. لقد شاهدَتني أمشي بكالِب في أنحاء الفِناء أمسِ واليومَ الذي قبلَه، ولم يكُن لديك أيُّ اعتِراض. أمَّا اليومَ فتبدو أشبه ببِطِّيخة تكاد تنفجر".

جاهَدَ أتريتِس للحِفاظ على طبْعه هادئًا. لقد كانت على حقٍّ، الأمرُ الذي ما زاده إلَّا جُنونًا. فقد شاهدَها أمسِ واليومَ الذي قبلَه، وقد وجدَ مسرَّةً في القيام بذلك، ربَّما للأسباب التي من أجلها استمتع سَرتِس توًّا بمُشاهدتها. لقد كانت جميلة ومُفعمة بالرَّشاقة الأُنثويَّة. وهو باتَ يغلي الآن. إلَّا أنَّها علِمَت أنَّه، لأجل ابنه، ما كان يستطيع أن يرميَها خارجَ البوَّابة. واستحكَّته يداه على نحوٍ مُوجِع كي يخنُقَها. وكان قد رأى نِظرةَ التَّخمين في عينَي سَرتِس قبلَ مُغادرته.

لمَحَت رِصفة المشاعر المُتضاربة في وجهه، حيثُ استظهرَ الغضَبُ على كلِّ ما عداه. كان ينبغي لها أن تتولَّى الأُمور بطريقة مُختلِفة. كان ينبغي لها أن تُطبِقُ شفتَيها، وتدخُلَ الدَّارة، وتختار وقتًا أفضل للإدلاء بآرائها. وقد أجلسَت كالِب على وَركِها. "ماذا جرى حتَّى تحسبَ إبقاءَ كالِب داخِلَ جُدران الدَّارة أمرًا ضروريًّا؟"

شاهَدَ أتريتِس ابنَه يتشبَّث بمُقدَّم تُنكِها ويشدُّه قليلًا. "يكفي أنِّي آمُرُكِ".

فقالَت بصَبرٍ مُجهَد: "أعلَينا أن نخوضَ في هذا ثانيةً؟ ألَهُ علاقةٌ ما بالصَّديق الذي كان يزورُك؟"

"ليس صديقًا! اسمُه سَرتِس، وهو مُنسِّقُ الألعاب الأفَسُسيَّة".

قالت: "آه! لقد جاء لإقناعِك بالمُحاربة من جديد، أليس كذلك؟"

"بَلى".

فعبَّسَت. "وهل نجح؟"

"لا".

أحسَّت أنَّه كان وراء غضَبِه شيءٌ خطير جدًّا، لا مُجرَّدُ كبرياءِ رجُلٍ مجروحة. "عليكَ أن تُخبِرَني أين يكمن الخطَر. يبدو أنّي تخبَّطتُ ولم أدرِ كيف".

لم يرَ سبيلًا آخر لإقناع المرأة العنيدة سوى إطلاعِها على الحقيقة. "إذا كان في وسع سَرتِس أن يجِدَ طريقةً لإرغامي على القتال من جديد، فسيفعل ذلك. لقد سألَني مَن أنتِ. فقلتُ إنَّكِ خادمة. وسألني عنه". وأومأ برأسه حالًا نحو ابنه.

بدأ قلبُها يتسارع إذ لمسَت الخطَر. "ثُمَّ؟"

"قلتُ إنَّ الولَد لكِ".

فزفرَت نفَسَها وفمُها مُلتوٍ بسُخرية. "لا بُدَّ أنَّ ذلك خنقَك".

وقال من بين أسنانه: "تعتقدين أنَّ الوضعَ مُضحِك؟"

تنهَّدَت رِصفة. بعد لحظةٍ أُخرى، لن يكون قادرًا على التفكير بوضوح عبْرَ الغَمامة الحمراء الناشئة من طبعِه الآخِذِ في الحماوة. فقالت بهدوء: "لا، لستُ أعتقِد أنَّه مُضحِك. أعتقد أنَّه خطِرٌ جدًّا، وسأفعل كما تقول".

أخَذَه استِسلامُها على حين غِرَّة. وإذ حالَ ارتباكُه دونَ النُّطقِ بكَلِمة، راقبَها تمشي مُبتعِدةً. ثُمَّ دارت حول جانبِ الدَّارة. ولمَّا كان ما يزال جائعًا إلى قِتالٍ جيِّد، لحِقَ بها. وكانت داخِلةً من باب الدَّارة الخلفيِّ لمَّا أدركَها. فإذ سمِعَته، التفتَت إلى الوراء.

"أتودُّ أن تلعَبَ مع ابنك قليلًا؟"

توقَّفَ في مدخل الباب تمامًا، وقال: "ألعب؟"

"نعم، تلعب".

"لا وقتَ عندي".

فقالت: "كلُّ ما عندَك هو الوقت!" ودخلَت حُجرة الاستحمام.

"ماذا قُلتِ لي؟"

فدارَت مُواجِهةً إيَّاه. "قلتُ: كلُّ ما عندك هو الوقت. لا بدَّ أن تستمتع باللَّعِب مع كالِب أكثرَ من الرَّكض مُتنقِّلًا بين التِّلال، أو قضاء ساعاتٍ في الجِمنازيوم رافعًا الأثقال ومُروِّعًا حُرَّاسك".

غمرَت وجهَه دفقةٌ حارَّة.

فقالَت: "هاكَ!" وقبلَ أن يتمكَّن من التفكير في ردٍّ مُلتهِبٍ كفايةً، ناولَته الطِّفل.

تبخَّرَ غضَبُه في موجةِ ذُعر. "إلى أينَ أنتِ ذاهبة؟"

"ينبغي أن أجِدَ شيئًا من القُماش النَّظيف. إنَّ كالِب يُسرِّب البَلَل عبْرَ هذه الأقمطة". وإذ أخفَت ابتِسامَتها المَرِحة، مشَت مُبتعِدةً.

كشَّرَ أتريتِس. لقد كان في وسعه أن يُحِسَّ الرُّطوبة تنفذ عبْرَ تُنكهِ النظيف. ولمَّا بدأ ابنُه يفرُكُ أنفَه على صدره، حملَه بعيدًا عنه. وصاحَ وراءها: "إنَّه جائع!"

توقَّفَت رِصفة في المَجاز تحتَ القناطِر. "هوِّنْ عليك، أتريتِس. ليس جائعًا جدًّا". وضحِكَت فطَفا حولَهُ الصَّوتُ الرَّخيمُ في الحُجرة المُبلَّطة بالرُّخام. "ثُمَّ إنِّي أشكُّ في كونهِ سيُسيلُ كثيرًا من الدَّم. ليسَ قبل أن تطلع أسنانُه".

وإذ غدا أتريتِس وحدَه مع ابنه، راحَ يذرعُ أرضَ الغُرفة بعصَبيَّة. وتململَ كالِب فبدا على وشْكِ أن يبكي، فما كان من أتريتِس إلَّا أن ضمَّه إلى صدره من جديد، والعرَقُ البارد يتقطَّر على قفا رقَبته. وقد وجدَه أمرًا يدعو إلى السُّخرية أن يكون قد واجه الموت مئاتِ المرَّات ولم يصِل قطُّ إلى درْكِ الخوف المُعرِّق الذي ساوره الآن وهو يحمل طِفلًا...طِفلَهُ.

تشبَّثَت أصابعُ كالِب الصَّغيرةُ السمينة بالرُّقاقة العاجيَّة المُتدلِّية من سلسلة ذهَبيَّة حول عُنق أتريتِس ودسَّ زاويةً منها داخِلَ فمه.

شدَّ أتريتِس عابسًا سلسلةَ الذَّهب ورُقاقةَ العاج، رمزَ حُرِّيَّتِه، من فم ابنه. ودسَّها بسُرعة داخِلَ تُنكهِ بعيدًا عن المُتناوَل، مُبَربِرًا في سرِّه عن النِّساء اللَّواتي يهجُرنَ أطفالَهُنَّ. وارتعشَت شفَةُ ابنه.

فقال بصوتٍ أجشَّ: "لا تبدأْ بالبُكاء!"

وانفتَحَ فمُ كالِب واسعًا.

"بحَقِّ الآلهة، ليسَ من جديد". كلماتٌ قالها أتريتِس مُتنهِّدًا. وقد أجفَلَ حيال العَويلِ المُوَلول الذي انبعَث. كيف أمكنَ طِفلًا صغيرًا هكذا أن يُصدِرَ صُراخًا قويًّا كهذا؟ وما لبِثَ أن قال: "حسَنٌ جدًّا. كُلْها!" ساحِبًا السِّلسلة من تحتِ تُنكهِ مجدَّدًا، ومُدَلِّيًا إيَّاها بإغراءٍ أمام ابنه. فأمسك كالِب الرُّقاقة وهو ما زال يبكي بُكاءً مُقتطَّعًا، ومضغَها.

ثمَّ حمل أتريتِس ابنه إلى طاولة تدليك، وحطَّهُ عليها.

"رِصفة!"

وتردَّد صدى اسمِها عن جُدران الرُّخام المُزخرَفة حوالَيه. فأجفلَ كالِب وأفلتَ الرُّقاقة

وزعق. فصرَّ أتريتِس بأسنانه وحبسَ نفَسَه، وحلَّ الأقمِطة الوسِخَة وطرحها في كومة بقُربِ الجِدار. "أنتَ بحاجة إلى حمَّام، يا صبيُّ. رائحتُك كريهة!" ثُمَّ شالَهُ وحملَهُ إلى داخِل البِركة. فكفَّ كالِب عن البُكاء حالَما أحسَّ مياه التَّيِيداريوم الدافئة تموجُ حولَه. وفيما قرقَرَ مسرورًا، التقطَ الرُّقاقة من جديد وخبَطَ بها صدرَ أبيه، مُطَرطِشًا الماء على وجه أتريتِس.

أسندَ أتريتِس الطِّفلَ تحتَ إبطَيه، وحمله بعيدًا عنه، وغطَّسَه في الماء نزولًا وصعودًا. فزعَّقَ كالِب ابتِهاجًا، ضاربًا الماء بقبضتَيه. ولانَ فمُ أتريتِس مائلًا إلى فوقُ من جِهةٍ واحدة. وتأمَّل كالِب وهو يُطَرطِش الماء. كان للطِّفل عينا جوليا السَّوداوان وشعرُها الداكن. فتساءل مُعبِّسًا عن مقدارِ ما كان فيهِ مِنها بَعد.

وقفَت رِصفة في المجاز تحت القناطر، والبياضاتُ مُسدَلةٌ على ذراعها. وقالت بصوتٍ عذب: "أنتَ ناديتَني، سيِّدي؟" ثمَّ أقبلَت إلى حافةِ البِركة وراقبَته يغسِل كالِب. فضحِكَت. "إنَّه طِفلٌ، أتريتِس، لا ثوبٌ وسِخ".

فقال أتريتِس: "كان بحاجة إلى حمَّام".

شعرَت رِصفة بالارتباك لمَّا صعِدَ أتريتِس الدَّرَج خارجًا من البركة، لأنَّ تُنكَ الكتَّان المبلول قَولَبَ جِسمَ أتريتِس. ومع أنَّه بدا غيرَ مُبالٍ أدنى مُبالاةٍ حِيالَ مِقدارِ تجرُّدِه، فقد توتَّرَت أعصابُها. وبسُرعةٍ أشاحَت نظرَها وتأمَّلت الجُدران المُزخرَفة، مُدرِكةً بشقِّ النَّفس ما مثَّلَته رُسومُ الجِداريَّات.

لم يحبَّ كالِب الهواء البارد بقَدْر الماء الدَّافئ، وبدأ يتململ ويضجُّ من جديد. فقال أتريتِس: "خُذيه!" مادًّا إليها ذِراعَيه بالطِّفل.

ألقت البَياضات على كتِفها، وفعلَت ما طلبَه، مُنفرِجةَ الأسارير لوجود ما يشغلُها. وقبَّلَت خدَّ كالِب قائلةً: "هل كان لك حمَّامٌ حسَن؟" وضاحِكةً حيال ضَحِكهِ الخافت. وفيما هي مُتَّجِهةٌ إلى طاولة التَّدليك، أوثبَتهُ قليلًا.

وقفَ أتريتِس يُراقِبُها. كان قد لاحظَ اضطِرابَها لمَّا خرَجَ من البِركة، فضلًا عن الطريقة التي بها حوَّلت نظَرَها بسُرعة عن جِسمه. وتذكَّرَ ارتباكها يومَ أرضعَتِ الطِّفلَ أيضًا. لقد بدَتِ المرأةُ مزيجًا غريبًا من المُتناقِضات: سريعةَ الانفعال وثائرةً، غيرَ خائفةٍ أن تُواجِهَه، ومع ذلك مدفوعةً إلى الارتباك المؤلِم لدى رؤيتِها هيئةَ رجُل. وقد تجهَّمَ وهو يُراقِبُها.

كان صوتُها رقيقًا وعذبًا. ضحِكَت وانحنَت، مُتيحةً لكالِب أن يمسك إبهامَيها. وإذ قبَّلَت صدره، نفخَتِ الهواء على سُرَّته. فأطلق الطِّفل تلك الضَّحكةَ الخافتة المُحبَّبة مرَّةً

أُخرى. وأقبلَ أتريتِس، لاوِيًا فمه، ليُشاهِدَ ابنه راكلًا ومُحرِّكًا ذِراعَيه بسُرور. فتجاهلَت رِصفة حضوره، وتحدَّثت إلى الطِّفل طوال الوقت، ثُمَّ قمَّطَته بكَتَّانٍ أبيض. ولكنْ لمَّا شالَت كالِب، رفعَت نظرَها إلى أتريتِس، وقد بدا الحذَرُ على سيمائها.

فقفَزَ نَبْضُه عاليًا، ومعَهُ سوءُ ظنِّه. لقد سبَقَ أن رأى عينَين داكنتَين جميلتين كعينَيها.

انزعجَت رِصفة من حِدَّةِ نظرته، إذ مسَّتها في ناحيةٍ غريزيَّة أساسيَّة. ولمَّا تحرَّكت حَملقَتُه عليها نزولًا، أحسَّت دفقةَ دِفء. فتراجعَت خُطوةً، حاملةً كالِب أمامَها كتُرس. وقالت: "ستأذنُ لي بالانصراف بالتَّأكيد، سيِّدي"، توَّاقةً أن تأخُذَ كالِب وتهرُبَ من تَينِكَ العينَينِ المُفترِستَين.

"لا، لن أفعلَ ذلك".

فطرَفَت عيناها. "سيِّدي؟"

"خُذيهِ إلى التريكلينيوم".

"لماذا؟"

"هل يعُوزُني سبَب؟"

فتردَّدت، غيرَ مُتيقِّنةٍ من جهة دوافِعه، مُتضايِقةً من المشاعِر الجائشة في داخلها.

ثُمَّ قال ثانيةً، وعيناهُ تضيقان: "هل يُعوزُني؟"

"لا، سيِّدي".

"إذًا افعلي ما طُلِبَ منك".

لماذا ينبغي أن يستعمل تلك اللَّهجة معها؟ مِن ثَمَّ قالت- مُحاوِلةً أن تبقى هادئةً- "كالِب على استِعدادٍ لأنْ يُطعَم ويُراح".

"يمكنه أن يفعل كِلا الأمرَين في التريكلينيوم".

وإذ تبيَّن لها أنَّه لم يكُن ينوي أن يلين، حمَلَت كالِب إلى خارج الحمَّامات. ومن دواعي الشُّكر أنَّ الرِّواق الداخليَّ كان باردًا. ثمَّ دخلَت التريكلينيوم المفروش وقعدَت على أريكة. وغَطغطَ النَّوم على كالِب وهو يرتضِع. فلفَّت شالَها حوله، ووضعَت بعضَ الوسائد حَوالَيه. وارتجفَت يداها إذ طوَتهما بإحكامٍ في حضنها وانتظرَت.

دخل لاغُس، فقال مدهوشًا: "سيِّدةُ رِصفة!" منذُ استِقبالها في البيت، تناولَت وجباتِها في مسكن الخَدَم. فماذا كانت تفعل في غُرفة سُفرَة السَّيِّد؟

رأت رِصفة السؤال في عينَيه، فقالت: "أمرَني السَّيِّد بالمجيء إلى هُنا".

"أُوه".

وشُدَّت أعصابُها كما لو أنَّ الرُّوح في داخلها أنذرَها بالمعركة الآتية. "لماذا تقولُ ما تقولُه بهذه اللَّهجة، لاغُس؟"

"ليس من سبَب".

"إنَّه يُريد أن يمضيَ وقتًا أطوَلَ مع ابنه".

لم يسَعْ لاغُس أن يتصوَّر أتريتِس وهو يُوثِبَ طفلًا على رُكبته، إلَّا أنَّه قال: "بالتَّأكيد"، ليُريحَ بالَها. كان قد رأى أتريتِس واقفًا على الشُّرفة المُطِلَّة على الفِناء حين كانت رِصفة آخِذةً الطِّفل إلى الخارج لأجل الهواء. وكان سيلُس وغالُص أيضًا قد لاحظا ذلك وعلَّقا عليه. وتراهَنا بشأن المُدَّة التي ستنقضي قبل أن تُدفئ رِصفة سرير أتريتِس.

راقبَته رِصفة يُرتِّب الوسائد. "قُل شيئًا ما، لاغُس".

"ماذا تُريدين منِّي أن أقول؟"

"أنت تعرِفُه أفضلَ منِّي".

"لا أكاد أعرِفه البتَّة، ولكنْ ما أعرِفُه فِعلًا هو أنَّه لا يمكن التَّنبُّؤ بتصرُّفاته وأنَّه خَطِر. وليس للمرأةِ عنده إلَّا استعمالٌ واحدٌ فقط".

"تتكلَّم عنه وكأنَّه حيوان".

فقال باكتئاب: "ليس بعيدًا عن ذلك".

"إنَّه رجُل، لاغُس. شأنُه شأنُك وشأنُ أيِّ رجُل آخر".

ضحِكَ لاغُس ضِحكةَ تَوتُّر. "ليس مِثلي، وليس مِثلَ أيِّ رجُل آخر عرَفتُه يومًا. إنَّه مُقاتِلٌ همَجيٌّ، وصدِّقيني- سيِّدةُ رِصفة- أنَّ ذلك أقرَبُ ما يمكن إلى الحيوان".

ثمَّ سمِعا كلاهُما وقْعَ قدَمَي أتريتِس. فحطَّت رِصفة يدها حِمائيًّا على كالِب؛ وذهب لاغُس إلى مَجاز القناطِر وحيَّا سيِّدَه. "هل تُريد أن تُقدَّم لك وجبتُك، سيِّدي؟"

نظر أتريتِس إلى رِصفة عبْرَ الغُرفة. وسأل بجفاء: "أأنتِ جائعة؟"

"ليس كثيرًا". بالحقيقة أنَّها لم تكُن جائعةً قطُّ. فقد بدَّدت كلِماتُ لاغُس أيَّةَ قابليَّة قليلة كانت لدَيها.

فقال أتريتِس: "هاتِ خمرًا!" وصرَفَ لاغُس.

وإذ أحسَّت رِصفة حَملقةَ أتريتِس علَيها، شالَت كالِب وحملَته بلِزقها، وقد أراحها دِفءُ جِسمهِ الصَّغير.

نظَرَ أتريتِس إلى طريقةِ احتِضانِها ابنَهُ على فخِذَيها. فقال: "خطَرَ في بالي أنّي أعرِفُ القليلَ القليلَ عنكِ". وقدِ اتَّكأَ على الأريكة المُقابِلة لها وراح يتفحَّصُ وجهَها.

وحتَّى لمَّا استرخى، أحسَّت رِصفة الإنذارَ بالخَطَر مُحيطًا به.

"ماذا جرى لزوجكِ؟"

وإذ فاجأها السؤال وأفزعَها، قالت: "مات".

فقال أتريتِس بضِحكةٍ باردة: "أعرِفُ أنَّه مات. ولولا ذلك ما كُنتِ أرملة. ما أُريد أن أعرِفَه هو كيف مات".

نظرَت مِن عَلُ إلى وجه كالِب العزيز، مُسكِّنةً الألمَ الناشئ في داخلها. لماذا يجب أن يسأل عن أُمور كهذه؟ ثُمَّ قالت: "لقد مات زوجي إذ صدمَته عرَبة".

"هل رأيتِ ذلك عند حدوثه؟"

"لا. كان في طريقه إلى عمَلِه. أحضرَهُ أصدِقاءُ إلى البيت".

"ألَم يمُت في الحال؟"

"ماتَ بعدَ ذلك بأيَّام قليلة". وكانت ذِكرى تلك الأيَّام ما تزال محفورةً في أعماقِ قلبها.

نظرَ أتريتِس إلى جانب وجهها الشاحب وبقي ساكِتًا هُنيهةً. من الواضِح أنَّ تلك الذِّكرَيات كانت مؤلِمةً لها. أم كان ذلك تَظاهُرًا؟ ولمَّا أحضر لاغُس إبريقَ خمر، قال أتريتِس باقتِضاب: "انصَرِف!" فحطَّ لاغُس الصِّينيَّة بسُرعة وخرَج. وواصَلَ أتريتِس التَّحديقَ إلى رِصفة. وقد أحسَّ أنَّه جسَّ جِراحًا مفتوحة. "هل تبيَّن لكِ أصلًا مَن كان يسوق العرَبة؟"

"علِمتُ يومَ وقعَ الحادث. كان الرَّجُل مُوظَّفًا رومانيًّا رسميًّا".

"أُراهِن على أنَّه لم يتوقَّف قطُّ".

"لا، لم يتوقَّف".

التوى فمُ أتريتِس قليلًا. "يبدو أنَّنا نتشارك في بُغضٍ مُشترَك للرُّومان".

سبَّبَ تعليقُ أتريتِس ندَمًا سريعًا. "لستُ أُبغِضُ أحدًا".

"ألَستِ؟"

فشُحِبَت مُتسائلةً. ألَم تستظهِر على مشاعِرها بشأن ما حدَث؟ أمَا زالت تُضمِرُ غضَبًا على الرَّجُل الذي أزهَقَ بِلامُبالاةٍ روحَ رجُلٍ يَهمُّها أمرُه في الصَّميم؟ يا ربّ، إن كان هذا هو الواقع، فطهِّرني منه. امتَحِنّي وغيِّرْ قلبي، أيُّها الآبُ السَّماويُّ. "ليسَت مشيئة السَّيِّد أن أُبغِضَ أيَّ شخص".

"السَّيِّد؟"

"الرَّبُّ يسوع، المسيح، ابنُ اللهِ الحيّ".

"إله هَدسَّة".

"نعم".

فقال: "لن نتحدَّث بشأنه"، مُقصِيًا الماضيَ والحاضِر والمُستقبَل في ما يتعلَّق بالموضوع إذ قامَ عن الأريكة. وصبَّ خمرًا في كأسٍ فِضّية. وكان على الصِّينيَّة كأسٌ أُخرى، إلَّا أنَّه لم يُقدِّم لها شيئًا.

قالت بهدوء: "ذلك هو الأمر الوحيد الذي أوَدُّ أن أتحدَّث معكَ بشأنه".

خبَطَ الإبريقَ على الصِّينيَّة بقوَّةٍ جعلَت رِصفة تقفِز. واستيقظَ كالِب وبدأ يبكي.

"هدِّئيه!"

فرفعَت كالِب إلى كتِفها وفرَكَت ظهرَه. إلَّا أنَّ بُكاءه اشتدَّ.

"اجعليه يكفُّ عن البُكاء!"

ووقفَت مُتضايِقةً. "هلَّا تأذن لي بمُغادرة الغُرفة؟"

"كلَّا!"

"سينامُ مُجدَّدًا إذا أرضعتُه".

"افعلي هكذا إذًا!"

"لا أستطيع. ليس وأنتَ تُحدِّق إليَّ!"

حدَّق إليها ممَّا وراءَ الأرائك. "لقد عرَّيتِ صدرَكِ لإرضاعه في المطبخ منذ أربع ليالٍ".

غمرَت الحرارةُ وجهَها. وقالت بحَزم: "كانت الأحوال مُختلِفة". ثُمَّ إنَّها كانت مُغطَّاةً وظهرُها نحوَه.

"كيفَ هكذا؟ كان يزعق آنذاك وهو يزعق الآن!"

"كُفَّ عن الصُّراخ!" وفي الحال خجِلَت بانفجارها. إنَّ الرَّجُلَ البائس أخرَجَ أسوأ ما فيها! وإذ علِقَ الاعتِذار في حَنجرَتها، تمشَّت في جانبٍ من الغُرفة. لقد كانت غاضِبةً جدًّا بحيثُ تأكَّدَ لها أنَّ حليبها أخَذَ يتخثَّر في قِطَع من الجُبن. ومضى كالِب يزعق أعلى.

تمشَّى أتريتِس في الجانب الآخر من الغُرفة، ووجهُه جامِدٌ إذ حدَّقَ إليها. "بحقِّ الآلِهة، يا امرأة، اقعُدي وأعطيهِ ما يُريد!"

فقعدَت رِصفة بسُرعة، وهي ترتجف ارتِباكًا. وإذ أدارَت ظهرَها لأتريتِس، باشرَتِ الاعتِناءَ بالطِّفل. كان الشال ملفوفًا حول كالِب، واحتاجت إلى إسداله على نفسِها احتِشامًا. فارتجفَت يداها إذ أزاحَته.

زفرَت نفَسَها إذ بدأ كالِب يرتَضِع وخيَّم السُّكون على الغُرفة. وسمِعَت صَلصلةَ مَعدِنٍ على مَعدِن، فعلِمَت أنَّ أتريتِس كان يسكب لنفسه مزيدًا من الخمر. هل نوى أن يسكر؟ كان مُروِّعًا كِفايةً وهو صاحٍ. فلم تُرِد حتَّى التفكيرَ في ما ستكون عليه حالتهُ إذ يترنَّح من الإفراط في شربِ الخمر.

برزَت أمامَها صورةٌ لأبيها بشكلِ شَيطان، آسِرةً ذِهنَها بالغضَب والخوف. وتذكَّرَتِ العُنف، فارتعدَت ودفعَتِ الصُّورة بعيدًا.

لا تَدينوا لكي لا تُدانوا. اغفروا، يُغفَرْ لكُم. اسألوا، تُعطَوا. وإذ وهُنَ ضبطُها لنفسها، تمسَّكت ثانيةً وتشبَّثت. يا ربّ، سِر معي عبْرَ الوادي. تحدَّثْ إليَّ. افتح أُذُنيَّ وقلبي حتَّى أسمع.

جأرَ أتريتِس: "بماذا تُتَمتِمين؟"

فأجابَت حالًا: "أُصلِّي طالِبةً المعونة"، وقلبُها ما زال يخبط سريعًا وشديدًا. وفاجأها أنَّ كالِب لم يُلاحِظ توتُّرها.

قال أتريتِس بهدوء من ورائها: "أمَا نامَ بعد؟"

"يكاد". بَدَت أجفانُ كالِب ثقيلةً. وبعدَما استرخى فمُه، عادَ يشتغِل مُجدَّدًا. أخيرًا، استرخى كلِّيًّا.

فقال أتريتِس مُتنهِّدًا: "شُكرًا للآلِهة!" واتَّكأ. وراقَبَ ظهرَ رِصفة فيما عدَّلَت ثيابَها من جديد. وإذ قعدَت على الأريكة جانبيًّا، بدأت تلفُّ ابنَه بشالها مُجدَّدًا. "ماذا جرى لطفلتكِ؟" فجمَدَت يداها، ورأى أتريتِس اللَّونَ الرائقَ ينزَحُ من خدَّيها. ومرَّت لحَظاتٌ قبلَما أجابَته.

قالت مُرتعِدةً: ”أُصيبَت بحُمَّى وماتت في شهرها الثالث“. ومسَّت برِفقٍ خدَّ كالِب قليلًا. ثُمَّ دارَت على الأريكة ونظرَت إلى أتريتِس، وعيناها مُغرَورِقتان. ”لماذا تسألُني أسئلةً كهذا؟“

”أودُّ أن أعرِفَ قليلًا بَعدُ عن المرأة التي تُرضِعُ ابني“.

فومضَت عيناها الداكِنتان. ”كم عرَفتَ عن المرأة التي اشتريتَها، ما عدا كونَها جِرمانيَّة“.

”رُبَّما تغيَّرَ اهتمامي بكِ“.

كان لابتسامته الساخِرة الباردة تأثيرٌ مُفزِعٌ في رِصفة. واستجابَ جسَدُها للنَّظرة التي ظهرَت في عينَيه. فإنَّها لمَّا كانت مُتزوِّجة، لم تكُن حاجاتُ الرَّجُل مجهولةً عندها. وما كان لاغُس قد قاله لها قبلَ قليل عن مَيل أتريتِس إلى النِّساء جعلها تشعر بالضِّيق. فكان لا بُدَّ من إيضاح بعض الأُمور بجَلاءٍ الآن. ”لكَ أن تلعب مع كالِب في أيِّ وقتٍ تشاؤه، سيِّدي، ولكنْ لا تتصوَّر أنَّ في وسعك أن تلعب معي“.

فارتفعَ حاجِبُه. ”لِمَ لا؟“

”لأنَّ من شأن ذلك أن يوتِّر علاقةً ضعيفةً أصلًا، حينَ أقولُ لك لا“.

وضحِكَ أتريتِس عليها.

”أنا صادِقة، سيِّدي“.

فقال بجفاف. ”قد يبدو الأمرُ هكذا. ولكنَّ الصِّدقَ بَعدُ صِفةٌ نادرًا ما تُوجَد بين النِّساء. لقد عرفتُ فقط ثلاثًا امتلكنَها: أُمِّي، زوجتي آنيا، هَدسَّة“. وأطلقَ ضِحكةً كئيبة: ”وثلاثُهنَّ مُتنَ“.

شعرَت رِصفة بموجةٍ من الإشفاق عليه.

ورأى أتريتِس عينَيها الداكنتَين تلينان وتمتلئان دِفئًا. فاستجابَ قلبُه حتَّى لو كان عقلُه قد تمرَّد. وقال: ”لكِ أن تنصرِفي!“ ناخِعًا رأسَه بإيماءةِ صَرفٍ فظَّة.

شالت رِصفة كالِب على ذراعَيها وقامت، مُتلهِّفةً أن تمضي. وأحسَّت حَملقتَه تُلاحِقُها. فتوقَّفَت تحت قناطِر الممرِّ والتفتَت إليه. وعلى الرُّغم من كُلِّ شراسته وقساوة قلبه، فقد أحسَّت أنَّه كان رجُلًا يُعاني ألَمًا رهيبًا.

”أعِدُكَ وعدًا صادقًا، أتريتِس. لن أكذِبَ أبدًا“.

فقال هازئًا: ”أبدًا؟“

فنظرَت مُباشرةً داخِلَ عينَيه الزَّرقاوَين الجميلتَين الخاوِيتَين. وقالت برِقَّة: ”أبدًا. مهما كان الثمن. حتَّى لو كلَّفَني ذلك حياتي“. ثُمَّ تركَتهُ وحدَه.

٥

وقفَ سَرتِس على الشُّرفة المُطِلَّة على مَيدان التَّمرين. تحتَه، تَناوَشَ مُصارِعان، أحدُهما بسَيف وتُرس، والآخر برُمحٍ ثُلاثيِّ الشُّعَب وشبَكة. وإذِ اشمأزَّ من عرضهما غير المُثير، تشبَّث بالدَّرابزين الحديديِّ، وصاحَ باللَّانيستا من عَلُ: "استَعمِلِ الجَمْرَ عليهما!"

ثُمَّ تراجَعَ هازًّا رأسه. "إذا كان هذا أفضلَ شيءٍ لدَينا نُقدِّمُه، فلا عجَبَ أن يشعرَ الجُمهورُ بالضَّجر!" والتفتَ إلى الرَّجُل الواقِف بجانبه: "ماذا تبيَّن لك عن المرأة الساكِنة في دارة أتريتِس؟"

"اسمُها رِصفة، سيِّدي. إنَّها أرملة. كان زوجُها صائغَ فِضَّة دهَسَه سيوس أتَّالُس پلاوتيلا".

"ابنُ شقيقِ البرُوقنصُل؟"

"هو بعَينه. إنَّه مُدمِنُ خمرٍ و..."

فقال سَرتِس، مُومئًا بنفادِ صبر: "لا بأس! أعرِفُ كلَّ شيءٍ عنه أصلًا. ماذا عرَفتَ عنها بعد؟"

"هي مسيحيَّة، سيِّدي".

فقال سَرتِس، بابتسامة عريضة: "آهَه، سيكون ذلك نافعًا". وفرَكَ ذقنَه، مُفكِّرًا كم يمكن أن يكون ذلك نافعًا تمامًا، لا سيَّما إذا كان أتريتِس مُغرَمًا بها. "والطِّفل؟"

"المعلومات عنه مُتضارِبة، سيِّدي. وقد أفاد أحَد المَصادِر أنَّ المرأة كان لها طِفلةٌ ماتت ولها من العُمر بِضعةُ أشهُر، فيما أكَّد آخَر أنَّه كان لها ابنٌ بقيَ حيًّا".

"ربَّما كان الولَد لأتريتِس".

"لا أظنُّ ذلك. ما رأى أحدٌ قطُّ هذه المرأةَ مع أتريتِس، سيِّدي. ولكنَّ الأمر غريب. ولمَّا سألتُ عنها في الإنسولا حيثُ كانت تسكن، قيلَ لي إنَّها أخذت الطِّفل ذاتَ صباح وغادرَت. ثمَّ جاء رجُلٌ في اليوم التالي وأخذ أشياءها. ولم تُرَ في المدينة منذ ذلك الحين".

"واصِل البحث. لديَّ شعورٌ بأنَّ هذا الأمر ينطوي على أكثرَ ممَّا نعرِفُ الآن".

دفَعَ أتريتِس بابَ حُجرةِ رِصفة فانفتح، ونظر إلى الداخل. وقد تدفَّقَ ضوءُ القمَر نازلًا من نافذة

صغيرة عالية، مُلقيًا على الغُرفة ألَقَ نُورٍ ناعمًا. كان سرير الطِّفل فارغًا. وكانت رِصفة مُتمدِّدة نائمةً على حَشِيَّة أرضيَّة، مُلتفَّةً على جنبها، وابنُه مُستكِنٌّ بلِزقها، دافئًا ومَحميًّا.

دخل أتريتِس بهدوء، فجَثَمَ وحدَّق إليهما لَحَظاتٍ. ثُمَّ أجال بصَرَه في الغُرفة الصغيرة. كان بمُحاذاة الجِدار الشَّرقيِّ صُندوقٌ مُنفرِد يحوي مُتلَكات رِصفة القليلة. وكان عليه سِراجٌ من فخَّار، غيرَ مُضاء. ما عدا تلك الأشياء القليلة، وسرير الطِّفل، كانت الغُرفة خالية.

ذكَّرَت الحُجرة الصغيرة الجرداء أتريتِس بزنزانته في اللُّودُس، إذ كانت حجريَّةً باردةً فارغة.

انجرَفَت حَملقَتُه مُجدَّدًا إلى رِصفة، مُنتقِلةً من قدَمَيها العاريتَين صعودًا فوق مُنحنَيات جسمها الرقيقة. وكان شعرُها مُرخًى ومُسدَلًا على كتِفها. فمدَّ يده وأمسك مِلءَ قبضةٍ منه، فاركًا إيَّاه بين أصابعه. وإذا هو كثيفٌ وحريريٌّ. ولمَّا تحرَّكَت، أبعَدَ يدَهُ حالًا.

فتحَت رِصفة عينَيها فرأت شكلًا ظليلًا جاثمًا قُدَّامها. فعلِقَ النَّفَسُ في حَنجرَتِها، وشالت كالِب وانكفأت بسُرعة مُستنِدةً إلى الحائط وقلبُها يخبط خبطًا.

قال أتريتِس آمِرًا: "لا تصرُخي".

وخرَجَ نَفَسُها مُرتعِشًا. "ماذا جرى؟ لماذا أنت هُنا في نصف اللَّيل؟"

سمعَ الارتجافَ في صوتها وعلِمَ أنَّه أخافها. فقال بصوتٍ أجشَّ: "لم يجرِ أيُّ شيء"، مُشَّطًا شعرَه بأصابع إحدى يدَيه. ثُمَّ أطلق ضِحكةً خشِنة ورفعَ رأسَه، لقد أيقظَته الكوابيسُ من جديد.

رأت رِصفة وجهه في ضوء القمر. "هُنالك خَطبٌ ما".

فنظرَ إليها من جديد. "لماذا الاسمُ كالِب؟"

كان السؤال غيرَ مُتوقَّع. "زوجي أخبرَني عنه".

"هل تاجَرَ زوجُكِ بالرِّجال؟"

وسمعَت الغضَبَ القاتم في لهجته. فقالت: "لا!" مُتسائلةً عن سبب لجوئه إلى افتراضٍ كهذا.

وقال: "لقد حارَبَ كالِب في روما. فكيف أمكن أن يعرِف زوجُكِ أيَّ شيء عنه إلَّا إذا كان يُتاجِر بالمُصارعين؟"

خُيِّلَ إلَيها أنَّها فهِمَت. "في العالَم كثيرون باسْم كالِب، يا أتريتِس. وكالِب الذي سمَّيتُ ابنك باسْمِه عاش قبلَ مئاتِ السنين. إنَّه خرَجَ من مَصر مع موسى. ولمَّا وصل

الشَّعبُ القديم إلى أرض الآباء، أُرسِلَ اثنا عشَرَ رجُلًا إلى كنعان لاستِكشاف البَلَد. وعندما رجعوا، قال كالِب لموسى والشَّعب إنَّ الأرض التي أعطاهم الله إيَّاها جيِّدةٌ وينبغي لهم أن يمتلِكوها، إلَّا أنَّ الآخرين كانوا خائفين. فقالوا إنَّ الكَنعانيِّين كانوا أقوياءَ فوقَ الحدِّ، وإنَّ الشَّعب لا يستطيع أن يتغلَّب عليهم. وقد قبِلَ موسى نصيحتهم بدلًا من الإصغاء إلى كالِب. بسبب ذلك، تاه أَهلُ ذلك الجيل كلُّهم في البرِّيَّة. ولمَّا جاءت نهايةُ الأربعين سنةً، سُمِحَ لكالِبَ بنِ يَفُنَّة ويشوعَ بنِ نون فقط بأن يدخُلا أرضَ الآباء. فهُما وحدَهما تَبِعا الرَّبَّ من كلِّ القلب. حتَّى موسى، مُعطي الشَّريعة، لم تَطأ له قدَمٌ قطُّ في أرض الآباء". ثُمَّ مدَّت رِجلَيها وحطَّت الطِّفل على فخِذَيها. "كالِب اسمُ رجُلٍ ذي إيمانٍ وشجاعة قويَّين".

"كالِب اسمٌ عِبريٌّ، وابني جِرمانيٌّ".

فرفعَت رأسها: "نِصفُ جرمانيٌّ".

ووقفَ أتريتِس فجأةً، فوثَب قلبُها. ولاحَ فوقَها لحظةً، ثُمَّ ابتعدَ خُطوةً، مُسنِدًا ظهرَه إلى الجِدار عن يمين فُتحة النافذة. وإذ وقفَ حيثُ كان، بقيَ وجهُه مخبوءًا في الظِّلال، فيما شعَّ حولَها ضوءُ القمَر.

قال: "ينبغي أن يكون له اسمٌ جرمانيٌّ". وإذ توقَّعَ مُجادَلةً، لبِثَ ينتظِر.

"أيُّ اسمٍ تودُّ أن تُطلِق عليه، سيِّدي؟"

لم يكُن قد فكَّر في الأمر حتَّى ذلك الحين. فقال بتصميم: "هِرمُن. على اسمِ أبي. كان زعيمًا مُحارِبًا عظيمًا لقبيلة الشطِّي وماتَ بشَرَف في معركة ضدَّ روما".

فقالَت مُجرِّبةً الاسم: "كالِب هِرمُن".

"هِرمُن".

بدأت تحتجُّ، ثُمَّ أطرَقَت رأسَها. إنَّ امرأةً مُخاصِمة هي مثل الوكف المتتابع في يوم مُمطر. ثُمَّ إنَّ الولَدَ له. ورفعَت رأسَها مُجدَّدًا، وقالَت مُجَرِّبةً: "هِرمُن...كالِب؟" مُقدِّمةً حلًّا وسَطًا. "مُحارِبٌ ذو إيمان وشَجاعة قويَّين".

فلم ينبِس أتريتِس بكلمة، ولا زاحَ من الظِّلال.

شعرَت رِصفة بالانزعاج تحت حَملقَتِه. فيمَ كانَ يُفكِّر؟ "مَن كان كالِب الذي تكلَّمتَ عنه؟"

"مُقاتِلًا من منطقة اليهوديَّة. واحِدًا من كُنوز تيطُس". وقد نضحَت المرارةُ من لهجته.

"أمَا زال على قيد الحياة؟"

"لا. لقد تقاتلنا. وفُزتُ أنا".

كان صوتُه مُفَلطَحًا وكئيبًا، وشعرَت بشفقة مُفاجئة تُجاهَه. "هل عرَفتَه جيِّدًا؟"

"ليسَ للمُصارِع رَفاهَةُ معرِفةِ أيِّ شخصٍ جيِّدًا".

"ولكنْ لو كان لك أصدِقاء، لأردتَ أن تحسبَه واحدًا منهم".

فقال ببرودة: "لماذا تقولين ذلك؟"

"بسبَبِ مرارتِك وحقيقةِ كونِك ما تزالُ تتذكَّرُه".

فأطلقَ ضِحكةً خشِنة. "أنّي أتذكَّرُهم كلَّهُم!" وأسند رأسه إلى الحائط الحجريِّ البارد، ثُمَّ أغمض عينَيه. لم يكُن في وسعه أن ينساهُم. لقد رأى وجوهَهُم كلَّ ليلة. وكان في وسعه أن يرى عيونَهُم فيما تغلغلَت دِماءُ حياتهم في الرَّمل. فلا كمِّيَّةَ من الشَّراب أمكن أن تطرُدَهم.

وقالت برِقَّة: "أنا آسِفة".

نظَرَ إلَيها مِن عَلُ غيرَ مُصدِّق. وقد أغضبَه تلألؤ الدُّموعِ في عينَيها، لأنَّ الدُّموعَ سبقَ أنِ استعُمِلَت ضدَّه في الماضي. فابتعَدَ عنِ الحائط مُسرِعًا وقعَدَ القُرفصاءَ أمامها من جديد وحدَّق إليها. وسألَ ساخِرًا: "لماذا ينبغي أن تكوني آسِفة؟"

لم تَرتَع منه. "لقد كانت حياتُكَ عسيرة".

"بقِيتُ حيًّا".

"بثمَنٍ غالٍ".

فضحِكَ ضِحكةً باردة ووقف من جديد مُضطرِبًا. "كان أفضلَ لو مُتُّ. صحيح؟ إذًا لكانَ الولَدُ كلُّه لكِ".

"لو مُتَّ، لرُبَّما ما وُلِدَ كالِب قطُّ. ثُمَّ إنَّه عطيَّةٌ من الله، تستحقُّ أيَّ أسَف".

نظَرَ أتريتِس من النافذة خارجًا إلى المُجمَّع الأجرد والأسوار الثخينة وراءه. وأحسَّ كما لو كان في اللُّودُس من جديد. فأراد أن يُصرِّخ ويدكَّ الأسوار.

أحسَّت رِصفة غضَبَه كما لو كان كائنًا قاتمًا في الغُرفة معها. لقد أدركَت حضوره الخبيث وخطرَه الرَّهيب. ماذا يمكنها أن تقول لتهدئة أتريتِس؟ لم يكُن لدَيها كلام. حتَّى إنَّها لم تستطِع أن تتصوَّر كيف كانت حياتُه، ولا كانت على يقين بأنَّها أرادت أن تعرف ذلك. لقد كانت حياتُها صعبةً كِفايةً. ولم يكُن لديها أيضًا قوَّةُ الإيمان لتُساعِدَه على حَمْلِ أثقالِه.

التفتَ إلَيها. "لم نُنهِ حديثَنا عصرَ اليوم".

رأت أنَّ أتريتِس أرادَ قِتالًا، وبدا أنَّها كانت الخصمَ الوحيد المُتاحَ الذي أمكن أن يشنَّ عليه معركة.

نحنُ قرينان غيرُ مُتكافئَين، يا ربّ. في وسعه أن يُبيدَ قلبي.

"كم بقيتِ مُتزوِّجةً؟"

"لماذا تسألُني سؤالًا كهذا؟"

فقال ساخرًا: "يكفي أنّي أسأل!" ثُمَّ تشدَّقَ على نحوٍ لاذع: "قُلتِ إنَّكِ لن تكذبي".

"ولن أكذب".

"أجيبي إذًا".

فابتسمَت له ابتسامَةً مُوجَعة: "هل تنصرِفُ عندما أُجيب؟"

لم يضحَك. "سأنصرف متى شئتُ".

زفَرَت نفَسَها على مهل، مُدافِعةً الميل إلى مُقاتلته كما أراد. "بقِيتُ مُتزوِّجةً ثلاثَ سنين". وأطلق كالِب صوتًا خفيفًا، فرفعَته.

لاحظَ أتريتِس كيف جذبَت شالها حولَها وحولَ ابنِه بحيثُ لُفَّا معًا. "هل كُنتِ أمينة؟"

فرفعَت رأسها ونظرَت إليه. "نعم، كنتُ أمينة".

أحسَّ أنَّها كانت تُخفي شيئًا ما، فتَقرفصَ أمامَها مُجدَّدًا، وقد ضاقت عيناه على وجهها الشاحِب الذي ترامى عليه ضوءُ القمر. "في قبيلتنا، تُعَرَّى المرأةُ الخائنة وتُجلَد أمام أهل القرية. ثُمَّ تُقتَل".

أثارت خفايا قلب رِصفة الغضَب: "ماذا عن الرَّجُل؟"

"ماذا تقصدين بقولك: ماذا عن الرَّجُل؟"

"الزِّنى يشتمل على شخصين، ألا يشتمِل؟"

"المرأة تُغوي".

فأطلقت ضِحكةً رقيقة. "والرَّجُل يستسلم كثَورٍ أبله؟"

وتكوَّرَت يداه قبضتَين إذ فكَّرَ بأيَّة سهولةٍ وقَعَ فريسةً لمفاتنِ جوليا.

حطَّت كالِب على فخِذَيها مجدَّدًا، وقالت- مُحاوِلةً الحِفاظ على مُستوى صوتها-

"الرَّجُل والمرأة مُتساوِيان في نظر الله".

فأطلقَ ضِحكةً حادَّة. "مُتساوِيان!"

"اشْش!" ووضعَت إصبعًا على شفتَيها. "ستُوقِظُه". من شأن ذلك أن يُثيرَ الهَلَع في قلبِ هذا المُحارِب. ثُمَّ نزعَت شالَها وغطَّتِ الطِّفل.

وقال من بين أسنانهِ المُطبَقة: "منذُ متى كانت المرأة مُتساوِيةً مع الرَّجُل؟"

"منذُ البَدء لمَّا خلقَهما الرَّبُّ كِلَيهما. وبحسَب الشريعة الموسَويَّة، كان الرَّجُل والمرأة المُتورِّطان في الزِّنى كِلاهُما يُعدَمان لمنع الخطيئة من الانتشار كوَباءٍ في أوصال الأُمَّة. لقد كان واجبًا أن تُجرى العدالة بالتَّساوي".

"أنا لستُ يهوديًّا!"

"ليتكَ كُنتَ، سيِّدي". حتَّى في أثناء تلفُّظِها بهذه الكلمات، ندِمَت عليها. وكان الصَّمت الذي خيَّمَ على الغُرفة ساخنًا. سامحِني أيُّها الآبُ السَّماويُّ. اجعلني خرساء! أُصغي إليه فأتذكَّرُ حياتي قبلَ شِمعي، وقبلَك. وأنا أُريد أن أُقاتِلَ رادَّةً، حتَّى حينَ أعلَم أنِّي لا أستطيعُ أن أفوز.

"هل كان زوجُكِ يسمحُ لكِ بأن تتكلَّمي هكذا؟"

شِمعي. شِمعي الغالي. وأنقذَتها ذِكرَياتٌ رقيقةٌ من أُخرى أكثرَ قتامًا. فابتسمَت. "كثيرًا ما هدَّدَ شِمعي بضَربي".

"وكانَ ينبغي أن يُنفِّذ تهديداتهِ أيضًا".

فرفعَت ذقنَها. "كانت تهديداتُه فارغة ومقصودًا بها المُزاح. كثيرٌ ممَّا أعرِفُه عن شريعة موسى، هو علَّمني إيَّاه".

فقال بسُخرية ثقيلة: "آه! وماذا علَّمَكِ؟"

"أنَّ قلب الشريعة هو الرَّحمة، ولكنَّ ما أعطاه الله أفسَدَه الإنسان. رُغمَ ذلك، يسودُ الله. لقد أرسلَ الله ابنَه، يسوع، ليكون تضحِيةَ الكفَّارة من أجلِ جميعِ البشَر، رجالًا ونِساءً. وقد صُلِبَ ودُفِنَ وأُقيمَ حيًّا من بين الأموات، مُتمِّمًا بذلك مئاتِ السِّنين من النُّبوَّات عن المسيح، المُخلِّصِ المُنتظَر. إنَّ الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي لا يهلِكَ كلُّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياةُ الأبديَّة".

وتألَّقت عينا أتريتِس: "ما مِن إلهٍ يُبالي بما يحدثُ لنا".

"إنَّ الثَّمن الذي دفعَهُ الله لأجل فدائنا يُبيِّن كم يحبُّنا فعلًا. مهما آمنتَ به أو لم تؤمن، أتريتِس، فهُنالك حقيقةٌ واحدة فقط، وتلك الحقيقةُ هي المسيح".

"أنا أُومِن بالانتِقام".

شعرَت بالحُزن حِيالَ نوعيَّة صوته غيرِ المُهادِنة. "وبالحُكم. فإن حكمتَ، يُحكَم عليك بمقدار الرَّحمة التي تبذلُها".

وأطلَقَ ضِحكةً قاسية.

فقالت: "ليس الله مُتحيِّزًا. فلا تستطيعُ أن ترشُوَه أو تتغلَّبَ عليه. إنَّه لا يفتكر كما يفتكر الإنسان. فإذا وقفتَ على الشريعة، أيَّةِ شريعة- الأفسُسيَّة أو الرُّومانيَّة أو الجِرمانيَّة- تتحمَّل الحُكمَ المُعيَّن لقاء عدَم الطاعة. وحُكم الدَّينونة هو نفسُه دائمًا: الموت".

وقفَ وحدَّقَ إليها من عَلُ. "ما كانَ باختياري أنِّي صرتُ ما أنا عليه!"

"ولكنَّكَ باختيارك تستمرُّ عليه". وشاهدَته يَزيحُ إلى الظِّلال من جديد. لقد أظهَرَ كلُّ ما يُحيطُ به سُخطًا وإحباطًا مُرَّين. هل ظنَّ أنَّ كَرْبَه وشعورَهُ باليأس لم يكونا واضِحَين رُغمَ ذلك؟ لقد عرفَت عمَّا شعَرَ به أكثرَ ممَّا كان في وسعه أن يُخمِّنَ مرَّةً.

يا ربُّ، لماذا أعطيتَني ولَدَه؟ لماذا أرسلتَني إلى هذا الرَّجُل هنا حتَّى أتذكَّرَ الأُمور التي فُعِلت بي؟ لقد تضرَّع شِمعي وجاء بي إليك، وأنتَ شفَيتَني. والآن، أرى أتريتِس فأُحِسُّ الجُروحَ القديمة تنفتح من جديد. امسكني بقوَّة، أبتاه. لا تدَعْني أزلُّ؛ لا تدَعْني أسقط. لا تسمحْ لي بأن أُفكِّر كما كنتُ أُفكِّر سابقًا أو أعيش كما عشتُ قبلًا.

"الحياة قاسية، أتريتِس، ولكنَّ بيَدِك خِيارًا. فاختَرِ الغُفران وكُن حُرًّا".

"الغُفران!" خرجَتِ الكلمة من ظلالِ لعنةٍ قاتمة. "في هذا العالَم بعضُ أشياء لا يمكن أن تُغفَر أبدًا".

ألهبَت عينَيها الدُّموع. "كان لي في الماضي مِثلُ هذا الشُّعور تمامًا، ولكنَّه يرتدُّ عليك ويلتهِمُك حيًّا. فلمَّا خلَّصَني المسيح، تغيَّرَ كلُّ شيء. وما عاد العالَم يبدو كما كان".

"العالَم لا يتغير".

"لا، العالم لا يتغيَّر. أنا تغيَّرتُ".

لم يقُل شيئًا إلى حين، ثمَّ تكلَّم مُثقَلًا. "أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الألَم، يا امرأة".

"أعرِفُ كلَّ ما يُعوِزُني أن أعرِفَه أصلا". وتمنَّت لو تستطيعُ أن ترى وجهَه وتنظُرَ داخِلَ

عينَيه إذ تكلَّمَت إليه. ”جميعُنا نمشي مجروحين، أتريتِس. بعض الجُروح ملموسة ومرئيَّة. وجُروحٌ أُخرى سرِّيَّة ومَخفيَّة عميقًا بحيثُ لا يراها أَحَدٌ سِوى الله“.

فقال مُتهكِّمًا: ”أيَّ جُروحٍ تحملين؟“

لم تُجِب رِصفة. فما كانت لتكشِفَ نفسها لسُخريته أو ازدرائه.

وعبَّس أتريتِس. استطاع أن يرى وجهها في ضوء القمر، ولم يكُنِ التَّحدِّي هو الذي أبقاها صامتة. فسألَ بلُطفٍ أكثر، راغبًا في أن يعلم: ”أيَّ جُروح؟“

فقالت بعِناد: ”جُروحًا خاصَّة“.

غاظَهُ عِنادها. ”ليس بينَنا أيُّ شيءٍ خاصٌّ. أنتِ هُنا لأنِّي أسمح بحضورك لأجل الصَّبيِّ. فالآنَ قولي لي عمَّا تتكلَّمين“.

هزَّت رأسها. ”رُبَّما أقول لك ذاتَ يوم، أتريتِس، ولكنْ ليس لأنَّكَ تأمرُني بأن أقول. سيكون ذلك حينَ يُمكِنُنا كِلَينا أن يثق أحدُنا بالآخر، وليس قبلَ ذلك“.

”لن يأتيَ ذلك اليومُ أبدًا“.

”إذًا لن نتكلَّم عن الأمر أبدًا“.

خطَا أتريتِس خارِجَ الظِّلال. فشعرَت رِصفة بخوفٍ غريزيٍّ منه. وعلِمَت أنَّ هذه كانت النَّظرة التي رآها رِجالٌ كثيرو العدَد قُبَيلَ موتهم. فبردَت في داخلها، مُنتظِرةً الضَّربة القاضية.

نظَرَ أتريتِس داخِلَ عينَيها. فلم تقُلْ شيئًا، بل ظلَّت جالسةً تنتظر فحَسْب، كما سبق أنِ انتظر الآخَرون.

وإذ أحكمَ قبضته، تذكَّر المُصارعَ الشابَّ من قبيلة الشَّطِّيِّ، واقفًا أمامه بذراعَيه الممدودتَين، مُنتظِرًا الطَّعنةَ الأخيرة في قلبه. وتذكَّرَ كثيرين جدًّا غيره...

مع ذلك، ظلَّت رِصفة جالسةً، خائفةً لكنْ غيرَ مُبديةٍ أيَّ اعتِراضٍ أو التِماس.

أثَّرَ فيه الإذعانُ الهادئُ على وجهها...وفجأةً ملأت ذِهنَه صُورةٌ: كالِب جاثيًا على رُكبتَيه، ورأسُه مُمالٌ قليلًا إلى الوراء، كاشِفًا عُنقَه فيما الرَّعاع يُصرِّخون: ”جوغولا!“

تردَّدت في ذِهن أتريتِس مرَّةً أُخرى أصداء كَلِمات المُصارع العبرانيِّ: ”حرِّرني، يا صديقي!“ ولمَّا وضعَ كالِب يدَيه على فخِذَي أتريتِس، وأمالَ رأسَه إلى الوراء، ارتبكَ الجِرمانيُّ حِيالَ شجاعة صديقه...وحِيالَ السَّلام الغريب الذي بدا مُستقِرًّا على كالِب وهو يستعدُّ للموت. وقد أعطى أتريتِس صديقَهُ مُنيَتَه. لقد حرَّره. وإذ فعلَ هذا غمَرَه جوعٌ شديد

إلى ما جعلَ الرَّجُلَ قويًّا جدًّا وشُجاعًا جدًّا، مهما كان ذلك.

ماذا أعطاك سلامًا كهذا، يا صديقي؟ هكذا تساءل الآن كما كان قد تساءل مرارًا عديدة من قبل. وقد قوبِلَ بالصَّمتِ عينه، بالخَواء الداخليِّ العميقِ عينِه.

اقترَبَ أتريتِس خُطوةً إلى رِصفة، ناظرًا كيف ارتجفَت ردًّا على قُربِه. وبصَوتٍ مُنخَفِضٍ نامٍّ عن عاطفة لم تفهمها، قال: "كالِب اسمٌ قويٌّ، اسمُ مُحارِب. خلِّيه!"

ومن ثَمَّ التقطَ البَطَّانيَّة المطروحة بِمُحاذاة الحَشِيَّة، وأسقطَها بجانب رِصفة، ومضى خارجًا.

أطاعَت رِصفة أتريتِس وبقِيَت داخل أسوار الدَّارة. وعرَضَت أن تُساعِدَ الخَدَم، إلَّا أنَّهم قالوا إنَّ السَّيِّدَ ما كان ليُحبِّذَ ذلك. فقد بدا أنَّها أُنزِلَت إلى مَقام ما بين عبدة وحُرَّة، مكانٍ غامض غير مُحدَّد ضِمنَ أهل البيت. ولمَّا تجنَّبَها أتريتِس، عقَدَ الآخرون عزمَهُم على أن يكونوا في مأمَن فحذَوا حَذوَه.

وجدت نفسَها جائلةً في أنحاء الدَّارة الضَّخمة على نحوٍ يُشبِه كثيرًا طريقةَ جَوَلان أتريتِس ليلًا. فحينَ لا يكون كالِب نائمًا أو راضِعًا، تبحث عن مكان يترامى إليه نورُ الشَّمس، وتضَعُ الصَّبيَّ على شالها. ثمَّ تُراقِبُه مُبتسِمةً يركُلُ ويلعب ويُصدِرُ أصواتًا.

عصرَ ذاتِ نهار، دخلَت غُرفةً في الطابق الثاني. لقد راقَتها لأنَّ نور الشمس تدفَّقَ داخلًا من شُرفتها. وكانت خاليةً من الأثاث ما عدا جرَّةً نُحاسيَّة كبيرة فيها نَخلةٌ. فوضعَت كالِب على شالها تحتَ حُزمةٍ من نور الشمس. وأخذ يترجَّح على معدته ذهابًا وإيابًا، راكِلًا برِجلَيه القويَّتين اللَّحيمتَين. فقعدَت لتُراقِبَه.

قالت ضاحكةً: "أنت ضِفدعٌ صغير!"

فأصدر زعقةَ قَرقَرةٍ وركَلَ بطريقةٍ أسرع. ورأت ما جذَبَ انتِباهَه، فأمسكَت بطرَفَي البطَّانيَّة، ساحِبةً إيَّاها على الأرضيَّة الرُّخاميَّة الناعمة. وقالَت: "أنتَ دائمًا تُريدُ ما لا يمكنك أن تصل إليه!" مُربِّتةً قفاه.

مدَّ كالِب يدَه نحوَ المُنحَنى اللَّمَّاع في الجرَّة النُّحاسيَّة الكبيرة. وركَلَ مُجدَّدًا برِجلَيه، عالِقةً أصابعُ قدَمَيه بالشَّال، ممَّا دفَعَه بُوصةً إلى قُرب الجرَّة. ومسَّت أصابِعُه الصغيرةُ النُّحاس، فاشتدَّ رَكلُه مُهَزهِزًا وماذًّا يدَيه. وإذ رقَّت ابتسامةُ رِصفة، أمسكَت بشالها ثانيةً وبرَمَتهُ بحيثُ بات كالِب بمُحاذاة الجرَّة الكبيرة. فأدار رأسَه مُحدِّقًا باستِطلاعٍ إلى الطِّفل الآخر المعكوس

على النُّحاس المصقول.

"ذلكَ أنت، كالِب".

ترَكَ بَصماتِ أصابعَ على السَّطح الذهبيِّ اللمَّاع.

اكتنفَتها الوحشةُ على نحوٍ غير مُتوقَّع إذ راقبَته يمدُّ يده إلى صورته. هل يكونان كلَّ حين وحدَهما هكذا، معزولَين عن باقي أهل البيت؟ وقفَت وخرجَت إلى الشُّرفة، مُطِلَّةً على الفِناء الأجرد. كان حارسان يُقطِّعان الوقت بقُرب البوَّابة، مُتحادِثَين ومُتضاحِكَين. وكان خُدَّامٌ آخرون يعتنون بحديقة الخُضَر داخِلَ الأسوار.

همسَت رِصفة: "يا ربّ، أنت تعلَم كم أُحِبُّ كالِب. أشكُرُك عليه من كلِّ قلبي. أيُّها الآب، لا تحسبْ أنّي ناكِرةٌ للجميل، غير أنّي أفتقِدُ شمعي ويوحنَّا والباقين أجمعين. أعلَمُ أنّي لم أتكلَّم إليهم كثيرًا جدًّا لمَّا أُتيحَت لي الفُرصة، ولكنّي مُشتاقةٌ إلى الوجود بينَهم. أنّي أفتقِد الوقوفَ بجانب النَّهر والترنيمَ والاستِماعَ إلى كلمتك".

كانت الطريق التي تؤدّي رجوعًا إلى أفسُس وراء البوَّابة تمامًا. وحيثُ انحدرَت وانعطفَت غربًا، كانت شجرَةُ بُطم عتيقة. واستطاعت رِصفة أن ترى رجالًا ونساءً تحت الشجرة، بعضُهم نِيامٌ وبعضُهم يتحدَّثون، وآخرون ينظرون باتِّجاه الدَّارة. أكانوا مسافرين مُتعَبين يستريحون في الظِّلّ؟ أم كانوا المُعجَبين الذين ازدراهُم أتريتِس جدًّا، ينتظرون أن يُلقوا لمحةً على معبودهم؟

أمَّا التلال، وقد اخضرَّت من مِطرةٍ حديثة، فكانت منظرًا مُرحِّبًا به أكثر. أيُّ سرورٍ سيحمله المَشيُ إلى هُناك، والجلوسُ على جانب التَّلّ، وجَعلُ كالِب يُحِسُّ العُشب بين أصابع قدَميه!

والتفتَت إليه مجدَّدًا فرأت أنَّه نام بقُرب الجرَّة. فمضَت مُبتسِمةً وجَثَت بقُربه. وحملَقَت إليه من عَلُ وقتًا طويلًا، مُفكِّرةً كم كان جميلًا وكاملًا. ثُمَّ مسَّت كفَّه، فتشبَّث بإصبعها، وفمُه يشتغِل كما لو كان يرتضعُ في أحلامه أيضًا.

قالت: "أيَّةُ مُعجِزةٍ أنت!" وشالَته برِفق. وأتْكأته برِقَّةٍ على كتِفها، وقبَّلت خدَّه قُبلةً خفيفة. وإذ أغمضَت عينَيها، تنشَّقت عميقًا رائحته الطيِّبة. براءةٌ عذبة. بداءاتٌ جديدة.

"ما الذي تفعلينه هُنا في الدَّاخل؟"

جفَّلَها الصَّوتُ العميقُ القاسي. فالتفتَت إلى الوراء، وقامَت، مُواجِهةً أتريتِس في مدخل البيت. "أنا آسِفة. لم أعلَم أنَّه لم يكُن مسموحًا لي أن أدخُلَ هذه الحُجرة".

دخلَ أتريتِس الغُرفة، ونظَرَ إلى شالِها الذي ما يزالُ مفروشًا على الأرض بقُرب الجرَّة البرَّاقة. "افعلي كما يروقُكِ".

استرجعَت شالها ونفَّضَته، وأسدلَته على كتِفها الأُخرى، بعيدًا عن مُتناوَل كالِب. وابتسمَت لأتريتِس التماسًا. "ما يروقُني هو أن أصطحِبَ كالِب في نُزهةٍ على التِّلال".

فقال: "لا!" غاضبًا من أجل كونه قد صُعِقَ بجمالها من جديد.

"تحتَ الحِراسة؟"

"لا!" ثُمَّ تقدَّم نحوَها متوقِّفًا على بُعدِ بِضعِ أقدام. وضاقت عيناها. "ولَن تقِفي خارجًا على الشُّرفة حيثُ يُمكِنُ أن تُرَي ثانيةً أيضًا".

فنظرَت نحو الشُّرفة بعبسة. "أينَ كُنتَ حتَّى أمكنك أن تراني؟"

تخطَّاها أتريتِس وخرَجَ إلى نور الشَّمس. "لكِ أن تتيقَّني بأنَّ جاسوسَ سَرتِس رآكِ".

"جاسوس؟ أين؟"

فاتَّكأ على حائط الشُّرفة وأومأ برأسه نحو الطريق. "إنَّه جالس تحتَ الشَّجرة هناك في الأسفل".

"يبدون كمُسافِرين".

"لقد عرَفتُه من اللُّودُس".

فزفرَت نفَسَها برِقَّة. "أُوه! لعلَّه يحسبُني خادِمةً تُنظِّف غُرَف الدَّور الفوقانيّ".

"واقِفةً بِتَوانٍ ومُحدِّقةً إلى التِّلال؟"

تورَّدَ خدَّاها. "أأنت على يقين بأنَّه هو الشخص الذي يتجسَّسُ عليَّ؟"

ابتعد أتريتِس عن الحائط حالًا ومشى راجعًا إلى الدَّاخل. "نعم، لقد وضعتُكِ تحت المُراقبة. أنا أعرِف تمامًا أين أنتِ وماذا تفعلين كلَّ دقيقة من النَّهار". ثُمَّ توقَّفَ أمامها. "ومن اللَّيل".

تكلَّفَت ابتسامةً، وقلبُها يخبط خبطًا. "أنا شاكرةٌ أن أعلَمَ أنَّ كالِب محروسٌ جيِّدًا هكذا".

انتخَعَت عَضَلةٌ في خدِّ أتريتِس. وخفَقَت حَملقَتُه عليها. ثُمَّ تخطَّاها من جديد. فأحَسَّتْ كما لو أنَّ أسَدًا جائعًا يُطوِّقُها.

وما لبِثَ أن قالَ بِلا مُوارَبة: "كانت هذه غُرفتي في ما مضى".

"أخبرَتني پيليا".

ثُمَّ دارَ حولها من الجِهة الأُخرى، وعيناهُ ضارِيَتان. "هل أخبرَتكِ پيليا بأيِّ شيءٍ آخر؟"

"قالت إنَّك لا تحبُّ أن تدخُلَ هُنا". وأجالَت نظرَها حولَها، مُعجَبةً بجُدران الرُّخام والأرضيَّة المُزَخرَفة. "إنَّها غُرفة جميلة، يغمرُها نورُ الشَّمس".

فقال بلهجةٍ لاذِعة: "الكُبرى والفُضلى في المنزِل".

رفعَت نظرَها إليه مُضطرِبةً. وتدفَّقت الأسئلة في ذهنها. إلَّا أنَّها لاذت بالصَّمت.

ألقى نظرةً خاطفة في أنحاء الغُرفة الخالية، مُتجهِّمَ الوجه. "مَهجعٌ يليق بمَلِكة".

"أعتذِرُ عن تدخُّلي حيثُ لم يكُن ينبغي لي ذلك. لن أدخُلَ هُنا ثانيةً". ثُمَّ استأذَنَت، وغادرَت الغُرفة، مُطلِقةً تنهُّدَةَ فرَجٍ حالَما بلغَتِ الرِّواقَ الخارجيَّ وخرجَت من تحت تلك التَّحديقة الزَّرقاء الباردة.

أمضَت رِصفة باقيَ عَصرِ النَّهار في الأتريوم. حملَت كالِب على حافة البِركة وجعلَته يركل الماء بقدَمَيه. ولمَّا جاع، انزوَت في مُختلًى مُظلَّل وأرضعَته.

لمَّا أُتخِمَ كالِب، ذهبَت إلى المطبخ وطلبَت ما تأكلُه. فوضَعَ الطبَّاخُ خُبزًا وفاكهة وشرائح لحم رقيقة على طبَق كبير. وحملَهُ مع كوزٍ من النَّبيذ إلى غُرفةٍ فيها طاولة طويلة يأكل إليها العبيد. وإذ حطَّ الوجبة، تَرَكَ رِصفة. فقعدَت على البنك، وشكرَت الله، وأكلَت وحدها. وكان السُّكونُ طاغيًا.

دخلَت پيليا بسِلالِ خُبز. فابتسمَت رِصفة وحيَّتها، إلَّا أنَّ الخادمةَ حطَّت سلَّةً خَبطًا ومَشَت بسُرعة مُبتعِدةً عن الطاولة. كانت عيناها حمراوَين ومُنتفِختَين من البُكاء، ولمَّا ردَّت ناظِرةً إلى رِصفة، دلَّت سيماؤها على استِياءٍ غيرِ مُقنَّع. وإذ تجهَّمَت رِصفة مُرتبِكةً، شاهدَتها تضَعُ باقيَ سِلالِ الخُبز على الطاولة وتنصرِف.

قامت رِصفة مُتنهِّدةً. ولمَّا خرجَت إلى الرِّواق، رأتِ الخادِمةَ راجِعةً بسَلَّة فَواكِه. فتخطَّتها پيليا مُسرِعةً، مُتجاهِلةً إيَّاها على نحوٍ مُحدَّد. وتبِعَتها رِصفة مُنزعِجةً إلى داخل البَهوِ الصَّغير.

"ما خَطبُكِ، پيليا؟"

"لا شيء".

"يبدو عليكِ الاستياءُ الشديد من أجلِ أمرٍ ما".

"الاستياء؟" وحطَّتِ الصِّينيَّة خَبطًا. "أيُّ حقٍّ لي في الاستياء؟" واندفعَت خارِجةً من الغُرفة مُجدَّدًا.

أزاحَت رِصفة كالِب وانتظرَت. ورجعَت پيليا من جديد بكومةٍ من الصُّحون الخشبيَّة. وشاهدَتها رِصفة تخبِطُ الصُّحونَ في مكانها واحِدًا فواحِدًا على طول جانب الطاولة الآخَر. "هل أثَرتُ استياءَكِ بطريقةٍ ما؟"

توقَّفَت پيليا عند رأس الطاولة، مُحكِمةً القبضَ على باقي الصُّحون الخشبيَّة التي تحمِلُها. واغرورقَت عيناها الغاضِبتان. "يبدو أنِّي لن أُستدعى بَعدُ إلى سريرِ أتريتِس".

لم تكُن رِصفة قد علِمَت بعلاقتهما، وأفزعَتها مَوجةُ الألم التي شعرَت بها لدى سماع ذلك. "وأيُّ علاقةٍ لذلك بي؟"

فقالت پيليا: "لا تتظاهري بأنَّكِ لا تعرفين!" ثُمَّ بدأت تحطُّ باقيَ الصُّحون. وقالت رِصفة بانزعاج: "لستُ أعرِف".

لمَّا أنجزَت پيليا مهمَّتها، اندفعَت خارجةً من الغُرفة مُجدَّدًا.

شالت رِصفة كالِب مُضطرِبةً، وأحكمَت تثبيتَه إليها بشالها، ومضَت إلى غُرفتها. ولمَّا فتحَتِ الباب، وجدَتِ الغُرفة خالية. فنزَحَ الدَّمُ من وجهِها. ومضَت تبحث عن لاغُس حتَّى وجدَته في البِبليوتيكا، المكتَبةِ الكبيرة، يُراجِعُ حِسابات البيت.

"أينَ أشيائي؟"

"أمَرَ السَّيِّدُ بنقلها إلى المَهجَع في الطَّابق الثاني".

ففكَّرَت في پيليا وحمِيَ وجهُها. "لماذا؟"

"لم يقُل".

"أين هو؟"

رفَع نظره في تحذيرٍ واضح. "لو كنتُ مكانَكِ، ما كنتُ..."

"أين هو؟"

"في الجِمنازيوم، ولكنْ..."

فدارت بسُرعة ومضَت.

ولمَّا دخلَتِ الجِمنازيوم، وجدَت أتريتِس، مُجرَّدًا إلَّا من مئزَر، وذراعاه مَثنيَّتان على طُولِ عارِضَةٍ فوقَ كتِفَيه فيما يقوم بتمريناتِ ثَنْيِ الرُّكبتَين. وكانت عيناه شاخصتَين إليها كما لو كان قد سمِعَها آتيةً في الرِّواق الخارجيِّ وباتَ ينتظِرُها.

وإذ شهَقَت نفَسًا مُهدِّئًا، تقدَّمَت إليه. فلم يتوقَّف عن تمريناته، مع أنَّ العَرَق تدفَّقَ من

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

جسمهِ الضَّخم. "رجاءً، مُر بإرجاعِ أشيائي إلى الدَّور التَّحتانيِّ".

"قُلتِ إنَّ الغُرفة جميلة".

"هي كذلك، ولكنَّ ذلك لا يعني أنِّي أُريد أن أُقيم فيها".

هزَّ كتِفَيه مُبعِدًا العارِضة. فقرقعَت عاليًا على الأرضيَّةَ الرُّخاميَّة، وتردَّدت أصداءُ الصَّوت حولَ الجُدران. وإذ أجفلَ كالِب من نومه، أطلق صرخةَ بُكاءٍ طِفليَّةً رقيقة. فجذبَت رِصفة الشال وثبَّتته حول كالِب بإحكامٍ أوفى، فيما نطَّتِ العارضة ضاجَّةً وتدحرجَت مُصطدِمةً بالجدار. وفرَكَت رِصفة ظهرَ كالِب لتُهدِّئه.

وما لبِثَت أن قالت بهدوءٍ أكثَر ممَّا شعرَت به: "أُفضِّل أن أكون في الدَّور التَّحتانيِّ حيثُ كنتُ".

"لا أُبالي بما تُفضِّلينَه". وأخذ أتريتِس مِنشفةً فمسح العَرَق عن وجهه. "ستكونين في الدَّور الفوقانيِّ، في الغُرفة المُجاورة لغُرفتي".

تشنَّجَت مَعِدتُها توجُّسًا. "إذا كنتُ قريبةً منك جدًّا هكذا، فإنَّ الخُدَّام سيفترِضون..."

فطرَحَ أتريتِس المِنشَفة بغضَب على الأرض. "لا أُبالي بما يفترِضُه أيُّ شخص!"

"أنا أُبالي! فسُمعَتي هي التي تلوكُها الألسُن".

"كما هي الحال منذُ أوَّلِ يومٍ وصلتِ فيه".

"لأسبابٍ غير الوضع الذي ستُنشئُه أنت!"

"أتظُنِّين أنَّ أحدًا يُبالي حقًّا بما يجري بينَنا؟"

كادت تُفشي بتسرُّع أنَّ پيليا تُبالي على نحوٍ واضح، ولكنَّها كفَّت نفسَها. لم تُرِد أن تُورِّط الخادمة في بلاءٍ إضافيٍّ. لقد أرادت أن تُخرِجَ نفسَها من البلاء. "ليس الأمرُ لائقًا".

فلاحَ في عينَيهِ بَريقُ تصميم، وقال: "إلَّا أنَّه مُناسِب".

حمِيَ وجهُها، وتظاهرَت بإساءة الفهم قائلةً: "في أيِّ وقتٍ رغِبتَ أن ترى ابنك، ما عليكَ إلَّا أن تُقرقِعَ إصبعَيك فأُحضِرَه إليك!"

فاقتربَ إليها مُبتسِمًا بفُتور. ووضعَ يدَه فوقَ يدِها على ظهرِ ابنه. فسحَبَت يدها وقلبُها يُخبِّط. وفرَكَ ظهرَ كالِب ببُطء، مُحدِّقًا داخِلَ عينَيها. فأحسَّت الطِّفل يسترخي على جِسمها. ثُمَّ رفعَ أتريتِس يدَه وطوَّقَ بها حَنجرَة رِصفة، دافِعًا ذقنَها إلى فوقُ بإصبعِه. "وإذا كُنتِ أنتِ مَن أُريد، أفَما عليَّ إلَّا أن أُقرقِعَ بإصبعيَّ فتأتي إليَّ أيضًا؟"

فخَطَت إلى الوراء وابتلعَت ريقها بتشنُّج، وقلبُها يتسارع. كان في وسعها بَعدُ أن تُحِسَّ الحرارةَ حيثُ لَمَسها. وقالَت بحَزم: "لا!"

والتوى فمُه. "ألا تظُنّين ذلك؟" لقد أحسَّ الخَفَقان في حَنجرتها. وقد ضاهى خَفَقانَه. بضعَ ليالٍ معها، فتلتهِمَ النَّارُ المُضطرِمةُ فيه ذاتَها. "سيكونُ من السَّهل إقناعُكِ بالعكس".

فتصلَّبَت، شاعرةً بالخِزي حِيالَ استجابتِها له. "لستُ واحدةً من المُعجَبات بك، سيِّدي".

ومشى راجعًا فتناوَلَ مِنشفةً أُخرى، وقال: "لستُ باحثًا عن امرأةٍ تحبُّني". وإذ كشَّرَ ساخِرًا، مسَحَ العرَقَ عن صدره.

"طلبتُ منك ألَّا تلعب معي، أتريتِس، وهذا هو نوعُ اللَّعبِ الذي عنَيتُه".

"قُلتِ منذُ بضعة أيَّام أنّي أحتاج لأنْ ألعب".

"مع ابنِك، لا معي".

"أظنُّ أنَّكِ ستكونين أكثر إمتاعًا".

ستتولَّى نقل أشيائها بنفسها. فدارت وتوجَّهت نحو الباب، عاقدةً العزم على ذلك.

أمسك أتريتِس بذراعها وأدارها نحوًا لتُواجُهَه من جديد.

"لا تُديري لي ظهرَكِ!"

استيقظَ كالِب وشرعَ يبكي.

فصرَّ أتريتِس بأسنانه، وقال: "لم أدعُكِ للدُّخول إلى هنا. لم أستدعِكِ".

"اعتِذاراتي. إذا أرخَيتَني، أُغادِر".

اشتدَّت أصابعُه على ذراعها على نحوٍ مؤلم. "أمَّا الآن، ما دُمتِ هُنا، فستُغادرين حين أصرِفُكِ". وقد تأجَّجَت عيناه الزَّرقاوان. "ستُنقَلين إلى غُرفةِ جوليا، أحبَبتِ ذلك أم كرِهتِه". وإذ رأى إجفالَها، أفلَتها.

فقالت باقتِضاب: "لستُ أُحِبُّه"، ضامَّةً إلَيها كالِب أكثرَ بصورة غريزيَّة وهي تخطو مُتراجِعةً عن والِده.

"ستُقيمين حيثُ وضعتُكِ. مُريدةً أو مُرغمةً: أنتِ بالخِيار. أمَّا الإقامَة، فستُقيمين!" وتحوَّلَت ابتسامتُه ازدرائيَّةً. "ولا داعيَ لأنْ تنظُري إليَّ هكذا. ما اغتصبتُ قطُّ امرأةً في حياتي، ولست أنوي أن أُباشِرَ ذلك الآن". وانزلقَت حَملقَتُه عليها بازدراء. "إذا كُنتِ عفيفةً كما تدَّعين، فلن تكونَ لديكِ مُشكِلة، أليس كذلك؟"

فأطبقَت أسنانَها بقوَّة.

ومشى أتريتِس راجعًا إلى العارِضة فرفعَها إلى كتِفَيه. وإذِ التفتَ، رأى أنَّها ما تزال واقِفةً في وسط الغُرفة، وعيناها شاخِصتان إلى الجِدار البعيد. فأحسَّ انزِعاجَها والسَّبَبَ الداعيَ إليه.

قالت بتوتُّر: "هل لي أن أذهب الآن، سيِّدي؟"

"ليس بعد". واستأنف تمريناتِه، تارِكًا إيَّاها واقفةً عدَّةَ دقائق في صمت.

وقفَت جامدةً تنتظِر. ووجدَ متعةً في النَّظر إليها، ومتعةً أكبرَ بَعدُ في إغاظتها. فلتطحَنْ أسنانها كما جعلَته يفعل. وترَكَ اللحظة تمتدُّ إلى اثنتَين، فثلاث، فأربَع. ثُمَّ أسقطَ العارِضة.

"لكِ أن تذهبي. إنَّما تذكَّري هذا: المرَّة التاليَّة التي ترغبين فيها أن تتكلَّمي إليَّ، أرسِلي لاغُس أوَّلًا في طَلَبِ إذني!"

٦

أرسَلَ غالُص خبرًا بأنَّ سَرتِس شوهِدَ صاعدًا الطريقَ من أفسُس. فشتَمَ أتريتِس في سِرِّه، إذ لم يكُن في مِزاج يؤاتي التَّعامُلَ معه. وكاد يقول لغالُص ألَّا يأذنَ له بدُخول الدَّارة، ثُمَّ فكَّرَ في الأمر تفكيرًا أفضل. فمع أنَّه لم يُبالِ في شيءٍ بإثارةِ استياءِ مسؤولين رومانيِّين، فقد علِمَ غريزيًّا أنَّ سَرتِس كان شخصًا ينبغي التعامُلُ مع بحذَرٍ شديد.

قال أتريتِس: "أدخِلهُ وأحضِره إلى التريكلينيوم". فانصرَف غالُص. "لاغُس، هاتِ خمرًا واطلُب من الطبَّاخة أن تُعِدَّ لنا طعامًا".

فقال لاغُس: "نعم، سيِّدي. هل من أمرٍ آخر؟"

تجهَّم أتريتِس، وذِهنُه يشتغِل بسُرعة. فتذكَّر على نحوٍ غاية في الوضوح الاهتمامَ الذي أبداه سَرتِس نحوَ رِصفة والطِّفل في أثناء زيارته الأخيرة. "قُل للأرملة أن تبقى في مسكنها. تيقَّن بذلك. أقفِلِ الباب!"

"نعم، سيِّدي". وانطلقَ لاغُس على عجَل لتنفيذ الأمر.

صاحَ أتريتِس وراءه: "ولتأتِ پيليا لخدمتنا!" لقد كانت الفتاة جميلة، وربَّما جميلةً كِفايةً بحيث تصرِفُ اهتمام سَرتِس عن التَّحزُّر بشأنِ رِصفة. وهو سيُعنى بالأمر جيِّدًا.

صافَحَ سَرتِس أتريتِس باليد مُحيِّيًا، مُبتسِمًا ابتِسامةً عريضة إزاءَ التَّرحيب الحارّ، مُنتبِهًا بذكاءٍ إلى وجود سبَب خفيٍّ وراءه. فأمسكَ أعلى ذِراعِ أتريتِس، قائلًا: "إنَّك تبدو جيِّدًا، يا صديقي".

قال أتريتِس: "اقعُد، واستمتِع بشيء من الخمر!" مُشيرًا عرَضًا إلى واحدة من الأرائك المُوسَّدة المُريحة، فيما اتَّكأ هو على أريكةٍ أخرى.

لبَّى سَرتِس الدَّعوة، قائلًا: "بعد استِقبالك الأخير، توقَّعتُ أن أُصرَفَ عند البوَّابة".

"فكَّرتُ في ذلك، ولكنَّك ما كُنتَ إلَّا لِتُصِرَّ".

فابتسم سَرتِس: "أنتَ تعرِفُني إلى أبعدِ حدٍّ، كما أعرِفُكَ أنا، أتريتِس. فبعدَ شُهورٍ من العُزلة، لا بُدَّ أنَّك مُتلهِّفٌ إلى التَّسلية. وإلَّا، فما كُنتَ ليِّنَ العريكةِ كثيرًا هكذا".

رمَقَه أتريتِس بنظرةٍ ساخِرة. "ربَّما، ولكنِّي لستُ مُتلهِّفًا كفايةً للرُّجوع إلى ساحة المُحاربين".

فقال سَرتِس مُتنهِّدًا: "أمرٌ يدعو إلى الرِّثاء، ولكنّي أعيشُ على الرَّجاء". وشاهَدَ عبدةً فتيَّةً جميلة تدخُلُ الغُرفة بالخمر. وخدَمَت أتريتِس أوَّلًا. فلاحظَ سَرتِس كيف تحرَّكت حَملقَةُ أتريتِس نُزولًا على مُنحَنياتِ الفتاة الشَّهيَّة في تأمُّلٍ حميم، غراميٍّ تقريبًا. ماذا كان هذا؟ تساءَلَ بانزعاج وقد اكتسبَت بشَرَةُ الفتاة لونًا ورديًّا. وبدَت مُهتاجةً لمَّا ابتسمَ أتريتِس لها. فقال لها برِقَّة: "لا تنسَي ضَيفي!" مُجريًا يدَهُ نزولًا على وَركِها ومُربِّتًا قفاها بخِفَّة.

قالَت مُتلعثِمةً: "أنا آسِفة، سيِّدي!" والتفتَت إلى سَرتِس.

ولمَّا انصرفَت، شالَ سَرتِس بحاجِبه. "قنيةٌ جديدة؟"

فابتسَمَ ابتسامةً عريضة خبيثة. "اشتريتُها لجوليا. وهي تخدِمُني الآن".

وضحِكَ سَرتِس، مُخفيًا استياءَه وهو يحتسي خمرتَه. "وماذا عنِ الأرملة الجميلة التي رأيتُها آخِرَ مرَّة؟"

فقال أتريتِس: "پيليا مُناسِبة أكثر". وحاول أن يتذكَّر هل ذكَرَ لسَرتِس أنَّ رِصفة كانت أرملة. فإن لم يكُن قد ذكَر، كان ذلك نذيرَ شؤمٍ بأنَّ سَرتِس علِمَ كلَّ شيءٍ عنها.

كم علِمَ أكثرَ من ذلك؟

خمَّنَ سَرتِس سيماءَ أتريتِس. "إذًا سئمتَ الأُخرى فِعلًا؟"

"كانت توقُّعاتُها أكبرَ من نيَّاتي".

"إنَّها جميلة جدًّا".

"لِلسانها لسعةُ العَقرب".

"بِعْني إيَّاها".

حمِيَ دمُ أتريتِس. وقال بسُخرية: "وأُبدِّدها على رجُلٍ يحبُّ النِّساء الشُّقر البَشَرة من بريطانيا؟"

كان سَرتِس قد لمَحَ وهِيجَ نارٍ قبلَما أخفاهُ أتريتِس. فابتسمَ بينه وبين نفسِه. لقد كانت پيليا خُدعةً جميلة، ولا شيءَ أكثر. ومهما كانت العلاقة بين أتريتِس ورصفة، فقد بقِيَت. فقال هازًّا كتِفَيه: "في وسعي أن أُفكِّر في دزِّينة مُصارِعين من شأنهم أن يستمتعوا بعِشرتها". وقد لعِبَ لِعبتَهُ مُبقيًا عينًا متلصِّصةً على ردَّة فعل أتريتِس.

ارتسمَت على شفتَي سَرتِس ابتسامةٌ هِرَّانيَّة. "ماذا تقول؟ حدِّد لها سِعرًا".

تحوَّلَتِ النارُ في داخلِه إلى جليد. وقال: "فلأُفكِّر في الأمر"، كما لو كان ينظُر في عَرضٍ

سَرتِس فعلًا. ثمَّ سكبَ لنفسه مزيدًا من الخمر. وإذِ اتَّكأ مُستلقيًا، ابتسمَ ابتِسامةً عريضة. "بالتَّأكيد، ستُضطرُّ إلى أخذ طفلِها النَّكِد معها أيضًا". وراقَبَ عينَي سَرتِس بانتِباه فرأَهُما تخفقان.

أجفلَ سَرتِس لدى ذِكرِ أتريتِس للطِّفل. فلو كان الولَد لأتريتِس، لَمَا كان بالتأكيد توَّاقًا جدًّا إلى التخلُّص منه. "نسيتُ أنَّ لها طِفلا".

"بالتَّأكيد، لها طِفلٌ حقًّا. لقد رأيتَهُ في زيارتك الأخيرة. إنَّها تُبقيه ملفوفًا بشالها ومربوطًا إلى صدرها. وقد أصبَحَ كَنُتوءٍ نامٍ عليها".

قال سَرتِس: "أعتقد أنَّ الطِّفل هو سبَبُ نُفورِك".

فقال أتريتِس بجفاف: "لكَ أن تقول ذلك".

دخلَت پيليا التريكلينيوم بصِينيَّةِ أطايِب. وقد تلألأت عيناها إذ قدَّمت الصِّينيَّة لسيِّدها أوَّلًا. فعلِمَ أتريتِس ما كانت تُفكِّر فيه. هل كانت جميع النِّساء غبيَّاتٍ هكذا؟ فأخذَ لفافةَ لحمٍ دسِمَةً وغمَسَها في شيءٍ من مَرَق العَسَل، مُرغِمًا نفسه على الأكل رُغمَ عدم قابليَّته. وبدا سَرتِس مُتسلِّيًا.

مدَّ سَرتِس يدَه فتناوَلَ قبضةً من التَّمر، قائلًا: "ما دُمنا نتحدَّث بشأن النِّساء، يقول الناس إنَّ أتريتِس العظيم الذي ما هزَمَهُ رجُلٌ قطُّ في ساحة المُحاربين أذلَّته واحدةٌ من بنات روما". فما كان ممكنًا الآنَ إغفالُ استِشاطةِ أتريتِس. جيِّدٌ. ما زالت كبرياء أتريتِس كلَّ حين نُقطةَ ضعفِهِ الكُبرى.

"مَن أطلَقَ الإشاعات، سَرتِس؟ أنت؟"

"ثُمَّ جئتُ إلى هُنا لأُخبِرَك بها؟ لستُ غبيًّا، أتريتِس، ولا توَّاقًا إلى قبرٍ باكر. لعلَّ السَّيِّدةَ جوليا تكلَّمَت عنك...بعباراتٍ أقلَّ تألُّقًا؟"

"رُغمَ كلِّ ما أُبالي به، ففي وُسعِ السَّاحرة أن تُنادي بما تشاء عند ناصِيَةِ أيِّ شارع في أفسُس!"

"ما دُمتَ متروكًا وحدَكَ لِتَلعقَ جِراحك على قِمَّة هذا الجَبَل؟"

فنظَرَ أتريتِس إليه، وقال بِلِين: "ألعَق جراحي؟"

أحسَّ سَرتِس شعْرَ قفا رقبَتِه يقفُّ حِيالَ نظرةِ تَينِكَ العينَين الزَّرقاوَين، ولكنَّه التمَسَ أن ينخسَ كبرياءَ المُقاتلِ بَعد. "مهما كانت الحقيقة، أتريتِس، فالأمرُ يبدو على تلك الحال".

"حتَّى في نظَرِك؟"

تردَّد سَرتِس تعمُّدًا. وتقسَّى وجهُ أتريتِس. لقد شهرَ الجرمانيُّ الإساءة بسُرعة كما شهَرَ سيفًا ذات مرَّة. "عليَّ الاعترافُ بأنّي تساءلتُ فعلًا. أم نسِيتَ أنّي مَن رتَّبَ شِراءَ هذه الدَّارة؟"

لم يكُن أتريتِس قد نسِيَ ذلك، ولا السَّبَبَ الذي من أجله أراد الدَّارة: لأجلِ جوليا قاليريان.

قال سَرتِس: "لا تَعُد تُفكِّرُ في الإشاعات". وقد علِمَ تمامًا أنَّه، كالمُتوخَّى، زرَعَ في ذهن أتريتِس البِزرةَ التي ستُسبِّب نُموَّ كُتلةٍ من الأفكار المُتشابِكة. لقد كان له قلبُ مُحارِب، وما كان ليُحِبَّ فِكرةَ ظَنِّ أحَدٍ أنَّ امرأةً هزمَته. "رُوفُس پَمپونيوس پراكسُس يُسلِّمُ عليك".

فجأرَ أتريتِس: "ومَن يكون پراكسُس هذا؟"

"هوَ ابنُ شقيقِ حاكِم روما. إنَّه سيُقيم وليمة تكريمًا لعِيدِ مَولِدِ تيطُس. وأنت مدعوٌّ".

فقال أتريتِس: "توقيتٌ دقيق!" ثم اتَّكأ على الوسائد من جديد، وأضاف: "يُخيَّلُ إليَّ أنَّك ترى في هذه المُناسَبة فُرصةً لي لِأَضعَ حدًّا نهائيًّا للأحاديث المُتداوَلة بشأني". ثُمَّ قال أتريتِس لسَرتِس ماذا يستطيع ابنُ شقيقِ الحاكم أن يفعل بدعوته.

"ليس پراكسُس رجُلًا يُهان. في وسعه أن يُقيِّدَك بالسَّلاسل من جديد".

"لقد كسَبتُ حرِّيَّتي".

"فلا تُلقِها إذًا في مهبِّ الرِّيح بالإساءة إلى رجُل يسمع له الإمبراطور وأخوه دوميتيان".

لدى ذِكرِ دوميتيان، انتَخعَت عضَلةٌ في حنَكِ أتريتِس.

ومضى سَرتِس يقول: "پراكسُس مُشمَئزٌّ من أُولئك المسيحيِّين الذين يُرنِّمون عندما يموتون. وما كان ليُحِبَّ شيئًا أكثر من مطارَدتِهم جميعًا وإبادتهم".

علِمَ أتريتِس تمامًا لماذا أدلى سَرتِس بهذه المعلومة. "أيُّ شأنٍ لي مع المسيحيِّين؟ الفَردُ الوحيد الذي عرَفتُه من بينهم كان هَدسَّة، وهي مَيْتة".

"أقترِحُ إذًا أن تبقى بعيدًا عن أيٍّ من الآخرين الذين قد تحتكُّ بهم".

فكَّرَ أتريتِس في رِصفة داخِلَ المَهجع الفوقانيِّ. إذا كان سَرتِس قد علِمَ أنَّها أرملة، فالأرجح أنَّه علِمَ أنَّها مسيحيَّةٌ أيضًا.

تبيَّن لسَرتِس أنَّ تحذيره قد نفذَ إلى العُمق. "پراكسُس يحترِمُك من أجل شجاعتك. أنتَ تُحارِب بقَلبِ أسَد، وهو يُريد أن يُكرِمَك". والتوى فمُه بفُتور. "إنَّ رفضَك الذي يفتقر إلى الكياسة سيُعدُّ إهانةً له".

"قُل له إذًا إنَّ الأسَد ما زال يلعق الجروح التي أصابته روما بها".

مسَحَ سَرتِس مُنزعِجًا حبَّةَ التَّمر التي كانت ما تزال في يَده. "إذا شكَّ پراكسُس أدنى شكٍّ في أنَّك تُشجِّعُ على انتِشار هذا المذهب، فسيُعيدك إلى السَّلاسِل بفرقعةٍ من إصبعَيه".

نظر إليه أتريتِس ببرودة. "ومَن يقول إنّي أُشجِّع؟"

دفَع سَرتِس التَّمرةَ إلى فمه وأكلها. وبعدما شطَفَها بالخمر، وقَف. "في وسعي أن أرى أنَّ مُكوثي تخطَّى الترحيبَ بي".

"مَتى أبقاك ذلك بعيدًا يومًا؟"

ابتسم سَرتِس وهزَّ رأسه. "ذاتَ يومٍ سوف تُدمِّرُك كِبرياؤك، أتريتِس".

"الكِبرياء هي ما أبقاني حيًّا". ثُمَّ قام. وإذ تجرَّع كأسه، حطَّها بخبطةٍ قويَّة. "ولكنْ ربَّما كنتَ على حقٍّ. لقد طال كثيرًا مكوثي على هذا الجَبَل". ومشى مع سَرتِس عبْرَ الأتريوم، فإلى داخل غُرفةِ الانتظار. "لا تقُل لپراكسُس شيئًا الآن. سأُفكِّر في دعوته وأبعَثُ إليك بجوابي".

استمتعَ سَرتِس سِرًّا بانتصاره. "لا تستغرِقْ وقتًا أطول من اللازم. الوليمةُ بعدَ سبعةِ أيَّام". وإذِ اقتربا، فتَحَ خادمٌ البابَ الأماميَّ. فصافَحَ سَرتِس أتريتِس مُمسِكًا بذِراعه. "لقد هزمتَ كلَّ عدوٍّ في ساحة المُحارِبين، يا أتريتِس. آنَ الأوانُ لتعرف العدوَّ خارِجَها!"

قال أتريتِس بابتسامةٍ مُبهَمة: "سأعمل بنصيحتك". وبردَت عيناه إذ راقَبَ سَرتِس يمشي عبْرَ الفِناء، ويقول لِغالُص بِضعَ كلِمات، ثمَّ يخرج من البوَّابة.

سمِعَت رِصفة تحطُّمَ شيءٍ على حائط. فأجفلَت وتوقَّفَت عن المشي في الغُرفة ذهابًا وإيابًا. منذُ لحظةٍ جاءَ الحارس وقال لها إنَّ سَرتِس وصل وعليها أن تبقى داخِلَ مَهجعها، أغلقَت الباب وبدأت تُصلّي.

صاح أتريتِس بشيءٍ غير مفهوم. فأجفلَت مُتسائلةً باكتئاب عمَّا جرى في الدَّور التَّحتانيِّ وجعلَه سيِّئ المِزاج إلى هذا الحدّ. ليس أنَّه كان في مِزاجٍ طيِّب يومًا. هكذا فكَّرَت، بِسَلوى كئيبة.

قرَعَ أحَدُهم الباب مرَّتين. فشهقَت رِصفة نفَسًا عميقًا، وعبرَت الغُرفة، ورفعَت مِزلاجَ الباب. وإذا سيلُس واقِفٌ خارجًا. "أتريتِس يُريد أن يتكلَّم إليكِ".

"الآن؟" مهما جرى في الطَّابق التَّحتاني، بدا أنَّها ستتلقَّى هيَ وطأتَهُ العُظمى.

"قال أن تترُكي الطِّفل".

"في عُهدَةِ مَن؟ عُهدَتِك أنت؟"

تراجعَ سيلُس خُطوةً. "لم يقُل".

رجعَت لإلقاء نظرة على كالِب. ولمَّا باتَ الطِّفل مُستكِنًّا دافئًا وآمِنًا داخِلَ شالها الملفوف عليه، تبِعَت سيلُس إلى خارج الغُرفة الكبيرة ثُمَّ عبْرَ الرِّواق الأعلى. كان بابُ غُرفة أتريتِس مفتوحًا. فوقفَت عند العَتَبة. والتفت أتريتِس، فرأى الطِّفل وسبَّ بالجِرمانيَّة. "قلتُ أن تترُكيه!"

فقالت: "لم يكُن مَن يتولَّى الاعتِناء به، سيِّدي". ولم تدخُل.

"أين المُرضِعة؟"

"هايلد تشتغل في المطبخ الآن".

فنخَعَ أتريتِس رأسَه مُومئًا لِسيلُس. "ليس الليلة. أحضِرها". وسُمِعَت في الرِّواق الأعلى أصداءُ صَندَل الحارس ذي المسامير الغِلاظ. وأخذ أتريتِس يمشي في الغُرفة، مُتمتِمًا بالجِرمانيَّة. وكانت الفِراءُ من سريره قد طُرِحَت أرضًا. فركَلَ واحِدًا منها ليُزيحَه من طريقه.

وصلَت هايلد مقطوعةَ النَّفَس ومُحمَرَّة الوجه. فحلَّت رِصفة الشال ووضعَت كالِب على ذِراعَيها. "سيَنام إن وضعتِه من جديد في سريره". قالت رِصفة هذا واضِعةً يدًا رقيقة على ذِراع المرأة، وأضافَت: "لا تتركيه وحدَه".

"لن أترُكَه، سيِّدتي". وألقت نظرةً عصبيَّة باتِّجاه أتريتِس، ثُمَّ انصرفَت. وقد وقفَ سيلُس جانبًا، مُتيحًا لها أن تمرَّ.

جأرَ عليه أتريتِس: "تَمشَّ خارجًا. أودُّ أن أُكلِّمَ السَّيِّدة رِصفة على انفراد". فتركَها سيلُس واقفةً وحدها في مدخل الباب. وقال أتريتِس بلهجة لم تُبقِ أيَّة فُسحة للجِدال. "ادخُلي وأغلِقي الباب وراءَكِ".

أطاعت رِصفة، وقلبُها يدقُّ بسُرعة. إنَّ اهتِياجَ أتريتِس لا يمكن أن يعنيَ إلَّا شيئًا واحدًا. "سَرتِس يعلَم بأمرِ كالِب، أليس كذلك؟"

"لا، ولكنَّ سَرتِس يعلَم مَن أنتِ". وأطلقَ ضِحكةً قاتِمة. "بالحقيقة أنَّه ربَّما يعلَم عنكِ أكثرَ ممَّا أعلَم أنا!"

زفَرَت رِصفة نفَسَها بانفِراج. "ليس من كثيرٍ يُعلَم. ثُمَّ أيُّ اهتِمامٍ مُحتمَل يمكن أن يكونَ لدى رجُلٍ مثل سَرتِس بامرأةٍ من العامَّة مثلي؟"

"إنَّه ينوي أن يستخدِمَكِ كرافِعة لدفعي إلى المُقاتلة من جديد". ولاحَظَ سيماءَ ارتباكِها بانزعاجٍ مُتزايِد. فالتوى فمُه سُخريةً. "يظنُّ أنَّكِ عشيقتي".

تدفَّقَ اللَّونُ إلى خدَّيها. "أرجو أن تكونَ قد صحَّحتَ سوءَ فهمِه، سيِّدي".

"قلتُ له إنَّ لكِ لِسانَ عَقرب، وهذا صحيح. وقلتُ لهُ أنِّي سئمتُكِ، وهذا أيضًا صحيح. لقد قَدَّم عرضًا سخيًّا بأن يشتريَكِ. وأنا أُفكِّر في الأمر".

فشُحِبَت. وقالت بوَهن: "ماذا أنت فاعِل؟"

"عِلمتُ أنَّكِ كُنتِ لعنةً عليَّ لحظةَ وقعَت عيناياَ عليكِ!" وتدفَّقَت شتائمُ جِرمانيَّة.

"لا تستطيعُ أن تبيعَ ما لا تملكه!" وكانت ترتجِف بشدَّة من الدَّاخل. هل جُنَّ جنونُ الرَّجُل تمامًا؟

قال مُتَّهِمًا: "أنتِ مسيحيَّة".

"عِلمتَ بإيماني قبلما جئتُ إلى هُنا".

"يبدو أنَّ وجودَكِ في بيتي يجعلُني مشبوهًا عندَ رجُلٍ لديه السُّلطة ليُبطلَ حرِّيَّتي".

أغمضَت عينَيها. "آه!" زفَرَت نفَسَها ببُطء ونظرَت إليه، مُضطرِبةً. لن تعمِدَ إلى اقتِراحِ مُغادرتها. لأنَّ ذلك لم يكُن في وسعها، ليسَ بِلا كالِب.

"يروقُني أن أطرحَكِ خارجًا".

شبَكَت يدَيها أمامَها، عاضَّةً شفَتَها. وقالت لنفسها: ولا كلمة! يا ربّ، أبقِني ساكتة.

"من النَّكَدِ أنَّ جواسيسَ سَرتِس، إذا طردتُكِ، سيرَجعون ويُخبرونه بذلك. وسيُفيدون أيضًا أنَّ الطِّفلَ بقيَ عندي هُنا. فمن شأنه أن يُريد معرفة السَّبب، ولا بُدَّ أن يُخمِّنَه في نَبضةِ قَوس".

فتمتمَت: "يا ربُّ، احمِنا!" مُدرِكةً بسُرعة كم يسهُلُ أن يستغلَّ رجُلٌ قاسٍ كسَرتِس طِفلًا بريئًا.

وسبَّ أتريتِس ثانيةً. "وهكذا، بسببكِ أنتِ باتَ عليَّ أن أذهب كي أُؤدِّيَ الإجلال لأرستوقراطيٍّ رومانيٍّ جِلفٍ، وإلَّا انتهى بي الأمر إلى ساحة المُحاربين من جديد!" وقد ارتفع صوتُه إلى صُراخ، ورفَسَ طاوِلةً فقلَبَها وحطَّمَ مِصباحَ فخَّارٍ فاخِرًا.

أجفلَت رِصفة، ولكنَّها بقيَت واقِفةً حيثُ كانت. أيُّها الأَبُ السَّماويُّ، أرِني سبيلًا. أعطِني كلامًا. ماذا نفعل؟ ودوَّمَ ذِهنُها فجأةً بفِكرةٍ مُروِّعةٍ رهيبة. حتَّى إنَّها لم تُرِد أن تتكلَّم عنها، ولكنَّها كانت الحلَّ الوحيد الذي خطَرَ في بالها. "قُلتَ إنَّك أردتَ أن ترجِعَ إلى جِرمانيا..."

فاستدارَ سريعًا، مُحدِّقًا إليها. "لولا أمران، لفعلتُ ذلك قبلَ شُهور".

وأشارت رِصفة إلى أحَدِ السَّبَبين بفهمٍ كامل، قائلةً: "ابنُك". فكالِب كان ابنَ أربعةِ أشهُرٍ فقط، ومن شأن السَّفر أن يكون خطِرًا، فضلًا عن كونه عَسِرًا. "أيُّ سبَبٍ آخر لدَيك؟"

تفوَّه أتريتِس بشتيمة قصيرة بذيئة وأدارَ لها ظهرَه. وإذ دفَعَ كِلتا يدَيه إلى الوراء في شعره الأشقر الطويل، خرَجَ إلى الشُّرفة. فتجهَّمَت رِصفة. مهما كان السَّبَب الآخر، فقد كان واضحًا أنَّه لم يُرِد إخبارَها به. ثُمَّ رجَعَ إلى الدَّاخل، واستياؤه محفورٌ في ملامحه الجميلة.

وجأرَ قائلًا: "استغرق الإتيان بي إلى كاپوَا شُهورًا. ثُمَّ نُقِلتُ إلى روما. وعقَدَ سَرتِس صفقةً مع فَسبازيان، ثُمَّ أحضرَني إلى هُنا. بالسَّفينة. واستغرقت الرِّحلةُ أسابيع". وضحِكَ ضِحكةً شِبهَ هِستيريَّة. "لو علِمتُ كيفَ أجِدُ جِرمانيا، لرجَعتُ إليها الآنَ الآن!"

رأت كم كلَّفَه اعترافُه، وأجابت بسُرعة. "سنَتبيَّنُ أينَ هي تمامًا، وكيف نَصِلُ إلى هُناك".

فأمالَ أتريتِس رأسه، وعَيناهُ تأتلِقان. "نحنُ؟"

"قُلتَ إنَّك لن تترُكَ ابنكَ هُنا".

"ما كنتُ لِأترُكَه".

"حيثُما يذهبْ كالِب، أذهَبْ أنا".

أطلقَ ضِحكةً حادَّة، وقال بجفاف، غيرَ مُقتنع: "ستترُكين أفسُس وكلَّ ما تُوفِّرُه".

فقالَت بصراحة: "من شأني أن أُفضِّلَ البقاء هُنا، بالتَّأكيد. فكلُّ ما سمِعتُه يومًا عن جِرمانيا لا يُغريني بها". ورأت عينَي أتريتِس تتقسَّيان إذ تلقَّى إساءةً. "سلامةُ كالِب أهمُّ من أيَّة مَخاوِفَ قد تكون لديَّ بشأن تَركي كلَّ ما أعرِفُه. إذا كان سَرتِس كلَّ ما تُفكِّره فيه- ولستُ أشكُّ فيك- فلن يُفكِّرَ مرَّتين بشأن استِخدام طِفلٍ بريء بأيَّة طريقةٍ يستطيعُها للنَّيلِ منك، أيُفكِّر؟"

"لا".

"إذًا الطريقةُ الوحيدة للتَّيقُّن بأنَّ كالِب في مأمن هي إبعادُه عن سَرتِس أطولَ مسافةٍ مُمكِنة".

جعلَها إنعامُ نَظرِه الطويلُ مُنزعِجةً على نحوٍ مُتزايد. فيمَ كان يُفكِّر؟ وقالت: "ستُكلِّفُ الرِّحلة مبلغًا كبيرًا من المال".

فضحِكَ بعُبوس: "ثَروةً بِلا رَيب، ومُعظَمُ ما كسَبتُه صُبَّ في هذه الدارة". وأجالَ نظَرَه في أنحاء الغُرفة كأنَّه يراها أوَّلَ مرَّة. ثُمَّ قال بكآبة: "الآنَ أفهم لماذا كان سَرتِس راغبًا جدًّا في ترتيبِ

شراء هذا المكان. فهذهِ الجُدرانُ تحبِسُني من كلِّ وجه بإحكامٍ كما حبَسَني اللُّودُس يومًا".

"في وسعك أن تبيعه".

"ليسَ بغيرِ أن يعلَمَ هو بالأمر، وأشكُّ في استطاعتي تدبيرَ ذلك قبل أن يُقيم روفُس پَمپونيوس پراكسُس وليمتَهُ الصغيرة!" ثُمَّ شتَمَ مُحبَطًا.

"يستطيع الله أن يُنجزَ المُستحيل".

فرمقَها بنظرةِ استهزاء. "ماذا يجعلُكِ تظُنّين أنَّ إلهَكِ سوف يُساعِدُني؟"

"ماذا يُقنِعُكَ بأنَّه لن يُساعدك؟" ولم تنتظِر جوابَه. "سأذهب وأُكلِّم يوحنَّا. إنَّه سيُساعِدُنا".

"لن تُغادِري هذه الدَّارة!"

"يجِبُ أن أُغادِرَها إذا كُنَّا سنجمع المعلومات التي نحتاجُ إليها. في جَسَدِ المسيح ناسٌ من مُختلِف ميادين الحياة. أنا أعرِف تاجِرًا سافَرَ في جميع أنحاء الإمبراطوريَّة. إذا استطاعَ أيُّ شخص أن يُخبِرنا كيف نجِد جِرمانيا، فهو يستطيع ذلك. وربَّما أمكنَه أن يُزوِّدنا بخرائط تُبيِّن لنا الطريق". وبدا أتريتِس مُتأهِّبًا للجدال، فطأطأت رأسَها.

"أمرٌ آخر يجِب النَّظَرُ فيه: أنَّ مُغادرتي قد تُلقي الارتياب على تخمينات سَرتِس بشأني وبشأن كالِب. فإذا غادرتُ مع كالِب، أفَلا يُحتَمل أنْ يفترِضَ سَرتِس أنِّي لا أعني لك بمقدار ما ظنَّ؟ وأنتَ بالكادِّ تَصرِفُني ومعي ولَدٌ لك".

عبَسَ أتريتِس، مُعتقِدًا أنَّ فِكرَتها تستحقُّ التأمُّل فيها. ولكنْ بقيَ شكٌّ يسير. "قد يُرتِّب سَرتِس إحضارَكِ إلى اللُّودُس للاستِجواب".

التفتَت نحو الشُّرفة، وقد أقلقَها اقتِراحُه. "أهو هُناك تحت شجرة البُطم، يُراقِبُ البيت؟"

"سَرتِس غادَرَ. جواسيسُه باقون".

وضعَت على حَنجرتها يدًا مُرتجِفة، شاعِرَةً بقليلٍ من الفَرَج. "ما لم يكُن قد أودعَهُم تعليماتٍ بإحضاري إلى اللُّودس، أشكُّ في أنَّهم يمكن أن يتصرَّفوا بمُبادرةٍ ذاتيَّة منهم. فهم سيُراقِبون ويبعثون إليه بخَبَر وينتظِرون تعليماتِه. وفي وقتِ تلقِّيهم إيَّاها، أكونُ قد عُدتُ إلى أفسُس".

فقال مُنزعِجًا: "وصِرتِ في مُتناوَل الأيدي. إنَّ واحِدًا منهم على الأقلِّ سيَتبعُكِ".

"سبَقَ أن تعرَّضتُ للمُلاحقة، أتريتِس. أنا أعرِف كيفَ أختبئ". وفي الحالِ أدركَت أنَّه

كان من الخطإ أن تقول ذلك.

ضاقت عينا أتريتِس ارتيابًا. وقال برِقَّة خَطِرة: "إذا كُنتِ بارعةً جدًّا في الاختباء، فكيفَ سأعثُرُ عليكِ إذًا؟" وضحِكَ ساخِرًا. "كدتِ تُقنِعينَني. لستُ مُغفَّلًا. أتعتقِدينَ أنّي ببساطة سأُسلِّمُكِ ابني وأُراقِبُك تنصرفين؟"

"أتريتِس، أُعطيكَ وعدي..."

"وعدُكِ لا يعني لي قَشَّةً!" وأشاحَ وجهَه، فارِكًا قفا رقَبَتِه باهتِياج.

زفَرَت نفَسَها، مُكافِحةً الإحباط. ما كان لِيَثِق بها لِمُجرَّد تأكيدها له أنَّه يستطيع ذلك. إنَّ الثِّقة ينبغي أن تُكتسَب اكتِسابًا، ولم يكُن الوقت يتَّسع لذلك. ثُمَّ قالت بصريحِ العِبارة: "لعلَّه يُوجَد سبيلٌ آخر".

"أحسَنُ أن يُوجَد".

"ماذا لو ذهبتَ إلى هذه الوليمة وبَدَوتَ مُستمتِعًا؟"

فالتفتَ نحوها بحِدَّة.

وازدادَ سُخطُها. "أو في وسعك أن تذهبَ حاقدًا، وتُحدِّقَ إلى كلِّ شخص مِثلَما تُحدِّقُ إليَّ الآن، وتُهينَ هذا الموظَّفَ الرُّومانيَّ الرَّسميَّ وجهًا لِوَجه! من شأن ذلك أن يُسكِّنَ كبرياءك، أليس كذلك؟ ثُمَّ أنجِزْ كلَّ ما خطَّطه سَرتِس من أجلك!"

انتفضَت عضلةٌ في حَنَكه.

فتقدَّمَت نحوَه، مُستقتِلةً في مُناشدتها. وقالت: "أتريتِس، رجاءً! نَحِّ غضبك جانبًا لأجلِ ابنك. فكِّر قبلَ الإقدام على فَعل أيِّ شيء".

أطلقَ أتريتِس ضِحكةَ سُخرية. وقال بتهكُّم: "ربَّما أقول لسَرتِس أنّي سئمتُ الوجودَ خارجًا هُنا على هذا الجبَل وأُريدُ أن أُقيمَ في أفسُس، حيثُ الإثارةُ كلُّها. فمن شأن ذلك أن يسرَّه". لقد شعَرَ شُعورَ واحد من الأُسود التي تُنخَسُ لتدخُلَ ساحة المُحارِبين. لا سبيلَ للرُّجوع. لا مفرَّ. فبطريقةٍ ما، بأُسلوبٍ ما، سينال سَرتِس ما أراده، ولا يهمُّه ماذا يفعل أو مَن يستعمل لإنجاز ذلك!

قالت رِصفة برِقَّة: "فلأذهبْ إلى يوحنَّا. سيُساعِدُنا". فلم يقُل أتريتِس أيَّ شيء. واقتربَت أكثر فوضعَت يدها على ذراعه. فتوتَّرت عضلاتُه، وأبعد يدَها عنه. "رجاءً! سأستعلِمُ ما أستطيعُه وأردُّ خبَرًا. أعِدُ بذلك، رهْنَ حياتي!"

فقال مُتجهِّمًا: "يبدو أنَّ مجال الاختيار ضيِّقٌ عندي. فقالت، مُلتفِتةً نحوَ الباب: "ينبغي أن أذهب بأسرعِ ما يمكن. سآخُذُ ما يكفي لجعْل الأمر يبدو كما لو كُنتَ قد طردتَني".

أمسكَ بها أتريتِس، فأدارَها بإحدى يدَيه، وتشبَّثَ بعنُقها بالأُخرى قائلًا: "اعلَمي هذا، يا امرأة. إن لم أسمع أيَّ خبَر منكِ في غضون يومَين، سأمضي باحثًا عنكِ. لا تُحاوِلي أن تهرُبي مع الطِّفل، لأنَّه إن فعلتِ ذلك- قسَمًا بجميع الآلِهة في الكون- فسأستخدم أيَّةَ وسيلة، حتَّى سَرتِس، للعُثور عليكِ من جديد!" ثُمَّ اشتدَّت قبضةُ يده إحكامًا على مهل، إذ أضاف: "وعندما أعثُرُ عليكِ، ستتمنَّينَ لو أنَّكِ ما وُلِدتِ قطُّ!" وأفلتَها كما لو كان مُجرَّدُ لَمسِها قد أغضبَه.

وضعَت رِصفة يدًا على حَنجرتها، ونفَسُها يخرج مُرتعِشًا. وغمَرَت عينَيها دموعُ التأثُّر. "أعلَمُ أنَّك لا تثِق بي الآن، ولكنْ حين تجتازُ هذا كلَّه فرُبَّما تعلَمُ أنَّك تستطيع الوثوق".

وراقبَها مُتجهِّمًا تمشي إلى الباب، فكرَّر: "يومين!"

خرجَت وأغلقَت الباب وراءها. وبينَما قلبُها يخفقُ بسُرعة، هُرِعَت عبْرَ الرِّواق إلى المَهجَع.

لمَّا دخلَت، سألَتها هايلد: "هل كلُّ شيء بخير، سيِّدتي؟ أنتِ شاحِبةٌ جدًّا".

فقالت رِصفة بصِدق: "لا شيء بخير. يجب أن أُغادِر". والتقطَت شالَها فلفَّت كالِب داخِلَه، رابطةً إيَّاه بإحكام حول كتِفَيها.

"أهو طارِدُك؟ إلى أين ستذهبين؟"

"لديَّ أصدِقاءُ في المدينة. سأذهب إليهم". نظرَت إلى الصُّندوق الصَّغير الذي يحوي أشياءها، وهزَّت رأسها. "لديَّ كالِب. ذلك هو كلُّ ما يهمُّ".

"لن يدَعَكِ أبدًا تُغادِرينَ مع ابنه!"

"كالِب ابني، ولن يبذِلَ أتريتِس أيَّ جَهد لمنعي من أخذ ما يخصُّني". وكان ما يزال في وسعها أن تُحِسَّ مكانَ إطباقِ أصابعه على حَنجرتها.

حالَما خرجَت من الباب، وثَبَ قلبُها إذ رأت أتريتِس في الرِّواق. ربَّاه، يا إلهَ الرَّحمة، لا تسمح له بأن يُغيِّر رأيَه! وقد بدا قلِقًا، ومُنجَرِحًا على نحوٍ غريب.

وإذ تخطَّته، غمغمَ: "تذكَّري ما قلتُه".

توقَّفَت والتفتَت إليه، وعَيناها تسبحان في الدُّموع. "تذكَّر ما قلتُه أنا أيضًا". وهبطَتِ الدَّرجَ بسُرعة. ثُمَّ عبَرَت الفِناءَ الأجرد إلى البوَّابة، حيثُ كان غالُص في موقع حراسته.

اعترضَ غالُص في سبيلها، قائلًا: ”أين تحسبينَ نفسَكِ ذاهبةً؟“

هبَطَ أتريتِس الدَّرَج الأماميَّ وعبَرَ الفِناءَ مُسرِعًا نحوَهما: ”دعْها تمُرَّ. لقد طلبتُ منها الرَّحيل“.

فرمَقَها غالُص بنِظرةِ إشفاق، وفتَحَ البوَّابة.

مدَّ أتريتِس يدَه بصُرَّة إلى رِصفة، وقال آمِرًا: ”خُذيها!“ فأطاعت مُكشِّرةً وهي تأخذها. كان جِلدُ الصُّرَّة يقطُرُ بَلَلًا، ودَبِقًا. كانت هي بعينها الصُّرَّة التي طوَّحَتها إليه أوَّلَ يومٍ تقابَلا. فالظاهر أنَّها بقِيَت في البِركة حتَّى اليوم؛ وقد كانت مُثقلةً بالنُّقود الذَّهبيَّة.

”احسبيها أُجرَةً لِقاءَ خِدماتٍ مؤدَّاة“.

فهِمَت قصدَه. فانحنَت احترامًا، واستدارت مُبتعِدةً، وخرجَت من البوَّابة. وأسرعَت نازلةً على الطريق، لافَّةً كالِب أقرَبَ إلى جِسمها لتحميه من الرِّيح الباردة الهابَّة من الشَّرق، حيثُ كان الشِّتاء مُقبِلًا.

لدى عبورها بقُربِ البُطمة، رأت بضعة رجالٍ جالسين ومُتحدِّثين في الظِّلال. لقد بدَوا غيرَ مُهتمِّين بها بتاتًا. ولمَّا وصلت إلى مُنعطَف الطَّريق، التفتَت إلى الوراء خلسةً.

كان أحدُهم يتبعُها.

٧

رُغمَ جميع مُحاولات رِصفة تضييعَ الرَّجُل الذي كان يتبعُها، فقد أحسَّت أنَّه كان ما يزال في مكانٍ ما بقُربها عندما وصلَت إلى بيت يوحنَّا. وقرعَتِ الباب مُنهَكةً، ففتحه كليوپاس وأطلقَ هُتافَ ترحيبٍ بهيجٍ.

وإذ أدخلَها، قال: "استُدعيَ يوحنَّا خارجًا في وقتٍ مُبكِّر، ولكنْ ينبغي أن يرجِعَ عاجلًا. اقعُدي. يبدو عليكِ التَّعبُ الشديد".

فقالت: "أنا مُتعَبة حقًّا"، وارتمت على أريكة بقُربِ كانونِ نار. وقد رحَّبَت بالدِّفء بعدَ المسيرة الطويلة في الرِّيح الباردة. "جئتُ من عندِ أتريتِس".

"هل مِن مُشكِلة؟"

قالَت: "مُشكِلة كبيرة"، حالَّةً الشال وحاطَّةً كالِب وصُرَّةَ النُّقود الذَّهبيَّة على الأريكة بقُربها. وكانت ترتجِفُ بَردًا.

قرَّبَ كليوپباس الكانون أكثرَ إليها، وقال: "يبدو كالِب بخير"، مُبتسِمًا له مِن عَلُ. ثُمَّ أضاف: "وأثقَلَ بكثير ممَّا كانَ في آخِر مرَّة رأيتُه".

فقالَت شَكورًا: "وزنُه ضِعفَا ما كان عليه لمَّا وضعَه يوحنَّا على ذِراعيَّ!" مع أنَّها كانت قد أحسَّت كُلَّ أونصةٍ مِنه، فضلًا عن ثِقلِ النُّقود الذهبيَّة الإضافيِّ، في أثناء المسيرة الطويلة إلى المدينة. وجعلَت مُبتسِمةً كالِب يُمسِكُ بأصابعها ويُحاولُ أن يدفَعَ نفسَهُ صعودًا.

وضعَ كليوپاس يده على كتِفها: "سأُحضِرُ لكِ بعضَ النَّبيذ وشيئًا تأكلينَه".

فشكرَته وأعادت انتباهَها إلى الطِّفل، قائلةً: "الآنَ، حبيبي، ما عُدتَ مربوطًا. فتَهزهَز بقَدْر ما تشاء". ودغدغَت بطنَه. فقَرقرَ بسُرور، رافِسًا برِجلَيه. وتشبَّث بقدَمِه فدسَّها في فمه، ماضِغًا أصابِعَه وهو يبتسم لرِصفة ابتسامًا عريضًا. فربَّتَت قفاه، وقامت.

تقدَّمَت إلى النافذة، ونظرت خارجًا بِحَذَر. كان الرَّجُل الذي تبِعَها واقفًا في ظلال اللَّيل بقُربِ مبنًى تحتُ في الشارع، مُراقِبًا البيت. فتراجَعَت، واضعةً يدًا على قلبها.

رجعَت مُرتجفةً وقعدَت بقُرب كالِب مُجدَّدًا.

وعادَ كليوپاس. "أفي وُسعي أن أفعلَ أيَّ شيء للمُساعَدة؟"

وإذ حطَّ الصِّينيَّة على الطاولة أمامها، قالَت: "قد أجلبُ البلاء على يوحنَّا. تبِعَني رجُل. حاولتُ تضييعَه على الطريق، ولكنَّه كبَرَنقيلة[1] على بَدَنِ سفينة. في وسعك أن تراه. إنَّه يرتدي ثيابًا سوداء وهو واقفٌ تحتُ في الشارع. ربَّما ينبغي لي أن أُغادِرَ الآن قبلَ أن..."

"إلى أين؟"

"لستُ أدري، ولكنَّ الرَّجُلَ الذي وراءَ البليَّة نافِذٌ وذو علاقة بساحات المُحاربين". ونشأ الخوف في داخلها لدى فِكرةِ المُضاعَفات على يوحنَّا وسائر الإخوة إذا اعترضوا في سبيل سَرتِس. "لستُ أعتقِد..."

سكَبَ كليوپاس نبيذًا في كأسٍ فخَّاريَّةٍ صغيرةٍ مُغشَّاةٍ بالنُّحاس وناولَها إيَّاها. "تأخَّر الوقتُ جدًّا. اشرَبي. كُلي".

أراحَ تطمينُه الهادئُ ذِهنَها. لقد كان غيرَ خائف. فالله هو المُهَيمِن، لا سَرتِس. حتَّى إمبراطورُ الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بكاملها لم تكُن له قُدرةُ الرَّبِّ. وابتسمَت لكليوپاس رافعةً إليه نظَرها. "لقد اشتقتُ إليك وإلى يوحنَّا وجميع الآخرين".

"كما اشتقنا نحنُ إليكِ".

جفَّلَها صَوتُ فَتح الباب الأماميِّ. واندلَقَ النَّبيذُ على يدِها كُلِّها، فحطَّت الكأس. لقد تبدَّد هُدوؤها! فبسَط كليوپاس يدَه في إشارةِ تهدئة، وقام قائلًا: "إنَّه يوحنَّا أو واحدٌ من الإخوة". ثُمَّ خرَجَ إلى غُرفة الانتظار. فسمِعَت أصواتًا وعرَفَت صوتَ الرَّسول.

وإذ دخَلَ الغُرفة، قالت: "شُكرًا لله!" ونهضَت وتقدَّمت إليه. فطوَّقَته بذِراعيها حالًا، والدُّموعُ تُلهِبُ عينَيها. وضمَّها بحَنان، كما قد يفعل أبٌ. ولمَّا تراجعَت أخيرًا، أمسك يوحنَّا بيدَيها وقبَّلَها قُبلةً مُقدَّسة. لقد أفزعَته دموعُها.

ابتسمَت له ابتِسامةً نَديَّة. "جيِّدٌ جدًّا أن أراكَ، يوحنَّا".

"وأن أراكِ".

أطلَق كالِب زعقةً من على الأريكة، فوثبَت رِصفة. فلمَسها يوحنَّا لَمسةً مُعَزِّية وتقدَّم مُتخطِّيًا إيَّاها. وشالَ الطِّفلَ ضاحكًا. وقال هاشًّا وباشًّا في وجه كالِب: "انظُر مَن جاء لِيَرانا، كليوپاس!" فركَلَ كالِب برِجلَيه كضُفَيدِع، مُبتهِجًا بأن يكونَ مركَزَ الاهتمام مُجدَّدًا. فحمَلَه يوحنَّا ضامًّا إيَّاه بشِدَّة، وأجرَى إصبعًا تحت ذقنه فاستدرَّ ضِحكةً خافِتةً أُخرى.

---

١) البرنقيل هو حيوان مفصليٌّ يعيش في المياه المالحة، ويلتصق بالأشياء تحت الماء (الناشر).

استَرخَت رِصفة قليلًا إذ شاهدَتِ الرَّسولَ مع ابنها. فعلى عكسِ تصرُّفِ أتريتِس، كان يوحنَّا مُستريحًا تمامًا مع الطِّفل. فعادت وقعدَت على الأريكة، مُبتسِمةً وهيَ تُراقِب. وجلس الرسول واضعًا الصَّبيَّ في حِضنه، وقدَمًا كالِب على معدته. فأمسك يوحنَّا قدَمَيه وحرَّكَ ساقَيه مُلاعِبًا. فلوَّحَ كالِب بيديه مَسرورًا، مُقَرقِرًا.

قال يوحنَّا، مُبتسِمًا لكالِب: "أيُّ شيءٍ أجمَلُ من براءةِ طِفل؟ أتذكَّرُ كيف احتشَدَ الأولاد حولَ الرَّبِّ يسوع ونحنُ نطوفُ بالمُدُن والقُرى". وهزَّ رأسه قائلًا بابتسامةٍ رقيقة: "حاوَلْنا أوَّلَ الأمر أن نُبعِدَهُم عنه، حاسبين إيَّاهُم لا أكثرَ من سِربِ حَشَراتٍ مُزعِجة. فما كان من المسيح إلَّا أن جمَعَهُم إليه وباركَهم واحدًا فواحِدًا. وقال لنا إنَّه ما لَم نَصِر مثلَ الأولاد فلَن ندخُلَ ملكوتَ الله".

ابتسمَت رِصفة برِقَّة. "مُتواضِعين وعاجِزين".

فأضاف يوحنَّا مُبتسِمًا: "ومُنفتِحين كُلِّيًّا لمحبَّة الله وحقِّه". ثُمَّ رفَعَ نظرَه نحو كليوپاس، فأقبلَ الخادِمُ وأخَذَ كالِب، ثُمَّ مضى لِيقعُدَ على أريكة أُخرى بقُربِ رِصفة، ووضَعَ الطِّفلَ في حِضنه. ودلَّى خَيطًا مُعقَّدًا، فحاوَلَ كالِب أن يُمسِكَ به.

قالت رِصفة: "هوَ الخَوفُ على كالِب ما أتى بي إليك. إنَّ رجُلًا اسمُه سَرتِس يبذلُ كلَّ جهدٍ مُستطاع لإرغام أتريتِس على مُعاوَدة القِتال. وإذا تبيَّن له أنَّ كالِب هو ابنُ أتريتِس، فلن يتردَّد في أن يستخدِم حتَّى طِفلًا للفَوز بما يُريد. كان من شأني أن أختبئَ لو استطعتُ، ولكنَّ أتريتِس ما كان لِيسمَحَ لي قطعًا بأن أبتعِدَ بكالِب على أساسٍ دائم".

"كيفَ يسَعُنا أن نُساعِدَكِ؟"

"يحتاجُ أتريتِس إلى مُساعَدة لِمُغادرة أفَسُس. ولكنْ بعدَما جئتُ الآن، لستُ على يقين بأنَّكُم ينبغي أن تتدخَّلوا في الأمر. فإنَّ سَرتِس مُقتدِرٌ كثيرًا".

"أكثرَ اقتدارًا من الله؟"

زفَرَت رِصفة نفَسَها بهُدوء، وأغمَضَت عينَيها، قائلةً برِقَّة: "لا". ونظرَت إليه ثانيةً، مُرتبِكةً بعضَ الشيء حِيالَ قِلَّةِ إيمانها. "أنا ضعيفة، يوحنَّا. في غضون الأسابيع الماضية، بعيدًا عن تعليمِكَ وعن إخوتي وأخَواتي، زَلَلتُ تكرارًا. إنَّ العِيشةَ مع أتريتِس...صعبة". كيف تستطيع أن تشرحَ لرَجُلٍ نظيرِ يوحنَّا كيف أثَّرَ أتريتِس فيها؟ "إنَّه لا يثق بأحد، ولا بي على الأقلّ".

"مع ذلك سمَحَ لكِ بأن تأتي إليَّ".

"لأنَّه لم يَرَ سبيلًا آخر لكسب المعلومات والعَون التي يحتاج إليها لمُغادرة إيونيا. لستُ أقصد أن أنتقِدَه، يوحنَّا. إنَّما ما زالَ يعيش حياةً عنيفة عسيرة. إنَّه مُفعَمٌ بالبُغض كثيرًا، بحيثُ يسَعُني أن أُحِسَّ حرارتَه. ولأنَّ امرأةً واحدةً خانَته، فهو يفترِضُ أنَّ كلَّ امرأة أُخرى ليست أهلًا للثِّقة".

"لقد سمَحَ لكِ باصطِحابِ كالِب".

فوقفَت مُضطرِبةً. "لو كان لأتريتِس صَدرٌ لإطعام كالِب، لانتزعَهُ عن ذِراعيَّ وطرحَني خارِجَ البوَّابة أوَّلَ يوم!"

ووقَفَ كليوپاس. "أظنُّ أنَّ هذا الصَّغيرَ يحتاجُ إلى حمَّام".

نظرَت رِصفة إليه، مُحرَجةً من انفِجارِ طَبعِها. وقالتَ مُعتذِرةً: "ليس معي أيُّ كَتَّانٍ نظيف".

فابتسَم. "عندَنا قُماشٌ ينفع".

وعلِمَت رِصفة أنَّه كان يُتيح لها الفُرصة للتَّحدُّث مع يوحنَّا على انفِراد. فقالت برِقَّة: "شُكرًا لك، كليوپاس". فأومأ برأسه مُستأذِنًا، وغادرَ الغُرفة.

ونظرَت إلى يوحنَّا قائلةً: "أنا آسِفة. إنِّي أتكلَّم دائمًا قبل أن أُفكِّرَ في الأمرِ أفضل". وقد تزاحمَت في رأسِها أفكارٌ كثيرةٌ شتَّى.

"لستِ وحدَكِ مَن يملِكُ لِسانًا من نار، رِصفة". والتوى فمُه. "لقد سمَّاني المسيحُ مع يعقوب بُوانَرجِس، ابنَي الرَّعد".

فضحِكَت. "أنتَ؟ حسنًا، لعلَّ لي رجاءً رُغمَ كلِّ شيء".

"لقد سلَّمتِ المسيحَ حياتَكِ، فكوني على ثقة بأنَّه سوف يُقَولِبُكِ ويجعَلُكِ الإناءَ الأفضلَ تصميمًا لمقاصِده".

"نعم، ولكنْ ليتَني علِمتُ ما هو ذلك القصد!"

"أنتِ تعلمين فعلًا. ليست مشيئة الله مُخبَّأةً بعيدًا كأساطير العالَم وفلسفاته ومعرِفَته. لقد قال لنا المسيح صراحةً وكلَّ يوم ما هي مشيئتُه لنا. أحِبُّوا بعضُكم بعضًا. أحِبُّوا بعضُكم بعضًا".

فأومأت برأسِها إيجابًا. لا بُدَّ من الله لدَحر الذُّعر في ما خصَّ أتريتِس. لا بُدَّ من الله لحمايتها من القُوَّات التي أحسَّت أنَّها تحومُ حولَه.

وقالَ يوحنَّا: "لقد قال لنا المسيحُ أيضًا أن نذهبَ ونُتَلمِذَ جميع الأُمَم، مُعمِّدينَ التلاميذ بِاسْمِ الآب والابن والرُّوح القُدُس، مُعلِّمينَ إيَّاهُم أن يعملوا بكُلِّ ما أوصانا به".

فقالَت: "آه، يا يوحنَّا!" وأغمَضَت عينَيها. وهكذا يجب أن أذهب إلى جِرمانيا، يا ربُّ؟ يجب أن أجعل أتريتِس تلميذًا؟ كيف؟"

"ألقي على الرَّبِّ كلَّ همِّكِ. فهو سيعتَني بكِ".

"مِن المُضحِك أن أُفكِّر بأنّي أنا يُمكِنُ يومًا أن آتيَ بأتريتِس إلى إيمانٍ خلاصيٍّ بالمسيح".

"إنَّ المسيح سوف يأتي في أتريتِس إلى إيمانٍ خلاصيٍّ، إذا كانت مشيئتُه أن يفعل ذلك. لا أنتِ. دعوَتُكِ أن تُبيِّني لأتريتِس محبَّةَ الله، تمامًا كما بيَّنَها لكِ شمعي".

اغرورقَت عَيناها. شمعي. شمعي المُبارَك. وقالت برِقَّة: "فَهِمتُ".

لقد علِمَ أنَّها فهِمَت. وقال لها: "صلِّي معي". ثُمَّ مدَّ لها يدَيه. فأقبلَت إليه، وجَثَوا معًا.

بدأ الخوف والتَّوتُّر ينحَسِران منها فيما أصغت إلى صوت يوحنَّا القويِّ، لكنِ اللَّطيف. يقينًا أنَّ صلوات الرَّسول ستُسمَعُ أكثرَ من صلاتها. فقد كان أمينًا وممتلئًا بالثِّقة بالرَّبِّ، في حينَ كان ذهنُها وقلبُها مُشتَّتَينِ اضطرابًا. وهو قد مشى مع الرَّبِّ يسوع فعلًا.

أنا ضعيفة، يا ربُّ. سامِحني. رجاءً، احمِ كالِب ونَشِّئهُ ليكونُ غَيورًا لك. أتوسَّلُ إليك، أيُّها الآبُ السَّماويُّ، أن تُحرِّرَ أتريتِس. أنقِذه من الظُّلمة وانقُله إلى النُّور. استخدِمني كما تشاء.

شكَرَ يوحنَّا الله على الطَّعام الذي وُضِعَ أمامَهما وأعانَها لِتَقوم. فغمَرَها شعورٌ بالسُّكون؛ سلامٌ لم تكُن قد شعرَت به منذُ يومَ جاءَ يوحنَّا إليها وأخبرَها أنَّ أتريتِس يُريد استِرجاعَ ابنِه.

قال يوحنَّا مُبتسِمًا: "والآن، أخبِريني بما جرى بينَكِ وبينَ أتريتِس". ثُمَّ أخذَ رغيفًا صغيرًا فقسَمَه وأعطاها نِصفًا.

أفاضَت بكُلِّ مُواجَهة كانت لها مع المُقاتِل السابق، من أوَّل لحظةٍ قابلَته فيها حتَّى آخِرِ مُحادَثة في الغُرفة العُليا من دارته. وأضافت: "يجب أن يُغادِرَ أفسُس. إذا بقيَ هُنا، فسَيجِدُ سَرتِس سبيلًا إلى جعله يُصارِعُ من جديد. وللرَّجُل جواسيسُ يُراقِبون الدَّارة كلَّ دقيقة. حتَّى إنَّه أرسل رِجالًا إلى المدينة ليسألوا أسئلةً عنِّي. فإذا تبيَّن لسَرتِس أنَّ كالِب هو ابنُ أتريتِس، فلا أستطيع حتَّى البدءَ بأنْ أتصوَّر كيف يمكن أن يستخدِمَ تلكَ المعلومةَ ضدَّ أتريتِس...وأيَّ خطَرَ ستُشكِّلُ على كالِب". وأخذَت صُرَّةَ الذَّهَب التي أعطاها أتريتِس إيَّاها فناولَتها ليُوحنَّا. "أرسلَ أتريتِس هذه. إنَّه يُريد أن يرجِع إلى جِرمانيا. فإلى أينَ تُوصِلُنا؟"

فتَحَ يوحنَّا الصُّرَّة، وكبَّ النُّقود الذهبيَّة على كفِّه. وقال: "تقريبًا، حتَّى نصف الطَّريق إلى روما". ثُمَّ ردَّها إلى الصُّرَّة، وحطَّها على الطَّاولة بينهما.

"يجب أن أردَّ خبَرًا إلى أتريتِس بأنّنا سنحتاج إلى مزيدٍ من المال. لقد أعطيتُه وعدًا بأنّي سأتّصِل به في غُضونِ يومَين. وها قد مضى يومٌ حتّى الآن".

شاهدَها يوحنّا تتحرّكُ مُضطربةً، وصلّى لأجلها سرًّا. نظرتْ خارِجَ النافذة ثانيةً، ثُمَّ تراجعَت شاحِبَة الوجه. وقالت: "ما زالَ جاسوسُ سَرتِس في الخارج. لقد تبِعَني من الدَّارة. حاولْت تضييعَه، ولكنْ..." لقد برَزَت دزّينةٌ من العَواقِب مُعذِّبةً إيّاها. "ما قصدتُ قطُّ أن آتيَ بالبلاء إلى عتَبة بابِكَ، يا يوحنّا".

"اقعُدي وكُلي، يا رِصفة. ستحتاجين إلى قوّتكِ لِما ينتظِرُكِ".

فقالَت: "كلُّ مالِهِ استُثمِرَ في عَقارِه". وقعدَت من جديد.

"سيُدبِّرُ الرَّبُّ ما تدعو الحاجةُ إليه".

"أرجو أن يُدبِّرَ الرَّبُّ خرائطَ أيضًا. لا يعرِفُ أتريتِس كيف يجِدُ طريقَه إلى جِرمانيا، وكلُّ ما أعرِفُه أنّها في مكانٍ ما إلى الشمال بعيدًا عن روما". وطرَفَت بعينَيها حَبسًا للدُّموع. "سمِعتُ أنّه مكانٌ همَجيٌّ غيرُ مُتمدِّن. إذا كان أتريتِس مَثَلًا على القوم هُناك..." وتشبَّثت بالخُبزِ على حضنها، هازَّةً رأسها. "لا يمكنُني أن أُصدِّق أنّي اقترحتُ أن يرجِع. فيمَ كنتُ أُفكِّر؟ حتّى فِكرةُ جِرمانيا تملأُني برُعبٍ لا يُعبَّر عنه".

فقالَ يوحنّا: "الأرضُ وكلُّ ما علَيها من خليقةِ الله". وابتسمَ. "حتّى جِرمانيا!"

"أعلَمُ ذلك، ولكنّها بعيدة جدًّا عنك وعن كليوپاس وجميع الآخرين الذين أُحِبُّهم. ثُمَّ إنّي سأكونُ وحدي مع أتريتِس، مُعتمِدةً على مَودَّتِه". وأطلقَت ضِحكةً كئيبة. "لا يُمكِن أن نُوجدَ معًا في الغُرفة نفسِها دونَ أن ينشأ بيننا جِدالٌ من نوعٍ ما".

"هل أنزَلَ بكِ أيَّ أذًى بَدَنيٍّ؟"

"لا، وإن كان في وسعه أن يكونَ مُخيفًا أحيانًا". وأشاحَت بناظِرَيها، مُتذكِّرةً أتريتِس مُتمرِّنًا في الجِمنازيوم.

"أأنتِ مُنجذِبةٌ إليه؟"

فتورَّد خدّاها. وإذ أطرقَت رأسها، لم تنبِس بكلِمةٍ طَوالَ لَحَظات. ثُمَّ اعترفَت أخيرًا، مُرتبِكةً: "نعم، أنا مُنجذِبة. وما هو أسوأ أنّه يعلَمُ ذلك".

"لقد وضعَكِ الربُّ مع أتريتِس لأجلِ قصْد، رِصفة".

فرفعَت حاجِبًا. "لكي يُجرِّبني؟"

"لا يُمكِن أن يُجرَّب الله، وهو لا يُجرِّبُ أحدًا. إنَّما شَهواتُنا تُغوينا وتجرفُنا بعيدًا".

"لم أُجرَفْ بعيدًا بَعد، ولا أنوي أن أُجرَف". وقطعَت لُقمةَ خُبزٍ فغمسَتها في النَّبيذ. ثُمَّ أكلت اللُّقمة، كاسِبةً وقتًا للتفكير. لقد كانت عواطِفُها أكثرَ ارتِباكًا من أن تُعبِّر عنها بالكلمات الصَّحيحة. ونظرَت إلى يوحنَّا، الهادئ جدًّا ملامحَ وروحًا. "ليس جمالُ أتريتِس الجسَديُّ وحدَه هو ما يجذبُني إليه، يا يوحنَّا. إنَّه شيءٌ أعمق، شيءٌ مُستحكِم في داخله. هو قاسٍ وشرِسٌ وعنيف، ولكنَّه يُعاني ألَمًا رهيبًا. قال لي ذاتَ ليلة إنَّه يتذكَّر كلَّ رجُلٍ قتَلَهُ يومًا". وأحرقَتِ الدُّموعُ عينَيها. "أنظُرُ إليه ثُمَّ..." وهزَّت رأسها. "يمكن أن تشقَّ الرغبةُ في تعزِيَته الطريقَ إلى...رغَباتٍ أُخرى".

"إذًا يجب أن تحترِسي. الله أمين، يا رِصفة. ثبِّتي ذِهنَكِ على إرضائه. إنَّه لن يدَعَكِ تُجرَّبين فوقَ طاقتكِ على المُقاوَمة. وسيُدبِّر سبيل النَّجاة أيضًا، لكي تتمكَّني من الاحتمال".

"سأُحاوِل أن أكون قويَّة".

"لا تتَّكلي على قوَّتكِ الذاتيَّة. لا أحَدَ مِنَّا قويٌّ في ذاته. إنَّما الربُّ هو الذي يعضُدنا".

قامَت من جديدٍ مُتَململةً. "ليتَني أستطيعُ أن أرجِعَ إلى أفسُس وأسكُنَ في الإنسولا. كانت الحياة هُناك أسهلَ وأقلَّ تعقيدًا". كان أفضلَ لو لم تلتقِ أتريتِس قطُّ، لأنَّها الآن أيضًا، وهي بعيدةٌ عنه، لم تستطع أن تكفَّ عن التفكير فيه.

قال يوحنَّا: "هُنالك أيَّامٌ فيها أُصارِعُ أنا أيضًا".

فالتفتَت مُندهِشةً. "أنت؟ ولكنَّك رسول".

"أنا بشريٌّ، مثلكِ تمامًا".

"لم يبقَ أيُّ شخصٍ آخر مثلك، يا يوحنَّا. أنتَ آخِرُ رسول. جميعُ الآخرين رحلوا ليكونوا عندَ الرَّبِّ".

فقال: "نعم، وأحيانًا أسألُ الرَّبَّ لماذا ما أزال هُنا على هذه الأرض. فمعَ محبَّتي الشديدة لكِ وللآخرين، كم أتوقُ إلى اليوم الذي فيه ألتقي المسيح وجهًا لِوجه من جديد!"

سمِعَت رِصفة التَّوقَ في صوته، وتألَّمت من أجله. رأتِ الشَّيبَ في شعره ولحيته، وأخاديدَ العُمر حول عينَيه. فتقدَّمَت وركعَت أمامه. وإذ أمسكَت يدَيه، قبَّلَتهما، وقالت بهَمسٍ مكتوم: "أنا أنانيَّة، لأنِّي أرجو أن تبقى معنا مُدَّةً بَعد". ثمَّ رفعَت رأسها، وعَيناها

سابِحتان في الدُّموع. "عندما ترحَل، يا يوحنَّا، لَن يبقى أحَدٌ مشى مع المسيح، ولَمَسَهُ وسمعَ صوته. أنتَ آخِرُ شاهِدٍ حيٍّ للمسيح".

فقال: "لا، يا محبوبة. لذلك السَّبَب أعطانا الله الرُّوحَ القُدُس، حتَّى يُتاحَ لكُلِّ واحدٍ منَّا يقبل المسيح على أنَّه الرَّبُّ والمُخلِّص أن يصير شاهِدًا حيًّا لمحبَّته". ثمَّ سحَبَ يدَيه من يدَيها واحتضنَ وجهها بِراحتَيه. "كما يجب أن تكوني شاهدةً حيَّة أمام أتريبِس".

فأغمَضَت عينَيها. "أنا شاهدة بائسة".

"الله يأخذ أشياءَ هذا العالمِ البائسةَ والخَرقاء ليأتي بالمجد لاسمه. لم يولَدِ الرَّبُّ يسوع في قاعات الملوك الرفيعة، بل وُلِدَ في اسطبل". ووضعَ يدَه على كتِفها. "نحنُ كلُّنا واحِد في المسيح، يا محبوبة. وأنتِ تعرفين من هو العدوُّ. فالشيطان خَصمٌ عاتٍ يعَرِفُكِ من قرب كما يَعرِفُكِ الرَّبُّ تقريبًا. وهو يشنُّ الهجوم عبْرَ الذِّهن والجَسَد، مُحاوِلًا أن يفصلَكِ عن المسيح".

"ذلك لا يملأُني بالثقة. مَن أنا لأُحارِبَ الشَّيطان؟"

فابتسمَ برِقَّة. "أنتِ لا تُحارِبينه. الربُّ معكِ ويتقدَّمُكِ في المعركة. ما عليكِ إلَّا أن تثبُتي راسِخةً في الإيمان. تذكَّري رِسالةَ بولُس إلينا. لقد جهَّزَنا الله بسِلاح: مِنطقةُ الحقِّ، دِرعُ البرِّ، حِذاءُ إنجيل السَّلام، تُرسُ الإيمان، خوذةُ الخلاص، سيفُ الرُّوح الذي هو كلِمةُ الله".

"أتذكَّر".

"كلُّ قطعةٍ من السِّلاح اسمٌ آخَر لربِّنا. فالمسيح هو سِلاحُنا. إنَّه يُطوِّقُنا بحمايته. تذكَّري الأُمورَ التي عُلِّمتِها. جدِّدي ذِهنَكِ في المسيح".

"أعلَمُ في ذهني، وما أزالُ أُصارِع". ثُمَّ قامت وابتعدَت من جديد. "أنت تعرِف كم كانت حياتي صعبةً قبلَما التقيتُ شمعي وأحضرَني إليك. ما لا تُدرِكُه أنَّ شمعي اضطُرَّ دائمًا أن يردَّني إلى سواء السَّبيل. لقد كان قويًّا جدًّا في الإيمان. حتَّى إنَّه لمَّا كان يُحتضَر، لم يُسائِلِ الله". وأحرقَت الدُّموع عينَيها. "أنا لستُ مِثلَه. ولستُ مِثلَك. لقد عِشتُ طويلًا جدًّا وكافحتُ بشِدَّة بالغة من أجل البقاء. وقد انغرَسَ في نفسي أن أستمرَّ في فَعْل الشَّيءِ نفسه".

"لقد جعلَكِ المسيح خليقةً جديدة".

ضحِكَت بحُزن. "إذًا، ربَّما لم يتأصَّلِ الخلاصُ عندي، لأنِّي تلك الفتاةُ العنيدة، القاسية الرَّقبة، المُشرَّدةُ التي كانت تسرق الطَّعام في السُّوق، مُختبئةً من العصابات ونائمةً في مداخِلِ الأبواب. إنَّ أتريبِس يُذكِّرُني بتلك الأيَّام. إنَّه يجعلُني أُريدُ أن أُقاتِلَ ردًّا". وأشاحَت وجهَها.

"ظَنَنتُ أنِّي قد تغيَّرتُ، يا يوحنَّا، ثُمَّ وجدتُ نفسي مع رجُلٍ مثلِه، فاستيقظَتِ الذَّاتُ القديمة فيَّ لستُ مُستحقَّةً أن أُدعى مسيحيَّةً".

تقدَّمَ إليها ووضعَ يدَيه على كتِفَيها، مُديرًا إيَّاها لِتُواجِهَه. "لا أحَدَ منَّا مُستحِقٌّ، يا رِصفة. فإنَّما بنعمة الله نحنُ مُخلَّصون ومُعطَونَ ميراثًا في السَّماء، وليسَ بواسِطة أيِّ برٍّ من عندِنا. أنتِ مسيحيَّة. إيمانُكِ بالرَّبِ يسوع يجعلُكِ هكذا".

ابتسمَت له ابتِسامةً كئيبة. "يا ليتَني كنتُ مسيحيَّةً أفضل".

فشاعَ الدِّفءُ في عينَيه. "هدَفٌ نشترِكُ جميعًا في التَّمسُّك به". وأمسكَ يدَها بكِلتا يدَيه. "أنا على ثِقةٍ بأنَّ الذي ابتدأ عملًا صالحًا فيكِ سيُكمِّلُه".

دخَلَ كليوپاس الغُرفةَ من جديد، وعلى ذِراعَيه كالِب ضاجٌّ. ثُمَّ قالَ والضَّنكُ يبدو عليه: "إنَّه يُريدُ أُمَّه".

فأخذَتِ الطِّفلَ وقبَّلَته ضاحِكةً. "إنَّه جائع، وليس بيَدِك كثيرٌ تفعلُه بشأنِ ذلك". ودلَّها كليوپاس على مُختلًى مُظلَّل صغير حيثُ يمكنها أن تكون وحدَها لتُرضِعَ ابنَها. وإذ فعلَت ذلك، فكَّرَت في كلِّ ما قاله لها يوحنَّا وشعرَت بالطُّمأنينة. إنَّ الله يعلم ما يفعلُه.

يا ربّ، سامحْ قلبي الشَّكَّاك. ضع داخِلي روحًا مستقيمة. فلأرَ أتريتِس بعينَيك، لا بعينَي ذاتي القديمة. وإذا كانت مشيئتك لنا أن نذهب إلى جِرمانيا، أجَل، لا أُحِبُّ ذلك، يا ربُّ، إلَّا أنِّي سأذهب.

بعدَما شبعَ كالِب وقُمِّطَ بكتَّانٍ ناعِم مُدفئ، نام راضيًا إذِ انضمَّت من جديد إلى يوحنَّا وكليوپاس في التريكلينيوم.

وقال لها يوحنَّا: "أخبرَني كليوپاس أنَّ زُوَّارًا أتَوني باكرًا هذا المساء، قبلَما وصلتِ. يبدو أنَّ أتريتِس ليس الشخصَ الوحيد الذي يُريد أن يُغادِرَ أفسُس".

٨

وقفَ أتريتِس على شرفته، ناظِرًا من عَلُ إلى الطَّريق نحوَ شجرة البُطم. لم يكُن قد نامَ كثيرًا البارِحة من أجل التفكير في رِصفة وابنه. حالَما غادرَت، جاء إلى هُنا وراقبَها تمشي على الطَّريق المُغبَّر المؤدِّي إلى المدينة. وقد قام واحدٌ من الرِّجال القاعدين في ظِلال البُطمة حالَما شاهدها، ولحِقَ بها.

"سبَقَ أن تعرَّضتُ للمُلاحقة. أعرِفُ كيف أختبئ".

هذه الكلِمات ملأتْه بالقلَق وأثارت أسئلةً في داخله. مَن لاحقَها؟ ولماذا؟ مِمَّ، أو مِمَّن، كانت تختبئ؟

كادَ أمس أن يذهبَ وراءها، ولكنَّه أولى الأمر تفكيرًا أفضل. والآنَ تساءلَ هل ارتكبَ غلطةً رُغمَ كلِّ شيء. ماذا لو لم ترجِع؟ أيتمكَّنُ من العُثور عليها؟ أم يُهرِّبُها أصدقاؤها المسيحيُّون سرًّا إلى خارج أفسُس؟

لقد انقضى يومٌ واحد. فاستنبطَ في ذهنه أساليبَ لدخول المدينة والبحث عنها. سينطلق من مُقابلة الرَّسول يوحنَّا واستِجوابه.

"أعرِفُ كيف أختبئ".

صرَّ بأسنانه إحباطًا، مُتمنِّيًا لو لم يثِق بها. كان ابنُه معها، ولم يعرِف كيف يعثُر عليها. كانت قد قالت إنَّها ستذهب إلى الرَّسول، ولكنَّ ذلك لم يَعنِ أنَّها إلى هُناك ذهبَت.

"سأردُّ خبَرًا. أعِدُ بذلك، رهنَ حياتي".

وكمجنونٍ، تركَها تمضي. تركها تمشي خارجةً من الدَّارة مع ابنه، ابنه هو. أمَا سبقَ أن وثِقَ بجوليا، على الرُّغم من أنَّ غريزته الداخليَّة كشَفَتْ له ما كانت عليه يومَ التقاها في الأرطميسيون؟ لقد مضى إليها على كُلِّ حال، تاركًا الشَّهوة تُحرِقُ أيَّ تعقُّل. وقدَّم لها قلبَهُ على طبَق، فنهشَته والتهمَته.

والآنَ تدخُلُ حياتَه هذه المرأةُ اللعينة بعينَيها البُنِّيَّتين الجميلتَين ومفاتِنها المُغرية، فماذا يفعل؟ يُسلِّمُها ابنَه. يضع حرِّيَّته في يديها. يُسلِّمُها وسيلةَ تدميرِه!

دارَ شاتمًا وابتعد عن درابزين الشُّرفة. وإذ كافحَ لكسب السَّيطرة على مشاعره

المُصطخِبة، دخَلَ مَهجعَه من جديد. وذهب إلى طاوِلة الرُّخام المُلاصِقة للجِدار، فصبَّ خمرًا في كأسٍ فِضِّيَّة. وحالَما تجرَّعها، صبَّ المزيد.

لمَّا فرَغَ الإبريق، حمَلَ الكأس. وحدَّقَ باكتئاب، مُلتويَ الفم، إلى أشكالِ حوريَّات الغابة اللواتي يُلاحِقُهنَّ الساطيراتُ المُعَربِدون. كان من شأن جوليا أن تحبَّ هذه الرُّسوم، إذ تلقى تجاوُبًا من قِبَل حسِّ المُغامَرة الشَّهوانيَّة لديها.

"سأفعل أيَّ شيءٍ لأجلك، أتريتِس. أيَّ شيء".

وإذ أطبق أسنانه بشِدَّة، ضغَطَ حتَّى تغيَّرَ شكلُ الكأس. "إذًا في وسعكِ أن تموتي، يا ساحرة. مُوتي لأجلي!" هكذا قال من بينِ أسنانه ثُمَّ أسقط الكأس المفتولة على الصِّينيَّة.

ثمَّ تمدَّد على سريره، وحدَّق إلى السَّقف. فضغط نزولًا عليه، وأحسَّ الجُدران مُطبِقةً. وجاءت الأصواتُ من جديد، أصواتُ الرِّجال الذين قتَلَهم. فقام آنًّا. وإذ جرَّ بِضعةَ فِراء عن السَّرير، خرَجَ من الغُرفة. وظهَرَ لاغُس عند أسفل الدَّرَج، مُستعدًّا دائمًا لأنْ يُنفِّذ الأوامِر. فتخطَّاه أتريتِس بِلا كلمة، ماشيًا بخُطًى واسعة في الرِّواق الدَّاخليِّ. لم يكُن من صَوتٍ سوى صدى خطواته. ومضى عبْرَ الحمَّامات إلى مؤخَّر الدَّارة. كان الجوُّ باردًا في الخارج، وريحٌ تهبُّ من الجنوب. فعبَرَ الفِناء بخُطًى حثيثة إلى الباب الثَّقيل في السُّور الخلفيِّ.

قال سيلُس: "أكلُّ شيء على ما يُرام، سيِّدي؟" فتجاهله أتريتِس، ورفع المزلاج، وفتحَ الباب الثقيل نترًا، وخرَج.

جاء لاغُس تاليًا، وقد بدا عليه القلَق. "هل قال السيِّد كم سيغيب؟"

"لا، وأنا لم أسأل".

"لعلَّ أحدًا ينبغي أن يلحق به".

"إذا كنتَ مُقترحًا أن يكونَ ذلك الأحَدُ أنا، فانسَ الموضوع. هل رأيتَ سِيماءَ وجهه؟ ستبقى البوَّابة مفتوحة. سيرجِعُ عندما يكون مستعدًّا".

ثُمَّ أقبل غالُص من الظُّلمة. "هل غادَر أتريتِس من جديد؟"

فقال سيلُس. "لعلَّه مُتوجِّهٌ إلى الكهف مرَّةً أُخرى".

ومضى غالُص إلى خارج البوَّابة. فرآه لاغُس يومئ لأحدهم ثُمَّ يعود إلى الداخل.

بدا لاغُس مُضطرِبًا، ولم يقُل شيئًا.

تنفَّسَ أتريتِس تنفُّسًا أسهَل، وحوالَيه التِّلالُ التي يُظلِّلُها اللَّيل. ولمَّا بلَغَ الهُضَيبةَ المُدوَّرة وراءَ الدَّارة وفوقها، جلس على عِقبَيه ناصبًا ساقَيه وفخِذَيه وجذَبَ الفِراء حوله. هُنا، تحتَ قُبَّة السماوات المُرصَّعة بالنُّجوم، أحسَّ أنَّه أقربُ إلى الحرِّيَّة. فلا جُدران تحبسُه. ولا أحد يُراقِبُه. واستطاع أن يشمَّ الأرض، فكانت طيِّبة الرائحة. لم تكُن بطيبةِ غاباتِ جِرمانيا، إلَّا أنَّها كانت أفضل بكثير من غياهِبِ لودُس، أو دارةٍ فاخرة أيضًا.

زفَرَ نفَسَه ببُطء، وحنى رأسه حتَّى رُكبتيه. كانت الخمر قد بدأت تؤثِّر فيه. أحسَّ دَفقةَ دِفءٍ ودُوارًا. ولكنَّه علِمَ أنَّه لم يكُن قد شرِبَ ما يكفي لإنجازِ ما أراده: النِّسيان. وتمنَّى لو فطِنَ أن يُحضِرَ معه زِقَّ خمرٍ آخَر ليتسنَّى له أن يسكر لينسى كلَّ شيء، حتَّى مَن كان.

كان على استعداد لإعطاء كلِّ ما يملكه لِقاءَ ليلةٍ واحدة من النوم الخالي من الأحلام، وشُعورٍ بحُسنِ الحال في الصَّباح. وأطلَقَ ضِحكةً كئيبة تردَّدت لها أصداءٌ خاويةٌ في الظَّلام. كلُّ ما كان له لن يكفيَ لإبطال الماضي، وإرجاع الحياة إلى أُولئك الذين قتلَهم، ومَحوِ الذِّكرَيات القاتمة وشعوره السيِّئ بالذَّنْب. هو الآن في الثامنة والعشرين من العُمر. ولمَّا بدأ أبوه يُدرِّبُه لأجل القتال، كان في الثامنة. وقد بدا منذ ذلك الحين أنَّ القِتال التهمَ أفكاره وأفعاله، وكيانَه بحدِّ ذاته. فإنَّ موهبَته كمنَت في انتزاع الحياة، بسُرعة ووحشيَّة وبلا ندامة.

التوى فمُه بمرارة. بلا ندامة؟

لم يكن قد شعر بأيَّة ندامة عند قتله مُحارِبين من قبائل أُخرى تجاسروا على عبور حدود الشَّطِّي. ولم يكُن قد شعر بأيَّة ندامة عند قتله رومانيِّين غزَوا مسقطَ رأسِه. وكان قد شعر بالانتصار لمَّا قتل ثَراكُس، اللانيستا الأوَّل في اللودُس بكابوَا، حيثُ جيء به مُقيَّدًا.

أمَّا الآخرون؟ فما زال في وسعه أن يرى وجوهَهُم. ما استطاعَ أن ينسى كالِب العِبرانيَّ، جاثيًا على رُكبتَيه أمامه، ورأسُه مُتلَعٌ إلى الوراء. ولا استطاعَ أن يمحو وجه القبَليِّ الشَّطِّي الذي قتله في آخر معركة له في رُوما. فما زالت أصداءُ كلِماتِ الفَتى تتردَّدُ في ذهنه. "تبدو رومانيًّا، تفوحُ منكَ رائحةُ رومانيٍّ...أنت رومانيٌّ". كيف كان شعورُه وهو صبيٌّ يركض حُرًّا في الغابات؟ لم يستطع أن يتذكَّر ذلك. وحاول أن يتذكَّر كيف كان شَكلُ زوجتِه الشابَّة آنيا، فلم يستطع. لقد مضى الآن على وفاتها أكثرُ من عشر سنين، ولديه ذِكرى واهيةٌ عن حياةٍ لم تعُد موجودة، إذا وُجِدَت أصلًا. لعلَّه حلمَ بتلك الأوقات الأكثر سعادةً، كحيلةٍ من خياله.

أغمضَ عينَيه بإحكام وأحسَّ الظُّلمة تطوِّقُه وتُطبِق عليه.

"من الأعماقِ صرختُ إليك، يا ربُّ. يا ربُّ، اسمع صوتي!"

عادَت الكَلِماتُ من تلقاء ذاتها، عابرةً، نابعةً من كَرْبه. أينَ سمِعَها قبلًا؟ مَن قالها؟

غمَرَه نورٌ ناعم إذ تذكَّر هَدسَّة واقفةً في مدخلِ كهف. وتمنَّى لو كانت هُنا معه، فيتسنَّى له أن يتحدَّث معها، غير أنَّها باتت مَيتةً الآن. ضحيَّةٌ أُخرى من ضحايا روما.

آخِرَ مرَّةٍ رآها فيها، قالت عن إلهِها: "لئن قتلَني، فسأتوكَّلُ عليه". كانت آنذاك في الزَّنزانة تحت ساحة المُحارِبين، مُنتظِرةً موتها. "الله رحيم".

رفعَ نظرَه إلى سماء اللَّيل، فرجعَت إلى ذِهنه كلِماتٌ أُخرى في همسٍ رقيق.

"السَّماوات تُحدِّثُ بمجد الله، والفلك يُخبر بعمَل يدَيه".

غمَرَ رأسه بيدَيه مُجدَّدًا، مُحاوِلًا دفعَ الكلمات بعيدًا. كانت هَدسَّة حِملًا آخر من أحماله، شخصًا آخر زلَّت حياتُه من بين يدَيه. إذا كان إلهُها يملك تلك القُدرة الفائقة- إذا كان هو بالحقيقة "الإله الواحد الحقيقيّ" كما زعمَت هي ورِصفة- فلماذا سمحَ بأن تموت؟ ما من إله جديرٍ بالاتِّباع يسمَح بأن يُبادَ تابعٌ أمينٌ من أتباعه نظيرَها! ولكنَّ حقيقةَ كون إله هَدسَّة قد تخلَّى عنها لم تُزعِج أتريتِس كثيرًا بقَدْر حقيقة كونهِ هو قد تخلَّى عنها. لقد أنقذَت هَدسَّة ابنَه، وتركَها هو تموت. لو بقيَ، ما كان مُمكِنًا أن يُنقِذها: أمرٌ علِمَهُ جيِّدًا. ولكنْ كان ممكنًا أن يقِفَ بجانبها، ويموتَ معها. كان من شأن ذلك أن يكون مُشرِّفًا. وكان من شأنه أن يكون صائبًا.

بدلًا من ذلك، اختارَ أن يعيشَ لكي يجِدَ ابنَه.

ومِن ثمَّ تركَه يمضي من جديد.

أغمضَ أتريتِس عينَيه واستلقى على الأرض الباردة. وقالَ في قلبِ السُّكون: "يومٌ واحدٌ بعدُ، رِصفة، ثُمَّ ألحَقُ بكِ. يومٌ واحدٌ بَعد، وتموتين!"

٩

أرسلَ يوحنَّا كليوپاسَ وشابًّا آخر للإتيان بأُولئك الذين جاءُوا في وقتٍ أبكر مُلتمِسينَ المشورة بشأن مُغادرة المدينة. وفي غضونِ سُوَيعات، ازدحَم بيتُ الرَّسول برِجال ونساء وأولاد. ومن الذين وصلوا مع عائلاتهم، لم تعرِف رِصفة إلَّا پَرميناس، صانعَ الأحزِمة.

وصلَ پَرميناس مع زوجته أفنيكي وأولادهما الثلاثة، أنطونيا وكاپيو وفليمون. كان صانع الأحزِمة يملك دُكَّانه الخاصَّ الذي عرَضَ فيه أحزمة السِّنغولا التي اشتُهِرَ بها. هذه الأحزِمة المُتقَنة المَصنوعة لأفراد الجيش الرُّومانيِّ أدَّت دَورَ شاراتِ الخِدمة. والمئزرُ المُكوَّن من سيور جلديَّة مُزخرفة كان يحمي أعلى فخِذَي الجُنديِّ في المعركة، وعندَ زَحفِ العسكر يُصدِر صوتًا مُروِّعًا جدًّا بحيث يُشيعُ الرُّعبَ بينَ مُعظَمِ الخُصوم.

عرَّفَ يوحنَّا بالآخرين حالَ وصولهم. فتيمونُ الذي يحمِلُ نُدوب ضَربٍ وحشيٍّ، كان فنَّانًا جَصِّيًّا واجه بليَّةً لمَّا استدعاه أحَدُ كهنة الأرطميسيون وأمرَه برسم لوحة جصِّيَّة تكريمًا لأرطميس.

"رفضتُ ذلك. ولمَّا سألَ عن سبَب، قلتُ له إنَّ ضميري يمنعُني أن أُشكِّلَ أيَّ شيء لتكريم إلاهةٍ وثنيَّة. فلم يحُز جوابي رِضاه".

وقد أبقَت زوجتُه پورشيا أولادَهُما بلِزقها، فيما الضِّيقُ والخوف يبدوان عليها. "اقتحمَ بيتَنا بعضُ الرِّجال البارِحة وحطَّموا كل شيء".

وقال أحَدُ الصَّبيَّين- وعَيناه الداكنتان تقدحانِ شرَرًا- "لقد أبكَوا أُمِّي. أودُّ أن أُبكيَهُم".

فقالت پورشيا: "سكوتًا، يا بطرُس! يطلُبُ الرَّبُّ منَّا مُسامحةَ أعدائنا".

بدا الصَّبيُّ ميَّالًا إلى التَّمرُّد، شأنُه شأنُ أخيه الأصغر برنابا، في حينَ التصقَت مريم الصغيرة وبنيامين بجَنبَي أُمِّهما.

أمَّا پروخورُس فكان خبَّازًا، وكانت معه زوجتُه رُودا، وأُختُه كاميلا مع ابنتها ليجيا. وقد بدا الرَّجُل مُنهَكًا، من جرَّاء الاضطهاد بسبب إيمانه أقلَّ مِنهُ بسبب المرأتَين الواقفتَين إلى كِلا جانِبَيه. فإنَّ أيَّةً مِنهما لم تنظُر إلى الأُخرى. وكانت ليجيا في العائلة هي الفَردَ الوحيد الذي بدا رائقًا.

وقد وصلَ أربعُ شُبَّان، بعدَما سمِعوا من آخَرين أنَّ مجموعةً من المسيحيِّين ستُغادِر أفسُس. فإنَّ بارتيماوس ونيجَر وطيبُلُّس وأغابُس- وجميعُهم تحت العشرين سنة- كانوا أصلًا قد نالوا مُبارَكة عائلاتهم كي ينطلقوا إلى العالَم وينشروا الإنجيل. وقال نيجر: "ها هُنا أصواتٌ كفايةً. ولكنْ ماذا عن بِلاد الغال أو بريطانيا؟"

فقال أغابُس: "نُريد أن ننشُرَ البشارة إلى الذين لم يسمعوها بَعد".

وكان آخِر رجُل وصَل هو مَناسون. وقد تأثَّرت رِصفة حالًا بأسلوبِ كلامه.

مالَت أفنيكي بقُربِ أُذن رِصفة، وقالت همسًا: "هُوَ هيبوكريت معروفٌ جيِّدًا"، ثمَّ تبسَّمَت. فلاحظَت رِصفة كيف برَقَت عَيناها وهي تتعلَّم. لقد سُرَّت المرأة كثيرًا، على ما بدا، بتَوقُّعِ السَّفَر برفقةِ مُمثِّلٍ مشهور. "غالبًا ما يُدعى لتأدية قراءاتٍ أمامَ البروقنصُل وآخرين من الموظَّفين الرسميِّين الرُّومانيِّين. أليسَ وسيمًا؟"

فقالَت رِصفة مُوافِقةً: "بَلى، هو كذلك"، مع أنَّها حسِبَته مُتصنِّعًا بعضَ الشيء. وكان مَناسون رجُلَ نُبلٍ وصَقلٍ واضِحَين، ينمُّ صوتُه عن تدرُّبٍ وتعمُّد دقيقَين. لقد جذَبَ الانتباه وأراحه ذلك، مُتوقِّعًا إيَّاه تقريبًا. وإذ رفعَت أفنيكي أنطونيا الصغيرة إلى حضنها، قالت برِقَّة: "تلا مَناسون واحدًا من مزامير داود على ضيوفٍ عندَ كاتب المدينة كانوا قد اجتمعوا لوليمة عشيَّةَ الألعاب العامَّة".

"أيَّ مزمورٍ تلا؟"

"المزمور الثاني. «اعبدوا الربَّ بخوف، واهتِفوا برَعدة. قبِّلوا الابن». أوَّلَ الأمر، ظنَّ الضُّيوف أنَّ مَناسون كان يؤدِّي التكريم لإمبراطورهم المؤلَّه حديثًا، فَسبازيان، ولابنه تيطُس، قيصَرِنا اللامع الآن. وآخرون اشتبهوا بخلاف ذلك. فطلبَ أحدُهم تفسيرًا، ولكنَّ مَناسون قال إنَّ شجاعَتَه خانَتهُ عند ذلك الحدِّ. وقد قال لهم إنَّ الكاتب أوحى إليه الله، ولكنَّه هو لم يعلم أيَّ إله، ولكُلِّ رجُل وامرأة من الحاضِرين أن يُميِّزا بأنفُسِهما. وقال: «إذا كانت لكُم آذانٌ سامعة، فستسمعون». فحَسِبَ مُعظم الضُّيوف ذلك أُحجيةً، ولعِبوا لِعبةَ التَّخمين. وكان بين الحُضورِ بعضٌ لم يُضحِكهم الأمر".

انضمَّت پورشيا إليهما. "لا أعتقِدُ أنَّ مناسون ينبغي أن يذهب معنا. سيَلفتُ الانتِباهَ إلينا".

وفكَّرَت رِصفة بأنَّ من شأن مَناسون أن يلفِتَ انتِباهًا أقلَّ بكثير من أتريتِس. فإنَّ الجِرمانيَّ سيُلقي ظِلالَهُ على مَناسون في لحظةٍ واحدة. حتَّى إنَّ أتريتِس لَن يُضطرَّ إلى فتحِ فمِه أو التَّفوُّه بكلمة واحدة. لقد كانَ جمالُه الجِسمانيُّ كافيًا لأسْرِ الانتباه، وجاذبيَّتُه الطاغيةُ خلَّابة.

قال كليوپاس: "السفينة الوحيدة التي ستأخُذَ رُكَّابًا على متنِها هي واحدةٌ من الاسكندريَّة. مُقرَّرٌ لها أن تُغادِرَ بعدَ يومين، إذا سمَحَت الحالةُ الجوِّيَّة".

سألت يوحنَّا: "ما مقصدُها؟"

"روما".

قال پروخورُس بارتعاب: "روما!"

وسأل أفنيكي رِصفة: "هل سَمِعتِ مَناسون مرَّةً يؤدِّي؟"

فقالت: "لا، ما سَمِعتُه"، مُتمنِّيةً لو أولَتِ المرأةُ مزيدًا من الانتِباه لابنَيها كاپيو وفليمون، إذ كانا يتشاجران على لُعبة، وتركَتها وشأنَها لتسمع ما كان الرِّجال يقولونه.

سَهَت أفنيكي عن مُشاجرات ابنَيها، وثبَّتَت عينَيها على مَناسون بإعجاب، قائلةً: "لقد باركَهُ الربُّ بصَوت وذاكرة رائعَين. ولمَّا صارَ مسيحيًّا، كان مُتلهِّفًا إلى تعلُّم أكبرِ قدْرٍ استطاعَه من الأسفار المُقدَّسة، وقد فعل ذلك. ففي وسعه أن يتلوَ فوقَ مئةِ مَزمور، وهو يعرِفُ رِسالةَ بولس إلى كنيستنا بِحَذافيرها. وحين يُلقي، أُحِسُّ كما لو كنتُ سامعةً صوتَ الله".

كان پَرميناس قائلًا: "لقد سمِعتُ أنَّ الاضطِهادَ هُناك أسوأ".

قالت أنطونيا: "أنحنُ ذاهبون إلى روما، ماما؟" وقدِ ارتبكَت وارتعبَت من جرَّاءِ اصطِخابِ عواطف الكبار في الغُرفة. فباسَت أفنيكي خدَّها. ومسَّدَت شعرَ الفتاة إلى الوراء قائلةً: "أينَما ذهبْنا، فالرَّبُّ سيَذهبُ معنا".

شُحِبَ وجهُ پورشيا وبدا عليه التوتُّر، سائلةً: "كيف يمكن أن نذهب إلى روما؟ مَن سيَحمينا؟"

وإذ سَمِعَ مَناسون مُلاحظتَها اتِّفاقًا، قال: "الرَّبُّ سيَحمينا".

فقالَت پورشيا- وعَيناها مُغرَورِقتان- "كما حَمانا هُنا؟ كما حمى استاخيس وأمپلياس؟ كما حمى يُونيا وپرسيس؟ كما حمى هَدسَّة؟" وقد بَدَت مُلِحَّةً إذ سرَدَت أسماءَ إخوةٍ مسيحيِّين حُكِمَ عليهم بالموت في ساحة المُحارِبين.

وأحرَجَ جَيَشانُها تيمون، فقال: "سُكوتًا، پورشيا".

فما كانت لتسكُت. "لقد ضُرِبتَ أنت، تيمون. كلُّ ما عمِلنا لأجله تبدَّد. حياتُنا مُهدَّدة، أولادنا مُعذَّبون. ونحن الآن سنذهب إلى روما، حيث يجعلون المسيحيِّين مشاعل لإنارةِ ساحة المُحاربين لأجل ألعابهم؟ أُفضِّلُ بالأحرى أن أذهب إلى البرِّيَّة وأموتَ جوعًا".

بدأت مريم الصَّغيرة تبكي. "لا أُريدُ أن أموتَ جوعًا".

"أنتِ تُروِّعين الأولاد، پورشيا".

فجذَبَتِ الصَّغيرَين إلى قُربِها أكثر. "ماذا عن أولادِنا، تيمون؟ مريم وبنيامين أصغَرُ سنًّا من أن يفهما حتَّى معنى الإيمان بيسوع على أنَّه الرَّبُّ. ماذا يحدثُ إذًا..."

قال تيمون آمِرًا: "كفى!" فلاذَت بالصَّمت، وفمُها يرتعِش كما لو كانت تُدافِعُ دموعها.

وضعَت رِصفة يدَها على يد پورشيا وشدَّت. لقد فهِمَت مَخاوِفَ المرأة جيِّدًا جدًّا، لأنَّ كالِب كان همَّها الأوَّل. أمَا جاءت إلى يوحنَّا هُنا في مُحاوَلةٍ للعثور على سبيل لحماية كالِب من أن يستخدِمَه سَرتِس؟ أرادَت لكالِب أن يتربَّى قويًّا في الرَّبِّ، لا في الأسْر، كبَيدَق يُستخدَم ضدَّ أبيه. فإذا انتزعَه منها أتريتِس أو سَرتِس، فلَن تُتاحَ له أبدًا الفُرصةُ لمعرِفة الربِّ.

اللَّهُمَّ، بيِّن لنا سبيلًا لإخراجِ أولادنا من هذه البليَّة. كيف سيكون الوضعُ عندَ الإقامة في مكانٍ يستطيعُ المرءُ فيه أن يعبد بحرِّيَّة دونَ خوف؟ كيف سيكون الحالُ لدى رؤيةِ مَبانٍ ترتفع لمجد الله لا لصَنَم وثنيٍّ تافه؟ لقد أجازت روما كلَّ ديانة تَصوَّرها البشَر وأنكرَت الإله الحيَّ الحقيقيَّ الذي خلقَها هي والعالَم الذي يُقيم فيه سُكَّانُها. ثُمَّ أغمضَت رِصفة عينَيها.

أيُّها الآبُ السماويُّ القدير، لقد خلقتَ السَّماواتِ فوقَنا وحولَنا. جميعُ الديانات الأُخرى هي مُحاوَلة الإنسان للوصول إلى الله. أمَّا الطريق فهو مُحاوَلة الله للوصول إلى الإنسان، مُتنازِلًا عن عرشِهِ ومُتجسِّدًا. وكلُّ ديانة ابتدعها الإنسان جرَّتْهُ إلى العبوديَّة. أمَّا المسيح فوقفَ مادًّا ذِراعَيه في المحبَّة، وقد حرَّرَ البشَرَ فعلًا.

أيُّها الآب، لِماذا نحنُ عُميانٌ تمامًا؟ في المسيحِ يسوع، نحنُ أحرار. لا ينبغي أن نخاف أيَّ شيء. حتَّى العبدُ في وسعه أن يحوزَ أجنِحةً كالملاك ويُحلِّقَ داخِلَ السَّماوات. حتَّى العبدُ في وسعه أن يفتحَ قلبَه فيسكن الله في داخله. لِماذا لا يسَعُنا أن نقبَلَ الهِبةَ بِلا ارتياب ونكون مقتنعين بأنَّه ما مِن أسوار، ولا قيود، ولا حتَّى الموتُ نفسُه يمكن أن يستأسِرَ العقلَ والقلبَ والنَّفس التي تخصُّ المسيح؟

كان لا بدَّ لرِصفة من أن تسمع مَخاوِفَ پورشيا لتجعلها ترى إخفاقاتِها الذاتيَّة حيثُ هي نفسُها كثيرًا جدًّا ما أخطأت.

أنت عوني، ربِّي يسوع، حياتي. سامِحني بنِسياني.

وأحسَّت الفرَح يتفجَّر في داخلها، ألَقًا ودفئًا مُتعاظِمَين جعلاها تُريد أن تهتِفَ ابتهاجًا.

كان يوحنَّا شاخصًا بعينَيه الرقيقتين إلى پورشيا، وهو يقول: "حتَّى الخوفُ يمكن أن يُستخدَم لقصد الله الصالح. كنتُ خائفًا من الموت ليلةَ أخذوا يسوع من بُستان جَثسيماني. واستولى عليَّ اليأسُ لَمَّا شاهدتُه يموت. حتَّى إنِّي، بعدَما علِمتُ أنَّ يسوع قام حيًّا، عرَفتُ الخوف. فلمَّا قُتِلَ أخي يعقوب بالسَّيف تنفيذًا لأمر هيرودس، خفتُ. كان الربُّ يسوع قد عهِدَ إليَّ بأُمِّه، وكان عليَّ وعلى الإخوة أن نُخرِجَها من مدينة القُدس إلى مكانٍ آمن. فجئتُ بها إلى أفَسُس هُنا، حيثُ بقِيَت حتَّى ذهبتْ لتكون مع الربِّ".

وابتسمَ بحُزن. "جميعُنا عرَفنا الخوف، پورشيا، وما زلنا نُعانيهِ في لَحَظَاتِ انكِشافٍ من حياتنا. ولكنَّ الخوف ليس من عند الله. الله محبَّة. فلا خوفَ في المحبَّة، بلِ المحبَّة الإلهيَّةُ الكاملة تطردُ خوفنا خارجًا. الربُّ يسوع المسيح ملجأُنا وحِصنُنا من أيِّ عدوٍّ ومن جميع أعدائنا. توكَّلوا عليه".

كان في وسع رِصفة أن تُحِسَّ پورشيا مُسترخيةً بجانبها. فما كانت كلماتُ يوحنَّا اليقينيَّة إلَّا انعكاسًا ليقين المسيح في داخله. وكان مستحيلًا ألَّا يؤمن المرء في حضرة الرسول. ولكنْ ماذا بشأنِ الوقتِ الآتي؟

تقدَّم تيمون فوقف وراء زوجته، واضِعًا إحدى يدَيه على كتِفها، فيما أصغى الجميع إلى الرسول مُتكلِّمًا. فوضعَت پورشيا يدها على تيمون، ورفعَت نظرَها إليه.

قال يوحنَّا: "لقد اضطَرَّنا الاضطهادُ إلى الخروج من مدينة القُدس، ولكنَّ المسيح استخدَمَ ذلك لقصدٍ صالح. فأينما ذهبنا، سواءٌ إلى أفسُس أو كورنثوس أو روما"، وتابعَ مُبتسِمًا لرِصفة: "أو حتَّى بعيدًا إلى حدود جِرمانيا، فالرَّبُّ نفسُه يذهب معنا. وهو معونتُنا ومَدَدُنا فيما نحمل الإنجيل إلى خلائقِه".

وفكَّرَت. جِرمانيا، يقينًا، لا يمكن أن تكون ذلك المكانَ الهَمَجيَّ الذي سمِعَت أنَّها كانَت إيَّاه.

بينما تحدَّث الرِّجال بشأن خُطَطٍ لِمُغادرة أفسُس وإيونيا، غلَبَ الإعياءُ على رِصفة. فإذِ التفَّت على جنبها، ضامَّةً كالِب بقُربها، نامَت. وبعدَ حين، أيقظَها كالِب جائعًا. فلمَّا قامت، لاحظت أنَّ أحدًا ما قد غطَّاها بِبَطَّانيَّة وترَكَ الكانونَ مُشتعِلًا. وكان الآخرون قد مضَوا. ولَمَّا أرضعَت كالِب، ذهبَت إلى النافذة ونظرَت خارجًا. فلم تجدِ الرَّجُلَ بعدُ واقفًا بجانب المبنى تحتُ في الشارع.

ثُمَّ دخل كليوپاس. "أنتِ مُستيقِظة".

فدارت عن النافذة قائلةً: ”لقد مضى“.

”حلَّ محلَّه شخصٌ ما قبلَ بِضعِ ساعات. الرَّجُل الجديد في الفانُم عبْرَ الشارع. اقعُدي. ينبغي أن تأكُلي قبل أن تُغادِري. ليسَ لديكِ كثيرٌ من الوقت قبلَ اضطِراركِ إلى الرُّجوع إلى أتريتِس، وعندي كثيرٌ أقولُه لكِ قبل أن تذهبي. سأُوقِظُ ليجيا. لقد وافقَت على مُبادلة الثِّياب بينَكِ وبينها. ستُغادِرُ حاملةً صُرَّةً بحجم كالِب. والمرجوُّ أن الرَّجُلَ في الخارج سيلحق بها“. ثمَّ انصرفَ ورجعَ بعدَ بِضعِ دقائق بصِينيَّة طعام وإبريقِ نبيذ مُخفَّف بالماء. وبينما هي تأكل، شرَحَ لها تفاصيلَ ما جرى في الليلة السابقة وهي نائمة.

”يجري وضعُ التَّرتيبات النِّهائية ونحنُ نتحدَّث. كلُّ ما يُعوِزُكِ أن تفعليه هو أن تأخُذي التَّعليمات إلى أتريتِس، وتكونوا على متن السفينة في مُنتصف اللَّيل غدًا“.

”هل يعرِفُ أحدٌ من الذين سيُرافِقوننا كيفيَّة الوصول إلى مَوطِن أتريتِس؟“

”لا، ولكنَّ يوحنَّا ذهب ليتكلَّم مع رجُل كان في جِرمانيا قبلَ عشر سنين. اسمُه ثيوفيلُس، وقد ذكَرَ رغبتَه في حمل الإنجيل إلى الحُدود. فإن شاء أن يذهب معكِ ومع أتريتِس الآن، يستطيعُ أن يدلَّكُما. وإلَّا، فسيتمكَّن من رَسمِ خريطةٍ وإعطاء التوجيهات بشأنِ أفضلِ طريقٍ للوصول إلى هناك“.

”ما أظنُّ أنِّي التقَيتُه“.

فابتسم كليوپاس. ”لو كُنتِ قدِ التقَيتِه، لَتَذكَّرتِه حتمًا“.

١٠

مشى أتريتِس عبْرَ البوَّابة المفتوحة، غير المحروسة، في وقتٍ مُتأخِّر من عصر اليوم التالي. دخَلَ خلفيَّة الدارة وسار بخُطًى واسعة عبْرَ الحمَّامات والجِمنازيوم إلى الرِّواق الداخليّ. كان لاغُس جالسًا في المطبخ يتناول وجبةً بسيطة ويتكلَّم إلى الطبَّاخة لمَّا دخلَ سيِّدُهما. فأجفلا كِلاهما إذ رأياه. وقال لاغُس: "سيِّدي!" مُصطدِمًا بالطاولة في أثناءِ قيامِه.

التقط أتريتِس نِصفَ رغيفٍ من الفطير، ومزَقَ نِصفَه، وقعدَ ليأكُل. وفي غضونِ دقائقَ قليلة، كانت الطبَّاخة قد وضعَت أمامه صحنَ فاكِهة، ولحمًا مُشرَّحًا، وبيضًا مسلوقًا.

نظَرَ أتريتِس إلى لاغُس، وهو يُقشِّرُ بيضةً. "هل رجَعَت رِصفة؟"

عبَسَ لاغُس قليلًا. "لا، سيِّدي. ظننتُ أنَّك طردَتها".

"فعلتُ ذلك".

"هل تُريد منِّي أن أبعثَ وراءها، سيِّدي؟"

فقال بجفاء: "أتدري إلى أينَ تبعَث؟"

"أينما وجَّهتَني، سيِّدي".

جأرَ أتريتِس بضِحكةٍ قاتمة، وأكلَ البيضة. اللَّعنةُ على المرأة. لقد عرَفَ أين يسكن الرُّسول. فسيبدأ به. وحين يعثر عليها، ستتمنَّى لو لم تولَد.

تناولَ بصَمتٍ باقي ما وُضِعَ أمامَه من طعام. وإذ نبَذَ الكأس الفِضِّيَّة الفاخرة، شرِبَ الخمر من الإبريق. فأفرغَهُ وحطَّه خبطًا، جاعِلًا كِلا العبدَين يثِبان. ومسح فمه بِقَفا يدِه، محدِّقًا إليهما وهو يقوم. وقبلَما غادَرَ، قال: "أرسِل سيلُس إلى غُرفتي".

حينَما وصلَ الحارس، كان أتريتِس قد بدَّلَ بثيابِه تُنكًا نظيفًا وأخَذَ يربط السُّيور الجلديَّة في حزامه الثقيل. وما لبِثَ أن قال: "سنذهب إلى المدينة"، مُتناوِلًا خنجرًا ومُقحِمًا إيَّاه في غِمده.

"سأُرسِلُ في طلَب مزيدٍ من الحُرَّاس، سيِّدي".

"لا. فقط أنت. المزيد من الحُرَّاس سيجذبون الانتباه". ودسَّ الخنجر في حزامه ثُمَّ ارتدى ثوبًا أعرابيًّا طويلًا. "المرأةُ رِصفة أخذَت شيئًا أُريدُ استِرجاعَه".

"رِصفة، سيِّدي؟ لقد كانت هُنا منذُ قليل".

فارتفعَ رأسُ أتريتِس بحِدَّة. "هُنا؟"

"عندَ البوَّابة، قبلَ أقلَّ من ساعتَين". وقد أخَذَ اللَّونُ ينزَحُ من وجهه.

"قالَت إنَّها أرادت أن تتكلَّم معك، ولكنِّي طردتُها".

"دونَ أن تقولَ لي؟"

وقفَ سيلُس جامدًا، مَشحوبَ الوجه. "أنتَ طردتَها، سيِّدي. أوامِرُك كانت واضحةً جدًّا".

تفوَّه أتريتِس بكلمة قصيرة واحدة، بذيئةٍ فوقَ الحدِّ. "أينَ هي الآن؟ تكلَّم، يا أحمَق!"

بلَعَ سيلُس رِيقه. "لقد غادَرت، سيِّدي".

"في أيِّ اتِّجاهٍ ذهبَت؟"

فأجابَ مُتلعثِمًا: "لا أعلم، سيِّدي. دارَت لتمضي فأغلقتُ البوَّابة".

أخذَ أتريتِس بخناقه، وقلبُه يدقُّ دقَّةَ قِتال. وقال من بين أسنانه: "إذًا أرى أن تمضيَ وتجدَها، بسُرعة". ثمَّ دفعَهُ إلى وراءُ.

غادرَ سيلُس مُسرِعًا، وصوتُ طَوقهِ يُجَلجِلُ عاليًا إذ عبَرَ الرِّواقَ نازلًا نحوَ الدَّرَج. ومشى أتريتِس بخُطًى حثيثة إلى الشُّرفة، فاستطلعَ الطريق. فلَم تُرَ رِصفة في أيِّ مكان. فاستدار شاتمًا وعاد إلى الداخل. وقد تأجَّجَ نفادُ الصَّبر في أوصاله، فطرَحَ عنه الرِّداء وأطلقَ بصوتٍ عالٍ سَيلًا من الشتائم الجِرمانيَّة.

كان البيتُ هادئًا وساكنًا تمامًا. لا شكَّ أنَّ الخُدَّام هربوا فعلًا إلى مخابئهم.

خرَجَ أتريتِس مُسرِعًا إلى الشُّرفة من جديد. كانت البوَّابة مفتوحة. وكان سيلُس راكِضًا على الطريق نزولًا نحو المدينة. فأطبقَ أتريتِس أسنانه بإحكامٍ إحباطًا.

صدَرَ صوتٌ مكتومٌ من ورائه: "أتريتِس". فدار مُسرِعًا ليرى رِصفة واقفةً داخِلَ بابِه تمامًا، وقد وضعَت إصبعًا على شفتَيها. وإذ دخلَت، أغلقَت الباب بهدوء.

أزعجَته طريقةُ وُثوبِ قلبه لدى مَرآها، فكانَ مُقتضِبًا. "لقد تأخَّرتِ!"

أطلقت ضِحكةَ مُفاجأةٍ ناعمةً إذ تقدَّم نحوها بخُطًى واسعة. "لم يُرحَّب بي تمامًا عند البوَّابة. فاضطُرِرتُ إلى التَّسلُّل".

استاءَ أتريتِس من جَيَشان العواطف القويَّة الذي شعرَ به. لقد كانت مُتورِّدةَ الخدَّين، مُتلألئةَ العينَين. وأسوأُ من ذلك أنَّها بدَت في سلامٍ تامٍّ، في حينَ كان آخِرُ يومَين من حياته حافِلَين بالعذاب. "قال سيلُس إنَّه طردَكِ. كيفَ استطعتِ الدُّخول؟"

بدا كأنَّه تمنَّى لو لم ترجع. "تركَ أحدُهم البوَّابة الخلفيَّة مفتوحة". وإذ عبَرَت الغُرفة، حلَّت مِعلاقَ الشَّال: "أنت؟"

"سهوًا". لم يفطن إلى ذلك لمَّا دخل آتيًا من التِّلال هذا الصباح.

ابتسمَت رافعةً نظرها إليه وهي تضع كالِب على سريره الكبير. "لو لم تُترَك البوَّابة مفتوحةً، لتسلَّقتُ السُّور". وأصدَرَ ابنُه ضِحكة مُقَرقِرة، رافِسًا برِجلَيه، إذ سُرَّ بحَلِّ قِماطِه كما بدا واضحًا.

قال أتريتِس: "كنتُ على وشك الذَّهاب للبحث عنكِ"، واضعًا يدَه على وَركِها ودافعًا إيَّاها جانبًا ليستطيع أن يشيلَ ابنَه.

لاحظَت رِصفة الخَنجر المشكوك في حِزامه. "هل كنتَ تنوي أن تحزَّ عُنقي عندَما تجِدُنا؟"

فقال: "كنتُ أُفكِّر في ذلك". وبَشَّ في وجه كالِب إذ حاول الطِّفلُ أن يمسك شعرَه. ثمَّ داعبَ بأنفهِ رَقَبة الطِّفل الدافئة، شاعرًا بالفرَج لعودة ابنه إلى حوزته.

"في وسعك أن تثِقَ بي، أتريتِس".

فقال، دونَ أن ينظر إليها: "ربَّما. لقد وفَيتِ بوعدكِ. هذه المرَّة". وأرجعَ كالِب إلى السَّرير. ثمَّ سحب الخنجر المُغمَد من حزامه، وأسقطَه بقُربِ ابنه.

قالت رِصفة لاهثةً: "ماذا تفعل؟" وتقدَّمت بسُرعة لإبعاد الخنجر.

فأمسك أتريتِس بمِعصَمها. "اتركيه!"

"لن أترُكه!" وحاولَت أن تُفلِتَ نَخعًا.

أذهلَته هَشاشةُ عظامِها البالغة كما أحسَّها، وحرِصَ على ألَّا يؤذيَها. "ليس قويًّا كفايةً بحيثُ يسحب الخنجر من غِمده".

فقالت: "العِلَّةُ في ما يُمثِّله". وحاولَت أن تصِلَ إلى السِّلاح بيَدها الأُخرى. فأرجعَها أتريتِس نَترًا. فرَنَت إليه، وهدأت. وحدَّقت عَيناه الزَّرقاوان داخلَ عينَيها. فلم تستطِع أن تسبرَ غورَ ما كان يُفكِّر فيه، ولا كانت على يقين بأنَّها أرادت أن تعرِفَ ذلك. وما لبِثَت حَملقَتُه أن تنقَّلَت، مُسبِّبةً جَيَشانًا أسوأ في داخِلها.

ونظَرَ إلى مُنحَنى فمها قائلًا: "إنَّه ابنُ مُحارِب. وسيكون هو نفسُه مُحاربًا ذاتَ يوم".

"لا داعيَ لأنْ يُباشِرَ التَّدرُّب في الشَّهر السابع من عُمره".

التوى فمُه بسُخرية إذ أجرى إصبعه برِقَّة على جِلدِ مِعصَمِها اللَّيِّنِ الناعم. وتركها تنتخع لتُفلِتَ منه. فتحوَّلت عنه حالًا، وأخذت الخنجر من كالِب وحطَّته بحزم على الطاولة بجانب السَّرير. وإذ جُرِّد كالِب من اللُّعبة الجديدة والخلَّابة، انقلبَ على ظهره وبكى مُشاكِسًا. فتناولَت رِصفة بسُرعةٍ الخُشخَيشةَ الخشبيَّة من طيَّةٍ في زُنَّارها وهزهزَتها فوقَه. فألهاهُ الصوتُ هُنَيهةً، ولكنْ لمَّا وضعَت اللُّعبة في يده هزَّها مرَّةً ثمَّ قذَفَها لتتخطَّى رأسَها.

ارتسمَت على وجه أتريتِس ابتِسامةٌ مُتكلِّفة. "إنَّه ابني!"

فقالت رِصفة بجفاف: "هو كذلك بالتأكيد"، مُراقِبةً وجهَ كالِب يحمَرُّ وهو يُولوِل أعلى.

تصلَّبَ فمُ أتريتِس. وأخذ الخَنجَر المُغمَد عن الطَّاولة فحَمَله أمام وجهها. وقال: "إنَّه مُبكِّلُ العُروة. أمَا ترَين؟" ثُمَّ نقَرَ السَّيرَ الجِلديَّ بسبَّابته ورمى الخَنجر على السَّرير بقُربِ كالِب. ولمَّا همَّت بأن تمدَّ يدَها إلى الخَنجر من جديد، أمسكَ يدَها وغزَلَها. "اترُكيهِ مكانَه. لا يمكن أن يؤذيَ نفسه به. والآن، أخبِريني بما عَلِمتِه في اليومَين الأخيرَين".

زفَرَت نفَسَها بحِدَّة، ولكنَّها لم تبذل مزيدًا من الجهد لانتِزاعِ السِّلاح مِن ابنها. فما كان أتريتِس إلَّا ليُعيدَه إليه. "في وُسعِنا أن نُبحِرَ إلى روما صباحَ غَدٍ عندَ الفجر. كلُّ ما علينا فَعْلُه هو أن نصِلَ إلى السَّفينة".

فقال: "جيِّد!" وقد سرَت في دمه دَفقةُ حماسة شديدة. إنَّه على وشكِ الذَّهاب إلى دياره! "أُخمِّنُ أنَّ المال الذي أعطيتُكِ إيَّاه كان كافيًا".

"كافيًا لقَطعِنا جُزءًا من الطَّريق. ولكنْ لا داعيَ لأنْ تقلق. لقد دبَّر يوحنَّا والآخرون باقيَ النَّفقَة".

فتجهَّمَ وتوتَّرَت عضَلةٌ في حنَكِه. "الآخرون؟ أيُّ آخَرين؟" وأظلمَت عَيناه. "كم شخصًا أخبرتِ عن هذه الخُطَط؟"

"هُنالك عشرون..."

"عشرون!"

"...سيُسافِرون معنا". ورفعَت يدَيها حِيالَ تَغَيُّرِ سيمائه. "قبلَ أن تنفجِرَ وتفقدَ كلَّ مَنطِق، اسمَع!" وأخبرَته بِبَلايا الآخرين بأسرعِ ما أمكنَها. ولمَّا فرِغَت من عدِّ مُختَلفِ أفراد المجموعة، جميعًا ما عدا واحِدًا كان من الأفضَلِ أن يبقى غيرَ مذكور إلى أن يتعذَّرَ تجنُّبه، تفوَّهَ أتريتِس بكلمة واحدة في اليونانيَّة جعلَها تنقبض ثُمَّ تتورَّد.

وحدَّقَ إليها قائلًا: ''وعليَّ أنا أن أحرسَ زُمرتَكِ الصغيرة هذه!''

''ما قلتُ ذلك. سنكونُ في عِدادهم''.

''أُفضِّلُ أن أذهب وحدي''.

''إذا كانت هذه رغبتَك، فليُسهِّلِ الله سفَرَك. كالِب وأنا سنبقى هُنا''.

فقدَحَت عَيناه شَرَرًا.

ربَّاه، لقد فعلتُ ذلك مُجدَّدًا! وأغمَضت عينَيها هُنَيهةً، ثُمَّ رفعَت نظرها إليه، وقالت: ''أتريتِس، هل تنبذ مصلحة الآخرين كما نبَذَت روما مصلحتك بكُلِّ سهولة؟ أتَودُّ أن تدعَهُم يُستغَلُّون كما استُغلِلتَ أنت؟ إنَّ احتياجهم إلى مُغادرة أفسُس شديد. إذا بقُوا، فسوفَ ينتهي أمرُهم في ساحة المُحاربين''.

فانتخَعَت عَضَلةٌ في حنَكِه، إلَّا أنَّه لم يقُل شيئًا.

وقالَت رِصفة: ''إنَّ روما صائرةٌ أقلَّ فأقلَّ تسامُحًا حِيالَ الطريق. فالموظَّفون الرسميُّون على جميع المُستَويات يُسيئُون فهمَ إيماننا. وأكثَرُهم يعتقدون أنَّنا ندعو إلى الثَّورة على الإمبراطوريَّة''.

فانتعشَ اهتِمامُ أتريتِس. ''الثَّورة؟''

''تُعلي روما شأنَ إمبراطورها حاسبةً إيَّاه إلهًا، ولكنْ يوجد فقط إلهٌ واحد، يسوعُ المسيح ربُّنا، مَن مات لأجلنا ثمَّ قامَ حيًّا. والمسيح نفسُه قال لنا أن نُعطيَ قيصر ما يخصُّ قيصر. فنحن ندفعُ الضرائب. ونحنُ نُطيع القوانين. إنَّنا نؤدِّي الاحترامَ حيث يجب الاحترامُ، والإكرامَ حيثُ يجب الإكرامُ. ولكنَّنا نُخضِعُ حياتنا وأعمالنا لمجد الرَّبِّ. بسبَبِ هذا، هيَّجَهُم الشَّيطان لكي يُهلِكونا''.

شيءٌ واحدٌ فقط ممَّا قالته رِصفة فهِمَه أتريتِس. فقال من جديد: ''الثَّورة''، مُتذوِّقًا الكَلِمة ومُستَعذِبًا إيَّاها كالانتقام. ''إذًا، إذا انتشرَ هذا الإيمان في أنحاء الإمبراطوريَّة كلِّها، يُمكِن أن يجعل روما تجثو على رُكبتَيها''.

''ليس بالطريقة التي تعنيها''.

''يمكن أن يُضعِفَها''.

''لا، بل يُمكِن أن ينزِعَ السَّيفَ من يدها''.

ضحِكَ أتريتِس ضِحكةً خفيفة بصَوتٍ يبعَثُ قُشَعريرة. ''انزِعي السَّيف من روما، فيأتيَ الموتُ تاليًا''.

ما كانت رِصفة قد رأت قطُّ عينَيه أكثرَ حيويَّةً أوِ اتِّقادًا. "ليس الموت، أتريتِس، بلِ التَّغيير".

فقال بتصميم وطيد: "سَنُسافِر معهم. أيُّ شيءٍ تخشاهُ روما سأحميه أنا".

وبدأت تتكلَّم، إلَّا أنَّ قرعًا سُمِعَ على الباب.

فتقدَّم أتريتِس مُسرِعًا، وسأل: "مَنِ الطارق؟" مُميلًا رأسَه بقُربِ الباب.

"غالُص، سيِّدي. لم يعثُر سيلُس على المرأة بعد".

"هيَ هُنا معي".

قَرقَرَ كالِب بسُرور وهو يمضغُ قِرابَ الخَنجرِ الجلديَّ.

"سيُفرَّجُ عنه كثيرًا، سيِّدي. هل أحضرَتِ ابنكَ معها؟"

توتَّرَت رِصفة حِيالَ السؤال. "أتريتِس، إيَّاكَ أن..."

وفتحَ أتريتِس الباب، فرآها غالُص. "أحضرَته معها. ارجِعِ الآنَ إلى موقعك. سنحتاجُ إليك لاحقًا اللَّيلة".

"أهيَ راجعةٌ إلى المدينة، سيِّدي؟"

"أنا ذاهبٌ معها". وإذ أغلق الباب، دارَ نحوَها. وعبس قليلًا. "ماذا يُقلِقُكِ؟"

هزَّت رأسها. "لَعلِّي صائرةٌ مِثلَك، مُرتابة. ما كنتُ لأُخبِرَ أحدًا في هذا البيت بأنَّ كالِب هُنا أو بأنَّنا مُغادِرانِ اللَّيلة. وأقلَّ الجميع غالُص".

فضاقت عَيناه. "اشتريتُه من اللُّودُس. هو مدينٌ لي بحياته".

عضَّت شفتها ولم تنبِس بكلمة. كانت قد شكَّت في وجود جواسيس داخِلَ أهل البيت. وعلِمَت أنَّ غالُص كان واحدًا منهم. فمرَّةً، وهي واقفة على شُرفة الغُرفة المُجاوِرة، رأته يتكلَّم إلى رجُل من خلال كوَّة البوَّابة. وبعدَ لحظة، مشى ذلك الرَّجُل مُبتعِدًا، وانضمَّ إلى آخر تحت ظِلِّ البُطمة. وبعدما تكلَّما هُنَيهةً، توجَّه أحَدُ الرِّجال سالكًا الطريق إلى أفسُس. وقد أخبرها أتريتِس نفسُه في ما بعد أنَّ الرِّجال عند البُطمة كانوا جواسيسَ لِسَرتِس. آنذاك تساءلت هل كان لسَرتِس جواسيسُ آخرون غير غالُص داخِلَ أهلِ البيت، يُراقِبون وينقلون كلَّ ما قاله أتريتِس وعمِلَه.

والآن، إذ نظرَت إلى وجه أتريتِس البارد، تمنَّت لو لم تقُل أيَّ شيء عن شكوكها. لقد خافت ممَّا يمكن أن يفعله بشأنهم.

فقالت: ''في وسعنا أن نُغادِر دون أن نقول أيَّ شيء بَعد. إنَّه لا يعرف مقصدنا''.

مشى أتريتِس مُتخطِّيًا إيَّاها. وإذ عبَرَ الغُرفة، انتقل إلى الظِّلال قُربَ الشُّرفة ونَظَرَ خارجًا.

ضجَّ كالِب، فقعدَت رِصفة على السَّرير لكي تُلهيَه. وإذ قضمَت برِقَّةٍ أصابعَ قدمَيه مُلاعِبةً، أضحكَتها ضِحكتُه. وأرخى قبضته عن الخَنجر المُغمَد، فحادثَته وهي تسحب الخنجر بحِرص بعيدًا عن مُتناوَله ونظَرِه. يا لها من لُعبة كريهة توضَعُ في يدِ ولَد!

وقف أتريتِس بقُربِ الشُّرفة مُستطلِعًا، دونَ أن يقول شيئًا. فانزعجَت من تركيزه البارد. لماذا تكلَّمَت؟

أطلقَ أتريتِس شتيمةً واستدار.

فقالت: ''ما الأمر؟''

فمشى بخُطًى واسعة عبْرَ الغُرفة، قائلًا: ''كُنتِ على حقٍّ''.

وثَبَ قلبُها خوفًا. **ماذا كلَّفَت كلماتي المتهوِّرة، أبتاه؟** ''مهلًا!'' وقامَت فركضَت إلى الباب، ووقفت أمامه لتسدَّ طريقه. ''إلى أينَ أنت ذاهب؟ ماذا ستفعل؟''

فقال: ''ما ينبغي أن يُفعَل''. ودفعَها جانبًا بخشونة.

''أتريتِس، رجاءً...''

''أطعِمي الطِّفل وجَهِّزيه للسَّفَر''.

''أتريتِس، إيَّاكَ أن...''

وانسفَقَ البابُ فانغلَقَ وراءه.

ولمَّا حاولَت رِصفة أن تفتحه، أغلقَه أتريتِس من جديد وأقفله. وإذ نادَته باسمِه ثانيةً، قال آمرًا: ''اسكُتي!''

هبَطَ أتريتِس الدَّرَج بسُرعة، ومشى بخُطًى واسعة عبْرَ الأتريوم. وسلَكَ الرِّواقَ المؤدِّيَ إلى الجِمنازيوم بدَلًا من ذاك المؤدِّي إلى الباب الأماميّ. سيتولَّى أمرَ غالُص لاحقًا. أمَّا الآن، فعلَيه أن يحُولَ دون وصول الخبر إلى سَرتِس.

أخَذَ فراميا عن الجِدار وهو عابرٌ في الجِمنازيوم. ودخَلَ الحمَّامات بخُطًى حثيثة، فمرَّ بين البِرَك، وخرجَ إلى البوَّابة الخلفيَّة. ولمَّا بات وراء السُّور، جرى بمُحاذاته، ودارَ إلى الجهة الجنوبيَّة، بعيدًا عن الطريق، حيثُ لم يكُن غالُص وسيلُس ليُلاحِظاه.

أدرَكَ بسُرعةٍ الرَّجُلَ الذي كان غالُص قد تكلَّمَ إليه بقُرب البوَّابة. كان الرَّجُل وحدَه على الطريق وماشيًا على عَجَل، حاملًا معلوماتهِ إلى سَرتِس. فعرَفه أتريتِس إذْ كان قد رآهُ في اللُّودُس.

نادى: "غايُس!" فدارَ الرجُل بحدَّة. ولمَّا رأى أتريتِس، جمَدَ لحظةً قبلما باشَرَ الرَّكض. وقد أثبت تردُّدُه أنَّه مُميت، إذ أصابَهُ الفراميا قبل إكمالِ خطوته، وجعلَه يهوي على التُّرابِ أمامَه.

أمسك أتريتِس بالرجُل المَيْت من ذراعه، وجرَّه بعيدًا عن الطريق، وتركَهُ وراء بعضِ الأشجار.

وإذ سحَبَ أتريتِس الفراميا من الجُثَّة، رفعَ نظرَه نحوَ الشَّمس، وقدَّرَ الوقتَ الباقيَ قبل الغُروب. ساعتان أُخرَيان. فالآن، وقد أُجهِضَت رسالةُ غالُص إلى سَرتِس، بات في وسع أتريتِس ورِصفة أن ينتظِرَا حتَّى حلول الظَّلام.

لمَّا فتحَ أتريتِس البابَ ودخَلَ مَهجعَه مُجدَّدًا، رأى رِصفة واقفةً في الظِّلال بقُرب الشُّرفة، تنظُرُ إلى الخارج. فاستدارَت بحِدَّة، ووجهُها مشحوبٌ ومُبقَّعٌ من البُكاء.

قالت رِصفة: "آه، شُكرًا لله". وقد غمرَها الاطمئنان لدى رؤيته. كان غالُص ما يزال واقفًا عندَ البوَّابة. "خِفتُ جدًّا أنَّكَ ستَعمِدُ إلى قتله. صلَّيتُ طالبةً ألَّا تجلب على نفسك خطيئةً بسبَبِ ما صدَرَ منِّي..." واكتفى أتريتِس بالوقوف هُناك، مُحدِّقًا إلَيها، خاليًا وجهُه من العاطِفة وعَيناهُ من الحيويَّة. فتبخَّرَ اطمئنانها. وقالَت بارتِعاد: "أينَ ذهبتَ؟ ماذا جرى؟"

تحوَّلَ عنها. "سنُغادِر عندما تغيب الشمس". والتقطَ الخَنجَر المُغمَدَ عنِ السَّرير ودسَّه في حِزامه. ثمَّ دارَ نحوَها مُجدَّدًا، وعَيناه كالزُّجاج الأزرق، بارِدتان وجامِدتان. "لا تُحاوِلْ أن تُعلِمَ غالُص. تذكَّرْ أنَّ حياة كالِب على المِحَكّ".

أطعمَت رِصفة كالِب، مُفعَمةً بالتَّوتُّر، وغسلَته، وقمَّطته من جديد لأجل الرِّحلة إلى المدينة. ولم ينبِس أتريتِس بكلمة طَوالَ الساعتَين التاليَتين. وما كانت رِصفة قطُّ قد عرَفَت رجُلًا ساكتًا وساكنًا جدًّا نظيرَه. تُرى، فيمَ كان يُفكِّر؟

قال آمِرًا: "ابقَي هُنا!" وخرَجَ إلى الرِّواق، مُغلِقًا الباب وراءه. وسمِعَته يُنادي لاغُس، ثمَّ بعدَ قليلٍ أصدر سِلسلةً من الأوامر المُلِحَّة. أراد أن تُعَدَّ وجبةٌ سخيَّة. وأراد من پيليا أن تستحمَّ وتتعطَّر. "قُل لها إنَّها سترقُص لي".

ظنَّت رِصفة أنَّه فقَدَ عقله.

"كم من النقود الذَّهبيَّة في الدَّارة؟"

فأعلمَه لاغُس.

"أحضِرها إليَّ. أُريد أن أعدَّها بنفسي".

قال لاغُس: "نعم، سيِّدي". وقد اعتادَ طِباعَ أتريتِس السيِّئة الغريبة. وانصرَف ثمَّ عاد في غضونِ بضعِ دقائق.

سمِعَت رِصفة أتريتِس يقول: "تُركت البوَّابةُ الخلفيَّة مفتوحةً صباحَ اليوم. قُل لسيلُس أن يقِفَ للحراسة هُناك إلى أن أقول له خِلافَ ذلك". لقد أُعطيَ كلُّ خادم في البيت مَهمَّةً يقوم بها. وقال أتريتِس: "الذَّهَبَ أوَّلًا. اذهبْ!" فاستطاعَت رِصفة أن تسمع صندَلَ لاغُس يصطفِقُ بعَجَلة في الرِّواق المُبَلط بالرُّخام.

فتَحَ أتريتِس الباب وعبَرَ الغُرفة مُسرِعًا ليأخُذَ عباءةً بسيطة. فارتداها ثُمَّ ربَطَ صُرَّةَ النُّقود الذَّهبيَّة داخل الحِزام الجلديِّ الثَّقيل المُرصَّع بالنُّحاس. عندئذٍ أدركَت رِصفة ما قد فعل. لقد كلَّف الخُدَّام مهامَّ يؤدُّونها، من شأنها أن تُبقِيَهم بعيدين عن الرِّواق الأعلى والأتريوم. وشالَت رِصفة كالِب مُرتجِفةً، فربَطته بإحكامٍ داخِلَ شالِها.

قال: "تعالَي!" فلحِقَت به.

تقدَّمها أتريتِس بحَذَر على الدَّرَج. ولم يُلاحِظ أحدٌ رحيلَهما حتَّى غادرا البيت وعبَرَا الفِناءَ الأجرد.

برَزَ غالُص من الظِّلال ووقفَ ينتظِرُهما.

خبَّطَ قلبُها بشدَّة إذ رَنَت إلى وجه أتريتِس البارد. "أتريتِس..."

فقال حالًا بهَمسٍ لا هوادةَ فيه. "أقفِلي فمَكِ. كلِمةً واحِدةً تخرج مِنكِ، وقَسَمًا بجميع الآلِهة إنِّي سوف..." وتركَ التهديد مُعلَّقًا غيرَ مُكمَّل في الهواء المُظلِم.

تحرَّكَ غالُص من موقِعه بقُرب البوَّابة الأماميَّة. "هل أستدعي سيلُس والآخرين، سيِّدي؟"

"لا، أنتَ تَفي بالغرَض". وتخطَّاه أتريتِس فدفع البوَّابة بنفسه لتَنفتح. وأومأ بنخعةٍ من رأسه لغالُص أن يسبقَهما. ورفعَت رِصفة نظرَها، فتشبَّث أتريتِس بذراعها وشدَّ على نحوٍ مؤلم. "عندَما آمُرُكِ بالتقدُّم، تقدَّمي!"

"أتريتِس، حُبًّا بالله..."

دفَعها دفعةً شديدة إلى خارجِ البوَّابة.

ساروا على الطريق نزولًا مُجاوزين شجرةَ البُطم. فلم يكُن أحدٌ هُناك. وتابعوا السَّير، دائرينَ بمُنعطف الطريق حيثُ لا يُشاهَدون من الدَّارة. إذ ذاك أمَرَ أتريتِس غالُص: "قِف هُنا". وأضاف: "تقدَّمي، رِصفة".

"أتريتِس".

"اذهبي!"

بدا غالُص قلِقًا. "هل أُرافِقُها، سيِّدي؟"

"لا". وأمسكها أتريتِس بذراعها، فبَرَمَها نَخعًا لتُواجِهَ الطَّريق، ودفعَها دفعةً شديدة. وراقبها تمشي مُبتعِدةً. وقد توقَّفَت مرَّة، والتفتَت إلى ورائها. إنَّها علِمَت ما سيفعلُه. وخيرٌ لها ألَّا ترى الفِعلةَ تُفعَل. فشتمَها. "افعَلي ما أمرتُكِ به!" فأطرقَت رأسَها، وتشبَّثَت بكالِب على صدرها، وعجَّلَت خَطوَها.

"ظَنَنتُ أنَّك كنتَ ذاهبًا معها، سيِّدي".

انتظرَ أتريتِس حتَّى دارت حول المُنعطَف قبلَما استدار ليُجيب. "أذلكَ هو ما أخبرتَ غايُس به؟"

فتغيَّرت عَينا غالص. "سيِّدي، أُقسِمُ إنِّي..."

ضرَبَه أتريتِس في حنجرته، وسحَقَ قصَبَته الهوائيَّة. "غايُس مَيْت". فخرَّ غالُص على رُكبتَيه، مُختنِقًا ولاهثًا. فنزعَ أتريتِس خُوذةَ الحارس وتشبَّث بشَعره. وإذ جذَبَ رأسَ غالُص إلى الوراء، حَملقَ في عينَي الرَّجُل المروَّعتَين. "الحقْ صديقَك إلى الجحيم". وأقحمَ عقِبَ يده داخِلَ أنف غالُص، مُقتلِعًا الغُضروفَ ودافِعًا إيَّاه كرُمحٍ داخِلَ دِماغ الرَّجُل. فوقَعَ غالُص على قفاه، واختلجَ في سَكَرات الموت، ثُمَّ همَد.

ورفعَ أتريتِس نظرَه، فرأى رِصفة واقفةً بجُمود في مُنعطَف الطريق. وإذ داسَ على جُثَّة غالُص، أدارت وجَهها عنه وركضَت.

II

أدركَ أتريتِس رِصفة بسهولة. ولمَّا أمسكَها بذِراعها، صرخَت وحاولت أن تُفلِتَ منه. وصاحَت: "آه، يا الله! يا الله! يا الله!"

فتَلَها نَترًا وأمسك بيدَيها المُخمَّشتَين. "قلتُ لكِ أن تسبقيني".

"لقد قتلتَه. أنتَ..."

سدَّ أتريتِس فمَها بيده بإحكام. فكافحَت بضَراوة، مُوقِظةً كالِب في صُرَّته المعقودة بأمان على صدرها. كانت أحصِنةٌ آتيةً، ولم يكُن لدى أتريتِس وقتٌ للمُلايَنة. فضرَبَها. وإذِ ارتخَت، شالَها على ذِراعَيه، ومشى بخُطًى حثيثة إلى قلب الظِّلال بعيدًا جيِّدًا عن الطرق. فقَدَت صوابها قليلًا فحسْب، وبعدَ لُحَيظات بدأت تُكافحُ من جديد. فهَسَّ في أُذنها: "أقفِلي فمَكِ، إلَّا إذا أردتِ أن نُقتلَ كلُّنا". فلم تُصدِر أيَّ صوتٍ بعدَ ذلك، وهدأ كالِب معها، إلَّا أنَّ أتريتِس استطاعَ أن يُحِسَّها مُرتجِفةً.

عبَرَت مجموعة من الجنود الرُّومان على خُيولهم. وشتَمَ أتريتِس في سِرِّه إذ شاهدَهم. لقد نسِيَ أنَّ الرُّومان كانوا يخفِرون الطريق. ولا بدَّ أن يعثروا على جُثَّة غالُص في غضونِ بضعِ دقائق.

سحَبَ رِصفة فأقامها قائلًا: "يجب أن نذهب الآن". كانت ترتجف بشِدَّة، ولكنَّها لم تُقاوِمه. وقد بقيَ مُمسِكًا بذراعها، مُسنِدًا إيَّاها وفي الوقت نفسه مُقيِّدًا إيَّاها إلى جَنبه، فيما مشى بخُطًى واسعة على الطريق. لقد أراد أن يُبقيَ بينه وبين الجنود أطولَ مسافة مُمكِنة.

تعثَّرَت رِصفة، فأدركَ أنَّ سُرعةَ مَشيهِ أصعَبُ من أن تُجارِيَها. فبالكادِّ ضاهَت اثنتانِ من خطواتها واحدةً من خطواته.

وإذ صرَّ بأسنانه، أبطأ كِفايةً ليدَعَها تلتقِطُ أنفاسَها.

قالَت لاهثةً: "إنَّهم راجعون". وقد صدَرَ حِسُّ أحصِنة من ورائهما.

"إذا توقَّفوا، فلا تقولي شيئًا. أنا سأتولَّى الكلام".

"رجاءً، لا تقتُلْ أيًّا منهم..."

انغرزَت أصابِعُه في ذراعها. "ماذا كُنتِ تُريدين منِّي أن أفعل؟ أدَعَهُ يُعلِمُ سَرتِس

بمُغادرتي أفسُس؟ ماذا تظُنّين أنّه كان سيحدُثُ عندَئذٍ؟ لقد قتلتُ رجُلَين الليلة. كم واحِدًا بعدُ تظنّين أنّي سأُضطرُّ لأنْ أقتُلَ كي أكون حُرًّا من جديد؟" ورفعَت رأسها فرأت بَريقَ الدَّمع المُتألّق. "أبقي رأسَكِ مُنخفِضًا بحيثُ لا يرَون وجهَكِ".

بدأ يمشي من جديد، مُرغِمًا نفسَه على التِزامِ سُرعةِ مَشيٍ أكثرَ إراحةً هذه المرَّة. وخفَقَ قلبُه أشدَّ وأسرَع إذ سمعَ أحصِنةً مُقبِلةً وراءه. فمَسَّ قبضةَ خَنجَرِه، وسُرَّ بكونه في مُتناوَل يده، ثُمَّ التفتَ قليلًا، مُبدِيًا القدْرَ الوافيَ من الاحترام والاستطلاع.

ولمَّا باتوا أقرب، حادَ أتريتِس إلى جانب الطريق وانتظَر. كانوا اثنَين فقط. أمَّا الآخرون فلم يكونوا في أيِّ مكانٍ ضِمنَ نطاق البَصَر.

"أتريتِس، رجاءً، لا..." ونظَرَ إليها فجفَّ حَلقُها.

أقبلَ نحوهما أحَدُ الجُنديَّين قائلًا: "الوقتُ مُتأخِّر للوجود على الطريق".

فرفعَ أتريتِس نظرَه إليه. "إنّنا نمشي منذُ الصباح. كنّا نرجو أن نبلغ مقصِدَنا قبلَ حُلول الظَّلام، ولكن..."

بدأ كالِب يبكي بُكاءً خفيفًا.

فخطا حِصانُ الجُنديِّ خُطوةً جانبيَّة ووثبَ بعصَبيَّة. وقال الجُنديُّ: "السَّفرُ مع طِفل مَيَّالٌ إلى تَبطئةِ المُسافِر. هل واجهتُما أيَّ إزعاج في طريقكما؟"

"لم نتعرَّض لأيِّ إزعاج، ولكنْ كان على الطريق رجُلٌ مطروحٌ مَيْتًا قبلَ نصفِ مِيلٍ تقريبًا".

"نعم، نعلَم".

"لقد خضَّ المنظرُ زوجتي".

تقدَّم الجنديُّ أقرَب، وقال مُتأمِّلًا إيَّاه: "هل رأيتَ أيَّ شخصٍ مُريب؟"

"لم أتريَّثْ طويلًا لأُفتِّشَ في الجِوار. أستميحُكَ عُذرًا، ولكنْ شغلَني فِكرٌ واحد: أن أُوصِلَ زوجتي وابني إلى حيثُ الأمان".

"سنُرافِقكُما إلى أبواب المدينة".

تردَّدَ أتريتِس لحظةً. ثُمَّ قال بلهجةٍ لم تُفصِح عن أيِّ جزء من مشاعره: "أنا على يقين بأنَّ زوجتي ستُقدِّر المؤازرة". ونظر إليها فصدمَتها المُلاطَفة الباردة البادية في سيمائه.

امتطى الجُنديَّان حِصانَيهما إلى كِلا جانِبَي أتريتِس ورِصفة. فتساءلت عنِ الأقرَب إليها

هل استطاع أن يُلاحِظ كيف كانت ترتجِف. وزلَّقَ أتريتِس يدَه نُزولًا فأمسكَ يدَها. وسأل الجنديُّ القريبُ إلى أتريتِس مِن أين جاءا، فسمَّى أتريتِس قريةً بعيدةً نوعًا ما عن أفسُس. "لقد جئنا لنؤدِّي الاحترامَ والإكرامَ للإلاهةِ أرطميس".

ولمَّا لاحَت أبوابُ المدينة أمامهم، قال الجنديُّ: "ستكونان في أمانٍ وافٍ من هُنا".

فانحنى أتريتِس انحِناءةً عميقة بسُخرية خفِيَت على الحارِسَين، قائلًا: "لكُما تشكُّراتُنا".

وأدار الجُنديَّان حِصانَيهما مُتوجِّهَين نحوَ الشَّرق من جديد. فقال أتريتِس: "حُثالةٌ رومانيَّة!" وبصَقَ على الأرض.

وإذِ استدارَ مُسرِعًا، اقتادَ رِصفة عبْرَ أزِقَّة المدينة المُظلِمة. ولم تُسائلْه، لكونها مُثقَلةً فوق الحدِّ بأفكارها المُعذِّبة. كان هُنالك طريقٌ أسرَعُ إلى الميناء، ولكنَّها لم تكُن مُستعجِلةً لرُكوب سفينةٍ مع أتريتِس. هل كانت مشيئة الله حقًّا أن تكونَ مع هذا الرَّجُل؟

لمَّا وصلا إلى الأرصفة أخيرًا، كانت مُنهَكةً بَدَنيًّا. فسأل أتريتِس: "أيُّ سفينة؟" ناطِقًا بأوَّل كلِمتَين جرى التَّفوُّهُ بهما بينَهُما طَوالَ ساعات.

"واحدةٌ على مُقدَّمها پوسيدون".

سارا على الأرصِفة يبحثان عنها في خِضَمِّ جلَبةِ مُحَمِّلي السُّفن ومُفرِغيها.

قال أتريتِس: "هُناك!" دالًّا إيَّاها على السَّفينة. وكانت تُشبِهُ كثيرًا تلكَ التي أوصلَته إلى أفسُس.

وقالت رِصفة: "ذاك يوحنَّا!" شاعرةً باطمئنان شديد جدًّا حتَّى همَّت بأن تركُضَ إلى الرَّسول. فأمسكَ أتريتِس بذراعها وكفَّها عن القيام بذلك.

"لا تقولي شيئًا عمَّا جرى. أخرِجي الأمرَ من فِكرِكِ".

"أُخرِجُهُ من فِكري؟ كيف؟"

"قلتُ لكِ أن تُواصِلي السَّير. هل تذكُرين؟ ما قصدتُ لكِ أن تُشاهِدي".

"أكان من شأنِ عدم المُشاهَدة أن يجعل الأمرَ صائبًا تمامًا؟" وحاولَت أن تُفلِتَ من قبضته، إلَّا أنَّ أصابِعَه اشتدَّت. "أرخِني".

"ليس قبلَ أن تحلِفي لي".

"لا أحلِفُ أبدًا لأحد". وأشاحَت وجهَها، محفورةً في ذهنِها باستِمرارٍ صورةُ غالُص

مطروحًا على الطريق. "ليتَني لم أنظُر إلى الوراء". ورفعَت نظرَها إليه من جديد، غاضِبةً وحزينة: "ليتَني لم أرَ ما أنتَ قادرٌ على فَعلِه بكائنٍ بشريٍّ آخر".

فقال من بين أسنانه: "ما رأيتِ إلَّا جُزءًا من ذلك فقط".

وأحسَّت بَردًا. في دقيقة، كان غالُص واقفًا على الطريق حيًّا؛ وفي التالية، باتَ مطروحًا على التُّرابِ مَيْتًا. لم يحصُل كِفاحٌ كثير. لا صُراخ. لا لَعْن. لا اتِّهامات أو دِفاعات. "ما رأيتُ في حياتي قطُّ أمرًا كهذا يبعَث القُشَعريرة ويُجمِّدُ الدَّمَ في العروق، حتَّى عندما كنتُ أعيشُ في الشَّوارع. ليس فيكَ ذرَّةٌ من الرَّحمة!"

"لا رحمة؟" وخفَقَ شيءٌ ما في عينَيه، ثُمَّ ماتتا من جديد. "كان في وسعي أن أكسِرَ كلَّ عظمة في جِسمه ثُمَّ أُرسِلَه إلى الجحيم، حيثُ مَقرُّه. فما جرى هو أنِّي قتلتُه بأسرعِ طريقةٍ أعرِفُها". لَكمتان قصيرتان، خاطِفتان! "لم يكَد يشعُر بأيِّ شيء".

"والآنَ هو ضائع".

"ضائع؟ لقد عُثِرَ عليه. يا امرأة، لقدِ استحقَّ أن يموت".

"ضائعٌ مدى الأبديَّة، هالِك".

"مِثلَ ألفِ سِواه. مثلَكِ ومِثلَ كالِب ومثلي، لو بقيَ حيًّا".

قالت: "ليس مِثلَه. أنت لا تَعرِفُ أدنى معرفة ما أتكلَّم عنه. حتَّى إنَّك لا تعرف ما فعلتَه!"

تغضَّنَ وجهُه اشمِئزازًا. "تبكينَ عليه؟"

"كانَ غيرَ مُخلَّص، والآن هو مَيْت. نعم، أبكي عليه. لقد قتلتَه بغيرِ أن توفِّرَ له أدنى فُرصة".

"فُرصَةٌ لِيفعلَ ماذا؟ ليخونَني من جديد؟ أنا ما قتلتُه. لقد أعدَمتُه. لو تركتُه يعيش، لَخسِرتُ حُرِّيَّتي وحياتي، فضلًا عن حياةِ ابني وحرِّيَّته. أكانَ ينبغي لِي أن أدعَهُ يعيش؟ فلتَبلَ عِظامُه!"

"كان في وسعنا أن نُغادر دونَ عِلمه".

"سبَقَ أن بلَّغَ غايُسَ المعلومات. كم تظُنِّين أنَّه كان من شأننا أن نبعد لو وصلَت تلك المعلومات إلى سَرتِس؟ أينَ تظنِّين المكان الذي سيكون فيه كالِب الآن؟"

نزَحَ الدَّمُ من وجهِها إذ أدركَت إلى أينَ مضى باكرًا في المساء وماذا فعل. لا رجُل واحد، بلِ اثنان باتا مَيْتَين لأنَّها تكلَّمَت. وغطَّت وجهَها قائلةً: "يا الله، سامِحني. اللَّهُمَّ،

سامحني. كان ينبغي ألّا أُخبِرَك بأيِّ شيء".

فأمسك أتريتِس بمِعصَميها غاضِبًا وسحَبَ يدَيها إلى تحتُ. "يُسامِحُكِ من أجلِ ماذا؟ من أجل حِماية ابني من الأسْر؟ من أجل حمايتي أنا؟"

"من أجل إعطائي إيَّاك سببًا لتقتُلَ من جديد!"

فقال بهَمسٍ خَشِن: "اخفضي صوتَكِ!" مُحدِّقًا إلى رجُلٍ نظَرَ إليهما. ثُمَّ جذَبَها إلى ما وراءَ بعضِ الصناديق. "نبَّهتِني إلى شيءٍ كنتُ أكثرَ غباوةً من أن أراه بنفسي. أبقيتِنا جميعًا خارجَ ساحة المُحاربين".

فقالت بصَوتٍ تخنقُه الدموع: "وذلكَ يجعلُ كلَّ شيءٍ صائبًا تمامًا؟ رجُلانِ قد ماتا بسبَبي. كان أفضلَ لو أبقيتُ شُكوكي لنفسي".

"أين تعتقدين أنَّ الصبيَّ سيكون الآنَ لو بقيتِ ساكتةً؟"

"حيثُ هو الآن، دونَ دَمٍ على يدَي أبيه!"

سبَّ أتريتِس مُحبَطًا. "يا امرأة، أنتِ غبيَّة. لا تعرِفينَ شيئًا عن أيِّ شيء. كُنَّا نحنُ الثلاثةَ سنكون في اللُّودُس".

"نحنُ كِلانا حُرَّان..."

"أتظُنّين أنَّ سَرتِس تعنيه حقوقُكِ أو حقوقي؟ له أصدِقاءُ في مناصب عُليا، أصدقاء لهم نفوذٌ سياسيٌّ أكثر من رسولكِ وأتباعه مجموعين معًا. كلمة واحدة في الأُذن الصحيحة، فتنتهي حريَّتُكِ هكذا"، وفرقَعَ بإصبعَيه أمامَ وجهِها. "هل تعلمين ماذا يجري للنِّساء العاملات في اللُّودُس؟ إنَّهُنَّ يُدَرنَ على أيِّ مُصارعٍ استحقَّ مُكافأةً. ولرُبَّما كنتُ قد حصلتُ على دَوري معَكِ، أنا أيضًا، في نهاية المطاف".

حاولَت أن تُفلِتَ منه.

نخَعَها أتريتِس رادًّا إيَّاها، قائلًا: "ذلك يصدمُكِ، أليس كذلك؟ ألم تعلمي أنَّ ذلك هو ما يناله المُقاتِل عندما يؤدّي لأجل سيِّده؟" والتوى فمُه بابتسامةٍ ساخرة. "امرأةٌ يُواقِعُها فيما الحُرَّاس يُراقِبون من خلال القضبان الحديديَّة. توقُّعٌ غيرُ مُسِرٍّ كثيرًا لامرأةٍ حسَّاسةٍ نظيرك، أهوَ مُسِرٌّ؟ ولكنْ عندئذٍ لا يُخيَّلْ إليكِ دقيقةً أنَّ سَرتِس سيعنيه الأمر".

حاولَت يائسةً أن تصُدَّ كلماتِه والاحتمالاتِ المُروِّعةَ التي أثارَتها في ذهنها. "حتَّى لو كان كلُّ ما قلتَه صحيحًا، فهو لا يجعل ما فعلتَه صائبًا".

فشُحِبَ وجهُه غضبًا. "قتلتُ رجُلَين اللَّيلة. لسَبَبٍ وجيه وبلا ندامة. كم واحدًا بعدُ كنتُ سأُضطرُّ لأنْ أقتُلَ لاسترجاع ابني لو ذهبتُ إلى ساحة المُحارِبين؟ ولو قُتِلتُ أنا، فأيَّ نفع قد يجِدُ سَرتِس لولَد إذ ذاك؟ كان يمكن أن ينتهيَ الأمرُ بكالِب في واحدٍ من تلك الأكشاك تحتَ مناصِبِ ساحة المُحارِبين، أم عليَّ أن أشرح لكِ حقيقةَ تلك أيضًا؟"

فقالَت مُوهَنةً: "لا!" غير قادرة أن تُطيقَ سَماعَ المزيد.

"إذًا وفِّري شفقَتَكِ للذين يستحقُّونها". وأفلتَها بازدِراء.

"كان من شأن الله أن يُرينا سبيلًا، أتريتِس. إنِّي أعلَم أنَّ ذلك كان من شأنه".

"ولماذا يُريني إلهُكِ أيَّ شيء؟"

"لأنَّه يحبُّك، تمامًا كما أحبَّ غالُص والآخَرَ اللَّذَين قتلتَهما اللَّيلة".

فأمسكَ بذقنها. "قولي لي، يا امرأة. هل ينزف قلبُكِ بمِثل هذا المِقدار عندما تُفكِّرين في الرَّجُل الذي خانَ مسيحَكِ؟"

جرَحَتها كَلِماتُه، باثَّةً عدوى ارتِياب. "إنِّي أُشارِكُك في المَلامة على ما فعلتَه".

فأفلتَها فجأةً. وقال ساخِرًا: "إذًا كوني في حِلٍّ من مسؤوليَّتِكِ. دَمُ غايُس وغالُص على رأسي، لا على رأسكِ، على غِرارِ دِماء رِجالٍ أفضَل قتلتُهم قبلَهُما". ثُمَّ أدارها نحو الرَّصيف مُجدَّدًا.

وبينَما كانا يُشقَّان طريقهما على الرصيف في خِضَمِّ جلَبة مُحمِّلي السُّفُن ومُفرِغيها، أحسَّت رِصفة أنَّ أتريتِس أراد أن يتباطأ بدلًا من أن يستعجِل. فنظرَت إليه ورأت حَملقتَهُ مُركَّزةً على الرَّسول.

صلَّت مُتضايقةً: **إلهي، ماذا أقولُ لهذا الرَّجُل لأجعلَه يفهم؟ أبَتاه، أخرِجه من الهُوَّة، وإلَّا فإنِّي أعلم أنَّه سيشدُّ بي إلى أعماقها معه!**

قال أتريتِس بصَرامة: "لا تقولي شيئًا".

"لا شيءَ يُفعَلُ سِرًّا".

فقال بمرارة: "كما تشائين. أخبِريه وانظُري هل يهمُّ ذلك".

رفعَت رِصفة نظرها إليه وفكَّرت أنَّه بدا مُنكشِفًا على نحوٍ غريب. "كنتُ أتكلَّم عن الرَّبِّ، أتريتِس، لا عن يوحنَّا".

أقبلَ يوحنَّا لمُلاقاتهما. فأمسَكَ يدَيها وقبَّلَ جبينَها. "لقد ركِبَ الآخرون متنَ السَّفينة

قبلَكُما. لدَيهم فِراشان لكُما، فضلًا عن مؤونة الرِّحلة. هل واجهتُما بَلاءً؟"

فقال أتريتِس كاذبًا: "لا".

وأعطاهُما يوحنَّا ورقَتَي مُرور.

تشبَّثت رِصفة بالمُستنَد الذي يُبيِّن أنَّ حقَّ السَّفَر اشتُرِيَ، وكافحَتِ الدُّموع. لم تكُن قطُّ قدِ ابتعَدَت عن أفسُس، وها هي الآن مُسافِرة إلى رُوما، ثُمَّ إلى جِرمانيا، معَ قاتِل!

مسَّ يوحنَّا خدَّها برِفق. فأغمضَت عينَيها، ضاغِطةً بيَدِها على يده. ما كانت لِتَراهُ ثانيةً، واحتمالاتُ المُستقبل بدَت قاتمةً ومُخيفةً الآنَ.

قال يوحنَّا بلُطف: "ليَكُنِ الرَّبُّ معكِ حيثُما ذهبتِ، يا محبوبة".

وقال أتريتِس مادًّا يدَيه: "أعطيني الصَّبيَّ".

أرادت رِصفة أن تحملَ كالِب بقُربِ قلبِها، ولكنَّها تخلَّت عن الطِّفل النائم لِتُريحَ بالَ أتريتِس.

وإذ باتَ الطِّفل على ذِراعَي أتريتِس، نظَرَ إلى الرَّسول وقال بصَوتٍ أجَشَّ: "تَشكُّراتي. ما توقَّعتُ قطُّ أن أتلقَّى المُساعدة منك".

فابتسمَ يوحنَّا. "الرَّبُّ يستخدِم وسائل غير مُتوقَّعة لإنقاذِ شعبِه".

"ولكنَّني لستُ واحدًا من شعبه"، وخفقَت حَملقتُه إلى رِصفة، ثُمَّ خطا إلى المعبَر الخشَبيِّ وصعِدَ، تاركًا إيَّاهُما واقِفَين على الرَّصيف.

قالت رِصفة: "أعتقِد أنَّه يرجو أن أبقى هُنا. رُبَّما كان عليَّ البقاء".

"لقد أخذ كالِب ليضمَن ألَّا تبقَي".

رفعَت رِصفة نظرَها إلى الرَّسول، معبِّرةً عن كلِّ مَخاوِفها وهواجِسها. "آهِ يوحنَّا، لا أدري أهذه المُغامَرة مشيئةُ الله أم إرادةُ أتريتِس. ما عرَفتُ قطُّ رجُلًا نفسُه أكثرُ ظلامًا". وكاد يزلُّ لِسانُها فتُفشي ما قد فعلَه أتريتِس، غيرَ أنَّها لاذت بالصَّمت. فلم يكُن من حقِّها أن تُعلِنَ سِرَّ شخصٍ آخر. "دمُهما على رأسي...على غِرار رِجالٍ أفضلَ منهما قتلتُهم قبلَهما". لقد كانت كلماتُه الغاضِبة مُفعَمة بالكَرْب.

صرَخَ قلبُها بصلاةٍ يائسة صامتة، إذ أدركَت أنَّها مَوجوعةٌ من أجله أكثرَ منها من أجل الرَّجُلَين اللَّذَين قتلَهُما. أكانت بالفِعل غارِقةً في حمأة؟ أوَيكونُ انجِذابُها المُتزايد إلى أتريتِس سبَبَ تَبدُّدِ إيمانِها بالمسيح؟

وقال يوحنَّا بلُطف: "اثبُتي، يا محبوبة. نحنُ أنفسُنا كُنَّا مخدوعينَ في ما مضى. لم نكُن قطُّ مختلِفين عمَّا هو عليه الآن. لقد عشنا في العِصيان، ممقوتين ومُبغِضين. فاثبُتي في الحقِّ. إنَّ المسيح افتدانا مُحرِّرًا إيَّانا من كلِّ فعلٍ أثيم وطهَّرَنا لأجل قصدهِ الصالح".

"ولكنَّ أتريتِس..."

"هل من شيءٍ أصعَبُ من أن يعمله الله؟"

فقالت: "لا"، لأنَّها علِمَت أنَّه كان الجوابَ المُتوقَّع.

"دعي نورَ المسيح يتألَّق فيكِ بحيثُ يرى أتريتِس أعمالك الحسَنة ويُمجِّدُ الرَّبَّ يسوعَ المسيح. في كُلِّ شيء، أظهِري نفسَكِ نموذجًا له. للطَّاهرين، يا رِصفة، جميعُ الأشياء طاهرة. كما أنَّكِ أنتِ طاهِرةٌ في المسيح. تكلَّمي إليه عن هذه الأمور. تكلَّمي عن الأمور التي ستَبني طريقه وتُنيرُ للخروج من الظُّلمة".

"سأُحاول".

"لا تُحاولي، بلِ افعلي ذلك". وابتسمَ مُفعَمًا بالثِّقة. "أحِبِّيه كما أحبَّكِ المسيحُ، يا رِصفة. احملي أثقال أتريتِس. إنَّ الربَّ سيُكمِّل العمَلَ الصالح الذي ابتدأه فيكِ". وإذ رأى دموعها، احتضنَ وجهَها بكفَّيه. "اعلَمي أنَّ حضورَ الرُّوح القُدس ثابتٌ فيكِ كلَّ حين. فاخضعي له. إنَّ الله سيُبيِّن لكِ الطريق". ثُمَّ قبَّلَ جبينَها. "وأنا سأُصلِّي لأجلكِ".

فابتسمَت بارتعاد. "سوف أحتاجُ إلى كلِّ صلاةٍ تتفوَّه بها، وأكونُ شاكرةً من أجلها". ثُمَّ عانقَته، ملتصِقةً به هُنيهَةً قبلما أرخَته. وإذ أحرَجَها إيمانُها الضَّعيف، أمسكت يدَهُ وباسَتها قبلَما دارَت مُبتعِدةً.

لمَّا تسلَّقَت المِعبَرَ الخشَبيَّ، رأت أتريتِس فوقها. كم مضى على وقوفه هُناك مُنتظِرًا؟ وبينما هو حامِلٌ كالِب على عَقفةِ إحدى ذراعَيه، مدَّ لها يدَه. فأمسكَت بها مُتردِّدةً. وأطبقَت أصابِعُه بإحكامٍ على أصابعها إذ سانَدَها على هبوط الدَّرج إلى ظهر السَّفينة. وقد كانت سيماؤه مُقنَّعة، كما كان فمُه مُطبَقًا تمامًا.

قالت: "لم أقُل أيَّ شيء. ما جرى هو بينك وبيني وبين الله". وفوجئتْ إذ أحسَّت قبضتَه ترتخي، كما لو أنَّ كلماتِها قد أراحت أفكارَه المُضطرِبة. كذلك انبسطت عضَلاتُ وجههِ أيضًا، جاعلةً إيَّاه يبدو أقلَّ حذَرًا ونأيًا.

وقال: "أتُريدين أن تسترجِعيه؟" حائدًا بحيثُ تتمكَّن من استعادة الطِّفل عن ذراعَيه، إن أرادت فَعْلَ ذلك.

فأدركَت تقدِمةَ السَّلام، وعرضَت تقدِمَتها الخاصَّة. "إنَّه يبدو مُطمئنًّا على ذِراعَي والِده".

نظرَ أتريتِس داخِلَ عينَيها إذ ذاك. وقد كانت نظرةً تامَّة جعلَت نبْضَها يَثِب، ووجهَها يمتلئ بالحرارة. وإذ أزعجَها ذلك، أشاحت وجهَها.

كان يوحنَّا على الرَّصيف تحتُ. وقد استمدَّت عزاءً من حضوره، لأنَّه كان كلَّ حين يُقدِّم الأمان والحِكمةَ الإلهيَّة. وما لبِثَ أن غادر، شاقًّا طريقه بتَعرُّج وسط العُمَّال باتِّجاه شوارع أفسُس. فإذ شاهدَت يوحنَّا يختفي بينَ الجُموع، شعَرَت بأنَّها وحيدةٌ تمامًا ومُتعِبة.

قال أتريتِس مُتجهِّمًا وساخِرًا: "إذا استطعتُ أن أتعلَّم الوثوقَ بكِ، فرُبَّما استطعتِ أن تتعلَّمي الوثوقَ بي".

تقدَّم واحدٌ من موظَّفي السفينة وطلبَ أوراق سفَرِهما.

ثُمَّ أقبلَت پورشيا وقالت بهدوء: "رِصفة! خشِيتُ كثيرًا ألَّا تأتي في الوقت المُناسِب. سوفَ تُقلِعُ السَّفينةُ بعدَ سُوَيعات".

عانقت رِصفة المرأةَ هُنَيهةً قبلَ تعريفها إلى أتريتِس. فرَنَت إليه پورشيا مُبتسِمةً وقالت: "يسرُّنا أن نعدَّك واحدًا منَّا". من عَلُ لكنَّ كلماتها وابتسامتها خفتت عندما نظر إليها أتريتِس دون تعبير، وعَيناه الزرقاوان لا تَطرِفان. واستطاعت رِصفة أن تُحِسَّ هواجِسَ پورشيا الجائشة.

وإذِ اقتربَ آخرون، حيَّتهم پورشيا، قائلةً: "على متن السفينة خمسة وسبعون راكبًا فقط، فسيكون لنا مُتَّسَعٌ وافر". وبدا واضحًا أنَّ كلَّ واحد كان مُهتمًّا بأتريتِس ولكنَّه لم يُبدِ أيَّ تجاوُبٍ قطُّ. لقد وقف، وابنُه على ذراعَيه، صامتًا وعابسًا وكئيبًا. وقد نظَرَ حوالَيه مرَّةً، كما لو كانَ توَّاقًا إلى الهروب، إمَّا من السَّفينة وإمَّا من الناس: أمرٌ لم تستطع رِصفة أن تتيقَّنَ من جهته.

قالت رِصفة: "لم يتَّسِع لنا الوقتُ لإحضار أيِّ شيء".

فقال پَرميناس: "أعطانا يوحنَّا وكليوپاس فُرُشًا ومَؤونةً لكما".

"أهُنالك كثيرٌ من المُسافِرين الآخرين فضلًا عنَّا؟"

فقال مَناسون: "ما بين خمسةٍ وعشرين وثلاثين تقريبًا. عددٌ قليل من الإلِّيريِّين، والباقون مقدونيُّون. السَّفينة مُحمَّلةٌ بَضائعَ غاليةً مُتَّجِهة إلى كورنثوس. يمكنكِ أن تشمِّي التوابل الآتية من بلاد سَبأ. والصناديق التي يُحمِّلها المُحمِّلون الآن مملوءة بقُماش الأُرجوان من كِلمَد، وبأجوَدِ المُطرَّزات من آرام".

وقال تيمون: ''هنالك سَجاجيدُ من كِنَّة أيضًا''.

فضحِكَ مَناسون: ''هل تعتقد أنَّ الرَّبَّان سيسمح لنا بأن نبسطَ بعضًا منها؟''

سألَت رِصفة: ''هل وصَلَ أفرادُ مجموعتنا كلُّهم؟''

فأجابَ بِرُوخورُس: ''ما زِلنا ناقصين واحدًا''.

ونظرَت پورشيا نحو الدَّرَج مُخدَّدةَ الجبين، وقالت: ''ثيوفيلُس! ماذا يؤخِّره، حسَبَ ظنِّك؟''

فقال تيمون، مُهدِّئًا زوجته: ''اطمَئنِّي، پورشيا''.

''لن تنتظِرَه السَّفينة''.

''قال يوحنَّا إنَّه آتٍ، وسيأتي؛ وإن كنتُ أظنُّ أنَّه إذا لم يستطع المجيءَ فسيكونُ أكثرَ أمانًا منَّا كلِّنا هُنا في أفسُس. إنَّ كاتِبَ المدينة صديقٌ شخصيٌّ له''.

ضاقت عينا أتريتِس. ''مَن ثيوفيلُس هذا الذي تتحدَّثون بشأنه؟''

فوضعَت رِصفة يدَها برِفقٍ على ذراعه، وقالت: ''هو الرَّجُل الذي رَضِيَ بأن يدُلَّنا على الطريق إلى جرمانيا''.

اكتسحَت حَملَقَتُه الآخرين ورجَّ ذقنَه عليها. ''ينبغي أن نجِدَ لنا مكانًا''.

قال طيبُلُس- ووجهُه الغَضُّ بَشوشٌ ومؤنِس- ''في وسعك أن تنضمَّ إلينا، أتريتِس. دلَّنا المَلَّاحون على مكانٍ نستطيع أن ننصُبَ فيه خيمةً تحمينا من الرِّياح''.

''سأبقى مع رِصفة وابني''.

غمرَتِ الحرارةُ وجه رِصفة. ووقف الآخرون حولَهما، صامتين مصدومين. أمَا كان لديه أدنى فِكر عمَّا قد يُسيء الآخرون تفسيره بشأن علاقتهما؟ فيمَ كان يُفكِّر؟ أم لعلَّه علِمَ تمامًا ما ينوي أن يفعله؟ ''سأكون مع النِّساء، أتريتِس''.

فالتوى فمُه تَهكُّمًا. ''مكانُ الزَّوجة هو مع زوجها''.

وتأجَّجَ وجهُها. ''لستُ زوجتَك''.

''لا، لستِ، ولكنِّي أفترض أنَّ هؤلاءِ النِّساءَ مُسافِراتٌ مع أزواجهنَّ، وأشكُّ كثيرًا في أنَّهنَّ سيُقدِّرنَ رِفقتكِ التَّطفُّليَّة''.

أعقَبَ ذلك صمتٌ خائب إذ بدا كلُّ واحد غيرَ قادر على التفكير في أيِّ شيءٍ يقولُه. وإذ كانت رِصفة نفسُها أشدَّ غضَبًا من أن تتكلَّم، تساءلَت هل قصد أن يجعلَ الأُمور أسوأ لها.

تقدَّمَت كاميلا بينَ پرُوخورُس وتيمون. ”سمعتُ ما قلتَه، أتريتِس، وأنتَ على حقٍّ تمامًا. رِصفة، أنا مُسافِرة مع أخي وزوجته، وأنا على يقين بأنَّهما سيُقدِّران كثيرًا إزالةَ رِفقتي التَّطفُّليَّة من وسطهما“. وابتسمَت لرِصفة. ”يُبهِجُني أن تنضمّي إليَّ وإلى ابنتي ليجيا. سأُريكِ أين وضعنا أمتِعتَنا“.

تنفَّسَت رِصفة الصُّعَداء، وقالت: ”شُكرًا لكِ“، توَّاقةً إلى الذَّهاب.

فقالت رُودا: ”ليس بارتيماوس والآخرون بعيدين كثيرًا“. فخفَقَت عَينا كاميلا قليلًا. وقد أحسَّت رِصفة أنَّ رودا أدلَت بتلك المُلاحظة لطمأنةِ أتريتِس أقلَّ منها للتلميح إلى عدَم الاحتشام من قِبَل زوجة أخيها.

تجاهلَت كاميلا رودا وتكلَّمَت إلى أخيها مُباشرةً: ”إذا فضَّلتَ أن نبقى معك، فسنبقى“.

وبدا الرَّجُل المِسكين شديدَ الانزعاج. ”افعلي أفضلَ ما يُناسِبُكِ، كاميلا“.

فقالت رودا بصوتٍ مهموس: ”مهما كلَّفَ الأمرُ، افعلي أفضلَ ما يُنَاسِبُكِ“. ثمَّ دارت ومشَت.

وبدأ كالِب يتململ ضاجًّا، فقال أتريتِس: ”خُذيه!“ مُلقِيًا إيَّاه على ذراعَيها.

لحِقَت رِصفة بكاميلا. وتوقَّف الملَّاحون لِيَبشُّوا لهُما.

قالَت كاميلا: ”أتريتِس ليس مسيحيًّا، أهوَ كذلك؟“ وقد تجاهلَت بحَّارًا أدلى بتعليقٍ لدى مرورها.

فقالت رِصفة مُكتئبةً: ”لا، ليس“.

قالت كاميلا: ”ليس أنَّنا نتصرَّف كما ينبغي للمسيحيِّين“. وابتسمَت تبريريًّا. ”أتعتقدين أنَّ التَّوتُّر بين رُودا وبيني كان هو ما جعله توَّاقًا إلى المُغادرة؟“

”لا أعتقدُ ذلك“. لقد شكَّت في كون أتريتِس مُباليًا بالأمر. ”كانت ليلةً صعبة“. وقد ارتعدَت إذ تذكَّرَتها. ونظرَت إلى الوراء فرأت أنَّ أتريتِس قد عزَلَ نفسَه عن الآخرين. أكانَ مُفكِّرًا في ما فعلَه الليلة؟ هل شعر بالذَّنْب أو النَّدَم؟ لقد نفى شعورَه بهما، ولكنْ كان كَرْبٌ في الكلِمات الغاضبة التي قالها لها على الطريق المُظلِم إلى أفسُس.

أيُّها الربُّ يسوع، رجاءً، دعْهُ يشعُر بالتَّوبة التي تؤدِّي إلى الخلاص. يا ربّ، امتَحِنِّي، وطهِّرني. فلأكُنْ أداةً بيَدِك، لا عبْدةً لضَعَفاتي.

تلوَّى كالِب على ذِراعَيها وأطلقَ انتِحابةَ استِياء. وإذ توقَّفَت كاميلا لتأخذ فِراشًا

ومَؤونة من كومة بلزق حائطِ ظَهرِ السَّفينة الداخليِّ، قالت: "لأُحضِرْ أمتِعتي. هنالك فُسحة بقُربِ الصَّاري وتلك البراميل". والتفتَت إلى الطِّفل على ذِراعَي رِصفة. "يبدو جائعًا. أطعِميه ريثما أذهب وأجلب البَطَّانيَّات التي تركها يوحنَّا لكم. في وُسعِ أتريتِس أن يعتنيَ بنفسه".

وما إن مضى على ذهابها بِضعُ لَحَظات، حتَّى ظهَرَ أتريتِس. فعلِمَت رصفة من سيمائه أنَّ ثمَّة خَطبًا رهيبًا. "علينا أن ننزل من هذه السفينة".

قالت: "لماذا؟"

فقال أتريتِس، ناظِرًا إلى وراءُ: "أطعِميه لاحِقًا. اعتلى قائدُ مئةٍ رومانيٌّ متنَ السفينةِ توًّا ومعه سِتَّةُ جُنود".

"آه، ربَّاه!"

"تحرَّكي، يا امرأة".

فقالت بسُرعة: "إذا توقَّفتُ عن إرضاعه، فسَيصرخ، ولن يؤدِّيَ ذلك إلَّا إلى لَفتِ الانتِباه إلينا. اقعُد إلى جانبي".

تصلَّبَ، وسمِعَت صوتَ صَنادِلَ ذاتِ مَساميرَ غِلاظٍ مُقتربًا. فالتفتَ أتريتِس ببُطء وبدا مُستعِدًّا للقِتال. وإذ رأتِ الجُنودَ، تشبَّثَت بِهُدبِ تُنكِه. وقد كان القائد يتكلَّم مع بَرميناس والآخرين.

قالتَ: "لا تفعلْ أيَّ شيء". وقامت بسُرعة. وقد بكى كالِب لمَّا كفَّت عن إرضاعه. وكان قلبُها يطرُقُ بضَراوة. "رجاءً، انتظِر".

وإذ دارَ قائدُ المئة ونظرَ مُباشرةً إلى أتريتِس، قال: "لقد تمَّت خِيانتُنا". ولم تكُن رِصفة قد رأت قطُّ ملامحَ خوفٍ وغَيظٍ كهذه على وجه أتريتِس. "لن يأخذوني حيًّا هذه المرَّة!"

قالَت: "أتريتِس، إيَّاكَ!" مادَّة يدَها لتُوقِفَه.

فأزاحها من طريقه دفعًا، غيرَ مُبالٍ بحقيقةِ كونِها حاملةً طِفلًا على ذراعَيها. فاختلَّ تَوازُنها وسقطَت بكُلِّ ثِقلها على الصَّاري. وزعقَ كالِب. فتشبَّثَت به، واستقامت على قدَمَيها مُجدَّدًا. "كلَّا!"

تفادى قائدُ المئة من لكمة أتريتِس، واستدارَ بحِدَّة، وسدَّد ركلةً سريعةً شديدة بإحدى ساقَيه. فوثبَ أتريتِس إلى الوراء. واشتبكت قدَمُه بلفَّة حِبال، فهوى على ظهر السفينة مُحدِثًا

صوتَ ارتِطامٍ عاليًا. وقبلَ أن يضرب، كان العسكريُّ الرومانيُّ قد شهَرَ غلاديوسَه وسدَّده إلى نَحرِه.

قالت رِصفة مَكروبةً: "لا تقتُله! رجاءً!"

وقف قائدُ المئة الرُّومانيُّ بِلا حَراك، رابِطَ الجأش ومُتاهِّبًا. وقد كان يُعادِلُ أتريتِس طُولَ قامةٍ وقوَّةَ بنيةٍ. وقال بصوتٍ أجشَّ: "ما جئتُ لأقتُلَه".

أحسَّ أتريتِس رأسَ الشَّفرة يرتفع عن جِلده. وتراجَعَ قائدُ المئة إلى الوراء ثُمَّ أغمَدَ غلاديوسَه بحرَكةٍ رشيقة رقيقة نمَّت عن سِنيِ خبرة كثيرة. "اعتِذاراتي، أتريتِس. تصرُّفٌ انعِكاسيٌّ لا إراديٌّ". ومدَّ يده ليُساعِدَه على النُّهوض والوقوف.

تجاهل أتريتِس ذلك، وقامَ وحدَه.

وقال قائدُ المئة: "قِف مُطمئنًّا". ثُمَّ نزعَ خوذتَه ودسَّها تحتَ إبطِه. وقد كان رجُلًا مُميَّزَ الهَيئة، ذا صدغَين شائبين ووجهٍ شديدِ الاسمِرار وعميقِ التَّخديد. وقال لرِصفة وأتريتِس: "اسمي ثيوفيلُس". ثُمَّ لاقت عَيناه حَملقةَ أتريتِس الغاضِبة، والتوى فمُه بابتِسامةٍ باهتة. "جئتُ لأدلَّك على الطريق إلى دِيارك".

التربة

"وسقَطَ [بَذْرٌ] آخَرُ في الأرض الجيِّدة..."

١٢

ضغطَت يدٌ على كتِف أتريتِس، مُوقِظةً إيَّاه من النَّوم. وقد نفَخَتِ الرِّيحُ الشِّراعَ المُربَّع فوقَه دافعةً السفينة إلى الأمام.

"هل تنضمُّ إلَينا للعِبادة هذا الصَّباحَ، أيُّها الأخ؟"

فتَحَ أتريتِس عينًا غائمة وشتَمَ بارتيماوس الشابَّ الواقِفَ فوقه. "لستُ أخاكُم، يا صبيُّ. وإذا أيقَظتني ثانيةً، أُقسِمُ إنّي سأكسِرُ كلَّ عظمةٍ في يدِك".

فانسحَب بارتيماوس.

وسحَبَ أتريتِس البطَّانيَّةَ الثقيلة فوق رأسه، صادًّا ضوءَ النُّجوم والريحَ الباردة.

سألَ طيبُلُس: "أهوَ آتٍ هذه المرَّة؟"

"لا".

قال أغابُس: "لن نستسلِمَ من جهته. لقد أقبَلَ إلى معرِفةِ الرَّبِّ رجالٌ أكثرُ عنادًا من أتريتِس".

"قال إنَّه سيكسر يدي تاليَ مرَّةٍ أُوقِظُه فيها. وأعتقِدُ أنَّه سيفعل ذلك حقًّا".

فقال طيبُلُس بضِحكةٍ مَرِحة: "إذًا، سنُحضِرُ عصًا طويلةً وننخَسُه بها من مَسافةِ أمان".

إذ ذاكَ جلسَ أتريتِس دافِعًا البطَّانيَّة عنه. فألقى الشُّبَّان الثلاثة نظرةً واحدة على وجهه، وعبَروا ظهرَ السفينة حالًا إلى حيثُ كان الآخرون ينتظِرون. فغَمغمَ أتريتِس بشتائمَ همسًا، واستلقى باسترخاءٍ من جديد، مُستريحًا حاليًّا من حُضورِهم المُزعِج. كانوا قد ظلُّوا مُستَيقِظين مُعظمَ اللَّيل يتحدَّثون بشأن حُلمِهم بحَمْل "البِشارة إلى عالَمِ مائت". أيُّ بشارة؟ وأيُّ عالَمِ مائت؟ لم يكُن لكثيرٍ ممَّا قالوه أيُّ معنًى في نظره. ولكنْ لماذا ينبغي تاليًا أن يكون له معنًى؟ إنَّ ديانتهم لم تعنِ شيئًا، وإلههم لم يعنِ شيئًا. فأيُّ إلهٍ قدير لا بُدَّ أن يثأرَ لمقتل ابنِه، لا أن يغفر لأُولئك الذين فعلوا ذلك ويتبنَّاهم.

تحدَّثت نِساءٌ على مقربة منه. وبدأ كالِب يبكي. فطرَحَ البطَّانيَّة عنه، وجلسَ ثانيةً، إلَّا أنَّ البُكاء توقَّف. ومن وضعيَّة رِصفة، استطاع أن يعرف أنَّها كانت تُرضِعُ ابنَه. لقد بات الطِّفل مطمئنًّا على دفءِ صدرها، بعدَما أُشبِعَ جوعُه. فاستلقى مُجدَّدًا، مُسكِّنًا إحباطَه.

لقد أزعجَه موقِفُ المرأة منه. ولم يستطعِ الكفُّ عن التفكير فيها، وعن رغبته في أن يُفسِّر لها لماذا قتلَ غالُص وجاسوسَ سَرتِس. أراد لها أن تفهم. وعلى تلك الحال، بدَت مُحافِظةً على بُعدها عنه.

كان مُغتاظًا على أثَرِ مُقابَلة ثيوفيلُس، وقد ظنَّ أنَّ رِصفة كانت تعلَم مُسبَّقًا أنَّ الرَّجُلَ قائدُ مئة. فأصرَّت على أنَّها لم تعلَم سِوى أنَّه كان رومانيًّا. وقد صدَّقها شاكيًا، إلَّا أنَّ ذلك لم يُحسِّن الأحوال بينهما. فإنَّها فضَّلَت رِفقةَ أصدِقائها المُتديِّنين أكثرَ جدًّا من رِفقته.

كان قد بحَثَ عنها أمسِ فوجدها جالِسةً في رُكنٍ مُظلَّل، وكالِب على صدرها. وكانت تُكلِّم الطِّفل برِقَّة في أثناء ارتِضاعه. فكانَت جميلةً جدًّا وهادئة تمامًا بحيثُ انعصَرَ قلبُه بشِدَّة. وقد وقفَ مُختبئًا خلفَ برميلٍ فوقَها، مُراقِبًا ابنَه يرضع. فكان التَّوقُ المُفاجئ الذي اجتاحَه شديدًا وحادًّا جدًّا حتَّى وَجعَ بَدَنيًّا. لقد كان يحسب أنَّ جميعَ عواطفه، ما عدا الغضب، تحجَّرَت من زمان طويل. فكَطرَف لا تَصِلُ إليه دَورةُ الدَّم، باتَ مُماتًا. أمَّا الآن فتدفَّق الدَّمُ من جديد مُحييًا العواطِفَ المُخدَّرَةَ مُجدَّدًا...وقد رافقَ الإحياءَ ألَمٌ مُوجِعٌ جدًّا.

لَمَّا أحسَّت حضورَه، نظرَت إلى فوق. وإذ نظَرَ نظرةً واحدة داخِلَ عينَيها، علِمَ أنَّه لن يتمكَّن أبدًا من أن يقول ما يكفي لجَعلِها تفتكر أنَّه تصرَّف على نحوٍ صحيح بقَتلِه غالُص والآخَر. وقدِ استتَرت بسُرعة، مُسدِلةً الشَّالَ عليها وعلى كالِب، كما لو كانت تُشكِّل دونَه حاجِبَ حِمايةٍ من نوعٍ ما. وبطريقةٍ ما، آلَمَهُ وأغْضبَهُ ذلك التصرُّفُ بحدِّ ذاته أكثرَ من أيِّ شيء آخر كان ممكنًا أن تقولَه أو تفعلَه. ففي نظرها، كانَ هوَ قاتلًا.

لعلَّه كان كذلك. ولعلَّ ذلك كان كلَّ ما قد تبقَّى منه. ولكن، مَن كان المسؤولَ عن ذلك؟ هوَ أم روما؟

منذ أن وطِئت قدَماه هذه السفينة البائسة، ما يزال مسلوخًا عنها. فقد كانت كلَّ حين في رِفقةِ آخرين، من النِّساء أغلبَ الأحيان. وحين كانت وحدها، أحاطت بها أحوالٌ جعلَتهُ لا يدري كيف يطلبُها. لقدِ امتعَضَ من التأثير الذي كان للآخرين فيها. فَبابنِه كانت تعتني، لا بابنِها ولا بابنٍ لهُما. ألَم يُعطِه ذلك بعضَ الحقوق حيثُ تعلَّقَ بها الأمر؟

بدا أنَّ قائد المئة الرُّومانيَّ ذاكَ الجِلفَ لا يَلقى صعوبة في التكلُّم معها على انفِراد. فإنَّ أتريتِس كان قد رآهُما واقِفَين على مُقدَّم السفينة، والرِّيح تتلاعب بشَعر رِصفة. وقد تحدَّثت إلى قائد المئة بسهولة. وكثيرًا ما فعلَت ذلك. وقد رآهُما مرَّةً يتضاحكان، فتساءلَ هل كان هو موضوعَ ضِحكهما.

تطلَّعَ كلُّ عُضوٍ في المجموعة إلى الرُّومانيِّ لأجل القِيادة، حتَّى مَناسون الذي ما بدا إلَّا شديدَ الرَّغبة في مُجامَلة صاحبِ مَنصِبٍ رفيع كذاك. ولكنَّ الرومانيَّ سُرعانَ ما تبنَّى مِعيارَ يوحنَّا. فكان يقوم قبل الفجر ليُكرِمَ إلهَه بالتسبيح والصَّلاة. وقد انضمَّ إليه الآخرون واحدًا فواحدًا حتَّى تحوَّل الاجتماعُ السابقُ للفَجر إلى احتفال!

والآنَ كانوا عاكفين على ذلك مُجدَّدًا. فصرَّ أتريتِس بأسنانه تحت البطَّانيَّة، مُصغيًا. وكان ثيوفيلُس يُعلِّمُهم كيف يسرُّون مسيحَهم المصلوب.

"لا تُشاكلوا هذا العالَم، بل غيِّروا شكلَكُم بتجديدِ أذهانكم".

فقال الآخرون "آمين!" بصَوتٍ واحد، مُثيرين أعصابَ أتريتِس المُتوتِّرة أصلًا.

"مارسوا مَواهِبَكم كما يُرشِدُكم الرَّبُّ. لتكُنِ المحبَّةُ عديمةَ الرِّياء. كونوا كارهين الشَّرَّ، ملتَصِقين بالخير".

"آمين!"

"كونوا عاكفين بعضُكم على خِدمة بعض بمحبَّة أخَويَّة، مُقدِّمين أحدُكم الآخر في الكرامة. كونوا حارِّين في الرُّوح، خادمينَ الرَّبَّ بفرَح".

"آمين!"

"اثبتوا عند الضِّيق، عاكفين على الصلاة ومُساهمين في سدِّ احتياجات القدِّيسين. باركوا أُولئك الذين يضطهدونكم ويَلعنونكم".

تصلَّبَ حنَكُ أتريتِس، وقد نُخِسَ إذ تذكَّرَ اللَّعناتِ التي استنزلها على رأس ثيوفيلُس في لقائهما الأوَّل، تلك اللَّعناتِ التي تفوَّه بها كلَّما رأى الرَّجُل. لقد تمنَّى أن يرى ثيوفيلُس في الجحيم قبلَ أن يدَعَه يطأُ بقدَمِهِ أرضًا لقبيلةِ الشَّطِّي، وعبَّر له عن ذلك في لعناته.

"افرَحوا مع الفَرحين. ابكوا مع الباكين. ليكُن لكم فِكرٌ واحد بعضِكم تُجاهَ بعض. لا تكونوا مُتعالين بالفِكر، بل خالِطوا المتَّضِعين. لا تكونوا حُكماءَ في عيونِ أنفسكم".

كيف تصدُرُ تلك الكلماتُ من رومانيّ! أراد أتريتِس أن ينهض ويضحك على ما ينطوي عليه الأمرُ من دَواعٍ إلى السُّخرية.

"لا تُجازوا أبدًا عن شرٍّ بِشَرٍّ، بلِ احترموا ما هو صائب في نظر جميع الناس".

وما كان صائبًا بحسب المعايير الرُّومانيَّة هو تجريدُ جميع الناس من حرِّيَّتهم! أمَا جرَّدوه هو من حرِّيَّته؟ فماذا كان صائبًا؟

"كونوا في سلام".

السَّلام الرومانيّ! هكذا فكَّر بمرارة. هَه! كونوا في سلام مع روما؟ ليسَ ما دام في جِسمي نَفَسٌ!

"سالموا جميع الناس".

كلَّا البتَّة!

"لا تنتقِموا لأنفُسِكُم أبدًا، بل أعطوا مكانًا لغضب الله".

سأستدعي جميعَ قوَّاتِ الغابة السَّوداء لتنتقِمَ لنفسي منك، يا رومانيُّ!

"لا يغلبنَّكم الشَّرُّ، بلِ اغلبوا الشَّرَّ بالخير".

"آمين!"

"تذكَّروا، يا أحِبَّاءُ، أنَّ الله برهنَ محبَّته لنا وإذ نحن بعدُ خطاة، مات المسيح لأجلنا".

ليس لأجلي، لم يمُت.

"فإنَّه هكذا أحبَّ الله العالَم، حتَّى بذَلَ ابنه الوحيد، لكي لا يهلِكَ كلُّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديَّة. فإنَّ الله لم يُرسِلِ ابنَه إلى العالَم لِيَدينَ العالَم، بل ليَخلُصَ به العالم".

وجَلجلَت الأصواتُ بفَرَح: "آمين!"

"لذلك، يا أحِبَّاءُ، أحِبُّوا بعضُكم بعضًا".

"آمين!"

"أحِبُّوا بعضُكم بعضًا".

"آمين!"

"أحِبُّوا بعضُكم بعضًا كما أحبَّكُم المسيح".

"آمين!"

"اسمعوا، يا أولادَ الله، واعلموا".

فقالوا معًا: "الربُّ هو إلهُنا، الربُّ واحِد. وسأُحِبُّ الربَّ إلهي بكُلِّ قلبي وكُلِّ نفسي وكُلِّ قُدرتي".

"ليكُنِ الحَمدُ لله!"

"المجدُ لله في الأعالي!"

"مَن يملكُ الآنَ وإلى الأبد!"

وشرعوا يُرنِّمون، مُتآلِفةً أصواتُهم على نحوٍ جميل:

"اللهُ ظهَرَ في الجسد، تبرَّر في الرُّوح، تراءى لملائكة، كُرِزَ به بينَ الأُمم، أُومِنَ به في العالَم، رُفعَ في المجد، وسوف يرجِعُ حتمًا، له المجدُ الآنَ وإلى دهرِ الداهرين. آمين! آمين!"

وخيَّم السُّكوت على متن السفينة الأدنى إذ جثا المسيحيُّون على رُكَبِهم في دائرة، وبدأوا يُديرون الخُبزَ والخمر. كان أتريتِس قد شاهَدَ هذه المُمارسَة مرَّةً وسأل رِصفة عنها، فقالت له إنَّهم كانوا رمزيًّا يأكلون جسَدَ مَسيحِهم ويشربون دمَه.

إذ ذاك قال بازدراء: "وأنتُم تدعونَني هَمَجيًّا؟"

"أنت لا تفهم الحقيقة".

"ولا أُريد أن أفهمها".

فباشرَت تقول: "يا ليتك..." ثُمَّ لاذَت بالصَّمت. وقد تعجَّبَ من نظرة الحُزن غير المحدود في عينَيها، قبلما دارت مُبتعِدةً وانضمَّت إلى الآخرين.

باتت مع الآخرين الآن، مُشارِكةً لهُم في فريضتهم الرَّهيبة.

هل تركَت كالِب في السَّرير الصغير الذي عمِلَته له؟ هل نحَّت جانبًا واجِباتِها تُجاهَ ابنِه، نابِذةً إيَّاه لأجل إلهِها هذا؟ طرَحَ عنه البطَّانيَّة وقام. إذا كانت قد فعلَت ذلك، فسَيجرُّها بعيدًا من اجتماعِ أكَلَةِ اللَّحمِ ذاك ويُعطيها شيئًا تُصلِّي بشأنه.

وإذ خَطا حولَ بضعة براميل، رأى أُولئك المُجتمِعين جاثينَ على رُكَبهم. كان ابنُه مُستكِنًّا على ذِراعَي رِصفة. وإلى جانبها، كان ثيوفيلُس، أطوَلَ مِنها برأس. فملأ البُغضُ الأسوَد أتريتِس إذ شاهدَ الرُّومانيَّ يقتطِعُ لُقمةَ خُبز ويُطعِمُها إيَّاها. وأعقَبَ ذلكَ الفِعلَ بتقريبِ كأس المسيح من شفتَيها لتتمكَّن من أن تشرب. ثُمَّ شرِبَ هو نفسُه ومرَّرَ الكأس إلى بَرميناس.

كانَ من شأن أيِّ مَن يُشاهِدُ ذلك أن يظُنَّ أنَّ رِصفة والطِّفل يُخصَّانِ الرُّومانيَّ!

طرَقَ قلبُ أتريتِس طَرقًا شديدًا، وتدفَّق الدَّمُ الحارُّ في عروقه. فأطبقَ أسنانه بإحكام. ورفعَ ثيوفيلس رأسَه قليلًا فنظَرَ إليه عبْرَ ظَهرِ السَّفينة. فحدَّقَ أتريتِس إليه. وأخَذَ على نفسهِ عهدًا: سأشربُ دمًا، وسيكونُ دمك.

بعدَ الفراغ من الوليمة المُغثِية، بدأوا وقتَ صلاتهم. وقد تكلَّموا برِقَّة، عارِضينَ

الاحتياجات وذاكرين أسماءً. فصلَّوا لأجلِ يوحنَّا. وصلَّوا لأجل كليوپاس. وما لَبِثوا أن صلَّوا لأجله هو. يا لَلجحيمِ الأسود! فكوَّر أتريتِس يدَهُ قبضةً، ورفَعَ صلاتَهُ الخاصَّة إلى طِيواز، إلهِ السَّماء في جِرمانيا. أعطِني حياةَ ثيوفيلُس! ضَعها في يديَّ لأسحقها وأُرسِلَهُ إلى عالَمِ النِّسيان.

جاشَتِ الحرارةُ مُتأجِّجةً جدًّا فيه، حتَّى علِمَ أنَّه إن لم ينتقل إلى الطَّرَفِ الآخر من ظَهر السفينة، حيثُ كان الإلِّيريُّون والمقدونيُّون ما يزالون نائمين، فإنَّه سيقتل ثيوفيلُس دونَ أدنى تفكيرٍ في العواقب.

رفعَت رِصفة نظَرَها إليه وهو يُجاوِزُهم، وقد بدا الاضطِرابُ في سيمائها.

وقفَ على جانب السفينة المُواجه للرِّيح، حيثُ ضرب النَّسيمُ الباردُ شعرَه وخدَّرَ وجهَه. وغاصَتِ السفينة مع البَحرِ المُتدافِعِ الأمواج، وتكسَّرت مَوجةٌ مُزبِدة عاليًا فوق قَيدوم السفينة المرتفع. لقد كانتِ الشَّمسُ آخِذةً في الطُّلوع.

أصدَرَ رُبَّانُ السَّفينة أمرًا بصوتٍ عالٍ، فتفرَّقَ البحَّارة على متن السَّفينة، مُعيدينَ ضبطَ الحِبال، ومُثبِّتينَ صُندوقَي شحنٍ كبيرَين انفكَّا على نحوٍ يتعذَّرُ تفسيرُه. وانطلقَت مَوجةٌ مالحة أُخرى فوقَ مُقدَّم السفينة فباعَدَ أتريتِس قدمَيه، مُثبِّتًا نفسَه. إنَّ هديرَ البحر والبردَ القارِس كانا أفضلَ عنده من الأصوات الهادئة والدِّفء المُشترَك لدى مجموعة من المتعصِّبين دينيًّا.

تشبَّثَ أتريتِس بحافة السَّفينة، ورأى يابِسةً في البعيد. فنادى بحَّارًا قريبًا، فوقَ العاصفة: ”ما هذه؟“

”جزيرةُ ديلوس!“

ثمَّ انشقَّت الغيوم وهطلَ المطر مُطَرطِقًا على متن السفينة وعلى أتريتِس. وإذ شعَرَ بالبَرد وتبلَّل جِسمُه كثيرًا، بقِيَ حيثُ كان، مُعانِدًا، لاعِنًا الحياةَ بحدِّ ذاتها.

إذ ذاك ظهرَت رِصفة، ولم يكُن كالِب معها. فالتفتَ إليها غاضِبًا. ”أين ابني؟“

”في السَّقيفة، حيثُ الجوُّ أكثرُ دفئًا“.

”وحدَه؟“

”لا“.

فغلى دمُه. ”مَن معَه؟ قائدُ المئة؟“

وطرفَت بعينَيها مدهوشةً. ”كاميلا تنتبه إليه“.

”كاميلا. الأُمُّ التي لم يكُن لها زوجٌ قطُّ“.

ودارت لتمضي، فأمسك أتريتِس بذِراعها. وأحسَّها تتصلَّبُ لدى لمسته. "كُفّي عن تجنُّبي!"

"ليست نيَّتي أن أتجنَّبك، أتريتِس".

"في وسعي أن أشعُرَ بمُقاومتكِ".

فأرغمَت نفسَها على الاسترخاء. "لماذا غادرتَ سقيفتَك؟"

"أتعتقدين أنَّه ينبغي لي أن أبقى وأُصغي؟ أتعتقدين أنَّه ينبغي لي أن أجثوَ على رُكبتيَّ مع الباقين منكم؟ أتعتقدين أنَّه ينبغي لي أن أتبَع رومانيَّكِ الجِلفَ ذاك!"

قدَحَت عَيناها الداكنتان شرَرًا عليه. "ليس هو رومانيّي، أتريتِس. ونحن نتبعُ الربَّ، لا ثيوفيلُس".

"إنَّه يُطعِمُكِ كما لو كُنتِ حيوانًا أليفًا".

"كانت يداي وذِراعاي مشغولةً بابنك. لو كنتَ أنت بجانبي، لأخذتُ الخُبزَ من يدِك!"

تسارعَت دقَّاتُ قلبه. ونظَرَ داخِلَ عينَيها البُنِّيَّتين الداكنتين، فرأى شيئًا أدفأ أحشاءه. ولمَّا انخفضَت حَملقتُه إلى فمِها، أطرقَت رأسَها. فحمِيَ طبعُه من جديد، وقال بخشونة: "لماذا تتفادَينَ منّي دائمًا؟"

"لستُ أفعل ذلك".

"بَلى! لقد سلَختِني عنِ ابني".

فرفعَت نظرَها إليه مُجدَّدًا، شاحِبةَ الخدَّين من البرد. "هوَ أنتَ مَن تتفادى مِنَّا".

فقال: "لا يَعنيني أمرُهم في شيء". وقد نخَعَ ذقنَه بإيماءةِ رفضٍ حادَّة للباقين.

قالت: "ولا أمري. حتَّى إنّي أتساءلُ أحيانًا إلى أيِّ مدًى يعنيك أمرُ ابنكِ بالذَّات. أتحبُّه؟ أم هي فقط مسألةُ حِيازتِكَ لِما يخصُّكَ حسْبَما تعتقد؟"

"أنتُما كِلاكُما تخصَّانني".

"انتَبِه أين تَطأ، سيِّدي. أنت تدفع لي دينارًا كلَّ يوم. هل تذكُر؟"

سرَّه أنَّه أغضبَها، وابتسمَ لها من عَلُ لِيُريَها ذلك. "تَظهرينَ أكثرَ شَبَهًا بنفسكِ هذا الصباح، على نار". فتحوَّلَت عنه، وأرجعَها نَترًا. وإذ أمسكها بكِلتا كتِفَيها، طأطأ رأسَه على مقربة من رأسها. "استَلّي سيفَكِ، رِصفة. صالِبيهِ مع سيفي، وشاهدي ما يَجنيه لكِ الأمرُ. افعلي ذلك. إنّي في حاجةٍ مُوجِعة إلى قِتال".

لم تقُل شيئًا، ولكنَّه رأى أنَّ الأمر كان صِراعًا. فمن الواضح أنَّ ما أبقاها صامتةً لم يكُن الخوف، لأنَّه لم يرَ أيَّ دليلٍ عليه في حَملقتِها الثابتة. ثُمَّ أرخى يدَيه، مُتسائلًا هل آذاها. فما كان ذلك في نيَّتِه.

قالت بهُدوءٍ مُسخِط: "ليتكَ تنضمُّ إلينا فتسمعَ البشارة".

احتضنَ بكفَّيه قفا رأسها وأدناه إليه، واضعًا شفتَيه مُقابِلَ أُذنها. "سأُعانِقُكِ، يا جميلتي، ولكنِّي لن أعتنِقَ أبدًا إلهَكِ أو ديانتَكِ". وإذ تنشَّقَ عبيرَها، أفلتَها، مسرورًا بأن يرى أنَّه قد أزعجَها.

رجعَت رِصفة إلى الخيمة التي تشاركت فيها مع كاميلا وليجيا.

ومن حيثُ وقَفَ ثيوفيلُس مع الآخرين، نظرَ إليها وهي تدخُلُ الخيمة مُنحنيةً، ثُمَّ نظر إلى أتريتِس، مسُتغرِقًا في التفكير.

لمَّا باتت رِصفة في مأمَن داخِلَ السَّقيفة، شالَت كالِب. كان في مِزاجٍ ميَّالٍ إلى اللَّعِب، وكانت هي تحتاج إلى ما يُلهيها عن المشاعر التي أثارها أتريتِس فيها. وكان قلبُها ما يزال مُتسارِعًا.

نظرَت إليها كاميلا بفُضول، قائلةً: "أأنتِ بخير؟"

"بالتَّأكيد. لماذا تسألين؟"

"أنتِ ترتجِفين".

"الجوُّ باردٌ هذا الصَّباح".

"لا يبدو عليكِ البرد. يبدو أنَّكِ...مُفعَمةٌ بالحيويَّة".

كان في وسع رِصفة أن تُحِسَّ الحرارةَ غامرةً خدَّيها، وأمَلَت أن يُخفيَ ارتِباكَها الضَّوءُ القاتمُ من شروق الشَّمس. لقد أحسَّت أنَّها مُفعَمة بالحيويَّة. وقد كانت ترتجف، وما زال قلبُها يطرقُ من مُقابلة أتريتِس.

يا الله، لا أُريد أن يُخالِجَني هذا الشعورُ ثانيةً، ليس من جهتِهِ هو!

قالَت كاميلا: "ليجيا، لماذا لا تذهبين وتَرَين إذا كانت رُودا تحتاج إلى أيَّة مُساعَدة هذا الصَّباح؟"

"نعَم، أُمِّي".

شالَت كاميلا بطَّانيَّتها، ناظِرةً إلى رِصفة. ثُمَّ قالت، وهي تطوي البطَّانيَّة: "هل تكلَّمتِ مع أتريتِس؟"

"أذلك واضِحٌ جدًّا؟"

حطَّت كاميلا البطَّانيَّة المَطويَّة وقعدَت عليها. "ليس إلى الحدِّ الذي يجعل الآخرين يُلاحِظونه، إلَّا إذا كانوا يُراقِبون".

"أهُم فاعلونَ ذلك؟"

"رُودا فاعِلة. كذلك ثيوفيلُس أيضًا، وإن كان لأسبابٍ مُختلِفة". ثُمَّ أضافت بابتسامةٍ واهية: "أضيفي أنَّه أينما كان أتريتِس يعرف الجميع أنَّه هُناك".

"مَن قد يتجاهَلُه وهو مُستشيطٌ ومُتَخطٌّ إيَّانا بمِشيةٍ حربيَّة؟"

"لستُ أتكلَّم عن لحظاتٍ كتِلك".

"أتَعنين جمالَه؟"

"ما رأيتُ قطُّ رجُلًا أوسَمَ منه. ولكنْ حتَّى جمالُه يكونُ باهتًا، لو لم تكُن له مَزيَّةٌ ما يتعذَّرُ تحديدُها". ثُمَّ تناولَت شالَها فلفَّته حول كتِفَيها. "لو أنَّ ثيوفيلُس لم يركب هذه السَّفينة، لرُبَّما صار أتريتِس بسهولةٍ قائدَنا".

"لا سمَحَ الله!"

فقالت كاميلا مُبتسِمةً: "الظاهر أنَّه صار". ثُمَّ فسَّرَت: "إنَّ رجُلًا مثل أتريتِس لا يمشي أبدًا دون أن يُلاحِظه أحَد. فهو إمَّا يقودُ الناس إلى الله، وإمَّا يقودُهم بعيدًا عنه".

قلبَت رِصفة كالِب على بطنه وشاهدَته يُحاوِل أن يحبو. "أتريتِس يرفض المسيح".

"حتَّى الآن".

فنظرَت رِصفة إليها. "إذا كان في وسعكِ أن تَهديهِ إلى المسيح، فافعلي ذلك، رجاءً. ولكِ مُبارَكتي".

تلاشَتِ ابتِسامةُ كاميلا. "لا أعتقدُ ذلك. ما كنتُ لأجرؤَ على الاقتراب منه إلى هذه الدَّرجة البالغة". وابتسمت لرِصفة ابتسامةَ استِخفافٍ بالذَّات. "أنا أعرِفُ نفسي أنِّي أستسلم بسهولةٍ بالغة للأهواء الجسَديَّة. وليجيا دليلٌ على ذلك، مع أنِّي أفضِّل بَذْلَ حياتي على حرماني منها. ومُعظَمُ الآخرين لَهُم صراعاتُهم الخاصَّة أيضًا. أعرِفُ أنَّكِ لاحظتِ الطريقةَ التي بها تنظر أفنيكي إلى مَناسون، وكيف يبدو دائمًا أنَّها تنتهي إلى الوجود بقُربه، غيرَ واعيةٍ كيف يبدو الأمرُ في نظر أيِّ شخص. حتَّى بَرميناس". وهزَّت رأسَها بحُزن. "لا، فلدَينا الكثيرُ لِنُواجِهَه أصلًا. أعتقِد أنَّ أتريتِس سيُترَكُ لكِ".

ركَضَ بطرس وبرنابا أمام سقيفَتِهم، لاعِبَينِ لُعبةً مُثيرةً من نوعٍ ما، كما كانا يفعلانِ كلَّ يومٍ عادةً. فصاحَ بطرس: "لا تقدِرُ أن تلقُطَني! لا تقدِرُ أن تلقُطَني!" وإذ كان برنابا يُلاحِقُه، علِقَت قدَمُه بالحَبل الذي ثبَّت خيمتَهم فكادَ يُسقِطها.

قالت كاميلا مُنزعِجةً: "يا صَبيَّان!"

أحيانًا، كانت حماستُهما الصِّبيانيَّة مُزعِجةً جدًّا، كحالِها الآن. فأيقظَت جلَبَتُهما كالِب وجعلَته يبدأ بالبُكاء مُجدَّدًا. فشالَته رِصفة، وهدَّأته. وسقط شيءٌ ما في مكان غير بعيد، فتساءلت أيُّ خرابٍ أحدثَه الصَّبيَّانِ هذه المرَّة. أمسِ، لمَّا كان الجوُّ صَحوًا، أزعجا البحَّارةَ بتَسابُقِهما ذَهابًا وإيابًا واعتراضِهما في الطريق. ولمَّا تدخَّلَ تيمون أخيرًا وطلَبَ منهما أن يلعبا بشيءٍ آخر، انشغَلَ بطرُس بالعُقَد التي تربطُ بضعةَ صناديقِ شَحْن.

عندما ركض الولَدانِ راجِعَينِ نحو الآخرين، قالت كاميلا: "يُذكِّرني أتريتِس من بعض النَّواحي بوالِدِ ليجيا. فهو وسيم، آسِر، رُجوليّ. هل أسبِّب لك الارتباك؟ لن أتكلَّم عنه إذا آثَرتِ ألَّا أتكلَّم".

لم تتيقَّن رِصفة أوالِدَ ليجيا أم أتريتِس عَنَت كاميلا. فاعترفت آسِفةً: "إلى حدٍّ ما. وإن كان لغير الأسباب التي قد تَفتكِرينها. أنا لستُ أقوى منكِ أبدًا، كاميلا".

لاحظَت كاميلا القبولَ المُقدَّم، فضلًا عنِ الاعتراف. فوضعَت يدَها على يد رِصفة. "جيِّد. سنُبقي إحدانا الأُخرى تحتَ المساءَلة، ونصُدُّ التَّجرِبة حينَ تأتي".

ضحِكَت رِصفة. لقدِ انطلقَ كالِب بسُرعة إلى أقصى مسافة استطاع قطْعَها. فشالَته وحطَّته مُجدَّدًا بقُربها، حتَّى يتمكَّن من تكرار المُحاوَلة.

وقالت كاميلا إذ راقبَته: "سيَتعلَّمُ الحَبْوَ قبلَ وصولكِ إلى روما".

"والمَشْيَ قبلَ وصولنا إلى جِرمانيا".

"لستِ توَّاقةً إلى الذَّهاب، صحيح؟"

"أتكونينَ أنتِ توَّاقةً؟"

"جدًّا! فأكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر، أتوقُ إلى بداية جديدة".

"في وسعكِ أن تبدإي من جديدٍ أينَما كُنتِ، كاميلا".

"ليس حين يكونُ عندَكِ شخصٌ يُذكِّرُكِ بماضيكِ في كُلِّ خطوة من الطَّريق، أو يتوقَّع منكِ أن تسقُطي فريسةً للإخفاقات نفسِها".

ارتطَمَ شيءٌ ما بالخيمة، مُجفِّلًا كِلتَيهما. وتدحرجَت كُرَةٌ معدنيَّة أمامَ كالِب. فقالت كاميلا: "ذانِكَ الصَّبيَّانِ من جديد". وقد التقطَت الكُرة لدى ظُهورِ بطرس من وراءِ الزاوية.

قال بطرُس، مقطوعَ النَّفَس: "تِلكَ كُرَتُنا".

فرَمَتها إليه، قائلة: "نعم، نعلَم. رجاءً، العبا في مكانٍ آخر".

واندفعَ مُبتعِدًا، خارِجَ نِطاقِ النَّظر، ولكن ليسَ بعيدًا عن مدى السَّمع.

تحسَّن الجوُّ. وكان بطرس وبرنابا يركضان على ظهر السَّفينة، مُتعرِّجَين حول الناس ومُصطدِمَين بهم أحيانًا في سرورهما. وقد انضمَّ إليهما كاپيو وفليمون في جولة واحدة على الظَّهر قبلَما كفَّهَما أبوهما، پَرميناس، عن لعبهما الجامح وأجلسَهما كي يلعبا لُعَبًا أهدأ. فاستقرَّ الأولادُ هُنَيهةً، ثمَّ بدأ بطرس وبرنابا يصيحان ويضحكان ويركضان من جديد إلى هُنا وهناك، مُزعِجَينِ كلَّ فردٍ من الملَّاحين، فضلًا عن الرُّكَّاب الذين كانوا أكثر تأدُّبًا من أن يفعلوا شيئًا. ولم يبذل تيمون وپورشيا أيَّ جهد لكبح نشاط ولدَيهما، حتَّى حينَ أوقعَ بطرس أنطونيا.

قالت أفنيكي: "بحقِّ السَّماء، پورشيا!" وقد أحبطَتها، كما بدا واضحًا، مُقاطَعةُ الحديث الذي كانت تُجريه مع مَناسون. وانحنَت لكي تُقيمَ ابنتَها.

قالت پورشيا في دِفاعٍ سريع: "لم يقصد أن يفعل ذلك". وأطلقت بطرس ثانيةً فيما مسحَت أفنيكي دموع ابنتها الصغيرة. "أضيفي أنَّ لديكِ فُسحةً ضيِّقةً كيْ تَديني! كان انتباهُكِ بالكادِّ مُركَّزًا على عائلتكِ!"

غمَرَت وجهَ أفنيكي حُمرةٌ فاترة، ورَنَت بِقلَق إلى مَناسون، ثُمَّ لاذت بالصَّمت.

أقبلَ أتريتِس ليقف قُربَ رِصفة. فرفعَت كاميلا نظرَها إليه، ثُمَّ نظرَت إليها. وأمسكَت بيدِ ابنتها قائلةً: "أظنُّ أنَّنا، ليجيا وأنا، سنتمشَّى قليلًا على ظَهرِ السفينة".

"لا داعيَ لأنْ تنصرِفا".

فقال أتريتِس ببُرودة: "بَلى، انصَرِفا".

تأسَّفت رِصفة على تَفوُّهِها بأيِّ كلام، وأشاحت وجهها لتنظُرَ إلى البحر خارجًا، وقد أخزَتها فظاظَتُه. كان في وسعها أن تُحِسَّ أتريتِس مُراقِبًا إيَّاها، وتساءلت عمَّا كان دائرًا في فِكره. ولمَّا بدا الصَّمت يُضني أعصابَها، قالت: "هل أردتَ أن تتكلَّم إليَّ عن شيءٍ ما؟" فلَم يُجِب. "أتَودُّ أن تحمل كالِب؟"

"أأنتِ مُتلهِّفةٌ جدًّا إلى إلهائي؟"

"نعم!"

فأخذَ أتريتِس كالِب مُكشِّرًا. "في جميعِ الأُمور صادقةٌ، ألَستِ هكذا؟"

"قلتُ إنِّي سأكون".

وتَسطَّحَ فمُه خطًّا قاسيًا. "حتَّى مع نفسكِ؟" فأبَت أن تُقبِلَ على التقاطِ طُعمِه. وتأمَّلَتِ ابنَها، مُضطرِبةً لأنَّها سلَّمَته إلى رَجُل في وسعه أن يُزهِقَ أرواحَ الرِّجال دونَ أدنى ندامة. لقد كافحَت ذلك أحيانًا، مُريدةً أن تحجُبَ كالِب عن والده. وكانت هذه أوَّلَ مرَّة فيها حمَلَ أتريتِس كالِب منذُ تلك الليلة المُروِّعة التي فيها غادرا الدَّارة، ما عدا حَمْلَهُ لكالِب عند ركوب السَّفينة. لماذا سلَّمَته إيَّاه بمُنتهى التَّوق؟ أَلمُجرَّدِ تشتيتِ اهتمام أتريتِس بها؟ مِن ثَمَّ كان لها نِصفٌ من التَّوقُّع ونِصفٌ من التَّرجِّي أن يُحدِثَ كالِب جَلَبةً مُتمَلمِلًا. ولكنَّه لم يفعل ذلك، بل بالأحرى تشبَّثَ برُقاقةِ العاج المُتدلِّية من عُنُق والده ومضَغَها. وقد نظر إلى ذلك الشَّيء اللافت ثُمَّ خبَطَهُ على صدرِ أبيه. "دا...دا...دا..."

تغيَّرت قَسَماتُ وجه أتريتِس على نحوٍ ملحوظ. وإذ نسِيَ رصفة، بدأ يتحدَّث إلى ابنه. فغادرَت وجهَهُ القساوةُ البائسةُ كلُّها، ولمَحَت رِصفة الرَّجُلَ الذي كان يمكن أن يكونَه لو كانت الأحوال مُختلِفة. وتكلَّم برِقَّةٍ كلِماتٍ جِرمانيَّة لم تستطع رِصفة أن تفهمها. غيرَ أنَّ اللَّهجة والنَّبرة كانتا مفهومتَين بسهولة.

رفَعَ أتريتِس كالِب فوق رأسه وهَزهَزَهُ، فاستدرَّ من الصَّبيِّ الصغير صوتَ ابتِهاج. ووقفَت رِصفة جانبًا، مُتفرِّجةً، مطعونةً.

صدَمَها شخصٌ ما من الوراء، فأطلقَت شهقةَ ألَم حادَّةً ووقعَت إلى الأمام على أتريتِس. فخفضَ أتريتِس كالِب بسُرعة، وحملَه آمِنًا على ذِراعٍ واحدة، مُثبِّتًا رِصفة بالأخرى. وحاول برنابا أن يندفِعَ حولَ جَنبِها، إلَّا أنَّ بطرس كان أسرعَ منه.

هتَفَ بطرس بانتِصار: "لَقَطتُك!" ودفعَ أخاه الأصغر دفعةً شديدة.

فتشكَّى برنابا: "ظُلمٌ! غِشٌّ!" وبدأ الصَّبيَّانِ يتشاجران بصوتٍ عالٍ.

دفع أتريتِس كالِب إلى ذِراعَي رِصفة، وبركلةٍ سريعة من قدَمِه طرَحَ كِلا الولَدَين على ظهر السفينة مُرتَطِمَين. فصرَخَ برنابا: "أوه!" فانحنى أتريتِس والتقط كُلًّا منهما بكاحِله، ورفعهما عاليًا، ثُمَّ فوق حافة السفينة تمامًا.

صاحت رِصفة مُرتعِبةً: "لا!" مُتيقِّنةً بأنَّه قصَدَ أن يُسقِطَهُما.

زعَّقَ برنابا مَرعوبًا وذِراعاه تترجَّحان بِضَراوة للتَّمسُّك بشيءٍ ما، دونَ أن يجِدَ أيَّ شيء.

"آنَ الأوانُ لتتعلَّما درسًا أنتُما الاثنَين!" وهزَّهُما بشِدَّة كافية لجَعلِ أسنانِهما تَصطكُّ. ولمَّا توقَّف، صرَّخَ برنابا أعلى، ولكنَّ بطرس تَدَلدلَ مُتَّسعَ العينَين جدًّا، وقد أسكتَته الصَّدمة سكوتًا غيرَ مَعهودٍ منه.

التفتَ الجميعُ عندَ سَماعِ الجلَبة، وبورشيا وتيمون آخِرَ الكُلِّ. فلمَّا رأت بورشيا أتريتِس حاملًا ابنَيها من كاحِلَيهما ومُدَلِّيًا إيَّاهما من فوق حافة السَّفينة، زعقَت وركضَت نحوَهُما، مذعورةً ومسعورةً للوصول إليهما قبل أن يلقَيا موتَهُما غريقَين. "ليُوقِفْه أحَدٌ ما!"

قالت رِصفة- وهي لا تكاد تقوى على التنفُّس- "أتريتِس، رجاءً، لا تَرمِهما!"

"لن يفتقِدَ أحدٌ جَروَين صغيرَين نبَّاحَين".

استمرَّ برنابا يُصرِّخ، فيما تدلَّى بطرس رأسًا على عَقِب مُرتخيًا، وعازمًا- حسَبَ كُلِّ ما يظهر- أن يموت بكرامةٍ أكثرَ من أخيه الأصغر.

وقالت بورشيا باكيةً: "تيمون! افعَل شيئًا ما!" وقد نظرَت وراءَها بتَوتُّرٍ شديد إلى زوجها الذي كان يركضُ خلفها شاحِبَ الوجه.

هزَّ أتريتِس برنابا هزًّا قويًّا من جديد. "اسكُت!" فكفَّ برنابا عن الصُّراخ كما لو أنَّ أحدًا أمسكه بحَنجرته وقطَعَ نفَسَه.

وقفَ الجميع يُحدِّقون. لم يجرؤ أحدٌ على التحرُّك، ولا حتَّى بورشيا، بعدما وصلَت إلى حافة السفينة، حيثُ كان أتريتِس حاملًا الولدَين، ووقفَت مُنتحِبةً وعاصِرَةً يدَيها. ثمَّ قالت باكيةً: "لا تُسقِطْهُما. رجاءً، لا تُسقِطْهُما. ما هُما إلَّا طِفلان. مهما فعلا، فهُما لم يقصدا أن يفعلاه".

"أطبِقي فمَكِ، يا امرأة. أنتِ حمقاء".

ثُمَّ دلَّى الولدَين كما لو كانَ مُستعِدًّا لإسقاطهما، فحبَسَ الجميعُ أنفاسَهم. "ستَستمِعان، صحيح؟"

"نعم!"

"لن تركُضا أو تصيحا أو تتقاتلا بعدُ على هذه السفينة. وإذا فعلتُما ذلك، فسأجعَلُكما طعامًا للسَّمك. هل تَسمعانِني؟"

فهزَّا رأسَهما إيجابًا بسُرعة، وشَعرُهما مُتَدلٍّ، وعَيناهُما مُنتفِختان.

"كرِّرا ما قلتُه لكُما الآن".

فكرَّرا.

"أُريدُ منكما وعدًا بذلك".

فهَذرَمَ برنابا بوعد، أمَّا بطرس فأجابَ برَزانة.

وتركَهما أتريتِس يَتدلَّيانِ قليلًا بَعد، ثُمَّ رجَّحَهُما عاليًا وكبَّهُما على ظهر السفينة عند قدمَي أُمِّهما. فلَمَّت پورشيا ولَدَيها بسُرعة وأبقَتهما بقُربها.

ضحِكَ اثنانِ من الجُنود، وهتَفَ بضعةُ أفرادٍ من ملَّاحي السَّفينة. ونادى أحدُ الرُّكَّاب قائلًا إنَّه كان ينبغي لأتريتِس أن يُسقِطَهُما لمَّا أُتيحت له الفُرصة.

ثُمَّ قال أتريتِس لپورشيا وتيمون: "أمَّا أنتُما كِلاكُما، فارْعَيا ولَدَيكما، وإلَّا ففي المرَّة التالية أطرحهما عن ظهر السفينة، وإيَّاكما بعدَهُما حالًا!"

أقامَتهما پورشيا بسُرعة وسحَبَتهما بعيدًا عن أتريتِس. "لا تقتربا من ذلك الرَّجُل ثانيةً. ابقَيا بعيدَين عنه بقَدْرِ ما تستطيعان. إنَّه همَجيٌّ، وسيَقتلُكما". وقد كانت كلماتُها عاليةً وواضحة كفايةً بحيثُ سمِعَها كثيرون.

انتخَعَت عضَلةٌ في خدِّ أتريتِس. ونظَرَ حَوالَيه بتَحَدٍّ بارد إلى أُولئك المُحدِّقين إليه.

بكى برنابا وتشبَّث بتَنُّورة أُمِّه، ولكنَّ رِصفة لاحظَت بطرس يتلكَّأ، مُحدِّقًا من تحتُ إلى أتريتِس بتَملُّقٍ. ورفعَت نظرَها إلى أتريتِس، فرأت أنَّه لاحظَ الصَّبيَّ هو أيضًا. فابتسمَ بفُتور ونخَعَ ذقنَه للصَّبيِّ كي يذهب.

قبضَ تيمون على قَفا رقَبة ابنه ودفعَه على ظهر السفينة وراء أُمِّه وأخيه. "استَمِع لأُمِّك".

أشاح أتريتِس وجهه عن أُولئك الذين ما زالوا ينظرون إليه، ووضعَ يديه على درابزين السفينة. ولم تكُن رِصفة قطُّ قد رأته يبدو أكثرَ تجهُّمًا. فتقدَّمت لتَقِفَ قريبةً منه جدًّا، فنظرَ إليها من عَلُ مدهوشًا، واكفَهَرَّت ملامِحُه. "عَمَّ تبسِمين؟"

قالت: "عنك". وقدِ انفتحَت مَسارِبُ الفَيَضانِ في قلبها.

ضاقت عَيناه، مُرتابًا حِيالَ الألَقِ الدافئ في عينَيها البُنِّيَّتين، مُحتَرِسًا أكثرَ بَعدُ حِيالَ الجوع الذي شعرَ به إلى قبولها. "كانا يستحقَّانِ ذلك".

"ما كُنتَ لتُفلِتَهُما".

"صحيح؟" وكاد يُذكِّرها بأنَّه قبلَ بضعِ ليالٍ فقط قتَلَ رجُلَين بدَمٍ بارد.

"صحيح".

"إذًا، تعتقِدين أنَّكِ تفهمينَني".

فقالت بصراحة: "لا. لستُ أفهمُكَ أبدًا. ولكنِّي أعرِف عنك ما يكفي لمُباشرةِ بداية جديدة".

ثُمَّ وضعَت كالِب على ذِراعَيه من جديد.

١٣

وصَلَت السفينة إلى كورنثوس بلا حادثة. فأنزلَ ثيوفيلُس الصُّندوقَ المُرسَل إلى الإمبراطور، فيما تولَّى العبيدُ الذين كانوا قد شغَّلوا المجاذيف من أفسُس إلى كورنثوس إفراغَ السجاجيد، والتَّوابِل القويَّةَ الرائحة، وجِرارَ الخمر، وحمَّلوها على عَربات لأجلِ الرِّحلة فوقَ البَرزَخ. وفرَّغ السبُراريي صابورةَ الرَّمل لأجل ساحةِ المُحاربين الكورنثيَّة. وسوفَ تُستبدَلُ بها على الجانب الآخر من التَّلِّ حِنطةٌ مُرسَلةٌ إلى روما.

بعدَ تفريغِ السفينة، ستُسحَبُ من الماء. وسيستغرق نقلُ القُربيطة مسافةَ الأميال القليلة إلى الخليج السَّاقونيِّ عِدَّة أيَّام، ومن هُناك تُطلَقُ لإكمال السَّفَر إلى إيطاليا. كان نيرون قد باشر العَمَل لشقِّ قناةٍ عبْرَ كِلسِ البَرزخِ المُصدَّع، ولكنَّ العمل توقَّف إثرَ موتِه، ممَّا أبقى القيام بالرِّحلة البرِّيَّة الشاقَّة المُضنية أمرًا لا بُدَّ منه.

شدَّ العبيدُ حِبالَ سفينةٍ قريبة. وتلألأ العَرَقُ على أجسادهم السَّمراء وهُم يُجاهِدون لسَحبِ السفينة إلى مِنصَّة مُتحرِّكة. إنَّ أسابيع من السَّفَر جنوبًا وغربًا في البحر المُتوسِّط تُوفِّرُ بنقل السفينة على اليابسة. كان أيلول قد جاء ومضى، والبَحرُ محفوفًا بالأخطار الشديدة في تشرين الثاني. ولئن كانَ عُبورُ اليابسة مُزعِجًا وشاقًّا، فقد كان أسلَمَ من تحدِّي عناصر الطبيعة.

قلَّما كان أتريتِس مُهتمًّا بتفاصيل تفريغِ السُّفن ونقلِها. لم يقرَّ له قرار وهو مُنحبِسٌ على ظهر السفينة الأوَّل. وباتَ الآن مُتوتِّرًا من مُستوى النَّشاط على الأرصفة وشوارع المدينة القريبة. لقد كانت كورنثوس تُشبِه أفسُس كثيرًا. هياكِلُ رُخاميَّة قائمةٌ بفخامة، باهرة البياض تحتَ ضوء الشَّمس. بائعون جوَّالون بالمزاد العَلَنيِّ ومُنادون بلَديُّون يُعلِنونَ عن بَضائعَ ومُكافآتٍ لقاءَ عبيدٍ ضائعين. بيَّاعون بالجُملة مُزدحِمون عند أحواض المرفإ، وربابِنةُ سُفُن يُقايِضون التَّوابل بالعَسَل والعقاقير والعطور التي ستؤخَذُ كلُّها إلى روما.

وبينما كلُّ واحد يجمع مُتعلَّقاته، أخبَرَ بارتيماوس ونيجَر وطيبُلُس وأغابُس الآخرين بأنَّ لديهم رسائل من يوحنَّا يُسلِّمونَها إلى أفرادٍ في الكنيسة الكورنثيَّة. وقد غادَرَ مَناسون في رِفقَتِهم.

قالت كاميلا لرِصفة وهُما ماشيَتانِ معًا: "أتريتِس ينتظِرُكِ".

رفعَت رِصفة رأسها فرأته بعيدًا في المُقدِّمة. كان تصرُّفُه تجاهَها قد تغيَّر ببَراعة، الأمرُ الذي أعطاها سببًا للحَذَر. إذ علِمَت أنَّ تجاربها الخاصَّة ستُواجِهُها. أفتكون حكيمةً في

خياراتها، سامِعةً لصوت الله الهادئ؟ أم تكون مِثلَ أفنيكي، ساعيةً وراء الخطيئة بتَلهُّف؟

موَّجَت الرِّيح رِداءَ أتريتِس وعبثَت بشَعره الأشقر. وقفَ وقتًا طويلًا ينظر إليها. ثُمَّ دار، وتابَعَ السَّير. حتَّى من تلك المسافة البعيدة، استطاعت أن تُحِسَّ انزعاجه. هل توقَّعَ منها أن تركُضَ وتلحَقَ به؟ لقد أحزَنَها أنَّه كان عاقِدَ العَزم تمامًا على البقاء بمنأى عن الآخرين، ولكنَّها كانت شاكرةً أيضًا. لم تظُنَّ أنَّه سَمِعَ اتِّفاقًا الأخبارَ المُحزِنة عن الكنيسة في كورنثوس، أو شهِدَ صِراعاتِ أفنيكي. وعلى كلِّ حال، تمنَّتِ العكس. إذ كان من شأنه أن يدين المرأة المسيحيَّة حاسبًا إيَّاها عديمة الإيمان والأمانة. فقد كانت أفنيكي امرأةً ضعيفة وغبيَّة عبثت بالخطيئة دون أن تُدرِكَ ذلك مُجرَّدَ إدراك.

وتوقَّفَ أتريتِس ثانيةً.

فقالت كاميلا: "أظُنُّ أنَّه يحسُنُ بكِ أن تذهبي".

"لا أستطيعُ أن أُجاريَه في سُرعةِ مَشيه".

ابتسمَت لها كاميلا ابتسامةً مُضحِكة. "خيرٌ لكُما أن تتوصَّلا إلى تفاهُمٍ الآن، قبلَ أن تصيرا في طريقكما إلى جرمانيا".

أزاحَت رِصفة كالِب على ذِراعَيها. "لا يسَعُني أن أسمح لنفسي بأن أقلقَ من جهة الغد، كاميلا. ما لديَّ اليومَ منَ البلاء أكثرُ من كافٍ".

فضحِكَت كاميلا. وإذ شاهدتا كِلتاهما بطرس يركضُ صاعِدًا التَّلَّ، قالت: "حسنًا، يبدو أنَّ هُنالك بعضًا يتوقون إلى رِفقته!"

جذَبَ الصَّبيُّ انتباهَ أتريتِس المُروِّعَ. لقد كان يتكلَّم بسُرعة. فأصغى أتريتِس هُنَيهةً، ثمَّ استدارَ واستأنَف السَّير، مُتجاهِلًا الصَّبيَّ.

بدَت پورشيا مذعورة. "بطرس، ابقَ بعيدًا عنه". فلوَّح لها ابنُها بيَده تلويحةً سريعة تنمُّ عن تلقِّيه ما قالت، وركض ليلحقَ بأتريتِس مُجدَّدًا. "افعلْ شيئًا ما، تيمون".

فقال برنابا: "سأذهب وأُحضِرُه". ثُمَّ ركضَ صاعدًا التَّلَّ وراء أخيه الأكبر. ولمَّا أدركَ أخاه، جاراهُ في مِشيَته، وتعقَّبا خُطواتِ أتريتِس.

قال تيمون: "أظنُّ أنَّهما سيكونان على ما يُرام". ثُمَّ عادَ إلى حديثه مع پرُوخورُس. وأمسكت پورشيا يدَ بنيامين بقبضةٍ مُحكَمة لمَّا همَّ بالرَّكضِ وراءَ بطرس وبرنابا. "ليجيا، هلَّا تحملين مريم عنِّي، رجاءً".

فقالت ليجيا- توَّاقةً إلى الإرضاء- "نعم، سيِّدتي".

وضحِكَت كاميلا ضِحكةً خافتة. "حسنًا، الأولاد على الأقلِّ ليسوا خائفين منه".

شاهدَت رِصفة الولَدَين يُهَروِلان جنبًا إلى جنب مع أتريتِس. وقد تصرَّفا كجروَين مُهتاجَين. فلم يُبطئ ليُجارِيَهما، بل أسرع في السَّير، مُنتصِبَ الكتِفَين، عاليَ الرأس. وبعدَ قليل، أبطأ الولَدان، غيرَ قادِرَين على المُجاراة. فرجَعَ برنابا إلى پورشيا وتيمون، أمَّا بطرس فتابَعَ السَّير لاحقًا بأتريتِس، مُنتصِبَ الكتِفَين وعاليَ الرأسِ أيضًا.

نادى تيمون أخيرًا: "بطرس!" وأومأ له كي يرجع. فتجهَّم وجه الصَّبيِّ، ولكنَّه أطاع. وسرعان ما اختفى أتريتِس عن النَّظر.

رجَعَ ثيوفيلُس من الموقع العسكريِّ، حيثُ باتَ هو والجنود الآخرون ليلتَهُم. وكان قد أجرى ترتيباتِ إقامةٍ موقَّتة للآخرين ودلَّهم على الطريق إلى خانٍ مُطِلٍّ على المرفإ والخليج. وقد كانت تلك المؤسَّسة تؤدِّي خدماتها للمُسافرين الذين ينتظرون نقلَ السُّفُن فوق البَرزخ.

قال لهم ثيوفيلُس: "استريحوا هُنا. الطَّعام موفور وجيِّد. اسمُ المالك أرّيوس. ليس مؤمنًا، ولكنَّه مُتعاطِف. سأبعَث بخَبَر حينَ تُعَوَّم السفينة ويغدو الرُّبَّان مُستعِدًّا لإركاب المُسافرين".

فيما دخَلَ الآخرون البوَّابة، بقِيَت رِصفة خارجًا.

قال ثيوفيلُس: "أتريتِس في المرفإ تحتُ".

فقالَت بلهجةٍ مُفعَمة بالأمَل: "هل تكلَّمتَ إليه؟"

"لا. لو كُنَّا في مكانٍ ما بعيدًا عن الآخرين، لَحاولتُ، ولكنَّه مُتوفِّزٌ للقِتال. وليس من شأن ذلك أن يكون لَصالِحِه الفُضلى إذا جعَلتُه يجري تحتَ نظَرِ حامِيَةٍ عسكريَّة. فإنَّه سيجدُ نفسَه في لُودُسٍ مُجدَّدًا. أو أسوأَ من ذلك، سيُصلَب".

اضطربَت من كلامه. "ما كُنتَ لتُقاتِلَه، أكُنتَ، ثيوفيلُس؟"

"قد يصِلُ الأمرُ إلى ذلك الحدِّ".

"ولكنَّه سيقتلُك".

"إذا سمَحَ الله".

"لقد دُرِّبَ كي يُقاتِلَ".

فرفَعَ فمَهُ ساخِرًا. "وأنا أيضًا". وبدأ يمشي مُبتعِدًا، ثُمَّ استدار. "الآنَ، لكِ على أتريتِس نُفوذٌ يفوقُ ما لأيِّ شخصٍ آخر. فاستخدِميه!"

نُفوذ؟ أرادت أن تضحك حِيالَ الفِكرة غير المعقولة بأنَّ في وسعها أن تُغيِّرَ تفكيرَ أتريتِس. ثُمَّ دخلَتِ الخان، حيثُ أرضعَت كالِب، وغيَّرَت مِلفَّتَهُ الوسِخَة، وجعلَته يلعب على بطَّانيَّة، فيما غسلت أقمِطَته وعلَّقَتها كي تجِفَّ في المساحة الصغيرة المحجوبة المُخصَّصة لها ولكاميلا وليجيا.

قعدَت ليجيا على البطَّانيَّة ولاعبَت كالِب. فراقبَت كاميلا ابنتها، مُبتسِمةً.

رجَعَ الشُّبَّان من مَهمَّتهم في وقتٍ مُتأخِّر من عصر النَّهار. وخبَّر أغابُس عنِ التقاءِ مَناسون بالصِّدفة صديقًا قديمًا وقراره تاليًا أن يبقى في كورنثوس.

فقال طيبلُّس: "لديه فِرقةُ مُمثِّلين، وقد مات واحِدٌ من مُمثِّليه الرئيسيِّين بعِلَّة في معدته قبلَ أيَّامٍ قليلة. لقد عمِلَ مع مَناسون في أنطاكية، وسُرَّ جدًّا بأن يجِدَه في كورنثوس".

وقال نِيجَر: "لقد أدَّى مَناسون الدَّور نفسَه في أفسُس قبلَ أقلَّ من شهر، وما زال يحفظ الكلِماتِ غيبًا".

فقال طيبلُّس مُبتسمًا: "وقد بدأ يتلوها هُناكَ تمامًا أمام الحمَّامات. فتأثَّرَ كثيرًا كلُّ من سَمِعَه".

وأضاف أغابُس: "لقد قرَّرَ أن يبقى هُنا بدَلَ إكمال السَّفَر إلى روما، وطلب منَّا أن نُبلِّغَكم جميعًا محبَّتَه. وسوفَ يُصلِّي لأجلنا".

فقالت أفنيكي: "ربَّما ينبغي لنا أن نُفكِّر في البقاء في كورنثوس".

واستَدرَّت مُلاحظتُها نِظرةً حادَّة من زوجها، پرميناس. "سنستأنفُ السَّفَرَ إلى روما".

"ولكنْ قد نَلقى اضطهادًا أسوأ ممَّا لقِينا في أفسُس. فالكنيسة تجتمع علانيةً هُنا".

فقال نِيجَر مُتهجِّمًا: "لأنَّهم خفَّفوا الإنجيلَ ليجعلوه مُستساغًا لدى عامَّة الناس. حضَرنا خِدمةً كنَسيَّة أمس وروَّعَنا ما يعِظُون به".

وقال أغابُس: "كان نيقولاويَّان يُجاهِران بفلسفتِهما".

فأضاف طيبلُّس: "بمُوافقة شيوخ الكنيسة".

وأضافَ نِيجَر: "عُلِّقَت إشعاراتٌ عن الصُّفوف المُقدَّمة. واحدٌ منها تُدرِّسُه نبيَّةٌ مُدَّعيةٌ تُعلِّم أنَّ حرِّيَّة المسيح تعني أنَّ في وسعنا أن نستمتِعَ بأيِّ نوعٍ من المَسرَّات يختارُه المرء".

سأل تيمون: "هل صحَّحتُم تعليمهم؟"

فأطلق طيبلُّس ضِحكةً كئيبة: "كلَّمْنا بضعةَ شَمامِسة. فاتَّفقَ معنا اثنان، ولكنَّ ستَّةً

آخرين كانوا مُعادِينَ جهرًا. قالوا إنَّنا كنَّا نتدخَّل في ما لا يَعنينا".

وقال نيجَر: "قال أحَدُهم إنَّ لي نِظرةً سُوقيَّةً ضيِّقة جدًّا إلى محبَّة المسيح. وقال إنَّ المسيح علَّمَنا أن نكون في سلام مع جميع الناس؛ ومن ثَمَّ فإنَّ ذلك يعني أنَّه لا يسَعُنا أن ندينَ مُمارساتِ أيِّ شخص. إنَّ بعضًا من أولئك المسيحيِّين قد حوَّلوا حرِّيَّة المسيح إلى إباحةٍ لارتكاب كلِّ نَوعٍ من الشَّرِّ".

وقال تيمون: "مَن لهم آذانٌ سامعة سيَسمعون ما يقولُه الرُّوح".

فقال نيجَر: "أُولئك الذين قابلتُهم كانوا صُمًّا".

وقالت أفنيكي في دِفاعٍ عاجِل: "لم تُقابِلْهم إلَّا يومًا واحدًا فقط. لا ينبغي أن تَدينوا".

فأجاب مُرتاعًا: "ما عنَيتُ ضِمنيًّا قطُّ أنَّنا كنَّا نَدين".

وبدا طيبُلُس مُتجهِّمًا. "أحيانًا، يكفي يومٌ واحد لتمييز الحقِّ من الباطل، أفنيكي. إنَّ الرُّوح القُدس يُخبرنا. فالإنجيلُ المكروزُ به في تلك الكنيسة لا يُماثِلُ إنجيلَ ربِّنا يسوع المسيح. وإنِّي أقول لكِ إنَّ يومًا واحدًا في تلك الكنيسة كان كافيًا لفَهمِ سبَبِ اجتماعهم علنًا دونَ اضطِهاد: لا فَرقَ بينَهُم وبين العالم".

وقال بُرُوخورُس: "لقد كانت لنا مصاعِبُنا في أفسُس".

"صحيح، ولكنْ كان لنا يوحنَّا يُعلي مِعيارَ المسيح ويُصحِّح أفكارنا".

سأل بُرُوخورُس: "ألا يقرأ الكورنثيُّون الرِّسالتَين اللتين أرسلهما بولس إليهم؟"

فقال طيبُلُس: "ليس بَعدُ".

"قال أحَدُ الشَّيخين اللذين تكلَّمنا إليهما واتَّفقا معنا إنَّه في المرَّة الأخيرة التي قرأا فيها إحدى رسالتَي بولس أمامَ الجماعة شاع شعورٌ عامٌّ بالانزِعاج".

وقال نيجَر: "لقد أدركوا خطيئتَهُم فلم يرُقهم أن يُذكَّروا. وقد اعترَضَ كثيرون منهم".

فقال تيمون: "الانزِعاج الذي يؤدِّي إلى التَّوبة وردِّ النَّفْس خيرٌ من الراحة الوقتيَّة والدَّينونة الأبديَّة".

"المؤسِفُ أنَّهم، على ما يبدو، قدِ اختاروا الوضعَ الأخير".

وسألت پورشيا مُتضايِقةً: "ماذا لو كانت الكنيسة في روما مُماثِلة لِلَّتي هُنا؟"

فطوَّقها تيمون بِذراعِه. "سنعرِفُ عندما نصِلُ إلى هُناك".

"وإذا كانت؟"

"نتمسَّكُ بحقِّ الإنجيل. لدَينا نُسَخٌ من رسالة بولس إلى أفسُس ورسائلِ يوحنَّا".

وقال طيبُلُس: "لم تمُتِ الكنيسةُ في كورنثوس بعد. فما زال هُنالك شيخان مُحتفِظان بالإنجيلِ النَّقيّ. وأعتقد أنَّ يوحنَّا كان يكتب إليهما عن المُعلِّمين الزائفين".

"ماذا تستطيع أقلِّيَّةٌ ضئيلة أن تفعل وهي تُكافحُ ضدَّ أكثريَّة كبيرة؟"

ثُمَّ قال طيبُلُس، مُبتسِمًا لپورشيا: "لا تنسَي مَن هو في صفِّهم. لقد غلَبَ المسيحُ العالَم. فالعالَمُ لن يغلِبَه أبدًا".

فقالت أفنيكي: "وماذا عن مُناسون؟ ينبغي لنا أن نُنذِرَه ونُشجِّعَه على مُرافقتِنا".

واكفَهرَّ وجه پَرميناس. "تُفكِّرين فوقَ الحدِّ في مَناسون!"

"هوَ أخونا".

"وأخونا قد قرَّرَ أن يبقى في كورنثوس. سنَدَعُه يفعل ذلك".

خيَّمَ على المجموعة صمتٌ مُتوتِّر، ثُمَّ تباحثوا في أُمور أُخرى. ووقفَت أفنيكي مُطبِقةً شفتَيها. وقد اجتمع كاپيو وفليمون وأنطونيا قريبينَ حوالَيها. فالتفتت إلى الوراء نحو البوَّابة مرَّةً واحدة. وإذ فعلَت ذلك، دعا پرميناس أولاده إليه. فأطاعوا سريعًا، تاركينَ أُمَّهُم واقفةً وحدَها، خارجَ المجموعة. وقد لفَّت ذِراعَيها حول نفسها، فبَدَت مخبولةً ومُرتبِكة.

قالت كاميلا مُرتعِبةً: "أعتقد أنَّها تُوشِكُ أن تَلقى دينونتها".

فقالت رِصفة: "أُصلِّي طالِبةً ألَّا تلقاها". وكانت قد رأتِ افتِتانَ أفنيكي بمَناسون يزداد. وقد لاحظ مَناسون ذلك أيضًا. فكانت إزاحتُه لنفسه من سبيل التجربة أمرًا يعود عليه بالخير والثَّناء. ولكنْ هل تختارُ أفنيكي أن تدَعَ الأمرَ على حاله؟ وهل يُسامِحُها زوجُها في كِلتا الحالَين؟

صلَّت رِصفة بصمتٍ لأجلهما.

وعطَسَ كالِب، فقهقهَت ليجيا. وابتسمَت رصفة، مشغوفةً بالفتاة الصَّغيرة. "هل تُراقِبين لي كالِب إلى حين؟"

فقالت ليجيا مُبتهِجةً: "أُوه، أأستطيعُ ذلك؟" وهزَّت كاميلا رأسها مُوافَقةً، مُطَمئنةً رِصفة بأنَّها ستكون قريبة.

وإذ عبَرَت رِصفة الفِناءَ إلى البوَّابة الرئيسيَّة، ركضَ بطرس ليلحقَ بها. "أأنتِ ذاهِبة لتُكلِّمي أتريتِس؟"

"سأُحاول؟"

"هل لي أن أذهبَ معكِ؟"

"لستُ على يقين بأنَّ أُمَّك تُوافِق، بطرس".

فصاحَ عبْرَ فِناء الخان: "ماما! هل لي أن أذهبَ مع رِصفة؟" وإذ كانت مشغولةً بالاعتِناء ببنيامين ومريم الصَّغيرة، كانت أكثرَ التِهاءً من أن تقلق ولوَّحت بالموافقة. فابتسمَ بطرس لرِصفة من تحتُ قائلًا: "أرأيتِ؟"

"ليس لديَّ أدنى يقينٍ بشأنِ مكان أتريتِس، يا بطرس. عليَّ أن أبحثَ عنه في المرفإ".

"سأُساعِدُك في العُثور عليه". وانطلقَ خارجَ البوَّابة قبلَها. فأذعنَت رِصفة، ووضعَت شالَها على شعرها، ثُمَّ تبِعَته. وكان الشارع مُزدحِمًا بناسٍ مُسافِرين إلى المرفإ ومنه. كما كانت البضائع تُنقَل بالعَرَبات ذهابًا وإيابًا.

قال بطرس: "إنَّه هُناك!" واندفعَ كالسَّهم.

رأت رِصفة أتريتِس قاعِدًا في فائم، مُحدِّقًا إليها مُباشرةً، ووجهُه باردٌ كالرُّخام المُحيط به.

كظَمَ أتريتِس انزِعاجَه لمَّا رأى بطرس راكضًا إليه. فلم يكُن في مِزاجٍ مُتقبِّلٍ لثرثرته. وقال الصَّبيُّ داخلًا الفائم: "كُنَّا نبحث عنك، أتريتِس".

"أكُنتُما؟" ورمَقَ الصَّبيَّ بنظرة خاطفة، ثُمَّ ركَّز انتِباهه على رِصفة وهي ماشيةٌ نحوَه. كانت كامِلةَ التكوين ورقيقة، لكنْ مُغثِية. وكان شعرُها الأسود مُغطًّى باحتِشام، إلَّا أنَّ خُصَلًا مُشاكِسةً انفلتَت لتُؤطِّرَ وجهَها الجميل. وقد لاحظَها الرِّجال، مع أنَّها بدَت غافِلةً عن نظَراتهم الإعجابيَّة.

وقفَت خارِجَ الفائم تمامًا، وقد التقَت عَيناها الداكِنتان المتلألئتان عينَيه. وقالت: "لكَ مكانٌ في الخان".

ترَكَ حَملقَتَهُ تتنقَّل: "ألي؟" وتساءلَ هل تنبَّهَت إلى التأثير الذي أحدَثَته فيه.

ولمَّا لم تُجِب، رفَعَ بطرس نظرَهُ إليها. "لماذا وجهُكِ مُحمَرٌّ كلُّه؟"

فضحِكَ أتريتِس وشعَّث شعرَ بطرس. "ارجِع إلى أُمِّك وأبيك، يا صَبيُّ".

"ولكنْ..."

"اذهب!" وقد كان أمرًا هذه المرَّة.

فقال بُطرس، مُقاوِمًا بَعدُ: "سأضيع".

"امشِ راجِعًا في الطَّريق الصاعد على التَّلّ. إلَّا إذا كنتَ طِفلًا وتحتاج إلى امرأة تمسكُ بيدك".

فأطاعَ بطرس. ومشى إلى الوراء قائلًا: "هُنالك سقيفة بقُرب سقيفتنا. يمكنك أن تنام فيها".

ولمَّا صارَ الصَّبيُّ خارِجَ نِطاقِ السَّمْع، قالت رِصفة: "هل كان ذلك ضَروريًّا؟"

فتظاهَرَ بِبَلادة الذِّهن، قائلًا: "أكُنتِ تُفضِّلين ألَّا أصرِفَه؟" وبرَقَت عَيناه. "سأُناديه لِيَرجِعَ إذا كُنتِ تشعُرين بأنَّكِ أكثرُ أمانًا بوجوده".

فكظمَت انزِعاجَها منه، وقالت: "لقد أحرجتَني تعمُّدًا".

استحالت ابتسامتُه ساخِرةً. "أأحرجَكِ ما قلتُه أم ما في فكركِ؟" وخفقَت على وجهه عَبسةٌ فاتِرة، ثُمَّ أمالَ رأسهَ قليلًا، وقد باتت ابتسامتُه مُتحدِّية. لقد توقَّع منها إلى حدٍّ وسَط أن ترجِعَ إلى الخان ومأمَنِ أصدقائها. ولكنَّها بقِيَت بالأحرى، مع أنَّ توتُّرها كان جليًّا بسبب بقائها. إنَّ شيئًا ما كان في بالها.

"ينبغي أن نتحدَّث".

"إذا أردتِ أن تتحدَّثي، فادخُلي واقعُدي". ولاحظَ أنَّها دخلَت الفائمَ كما لو كانت تدخُلُ قفصَ أسَد. ثُمَّ قعدَت على البنكِ الرُّخاميِّ مُقابِلَه وطَوَت يديها باحتِشامٍ على حِجرِها.

"ينبغي لنا أن نتوصَّل إلى تفاهُمٍ من نوعٍ ما قبلَ أن نمضِيَ أبعَدَ".

والتوى فمُ أتريتِس ببُطء. "لم نمضِ إلى أيِّ مكانٍ بَعد".

"رجاءً، انظُر إلى كلامي بِعَين الجِدِّ، أتريتِس".

فقال ببرودة: "أُوه، أنا جادٌّ، جادٌّ إلى أقصى حدّ". ولم يكُن راغبًا في التَّساؤل عن سبَبِ اصطِخابِ عواطِفه. فقد عرَفَ نوعَ التَّفاهُم الذي أرادَه، ولكنَّه شكَّ في أن تكونَ مُوافِقة. والحقُّ يُقال إنَّ أمَلَه سيخيب إذا وافقَت.

"ماذا ستكونُ علاقتُنا عندما نصِلُ إلى جِرمانيا؟"

"ماذا ستكون؟" ورفَعَ أحَدَ حاجِبَيه.

فشبكَت يدَيها بمزيدٍ من الإحكام. حبَّذا لو لم يكُن وجهُه بالغَ التَّقطيب ولهجتُه شديدةَ التَّهكُّم. "لستُ خادمةً تمامًا، ولكنّي لستُ..." وكشَّرَت، مُفتِّشةً على كلِمات.

فقال بدلًا منها: "زوجةً أيضًا". لقد كانت جميلة التكوين، أجمَلَ ممَّا كانت جوليا

حسْبَما تَصوَّر.

ازدادَ احمِرارُ وجهِها. حتَّى شمعي ما نظَرَ إليها قطُّ بِمِثل هذا الجوع الشَّديد. واستجابَ جَسَدُها لِما رأته في عينَي أتريتِس، فانتشرَت الحرارة، ومعها جاء الإدراك. فقالت: "لقد أعطيتُكَ الانطِباعَ غيرَ الصَّحيح". وقامَت.

"إلى أين تذهبين؟"

قالت: "راجِعةٌ إلى الخان". لقد كانت توَّاقةً إلى الفِرار. وقبلَما تمكَّنَت، قبَضَ على مِعصَمِها.

"لماذا؟"

انحبَسَ نفَسُها. "أفلِتني، أتريتِس. ليس هذا زمانًا أو مكانًا مُناسِبًا لنتحدَّثَ بأيِّ شيء".

فقام. "هذا لأنْ ليس على ذراعَيكِ طِفل؟ هل تشعُرين بالانكِشاف دونَ تُرسِكِ البشَريِّ؟"

"ليس كالِب تُرسًا، ولكنْ على الأقلِّ حين أكونُ حامِلةً إيَّاه، تراني مِثلَ أُمٍّ، وليس مِثلَ...مِثلَ..."

"امرأةٍ؟" وأجرى إبهامَه على جِلدِ مِعصَمِها الحريريِّ الناعم، فتساءل كيف يكون مَلمَسُ باقيها. وقد كان نَبْضُه يطرقُ طَرقًا، مُثيرًا غضبَه الدِّفاعيَّ. "سألتِني سؤالًا. فما قولُكِ في هذا الجواب؟ حينَ نصِلُ إلى جِرمانيا، لن يحتاجَ ابني إلى مُرضِعة".

"سيظلُّ مُحتاجًا إلى أُمٍّ".

"أُمٍّ بالتَّنشئة من بني قومِه". وأحسَّ عظامَ مِعصَمِها هشَّةً كعِظام طائر، لكنْ أقلَّ هشاشةً بكثيرٍ ممَّا رآه في عينَيها الدَّاكنتَين. فقد آذاها في الصَّميم بكلماته الجارحة. وأسوأُ من ذلك أنَّه روَّعها. ثُمَّ أفلتَها.

قعدَت رِصفة على البنك من جديد، لأنَّ رجلَيها لم تستطيعا حَمْلَها. ودافعَتِ الدُّموع.

لعَنَ أتريتِس نفسَهُ سِرًّا. أرادَ أن يقول إنَّه مُتأسِّف، ولكنَّ الكلامَ خنَقَه. لماذا انهال عليها مُهاجمًا؟ أليُثأرَ لنفسه عمَّا فعلَه به الآخرون؟ أم بسبَبِ ما شعرَ به لمَّا رآها ماشيةً في الشارع نحوَه؟

رفعَت نظَرَها إليه، وعَيناها البُنِّيَّتان عائمتان. "لقد تركتُ داري وبلَدي ورائي، أتريتِس. فهل فعلتُ ذلك لكي تأخُذَ كالِب منِّي حين تصِلُ إلى ديارك وبلَدك؟"

بالحقيقة أنَّ أتريتِس لم يستطع أن يتصوَّر أيَّةَ امرأةٍ أُخرى عداها تعتني بابنِه. فقال: "لا. لن آخُذَه منكِ. أقسِمُ بسَيفي".

مدَّت يدَيها باندِفاع وأمسكت بيده بينَ كِلتَيهما. "أُصدِّقُك بِلا حَلْفِك".

وفيما هو مُسنِدٌ ظهرَه على عمودٍ رُخاميّ، نظَرَ إليها من عَلُ بعينَين باردَتين، وكلُّ ما عداهُما ساخِن. ولمَّا أرخَت يدَه، خابَ أمَلُه...وكان شاكرًا أيضًا. فقد جعلَته يشعر بالانجِراح، ولم يرُقه ذلك.

قامَت من جديد، مُنزعِجةً من حَملقَتهِ المُبهمة. "ارجِع معي إلى الخان، أتريتِس. أنت تنتمي إلينا".

"لا أظنُّ".

فقالت: "ثيوفيلُس مع رِجاله في الموقع العسكريّ، رجاءً!" وقد ظنَّت أنَّ ذلك ربَّما كان سبَبَ تردُّدِه. ثُمَّ مدَّت لهُ يدَها. "لا تبقَ خارجًا في البَرد وأنت تلقى الترحيب بقُربِ النَّار".

ولمَّا أمسك يدَها، ابتسمَت له واستدارت لِتخطُوَ إلى خارج الفانُم. فاشتدَّت قبضتُه، مُبقيةً إيَّاها في الداخل. "ليس الآن".

رفعَت نظرَها إليه مُستفهِمةً، ثُمَّ اتَّسعَت عَيناها، وقد تحذَّرَت غريزيًّا، حتَّى قبلَما جذَبَها ليُطوِّقَها بذراعَيه. فتصلَّبَت وفتحت فمها لتعترِض. وإذِ احتضنَ قفا رأسِها بإحدى يدَيه، غشَّى فمَها بفَمِه، مُقبِّلًا إيَّاها بكُلِّ هَواهُ المكبوتِ. وقد شدَّ جِسمَها إليه، وأحسَّ يدَيها تضغطانِ للتَّحرُّر. كذلك شعَرَ بدفئها أيضًا، ودقَّاتِ قلبِها الجامحة على قلبه.

ثُمَّ أفلَتها، راضيًا بأنَّ تأثُّرَها لم يقلَّ عن تأثُّره. "أمَا زلتِ تُريدين منِّي أن أرجعَ معكِ؟"

خطَت رِصفة إلى الوراء، مُرتجِفةً ومُحاوِلةً أن تستردَّ نفَسَها. وقالت: "التَّرتيبات هي نفسُها كما كانت على السَّفينة". وقد تشبَّثت بمُقدَّمِ تُنكِها، مُتمنِّيةً لو تتمكَّنُ منِ تهدئةِ اصطِخابِ قلبها.

"ماذا عن لُقياني التَّرحيبَ بقُربِ النَّار؟" ومسَّ برِفقٍ خدَّها المُتأجِّج.

فأبعدَت يدَه بقوَّة. "إذا كنتَ لا تستطيع أن تتصرَّف بلِياقة، يكونُ أفضلَ أن تبقى هُنا!" ثُمَّ دارت مُسرِعةً وتركَته وحدَه في الفانُم.

لَحِقَ بها أتريتِس ضاحِكًا. وإذ جاراها في خَطوِها، قال: "كنتُ أتصرَّف بلِياقة". لن تتمكَّنَ أبدًا من أن تُجاوِزَه! "من جهة كَوني بَرْبَريًّا. أم تُفضِّلين بالأحرى أن أُمسِكَكِ مِثلَ بَرْسَركيّ؟ لقد سُمِّيتُ ذلك أيضًا".

"لا تمسكْني أبدًا".

"لماذا؟ لأنَّكِ أحبَبتِ الأمرَ فوقَ الحدِّ؟"

فتوقَّفَت وواجَهته، وهيَ الآنَ تبدو مُتضايقةً أكثرَ منها غاضِبةً. "لأنَّ الأمرَ لا يعني لكَ شيئًا".

"وهل يعني لكِ فِعلًا؟"

تركَته واقفًا على الطريق، ووجهُها مُستَعِرٌ. فلحِقَ بها مُجدَّدًا، إلَّا أنَّه لم يُدلِ بأيِّ تعليقٍ إضافيٍّ. وقد أحسَّت نظرَتهُ المُتَسلِّية، ففكَّرَت أنَّها ما لقِيَت قطُّ كائنًا بشريًّا أكثرَ تَبلُّدَ منه.

كان بطرس عندَ بوَّابة الخان، وبرنابا معه. فركضا لمُلاقاتهما، واصطفَّا بجانب أتريتِس، فأتاحا لرِصفةَ الفِرار. ولحِقَ بها أتريتِس إلى داخل الفِناء، مُغمغِمًا بلَعنةٍ إذ أقبل طيبُلُس ونيجَر ليُسلِّما عليه. وكان قد ظنَّ أنَّه تخلَّص منهما. ثُمَّ انضمَّ أغابُس إليهما، قائلًا: "سننامُ هُناك، أتريتِس".

نظرَ أتريتِس من فَوقِ رأسِ الشابِّ الأصغر ليَرى أين ذهبت رِصفة. وقد انضمَّت إلى كاميلا وابنتها في الجِهَة المُقابِلة من الفِناء. فنزعَت شالَها وجَثَت على القشِّ وشالت كالِب. وما إن رآها حتَّى ركَلَ الهواء برِجلَيه اللَّحيمتَين، ابتهاجًا. ثُمَّ نظرَت رِصفة باتِّجاه أتريتِس، فكادَ يستطيعُ أن يرى الفَرَجَ على وجهها- الفرَجَ من جرَّاء كونِها بعيدةً عنه، بمَنأى من مُتناوَله، وتُرسُها في محلِّه من جديد.

ليس مُدَّةً طويلة، رِصفة، لقد تخطَّيتُ أسوارَكِ مرَّةً. إنَّما في المرَّة التالية سأهدمُها حَوالَي أُذنَيك.

قالت كاميلا بهدوء: "لِماذا يبتسِمُ لكِ ابتسامةً عريضة على ذلك النَّحو؟" ناظرةً من أتريتِس إلى رِصفة، وقد بدَت بوضوحٍ مُهتاجةً ومرتبِكة.

"لكي يكونَ بغيضًا".

"هل تشاجرتُما أنتُما الاثنَين؟"

"ليس بالضَّبط". ونظرَت إلى الوراء، فشاهدَته يمشي مُبتعِدًا مع طيبُلُس والآخرين إلى مساحة النَّوم المُخصَّصة لهم. وقد كان بطرس راكضًا قُدَّامَهُم، راغبًا دونَ شكٍّ في التَّيقُّن بوجود مكانٍ له.

التفتَ أتريتِس ناظِرًا إليها مرَّةً أُخرى، فاستطاعت أن تُحِسَّ جِسمَها يَحمى ارتباكًا وخيبةً. لماذا تصرَّف على ذلك النَّحو؟ وأسوأُ: لماذا جعلَت نفسَها حمقاء؟ لو كان لدَيها أيُّ إلماعٍ إلى ما قصَدَه في الفائم، لبقِيَت خارِجَه.

قال پروخورُس: "هل تُمانِعنَ أن أنضمَّ إليكُنَّ، يا سيِّدات؟" ورحَّبت به كاميلا بمَودَّة شديدة. فانضمَّ إلَيهنَّ وأمضى الوقتَ مع أُخته، وقد ظهَرَ شَغَفُه بابنةِ أُختهِ جليًّا إذ راقَبَها تُلاعِبُ كالِب. وبعد قليلٍ انضمَّت إليهم رُودا، إلَّا أنَّ الحديث بات مُتكلِّفًا بوجودها. وقد رأت رِصفة أنَّ عاطِفةَ المرأة تُجاهَ ليجيا كانت أصيلةً ومُتبادَلة، غيرَ أنَّها عامَلَت كاميلا بتأدُّبٍ مُوجِع، في حينَ لاذت كاميلا بالصَّمت وهي مُتعِضةٌ على نحوٍ واضح.

راقَبَ أتريتِس رِصفة من الجهة المُقابِلة عبْرَ الفِناء. وكان الشُّبانُ حولَه مُنهمِكين في استِظهار آياتٍ من الكَلِمة المقدَّسة. فقد كانت في حوزة طيبُلُّس نُسخةٌ من كِلا إنجيلِ مَرقُس ورِسالة بولس إلى الأفسُسيِّين.

قرأ طيبُلُّس: "أخيرًا، يا إخوتي، تقوَّوا في الرَّبِّ وفي شدَّة قوَّته. البَسوا سِلاحَ اللهِ الكاملَ لكي تقدِروا أن تثبتوا ضدَّ مَكايدَ إبليس". وكرَّرَ الآخرون المقطع.

فقال طيبُلُّس: "مرَّةً جديدة، نِيجَر. لقد نسِيتَ «في شِدَّة قوَّته»". وقرأ طيبُلُّس المقطع من جديد، فتلاه نِيجَر على مسمعه.

عَمِلوا معًا آيةً بعد آية، ناقِشينَ الآياتِ في أذهانهم كَلِمةً كلمة. "«اثبتوا مُنطقين أحقاءكم بالحقِّ...لابسين دِرعَ البِرِّ...حاذين أرجُلَكم باستِعدادِ إنجيل السَّلام...حاملين فوق الكُلِّ تُرسَ الإيمان...خُذوا خوذةَ الخلاصِ وسيفَ الرُّوح الذي هو كلمةُ الله»".

تمنَّى أتريتِس لو باتَ ليلته في الفانُم.

واستأنفَ طيبُلُّس الكلام، فقاطعَهُ أتريتِس. "أتعتقِدون حقًّا أنَّ أيًّا من ذلك سيُخلِّص حياتكم؟"

فكان طيبُلُّس أكثرَ اندِهاشًا من أن يُجيب.

وقال أتريتِس مُتجهِّمًا: "أيُّ نَفع للحقِّ في مواجهة سيفِ روما. أيُّ خَيرٍ في كلامِ السَّلام في مواجهة إمبراطوريَّة عاكفة على سفك الدَّم؟"

فنظَرَ كلٌّ منهم إلى الآخَر، أمَلًا بأن يتلقَّى التَّحدِّيَ شخصٌ آخر.

وحاكاهُم أتريتِس مُتهكِّمًا: "تُرسُ إيمان!" ثُمَّ وقَفَ، غيرَ قادرٍ أن يقعُدَ ويُصغيَ بَعد. "خُوذةُ خلاص! السَّيفُ يمكن أن يخترِقَ كِلَيهما ويتركَكُم أمواتًا".

انكفأ نِيجَر من غضَب أتريتِس.

وقال أغابُس: "الجسد، نعم، أتريتِس. أمَّا النَّفس فلا". فركَّزَ أتريتِس غضبَه عليه.

وقال ساخرًا: "هُناك تكمن المُشكلة، أليس كذلك؟ ليسَ لِي نَفْس". ولا كان له أيُّ شيءٍ مُشترَك مع هؤلاء القَوم، أبناء التُّجَّار والحِرفيِّين. فهو قد دُرِّبَ مُحارِبًا منذُ أن كان صبيًّا صغيرًا. وقد قسَّته عَشرُ سنينَ أكثَر بَعد. أيعرِف أيُّ واحدٍ من هؤلاء الصِّبيان حقيقةَ شُعورِ المرء عندَ مُواجهة الموت؟

قال بارتيماوس: "لكَ نَفسٌ، أتريتِس".

وانضمَّ صوتٌ آخَر إلى الأوَّل: "وهي تتوقُ مُتلهِّفةً إلى الله".

فنظَرَ أتريتِس إلى طيبُلُس. "إذا كانَ لِي نَفسٌ، فهي تتوقُ مُتلهِّفةً إلى الانتقام".

واكتسبَ طيبُلُس الشجاعة من الآخرَين، فأجاب: "سيجلبُ لك الانتقامُ الموت".

"ربَّما، لكنِ الرِّضى، في السِّياقِ نفسِه".

وقال نِيجَر: "عندَنا بِشارةٌ لك، أتريتِس. المُخلِّصُ قد جاء".

فقال أتريتِس مُشمَئزًّا: "مُخلِّص!" وألقى نِظرةً باردة حولَ حَلقةِ الشُّبَّان. "أأنتم مُخلَّصون؟"

فأجابَ بارتيماوس: "نعم، وفي وسعك أنت أيضًا أن تصيرَ مُخلَّصًا".

"لقد سمِعتُ عن يسوع وبشارته. فإنَّ فتاةً عَبدةً خبَّرَتني فيما كانت تنتظِرُ مُواجَهةَ الأُسود. والآنَ أسمعُ عن ذلك منكم جميعًا، كلَّ يوم وكلَّ وقت. فأنتُم لا تُطبِقون أفواهَكُم دونَ ذلك بتاتًا. إنَّكم تتكلَّمون عن الحياة، ولكنَّ الموتَ يحومُ حولَكُم كصقرٍ جرَّاح".

فقال أغابُس: "ليس للموتِ سُلطةٌ علينا".

"ليسَ؟" وقد كان صوتُ أتريتِس باردًا ومُتحدِّيًا، وحَملقَتُه ملأى ازدراءً. "لماذا إذًا أنتم جميعًا هاربون منه؟"

سمِعَت رِصفة صوتَ أتريتِس يُعلَى غضبًا. ونظَرَت عبْرَ المساحة المُشترَكة، فرأته واقفًا فوقَ الشُّبَّان الأصغر سنًّا. وقد قاموا كلُّهم، يتقدَّمُهم بارتيماوس جميعًا. كانت وِقفتُه وِقفةَ توسُّلٍ، لا تَحَدٍّ. لقد تشبَّث به أتريتِس من مُقدَّم تُنكِه وكلَّمَه في وجهه مُباشرةً. ورفَعَ الفتى الأصغر يدَيه في إشارةِ استِسلام، فدفعَهُ أتريتِس إلى الوراء بازدراء. ثُمَّ قال شيئًا، وبصَقَ على الأرض، ومشى مُبتعِدًا.

ولمَّا لحِقَ به بطرس وبرنابا، نادَتهما پورشيا. فتوقَّف برنابا واعترض، إلَّا أنَّ بطرس تجاهلَها. ونادَت ثانيةً، بحِدَّةٍ أكثرَ هذه المرَّة، فأطاعَ الصبيُّ الأصغر. وعندما جلس أتريتِس وفخِذَيه إلى الأمام بقُرب النار، تَقَرفصَ بطرس بجانبه. فقال أتريتِس شيئًا، وحدَّقَ إليه. وقال بطرس شيئًا، فنخَعَ أتريتِس رأسه. فقام بطرس مغمومًا ومشى مُبتعِدًا. وقد لاقَته پورشيا في مُنتصف الطريق. وإذ رمَقَت أتريتِس بعصبيَّة، طوَّقَت كتِفَي ابنها بذراعها واستعجلَته لدخول سقيفَتِهم. وقد راقبَهما أتريتِس ثُمَّ أدار رأسه عنهما.

وجِعَ رِصفة قلبُها. وقلَّما أصغَت إلى الحديث المكبوت الجاري بين پرُوخورُس وكاميلا ورُودا، إذ تساءلت عمَّا أثار حفيظةَ أتريتِس على الفتى الأصغر. كان اللَّيل قد خيَّم على الجميع، وقد قعَدَ أتريتِس بقُربِ النار مُحدِّقًا إلى ألسِنة اللَّهَب، ووجهُه بُرونزيٌّ مُقسَّى. لقد بدا وحيدًا ومعزولًا عن الجميع.

دفَعَها حافِزٌ مُلحٌّ، فشالَت كالِب عن البطَّانيَّة وقامت. وإذ قالت: "اعذِروني!" مَشَت مُتخطِّيةً الباقين.

قالت رودا: "لَن تذهبي إليه هناك في الخارج، أتذهبين؟ ليس وهو في مِزاجهِ الحاليِّ".

فسألَت كاميلا: "لماذا لا ينبغي لها أن تذهب؟"

فرمقَتها رودا بنظرةِ انزعاج، وقالت بصوتٍ مكتوم: "لأنَّها قد تجعل الأُمور أسوأ. ثُمَّ إنَّ رجُلًا نظيرَه لا يمكن تَوقُّعُ تصرُّفه".

وقالت كاميلا: "أنتِ خائفةٌ منه على غِرارِ پورشيا".

"لماذا لا ينبغي أن نخاف منه؟ تذكَّري ما كانَه".

"ذلك هو الأمرُ، أليسَ؟ أنتِ لا تستطيعين أن تدَعي أحَدًا ينسى ماضيَه ويبدأ من جديد".

"لا أظنُّ أنَّه يُريد أن يبدأ من جديد. فهو يُريدُ فقط أن يرجِع إلى دِياره".

انكفأت ليجيا إلى زاوية السقيفة، واضِعةً جبينها على رُكبتيها المرفوعتين. وحدَّقَت رُودا إلى كاميلا. "فضلًا عن ذلك، ما كنتُ أتكلَّم عنكِ".

"أما كُنتِ؟"

"لستُ مُضطرَّةً إلى شرحِ أُموري لكِ".

"لا، لستِ. أنتِ واضحة كالنَّهار. إنَّكِ ترشقينَني دائمًا بالسِّهام".

وقال پروخورُس برِقَّة: ''كاميلا!'' غير أنَّ أُختَه لم تكُن مُصغية.

''لدى كُلِّ فُرصة تُتاحُ لكِ، فأنتِ...''

''لا، لستُ. إنَّما هو ضميرُكِ المُستذنِبُ ما يجعلُكِ تشنِّين هجومًا على كلِّ ما أقولُه!''

''كان يجري بيني وبين أخي حديثٌ طيِّب قبلَما انضمَمتِ إلينا. لماذا لا تُغادرين؟''

فقالَ پرُوخورُس محزونًا: ''ذاكَ يكفي!''

وملأت عينَي كاميلا دموعٌ سريعة: ''سئمتُ تعرُّضي للانتقاد والإدانة من قِبَلِها!''

فوقفَت رودا قائلةً: ''أسئمتِ منِّي؟ هل تسمع ما تقوله؟ هل ترى كيف تُعامِلُني؟ والآن، هل تُصدِّقُني بشأنها؟'' وبعينَين مملوءتَين بدموع الغضَب، نظرَت إلى زوجها مُتوقِّعةً المُساندَة. إلَّا أنَّه جلسَ صامتًا وقد بدا عليه المرَض. ''أأنتَ آتٍ، پرُوخورُس؟''

''لا''.

فامتُقِعَ وجهُ رودا. ''لا؟'' واغرورقَت عَيناها.

وقال: ''سآتي بعد دقائقَ قليلة''. إلَّا أنَّ الأوان كان قد فات.

''أنا زوجتُك، ولكنَّك دائمًا تقف في صفِّها''.

''لستُ أقِفُ في صفِّ أيِّ شخص''.

''لا؟ حسنًا، لا بأس. ابقَ. لستُ أُبالي. مشاعري لا تهمُّ بَعد، صحيح؟'' وسالت الدُّموع على خدَّيها. ثمَّ نظرَت إلى كاميلا. ''لقدِ استقبلناكِ في بيتنا، وأنتِ لم تفعلي أيَّ شيءٍ سوى مُحاوَلةِ تفريقنا''. وارتعَشَ فمُها. ''حسنًا، أخيرًا قد فُزتِ، كاميلا، أليس كذلك؟ أرجو أن تكوني مسرورة''. وانفجرَت باكيةً، ثمَّ دارت ومضت.

راقبَ پرُوخورُس زوجتَه تركض راجعةً إلى سقيفتهم. ونظر إلى كاميلا ثُمَّ أتْكأ رأسه على حائط اللَّبنِ الطِّينيِّ. وقال بهدوء: ''يا يسوع''، ثُمَّ أغمضَ عينَيه.

قالت كاميلا بفُتور: ''أنا آسِفة''.

''أنتِ دائمًا آسِفة''. وقام ببُطء، باديًا عليه تقدُّمُ السِّنِّ والإعياء. ''هذا لا يُفيد كثيرًا، أيُفيد؟''

''ربَّما ينبغي لي تمامًا أن أبقى هنا في كورنثوس''.

''التكلُّم بالغباوة لا يُسهِّل الأُمور، كام''.

"مَن هو الغبيُّ؟ أنت، لاعتقادِكَ أنَّ الأمرَ سيجري حسنًا مرَّةً! كان ينبغي لي أن أبقى في أفسُس".

"وكيف كُنتِ ستعيشين؟"

"لا أدري. كنتُ وجدتُ سبيلا".

"أنا مسؤولٌ عنكِ".

"أذلك هو كلُّ ما أعنيه لك؟ مسؤوليَّة؟ أنا أُختُك".

فقال بخشونة: "ورودا زوجتي. وما لا تستطيع كِلتاكُما أن تُدخِلَه في رأسها أنّي أُحِبُّكما كِلتَيكُما. أدعو إلى الله أن تتمكَّنا من أن تحبَّا إحداكما الأُخرى. أليس هذا هو ما يُفترَضُ أن نفعله؟"

"لقد حاولتُ، پرُوخورس. حاولت".

"كيف حاولتِ الليلة، كام؟ لقد بدأتِ أنتِ الشِّجار".

بدَت كاميلا كما لو كان قد صعقها. وعضَّت رِصفة على شَفَتِها، مُرتبِكةً لمُشاهَدةِ شِجارٍ كهذا، ولعدم قدرتها رغمَ ذلك على تجنُّبه.

"لقدِ استسلمتِ دائمًا لعواطفكِ. ذلك هو ما أوقعَكِ في البلاء. بالدَّرجة الأُولى، أليسَ كذلك؟"

"أتعمِدُ إلى البدء بطرح ماضيَّ أمام وجهي، الآنَ أيضًا؟"

"لستُ مُضطرًّا إلى ذلك، صحيح؟ أنتِ مَن لا يستطيع أن ينسى. إنَّكِ تتمرَّغين فيه". ثُمَّ لاحَظَ رِصفة، فقال مُخزًى على نحوٍ واضح: "أنا آسف". وغادَرَ بعدما قال ثانيةً: "أنا آسِف".

رفعَت كاميلا نظرها إلى رِصفة. وقالت بفَم يهتزُّ بشِدَّة: "أنتِ تعتقدين أنّي مُخطئة. هيَّا. لُوميني. الجميعُ يفعلون ذلك". وإذ غادرَت رِصفة السَّقيفة، لاحظَت كاميلا أخيرًا ابنتها مُنكمِشةً وباكيةً بصَمت في الزاوية الخلفيَّة. فقالت: "آه، ليجيا!" ووجهُها مُتغضِّن.

حزِنَت رِصفة من أجلهم جميعًا.

ماذا يجري لنا، يا ربُّ؟ كُنَّا كُلًّنا مُتقارِبين جدًّا في أفسُس. أهوَ إجهادُ الرِّحلة؟ أم كتَمْنا خطايانا جيِّدًا جدًّا، حتَّى خُيِّلَ إلينا فقط أنَّنا عرَفنا بعضُنا بعضًا؟ إذا استمرَرْنا على هذا المِنوال، سنكونُ غير نافعين لخدمتك.

تقدَّمَت من وراءِ أتريتِس. كان ساكنًا جدًّا بحيثُ ظنَّت أنَّه لم يسمعها تقترِب قبلَما تكلَّمَت.

"إذًا وضعتِ تُرسَكِ في مكانه!"

اندفعَ كالِب عن رِصفة، ودارَ مادًّا ذِراعَيه لأتريتِس. فقالت مُبتسِمةً: "إنَّه يُريد أن يلعب معك".

نهَضَ أتريتِس وأخذه. ومشى مُبتعِدًا بخُطًى واسعة بعدما تخطَّاها مُسرِعًا. فلحِقَت به رِصفة إلى سقيفة شاغرة على مقربة من زاوية الفِناء الخلفيَّة. وقد كانت معزولة عن باقي السَّقائف، يتأجَّجُ المَشعلُ خارجها. فتردَّدَت رِصفة، مُتسائلةً عمَّا قد يقوله الآخرون إذا دخلَت إليها مع أتريتِس.

اتَّكأ أتريتِس على القشِّ الجديد، وحطَّ كالِب بجانبه. فانقلبَ كالِب في الحال وحاول أن يأكل قَبصةً من العُشبِ المُجفَّف.

فقالت: "لا، لا!" ثُمَّ تقدَّمت إليه بسُرعة. فجَثَت على رُكبتَيها وأجلسَته وانتزعَت قِطَعًا من فمه. وقالت بحَزم: "لا، كالِب!" لمَّا حاول أن يأكُلَ المزيد. ثُمَّ نزعَت شالها فنشرَته وقعدَت عليه. وإذ أطلقَ كالِب زعقةً، حرَّكَ ذِراعَيه كطائرٍ يهمُّ بأن يطير واندفَعَ إلى الأمام ثانيةً.

ضحِكَ أتريتِس في خُفوت. "حسَنٌ أن تعلمي أنَّ ابني لن يستلقيَ ويدَعَ امرأةً تقول له ما يفعل".

فقالت رِصفة مُنزعِجةً: "لا أُريدُ له أن يَرعى". وقعدَت على مقربة من كالِب، مُنتبِهةً إليه لئلاَّ يحشُوَ فمَه قشًّا من جديد. وقد قوَّسَ ظهرَه وترجَّحَ على معدته مُصدِرًا أصواتًا مُضحِكة. ثمَّ دسَّ رِجلَيه تحتَه، ودفعَ نفسَه صعودًا بيدَيه. فقالت: "سيَحبو عاجلا".

تأمَّلَها أتريتِس. كانت قد أقامَت أسوارًا منذُ لقائهما في الفائم. "لو كنتُ رجُلًا مُتمدِّنًا، لاعتذرتُ كما أعتقِدُ عَن..."

"نُسِيَ الأمر، أتريتِس".

فالتَوى فمُه، وقال: "في وسعي أن أرى كيفَ نُسِيَ!" وقد أعجَبُه اللَّونُ الذي غمَرَ وجنتَيها.

أثارَت نظرتُه الشَّهوانيَّةُ أعصابَها. وبدَلًا من أن تتقهقَر، تكلَّمت بما كان في بالها. "لماذا غضِبتَ على أغابُس والآخرين؟"

انتخعَت عضَلةٌ في حنَكِه. واتَّكأ مُستنِدًا إلى الحائطِ الفاصل. "إنَّهم أغبياء".

لئن بدا مُسترخيًا بَدَنيًّا، فقد أحسَّت تَوتُّرَه المكظوم والغضَبَ مُتعاظِمًا في داخله. وكانَ ذلك حضورًا ثابتًا، تحتَ السَّطح مُباشرةً. فكانَت أخفُّ ريحٍ مُحرِّكةً كافيةً ليتفجَّرَ في أعلى موجة. وما لبِثَ أن أدارَ رأسَه ونظرَ إليها، وعَيناه الزرقاوان جميلتان بقَدْر ما كانتا مُخيفتَين. وقال: "رُغمَ جميعِ ادِّعاءاتِهما الفخيمة، فإنَّ لهُم في إلهِكِ إيمانٌ بقدْرِ ما لي تقريبًا: لا شيء!"

أقلقَتها مُلاحظتُه في الصَّميم. "إنَّهم يُجاهِدون ضدَّ قيود هذه الحياة، مثلَ جميع الباقين منَّا".

"إنَّهم لا يؤمنون بما يعِظون به، وقد سئمتُ الإصغاءَ إليهم مُتحدِّثين بلا انقطاع بشأن إلهِكُم ذاك. يتحدَّثون بعدَم حيازةِ الموتِ سُلطةً عليهم". وأطلقَ ضِحكةً قاتمة. "كلُّ ما كان عليَّ هو أن ألْمُسَ واحدًا منهم لأُرِيَهم فعلًا السُّلطةَ التي له".

"لقد أسبَلَ أغابُس يدَيه لأنَّه لم يُرِد أن يُقاتِلك".

"لقد أسبَلَ يدَيه لأنَّه خافَ أن أقتُلَه. أردتُ له أن يعلم أنَّ إيمانه ليس تُرسًا ضدَّ أيِّ شيء".

"الإيمانُ هو كلُّ ما لدَينا".

"إذا كان ذلك كذلك، فماذا أبقاني حيًّا؟ ليس لديَّ إيمان".

"أنتَ تعيش بالإيمان كما نعيش نحنُ تمامًا، أتريتِس".

"لم أعُد أُومِنُ بالآلِهة القديمة، ولن أُومِنَ بإلهِكُم أبدًا!"

رفضَت أن يُخوِّفَها غضَبُه. "نحنُ جميعًا نعيشُ بالإيمان في هذا العالَم، الإيمانِ بشيءٍ ما. فإيمانُك يكمُنُ في نفسك. أمَا ترى؟ أنت تعتقد أنَّك، لكونِكَ قد بقيتَ سالمًا عشرَ سنين في ساحة المُحاربين، تستطيع أن تمضيَ إلى الأمام سالمًا بالطريقة عَينها، بالقوَّةِ العَمياء وبِسَيف. أمَّا أغابُس والآخرون فقد اختاروا أن يؤمنوا بقُدرةٍ أعظمَ من أنفُسِهم. حتَّى حينَ يكون إيمانُنا ضعيفًا، الله هو قوَّتُنا".

ضحِكَ ضِحكةً جافَّة ونظَرَ خارجًا إلى الفناء، حيثُ اجتمَعَ آخرون في صداقةٍ حميمة أكثرَ دفئًا. لقد كان حُرًّا، ومع ذلك ما زال يشعر كما لو كانَ ظهرُه مُلاصِقًا لجِدار. ونظرَت رِصفة إلى وجهه الحجَريِّ فأُحزِنَت.

لماذا لا يمكنني أن أصِلَ إليه، أبَتاه؟ لماذا يرفضُ أن يُصغي؟

"أتريتِس، يومًا ما سيكونُ كلُّ ما تعلَّمتَه غيرَ نافعٍ لك".

فارتسَمَت السُّخرية في سيمائه. "وهل تظنّين أنَّ الكلمات التي يحفظونها غيبًا ستُبقيهم أحياءً؟"

"سيَتبرهنُ دائمًا أنَّ كلام الله صحيح وصادق، بصَرف النَّظَر عمَّن يشكُّ فيه".

رأى أتريتِس فيها ما قد رآه في هَدسَّة ليلةَ تكلَّمت معه في الزَّنزانات السُّفلى. كان لدى رِصفة نارٌ أكثرَ ممَّا كان لدى الفتاة العَبدة، هوًى أكثر، ولكنَّهما تشارَكتا في سَلام مُشترَك. رُغمَ الظُّروف. وكان ذلك هو نوع السَّلام الذي تلهَّفَ إليه وعلِمَ أنْ ليس في وسعه أبدًا أن يحوزَه.

"على الأقلّ، أنتِ تؤمنين بما تقولين".

"كذلك هم أيضًا يؤمنون، أتريتِس، ولكنَّهم صِغارُ السِّنّ وغيرُ مُجرَّبين".

فقال ببلادة: "سوف يُجرَّبون...سيُمتَحنون ثُمَّ يُصلَبون".

ظلَّت ساكتةً عدَّة لحظات، وكلِماتُه تنهش قلبها بشِدَّة. "ربَّما كُنتَ على حقٍّ. قد يموتون كما مات كثيرون جدًّا سِواهُم. ولكنَّكَ لا تفهمُ مِلءَ الأمر، أتريتِس، أو صوابيَّته. فمهما حصل، فلن يكونوا هالكين".

وضاقَت عَيناه: "وهل تعتقدين أنّي هالك؟"

فنظرَت إليه مُباشرةً في عينَيه. "نعم".

لقد فاجأته فظاظتُها دائمًا. فابتسمَ بسُلُوٍّ ساخِر، ولكنَّ عينَيه كانتا باردتَين. "أنا تائهٌ جغرافيًّا".

وإذ تشبَّكَ كالِب بالشَّال، بكى عاليًا. فشالَته رِصفة وأقعدَته في حِضنها. ثُمَّ حلَّتِ الشَّالَ من حوله. ولمَّا تحرَّرت رِجلاه، أخذَ يركُل، مُريدًا أن يُوضَعَ على الأرض من جديد. فنشرَت الشَّال، وقبَّلَت رقَبةَ كالِب، وحطَّته على بطنه من جديد. فدفعَ نفسَه صعودًا وأطلق ضِحكةً مُقَرقِرة. وإذِ ابتسمَ أتريتِس بفُتور، راقَبَ ابنَه.

قالت: "نحنُ نُشبِه كالِب كثيرًا. أنت وأنا وباقي العالم جميعًا. فنحن نُريد أن نمشيَ مُستقيمين. نُريد أن نركض. ولكنَّنا نشتبِكُ بإرادتنا الذاتيَّة. إذ نسمح للخطيَّة بأن تلتفَّ حولنا بقوَّة كأيِّ شالٍ حولَ ابنِنا. ثُمَّ ألا نفعل ما يفعلُه هو بعينه؟ نبكي طالبينَ المعونة، كلٌّ على طريقته الخاصَّة؟ نُجاهِدُ ونفشل، في أنفُسِنا ومنها؟"

كان وجهُه ساكنًا ومُبهَمًا جدًّا، حتَّى تساءلت هل يمكن أن يفهمَ ذاتَ يومٍ ما أرادت له بكُلِّ جوارحها أن يفهمه. "الله ينتشلُنا من الحمأة، أتريتِس. فبصرفِ النَّظر عن عدد المرَّات

التي فيها نتعثَّر ونسقط بسبَبٍ من غباوتنا وإرادتنا المُعانِدة، نجِدُ الربَّ يسوع واقفًا هناك، مادًّا لنا يدَه. فإن أمسكْنا بها، ينزِعُ الخطيئةَ من حياتنا ويضَعُنا من جديد على صَخرةٍ صُلبة. إنَّه هو الصَّخرة. بمَراحمِه اللطيفة، يُغيِّرنا بالتدريج أيضًا إلى شَبَهِه، ويُدخِلُنا قاعةَ عَرشِ الله".

لم تنمَّ سيماؤه عن أيِّ شيء، ولا قال أيَّ شيء. فقد تجاهلَها وراقبَ كالِبَ يلعب وقتًا طويلًا. حتَّى إنَّه لم ينظُر إليها. وقد غمَرَها إحباطٌ شديد، حتَّى أرادت أن تثِبَ عليه وتطرُقَ الكلماتِ عبْرَ جُمجُمتِه الثخينة.

استلقى على ظهره فوق القَشِّ، ووضَعَ إحدى ذراعَيه تحت رأسه. "خُذيه واذهبي".

وإذْ أطلقَت تنهُّدةً خفيفة، قامت وفعلَت كما أمَرَها.

حتَّى وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل، استلقى أتريتِس مُحدِّقًا إلى العوارِضِ فوقَه. لقد علِمَ أنَّ صمتَه أحبطَها، وآتاهُ إحباطُه شيئًا من الرِّضى. رُغمَ ذلك ظلَّت كَلِماتُها تُعذِّبه. ولقد عرَفَ السَّبب.

قبلَ سنةٍ مضَت، عذَّبَه حُلمٌ ليلةً بعد ليلة في كُهوف التِّلال خارِجَ أفسُس. كان يغرق في مُستنقع، وقد أوشك على الغَرَق فعلًا، إذ ظهَرَ رجلٌ يرتدي ثوبًا أبيضَ ناصِعًا. ثُمَّ قال: "أتريتِس!" ومدَّ يدَيه لكي يُنقِذَه.

وقد كانت راحَتا يدَيه كِلتاهُما تنزفانِ دمًا.

١٤

جاء ثيوفيلُس إلى الخان مُتأخِّرًا تلكَ اللَّيلة، ودعا الجميعَ للاجتماع معًا. ولمَّا بقيَ أتريتِس في سقيفته، لم يُدلِ بأيِّ تعليق.

ثُمَّ أعلَمَ المُجتمِعين، قائلًا: ''هُنالك سفينة مُغادِرة إلى روما بعدَ غَدٍ. إنَّها سفينةُ شَحنٍ إسكندرانيَّة، عندَ الرَّصيف الرابع من طرَفِ المرفإ الشماليِّ. عُمَّال التَّحميل والتفريغ يُحمِّلونها الآن. لقد رتَّبتُ حقَّ السَّفَر لنا جميعًا''. ورمى إلى بارتيماوس صُرَّةَ نُقودٍ ذهبيَّة. ''وزِّعِ المالَ بحيثُ يتسنَّى للجميع شِراءُ مؤونةِ الرِّحلة''.

وبينما الآخرون يتكلَّمون في ما بينَهم، انتحى ثيوفيلُس بِرصفة على انفراد. ''امشي معي حتَّى البوَّابة''. ونظَرَ عبْرَ المُجمَّع إلى حيثُ كان أتريتِس قاعِدًا وظهرُه مُسنَدٌ إلى العمود. وقد كان المُحارِب السابق يُراقِبُ ما يجري بحِدَّة باردة.

دسَّ ثيوفيلُس يدَهُ داخِلَ حِزامه، وأخرجَ بِضعَ قِطَعٍ من النُّقود الذهبيَّة. ''ما دام أتريتِس أعنَدَ من أن يأخُذَ مالًا منِّي، فسأُعطيكِ إيَّاه''.

وضعَت رِصفة يدَها فوق يده. ''أُقدِّرُ اهتمامَك، ثيوفيلُس، ولكنَّ أتريتِس أحضَرَ ذهبًا معه''.

تردَّد، مُتأمِّلًا وجهَها، خشيةَ أن تكون الكبرياء هي التي صدَّتها. فلم تكُن، وهزَّ رأسَه، قائلًا: ''ما يكفي لإيصاله إلى روما على كلِّ حال. لا بُدَّ أنَّه تركَ ثروةً طائلة في أفسُس''.

''ما كان لأيِّ شيءٍ منها حِسابٌ مُقابِلَ اشتياقِهِ للعودة إلى دياره''.

ارتسَمَت على فمِ ثيوفيلُس ابتسامةٌ بِلا مَرَح. ''بينَ جميع الأجناس التي واجهتُها في المعركة فوقَ خمسٍ وعشرين سنة، وجدتُ الجِرمانيِّين أشرَسَهُم وأكثرَهم تصميمًا على الفوز بحرِّيَّتهم. إنَّهم قومٌ لا يَلينون ولا يضعفون. اليهود يُشبِهونهم كثيرًا، ولكنَّ تيطس كادَ ينجح في إفنائهم. وأُولئك الأقِلَّاء الذين نجَوا من الإبادة الكاملة في منطقة اليهوديَّة شُتِّتوا في أنحاء الإمبراطوريَّة كلِّها''.

''التَّلهُّف إلى الحرِّيَّة فِطريٌّ لدى جميعِ الناس''.

''بقَصدٍ إلهيّ. فبوقُ المسيح يصدَحُ، وبنعمتهِ سمِعتُ أنا. فصلِّي إلى الله طالبةً أن يسمعَ أتريتِس أيضًا''.

"أنّي أُصلّي فعلًا، كلَّ حين".

فقال: "لا شكَّ"، ومسَّ خدَّها.

"هل يُكلِّفُ القِيامُ بالرِّحلة إلى جِرمانيا مالًا كثيرًا؟"

"أكثرَ ممَّا في حوزته. سنعلَمُ هل يكونُ حكيمًا كفايةً بحيثُ يقبَلُ المُساعدَة".

رافقته رِصفة إلى أن خرَجَ من البوَّابة. وإذ دارت، التقاها أتريتِس.

فبادَرَها بعينَينِ شِبهِ قاتِمَتَين: "كانَ لكُما كثيرٌ تقولانهِ أحَدُكما للآخر".

"ثيوفيلُس صديق". وخوَّفَها الغضَبُ الذي لمحَته في عينَيه.

"صديقُكِ، على وجه الاحتمال. لا صديقي".

"يمكن أن يكون صديقك، أتريتِس".

"ماذا أعطاكِ؟"

"عرَضَ علينا مالًا لشِراء مؤونة الرِّحلة إلى روما". ورأت وجهَه يتقسَّى. "علِمتُ أنَّكَ ما كُنتَ تُريد لي أن آخُذَه، فلم آخُذْه".

"سأشتري مؤونةً صباحَ غَدٍ".

"قال إنَّه ليس في حَوزتك مالٌ كافٍ للقيام بالرِّحلة إلى جِرمانيا".

"سأحصل على ما نحتاجُ إليه عندما نحتاجُ إليه".

ارتاعت رِصفة من لهجته. ولم تَنوِ قطُّ أن تسألَه كيف نوى القيامَ بذلك.

"تاليَ مرَّةٍ تتكلَّمين معه، قولي له إنَّه إذا لمَسَكِ فسأقتُلُه". وبهذه الكلمات مشى خارجًا من البوَّابةَ بخُطًى حثيثة، سالكًا في الاتِّجاه المُعاكِس لثيوفيلُس.

سَمِعَته رِصفة يطرقُ البوَّابةَ المُقفَلةَ بعد وقتٍ طويل من هبوط الظَّلام. فأدخلَه المالِك، ونهضَت رِصفة قليلًا فشاهدَته يعبرُ الفِناءَ إلى سقيفته. وقد مشى مُتقَلقِلًا، ثُمَّ ارتمى على القَشِّ. فاستلقَت من جديد وقلبُها يطرُقُ قلَقًا.

وفي الصباح التالي، بينَما هي جاثيةٌ في الصلاة مع الآخَرين، قامَ وغادَرَ الخان. ولاحَظَ ذلك آخَرون أيضًا.

قالت پورشيا: "هل تَودِّين الذَّهابَ معنا إلى السُّوق؟"

فرفضَت، مُتكلِّفةً ابتِسامةً وثقةً كانت بعيدةً عن الشُّعورِ بهما. هل خرجَ أتريتِس

ليَشرب؟ صلَّت طالِبةً ألَّا يكون ذلك. إذا رجَعَ دون أن يكون قد تولَّى الاهتمام بمسؤوليَّاته، فسَيكون عليها أن تُقرِّر ما هو أفضَلُ أمرٍ تفعلُه.

لاعبَت كالِب حتَّى نام، ثُمَّ استلقَت بجانبه تحتَ حُزمةٍ من ضوء الشَّمس. فجعلَها الدِّفءُ تشعرُ بحُسنِ الحال. وتقصَّصَت ملامح كالِب بمحبَّة، مُتعجِّبةً من كماله. وإذِ التفَّت عليه، غَطغَط عليها النَّوم وهي مُتيقِّنةٌ على نحوٍ يتعذَّر تفسيرُه بأنَّ كلَّ شيء سيكون بخير إذا تركَت أتريتِس ونفسَها في يدَي الله.

لمَّا رجَعَ أتريتِس، وجدَ رِصفة نائمةً على القَشِّ، وابنَهُ مُكَنكِنًا بلِزقها. فوقف وقتًا طويلًا، ناظرًا إلَيها فحسْب. لقد كانت تلك رفاهيةً نادرًا ما أُتيحَت له. وأرادَ رِصفة بوسائل تخطَّت ما هو مادِّيٌّ- وسائل لم يستطِع حتَّى فهمَها، فغمرَته تلك الحقيقةُ بالقلَق. وقد جعلَهُ ضَعفُه أمامَ الجميلاتِ ذواتِ الشَّعر الداكِن والعيون الدَّاكنة مُحترِسًا من هذه المرأة. حتَّى لقدِ استولى عليه الهاجِسُ الثَّقيلُ الوطأةِ بأنَّ في وسعها أن تُقطِّعَ قلبَهُ أجزاءً أصغرَ ممَّا قطَّعَته جوليا يومًا.

ثُمَّ حطَّ حِملَهُ مُنزعِجًا، فأيقظَتِ الخَبطةُ وخَشخشَةُ القَشِّ رِصفة. وقد كانت عَيناها البُنِّيَّتان غائمَتين إذ جلست وأزاحت خُصَلًا مُجعَّدة من الشَّعرِ الدَّاكن بِقَفا يدها، وقالت: "لقد رجَعتَ!" ثُمَّ ابتسمَت.

دَفئَ دَمُه حتَّى في أثناءِ ارتفاعِ دِفاعاته، وقالَ باقتِضاب: "ألقي نظرة وتيَّقني بحِيازتنا كلَّ ما نحتاج إليه".

تساءلَت رِصفة كيف أمكنَ أن يبقى رجُلٌ ما غاضبًا مُدَّة طويلةً كتلك بسببِ أمرٍ تافِه. وأرادت أن تقول شيئًا ما عن ثيوفيلُس، إلَّا أنَّها علِمَت أنَّ ذلك لن يُجديَ نفعًا. فمن شأن أتريتِس أن يختارَ الافتِكارَ في ما يُريدُه، وما كانت الاعتراضاتُ من قِبَلِها إلَّا لتزيد الأُمورَ سوءًا.

قعَدَ أتريتِس القُرفُصاءَ وراقبها إذ فتحَت كيسًا ومرَّرت أصابِعَها في خليطٍ من العَدَس والحِنطة والفاصوليا والشَّعير. وكان قد اشترى فاكِهةً مُجفَّفة وشيئًا من اللَّحمِ المُقدَّدِ أيضًا. ثمَّ التقطَت صُرَّةً أُخرى، فقال: "مِلح. تلكَ القارورة تَحوي زيتَ زيتون. والأُخرى عَسَلا". ورفعَ الأزقاقَ الملأى عن كتِفَيه ثُمَّ أنزلَها على الأرض بانتِباهٍ فاقَ ما كانَ منه عندَ إنزالِ سواها. "نبيذ، مُخفَّف بالماء بحيثُ يدومُ أُسبوعًا على الأقلّ".

رفعَت رأسَها ونظرَت إليه، وقد غمَرَ النُّورُ سيماءها. كانت جميلةً جدًّا بحيثُ وثَبَ قلبُه. وقالَت: "أحسنتَ في ما فعلتَ". فإذا بعبارتها الإطرائيَّة البسيطة تخترقُ الحواجِزَ التي

كان قد بذَلَ كلَّ جَهدٍ لنَصبِها حولَ قلبه. ولكنْ كما ازدادت المشاعِرُ الرقيقة كذلك أيضًا ازدادت صرخَةُ الإنذار في داخله.

وإذِ انكفأ داخِلَ حِصنِ غضَبِه، حدَّقَ إليها من عَلُ. وقال بتهكُّم لاذع: "وذلك يُفاجئُكِ. لا تشُكّي في هذا، يا امرأة. سأُوصِلُ ابني إلى جِرمانيا بمَوارِدي الذَّاتيَّة ودونَ مُساعَدة!"

صُعِقَت رِصفة وجُرِحَت، وراقبَته يمشي مُبتعِدًا، فتساءلت أيَّ أمرٍ سيِّئ قد فعلَتِ الآن.

١٥

ركِبوا متنَ سفينةِ الشَّحن الإسكندرانيَّة في أثناء الساعات السابقة للفجر. كان عدد الرُّكَّاب أكبرَ هذه المرَّة، إذ بلغَ مجموعُهم مئةً وتسعةً وخمسين، وكانت المساحة على ظهر السَّفينة عزيزة. وقد أرسلَ عِدَّةُ مُسافِرين أغنياء خُدَّامًا قُدَّامهم، فنصبوا سقائفَ مُتقَنة وأعدُّوا أسِرَّةً لسادتهم، تاركين فُسحةً ضئيلة للآخرين الذين كان معهم زوجاتٌ وأولاد.

قامت مراكِبُ صغيرةٌ قويَّة يدفعُها ستَّةُ مُجذِّفين بوَصلِ حِبالٍ، وقطَرَت السفينة من جانب الرَّصيف إلى مياه خليج كورنثوس الأكثر عُمقًا. وعلى مدى ساعتَين لبِثوا في مكانٍ واحد، ثُمَّ هبَّت الرِّيح. فخفقَت الأشرِعةُ وامتلأت، وأبحرَت السَّفينة في المَمرِّ الواسع نحو أكتيوم والبحر المُتوسِّط.

كانت كاميلا ساكنة ومُستغرِقة في التفكير إذ شاهدَت ابنتها تتحدَّث مع رُودا.

ولاحظَتهما رِصفة أيضًا، فقالت: "هُما مشغوفتان جدًّا إحداهُما بالأُخرى".

"ما فعلت رُودا قطُّ أيَّ شيء يؤذي ليجيا. فإيَّايَ فقط تُحاوِلُ أن تؤذي".

"كما تفعلين أنتِ بها".

رمقَتها كاميلا بحِدَّة، وقد شعرَت بالتَّأنيب الرقيق. "إنَّها تنجح".

"وكذلكِ أنتِ أيضًا. أنتُما كِلتاكُما بارِعتان في هذا المجال. ومؤلِمٌ أن تُسمَعا، بل مؤلِمٌ أكثرَ بَعدُ أن تُشاهَدا".

كشَّرَت كاميلا وجذبَت بطَّانيَّتَها حولها. واتَّكأت إلى الوراء مُحدِّقةً إلى الشِّراع. ثُمَّ قالت بضَجَر: "لستُ أدري لماذا نقول الأُمور التي نقولُها. حتَّى إنِّي لا أتذكَّر متى بدأ ذلك. أحيانًا، مُجرَّدُ طريقةِ نظَرِها إليَّ تجعلني راغبةً في صفعها على وجهها". ونظرَت إلى رِصفة. "لقدِ ارتكبتُ غلطة. وأنا أعرِفُ ذلك. فلا داعيَ لأنْ أُذكِّرَ بها كلَّ حين. إنَّها دائمًا تُراقِبُني وتنتظِرُ منِّي أن أُخطئ في فَعلِ شيءٍ ما".

"تمامًا مِثلَما تُراقبينها أنتِ وتنتظرين منها أن ترتكبَ ما تُعابُ عليه".

"ليس هذا مُنصِفًا!"

فقالت رِصفة برِفق. "الأمرُ صحيح. يجب على إحداكُما أن تتوقَّف".

أشاحَت كاميلا بناظِرَيها من جديد. "لو علِمتُ كيف، لفعلتُ ذلك".

"لقد سَمِعتِ كلمةَ الله بوضوحٍ كما سمِعتُها أنا، كام. صلِّي لأجلها".

قالت: "القولُ أسهلُ من الفِعل". وقد امتلأت غيظًا بحيثُ لم يبقَ مكانٌ لأيِّ شيءٍ آخر.

"فرِّغي ذاتَكِ. نادرًا ما تكونُ إطاعةُ الله مسألةَ سهولةٍ وراحة، ولكنَّها دائمًا تجلب برَكة. ثُمَّ شالت كالِب من قَيلولته وخرجَت لتمشيَ قليلًا على ظهر السَّفينة. كان الجوُّ باردًا. وقد فضَّلَت أكثرَ مأوى الخيمة الصغيرة، غير أنَّ كاميلا احتاجت إلى وقتٍ تنفرِدُ فيه كي تُفكِّر.

اقتربَت رُودا قليلًا: "انضمِّي إلينا، رِصفة". ورأت رِصفة كيف خفَقَت حَملقتُها صَوبَ السَّقيفة الصغيرة، حيثُ كانت أُختُ زوجها.

قالت رِصفة، مُراعِيةً مشاعِرَ كاميلا: "أحتاج إلى شيءٍ من التَّمرُّن". فهي لم تُرِد أن تظُنَّ كام أو رُودا أنَّها مُتحيِّزة.

وقف أغابُس وطيبُلُس بقُرب مُقدَّم السفينة، مُتحدِّثَين إلى بضعة مُسافِرين. وكان پرميناس وأفنيكي مع ثيوفيلُس، في حينَ قعَدَ أولادُهم الثلاثة على ظهر السَّفينة يلعبون لُعبةَ التِقاطِ عِيدان. وكان نِيجَر وبارتيماوس واقِفَين بقُربِ الصَّاري، يتحادثان. وكان بِضعةُ جُنود يُقامرون قُربَ الباب المؤدِّي إلى عنبر السَّفينة. وكان تيمون وپورشيا يجدَّان في العمل معًا على نَصب سقيفتِهما الصغيرة مُجدَّدًا، بعدما انهارَت. أمَّا مريم وبنيامين وبرنابا فكانوا على مقربة، يلعبون في لَفَّةِ حِبال.

وجدَت رِصفة أتريتِس مُتَّكئًا على حائطِ حُجرةِ صاحبِ السفينة، مكتوفَ الذِّراعين. وقد كان يُحدِّق إلى التِّلال الجنوبيَّة بعيدًا، غيرَ سامعٍ كما يبدو أيَّةَ كلمةٍ ممَّا كان بطرس يقولُه له. ففكَّرَت هُنيهةً في الانضمامِ إليهما، ثُمَّ قرَّرَت إلَّا تفعل ذلك.

تمشَّت رِصفة على ظهر السفينة. ومرَّ بها مقدونيٌّ داكِنُ البَشَرة، فغمرَها القلَقُ حيالَ طريقة تأمُّلِه لها.

مع أنَّ هبوب الرِّيح كان ثابتًا، فقد كان الإبحارُ في خليج كورنثوس بطيئًا. وقد أشرقت الشمس وغابت بِضعَ مرَّاتٍ قبلَما أبحروا مُقابِلَ پترايي وأراكسُس على ساحل اليونان. ولمَّا أبحروا خارِجَ الخليج، توجَّهوا غربًا، مُجاوِزين رأسَ كيفالونيا الجنوبيَّ. ووراءَ ذلك انبسطَ البَحرُ الإيونيُّ.

كرَّتِ الأيَّام واحدًا إثرَ واحد على نحوٍ مُضجِر، حتَّى لاحَت سفينةٌ للعِيان. فصاحَ

أحَدُ القَيِّمين قائلًا للرُّبّان: "إنَّها هَميوليا ذاتُ صَفَّين من المجاذيف!" وأثارَ رُعبًا عامًّا لدى كُلِّ مَن كانوا يعلمون أنَّ سفينةً كتِلكَ كانت مُفضَّلةً عند القَراصِنة. "إنَّها مُتوجِّهةٌ إلينا مُباشرةً!"

تلك السفينة التي يُشار إليها أحيانًا بمُصطَلح "واحِدة ونِصف" كان يُسيِّرُها مُجذِّفون فضلًا عن الأشرِعة. وقد جرَت في المياه بسُرعة، في حين تحرَّكَت سفينتُهم الإسكندرانيَّة ببُطء، مُثقَّلةً بالحُمولة والرِّياحِ اللامُبالية.

"إنَّها إلِّيريَّة، أيُّها الرُّبّان، ومُقبِلةٌ بسُرعة".

بدأ المُسافِرون يُذعَرون. فصاحَ ثيوفيلُس طالِبًا الحِفاظَ على النِّظام، وأمَرَ النِّساء والأولاد بالنُّزول إلى الأسفل.

"لا مكان!"

"دبِّروا مكانًا!"

صاح واحدٌ من الرُّكَّاب الأغنياء: "قيلَ لي إنَّ الأُسطول الرُّومانيَّ يحرس هذه المياه! أينَ هو؟ لماذا لا يقومون بحمايتنا؟"

"انطلقَ أسطولٌ بحريٌّ من برنديزيوم، ولكنَّهم لا يستطيعون أن يكونوا في كلِّ مكانٍ دفعةً واحدة. والآن، تحرَّكوا!"

راقبَ أتريتِس المُسافِرين المُتزاحِمين لجمع أمتعتهم، فيما ركضَ آخرون نحو البوَّابة المؤدِّية إلى السُّلَّم تحتُ. وكان ثيوفيلُس يُصدِرُ الأوامر بصوتٍ عالٍ، والرِّجال يشتمون، والنِّساء والأولاد يزعقون. وكان عبدان يحملان صُندوقًا صغيرًا، لكنْ ثقيلًا كما بدا واضحًا، يشقَّان طريقَهما وسطَ الحُشود، بناءً على أمرِ سيِّدِهما.

صاحَ ثيوفيلُس: "انصبوا المَنجنيقات!" مُراقِبًا كيف كانت مجاذيفُ الهَميوليا ترتفع وتنخفض بسُرعة ودِقَّة، دافعةً السفينة عبْرَ المياه.

لعَنَ أتريتِس وأجالَ بصَرَه في أنحاء ظهر السفينة بحثًا عن رِصفة.

صاحت پورشيا: "بطرس! أين بطرس؟" فيما دفعها تيمون مع الأولاد الثلاثة الآخرين نحو مدخَلِ أسطُحِ الحُمولة.

نظرَ أتريتِس من عَلُ إلى الولد الواقف بجانبه، وقال: "اذهَب مع أبيك!"

دفعَ أتريتِس الصَّبيَّ دفعةً قويَّة في اتِّجاه تيمون وركضَ نحوَ رِصفة، وقد كانت واقفةً

خارِجَ خيمتها تُحدِّق بِرُعب إلى السَّفينة المُقتربة. وإذ قبضَ على ذراعها ونخَعَها نحو بابِ حُجرةِ المالِك، لهثَت من الألَم. لقد كانت الهَميوليا قريبةً جدًّا، بحيثُ استطاع أتريتِس أن يرى رجالًا مُسلَّحين على متنها الرئيسيّ. فقال بصَوتٍ خفَضَه الغضَبُ الشديد: "ادخُلي إلى هُناك وأقفِلي البابَ بالمِزلاج!"

عِلمَ أتريتِس أنَّ خَنجرَه لن يكونَ نافعًا في المعركة الآتية، وبحَثَ عن سِلاحٍ أفضَل.

صاحَ ثيوفيلُس: "أتريتِس!" ورمى إليه رُمحًا.

أزَّ وابِلٌ من السِّهام فوق فُسحة الماء المُتقلِّصة بين السَّفينتين، وأخطأ أحَدُها رأس أتريتِس عن قُرب. وأصابت سِهامٌ أُخرى أهدافها في الرُّكَّاب الذين ما زالوا يُحاولون النُّزول إلى الأسفل. ومزَّقَتِ الهواءَ صرَخاتُ الألَمِ والذُّعر. وظلَّ الرُّبَّان يُطلِقُ الأوامر صياحًا.

ارتفع بحِدَّةٍ صفُّ المجاذيف في الهَميوليا ثُمَّ انكفأ، فترجَّحَت السَّفينة مُستديرةً بشِدَّة.

انقبَضَ قلبُ أتريتِس حيالَ ما رآه.

وصاحَ جُنديٌّ: "إنَّهم مُجهَّزون بجُسور مُتحرِّكة، سيِّدي القائد".

كان ثيوفيلُس قد رأى فعلًا جُسورَ الانتقال المُتحرِّكة تُدارُ حول الصَّاري القصير المُثبَّت على مُقدَّم الهَميوليا. وتحتَ الطَّرفين الخارجيَّين لاثنَينِ منها استطاعَ أن يرى الحدائد الحادَّة. فإذا أُسقِطا على مَتن سفينة الشَّحن الإسكندرانيَّة، تخترق الحدائد وتُثبِّتُهما. فأمَرَ: "النَّار!" فأُطلِقَت المَجانِقُ مُرسِلةً جِرارًا من الزَّيت، ما لبِثَت أن تحطَّمَت على ظهر الهَميوليا فيما أطلق الجنود وابِلًا من السِّهام المُلتهِبة.

ترجَّحَت الهَميوليا مُستديرةً وهجمَت بقوَّة على الإسكندرانيَّة. فرَجَّت الصَّدمة أتريتِس على قدَمَيه وجعلَت الرُّكَّاب المُصرِّخين يتهاوَون على السُّلَّم نزولًا. ثُمَّ علِقَت رؤوس الجُسور، واندفعَ الإلِّيريُّون فوقَها، مُطلِقينَ صَيحاتِ حَرب.

بدَلَ أن يرميَ أتريتِس الرُّمح، استعملَهُ كَعَصا مُلاكمة. وإذ أطلقَ صيحتَهُ الحربيَّة الخاصَّة، أهوى بالرُّمح على جانبِ رأس إلِّيريٍّ، ثُمَّ دار ليطعنَ نَحْرَ آخَر. وتفادى من ضربةِ سيفٍ، صادمًا مُهاجِمَه بكتِفه، فدفعَهُ إلى الوراء مُصطدِمًا ببضعةِ سِواه.

سُمِعَت في أنحاء مَتنِ السفينة أصداءُ صَليلِ السُّيوف المُتضارِبة، فضلًا عن صَرَخاتِ رجالٍ يُحتضَرون. وإذ وثَبَ أتريتِس إلى السَّطح الأعلى، أحسَّ وخزةً حادَّة في كتِفه اليُمنى فيما أُطلِق سَهمٌ بقُربه. فاستشاط غضبًا، ورمى رُمحَه، فشكَّ راميًا وثبَّته على برميل.

علِمَ أنَّ تلك كانت غلطة حالَما غادَرَ الرُّمحُ يدَه، إذ وقَفَ في العَراء، بِلا وِقاءٍ فعلًا. وقد صدَمَه أحَدُهم دافعًا إيَّاه إلى الوراء فيما ثلاثةُ إلِّيريِّين يتسلَّقون السُّلَّم.

ضرَبَ ثيوفيلُس كتِفَ الرَّجُلِ الأوَّل، ثُمَّ ركَلَ السَّيفَ السَّاقط إلى أتريتِس، فيما صدَّ طعنةَ سَيفٍ من المُهاجِم الثاني. ورفَسَ الرَّجُلَ نزولًا على الدَّرج، دافعًا اثنَين آخَرين إلى الوراء.

التقطَ أتريتِس السَّيف وكادَ يستعمله ضدَّ الرَّجُل الذي أنقذ حياته توًّا. وإذ صرَّ بأسنانه، وقَفَ غارِزًا قدمَيه فيما استدارَ ثيوفيلُس. ولمَّا رأى قائد المئة وِقفَته القِتاليَّة، ابتسمَ ابتسامةً كئيبة. "غَدرٌ، أليَس كذلك؟" فأسبَلَ سيفه.

دفَعَه أتريتِس جانبًا، وقفَزَ نزولًا على المتن الرئيسيِّ، فدخَلَ أسوأَ الشِّجار، صابًّا جامَ غضَبِه على أيِّ مَن جَرؤَ على الاقتراب منه.

كان في وسع رِصفة أن تسمع جَلَبةَ القِتال من خلالِ بابِ حُجرةِ المالك. وترجَّعَ على البابِ صدى خبطتَين قويَّتين. ثُمَّ صاحَ أحَدُهم وحصلت خبطةٌ أُخرى، أشدُّ هذه المرَّة. وتحطَّم مِزلاجُ الباب. ففتحت رِصفة صُندوقًا ورمَت خارجًا نِصفَ ثياب المالك، ووضعَت كالِب داخِلَ الصُندوق ثُمَّ أغلقَت غِطاءه.

ما إنِ استدارت، حتَّى انفتحَ البابُ مُدَوِّيًا. فإذا في مدخل البابِ المُسافِرُ المقدونيُّ. ودخَلَ حاملًا بيَدِه غلاديوسًا. ثُمَّ قال— وعيناهُ الداكنتان تبرقان— "الجائزة التي أُريدُها. ستجلبُ لي سِعرًا جيِّدًا". وقد وقَفَ جانبًا فيما دخل اثنانِ آخرانِ المأوى الضَّيِّقَ. "خُذاها!" وإذ أصدرَ الأمر، انصرَف.

وقفَت ساكِنةً كما لو كانَ الرُّعبُ قد روَّعها، حتَّى اقتربا منها. ثُمَّ استعملَت كلَّ ما كانت قد تعلَّمته في شوارعِ أفسُس لتمنعَهما أن يُلقيا أيديَهُما عليها. فضرَبَت وركلَت، وعضَّت وخمَشَت، مُصرِّخةً في أثناء ذلك.

رأى أتريتِس المقدونيَّ يدخُلُ الحُجرة، ولكنَّه كان في قَلبِ الشِّجار على المتن الرئيسيِّ، فلم يستطِع أن يفعل شيئًا. وقد حَزَّ جَوْفَ أحَدِ المُهاجِمين ورفَسَ آخَر إلى الوراء. وإذ صدَمَ ثالثًا بكتِفه، حاولَ أن يشقَّ طريقَه وسطَ المَعمعة. وقد رأى إلِّيريِّين يدخُلان الحُجرة حالَما غادرَها المقدونيُّ، دالًّا آخَرين على الغنيمة في الأسفل.

مضى أتريتِس مُتقدِّمًا إلى الأمام لمَّا رأى القُرصانَين يجُرَّان رِصفة من الحُجرة. وقد كانت تُقاوِمُهما عندَ كلِّ قِيراطٍ من الطَّريق. وضرَبَها أحَدُهما بقبضته، فأطلقَ أتريتِس جأرةَ غضَب. ووصل إليهم قبلَما أُتيحَ للإلِّيريِّ وقتٌ ليرفَعَها إلى كتِفه. فإذ رأيا أتريتِس، تراجعا عنها كِلاهما، ولكنْ ليس في الوقت المُناسِب للنَّجاة بحياتَيهما.

"قَوادِسُ رومانيَّة!"

تيسَّرَ لكثيرين من القراصِنة أن يُطلِقوا غنائمَهم وينسحبوا عبْرَ اثنَين من الجُسور، ولكنَّ أتريتِس قفَزَ إلى السُّلَّمِ الثالثة مُتشبِّثًا برُمحه، مانعًا الآخرين من النَّجاة.

صاحَ ثيوفيلُس: "أتريتِس! فليذهبوا!"

أهوى أتريتِس بالضَّرب شمالًا ويمينًا، جائرًا بصَيحتهِ الحربيَّة. وتفجَّرَ الألم في كتِفه اليُمنى، فهَوى إلى الأمام. وإذِ اختلَّ توازُنُه، سقَطَ في الماء ورأسُه في المُقدِّمة. وقد كانت سقطتُه قويَّةً فغاصَ في مياه البحر الإيونيِّ الباردة. وانهمَرَت السِّهامُ حوالَيه، وهي لا تكادُ تُخطئُ هدَفَها. ولمَّا لم يقدر أن يُحرِّكَ كتِفَه اليُسرى، رفَسَ الماء بقدَمَيه صعودًا. وإذِ اخترقَ السَّطح، شاهَدَ الجِسرَ فوقَهُ يُرفع. وقد أحدَثَت مَجاذيفُ الهَميوليا خبطةً عاليةً لدى ارتفاعها، وأُخرى لدى انخفاضها، وقد ضرَبَه أحَدُهما على رأسه.

رأى ثيوفيلُس ما حدَثَ مِن على ظهر السفينة الإسكندرانيَّة. فنَزَعَ خُوذته ودِرعه، وأطلَقَ أمرًا بصوتٍ عالٍ، وغطَسَ في الماء. وأوصلَته ضرباتٌ قويَّةٌ سريعة إلى أتريتِس وهو يغرق، فتشبَّثَ بشَعر الجِرمانيِّ الطَّويل، وسحَبَه إلى سطح الماء، وأمسك بالحَبل الذي دُلِّيَ. كان أتريتِس فاقِدَ الوعي، والدَّمُ يتدفَّق من جُرحٍ بليغ في جبينه. وفيما ثيوفيلُس يُكافحُ لإبقاءِ نفسهِ عائمًا والحَيلولةِ دون غرَق أتريتِس، ربَطَ الحَبلَ بإحكام. "ارفعوه!"

"حذارِ السِّلكَ!" ودُلِّيَ إليه حَبلٌ ثانٍ، فتشبَّثَ به. وإذ غرَزَ قدمَيه على جانب السفينة، مشى صاعدًا فيما شدَّ رجالُه من فوق.

انبطحَ أتريتِس على ظهر السفينة ووجهُه إلى الأسفل، وقد نتأ السَّهمُ من كتِفه اليُسرى. فقال ثيوفيلُس: "أبقوهُ مُمدَّدًا إذا حاولَ أن ينقلِب". وقد جثا على إحدى رُكبتيه وقبَضَ على قصَبة السَّهم. ثُمَّ سحَبَ السَّهمَ بِنَترةٍ واحدة ثابتة. فأنَّ أتريتِس ورفَعَ رأسَه قليلًا، ثُمَّ استرخى مُجدَّدًا.

وقال ثيوفيلُس: "ينبغي أن يُكوى الجُرح". ثمَّ أرسلَ واحدًا من رجاله ليَرى هل من كانُونٍ مُوقَد فيُحضِرَه، وإلَّا فليوقِدْ واحدًا.

اخترَقَ ألَمٌ حارِقٌ كتِفَ أتريتِس اليُسرى، مُنتزِعًا إيَّاه من قلب الظُّلمة المُحيطة به. فحاولَ أن يقومَ وينجوَ من الحريق، ولكنَّ يدًا قويَّة دفعَته إلى تحتُ من جديد. "لقد كوَينا جُرحَ كتفِكَ لوقف النَّزف ومنع الالتهاب".

وإذ عرَفَ أتريتِس صوتَ ثيوفيلُس، جاهَدَ كي يقوم. "ارفَع يدَيكَ عنِّي!" ووقَفَ على قدَمَيه من جديد، فترنَّحَ قليلًا من جرَّاء فُقدانِ الدَّم. وأمسكَ جنديٌّ بذراعه لكي يُثبِّته، فدفَعَه جانبًا بعُنف. "المِسني، يا رومانيُّ، فأقتُلَك!" فمدَّ الجنديُّ يديه إذعانًا وهزَّ كتِفَيه لثيوفيلُس قبلَ أن يتحوَّل مُبتعِدًا.

التفتَ أتريتِس ونظَرَ عبْرَ متنِ السفينة. "أين رِصفة؟"

فقال ثيوفيلُس: "هيَ بخَير. إنَّها في الحُجرة مع ابنك".

تردَّدت فجأةً أصداءُ اصطِدامٍ مُدَوٍّ عبْرَ المياه إذِ اخترَقَت قادِسٌ رومانيَّةُ الهَميوليا، مُشعِّثةً المجاذيفَ وشاقَّةً ثغرةً واسعةً في جانب سفينةِ القَرصَنة. وإذِ التفتَ أتريتِس ليُراقِب، صاحَ بلَعناتٍ جرمانيَّة استنزلَها على رؤوس الإلِّيريِّين، فيما أمكن أن تُسمَعَ عبْرَ المياه صرَخاتُ العبيد المربوطين بمجاذيفهم. واندفَقَ البحرُ داخِلَ بَدَنِ السَّفينة فيما أُنزِلَت جسورٌ مُتحرِّكة رومانيَّة على ظهر الهَميوليا وذهب العَسكرُ ليُعمِلوا حدَّ السَّيفِ في القراصِنة.

وقف ثيوفيلُس صامتًا، يُحدِّقُ باكتئابٍ إلى المشهد. وكانت قادِسٌ رومانيَّةٌ أُخرى تُطبِق على الهَميوليا باتِّجاهِ الرِّيح، مستعدَّة لتقديم المعونة للرُّفقاء في حال احتاجوا إليها. إلَّا أنَّهم لم يحتاجوا.

أشاحَ قائدُ المئة وجهَه صوبَ الأشلاء على المتن حواليه. وإذ أغمض عينَيه، جَثا وأطرقَ رأسَه قائلًا: "لكَ المجدُ، يا إلهَنا، من أجلِ نجاتنا". وقد تهدَّجَ صوتُه العميقُ أسَفًا على كُلفة تنفيذ مسؤوليَّاته بوصفه عسكريًّا. أيُّ ثمَنٍ باهظ لجَشَعِ البَشَر!

خطا أتريتِس فوق الساقطين وهو مُتوجِّهٌ إلى حُجرةِ مالكِ السَّفينة. فلمَّا دخَل، كانت رِصفة في الداخل، جالسةً على السرير تُهدِّئُ كالِب. وعندما رفعَت نظَرَها، رأى الكدمة المُتورِّمة على حنَكِها، حيثُ كان الإلِّيريُّ قد ضرَبَها. فحَمِيَ دمُه من جديد، وضخَّ قلبُه الدَّمَ بشِدَّة وسُرعة.

قالت برِقَّة: "أتريتِس!" وقد عكَسَ وجهُها اطمئنانها وقلَقَها. إذ كان الدَّمُ ينزُّ من جُرحٍ مفتوح في جبهته. فقامت بسُرعة، وحطَّت كالِب في الصُّندوق مُجدَّدًا قبلما أقبلَت إلى أتريتِس. "أنت تنزِف! اقعُد".

جاشت في داخله عواطِفُ مُصطخِبة، تُحارِبُ إحداها الأُخرى. فضحِكَ باكتئاب وتشبَّثَ بها. "لقد جُرِحتُ من قَبل".

"اقعُد!"

فعَلَ كما أمرَت، مدهوشًا. وراقَبَها مشدوهًا تندفع داخِلَ جوانب الحُجرة الصغيرة، مُنبِّشةً وسطَ الثِّياب. وإذ وجدَت ثوبًا وافقَها، شقَّته من وسطه إلى شطرَين. "أتساءل ماذا سيكونُ عند المالِك ليقولَه عن تمزيقكِ تُنكًا فاخرًا كهذا".

"لا يهمُّني ما يقوله". وفتحَت قنِّينة نبيذِ المالك فأراقتها على رداءٍ غالٍ آخَر.

ابتسمَ ابتسامةً ساخرة. "توقَّفي عن البُكاء، رِصفة. سأعيش".

"كلِمةً أُخرى فألُفَّ هذه حولَ حَنجرتِك، لا حولَ رأسِك!"

أجفَلَ إذ جفَّفت الدَّم عن جبهته بالخِرقة المُبلَّلة بالنَّبيذ. وقد كان جسمُها بكامله يرتجف بشدَّة. كذلك كان جِسمُه أيضًا، كعهدِهِ دائمًا في أعقابِ قِتالٍ. وما زال دَمُه يغلي. لقد نسيَ حقيقةَ الشُّعورِ بأنَّه حيٌّ.

أثارَ قُربُ رِصفة غرائزَ أُخرى طالَما كيَّفَها التَّدرُّبُ الدَّقيق تحتَ نِظام العِقاب والثَّواب. فتشبَّثَ بِوَركَيها وشدَّها إليه بقوَّة. "كُلَّما أبلَيتُ حسنًا في ساحة المُحارِبين، عِلمتُ دائمًا أنَّ امرأةً جميلةً ستكونُ مُنتظرةً في زَنزانتي عند رجوعي إلى اللُّودُس".

"أفلِتني، أتريتِس".

"لا أُريدُ أن أُفلِتَكِ. أُريد أن...آه!" أفلَتها حالًا لما صفَعَت جُرحَه بالضِّمادة المُبلَّلة بالنبيذ. وسبَّ بكلامٍ بذيءٍ في الجِرمانيَّة، مُتمالِكًا نفسَهُ بالكادِّ عن ضَربها.

"مُجرَّد كونهم قد عاملوك كحيوان لا يعني أنَّكَ أصبحتَ واحدًا".

حدَّقَ إلَيها مُكشِّرًا. "كانَ ينبغي لي أن أدَعَ الإلِّيريِّين يأخُذانِكِ!"

أكملَت، مشحوبةَ الوجه، ربْطَ الضِّمادة في مكانها رُغمَ اعتراضاته، ثُمَّ أراحَت يدَيها برِفقٍ على كتِفَيه وابتسمَت بحُزن. "أنا مسرورة لأنَّك لم تفعل ذلك".

نحَّاها أتريتِس جانبًا، وقام. وإذِ انحنى فوق الصُّندوق لِيَشيلَ ابنه، رأت رِصفة الجُرحَ الآخر. "كتِفَكَ!"

"لا تُفكِّري أدنى تفكيرٍ في ذلك! سأعتُرُ على يدٍ ألطفَ من يدكِ للاعتِناء به". وإذ تجاهلَها، حطَّ كالِب على السَّرير. وبعدَما نزَعَ عنِ الطِّفل ثِيابَه، أجرى يدَه على جِسمِ ابنه.

"يبدو سليمًا من الأذى".

"كان مخبوءًا جيِّدًا في الصُّندوق. لم يمسَّاه".

انحنى أتريتِس، مُسنِدًا ساعِدَيه إلى كِلا جانِبَي ابنِه، وفرَكَ بوجهِه وجهَ الصَّغير، مُتنشِّقًا عبيرَ الحياة والبراءة. ولمَّا انكفأ، لاحظَ أنَّه لطَّخ كالِب بالدم من غيرِ قصد. وإذا بمرأى الدَّم يفتَحُ جِراحًا مخبوءةً منذُ عهدٍ بعيد، لكنْ مَنسيَّةً آنيًّا. فقال بخشونة: "اغسليه!" ثُمَّ غادرَ الحُجرة.

فعلَت رِصفة كما أمرَ أتريتِس. ثُمَّ لمَّا سمِعَت صرَخات الجَرحى خارجَ الباب، ربطَت كالِب داخِلَ مِعلاقِ شالِها. لقد كانت الحاجة تدعو إليها على المتن الرئيسيّ. وما كان في وسعها أن تبقى مُتَقَوقِعةً في حُجرة المالك وتتركَ الآخرينَ يُسعِفون الجَرحى. فخَطَت خارِجَ بابِ الحُجرة، غيرَ مُتأهِّبةٍ تمامًا للمشهد المُروِّع أمامَها.

انطرَحَ الجرحى والمُحتضَرون مُتشابكين وسطَ المَوتى فعلًا، فيما شالَ الملَّاحون والمُسافرون الأقوياءُ البنيةِ الجُثَثَ ورمَوها من فوقِ المتن بلا اعتناء ولا مراسِم. وعلى مسافة غير بعيدة، كانت القادِسُ الرُّومانيَّة تنكفئ عن عدوِّها المهزوم. وكانت السفينة الإلِّيريَّة آخِذةً في الغَرَق، وألسِنةُ اللَّهَب تلحسُ الصاريَ صعودًا إلى الشِّراع العريض. وقد قفَزَ الرِّجالُ من فوق الجوانب وتُرِكوا ليَغرقوا.

انطلقَت صرخةُ حُزنٍ حادَّةٌ جعلَت رِصفة تستدير بسُرعة. كانت رُودا جاثيةً على رُكبتَيها، مُمسِكةً پروخورُس بين ذراعَيها. وقد رجَّت جسَدَه الهامِدَ، والكَرْبُ مَحفورٌ في وجهها. ووقفت كاميلا جانبًا عاجزةً، مُمسِكةً ليجيا وباكيةً.

وكان رجُلٌ مُنطرِحٌ بقُرب مدخل الباب يصرخُ برِقَّة طالبًا أُمَّه. فجثَت رصفة بجانبه وأمسكت يدَه. وتشبَّث بها بشِدَّة حتَّى خُيِّل إليها أنَّه سيسحق عِظامَها. كان الجُرحُ الغائرُ في بطنه مُميتًا، والكلماتُ المُعزِّية القليلة التي استطاعت أن تقولها قبلَ أن ترتخيَ يدُه عن يدها وقعَت على أُذنَين غير سامعتين.

انتقى أتريتِس طريقَه فوقَ القَتلى، ناظرًا إلى وجوههم الساكنة. وقد وجَدَ أغابُس بينهم. فجثا وحدَّق إلى الشابِّ في موته. كان مُستلقيًا وعيناه الواسعتان مفتوحتان كما لو كان مُحدِّقًا إلى السَّماء. وكان وجهُه صافيًا؛ وبخلافِ كثيرين من الآخرين، لم تبدُ عليه أيَّةُ أمارةٍ لنِزاع أو ألَم أو خوف. فلَولا الجُرحُ المُميتُ في صدره، لرُبَّما ظنَّ المرءُ أنَّه كانَ حيًّا.

تأمَّلَه أتريتِس مُرتبِكًا. فتذكَّر فقط وجهًا واحدًا آخَر بدا غايةً في السَّلام بعدَما واجه موتًا عنيفًا: كالِبَ العِبرانيَّ الذي قتله في ساحة المُحاربين.

وإذ تأثَّرَ أتريتِس على نحوٍ لم يفهمه، تمتم: "رُبَّما كان شيءٌ ما في ما قلتَه". ثُمَّ مدَّ يدًا مُترفِّقةً ليُغمِضَ عينَي الشابِّ. وشالَ الفتى المسيحيَّ وحمله إلى مَيمَنة السَّفينة، بعيدًا عن التخلُّص المُتهوِّر والمُهمِل من الإلِّيريِّين المقتولين. وقال باحترام: "ليأخُذْكَ مسيحُك!" ثُمَّ ترك جسَدَ أغابُس ليسقُطَ في البحر برَشاشٍ هادئ. فطفا جسدُ الشَّابِّ قليلًا، مشبوحَ الذِّراعين، مُرتفِعًا ومُنخفِضًا برِقَّةٍ على الأمواج، ثُمَّ غاصَ ببُطء في الأعماقِ الزَّرقاء.

"من الخيرِ أنَّ قائدَ المئة أنقذك من الغَرَق، وإلَّا كُنتَ طعامًا للسَّمك مع الباقين". هكذا قال بحَّارٌ، ناخِرًا وهو يحمل جُثَّةً أُخرى إلى الحافة.

فواجهَهُ أتريتِس بحِدَّة. "ماذا قُلتَ؟"

أجاب بنَخرةٍ أُخرى، وهو يُلقي حِملَه في البحر: "عندما سقطتَ عن الجِسر المُتحرِّك، صدَمَك مِجذاف، فخلَعَ دِرعَه وغطَسَ وراءك".

واستدار أتريتِس فرأى ثيوفيلُس واقفًا وسطَ القتلى. وقد بدا قائدُ المئة مُصلِّيًا، واضعًا خُوذتَه تحت إبطه.

ساءَ أتريتِس أن يكون مَدينًا بحياته لذلك الرُّومانيِّ اللعين. لا مرَّةً واحدة، بل مرَّتين! فلو لم يركل قائد المئة سلاحًا إليه، لَكانَ جُرحَ وصُرِعَ قبل وقتٍ طويل من بلوغ المعركة ذروتها. والآنَ علِمَ أنَّه ما كان قطُّ ليستعيدَ وعيَه في الماء. وقد غمرَه الاستياء، غيرَ أنَّ العقل انتصر.

لو أنَّه مات، فماذا كان سيحصل لابنه وللمرأة؟ شُكرًا لأيَّة آلِهةٍ وُجِدَت أنَّ قدَرَه لم يكُن أن يبقى حيًّا في ساحة المُحارِبين عشرَ سنين ليموتَ أخيرًا على أيدي قراصِنة إلِّيريِّين وهو على متن سفينة اسكندرانيَّة تنقل حُمولةً نفيسة إلى روما! أيَّةُ سُخريةٍ فظَّة كان من شأنها أن تترتَّب على ذلك حتمًا! لا بُدَّ أن يأتيَ موتُه، ولكنْ متى أتى نوى أن يكونَ له معنًى وقصدٌ. لقد كان الموتُ في ساحة القتال شرَفًا عظيمًا، ولكنْ لِيكُن في معركةٍ ضدَّ روما! فلو قُتِلَ اليوم، لماتَ مُدافِعًا عن سفينة تجاريَّة في خدمة الإمبراطور. وبحسَبِ المَصاير، يا لها من نُكتةٍ بشِعة! أمرٌ ما كانَ قد خطَرَ في باله يومًا حتَّى الآن.

نظَرَ ثيوفيلُس صَوبَه، وكأنَّه أحسَّ حَملقَتَه. وتلاقَت حَملقتاهُما وثبتَتا. فأطبق أتريتِس أسنانَه بإحكام، والكِبرياءُ تُقسِّي عُنقَه. لقد أنقذَ قائدُ المئة حياته، فعلِمَ أنَّ عليه،

بمُقتضى التِزامِ الشَّرَف، أن يُقِرَّ بتلك الحقيقة ويؤدِّيَ إليه حقَّه. وقد وقفَ ثيوفيلُس بِلا حَراك، مُلغَزًا، مُنتظِرًا بِلا شكٍّ الفُرصةَ المؤاتية للشَّماتة. فابتلعَ أتريتِس كبرياءه، وحيَّاهُ بانحناءَةٍ بطيئة.

تقوَّسَ فمُ ثيوفيلُس، ولكنَّ ابتسامته ما حملَت السُّخريةَ ولا الانتصار، بل مُجرَّدَ فهمٍ مُوجِع.

١٦

أبحرَت سفينةُ الشَّحن الإسكندرانيَّة تحتَ حراسة اثنتين من القوادِس الرُّومانيَّة حتَّى وصلوا إلى المَضايقِ عندَ حِذاء إيطاليا. عندئذٍ توجَّهَت السفينتان المُواكِبتان شرقًا، فيما تقدَّمت الإسكندرانيَّة مُجاوِزةً صِقِلِّية إلى البحر التِّيرانيِّ.

لدى الإبحارِ شمالًا، لاحظَ أتريتِس الخراب على طولِ الخطِّ الساحليِّ. وقال له أحَدُ البحَّارة: "انفجَرَ جَبَلُ ڤيزوف قبلَ سنة، وغشَّى مدينتَي پومپيي وهرقولانوم. حتَّى لا يَسَعُك أن تعلم أنَّهما وُجِدَتا أصلًا. ويعتقد اليهود أنَّ تلك كانت دينونة إلهِهم على تيطس من أجل ما فعلَه بمدينة القُدس".

كان أتريتِس قد بدأ يُعجَب بذلك الإله.

وكلَّما أبحَروا أبعَدَ بمُحاذاةِ الساحل، لاحَت للعِيانِ سُفُنٌ أكثر. فبواسطة المجاذيف والأشرِعة، جاءت السُّفُنُ من كلِّ مرفإٍ في الإمبراطوريَّة، ناقِلةً الحُمولةَ إلى الأسواق النَّهِمة في المدينة الخالدة.

وقفَ أتريتِس فوقَ القَيدوم، مُرتعِبًا من رجوعه إلى روما. لقد عذَّبَته ذِكرَياتٌ قاتمة. فقلَّ نومُه، وأضناه هاجِسٌ بأنَّه سيُعتقَلُ ويُرغَمُ على القتال لتسلية الرَّعاعِ الرُّومانيِّين مُجدَّدًا.

سأل بُطرس- وهو قاعد على برميل قريب- "ما ذاك الذي تحمِلُه، أتريتِس؟"

ففتح قبضتَه المُطبَقة وحدَّق إلى الرُّقاقة العاجيَّة في كفِّه. وقال بكآبة: "بُرهانُ حرِّيَّتي". بُرهانُه الوحيد.

"ماذا لو سرَقها أحَدٌ منك؟ هل يعني ذلك أنَّكَ لستَ حُرًّا بَعد؟"

"لستُ أدري، يا صبيُّ".

"ماذا ستفعل إذا حاولوا أن يردُّوكَ إلى لُودُس؟"

"لن أستسلِمَ بِلا قِتال".

قلَّما شاهدَت رِصفة أتريتِس، مؤثِرةً أن تبقى داخِلَ السَّقيفة الصغيرة برِفقةِ رُودا. فقد كانت قلِقةً عليها، إذ لم تكُن قد نبَسَت بكلمة منذُ أن أُلقِيَت جُثَّةُ زوجها في البحر. وقد قعدَت

صامتةً وشاحِبة، مُستسلِمةً للحُزن. وإذ كانت كاميلا تبكي أخاها أيضًا، بقِيَت خارج السَّقيفة حتَّى هبوط اللَّيل، مُتجنِّبةً عِشرةَ زوجة أخيها أطولَ وقتٍ ممكن. أمَّا ليجيا المِسكينة، وقد تنازعَتها المحبَّةُ لأُمِّها ولزوجة خالها، فقَضَت الوقت ذاهِبةً وآيِبَةً بين الاثنتَين.

أخيرًا دخلَت كاميلا السَّقيفة وقعدَت. ورمقَت رودا بنظرةٍ خاطفة ثُمَّ ابتسمَت لرِصفة. "قال لي أحَدُ مسؤولي السفينة توًّا إنَّه إذا استمرَّت الرِّيح على حالها فسنَصِل إلى أُوستيا في مُنتصف آذار. وذلك هو اليوم الذي يلي الغَدَ".

قالت رِصفة: "أنا مُرتاعةٌ قليلًا حِيالَ فِكرةِ روما". وكانَ كالِب نائمًا على صدرها. فأضجعَته وغطَّته بعَطانيَّة ناعمة. واشتغَلَ فمُه كما لو كان ما يزال يرتضِع.

قالت رُودا برِقَّة: "إنَّه جميل!" ففاجأت كِلتا المرأتَين. وبدأت تبكي فجرَتِ الدُّموع على خدَّيها الأبيضَين. وإذ مالت إلى الأمام، وضعَت إصبعَها في كفِّ كالِب. فأطبقَت أصابعُه غريزيًّا حولَ إصبعها. "لطالَما أردتُ طفلًا كلَّ حين. فمُنذُ ما يُمكِنني أن أتذكَّر، كانت تلك مُنيةَ قلبي العُظمى. قال پروخورُس إنَّ الرَّبَّ سيُبارِكُنا بطِفلٍ في وقته المؤاتي. وقد صلَّيتُ بِلا انقطاع لأجل طفل. فالآنَ لن يكون لي واحدٌ أبدًا".

ثُمَّ رفعَت رأسها وألقَت نظَرَها على كاميلا، فتصلَّبَت هذه وانكفأت قليلًا، مُتوقِّعةً الهجوم. ولكنَّ رُودا، بدلًا من ذلك، تكلَّمَت برِقَّة.

"لَمَّا جئتِ لتُقيمي معنا، كان كما لو أنَّ الله سخِرَ بي. فمنذُ أن كنتُ فتاةً صغيرة، اَمَنتُ بالرَّبِّ وخدَمتُه. ما ضلَلتُ قطُّ..." وتهدَّجَ صوتُها ثُمَّ نظرَت إلى كالِب من جديد.

قالَت كاميلا بلهجةِ انفعالٍ سريع: "كما ضلَلتُ أنا، هكذا تقصدين. أليس ذلك هو ما تُريدين أن تقوليه؟"

فقالَت رِصفة مُحزَنةً: "كام!"

"لا. ذلك صحيح. لنُخرِجِ الأمرَ كلَّه إلى العلَن الآن. لقد فقدَت زوجًا. ربَّما نسِيَت أنِّي فقدتُ أخي!" وحدَّقت إلى رُودا، والدَّمعُ يفيضُ في عينَيها. "ماذا تُريدين أن تقولي الآن، رُودا؟ إنَّ موتَهُ كانَ غلطتي؟"

فقالت رُودا بانكِسار: "لا".

وقالت كاميلا: "لا! إنَّك جالسة هُناك منذُ أيَّام، دون أن تقولي لي كلِمةً واحدة، مُفكِّرةً ومُفكِّرةً بطُرُقٍ كي تلوميني. هيَّا. لُوميني". ثمَّ لفَّت شالَها حولَ نفسِها بإحكام، وأشاحَت وجهَها.

"إنّي أُفكّر. لقد أضمرتُ حِقدًا عليكِ واغتَبتُكِ. أسأتُ إليكِ، ولم أكُن قادرةً على التفكير في أيّ شيءٍ آخر!" وطرَفَت بعينَيها حبسًا للدُّموع، مُحدِّقةً من عَلُ إلى يدَيها المُطبقَتين بإحكام.

نظرَت إليها كاميلا بارتياب.

"لم أكُن غاضِبةً عليكِ بمِقدار ما كنتُ غاضِبةً على الله. لقد ظنَنتُ أنّه تخلّى عنّي". ورفعَت رأسها من جديد، مصدومةً. "لقد أعطاكِ الله ما أردتُه أكثرَ الكُلّ: ولَدًا! جئتِ إلينا وعلى ذِراعَيكِ طِفلةٌ جميلة، وأنا صرَختُ في قلبي. لماذا باركَكِ الله، أنتِ وليس أنا؟ كنتُ أحسَبُ أنّي مُستحِقّة. لكنّي لم أكُن...لم أكُن مُستحقّةً على الإطلاق".

ثمّ هزّت رأسَها، وقد غمَرَها النّدم. "طوالَ الوقت الذي فيه كنتُ أظنُّ أنّي أخدم الله، لم أكُن أخدمُه". وإذ شبَكَت أصابعها معًا، كافحَت لتُكمِل. "لمّا مات پروخورُس، أدركتُ أنّي وضعتُ تَوقي إلى ولَدٍ قبلَهُ أيضًا. ما فعلتُ أيَّ شيء سِوى التفكير في الماضي. لقد فعلتُ كلَّ شيء من أجل الأسباب الخاطئة. جميعُ الأعمال الحسنة التي ينسبها الناسُ إليَّ ليست شيئًا لأنّي عمِلتُها مُتوقّعةً أن يُكافئني الله. ظنَنتُ أنّ الله سيُضطرُّ إلى إعطائي ما أردتُه إذا عمِلتُ باجتِهادٍ كافٍ. فالحقيقة هي أنّي ما خدمتُ الرَّبَّ قطُّ. لقد كنتُ أخدمُ نفسي دائمًا". ثُمّ نظرَت إلى كاميلا وخدَّاها مُبلّلان. "كنتُ غيرَ لطيفة معكِ مرارًا كثيرةً جدًّا، كام. رجاءً، سامحيني".

لبِثَت كاميلا عدّةَ لحظاتٍ لا تقول شيئًا. ثمّ قالَت بكآبة: "أنا أُسامِحُكِ". ونهضَت بسُرعة فغادرَت السَّقيفة.

تركَت رِصفة كالِب مع رُودا وخرجَت إلى صديقتها. كانت كاميلا جالسةً وحدَها قُربَ القَيدوم، باكيةً. فجلسَت رِصفة معها. وقالت برِقّة: "ما الأمر؟"

"لقد أردتُ منها دائمًا أن تتوسَّلَ لأجل مُسامحتي. وقد صلّيتُ لأجل هذه اللحظة، حتّى تعلَمَ تمامًا ما شعرتُ به. والآنَ أشعرُ بالخِزي الشديد".

مسحَت كاميلا الدُّموعَ عن خدَّيها وحدَّقَت إلى الشِّراع في الأعلى. "رُودا وأنا مُتشابِهتان كثيرًا. فهي أرادت ولَدًا. وأنا أردتُ زوجًا يحبُّني مِثلَما أحبَّها أخي".

"والآن لكُما إحداكُما الأُخرى".

"ربّما. إذا استطعنا أن نتعلّم حَمْلَ إحدانا أثقالَ الأُخرى، بدلًا من مُضاعَفتها".

فقالت رِصفة برِقّة: "الآنَ وقتٌ مؤاتٍ لِمُباشَرةِ ذلك". وتأمّلَت كاميلا وجهَ صديقتها

هُنيهةً، ثُمَّ هزَّت رأسها مُوافَقةً، وعادتا إلى السَّقيفة. فأخذَت ليجيا كالِب ولاعبَته، فيما جلست أُمُّها بقُربِ رُودا.

قالَت كاميلا بلُطفٍ، بعدَ تردُّد: "رُودا، أُريد أن أتكلَّمَ معكِ عن الماضي".

"ليسَ عليك أن تُخبِريني بأيِّ شيء".

"رجاءً، رُودا، هذه المرَّةَ فقط، فلأتحدَّث بشأنه من جديد". وانتظرَت حتَّى هزَّت رُودا رأسها مُوافِقةً، قبلَما تابعَت كلامَها. "لمَّا تركَني كالِستُس، تأذَّيتُ كثيرًا. لا يمكنكِ أن تتصوَّري كم أحبَبتُه وكم كنتُ مجنونةً به. علِمتُ لمَّا تركتُ عائلتي وذهبتُ إليه أنِّي أرتكِبُ خطًا، ولكنِّي لم أُبالِ. كانَ كلُّ ما استطعتُ التفكير فيه هو أن أكونَ معه. ثُمَّ تبيَّن أنَّهُ كلُّ ما أخبرَني أقرِبائي وأصدِقائي أنَّه كانَه. ولم يكُن لي أيُّ مكانٍ أذهبُ إليه، ولا أيُّ شخصٍ يعتني بي. حتَّى لقد فكَّرتُ في إغراقِ ليجيا والانتِحار".

أغمضَت رُودا عينَيها، مُرتجِفةً قليلًا ببُكاءٍ صامِت.

طأطأت كاميلا رأسَها. "لم تعلمي كم كان الأمر سيِّئًا، رُودا. پرُوخورسُ علِمَ، ولكنَّه لم يُقدِّم أيَّةَ مُساعدة. أخيرًا ابتلعتُ كبريائي وطلبتُ منه أن يُساعِدَني، فقال إنَّه سيُكلِّمُكِ أوَّلًا قبلَ أن يُقرِّر". ولبِثَت حينًا لا تقول شيئًا، بل أشاحَت بناظِرَيها، والدُّموع تجري على خدَّيها، مُبتلِعةً ريقَها بتشنُّج.

"علِمتُ أنِّي أحدثتُ مشكلاتي الخاصَّة، ولكنَّ كلَّ ما استطعتُ أن أُفكِّرَ فيه كان اهتمامَ أخي نفسِه بمَشاعركِ أكثرَ من اهتمامه بحياتي". وزفَرَت نفسَها بارتجاف. "كنتُ أغارَ منكِ. دخلتُ إلى بيتكِ ملأى بالمشاعر المجروحة والاستياء. لقد ثارَ استيائي حِيالَ كُلِّ شيءٍ قُلتِه، وفعلتُ كلَّ ما كانَ في وُسعي لأعترِضَ بينَكِ وبينَ أخي. لقد جعلتُ كلَّ شخصٍ بائسًا طَوالَ السِّنينَ القليلةِ الماضية، والآنَ تطلبينَ منِّي أن أُسامِحَكِ وأنا المُحتاجةُ لأنْ تُسامِحيني أنتِ".

مالَت رُودا إلى الأمام، مادَّةً يدَيها. فأمسكت كاميلا بهما. وإذ نحَّتِ الكِبرياءَ جانبًا، بكَت جهارًا. "لقد أحبَّكِ. أنتِ تعلمين أنَّه أحبَّك. وقد شُغِفَ بِليجيا على قَدْر شغَفي بها. تقولين إنَّكِ لن تُرزَقي ولدًا البتَّةَ، رُودا، ولكنَّ ليجيا هي ابنتُكِ بمقدارِ ما هي ابنتي. إنَّها تحبُّكِ. وأنا أيضًا أُحبُّكِ".

تحدَّثَتا حتَّى وقتٍ مُتأخِّر من الليل، عن پروخورُس، وعن مَخاوِفهما بشأن ما يمكن أن تفعلاه عندما تصِلان إلى روما. وقدِ استلقَت رِصفة وكالِب إلى صدرها، وأصغَت. وإذ غمرَها

الفرَح من جرَّاء المُصالَحة، نظرَت إلى الخارج عبْرَ فتحة الخيمة فرأت أتريتِس.

كان واقفًا عند الدَّرابزين، وشعرُه الأشقر يُرفرِفُ على وجهه بفِعلِ الرِّيح. وقد بدا مُكتئبًا جدًّا، وقاسيًا إلى أقصى حدّ. ماذا سيكون مُستقبَلُها ومُستقبَلُ كالِب عندما يَصِلون إلى غاباتِ جِرمانيا الكثيفة؟

IV

دخلَت سفينةُ الشَّحن الإسكندرانيَّةُ مرفأ أُوستيا الإمبراطوريَّ في مُنتصف آذار. كان ذلك المرفأ الذي بناه أنكوس مَرسيوس عند مَصَبِّ التِّيبر قبلَ سبع مئة سنة قد تحوَّل إلى مركَزِ تجارةٍ وتخزين لمؤونة روما من الحنطة، فضلًا عن كونه مرفأً فيهِ تُصلَحُ وتُجدَّدُ السُّفنُ المُسافرة إلى پورتُس. وقد ظهَرَت قَوادِسُ من الأُسطول الرُّومانيِّ بأعدادٍ لافتة بجانبِ بارِجة مُلوكيَّة مُزيَّنة لأجلِ احتِفالٍ مُنظَّم بإتقان.

دعا ثيوفيلُس المسيحيِّين جميعًا فيما كانت السَّفينة تُقطَرُ إلى داخل الميناء.

"لن أتمكَّن من التقائكم ثانيةً قبل تسليمي الهدايا للإمبراطور وإتمام واجباتي. عندما تنزلون من السَّفينة، اسلكوا الطريقَ الرئيسيَّ خُروجًا من أُوستيا، فيُوصِلَكُم إلى بوَّابات روما. ابحثوا عن هيكل مارس. على مقرُبة منه سوقٌ تجاريَّة. عندما تجدون باعةَ الفواكهِ والخُضَر، اسألوا عن رجُلٍ اسمُه تروپاس. إنَّه يملك دُكَّانًا بينهم. هوَ واحِدٌ منَّا، ويمكن الوثوق به. وسوف يدلُّكم على مساكِنَ آمِنة".

ذهبَت رِصفة إلى أتريتِس لتُبلِّغَه توجيهاتِ ثيوفيلُس، ولكنَّه صرَفَها، قائلًا: "سنذهب وحدَنا". وقد شالَ لفائفَ البَطَّانيَّات وما فضَلَ من مؤونة الطَّعام.

فقالت رِصفة: "أذلِكَ من الحِكمة؟" خاشيةً أن تترُكَ الآخرين. ورأت في عينَيه الزَّرقاوين وميضَ الإنذارِ بالغضَب. وإذ ربَطَ أتريتِس الحُزَمَ على ظهره، أخذَ كالِب منها وتوجَّه إلى صفِّ الرُّكَّاب النازلين من السَّفينة.

هُرِعَت وراءه مُكافِحةً الهواجِس. "فلأحمِلْه، أتريتِس".

"سأُعيدُه إليكِ عندما ننزل عن هذه السَّفينة".

التفتَت إلى الآخرين، عاجِزةً عن وَقفِ أتريتِس. كان الجميعُ مشغولين بجمع أمتعتهم، وما كان ليُصغيَ إليهم على كلِّ حال. وركضَ بطرس إلى أتريتِس قبلما تمكَّن من النُّزول.

"أينَ أنتُما ذاهبان؟ ألَن تبقَيا معنا؟"

فحدَجَ أتريتِس الصَّبيَّ بنظرة نَفادِ صبر، قائلًا: "لا!"

"لقد قال لنا ثيوفيلُس أين نذهب".

"ارجِعْ إلى أُمِّك".

"ولكنْ..."

"ارجع!"

طرَفَ بطرس بعينَيه حبسًا للدَّمع، ومشى راجعًا.

راقبَت رِصفة الصَّبيَّ والتفتَت إلى أتريتِس. "لماذا كنتَ قاسيًا جدًّا عليه؟ إنَّه يحبُّك".

"اسكُتي!" وخَطا على المِعبَر الخشبيّ ثُمَّ مشى نازلًا. فلم يكُن لها خِيارٌ سوى اتِّباعِه. ولمَّا وصلا إلى الرَّصيف، اضطُرَّت لأنْ تمشيَ بسُرعة لكي تُجاريَه. لقد كان مُستعجِلًا أن يتوارى. وقد جعَلَ تصرُّفه الناس يَزيحون من طريقه إذ مشى بخُطًى واسعة على رصيف الميناء باتِّجاه بعضِ المُستودَعات. ولاحظَهُ بِضعةُ جنود واقِفينَ بقُربِ رجُلٍ بيَدِه بَيانُ حُمولة. فحدَّق أحَدُهم على الخُصوص طويلًا وبحِدَّة، ثُمَّ قال شيئًا ما لواحد من الآخرين.

ثمَّ نادى واحدٌ منهم: "أنتَ هُناك!" فوثَبَ قلبُ رِصفة وأخذ يخبط بشِدَّة.

سبَّ أتريتِس همسًا وأمال رأسه في استِفسارٍ مُتَغطرِس، إذِ اقتربَ إليه جُنديَّان فيما توقَّف آخرون بمُحاذاة الطريق ليُحدِّقوا بفُضول.

سألَ أحَدُ الجُنديَّين: "ما اسمُك؟" في حين قال الآخر: "أتريتِس! أقولُ لك، يا أنكُس. أُقسِمُ إنَّه هو". وحدَّق إلى أتريتِس برَهبةٍ تقريبًا. "شاهدتُكَ تُقاتِلُ سيليرُس. لن أنسى ذلك أبدًا. كان أروَعَ قِتالٍ شهِدتُه على الإطلاق".

قال أتريتِس بِلا انثِناء: "يسُرُّني أنَّك استمتعتَ بذلك".

فقال أنكُس بشَخرةِ عدم تصديق: "إذًا، أنت أتريتِس". وقد أجالَ نظَرَه على ثيابه العاديَّة والعِمامة التي لفَّها على رأسه لإخفاء شعره الأشقر.

قال أتريتِس: "نعم". فرفعَت رِصفة نظرَها، وقد فاجأها إظهارُه لِهُوِيَّته. واستطاعت أن ترى نبْضًا يخفق في عُنقه. فسَرى خوفٌ باردٌ في أوصالها.

سأل أنكُس: "ابنُك؟" ومدَّ يده ليَمسَّ خدَّ كالِب. فأزاحَ أتريتِس جسمَه. لم يتحرَّك سِوى كَسْرِ قِيراط، ولكنْ لمَّا باتَ الطِّفل بعيدًا عن مُتناوَل الجُنديّ، كانت الرسالة عاليةً كصوتِ بوقٍ يدعو إلى معركة. فضاقت عينا أنكُس. وخيَّمَ سُكونٌ بارد. وكان في وسع رِصفة أن تسمَعَ نَبْضَ قلبِها بأُذُنَيها. فصلَّت مذعورةً، مُستغيثةً بالله.

"أُلپيوس، ما دمتَ الخبيرُ بالمُحارِبين، يمكنك أن تُخبِرني. ألَم يُبَع أتريتِس ويُبعَث إلى أفسُس؟"

فقال أُلپيوس: "منذُ ثلاثِ سنين. ليس أنَّ الرَّعاعَ قد نسُوه. لقد كانوا مشغوفينَ به شغفًا بالغًا، حتَّى إنَّ الباعة ما زالوا يبيعونَ تماثيلَ له خارِجَ الـ..."

قاطَعَه أنكُس باعتِداد: "إذًا، ما زالَ عبدًا!"

فقال أتريتِس: "لقد كسَبتُ حُرِّيَّتي". وسحَبَ السِّلسلةَ الذَّهبيَّة ومُدلَّاةَ العاج من تحتِ تُنكهِ وعباءته. ثمَّ مدَّ يدَه بها، وفي سيمائه تَجهُّمٌ وتَهكُّم.

قال أنكُس: "أمرٌ يُرثَى له، ولكنْ لاحقًا قد تتغيَّر الأحوال، بوجودِ الأوضاع المؤاتية".

ناول أتريتِس رِصفة الصغير كالِب دون أن ينظر إلَيها.

وضعَ أنكُس يده على مِقبَضِ سيفه. وتقدَّم أُلپيوس إلى الأمام، مادًّا يدَه بينهما. "لا تكُن أحمق!"

وسُمِعَ صوتٌ شديد: "هل من مُشكلة هُنا؟"

التفتَ أُلپيوس، وقال: "سيِّدي قائدَ المئة!" وقد بدا جليًّا أنَّه شعَرَ بالفَرَج، مع أنَّه ارتاعَ فجأةً. وضرَبَ دِرعَهُ بالتحيَّة الرَّسميَّة. وفي الحال أدَّى أنكُس التَّحيَّة أيضًا.

قال ثيوفيلُس لأنكُس: "سألتُكَ سؤالًا، يا جُنديُّ". وقدِ اتَّضح في أمرِه كامِلُ ما يتعلَّق برُتبته من كرامة وسُلطة.

فاحمرَّ وجه أنكُس. "هذا الرجُل عَبدٌ في اللُّودُس الإمبراطوريِّ".

"لم يعُد عَبدًا، يا جُنديُّ، أوَلَم تُلاحِظ القِلادة التي يلبسُها؟" ونظَرَ ثيوفيلُس إلى أتريتِس ثُمَّ حَنى رأسه باحترام. "لم تُتَح لي الفُرصةُ لِأُوَدِّعَك وأُقدِّمَ لك تشكُّراتي من أجل مُساعَدتك على متن السَّفينة. فالآنَ أفعَلُ ذلك. سيَسُرُّ الإمبراطورَ أن يسمعَ بدَورك في دَحرِ القراصِنة الإلِّيريِّين".

انتخَعَت عَضَلةٌ في حنَك أتريتِس وشُحِبَت شَفَتاه.

ونظَرَ ثيوفيلُس إلى أنكُس. "تعرَّضنا لهجوم من قراصِنة فاقونا عدَدًا. ولولا مُساعَدةُ هذا الرجل، لاستولى الإلِّيريُّون على السفينة والهدايا التي جلبتُها لتيطُس".

"سيِّدي قائدَ المئة، هذا الرَّجُل هو أتريتِس".

فاكفَهَرَّ وجهُ ثيوفيلُس. "أَلِهذا السَّبَب تؤخِّرانِه؟ لكي تَتودَّدا إليه كاثنَين من المُعجَبين

(أموراتَيي) ارجِعا إلى واجباتكما. الآن!" وما إن باتا خارِجَ مَدى السَّمْع، حتَّى نظرَ إلى أتريتِس. "من النَّكَدِ أنَّكَ تُعرَفُ بكُلِّ سُهولة".

"لستُ أنوي أن أبقى في روما وقتًا أطولَ من الضَّروريِّ إطلاقًا".

"يكونُ أسلَمَ أن تبقى خارِجَ المدينة تمامًا. سأُجري لك ترتيباتٍ كي تُقيمَ في ضواحي أُوستيا، وألتقيكَ بعدَ إنجازِ مهمَّتي نحوَ الإمبراطور".

"أنا أُجري ترتيباتي الخاصَّة".

"كُفَّ عن كونِكَ غبيًّا مُعانِدًا، واعتمِدْ شيئًا من الفِطرة السليمة!"

"هل تأذَنُ لي بالانصِراف؟ سيِّدي؟ أم تنوي أن تؤخِّرني أيضًا؟"

فقدَحَت عينا ثيوفيلُس شرَرًا. "أنت حُرٌّ في أن تذهب حيثُما ترغب، طَوالَ الطَّريق إلى الجحيم إذا سرَّك ذلك". ثُمَّ تراجَعَ خطوةً وأمالَ رأسه. "إنَّما خُذ حِذرَكَ لئلَّا تجرَّ ابنك ورِصفة نزولًا معك!"

تصلَّبَ جِسمُ أتريتِس وتدفَّقَ الدَّمُ الحارُّ في عُروقه. ووقَفَ في مكانه صارًّا بأسنانه. "أعرِفُ شخصًا في رُوما سيُساعِدُنا".

فقال ثيوفيلُس: "مُقاتِلٌ سابق؟" مُكافِحًا غضَبَه ونَفادَ صبرِه الشَّخصيَّين حيال هذا الجِرمانيِّ العنيد، الصَّفيقِ الجُمجُمة.

"المُقاتلون السابقون يُوثَقُ بهم أكثرَ من الرُّومان".

قالت رِصفة: "كما كان غالُص جديرًا بالثِّقة!" وتلقَّت مِنه نظرةً سوداء.

وقال ثيوفيلُس غاضِبًا: "اذهَبْ وضَعْ نفسك في عُهدةِ مُقاتِلكَ السَّابق. المأمولُ إلَّا تجد نفسَك في اللُّودُس من جديد. أُنذِرُكَ الآن بأنَّه لن يكون سهلًا عليَّ أن أُخرِجَك من هُناك".

"في وسعي أن أتولَّى الاعتناء بنفسي".

"في ساحة المُحارِبين، كما أُوافِق".

"في أيِّ مكان!"

قالت رِصفة: "إنَّه لا يُحاوِلُ إلَّا أن يُساعِدَنا".

"لا أحتاجُ إلى مُساعَدته، يا امرأة، ولا طلبتُها منه".

"لماذا لا تُصغي إليه؟ هوَ يعرِفُ روما. هوَ يعرِفُ الإمبراطور. هوَ يعرِف..."

انتزعَ أتريتِس كالِب عن ذراعَيها، ومشى مُبتعِدًا بخُطًى حثيثة. فحدَّقت وراءه مرعوبةً ومملوءةً بالإحباط، ثُمَّ التفتَت لِتَتوسَّلَ إلى ثيوفيلُس. "ماذا ينبغي لي أن أفعل؟"

"اذهبي معه. سأعثُر عليكُما". وأطلَقَ ضِحكةً خفيفةً بِلا مَرَح. "سيُسهِّلُ عليَّ الأمرُ".

فلحِقَت رِصفة بأتريتِس. وكان كالِب يزعقُ على ذراعَيه. "إنَّكَ تُخيفُه". فدفعَ الطِّفل إلى ذِراعَيها دونَ إبطاءٍ في مِشيَته. وقد بذلَت جَهدها لتهدئة كالِب وهي تُسارِعُ الخَطوَ بجانب أتريتِس. فاستلزَمَت مُجاراةُ كلِّ فَشخةٍ منه ثلاثَ خطواتٍ منها، وسُرعان ما انقطَعَ نفَسُها.

قالت لاهثةً: "لا أستطيعُ أن أُجاريَك!" فأبطأ سُرعةَ مَشيه قليلًا، وإحدى يدَيه مُطبِقةٌ بإحكامٍ على ذِراعها لإبقائها معه. وإذ شعرَت بأنَّها أقلُّ أمانًا لمَّا اتَّسعَت المسافةُ بينها وبين أتريتِس، قالت: "أتَدري إلى أينَ أنتَ ذاهِب؟"

فتصلَّبَ حَنَكُ أتريتِس.

"ثيوفيلُس يعرِفُ طريقَهُ..."

توقَّف أتريتِس وانهالَ عليها بوَجهٍ شاحِب. "اخرسي! لا تذكري لي اسمَهُ ثانيةً! فهِمتِ؟ لقد احتملتُ حضورَهُ على ظهر السَّفينة لأنْ لم يكُن لي خِيار. أمَّا الآن، فلي!"

سارا ساعاتٍ، مُنخرِطَين وسطَ حشدِ المسافرين المتَّجهين إلى روما. وقد حافظا على مسافة قريبة بجانب العرَبات العديدة المُتسارِعة في كِلا الاتِّجاهَين، مُبتعِدَينِ عن طريقها. مرَّت بهما عرَباتُ رايدا حامِلةً عائلات، وراء أحصِنَتِها الأربعة وفوق عَجَلاتها الأربَع. وجرَت عرَبَةُ سيزيوم على عجلَتَيها الاثنتَين ووراء حصانَيها الاثنَين نازلةً على الطريق بسُرعة، يحثُّها أرستوقراطيٌّ شابٌّ غنيٌّ غيرَ مُبالٍ بتعريض الآخرين للخَطَر. وكانت أيضًا عرَباتٌ تجرُّها الثيران تحمل بضائع، ومِحَفَّاتٌ تحمل موظَّفين رسميِّين، وتُجَّارًا، ومُتفرِّجين أثرياء مُتوجِّهين إلى روما حاملين رسائل وسِلَعًا، أو آمالًا كِبارًا بتحقيق أحلامهم. وقد مشى مئاتٌ، بينَهم أتريتِس ورِصفة حاملةً كالِب على ذِراعَيها.

توقَّفا قليلًا عند أحَدِ المَعالِم التي كانت منصوبةً كلَّ ألفِ خطوة، ذاكِرةً البَلداتِ القُربى واسمَ الإمبراطور الذي في أثناء حُكمه انتهى إنشاء الطريق. كذلك أيضًا ذُكِرَت على كلِّ مَعلَم إصلاحاتُ الطريق، مع اسم كلِّ إمبراطورٍ تالٍ أُنجِزَ العمَلُ في عهده. ولم يكُن أتريتِس يُحسِنُ قراءةَ أيِّ شيءٍ من ذلك. أمَّا رِصفة، فاستطاعت أن تقرأ جُزءًا منه فقط، إذ كان زوجُها شمعي قد علَّمَها.

فتَحَ أتريتِس الصُّرَّة المربوطة بحِزامه، وأعطى رصفة قبضةً من الحنطة المُجفَّفة لتأكُل.

ورمى شيئًا من الخليطِ السَّخيِّ في فمه. وإذ حلَّ رباط زِقِّ النَّبيذ، أسقطَه على حضنها. فأخذَت منه شربةً ضئيلة، وقالت: "يكادُ يَفرغ"، رافعةً إيَّاه إليه.

فقال، وهو يربطه على كتِفه من جديد: "سنحصل على المزيد. أرضِعي الولَدَ على الطريق".

دخلا المدينة لدى الغُروب. خارِجَ الأبواب، دمدَمَ التُّجَّارُ إذ أُرغِموا على الانتظار حتَّى الصباح التالي قبل دخول المدينة. فما كان يُسمَحُ لعَرَبةٍ ذاتِ عَجَلات بدُخول روما بعد غروبِ الشمس.

قالت رِصفة مُعيِيةً: "كم مقصدنا بعيد؟"

فقال أتريتِس مُتجهِّمًا: "بعيد!" كان في وسعه أن يرى قصرَ الإمبراطور في البعيد، فعلِمَ أنَّ عليهما أن يمشِيا ساعاتٍ بَعدُ قبلَ وصولهما إلى مَوضِعٍ من روما مألوفٍ لدَيه. فحالَما يهتديانِ إلى اللُّودُس، يغدو في وسعه أن يعرِفَ يقينًا الطَّريقَ إلى خان يَغناكْس. وإلَّا، فإنَّه سيجِدُ شخصًا يُوصِلُ رسالةً إلى باطُو، لانيستا اللُّودُس الأعظم. وقد كانت المسافة أطولَ من أن تُقطعَ اللَّيلة. كان في وسعه هو أن يقطعها، ولكنَّ رِصفة كانت مُرهَقة.

رأى مُتنزَّهًا غيرَ بعيدٍ قُدَّامَهُما. "سنبيتُ اللَّيلةَ هُناك".

لاحظَت رِصفة حشدًا من غِلاظِ المنظر يتسكَّعون على مقربة، ولكنَّها لم تُبدِ اعتِراضًا. فإذا تعرَّضا لاعتداء، يكونُ ذلك على رأسِ أتريتِس.

كانَ الجوُّ يبرد، وتلبَّدَت غيومٌ قاتِمةٌ فوقَهُما. اقتادَ أتريتِس رِصفة على ممشى مرصوفٍ بالحَصى وسطَ موضع يكثر فيه الشَّجَر. وعندَ الطَّرَفِ الآخر تمامًا كان فاتِمٌ اعترشَت عليه كَرمةٌ. فتوقَّفَت رِصفة وحدَّقت إليه مُتوجِّسةً.

قال أتريتِس مُتهكِّمًا: "أتُفكِّرين في آخِرِ مرَّة تَشارَكنا فيها بواحِدٍ من هذهِ الفانانِ؟"

فقالت: "سأنامُ هُناك". مُشيرةً إلى صفٍّ من الجَنَباتِ الكثيفة.

"ما أظنُّ ذلك".

"لا يهمُّني ما تظنُّه! أنا مُتعَبة وجائعة، ولن أتشاجَرَ معك!"

سمعَ الانقباضَ في صوتها، وعلِمَ أنَّ الدُّموع ستُوافيها. "سيكونُ الجوُّ باردًا، رِصفة".

"لا تعرضْ عليَّ أن تُدفئَني!" ونتَرَت البطَّانيَّة من الحُزمة على كتِفه، ثُمَّ غادرته على الممشى وتوجَّهَت نحو الجَنَبات.

أطبقَ أسنانه بإحكام، ودخَلَ إلى الفانُم، وفرَشَ له سريرًا. كان في وسعه أن يسمع كالِب باكيًا بصَوتٍ يُرثى له في الظُّلمة المُحلوِلكة. وقد تحرَّكت الغيومُ أمام القمَر، مُكفِّنةً حديقةَ الفانُم الصغيرةَ بالظلام. وأزعَجَ بُكاءُ ابنهِ ضميرَه. ثمَّ دوَّى قصيفُ رَعدٍ حوالَيه، وانهمَرَ المطَر، مُطَرطِقًا على القَنطرة الرُّخاميَّة فوقَه.

قام أتريتِس وذهب كي يجدَ رِصفة؛ وقد سهَّل عليه ذلكَ بُكاءُ ابنه. وإذِ انحنى أمامَ جَنبةٍ كثيفة، نظَرَ إليها مُستكِنَّةً تحت البطَّانيَّة المُبلَّلة. فقالت: "اغربْ من هُنا!" واستطاعَ أن يعرف أنَّها كانت تبكي مع الطِّفل.

"يا امرأة، لستُ أنا الوحيدَ العنيد وقاسي الرَّقَبة". وكان المطَرُ البارد ينسكب على رأسه ويجري نزولًا على قفا رقَبَته تحت البطَّانيَّة الصُّوفيَّة الثقيلة. "فكِّري في الطِّفل".

قامَت مُصطكَّةَ الأسنان وتبِعَته إلى الفانُم. وإذ نفَّضَت الرُّطوبة عن بطَّانيَّتها الصُّوفيَّة، استلقَت على البَلاطِ الرُّخاميّ. وقعَدَ هو على البنك دون أن يقول شيئًا. كان جسمُها يرتجِفُ. واستطاع أن يسمعها تُكلِّمُ الطِّفل برِقَّة. ولمَّا اشتدَّ بُكاءُ كالِب، زاحَت مُرتَّبةً ثِيابَها ثانيةً بحيثُ يتسنَّى لها أن تُرضِعَه.

بينما أتريتِس مُتَّكئٌ إلى الوراء على عَمودِ الرُّخام، شاهَدَ جِسمها يسترخي ببُطءٍ من الإعياء. ولمَّا تيقَّن بأنَّها نامت، استلقى وراءها وسحَبَ بطَّانيَّته عليها وعلى الطِّفل. كان جِسمُها باردًا، فدَسَّهُ بإحكام داخِلَ طَيَّة جِسمه بحيثُ يتسرَّبُ دِفؤه إليها. لقد لاءمَته تمامًا. وأثارَه عبيرُ جَسَدِها فأرغَمَ أفكاره على الانشِغال بأُمورٍ أُخرى قصَدَ بها أن تُبرِّدَ شبَقَه. وقد كان غالُص أحَدَها.

كانَ تذكيرُ رِصفة قد فعَلَ فِعلَه. فهو ما التقى يَغناكْس إلَّا مرَّةً واحدة، ولأغراضٍ مِهنيَّة. وقد رافقه باطُو. ولولا حُضورُ اللانيستا، لَرُبَّما لم يبقَ أتريتِس حيًّا تلك اللَّيلة، كما علِمَ ذلك يقينًا. وقد كان الخانُ مكانًا صغيرًا وضيعًا، مُقارنةً بالمؤسَّسات الأُخرى التي أُخِذَ إليها منذ ذلك الحين. ولم يكُن لدى يَغناكْس كثيرٌ يَتباهى به لقاء سِنيه في ساحة المُحارِبين. فالتوى فَمُ أتريتِس بسُخرية مُرَّة. كم كان عندَه هوَ بنفسِه ليتباهى به بعد عشر سنين من القتال في سبيل حياته؟ كلُّ ما كسَبَهُ أُنفِقَ على تلك الدَّارة الفخمة وأثاثِها الفاخِر وراءَهُ في أفسُس. ولأجلِ ماذا؟ جوليا! جوليا الجميلة، السَّطحيَّة، الفاسِدَة.

اقتربَت رِصفة إليه أكثرَ وهي نائمة، فابتلَعَ نفسَه. وإذ رفَعَ رأسه، نظَرَ من فَوقِها إلى ابنه. حتَّى في أثناء نومها، أدنَت إليها الطِّفل لإدفائه، حامِيةً ومُحِبَّةً إيَّاه. وأزاحَ خُصَلَ الشَّعر

الدَّاكن المُنفلِتة عن خدِّها، فوجد بشَرتَها غَضَّة. ثُمَّ أسنَدَ رأسَه من جديد وأغمضَ عينَيه، مُرغِمًا نفسَه على النَّوم.

ولمَّا نام، حلَمَ بأنَّه مُقيَّدٌ في زَنزانةٍ صغيرة مُظلِمة، بِلا باب ولا نافذة. لم تكُن فوقَه شَعريَّةٌ حديديَّة يستطيع الحُرَّاسُ من خلالها أن يتجسَّسوا عليه، بل جُدرانٌ تُطبِقُ عليه، لا غير، والظَّلامُ يتعاظَم. ففتحَ فمه ليصرُخ، ولكنْ لم يخرج أيُّ صوت. ولم يستطِع أن يتنفَّس، فكافَح.

سمعَ صوتًا يقولُ برِقَّة: "أتريتِس!" وأحسَّ يدًا حانيةً تمسُّ وجهَه. "لا بأس! اشْش".

وانجرَفَ من جديد، على بِحارٍ أهدأ.

لمَّا استيقظ، رأى رِصفة نائمة تحت البنك الرُّخاميِّ. فلكَزَها مُنزعِجًا. "طلَعَ الفجر!"

أنفقَ أتريتِس آخِرَ ما لديه من المال على الطَّعام في طريقهما إلى قلب الإمبراطورية. ولمَّا استدلَّ على ساحة المُحارِبين، تكلَّمَت رِصفة أوَّلَ مرَّة طَوالَ الصباح.

"لماذا أنت ذاهبٌ إلى هُناك؟" لقد كان عاقِدَ العَزم على تجنُّبِ الساحة في أفسُس. فلِماذا كان يبحث عن ذلك المكان في روما؟

"اللُّودُس الأعظم قريب. أعرِفُ رجُلًا هُناك يستطيعُ أن يُساعدني". فتمامًا وراءَ مبنى المُدرَّج الفلافيِّ الضَّخم الصاخب، كان اللُّودُس الذي فيه أمضى أحلَكَ سنوات حياته.

"لا يمكننا أن نذهب إلى هناك، أتريتِس".

فقال مُتجهِّمًا: "ليس من مكانٍ آخر يمكن أن نذهب إليه. كُنتِ على حقٍّ من جهة غالُص، ولكنَّ هُنالك رجُلًا واحدًا أستطيعُ أن أثِقَ به، وهو في اللُّودُس".

"كيفَ يمكنك أن تثق بأيِّ شخص في ذلك المكان؟"

"لقد أنقَذَ باطُو حياتي أكثرَ من مرَّة".

"قيمةُ المُحارِبِ حيًّا أكثرُ منها مَيْتًا".

أمسكَ بها من ذِراعها وبرَمَها نترًا، وهو يكاد يدفَعُها دفعًا في الاتِّجاه الذي نوى أن يسلكه. "إنَّنا نُبدِّدُ الوقت".

وإذ دارَ ووصل إلى بوَّابة الحديد الثَّقيلة، نظَرَ إلى الأسوار السميكة. كان أربعةُ حُرَّاسٍ في الخدمة، مُتحقِّقين من عدمِ السَّماح بدخول أيِّ مُعجَب من الأموراتيي. فقد كان يُسمَحُ بالدُّخول فقط للزَّبونات الذين يدفعون أجرةً للتفرُّج بمُشاهدة تمرينات المُحارِبين أو المُشاركة فيها.

لقد رأى أوَّلَ مرَّة جوليا واقِفةً على شُرفة المُشاهِدين. وكانت قد أتت مع رفيقتها الفاجِرة لمُشاهدته يتمرَّن.

قالت رِصفة: "لنبتعِدْ عن هذا المكان ما دُمنا نستطيع".

اشتدَّت أصابِعُه، مُسكِتًا إيَّاها. وسألَ واحدًا من الحُرَّاس: "أما زالَ باطُو هو اللانيستا؟"

أجابَ الرَّجُل: "لا أحَدَ سواه"، مُنقِّلًا نظرَه بين أتريتِس ورِصفة. وابتسمَ ابتسامةً خفيفة، مُجريًا حملقَتَه على رِصفة نزولًا بإعجابٍ ملحوظ.

أمَرَها أتريتِس بنفادِ صبر: "غطِّي وجهَكِ!" ثُمَّ تقدَّمَ أمامها لمَّا فعلَت ذلك. وقال ببرودة: "قُل لِباطو إنَّ عند البوَّابة جِرمانيًّا يودُّ أن يُكلِّمَه".

فسألَ الحارِسُ: "أينبغي له أن يتأثَّر؟"

وتفحَّصَه حارِسٌ آخَرُ بفُضول. "إنَّه يبدو مألوفًا".

فقالَ أتريتِس: "بلِّغِ الرِّسالة!"

أطلقَ الحارِسُ الذي تكلَّم إليه صَفرةً حادَّة. فأجفَلَ كالِب وبدأ يبكي على ذِراعَي رِصفة. وأقبَلَ ساعٍ ركضًا، فقال له الحارس: "قُل لِباطو إنَّ بَربريًّا يرغب في مُقابلته".

انتظَرَ أتريتِس حتَّى رأى باطو يخطو خارجًا إلى الشُّرفة فوق ساحة التمرين وينظر نحو البوَّابة، فنزَعَ عِمامته. وقال أحَدُ الحُرَّاس همسًا: "قَسَمًا بالآلِهة، إنِّي أعرِفُ مَن هذا الرَّجُل!"

رجَعَ باطو إلى الدَّاخل. وعاد الخادم الذي بُعِثَ بالرِّسالة راكضًا. "أدخِلوه ورافِقوه إلى باطو في الحال".

لمَّا انفتحَت البوَّابة على مِصراعَيها، جمدَت رِصفة في مكانها. فطوَّقَ أتريتِس كتِفَيها بذراعه وأدخلَها معه. وانغلقَت البوَّابة وراءهما، فنزَلَت يدُه إلى ظَهرِها، دافِعةً إيَّاها إلى الأمام.

عبَرَا الفِناء ودخَلا البِناء. ورافقَهما حارِسان في رِواقٍ طويل، ثُمَّ صعودًا على الدَّرج إلى الطَّبقة الثانية. فمشَوا في رِواقٍ فوقَهُ قناطِرُ، مُطِلٌّ على فِناءٍ أجرَد، حيثُ كان عشرون رجُلًا، يرتدون أكثرَ بقليلٍ من المآزِر، يخضعون لسلسلة من التدريبات العسكريَّة. كان المُدرِّبُ يصيح بأوامِرَ حادَّة ويمشي ذهابًا وإيابًا بمُحاذاة الخطِّ الأماميّ، مُراقِبًا أداءهُم. وإلى واحِدٍ من الجُدران، رأت رِصفة رجُلًا مربوطًا بِعَمود، وعلى ظهرِه حُزوزٌ دامية من جرَّاء جَلدِه حديثًا.

أمسكَ أتريتِس بذراعها وجذَبَها لمُتابعة المشي. "لا تقولي أيَّ شيء!"

كان حارِسان واقِفَين خارِجَ مدخلِ بابٍ مفتوح، فدخَلَ أتريتِس. وما إنِ اجتازَ العَتَبة، حتَّى أفلتَها. وقد وقفَ في وسط الغُرفة رجُلٌ أسوَد. وكان يُعادِلُ أتريتِس طُولَ قامةٍ وقُوَّةَ بُنيةٍ. ومع أنَّه لم يَرمُق رِصفة بأكثرَ من نظرة خاطفة، أحسَّت تأثيرَ الذَّكاء الحادِّ والمهابة الجليلة.

دونَ أن يقول أتريتِس كلمةً، سحَبَ السِّلسلةَ الذهبيَّة من تحتِ تُنكِه تاركًا رُقاقةَ العاج تتدلَّى على صدره. فنظرَ الأفريقيُّ إليها، وقال بلُكنةٍ يونانيَّة ثقيلةِ اللَّفظ: "هذا يُجاوِبُ عن سؤالي الأوَّل". وبمُجرَّد رفعه قليلًا لرأسه، انصرَفَ الحارِسان. كان في وسع رِصفة بعدُ أن تسمع صوتَ المُدرِّب في المُجمَّع. وقد فرقَعَ كِرباجٌ إذ تكرَّرَ أمرٌ.

"هل لك في شيءٍ من النبيذ؟"

فقال أتريتِس: "وبعضِ الطَّعام".

أومأ باطُو برأسه مرَّةً واحدة لخادِم، فانصرفَ الرَّجُلُ لتنفيذ أمرِه. وتأمَّل باطُو أتريتِس قليلًا، ثُمَّ نظرَ إلى رِصفة ثانيةً، مُتأمِّلًا إيَّاها هذه المرَّة. كانت جميلةً جدًّا ومُتضايقة بوضوح من وجودها في اللُّودُس. وكان طِفلٌ ملفوفًا بشالٍ مربوطٍ حولَ كتِفَيها، فطوَّقَته بذراعَيها وضمَّته إليها أقرَبَ إذ تفحَّصَها باطُو. ثُمَّ فرقَعَ كِرباجٌ ثانيةً، وهذه المرَّةَ أطلَقَ رجُلٌ صرخةَ ألَم. فأجفلَت ونظرَت صوبَ الباب مُتقِعةَ الوجه.

أغلقَ أتريتِس الباب ودفعَها دفعةً خفيفة إلى وسط الغُرفة. وقالَ لها بلهجةٍ لم تُبقِ مكانًا للجِدال: "اقعُدي هُناك". ففعلَت كما أمَرَها.

صبَّ باطُو نبيذًا. "ماذا أعادك إلى رُوما، أتريتِس؟"

"أحتاجُ إلى مالٍ ومَبيت وخريطة تُريني طريقَ الرُّجوع إلى جِرمانيا".

"أذلكَ كلُّ شيء؟"

تجاهَلَ أتريتِس سُخريةَ اللانيستا، وأخذَ الكأسَ المقدَّمة.

صبَّ باطُو كأسًا أُخرى وحملَها إلى المرأة. كان لها عينانِ داكِنتان جميلتان كعينَي جوليا ڤاليريان، ولكنَّها لم تكُن إيَّاها. وقالَ ناظرًا إلى الطِّفل. "أرسَلَ سَرتِس مندوبًا قبلَ نَحوِ ستَّة أشهُر". لقد كان للطِّفلِ مِثلُ لونِها. "أُخبِرتُ بأنَّك كسَبتَ حُرِّيَّتك في مُباراةِ إقصاءٍ والآنَ تملِكُ دارةً أفخَمَ من دارةِ البِرُوقُنصل". أخذَت رِصفة الكأسَ من يده ورفعَت نظرَها إليه. فالتوى فمُه قليلًا. لقد استطاع أن يرى بكُلِّ وضوحٍ أنَّها لم تثِق به.

قال أتريتِس: "ذلك صحيح". ولم يقُل شيئًا عن رِصفة، مع أنَّ باطُو كان يرنو إليها

باهتمامٍ صريح واستِفسارٍ سافِر. كلَّما عرَفَ عنها أقلَّ، كان أفضل. فقد كانت للنِّساء قيمةٌ ضئيلةٌ في هذا المكان.

قال باطُو: "ماذا جرى؟" وقدِ التفتَ إليه مُقلِعًا عن إمعانه في المرأةِ والولَد.

"غادرتُ أفسُس على عَجَل".

"هل قتلتَ سَرتِس؟"

فأطلقَ أتريتِس ضِحكةً قصيرةً خفيفة، وتجرَّعَ كأسَ النبيذ. "لو أُتيحَ لي الوقتُ والفُرصة، لسَرَّني ذلك جدًّا".

ونظرَت رِصفة إليه فرأت أنه عَنَى ما قاله.

"لقد وجَدَ سبيلًا لإرغامي على الرُّجوع إلى ساحة المُحاربين". وانتقلَت حَملقَتُه حالًا إلى المرأة والولد بصُورة مُحدَّدة.

"وهل تظنُّ أنَّ الوضع سيكونُ مُختلفًا هُنا؟"

فبدأ قلبُها يطرُقُ بضراوة.

وقال أتريتِس ببُرود، حاطًّا الكأسَ على الطاولة: "ماذا تعني؟"

"أعني أنَّك لم تغِب مُدَّةً طويلة تكفي لأنْ ينساكَ أُناسٌ مخصوصون. ودوميتيان واحدٌ منهم. أم نسِيتَ أخا الإمبراطور؟"

"لقد كسَبتُ حرِّيَّتي".

"الحرِّيَّة تُلغى بسهولة. لقد أهَنتَ عمدًا واحدًا من أقربِ أصدقائه في أثناءِ مُباراةٍ تدريبيَّة".

"كان ذلك منذُ زمَنٍ طويل، وقد أخَذَ دوميتيان بالثأر لمَّا جعلَني أُقاتِلُ واحِدًا من رِجالِ قبيلتي الخاصَّة".

"ثأرٌ ضئيل بحسَب معاييرِه، أتريتِس. ما كانَ دوميتيان ليحسبَ أنَّ الحِسابَ قد سُوِّيَ إلَّا إذا مُتَّ. ومِن سَعدِكَ أنَّك لم تغِب مدَّةً طويلة تكفي لأنْ ينساكَ الرَّعاعُ أيضًا".

"يقينًا أنَّك لستَ مُقترِحًا أن يُقاتِلَ أتريتِس من جديد".

فوجئَ باطُو بأنَّها تكلَّمَت. كانت قد بدَت شخصًا صغيرًا جميلًا، لكنْ وديعًا، لمَّا دخلَت الغُرفة. فتعجَّبَ الآن. لقد كان في عينَيها نار. "رُبَّما لا يُتاحُ له أيُّ خِيار".

غادرَت الأريكة ووقفَت أمام أتريتِس. "لنُغادِرْ هذا المكان، الآن. رجاءً!"

ربَّما كان أتريتِس أصمَّ رُغمَ كلِّ الانتِباه الذي أعارها إيَّاه.

وقال باطُو بصراحة: "إذا تبيَّن لدوميتيان أنَّك هُنا، يمكن إلَّا تخرُجَ حيًّا مرَّةً ثانية".

فسألَ أتريتِس، وعيناهُ تَضيقان: "هل تنوي أن تُخبِرَه؟"

"لا، ولكنَّ له أصدِقاءَ بين الحَرَس. وقد كان واحدٌ منهم عندَ البوَّابة لمَّا وصلتَ". ونظرَ إلى المرأة تحديدًا. "هذا آخِرُ مكانٍ كان ينبغي أن تأتيَ بها وبالطِّفل إليه".

فأظلمَت عينا أتريتِس. "إذا كان يَغناكْس جديرًا بالثِّقة، فَسأستأجِرُ مَبيتًا هُناك".

"فليكُن. إنَّ حضورَك في الفُندُق سيضمَنُ له شُغلًا إضافيًّا. تَيقَّنْ بأن يدفعَ لكَ جيِّدًا. هل تتذكَّرُ كيف تصِلُ إلى هُناك؟"

"لا. كان الليلُ قد انتصفَ لمَّا أخذتَني. أمَا تذكُر؟"

ضحِكَ باطُو. "أذكُرُ تلك اللَّيلةَ جيِّدًا جدًّا". ثُمَّ دخَلَ الخادم. وحالَما وُضِعَ الطَّبقُ على الطاولة، صرَفَه باطُو بإشارةٍ من يده. وقال لأتريتِس ورِصفة: "كُلا فيما أُزوِّدُكما بالتَّوجيهات".

لم تكُن لرِصفة شهيَّة. فأصغَت إلى توجيهات باطُو، وهي تتأمَّلُ اللانيستا. أيُمكِنُ أن يُوثقَ به؟ أم كان شخصًا آخر على شاكلة غالُص، يتظاهَرُ بأنَّه صديقٌ في حينِ يُخطِّطُ لاستِعمال أتريتِس؟

أكَلَ أتريتِس حُصَّةً سخيَّةً من اللَّحم والخُبز والفاكهة، وتجرَّع كأسينِ أُخريَين من النَّبيذ قبلَما أشبعَ جوعه.

وقال باطُو: "سنَذهبُ عبْرَ الأنفاق. لن يراكُما الحُرَّاسُ مُغادِرَين، وسيفترِضون أنَّكما ما تزالان هنا".

ثُمَّ تقدَّمَهُما في الرِّواق المسقوف بالقناطر والمُطِلِّ على ساحة التدريب. وقد كان المُحارِبون يقومون بتمارين مُستعمِلين سيوفًا خشَبيَّة. فلم يتوقَّف أتريتِس، ولا حتَّى أدارَ رأسَه. وإذ رأت رِصفة الآن لمحةً من حياة اللُّودُس الوحشيَّة، وَجِعَت من أجلِ أتريتِس.

هبَطوا الدَّرج إلى الحمَّامات، ثمَّ ساروا في رِواقٍ آخَر. وأخَذَ باطُو مشعلًا مُوقَدًا عن سِنادٍ في الجدار إذ فتَحَ بابًا ثقيلًا. "مِن هُنا".

تصوَّرَت رِصفة الرِّجالَ الذين ساروا في هذا الرِّواق المُظلِم عالِمينَ أنَّهم سيُواجِهون الموت عند الطَّرَف الآخر. ولم ينبِس باطُو وأتريتِس بكلمة إذ سارا قُدَّامها. كان سكوتُهما مُتَّسِمًا بالاحترام وحافلًا بالتاريخ القائم بينهما. وكان عند الطَّرَف الأقصى بابٌ مفتوحٌ،

يُفضي إلى مزيدٍ من الأروقة المؤدِّية إلى زَنزانات الاحتجاز تحت ساحة المُحارِبين نفسِها. ثُمَّ صعِدوا دَرجاتِ الغرانيت إلى داخِلِ غُرفة كبيرة فيها بُنوكٌ بلِزق الجُدران الحجريَّة. ورأت رِصفة الساحةَ من خلال البوَّابة الحديديَّة.

تمهَّلَ أتريتِس وسرَّحَ نظرَه خارجًا في الرُّقعة الواسعة الملأى بالرَّمل المُسَوَّى وصُفوفِ المصاطِب الرُّخاميَّة، حيث كان آلافُ المُتفرِّجين يجلسون في أثناء الألعاب. وكم مرَّت به لَحَظاتٌ، كما الآنَ، فيها ما يزالُ يُدَوِّي في أُذنَيه هِياجُ الرَّعاعِ الحماسيُّ كنَبْضِ قلبٍ قويٍّ يُنشِّطُ دمَه!

كم مرَّةً وقَفَ في هذه الغُرفة، مصقولَ الدِّرع، مَشحوذَ السَّيف، مشدودَ دِرعَي السَّاقَين، مُنتظِرًا كي يخطوَ خارجًا إلى ضوء الشَّمسِ الباهر، ويُواجِهَ الموتَ والجُمهورَ المُتحمِّس هاتفًا باسْمِهِ مرارًا وتكرارًا؟ لقد كرِه ذلك، وكرِهَهُم. وأحيانًا، كرِهَ حتَّى نفسَه.

فلماذا إذًا اشتاق إلى ذلك؟

وإذِ التفتَ رأى باطُو واقِفًا بقُربِ مدخَلِ بابٍ آخر. فقال اللانيستا برَزانة: "بدأتَ تفهم".

"لقد أخذوا أكثر من حُرِّيَّتي. إنَّهُم أخذوا نفْسي".

غمَرَ الحنانُ رِصفة حيالَ الكآبةِ في صوته. فذهبَت إليه. ونظَرَ إليها من علُ بعينَين مُضطرِبتَين، فتناولَت يدَه. وقالت: "لك نفْسٌ، أتريتِس. أمامَ الله، لكَ نَفْسٌ. هو أعطاكَ إيَّاها".

لم يُقدِّم باطُو أيَّ نُصحٍ أو عزاء؛ فأتريتِس كان رجُلًا لا يقبَل أيًّا مِنهُما، بل يستاءُ من كِلَيهما. ولكن لمَّا تناولَت المرأة يدَ أتريتِس ووضعَتها على الولد النائم، رأى باطُو لِينًا، ليس لمَّا مسَّ أتريتِس الطِّفل بل لمَّا نظَرَ إلى المرأة. فخالَجَهُ شعورٌ بأنَّ هذه ستُثبِتُ أنَّها أفضلُ بكثيرٍ من جوليا قاليريان.

قال باطُو: "من هُنا!" وتقدَّمَهُما في رِواقٍ آخر أدَّى إلى غُرفة كبيرة داخِلَ بوَّابةٍ حديديَّة مُطِلَّةٍ على ساحة المُحاربين خارجًا.

قالَت رِصفة بصَوتٍ مكتوم: "ما هذا المكان؟" لأنَّه ضايقَ روحَها.

فقال أتريتِس: "المَوتى يُحضَرون عبْرَ هذه الأبواب".

وقال باطُو: "هذا أفضلُ طريقٍ إلى الخارِج". ثُمَّ تَقدَّمَهُما في الرِّواق، حيثُ كان الأموات يُحمَلون إلى عرَبات مُنتظِرة تنقلُهم لِيُدفَنوا خارِجَ أسوار المدينة.

أفلتَت رِصفة يدَ أتريتِس. لم تكَد تستطيعُ أن تتنفَّس، مُحدِّقةً إلى الرِّواق المُظلِم الطويل.

فوضعَ أتريتِس ذراعَه حول كتِفَيها، وجرَّها معه إلى داخِلِ السِّردابِ المُضني. ودقَّ قلبُها بشِدَّة إذ تبِعا اللانيستا.

حطَّ باطُو المشعل على سِناد عند طرَفِ الرِّواق الحجريِّ. وأخرجَ بِضعَ قِطَع نقديَّة من حِزامه ثُمَّ ناوَل رِصفة إيَّاها. ''ستعودُ إليكِ شهيَّتُكِ عندما تُغادِرين هذا المكان''. فأخذَتِ النُّقود، وشكرَته على لُطفه.

وإذ فتَحَ باطُو البابَ الثقيل، قال لأتريتِس: ''لِيَحمِكَ إلهُها''. وقد كانَ خارِجَ الباب شارعٌ رومانيٌّ ونُورُ شمس.

١٨

كان يَغناكْس قدِ ازدادَ بَدانةً وثَراءً على السَّواء على مدى السِّنين الثلاث منذُ رآهُ أتريتِس آخِرَ مرَّة. وكان شعرُه، المقصوصُ قصيرًا، شائبًا على الصُّدغَين، والأخاديدُ في وجهه قد ازدادت عُمقًا. ولاحظَ أتريتِس فخامةَ المُحيط، مُدرِكًا جيِّدًا أنَّ البحبوحةَ قد نتَجَت من الجِداريَّة المرسومة على مُقدَّم الفُندُق مُصوِّرةً إيَّاه في أثناء القِتال. لم يستطع أن يقرأ اللَّافِتة، ولكنْ كانت له فِكرةٌ وافيةٌ عمَّا قالته.

قال يَغناكْس: "لقد كَسَبتَ حُرِّيَّتك إذًا!" وقد لاحَظَ الرُّقاقة العاجيَّة مُتَدلِّيةً من السِّلسلة الذَّهبيَّة حول عُنقِ أتريتِس. وأُعجِبَ برِصفة، إن لم يكُن بالطِّفل على ذِراعَيها، مُضيفًا بابتسامةٍ عريضة: "ولكَ أكثرُ ممَّا لي لِتَتباهى به".

لم تَرُق أتريتِس طريقةُ تحديقِ يَغناكْس إلى رِصفة: "أنا بحاجة لأكسِبَ من المال ما يكفي لرحلة الرُّجوع إلى جِرمانيا".

أطلقَ يَغناكْس ضِحكةً ثقيلة. "أنتَ تُضمِرُ رجاءً باطلًا، أتريتِس. لا يمكنك أن ترجِع. لستَ بَعدُ جِرمانيًّا أكثرَ ممَّا أنا غاليٌّ".

"تكلَّمْ بالأصالة عن نفسك، لا نيابةً عنِّي".

"أتظنُّ أنِّي مُخطئ؟ سواءٌ أعجَبَك الأمرُ أم لم يُعجِبْك، فأنتَ لستَ الرَّجُلَ الذي أسَرَهُ الرُّومان قبلَ عَشرِ سنين. لقد غيَّرَتكَ روما".

"قد يكون ذلك صحيحًا، ولكنِّي ما زلتُ شَطِّيًّا".

"مهما كُنتَ، فإنَّ قومَك سيَعرِفون الفرقَ الآن، حتَّى لو لم تعرِفه أنت". ولوَّحَ بيده تلويحةً خفيفة. "ولكنْ عندئذٍ، ماذا يهمُّ ذلك؟ إنَّ الشَّطِّيِّين ماتوا منذُ زمَنٍ بعيد".

"أنا حيٌّ. وسيَكونُ آخرون أيضًا أحياءً".

"مُشتَّتين وغيرَ مُنظَّمين". وأحسَّ يَغناكْس الصَّمت في الغُرفة المُشتركة، فأجالَ بصَرَه في أنحائها، مُلاحِظًا كيف حدَّقَ زَبوناتُه إلى أتريتِس وتهامسوا في ما بينهم.

ولاحظَ أتريتِس ذلك أيضًا، إلَّا أنَّه أحبَّه أقلَّ من يَغناكْس. "كم ستَدفعُ لي لأُقيمَ هُنا؟"

فضحِكَ يَغناكْس: "ليست لك حِدَّةُ ذِهنٍ. جرى ما يكفي من ألعابٍ في ساحة المُحارِبين".

وما لبثَ يَغناكْس أن أعلنَ بصَوتٍ عالٍ تمامًا بحيثُ يسمعُه كلُّ مَن في الغُرفة: "فيلو، أتريتِس وأنا سنَرتشِفُ أفخَرَ نبيذ!" فسَرَت حالًا في أوصالِ رِصفة قُشَعريرةُ خوفٍ إذ أحسَّت موجةَ الإثارة مُنتشِرة. وقد همَسَ أحَدُهم، في أثناء مُرورِهما: "إنَّه هو".

وقال آخر: "وحقِّ الأقدار، إنّي أُعطي نِصفَ ما أملِكُ لأُشاهِدَه يُقاتل من جديد!"

وإذ سُرَّ يَغناكْس جيِّدًا بالهِياجِ الذي أحدثَه، أومأ بمهابة. "تعال، يا صديقي. اجلسْ وخُذ قليلًا من النَّبيذ. سنتحدَّث بشأن الأيَّام القديمة".

حدَّقَ الرِّجالُ إلى أتريتِس، ثُمَّ نظروا إلى رِصفة إذ أمسكَ بذراعها جارًّا إيَّاها بجانبه وهو يتبع يَغناكْس إلى طاولة محجوزة بوضوح للزبائن الأكثرِ غِنًى. وإذِ اتَّكأ أتريتِس على أريكة الشَّرَف المُقدَّمة، أومأ لها أن تنضمَّ إليه. فقعدَت وكالِبُ في حِضنها، ورأسُه مُسنَدٌ إلى صَدرِها بطريقة مُريحة في أثناء نومه. ولم تكُن مُستريحةً لكونها محَطَّ اهتِمامٍ بالغ.

قال يَغناكْس، بشيءٍ من الحسد: "لم ينسَوك!"

فقال أتريتِس بجفاف: "حقيقةٌ ستعود عليك بالنَّفع. فكِّرْ كم من الناس سيأتون ويشترون خَمرتك حين يعلمون أنّي هُنا".

"سيُحضِرونَ هدايا يضعونها عندَ قدَمَي معبودهم".

ضاقت عينا أتريتِس. "هل تهزأُ بي، يَغناكْس؟"

"ليسَ أكثرَ ممَّا أهزأُ بنفسي. لم يعُد نورُ المجد يُشِعُّ طويلًا على أيِّ رجُل. فاستَفِدْ من الأمر أقصى استِفادة، ما دُمتَ تستطيع".

"كلُّ ما أُريدُه ذهَبٌ كافٍ لإيصالي إلى الدِّيار".

التوى فَمُ يَغناكْس. "مُباراةً واحدةً في الألعاب المُقرَّرة للأُسبوع التالي، فيكونَ لك ذلك. في وسعك أن تُحدِّد سِعرَك، ومن شأن تيطس أن يدفعَه".

نظَرتَ رِصفة إلى أتريتِس، وقد أقلقَها احتمالُ تفكيره في العودة إلى القتال. فإذا قِناعٌ مُسدَلٌ على سيمائه.

ابتسمَ أتريتِس بِلا مَودَّة، وأجاب: "أُفضِّلُ أن تدفعَه أنت. شُروطي بسيطة: حِصَّةٌ مُساوية من أرباحك ما دُمتُ ماكثًا في هذا الفُندق". ولمَّا شرَعَ يَغناكْس يحتجُّ، أضاف: "إذا فضَّلتَ، فسأنزِلُ إلى الشارع وأُقدِّمُ العَرضَ نفسَه لمُنافِسِك".

"لا داعيَ للقيام بذلك. أنا مُوافِقٌ على شُروطك".

"مئةُ دينار..."

"مئة!"

"...مُقدَّمًا، وترتيبُ حُرَّاس، ما يكفي منهم للحؤولِ دونَ تكرارِ ما جرى في أثناء زيارتي الأخيرة إلى هُنا. لا أُريد أن يُمزِّقَ ثيابي حَشدٌ جامحٌ من النِّساء". وتجاهَلَ حاجِبَ رِصفة المرفوع. "ثُمَّ اعتَنِ بأن تحصُلَ المرأةُ وولَدُها على مَبيتٍ آمِنٍ مُريح". وقد نَخَعَ رأسَهُ نحوَ رِصفة كما لو كانَ ذلك تقريبًا فِكرةً خطَرَت في باله للتوّ.

فانتهزَ يَغناكْس الفُرصة كي يَشيمَ رِصفة ثانيةً: "في المبنى نفسه، أم تُفضِّلُ لها مكانًا آخر؟" وابتسَمَ لأتريتِس ابتِسامةَ إدراك. "رُبَّما رغِبتَ في استِضافةِ مُعجَبين".

فهِمَ أتريتِس مُرادَه، وانزعَجَ منه على نحوٍ غير قابل للتَّفسير. "أُريدُ لها أن تكونَ قريبةً في المُتناوَل، ولكنْ غيرَ قريبةٍ جدًّا بحيثُ تكونُ في فِراشي". فاحمَرَّ خدًّا رِصفة ورمته بنظرةِ انزعاج حادَّة. ثُمَّ أضاف: "إلَّا إذا أردتُ لها أن تكونَ هُناك".

قال يَغناكْس: "فليكُنْ الأمرُ كذلك". وقامَ لإجراء التَّرتيبات.

نظَرَ أتريتِس إلى رِصفة، لاوِيًا فمَه تسليةً. "تظهرين مُنزعِجةً، سيِّدتي. أكان السَّببُ شيئًا قلتُه؟"

"أنت تعرِف جيِّدًا جدًّا ما قُلتَه لصديقك، وما لَمَّحتَ إليه".

"ليس هو صديقي، وحسِبتُ من الأفضل أن أدَعَه يعلم أنَّكِ تخُصِّينَني".

"حقيقةُ مجيئي إلى هُنا معك قالت ما يكفي".

"كان ينبغي أن يُعبَّر عن ذلك بصراحة".

استطاعت أن تُحِسَّ الناس مُحدِّقينَ إليهما، فشعرَت بالانزعاج الشَّديد. "أأنتَ على يقين بأنَّنا سنكونُ في أمان هُنا؟" وإذ نظرَت حَواليها، زَمَّ فمَه. "ما أدركتُ قطُّ كم ستكون معروفًا جيِّدًا هُنا".

أدار رأسَه ببُطء. فإذا بحَملقَتِهِ القاسية المُتحدِّية تجعل مُعظمَ الزبائن يُشيحون بأنظارهم. وقالَ ببرودة: "لِكَونِ المرء معروفًا حسَناتٌ مُعيَّنة". وقد تبدَّدَ كلُّ أثَرٍ لمَرَحِهِ السَّالف.

"أيُّ حسَنات؟ لقد حذَّرَنا باطُو من دوميتيان. وها أنتَ تضع حياتك في يدَي يَغناكْس، ولا بُدَّ أن يستأجِرَ مُنادِين ليجولوا في أنحاء المدينة مُعلِنينَ حضورَك هُنا".

"لا أنوي أن أبقى مدَّةً طويلة".

"قد تبقى في روما إلى الأبد إذا أرادَ لك أخو الإمبراطور أن تكونَ مُقيَّدًا بِسَلاسل".

فقدَحَت عيناهُ شرَرًا. "يا امرأة، لماذا يجِبُ دائمًا أن تمتحِني صبري؟" ثُمَّ جلسَ مُستقيمًا، ومالَ نحوها.

رجُلٌ يصعُبُ التَّعامُلُ معه! "لماذا يجب أن تستشيطَ غضبًا حِيالَ كُلِّ ما يُقالُ لك؟ أنت تضع نفسَك مُتعمِّدًا في قلبِ الخطَرِ هُنا، وقد وضعتَ كالِب في الخطَرِ معك. لا تتوقَّعْ منِّي أن أكونَ سعيدةً بذلك".

فارتجَّت عَضَلةٌ في خدِّه. "لا يهمُّني أسعيدةٌ أنتِ أم لا. فالحقيقة هي أنِّي أحتاج إلى مالٍ لإيصالنا إلى حيثُ نحنُ ذاهبان. وهذه هي الطريقة الأنظفُ والأسرع التي في وسعي أن أعتمدها للحصول عليه".

"الطريقة الأنظف؟"

"لا شكَّ أنَّكِ تُفضِّلينَ لي أن أكونَ في ساحة المُحاربين".

تمنَّت لو وثِقَ بثيوفيلُس بالأحرى، ولكنَّها علِمَت أنَّ إفصاحها عن ذلك لن يؤولَ إلَّا إلى مُفاقمةِ مِزاجِه. وقد سبَقَ أن تعلَّمَت أنَّه لم يكُن في وسع أتريتِس أن يفعلَ أيَّ شيء بالطريقة السَّهلة، لا سيَّما إذا عنى ابتلاعَ كبريائه الهائلة. "لا، لستُ أُريد لكَ أن تكون في ساحة المُحارِبين. أُريد لك أن تكونَ سالِمًا وفي سلامٍ مع نفسك ومع الله".

"وأنتِ تظنِّين أنَّه كان من شأن الحال أن تكونَ على هذا المنوال لو سلَّمتُ نفسي لقائد المئة الجِلفِ ذاك الذي يخصُّك!"

"لقد أنقَذَ ثيوفيلُس حياتك مرَّتين. لقد قال..."

أطلقَ أتريتِس صوتًا خشِنًا. "من شأنِ ساحة المُحاربين أن تكونَ الطريقةَ الأسرَع". وأجرى أصابِعَه في شعره. "فإمَّا أحصُل على الذَّهب للعودة إلى الدِّيار وإمَّا أموت. وفي كِلتا الحالتين، أفوز".

فاشمأزَّت من كلماته، وحدَّقَت إليه. "لا يمكن أن تعنيَ هذا".

"بل أعنيه. أجَل، أعنيه".

فقالَت، واضِعةً يدَها على خدِّه: "إذا كان لِساني المُعانِدُ هو ما وضعَ فِكرةً كهذه في رأسِك، فسامِحني. أتريتِس، رجاءً! لديكَ الكثيرُ الكثيرُ تعيشُ لأجلِه بحيثُ لا تسمَحُ لنفسك بأن تُفكِّرَ بهذه الطريقة".

بثَّت لَمستُها دفقةَ إحساسٍ في أنحاء بدَنِه، مُثيرةً رغبةً جسَديَّةً حادَّة، فضلًا عن تَوقٍ أعمقَ لم يُرِد أن يُحلِّلَه. ونظَرَ مُباشرةً داخِلَ عينَيها. فاتَّسعَت عيناها وأنزلَت يدَها عنه، قائلةً: ”لماذا يجب دائمًا أن تُسيءَ فهمي؟“ ثُمَّ أشاحَت بناظِرَيها.

أدارَ رأسَه نحوها مُجدَّدًا وابتسَمَ على نحوٍ ساخِر. ”قد يكون لي شيءٌ ما أعيشُ لأجله، ولكنّي أشكُّ في أنَّ الأسباب التي يمكنني أن أُفكِّر فيها الآن تُشبِه أسبابَكِ من أيِّ وجه. وأعجَبَه اللَّونُ الورديُّ الذي انسكَبَ في خدَّيها، ودِفءُ بَشَرَتِها لمَّا مسَّها برؤوسِ أصابعه مسًّا رقيقًا. فانكمشَت من لمسَتِه، وقالَت مُحرَجةً: ”النَّاسُ يُشاهِدوننا“.

”جيِّد. سيعرفون أن يبقَوا بعيدين عنكِ“.

تقدَّمَهُما يَغناكْس إلى الدَّور الأعلى، وفَتَح البابَ إلى مَهجَعٍ واسع. ولم تتحرَّكْ رِصفة من الرِّواق حتَّى أمسكَ أتريتِس ذِراعَها وسحَبَها إلى داخِلِ الغُرفة.

قال يَغناكْس: ”من هُنا، سيِّدتي“. وأدخَلَ رِصفة إلى غُرفة صغيرة مُتَّصِلة، مُعَدَّةٍ لتُلائمَ خادِمًا أو خادِمةَ سيِّدةٍ، ثُمَّ تركَها هُناك.

وسمِعَته يقول لأتريتِس: ”أهي قريبةٌ كفايةً، أم تُفضِّلُ مزيدًا من الخُصوصيَّة، وإيَّاها في غُرفةٍ غير مُتَّصِلة بمَهجَعِك؟“

”ستكون في مأمنٍ حيث هي“.

”وإذا أردتَ نِساءً أُخَر؟“

فقال أتريتِس شيئًا ما بصوتٍ مُنخفِض ثُمَّ صرَفَه.

فعَلَ يَغناكْس تمامًا كما خشِيَت رِصفة. إذ نادى مُنادٍ تحتَ نافذَتِهما: ”أتريتِس رجَعَ إلى روما. يمكنكم أن ترَوه في فُندُقِ يَغناكْس، مُصارِعِ المُدرَّجِ الأعظم!“ وفي غضونِ ساعات، بدأ الناسُ يَصِلون. فحدَّدَ يَغناكْس رسمًا للدُّخول إلى فُندُقِه، ثمَّ ارتفعَ السِّعرُ بارتفاعِ الأعداد.

رُغمَ مُوافقة أتريتِس على قضاءِ بضعِ ساعات في غُرفة الولائم حتَّى يتيسَّر لِلضُّيوف أن يرَوه، لم يبذل أيَّةَ مُحاولة لتسلية أحَد بقِصَصِ مآثِرِه في ساحة المُحارِبين. وبالحقيقة أنَّه لم يبذل أيَّ جهد ليتحدَّثَ إلى أيٍّ مَن تقدَّم إليه. وقد أُغرِيَتِ النِّساءُ بتكتُّمه؛ أمَّا الرجال فامتعضوا منه.

بقِيَت رِصفة في غرفةِ الدَّور الأعلى، توَّاقةً إلى تجنُّب العُيون الفُضوليَّة والتَّخمينات المُحرِجة. وكان أتريتِس يرجِعُ إلى الغُرفة مُتوتِّرًا قلِقًا، فباتَ الوضعُ أسوأ كلَّما مرَّ يومٌ آخر.

ضجَّ كالِب مُتَململًا بِلا انقطاع. وخشِيَت رِصفة أن يكون مريضًا. ففركَت لِثَتَهُ المُوجَعة. إلَّا أنَّه ظلَّ يبكي باضطِراب، فحطَّته على بطَّانيَّة وراقبَته فيما حَبَا عنها وتوجَّه عبْرَ الغُرفة إلى أرجُلِ أريكةٍ محفورة. ولمَّا بدأ يُعَضِّضُ بإحداها، شالَته ووضعَته على البطَّانيَّة من جديد. فزعق غاضَبًا.

يقينًا بأنَّ الصَّوتَ انتقلَ عبْرَ الجُدران، التقطَت رِصفة إحدى الوسائد الفاخرة ودلَّتها فوقه. قالت: "كالِب!" وهَسهسَت على أنفه بقماشة. فكفَّ عن البُكاء ومَدَّ يده ليقبِضَ على القماشة. ثُمَّ قعدَت وراقبَته يُعَضِّضُ على الوسادة التي غنِمَها. غيرَ أنَّه لم يبقَ مُتلهِّيًا وقتًا طويلًا.

كانت مُنهَكةً لمَّا دخلَ أتريتِس الغُرفة. فطرَحَ صُرَّةَ نُقودٍ على السَّرير وحدَّق إليها هُنَيهةً صامتًا. وأخيرًا قال بإيجازٍ وإلغاز: "دُعيتُ إلى مأدُبة".

تيقَّنت بأنَّ تلك لم تكُن الدَّعوةَ الأُولى ولا النَّوعَ الوحيد من الدَّعوات التي تلقَّاها في غضون الأيَّام القليلة الماضية. وقد تجاسرَت على النُّزول إلى الأسفل مرَّةً واحِدةً فقط، يدفَعُها الفُضولُ لرؤية عشَّاقه الكُثُر وكيفيَّة تصرُّفهم من نحوِه. فاستغرقَ الأمرُ بِضعَ دقائقَ فقط لرؤية الإغراءاتِ التي واجهَها. إذ أحاطَت به النِّساء؛ نِساءٌ جميلاتٌ جريئاتٌ رغِبنَ فيه.

"أأنتَ ذاهب؟"

فأدار رأسَه ونظَرَ إليها. هل أرادت منه أن يُغادِر؟ أكانت رِفقَتُه بغيضةً إلى هذا الحدّ؟ وما لبِثَ أنِ امتحَنَ ردَّةَ فعلِها، إذ قال ساخرًا: "السَّيِّدة بيرينا لا تفتقِرُ إلى فِتنةٍ نادرة".

كافحَتِ الرَّغبةَ المُفاجئةَ في أن تهبَّ واقِفةً وتصفَعَ وجهَه، وتزعقَ عليه كما كان كالِب يزعقُ عليها طَوالَ عَصرِ النَّهار. ولكنَّها بالأحرى قامت عن الأرض وشالت كالِب بكُلِّ ما أُوتِيَت من رَزانة. "افعَلْ مهما سرَّك، سيِّدي، مع السَّيِّدة بيرينا أو أيَّة واحدةٍ سواها قد ترغَبُ في تقبيلِ قدَمَيك". ثُمَّ حملَت الطِّفل إلى مبيت الخادمة الصغير.

شرَعَ كالِب يبكي من جديد. فحاولَت أن تضمَّه وتُهدِّئَه، ولكنَّه صرَّخَ بصوتٍ أعلى، دافعًا إيَّاها عنه. فهمَسَت بانكِسار: "آهِ كالب!" مُدافِعةً الدُّموع.

وقف أتريتِس في مدخل الباب، وقال بابتسامةٍ واهية: "لماذا لا تُرضِعينَه؟"

"وأنتَ تقِفُ مُراقِبًا؟ ما أظنُّ!"

فتصلَّبَ حَنَكُه. "في الطابق التَّحتانيِّ فُرجةٌ أكثر".

"إذًا، اذهب إلى الطابق التَّحتانيِّ!"

"أرضِعيه، يا امرأة، وإلَّا صرَّخَ حتَّى تنهارَ الحيطانُ حولَ رؤوسنا".

فوخَزَتها عيناها من دموع الغضب. "لن يُجديَ ذلك أيَّ نفع. ليس جائعًا".

وعبَّسَ مُعتدِلًا. ثُمَّ خطا إلى داخِل الحُجرة الصغيرة وجثا أمامها. "لماذا لم تُخبِريني أنَّ به خطبًا ما؟"

"ليس مِن خَطب. أسنانُه تنبت. هو موجوع، ولا أقدِرُ أن أفعلَ أيَّ شيء لتخفيفِ..."

"أعطيني إيَّاه!"

"ظَننتُ أنَّكَ كنتَ ذاهبًا إلى مأدُبة هذا المساء".

فنظَرَ إليها، رافعًا حاجِبَيه قليلًا.

غمَرَت الحرارة خدَّيها، وخجِلَت في الحال. لقد بدَت مِثلَ زوجةٍ نقَّاقة، وهي لم تكُن شيئًا عنده. فأخذَ كالِب منها، وخفضَت عينَيها مُخزاةً. وإذِ استقام أتريتِس، استطاعت أن تُحِسَّه مُحدِّقًا إليها، مُريدًا منها أن ترفعَ نظرَها إليه. فأغمضَت عينَيها وكافحَت مشاعِرها الجائشة. إن لم يُغادِر عاجلًا، فستُذِلُّ نفسَها كلِّيًّا بالاستسلام للدُّموع.

غادر مَبيتَها الصَّغير المُخصَّص للخُدَّام، فسحبَت نفَسًا خَشِنًا، وقد أفرَجَها أنَّه لم يقُل أيَّ شيءٍ ليَهزأ بها.

لقد علِمَت أين كمنَت المُشكِلة. يا ربُّ، علِمَت، ولكنَّها صلَّت إلَّا يكونَ أتريتِس قد عَلِم. كانت مُغرَمةً بالرَّجُل البَئِس وغيرَى من النِّساء الجميلات الثريَّات اللواتي حُمنَ حولَه ودلَّلنَه. كانت قد أحبَّت شمعي، ولكنَّ ذاك كان حُبًّا حُلوًا، مُفعَمًا بالرِّقَّة، إذِ اقتادها أقرَبَ إلى الرَّبِّ. وما أحسَّت قطُّ الأهواءَ الجامحة، المُروِّعة، الساحقة للقلب، تلك التي أثارها أتريتِس فيها. يقينًا أنَّ مشاعِرَ كهذه لم تكُن من الله. فقد جعلَتها تشعر بأنَّها ضعيفةٌ وسريعةُ العطَب. لقد لمَسَها الرجُل، فارتعشَت. ونظر إلَيها، فذابت أحشاؤها. ووضعَت قبضتَيها المُطبقتَين على عينَيها المُحترِقَتين.

تمدَّد أتريتِس خارجًا على السَّرير، مُنتظِرًا أن ترجِعَ رِصفة إلى الغُرفة، مُريدًا منها أن تفعل ذلك. ووضَعَ ابنَه المُضطرِبَ على صدره، جاعلًا إيَّاه يعضُّ على رُقاقةِ العاج. ولمَّا بدأ كالِب يهدأ أبعَدَ الرُّقاقة، عالمًا أنَّ بُكاءَه سيُحضِرُ رِصفة أسرعَ من أيِّ أمرٍ قد يُصدِرُه إلَيها. فلم تكُن للمرأةِ عَظْمَةٌ مُذعِنةٌ في جسمها. وتمامًا كما افتكر، ظهرَت بعدَ لحظة حولَ الزاوية. وإذ حضَرَت، أعطى كالِب الرُّقاقة مُجدَّدًا كي يُهدِّئَه. فهمَّت بالانصراف.

قال لها مُنزعِجًا: "عُدِّي النُّقودَ وقولي لي كم هي". وراقبها تمشي إلى أسفل السَّرير، وتلتقط الصُّرَّة، وتكبُّ النُّقودَ الذهبيَّة في يدها. ثُمَّ قالت له كم بلَغَت.

"هذا أكثرُ ممَّا كان لدَيك لمَّا غادرْنا أفسُس".

"لا يكفي لإيصالنا إلى جِرمانيا".

ثمَّ ردَّت النقود إلى داخل الصُّرَّة.

ونمَّت سيماؤها عن أمرٍ ما. فسألَها بصوتٍ مُتحَدٍّ: "أعِندَكِ شيءٌ تقولينه؟"

رفعَت رأسَها، فالتقَت عيناها الدَّاكِنتان الجميلتان عينَيه. وقالت بهدوء: "هَل تُصغي؟"

"إذا كان لكلامك أيُّ فضل".

فلم تَرْقَ إلى استِفزازه، بل قالت: "لديكَ الآن ما يكفي، أتريتِس. لقد دبَّرَ لك الرَّبُّ الوسيلةَ للعودة إلى الدِّيَار".

فقال ببرودة: "هنالك أشياءُ أُخرى ينبغي وضعها في الحسبان".

"أيُّ أشياءَ؟"

انقبضَت عضَلةٌ في حنَكِه، ولكنَّه لم يُجاوِب. فتقدَّمت إلى الطاولة بقُرب أعلى السَّرير ووضعَت الصُّرَّة عليها. "أحيانًا، أجدُ نفسي مُتسائلةً عن كونك مُكيَّفًا للقتال من أجل حياتك بحيثُ لا تشعرُ بالرَّاحة إلَّا حين تكون حياتُك مُعرَّضة للخطَر".

"لا تتكلَّمي كغبيَّة".

"أهذه غباوة؟ كلَّما طال بقاؤنا هُنا، تعاظمَت المُخاطرة. وأنت تعرِفُ ذلك". ثُمَّ انحنَت لتأخُذَ كالِب، وفيما هي تعتدِلُ قالت: "أعتقدُ أنَّ المال هو أقلُّ الأسباب لوجودنا هنا".

فومضَت عيناه. "إذًا، لماذا نحنُ هُنا برأيكِ؟"

وتردَّدت، ثُمَّ قالت له الحقيقة. "هُنالِكَ جُزءٌ منك يُريد أن يُقاتِلَ من جديد".

١٩

جاء باطُو الليلةَ التالية. وبسَطَ خريطةً على الطَّاوِلة. وقد حمَلَ أتريتِس سِراجَ الفخَّار فوقه. وقال له باطُو، ناقِرًا الخريطة بإصبعه. ''رُوما هُنا''. ثمَّ حرَّكها صعودًا وعلى طول جزءٍ عريض من الخريطة، قائلًا: ''هذه كلُّها جِرمانيا. أرجو أن تعرِفَ تمامًا أينَ أنتَ ذاهب''.

حطَّ أتريتِس السِّراجَ، وحمَلَ الخريطة مفتوحةً، مُحدِّقًا إليها باكتئاب.

لقد عذَّبَهُ ما قالته رِصفة طوال اليومَين الماضيَين. كانت على حقٍّ، وقد أزعجَهُ ذلك إزعاجًا غيرَ قليل. فالمعركة على متن الإسكندرانيَّة ردَّت إليه الحماسة الحامية التي طالما شعَرَ بها كلَّ حين في ساحة المُحارِبين. وما كان قد أدرك كم تاقَ إليها أو كم بدَت مآثِرُها طيِّبةً بعضَ الأحيان. فأحسَّ ذلك هُنا، في هذا الفُندق، مُواجِهًا الحُشودَ ومُنتظِرًا.

ولكنْ مُنتظِرًا ماذا؟ أن يُحبَسَ في زَنزانةٍ من جديد ولا يُخرَجَ إلَّا للتَّدرُّب والتَّفرُّج والقِتال في ساحة المُحارِبين؟

نفَّضَ رأسَه من تلك الأفكار. وواجهَته أسئلةٌ أسوأُ بَعدُ في اللحظة الرَّاهِنة. فنظرَ إلى الخريطة على الطاولة وغمَرَه إدراكٌ رهيب: لقد مرَّت عَشرُ سنين مُنذُ جيءَ به مُقيَّدًا بسلاسل في عرَبة عبْرَ الجبال، نزولًا على حِذاء إيطاليا، وصولًا إلى كابُوَا مع تخَطِّي روما. وقد استغرقت الرِّحلة شُهورًا، شهورًا طويلة شاقَّة من السَّفَر، ومحاولات الفِرار، والضَّربِ الوحشيِّ مِرارًا. ولم يُفكِّرْ قطُّ في حِفظِ مَعالِمِ الطُّرق أو المَناطِق غيبًا، بل بالأحرى نهشَه الحقد ووفَّرَ له سببًا ليعيش، مُعمِيًا إيَّاه كُلَّ حين عمَّا وجَبَ أن يتذكَّره لكي يرجع إلى موطِنه.

وإذ تفحَّصَ الخريطةَ، أدرك الأراضيَ الشاسعة التي يُمثِّلُها. كم من الأنهار والجبال تقومُ بينَه وبينَ دِياره؟

وقفَت رِصفة ناظِرةً إليه، وكالِب على ذِراعَيها. وقد سطَعَ في عينَيها السؤالُ الذي كان يطرحُه على نفسِه: هل يستطيع أن يهتديَ إلى طريقِ رُجوعِهِ إلى قَومه؟

قال باطُو: ''أما زِلتَ ناويًا أن تذهب؟'' وقد وعى تمامًا المَهمَّةَ الهائلة المُرتقَبة إذا اختار أتريتِس الذَّهاب.

''نعم''.

فقال: "في وسعك أن تُحدِدَّ سِعرَكَ في ساحة المُحاربين". واستدَرَّ نظرةً قاسيةً من أتريتِس. "كما تشاء، يا صديقي، ولكنّي أقترِح عليك أن تُغادِرَ عاجلًا. دوميتيان يعلَم أنَّك هُنا. لقدِ استدعاني أمسِ، وقالَ لي أن أُقدِّمَ عرضًا".

"احتفِظْ به".

فتمنَّى له باطُو الخَير وانصرَف.

قال أتريتِس: "سنُغادِرُ عندَ طُلوعِ الفجر". ورأى الاطمئنانَ يغمُرُ وجهَ رِصفة.

فتمتمَت: "شكرًا لله!"

"يَغناكْس مَدينٌ لي بأُجرَةِ آخِر يومَين. سيكونُ المبلَغُ كافيًا لمقاصِدنا". ثُمَّ غادَرَ الغُرفة لتحصيلِ ماله.

غمَرَت هَمهمَةٌ غُرفةَ الولائم لمَّا دخل. وحيَّاه الناس، مُحدِّقًا بعضُهم إليه برَهبة فيما تكلَّم إليه آخرون بمودَّةٍ في أثناء مُروره. ولمَحَ أتريتِس يَغناكْس في الطَّرَف المُقابِل من القاعة المُزخرَفة بإتقان. وقد كان يتكلَّم إلى رجُلٍ يرتدي توجة بيضاءَ فاخِرةً مُزدانة الحواشي بالأحمَرِ والذَّهبيِّ السَّخِيَّين.

قال أتريتِس، ناخِعًا رأسَه: "لي كلِمةٌ معك، يَغناكْس".

التفتَ ضيفُ يَغناكْس لِيُواجِهَ أتريتِس، فعرَفه الأخيرُ حالًا. كان قد تغيَّرَ قليلًا في السِّنين الأربَعِ منذُ رآهُ آخِرَ مرَّة، ولم يُخامِرْهُ أيُّ شكٍّ بشأنِ سبَبِ مجيئه.

"إفوربُس تيمالتشيو كاليستُس!" قالَها يَغناكْس بالاحترام الواجِب لرجُلٍ ذي سُلطة ومَنصِب. وتجاهَلَ أتريتِس نظرةَ يَغناكْس التَّحذيريَّةَ وكأسَ النبيذِ المُقدَّمة.

قال كاليستُس بابتسامةٍ خبيثة: "أتريتِس!" ورفَعَ كأسًا في تحيَّةٍ تهكُّميَّة. "التقَينا مرَّةً من قبل، وإن كنتُ أشكُّ في أنَّك تتذكَّر وجهي".

وبالحقيقة أنَّه تذكَّر. فمرَّةً جاء ابنُ شَيخ رومانيٍّ إلى اللُّودُس لأجل التَّمرين الدَّارِج بالمُناوَشة مع أحد المُقاتِلين. وقد حاولَ باطُو أن يُحذِّر كاليستُس مُبعِدًا إيَّاه عن أتريتِس، ولكنَّ الأرِستوقراطيَّ المُتشامِخَ الصَّغير أصرَّ. فلمَّا لم يبقَ لِباطُو خِيارٌ، أوضحَ القوانينَ لأتريتِس بِجَلاء. وعَمِلَ أتريتِس بها إلى حدٍّ، ثُمَّ ألقاها في مهبِّ الرِّيح. كان قد عبِثَ مع الشابِّ المُتغطرِس، ناويًا أن يقتُلَه في الأخير. فلا بُدَّ أن يؤتى رِضًى عظيمًا إذا صرَعَ الأرِستوقراطيَّ الرُّومانيَّ الذي اعتقد أنَّه أفضَلُ من عِبدٍ جِرمانيٍّ. ولو لم يمسك باطُو يدَه، لَمَا كان كاليستُس

واقفًا هنا وليس له سِوى نَدبةٍ على خدِّه وأُخرى مَخبوءةٍ تحت تُوجَتِهِ المُطرَّزة الغالية. ولكانَ مدفونًا بمُحاذاةِ الطريق الأبِّيانيِّ.

ابتسمَ أتريتِس بفُتور. "أما زِلتَ تذهبُ إلى اللُّودُس لِتُناوِشَ المُصارِعين؟"

ضاقت عينا كاليستُس حِيالَ التَّحدِّي. "صحيح. في حسابي ثلاثةَ عشرَ قتيلًا منذُ مُباراتي معك؟"

فدوَّت في رأسِ أتريتِس أصداءُ صَيحةِ حرب. وقالَ بازدِراء: "مُباراة؟ أهكذا تدعوها؟" ونَخَرَ. "يُخيَّلُ إليَّ أنَّ خُصومَك تلقَّوا الأمرَ الذي تلقَّيتُه أنا بعينه: لا تَسفِكْ دمَ الصَّبيِّ!"

تغيَّرَت سيماء كاليستُس. وخفَقَت عيناه إلى الذين حَوالَيه، شاعِرًا بالسُّكوت ثُمَّ بالهمسات لدى انتشارِ كلمات أتريتِس في أنحاء الغُرفة.

وابتسمَ أتريتِس إذ شاهَدَ النَّدبةَ التي خلَّفها على وجه كاليستُس تُشحَب.

فقال كاليستُس بهدوء: "لعلَّكَ نسِيتَ نتائجَ إهانتِك الأخيرة".

وقال أتريتِس مُتهكِّمًا: "نتائج؟ أنا أعلم ما رَجَوتَ أن تراه: إيَّايَ مصلوبًا. قِيلَ لي إنَّ فَسبازيان أحسَّ أنَّ مقدارًا مهدورًا من المال يؤسَفُ له أُنفِقَ أصلًا على تكييفي وتدريبي. ومن ثَمَّ أرسلَني إلى ساحة المُحارِبين قبلَ بضعةِ أشهُرٍ من المُقرَّر. وكما يمكنك أن ترى، ما زلتُ حيًّا. وقد كَسَبتُ حرِّيَّتي".

"الغبيُّ وحدَه يتكلَّم إليَّ بطريقةٍ كهذه".

فأضاف أتريتِس بازدِراء: "أوِ الرَّجلُ الذي يعرِفُ مَن وما أنت!"

وأمسك يَغناكْس ذِراعه تحذيرًا، قائلًا همسًا: "كفى!"

فقال كاليستُس، وهو يرتجِفُ غيظًا: "أنتَ تطلبُ أن تموت".

فنظَرَ أتريتِس إلى داخل عينَيه مُباشرةً وضحِكَ باحتِقار. "أتظُنُّ حقًّا أنَّك تستطيعُ أنت أن تقتُلَني؟" وخَطا مُتقدِّمًا فرأى الخوفَ يتدفَّق إلى عينَي كاليستُس: "أتظنُّ أنَّك قد تخرُجُ حيًّا من مُباراةٍ ضِدِّي؟ هل تدري ما أعتقِده؟ أعتقِدُ أنَّك ما زلتَ ذلك الصَّبيَّ الذي مضى ذليلًا وهُرِعَ إلى دوميتيان".

سحَبَ بِضعةُ مُتفرِّجين أنفاسَهم حِيالَ كلِمات أتريتِس، وانكفأوا ليتهامَسوا في ما بينَهم.

ودارَ كاليستُس ليمضيَ، مُحمَرَّ الوجه. ثُمَّ التفتَ بعدما قطَعَ نِصفَ الغُرفة، ووَجهُه مُبقَّعٌ غضبًا: "تمتَّعْ بحرِّيَّتك ما دُمتَ تستطيع، يا بَربريُّ! إنَّها على وشْكِ أن تنتهي!"

تقدَّمَ أتريتِس خُطوةً إلى الأمام، إلَّا أنَّ يَغناكْس سدَّ طريقه. فحاول أتريتِس أن يندفعَ مُتخطِّيًا إيَّاه، ولكنَّ المُقاتِلَ السابق حَظِيَ بمُعاوَنةِ حارِسَين. وصاح أتريتِس: "راكِضٌ إلى دوميتيان ثانيةً، يا جَبان؟"

فقال يَغناكْس، مُتشبِّثًا به: "هل جُننتَ؟"

"أتُريدُ قِتالًا، كاليستُس؟ سأُعطيكَ واحدًا. في أيِّ وقت. في أيِّ مكان!"

"أطبِق فمَك!"

أفلتَ أتريتِس من قبضة يَغناكْس وأزاحَ أحَدَ الحارِسَين من طريقه، ولكنَّ كاليستُس كان قد مضى فعلًا. وتراجَعَ الناس عن أتريتِس كما لو كان قد جُنَّ. فأيُّ رجُلٍ في عقله السليم يُهينُ ويتحدَّى رجُلًا يُصغي إليه دوميتيان، أخو الإمبراطورِ تيطُسَ؟

وقفَ أتريتِس في وسط الغُرفة وأحسَّ قوَّةَ حَملقاتِهم. وأجالَ بصرَه حوالَيه، ناقِلًا تحديقتَهُ من وجهٍ إلى وجه، فرأى أنَّ ما أرادُوه وما رَجَوه قد أُنجِزَ. وعلِمَ أنَّه إذا بقيَ، فلا بدَّ أن يحدُثَ ذلك فعلًا.

وثَبَت رِصفة لمَّا انفتحَ البابُ فجأةً بقُوَّة، خابِطًا خَبطةً عالية على الجِدار إذِ اندفَعَ أتريتِس داخِلًا. وزعَقَ كالِب ذُعرًا وشرَعَ يبكي. فشالته عن الأرض، حيثُ كانت تُلاعِبُه، وقامت.

قالَت برِقَّة: "ماذا جرى؟" فلم تَلقَ جوابًا.

ذرَعَ أتريتِس الغُرفة ذهابًا وإيابًا كحَيَوان في قفَص، غيرَ مُتوقِّفٍ طويلًا إلَّا ما يكفي لالتقاطِ كأسِ خمرٍ ورَميها على جِدارٍ لتتحطَّم وهو يتمتِمُ بألفاظٍ جِرمانيَّة قبيحة..

دخَلَ يَغناكْس وطرَحَ صُرَّةَ نقود ذهبيَّة على الطاولة. "خُذها واخرُجْ من هنا ما دُمتَ تستطيع!"

قذَفَ أتريتِس الصُّرَّة على الأرض. "لن أمضيَ ذليلًا وهارِبًا من ذلك...الصغير..."

"إذًا ستكونُ في اللُّودُس قبلَ مساءِ الغد! في الوقتِ المُناسبِ تمامًا لِتَحظى بنَومٍ ليلةٍ وافٍ قبل بَدءِ الألعاب!"

فلم يتردَّد أتريتِس في التَّلفُّظ بكلمة بذيئة، ورفَسَ الطاولة فقلبَها. وتراجعَت رِصفة بسُرعة.

قال يَغناكْس مُتَّهِمًا: "لقد عَلِمتَ ما كُنتَ فاعلًا! هل سكَّنَ ذلك كبرياءَكَ الجَموح؟

وهل يُسكِّنُه متى قيَّدوك بالسَّلاسل؟ قسَمًا بالآلهة، إنَّك قد تُسبِّبُ لي أيضًا التَّقييدَ بالسَّلاسل!"

"ذكِّر كاليستُس بأنَّكَ منعتَني أن أكسِرَ عُنقَه!"

فقال يَغناكْس، مومئًا برأسه إلى رِصفة: "وماذا عنها؟" وقد وقفَت في طرَفِ الغُرفة الأقصى مُحاوِلةً أن تُهدِّئَ كالِب الزَّاعِق.

توقَّفَ أتريتِس والتفت، وسيماؤه تُنذِرُ بالخطَر. "ماذا عنها؟"

"هل نسِيتَ كيف تجري الأُمور؟ سيجعَلُها دوميتيان وكاليستُس جُزءًا من أيِّ شيءٍ خطَّطاه لك. ولن يكون ذلك حسَنًا".

نظَرَ أتريتِس إلى وجهه المشحوب، وتذكَّر جانبًا من الأمور التي سبَقَ أن رآها تُفعَلُ بالنِّساء في ساحة المُحاربين- الأُمورِ القذِرَة والفاسِدة جدًّا بحيثُ يصعُبُ تصوُّرُها حادِثةً لغريبة، فكيف إذا برِصفة؟ من شأنه أن يُفضِّلَ دفْعَ حياته غرامةً على أن يرى رِصفة تؤذى بأيَّة طريقة، وقد صعَقَهُ إدراكُه لذلك.

قال يَغناكْس: "فلآخُذها".

فالتفتَ أتريتِس إليه. "اخرُجْ من هُنا!"

"سيكونُ مصيرُها على رأسك".

لمَّا انصرفَ يَغناكْس، دَنَت رِصفة من أتريتِس ووضعَت يدَها على ذِراعه. "مصيري في يدَي الرَّبِّ، أتريتِس. لا في يدَيك، ولا في يَديَّ أيضًا".

نظَرَ أتريتِس إلَيها من عَلُ. ليتَه يستطيع أن يؤمن بأمرٍ ما بقوَّةٍ كما آمَنَت هيَ بمسيحها! ماذا كان في هذا المسيح ممَّا جعَلَ أتْباعَه مُتيقِّنين به على هذا النحو؟ وهزَّ رأسَه. لقد سُلِبَ الإيمانَ بأيِّ شيءٍ في هذا العالَم منذ زمَنٍ بعيد. "خُذي الذَّهَب واذهبي إلى أصدقائك. إنَّهم سيُحافِظون على سلامتكِ".

"مكاني هو معك. لقد وضعَني الله بجانبك".

أمسكَ أتريتِس بذراعها، وأصابِعُه مُنغرِزةٌ في لحمها على نحوٍ مؤلِم. "لا تُجادِلي، يا امرأة! افعلي ما أقولُه لكِ!" ثمَّ دفعَها دفعةً نحو حُجرتها الصَّغيرة، تمامًا حالَما طرَقَ أحَدُهم البابَ بشِدَّة. وقال أحَدُ الحُرَّاس من خِلال الباب المُغلَق: "حضَرَ توًّا قائدُ مئةٍ وأربعةُ جنود".

جأرَ أتريتِس عليها: "تحرَّكي!" ولكنَّها لبِثَت في مكانها، ولا خوفَ في عينَيها.

"إذا كانت مشيئةُ الله أن نذهبَ إلى جِرمانيا، فهو سيُنقِذُنا".

والتفتَ لدى سَماع الصَّوتِ المألوف الصَّادِر من صنادِلَ ذاتِ مَساميرَ غِلاظٍ وخشخشة أحزِمة جلديَّة مُرصَّعة بالنُّحاس. لقد كان جنودٌ في الرِّواق خارجًا.

فدفعَها نحو الباب المؤدِّي إلى حُجرتها الصغيرة، قائلًا: "ادخُلي إلى هُناك من جديد. وأبقي الطِّفل ساكتًا".

"لن أتركك".

"افعلي كما أقول!"

فبقيت واقفةً بثبات.

كان فيها عِنادٌ علِمَ أتريتِس أنَّه لا يُمكِن أن يُذلَّلَ أبدًا. "ستكونين في طريقي". وقبلَما تمكَّنَ من جَعلِها تفعل ما يُريده، انفتحَ البابُ بقوَّةٍ فجأةً، واتَّخذَ فَيلقيَّان مركزَيهما داخِلَ الباب تمامًا إلى كِلا الجانبَين، فيما ظهرَ ثالِثٌ يرتدي زِيَّ قائدِ مئةٍ رومانيٍّ كامِلًا، مع الرِّداء القِرمزيِّ والشَّارات النُّحاسيَّة البرَّاقة.

فقال أتريتِس بغَيظٍ مُحتَدِم: "أنت!"

وقال ثيوفيلُس بلهجةٍ لا مُهاوَدةَ فيها: "سآخُذُك تحتَ الحِراسة، أتريتِس. أعطِني سيفَك".

فاستلَّه أتريتِس. "أينَ تُريدُه؟"

ففرقعَ ثيوفيلُس بأصابعه، وتحرَّكَ جُنديَّان بحيثُ اضطُرَّ أتريتِس لأنْ يُدير رأسه إلى الوراء وإلى الأمام ليُشاهِدَهما. ودخَلَ آخران الغُرفة وراءَ ثيوفيلُس تمامًا. "سأُوضِحُ مُرادي. سنأخذك تحتَ الحِراسة، شئتَ أم أبيت".

قالت رِصفة: "لا تفعل هذا، ثيوفيلُس". وقد غاصَ قلبُها إذ رأت كِرباجًا مُرخًى في يد أحَدِ الجُنديَّين وقُيودًا وسلاسِلَ في يد الآخر.

فقال ثيوفيلُس عابسًا: "عليَّ أن أفعلَ ذلك. لم يترُكْ لي أيَّ خِيار".

قال أتريتِس: "ماذا أقولُ لكِ عن الوثوقِ بروماني؟" وبصَقَ على الأرض عند قدَمَي ثيوفيلُس، واتَّخذَ وضعيَّةَ قِتال.

وقال ثيوفيلُس: "تحرَّكي إلى الوراء، رِصفة".

فقالت بِوَنَى: "هذا ليس صائبًا". وتقدَّمَت إلى الأمام بحيثُ كادت تقِفُ بينهما.

"هوّنِ الأمرَ، أتريتِس، وإلّا فقد تتأذّى رِصفة".

قالت: "لا تفعل هذا، رجاءً!"

وقالَ أتريتِس: "لا تتوسَّلي!" وقد استشاطَ غضبًا إذ سَمِعها تتضرَّعُ من أجله. وإذ أمسكَ ذراعَها، دفعَها جانبًا. ولدى قيامه بذلك، تحوَّلَ انتباهُه قليلًا بما يكفي لإحداثِ الثُّغرةِ التي احتاجَ ثيوفيلُس إليها.

"الآن!" فتحرَّكَ الجُنديّان اللذان في الغُرفة بسُرعة في حينَ دخَلَ آخران.

وصاحت رِصفة: "لا!"

أحسَّ أتريتِس لسعةَ الكِرباج إذِ التفَّ حول ذِراعِه الحاملة للسَّيف. وتغلَّبَ التَّكيُّفُ على الغريزة، فظلَّ مُمسِكًا بسِلاحه. ثُمَّ قلَبَ الشَّفرةَ وقطَعَ الوِثاق، إنَّما ليس في الوقت المُناسِب لتجنُّبِ قبضةِ ثيوفيلُس.

انطرَحَ أتريتِس أرضًا من الضَّربة الصاعقة، وأحسَّ لسعةَ كِرباجٍ آخَرَ حولَ كاحلَيه. وطوَّقَتِ السَّلاسلُ مِعصمَه، مانِعةً ذِراعَ سيفِه من تسديد ضربةٍ صائبة إلى رأسِ ثيوفيلُس. ثُمَّ ضرَبَهُ ثيوفيلُس ثانيةً، ضربةً أقسى هذه المرَّة. وإذِ ارتجَّ أتريتِس إلى الوراء، أحسَّ قدَمَيه تُخلَعانِ من تحتِه. فضربَ الأرضَ بقوَّة. ولمَّا حاولَ أن ينهض، ركَلَهُ أحدُهم فأبقاه مُنطرِحًا، وهَوَت قدَمٌ ثقيلةٌ على يَدِ سيفِه، إلّا أنَّه بقيَ مُمسِكًا به.

صاحَ أتريتِس صيحةَ غضَب، وقاوَمَ الجنودَ الأربعةَ الذين ثبَّتوه أرضًا حتَّى دوَّى مِقبَضُ غلاديوسِ ثيوفيلُسَ على جانبِ رأسِه. فأحسَّ انفجارَ ألَمٍ حادًّا ثُمَّ ظلامًا يكتنِفُه إذ صرَّخَت رِصفة.

أغمَدَ ثيوفيلُس سيفَه، ونظَرَ عبْرَ الغُرفة إلى حيثُ وقفَت رِصفة، والطِّفل الزاعِقُ محمولٌ بإحكامٍ على ذِراعَيها، والدُّموعُ تنحدِرُ على خدَّيها الشاحِبَين. وحاولت أن تتقدَّم إلى أتريتِس، غير أنَّ واحدًا من رِجالِ قائد المئة سدَّ طريقها. عندئذٍ نظرَت إلى ثيوفيلُس باتِّهامٍ وإنكارٍ مُوجَعين.

فابتسمَ عابسًا: "لهُ رأسٌ يابس، رِصفة". ووضَعَ رجالُه قيودًا على أتريتِس. "سيعيش!"

٢٠

استيقظَ أتريتِس على الألواحِ الخشبيَّة في عرَبَةٍ وثَّابة، وضوءُ الشَّمس على وجهه. وسمعَ رِصفة تُتَمتِم: "شُكرًا لله!" كما أحسَّ يدَها على جبينه باردةً وناعمة. وفيما هو فاقِدٌ حِسَّ الزَّمان والمكان، أدركَ أنَّ رأسه كان في حضنها. ولمَّا حاولَ أن يجلس، حالَت دونَ قيامهِ بذلك سلاسِلُ تقييدٍ ثقيلةٌ حول مِعصمَيه.

"لا تُحاوِلْ أن تتحرَّك. فإنَّما ستؤذي نفسك أكثر".

فتفوَّه بشتيمةٍ بذيئة في الجِرمانيَّة، وحاولَ أن ينهضَ من جديد، ناتِرًا وُثُقَه بقُوَّة. وانفجَرَ الألمُ في رأسه، فصارَ وجهُها فوقَه مُضاعفًا. وبدَّدَت قوَّتَه موجةٌ من الغثيان، فاستلقى آنًا.

قالَت له: "استَرِح. حاوِل أن تسترخي!" مُخفِّفةً برِفقٍ العرَقَ البارد عن جبينه.

استرِح؟ أطبَقَ أسنانَه بإحكام، مُكافِحًا الغَثَيان. تسترخي؟ تذكَّر ثيوفيلُس وجنوده إذِ اعتقلوه، وعلِمَ أنَّ كلَّ قدَمٍ تقطعُها هذه العرَبةُ قرَّبَته أكثر إلى الموت وإيَّاها معه. لم تفهم ما كان بانتظاره، وإلَّا ما جلسَت غاية في الهدوء تُرَبِّتُ جبينه.

كان ينبغي له أن يُغادِرَ قاعة الولائم لحظةَ عرَفَ كاليستُس، بدَلَ الاستسلام لكبريائه وغضبه اللَّعينَين. أمَا قال له اللانيستا في كاپُوَا إنَّ طبعَه سيكونُ مقتلَه؟ أوَما كرَّر باطُو التحذيرَ نفسه في المدرسة العظيمة؟ لقد أعطاه الغضَبُ حِدَّةً في ساحة المُحاربين- أعطاه قوَّةً وأبقاه حيًّا. ولم يُفكِّر مرَّةً واحدة في ما قد يُحدِّثُه غضبُه للأبرياء.

بثَّت كلُّ وثبةٍ من العرَبة الثقيلة طَعَناتِ ألَمٍ في أنحاء جُمجُمَتِه. لقد وجَبَ عليه أن يجد لهُما سبيلًا للنَّجاة. ولكنَّ صُوَرًا كئيبةً ملأتْ ذِهنه بالأحرى. وأحسَّ الخوفَ أوَّلَ مرَّةٍ منذُ سنين، خوفًا نهَشَ أحشاءه. لم يُرِد أن يتفكَّر في ما قد يفعلُه دوميتيان وكاليستُس برِصفة وابنه، إلَّا أنَّ ذِكرَياتٍ بَشِعةً غمرَت ذِهنَه. أفضَلُ لو يُزهِقُ روحَها الآن ولا يدَعُها تُقاسي عذابَ ساحة المُحاربين وخِزيَها.

وماذا عنِ ابنه؟ إذا لم يُقتَل، فسَيُجعَلُ عبدًا.

أفضَلُ لو يموت الآن هو أيضًا.

أغمَضَ عينَيه بشِدَّة. "أين الطِّفل؟"

"كالِب معنا. هو نائمٌ في سَلٍّ".

فامتحَنَ قُيودَهُ ثانيةً، صارًّا بأسنانه على الألَم.

"لا تتحرَّكْ، أتريتِس".

"عليَّ أن أتحرَّر!" ونخَعَ بشِدَّة، محاوِلًا أن يجلسَ مرَّةً أُخرى. فأطبقَت عليه الظُّلمة كنَفَقٍ ضائق، جالبةً معها الغَثَيان. وكافَحَ كِلَيهما.

"لا تستطيع". ووضعَت ذراعَها على صَدرِه بالعَرض. "استَلقِ إلى الوراء. رجاءً!"

انحسَرَ السَّوادُ ببُطء. فعلِمَ أنَّه لا يستطيعُ أن يهرب ولا يستطيعُ أن يُقاتِل. ولكنَّه ما زال قادرًا أن يتولَّى القِيامَ بما وجَبَ القِيامُ به. ثُمَّ كان عليه أن يقومَ بذلك الآن، قبلَ وصولهم إلى مقصدهم وانتِزاعِ رِصفة منه.

"هُنالِكَ جُزءٌ منك يُريدُ أن يُقاتِل". أحرقَت دُموعٌ ساخِنةٌ عينَيه وانغلقَت حَنجرَتُه. ذلك الجُزءُ منه جعلَه ينتظر طويلًا كفايةً قتْلَها وقتلَ كالِب. فبلعَ ريقَه بصُعوبة وشهَقَ نفَسَه. مُكافِحًا موجةَ الغَثَيان إذ رفَعَ رأسَه. "هل تستطيعين أن تفُكّي وُثُقي؟"

"لا. لقد حاولتُ بِضعَ مرَّات، ولكنَّ السَّلاسِلَ موصولةٌ بحَلَقات في جانب العرَبة. وقد أحكَمَ ثيوفيلُس تثبيتها قبلَما غادرْنا الفُندُق".

"هل حاولَ أحَدٌ منْعَه من أخذي؟"

عضَّت رِصفة شفَتَها، مُتذكِّرةً حَشْدَ الناس والصُّراخ. لقد خشِيَت حُدوثَ شَغَبٍ لمَّا حُمِلَ أتريتِس على الدَّرَج نُزولًا، ثُمَّ إلى العرَبة خارجًا، ولكنَّ ثيوفيلُس سبَقَ أن أعلن أن أتريتِس العظيم سيُحارِبُ من جديد. فلم يتدخَّلْ أحَدٌ بعدَ ذلك. وقالت: "لا".

لقد فهِمَ حقَّ الفَهمِ تمامًا. فالرَّعاع كان لهُم ما أرادوه. "ساعديني كي أجلِس".

"لماذا؟"

فقال من خلال أسنانٍ مُطبَقة: "لا تُسائليني. افعلي ذلك فحسْب".

وإذ وضعَت رِصفة ذِراعَيها حولَه وساعدَته على النُّهوض، قالت: "لماذا يجب أن تكونَ عنيدًا كلَّ هذا العناد؟" وإذا أصابِعُه القويَّة تنغَرِزُ في كتِفها، وثِقَلُ السَّلاسِلِ الرابطة بين مِعصَميه يخبِطُها خبطًا شديدًا. فأجفلَت. وفي أثناء جلوسه، تشبَّث بحافة العرَبة وضغطها إلى الوراء. ووثَبَ قلبُها إذ تحرَّكَت يدُه بتَثاقُلٍ صعودًا لتُطوِّقَ حَنجرتَها.

قال: "إنَّه يأخذُنا إلى اللُّودُس من جديد"، وصوتُه العميقُ مُثقَلٌ بالعاطفة. وغامَ بصَرُه،

فكافحَ الألم. كان عليه أن يبقى واعيًا. وقد توافَرَ وقتٌ قصير. "أنتِ لا تعرفين ما ينتظِرُكِ هُناك. لا يُمكِنُني أن أدعَهُم..." من شأن كَسرِ عُنقها أن يكون أسرعَ وأقلَّ إيلامًا من خنقِها. وحرَّك يده ببطء، مُتحسِّسًا نبْضَها. ثُمَّ قال بتَثاقُل: "رِصفة، أنا..."

وقال لنفسِه: قُمْ بالأمر! ما عليك إلَّا أن تقومَ به وتُنجِزَه!

وإذ نظرَت داخِلَ عينَيه الزَّرقاوين، رأت كَرْبَه وأدركَت ما نواه. وبدَلَ أن تخاف، غمرَها حَنانٌ عميق. فمسَّت وجهه برقَّة. وأغمض عينَيه كما لو كانت لمستُها قد آذته. "إنَّه لا يأخذُنا إلى اللُّودُس، أتريتِس. ظننتُ ذلك أنا أيضًا أوَّلَ الأمر، ولكنِّي أعلم أنَّه لا يمكن أن نكون ذاهبين إلى هُناك".

"إلى أيِّ مكانٍ آخر يمكن أن يأخُذَنا؟" ومسَّت أصابعه النَّبْضَ في حَنجرتها مسًّا رقيقًا. دفءٌ. حياةٌ. لماذا يجِبُ أن يكونَ هو مَن يأخذُهما؟

"اجتزنا عبْرَ أبواب المدينة".

"الأبواب؟"

"لم نعُد في روما. نحنُ خارِجَ أسوار المدينة".

فارتخَت يدُه. "لا يمكن أن يكون هذا. اللُّودُس..." ووثبَتِ العرَبة وثبةً قاسيةً فانفجرَ الألمُ في رأسه. فتشبَّثَ آنًا بحافة العرَبة، محاولًا أن يُبقيَ نفسَه جالسًا فيما أطبقَت الظُّلمة حوالَيه من جديد.

قدَّمَت له أيَّ دَعم في وسعها. ولم تكُن قطُّ قد رأت وجهه شاحِبًا هكذا، فخافت عليه. "ثيوفيلُس لا يُعيدُك إلى اللُّودُس، أتريتِس".

"إلى أيِّ مكانٍ آخر قد يأخذُني".

"لستُ أدري". ووضعَت يدَها على خدِّه. "يجب أن تستلقيَ".

باتت رؤيتُه نفقًا طويلًا مُظلِمًا. فقال: "كاپُوَا"، آنًا، مُتَّكئًا إلى الوراء. وكان ثقيلًا جدًّا عليها، فجَرَّها معَه، وخبَطَ رأسُه على أرضيَّة العرَبة، فأنَّ. "يُعيدُني إلى كاپُوَا". وتذكَّرَ الحُفرة، الزَّنزانة الضئيلة التي حبَسَه الحُرَّاسُ فيها. لم يكُن حتَّى مكانٌ ليجلس أو يمدَّ رِجلَيه. واحتُجِزَ في الظَّلام أيَّامًا حتَّى خُيِّلَ إليه أنَّه سيُجَنُّ. "خيرٌ لي أن أموت!"

رفعَته قليلًا وأسندَت رأسَه فوق حِضنها من جديد. "لسنا مُتَّجِهين جنوبًا. نحنُ مُتَّجِهونَ شرقًا".

شرقًا؟

إلى أينَ كان ثيوفيلُس يأخذُهما؟

مسَحت رِصفة تربيتًا قطَراتِ العرَق عن جبين أتريتِس، وتمنَّت لو كان في وسعها أن تُزيلَ الألم بسُهولة مُماثِلة. "كُن في سلام، أتريتِس. نحنُ في يدَي الله".

فأطلقَ ضِحكةً خشِنة وأجفل. "أتظُنِّين أنَّ إلهَكِ سيُخرِجُنا من هذه الورطة؟"

"لدى الله خُطَطٌ لأجلِ خيرِنا. سيُعطينا مُستقبلًا ورجاءً".

فقالَ بمرارة: "رجاء؟ أيُّ رجاءٍ في هذه العرَبة؟"

"جميعُ الأُمور تعمل معًا لأجل الخير للذين يؤمنون".

"لستُ أُومِنُ بأيِّ شيء".

"أنا أُومِن، ومهما فعلتَ أم لم تفعل، فكِلانا قد دُعينا إلى قصده".

لقد تحدَّى إيمانُ المرأةِ المُتماسِكُ كُلَّ مَنطِق. "أنا مُقيَّدٌ بالسَّلاسل من جديد، وأنتِ والطِّفل معي. إنَّ في ذلك قصدًا واحدًا فقط".

أجرَت أصابِعَها على جَبهتِه وابتسمَت له من عَلُ. "لقد أنقذَني الله من أوضاعٍ أسوأَ من هذا".

ففتَحَ عينَيه ورفَعَ نظرَه إليها. هل كانت تتكلَّم عن اللَّيلة التي فيها غادرَا الدَّارةَ في أفسُس؟ أم هل كانت تُلمِّحُ إلى المعركة على متن السَّفينة الإسكندرانيَّة؟ "ما أخرجَكِ الله من أيِّ شيءٍ. أنا أخرجتُكِ!" وأغمض عينَيه حِيالَ الحَملقة الثَّاقِبة، مُتسائلًا كيف أمكنها أن تكون في سلام في مثل هذه الأحوال. أيُّ شيءٍ أمكنَ أن يؤازِرَها هكذا؟ "وسأعمل على إخراجنا من هذا أيضًا، بطريقةٍ ما".

"لم تُخرِجْنا أنتَ من أيِّ شيء. إنَّك دائمًا تجري إلى البليَّة، لا بعيدًا عنها".

فرفَعَ نظرَه إليها مُحدِّقًا، مُهانًا. "أتعتقِدينَ أنَّ إلهَكِ هو مَن يحميك؟"

"أنا أعلَم أنَّه يحميني".

وأطلق ضِحكةً خشِنة. "مَن أنقذَكِ من سَرتِس؟ مَن أنقذَكِ من المقدونيِّ؟"

"مَن أنقذَكَ من الموت مرَّاتٍ لا تُحصَى؟ أبِالصَّدفةِ أم بالتَّصميمِ أنت حيٌّ الآن؟"

"أنا أنقذتُ نفسي". وقطَّبَت جبهتَهُ عَبسةٌ إذ تذكَّر ثيوفيلُس صادًّا ضربةَ سيف.

فمجهوداتُه آنذاك تُناقِضُها أفعالُه الآن.

"أمَا وقَفَ أيُّ شخصٍ يومًا بينك وبينَ الموت؟"

"متى خدَمَ ذلك مقاصِدَهُم". كم سيقبِضَ الرُّومانيُّ عندما يُسلِّمُ إلى دوميتيان؟

"سوفَ يُنقِذنا الله من جديد".

"لا تضَعي ثِقتَكِ في إلهٍ لا تستطيعين أن تَرَيه، وقد جعَلَ ابنَه يُصلَب. أيُّ نَفعٍ كان فيه لهَدَسَّة؟"

"إنَّما بفَضلِ ابن الله لي رجاءٌ حقًّا. كلُّ رجائي يستقرُّ فيه". ومشَّطَت أصابِعُها برِقَّةٍ الشَّعرَ رجوعًا عن جبينه وصُدغَيه. "حتَّى رجائي لأجلك".

وجِعَهُ رأسُه كثيرًا جدًّا حتَّى منَعَه أن يُجادِلَها أو يُفكِّرَ أدنى تفكيرٍ في ما قالته.

ثُمَّ سمعَ أتريتِس أحصِنةً تعدو نحوَهُم من وراءُ. وترجَّعَت أصداءُ وَقْعِ حوافِرِها على حجارة الطريق الرُّومانيِّ الثقيلة داخِلَ جُمجمَتِهِ المُوجَعة. وعلِمَ أنَّ على الخيول جنودًا رومانيِّين من خشخشة أحزمتهم المُرصَّعة بالنُّحاس.

قالَ رجُل: "لا أحَدَ يتبعُنا".

وسمعَ أتريتِس ثيوفيلُس آمرًا: "في ذاكَ الاتِّجاه!" ووثَبَت العربة وثبةً شديدة إذ غادرَت الطريق. فأطلقَ أتريتِس أنَّةً، وقد تفجَّرت بُقَعُ ألوانٍ وراء عينَيه المُغمضَتين. لقد أرادَ الظَّلام، النِّسيانَ الذي لم يكُن فيه ألَمٌ، ولا أفكارٌ مُعذِّبة بشأنِ ما هو مُرتقَب. ولكنَّ أيَّ شيءٍ من ذلك لم يُوافِه.

سارتِ العَرَبة وقتًا طويلًا على أرضٍ أطرى. فعلِمَ أنَّهم ابتعدوا كثيرًا عن الطريق الرئيسيِّ.

كان ثيوفيلُس يتكلَّم بين حينٍ وآخر، ولكنَّ الكلماتِ كانت غيرَ واضِحَة. ولمَّا توقَّفوا، اقتَرَبَ الرُّومانيُّ. "تولَّوا الحِراسة فيما أُخرِجُه من العرَبة".

سمعَ أتريتِس فكَّ السلاسل وأحسَّ سحْبَها عبْرَ الحلقتَين على كاحِلَيه.

وإذ طرح ثيوفيلُس السَّلاسِل ونزَعَ القُيود، قال: "نحنُ في هَيبوجيوم غَودينتيوس سِرڤيرا نوڤاتيان. ابنةُ حفيدِه، السَّيِّدة ألفينا، مسيحيَّة. أنا آسِفٌ على ضربِكَ بشدَّة، يا صديقي". ثمَّ أمسكَ بذراع أتريتِس وسحَبَه صعودًا برِفق. "لم يكُن لديَّ وقتٌ لأُفسِّر". ولفَّ حول كتِفه ذِراعَ أتريتِس. "ليسَ أنَّكَ كُنتَ ستُصغي".

تمتمَ أتريتِس بشيءٍ بينه وبين نفسِه، وكشَّرَ ثيوفيلُس إذ حمَلَ ثِقلَ وَزنِ الجِرمانيِّ إلى

جَنبه. "بدَلَ أن تلعنَني بالجِرمانيَّة، في وسعك أن تشكُرَني باليونانيَّة".

فقالت رِصفة: "ظَنَنَّا أنَّكَ كُنتَ ستأخذه إلى اللُّودُس من جديد". وقدِ استحَت بكونِها شكَّت فيه.

قال ثيوفيلُس: "هكذا ظنَّ كلُّ شخصٍ آخر في الفُندق"، مُساعِدًا أتريتِس في النُّزول على السُّلَّم الذي دُلِّيَ من مؤخَّر العَرَبة. وأضاف: "لذلك السبب لم يحدث شغب. فمن شأن روما كلِّها أن ترى هذا الغبيَّ العنيدَ مُجدَّدًا في ساحة المحارِبين".

شالَت رِصفة السَّلَّ الذي كان كالِب نائمًا فيه. وأقبَلَ رجُلان ركضًا ممَّا بدا أنَّه ضريح. فوضعَ ثيوفيلُس أتريتِس في عُهدَتهما، ورجَعَ إلى رجاله. "أپوليوس، صديقي، أشكرُك". وشبَكَ معه ذِراعَيه. "لا تُتح لدوميتيان فُرصةً لاستِجوابك. لا ترجِعْ إلى ثُكنةِ الحَرَس الإمبراطوريِّ". وأخرَجَ من داخِلِ دِرعِه الصَّدريِّ دَرْجًا صغيرًا. "خُذ هذا، واركبْ إلى تارِنتُم. سلِّمه إلى يوستُس الصغير، دونَ سِواه". وضرَبَ ثيوفيلُس كتِفَه. "اذهَبِ الآن!"

قال الجُنديُّ شيئًا بصوتٍ مهموس، وناوَلَه صُرَّةً قبلما امتطى حِصانَه. وبسَطَ يدَه مؤدِّيًا التحيَّة. "حماك الله، سيِّدي!" وحذا الآخرون حذوَه.

"وإيَّاكُم، أصدقائي. ليكُنِ الله معكم".

عطَفَ أپوليوس حِصانَه، وعدا عبْرَ الحقول نحو الطريق الرئيسيِّ، وقد تراصَفَ الآخرون وراءه.

حطَّت رِصفة كالِبَ في سَلِّه وذهبَت إلى ثيوفيلُس. وبينما الدُّموعُ مُغشِيةٌ بصَرَها، جثَت على رُكبتَيها ووضعَت يديها على قدَمَيه. وقالت باكيةً: "سامِحني. ما كان ينبغي لي أن أشكَّ فيك".

فأمسكها بقبضتَين ثابتَتَين وأوقفَها على قدَمَيها. ورفَعَ ذقنَها مُبتسِمًا. "أنتِ مُسامَحة، رِصفة". ومسَّ خدَّها مسًّا رقيقًا، ثمَّ قال برشاقةٍ أكثر: "لا تُفكِّري بعدُ في الأمر. لو لم يكُن تَضايُقُكِ أصيلًا، لَرُبَّما جرى كلُّ شيء على نحوٍ مُختلِف في الفُندق. لقد خدَمَ شكُّكِ غايةً صالحة".

واستيقظَ كالِب. فتخطَّاها ثيوفيلُس وشالَهُ من سَلِّه. وبكى كالِب بُكاءً أعلى. فقال بضِحكة: "يبدو أنَّ أُمَّه وحدَها تنفع!" وناوَلَها الطِّفل. "سأحمِلُ السَّلَّ". فاستكنَّ كالِب على صدرها، ناظرًا إلى ثيوفيلُس مِن مأمَنِ ذِراعَيها. وأطلَقَ زعقةً ثُمَّ مالَ نحو ثيوفيلُس، فربَّتَه برِفقٍ تحتَ ذقنِه مُلاعبًا.

وبينما هُما ماشيانِ معًا، قالت: "من السَّعدِ أنَّكَ وجدتَنا في الوقت المُناسِب".

"عَلِمتُ في غضونِ ساعاتٍ أين أجِدُكم. قُلتُ لكِ إنَّ أتريتِس سيُهوِّن الأمر". وهزَّ رأسَه. "لدَيه شجاعةٌ أكثرَ ممَّا لديه عَقل".

"أيُّ نوعٍ من البلاء سيجلبُه هذا على رأسِك، ثيوفيلُس؟ إنَّك ما تزال في خدمة الإمبراطور".

"ليس منذ يومين. أكملتُ سني خِدمتي العشرين المطلوبة قبلَ خمس سنوات. والآنَ طلبتُ إذنًا بالتَّقاعُد، فمنحني تيطُس إيَّاه. في حوزتي شهادةٌ بتوقيعِه تُخوِّلُني أن أمتلك قطعة أرض في أيِّ إقليمٍ حُدوديٍّ أختارُه. وقدِ اقترحَ بضعةَ أماكنَ فيها سيڤيتاتِس أنشأها ويُديرُها عسكريُّون مُتقاعِدون؛ ومنها بِلادُ الغال وبريطانيا". وابتسمَ لها ابتسامةً مُنكفئة. "لم يأتِ على ذِكر جِرمانيا، ولا أتيتُ أنا". ثُمَّ وصلا إلى المدخل الحجريِّ الضيِّق المؤدِّي إلى سَراديبِ الموتى.

تقدَّمَها ثيوفيلُس نزولًا على الدَّرَج المُنحدِر المَنحُوت في صُخور لاسيوم المَساميَّة، ويدُه تحت ذراعها كي يسندَها. وقال: "لا ترتعِبي من مظهر المكان. عاداتُكم مُختلِفةٌ نوعًا ما في إيونيا. هذه الأنفاقُ ما زالت هنا على مدى عدَّة أجيال. كان غَندِريوس سيڤيراس نوڤاتيان أوَّلَ كثيرين دُفِنوا هُنا. وطيبارياس، ابنُ حفيده، سمعَ الرَّسولَ بولس يتكلَّم أمام القيصر، وفي ذلك اليوم قبِلَ فداءَ المسيح. وقبلَ موته بحُمَّى، أوصى أُختَه أن تستخدِمَ هذا المكان ملاذًا لمن يحتاج إليه".

انتهى الدَّرَج وتلاه ممرٌّ تُرابيٌّ ضيِّق إلى حُجرة تحت الأرض، تُدعى كوبِكيولا، شكَّلَت نواةَ قَبوِ العائلة. وكانت مُضاءة بفتحة في السَّقف تُشبِهُ فمَ بئر استُخدِمت لإزالة التُّراب في أثناء التَّنقيب.

كانت الغُرفة باردة، وفيها نبعٌ طبيعيٌّ كبير يملأ رفريجيريا مُبلَّطة تُستخدَم للإراقة في الجنائز. وكانت جُدرانُ الكوبِكيولا مُلَّطةً ومُجصَّصة برسوم زهور وطيور وحيوانات.

لقِيَت رِصفة أمامها حُجرتَين تحت قنطرتَين. وحُجرَتا الأموات هاتان كانتا منقورتَين في الصَّخر المَساميِّ ومُلَّطتين، ومختومتَين بألواح أُفقيَّة شكَّلت أغطية للقبور مرفوعةً على قنطرتَين. كان في كُوَّة إحداهُما جصِّيَّةٌ لهِرقل مُرجعًا أَلْسَستيس الباسلة من الحادِس إلى زوجها أدميتوس الذي سبق أن ضحَّت بحياتها لأجله. وقد مثَّلِ هذا المشهدُ الأُسطوريُّ الحُبَّ الزَّوجيَّ. وكان في الكوَّة الأُخرى جصِّيَّةٌ لهِرقل قاتلًا أُفعُوانَ العُدارِ الخُرافيَّ ذا الرؤوس التِّسعة.

انفتحَت إلى يمين رِصفة كوبِكيولا أُخرى. وكان فيها حُجرةُ دَفنٍ واحدةٌ تحتَ قنطرة. وقد حملَت الكُوَّة جصّيَّةَ أُورانْت، رجُلٍ أو امرأة في وضعيَّةِ صلاة، حيثُ ينحني الجِسم وتُمَدُّ الذِّراعان. وكان على الغِطاء اسمُ طيبيرياس.

قال ثيوفيلُس: "من هُنا". وتردَّدت أصداءُ صوتِه العميق برِقَّةٍ في السُّكون.

تبِعَته رِصفة عبْرَ بابٍ إلى يسارها. وسحَبَت نفسَها برِفقٍ إذ رأت النَّفَقَ يمتدُّ أمامها. وقد فاحَت من السِّرداب رائحةُ التُّراب الرَّطب والتَّوابل الطيِّبة والبَخور. وكانت كُوًى غيرُ نافِذة، تُدعى لوكيولي، محفورةً في الجُدران الصَّخريَّة المَساميَّة ومختومة ببابٍ مُسطَّح من قِرميد أو رُخام. وعلِمَت رِصفة أنَّ كلَّ لوكيولُس ضمَّ جُثمانًا. وكانت سُرُجٌ صغيرةٌ من الطِّين مملوءةٌ بالزَّيت المُعطَّر موضوعةً فوق كثيرٍ من القُبور، مالئةً البَهوَ الكئيبَ بالنُّور الخافق وبعبير الطِّيب المُتخِم المُمتزِج برائحةِ الفساد.

مشَت في الممرِّ، ضامَّةً كالِب ضمًّا أقرب، ناظِرةً إلى أبوابِ القُبور بجانبها وفوقَها من كِلتا الجهتَين. كان على كلِّ قَبرٍ اسمٌ: بمفيليوس، كونستنتيا، پريتِكستاتُس، هونوريوس، كوموديلَّا، مرسيلينوس، مايُس. ورأت مِرساةً منحوتةً على أحَدِ الأغطِية الحجريَّة المُسطَّحة، وعلى غِطاءٍ آخَرَ طاووسًا يرمز إلى الحياة الأبديَّة، وعلى ثالثٍ سمكَتَين ورغيفَ خُبز.

انعطَفَ ثيوفيلُس حولَ زاوية، وتبِعَته بقُربِ أركوسوليوم آخر عليه ألوانٌ زاهية في جصّيَّة تُصوِّر الرَّاعيَ الصالح وعلى كتِفَيه الخروفُ الضالُّ.

فسألت: "هل جميعُ هؤلاء الراحلين مسيحيُّون؟" وقد بدا صوتُها غريبًا في أُذُنَيها.

"سبعةٌ وثمانون منهم مسيحيُّون، مُعظَمُهم في القُبورِ الأحدث عهدًا بقُربِ القاع، حيثُ نحنُ الآن. أمَّا القبور في الأعلى فوقُ فهي الأقدم عهدًا، وتضمُّ أفرادًا من آل نوڤاتيان. وقد سُمِحَ أيضًا لأصدقاء العائلة بدفن مَوتاهُم هنا. وهنالك أيضًا بضعةُ أجيالٍ من العبيد تُحسَبُ في عِدادِ اللوكيولي".

سمِعَت أصواتًا قُدَّامها. واقتادها ثيوفيلُس صعودًا على درَجٍ تُرابيٍّ وحجَريٍّ آخَرَ إلى ممرٍّ اتَّسعَ إلى كوبِكيولا كبيرة أُخرى. وقد دخَلَ الضَّوءُ من فوقُ. هنالك قعد أتريتِس على حَشِيَّةٍ محبوكة بلِزقِ الجِدار، مَشحوبَ الوجه.

كان في الغُرفة عدَّةُ رِجال، يحومون على أتريتِس ويتكلَّمون كلُّهم في آنٍ معًا، ولكنْ كانت المرأةُ الكهلةُ الضئيلة هي التي لاحظتها رِصفة في الحال. كان شعرُها الأشيب مَعقوصًا ومضفورًا ومُدَبَّسًا في تصفيفةِ أناقةٍ ونُبل. وكانت ترتدي رداءَ كتَّانٍ أزرقَ ذا نوعيَّة فاخِرة جدًّا،

إلَّا أنَّها تحلَّت بحُلَى قليلة. وقد ناولَت أحَدَ الرِّجال كأسَ نبيذٍ فِضِّيَّةً، فقدَّمها إلى أتريتِس. ثمَّ التفتَت السَّيِّدة وعلى وجهها المُخدَّد جمالٌ ووقار.

قالت: "ثيوفيلُس!" فبدا واضحًا أنَّها تكنُّ له مَودَّةً عظيمة. ومدَّت يدَيها إليه مُبتسِمةً.

فتناوَلَ يدَيها قائلًا: "نحنُ مدينونَ لكِ، سيِّدةُ ألفينا". وإذِ انحنى باحترامٍ حنون، قبَّلهما كِلتَيهما.

قالت: "لستَ مَدينًا لي، بل للإله. لقدِ استُجيبَت صَلواتُنا"، وشعَّت عيناها فرَحًا إذ ربَّتَت خدَّه كما لو كان صبيًّا، لا عسكريًّا مُحنَّكًا.

فضَحِك. "حقًّا، سيِّدتي".

ثُمَّ مدَّت يدَيها قائلةً: "وهذه الشابَّةُ الجميلة هي السَّيِّدة رِصفة. أهلًا بكِ، عزيزتي".

فقالت رِصفة: "شُكرًا لكِ، سيِّدتي". وقدِ انجذبَت إلى أُنسها.

"رجاءً، ناديني ألفينا. جميعُنا واحِدٌ في المسيح يسوع". ورَنَت إلى أتريتِس تحديدًا. "عليَّ أن أعترِفَ بأنِّي كنتُ في فُضولٍ لرؤيةِ أتريتِس العظيم".

وقال ثيوفيلُس بِجَفاف: "لقد بدا أفضَلَ".

فقالت: "هو تمامًا كما وصفه روفُس: لهُ بنيةُ مارْس ووجهُ أپولُّو". وفسَّرَت لرِصفة: "روفُس هو ابني. وقد ذهَبَ إلى الفُندُق ليلتين، إلَّا أنَّه لم يستطع أن يقتربَ كفايةً ليتكلَّم مع أتريتِس. وقال إنَّ الأموراتيي كانوا وافرينَ كالسِّياسيِّين الفاسدين في مجلسِ شُيوخِنا. لقد رجَونا أن نأتيَ بِكُم قبلَ بضعة أيَّام".

فقالت رِصفة: "ما كان أتريتِس ليأتي".

وقالَ أتريتِس من حيثُ كانَ جالسًا: "كُنَّا نحتاج إلى مزيدٍ من الذَّهَب". ثُمَّ نظَرَ إليها. "ينبغي أن يكونَ لنا الآن ما يكفي. أينَ هو؟"

استطاعَت رِصفة أن تُحِسَّ الدَّمَ نازِحًا من وجهها ثُمَّ مالَت إيَّاه من جديد، ساخِنًا مُتأجِّجًا. "آه، سيِّدي..."

فقالَ مرعوبًا: "هل نسِيتِه؟" وكاد الألَمُ في رأسه يُعميه إذ شَتَم.

وقالَ ثيوفيلُس: "تيقَّنَ أپوليوس تمامًا من الإتيان بجميع مُتعلَّقاتِك". وفكَّ رِباطَ صُرَّةٍ جلديَّة ثقيلة ثمَّ رماها عند قدَمَي أتريتِس. "بِما في ذلك ذَهَبُك". والتوى فمُه بابتسامةٍ ساخرة. "لقد كُنتَ في فِكرِ رِصفةِ".

حوَّلَ أتريتِس نظَرَه عن صُرَّةِ النُّقود إلى ثيوفيلُس. ثُمَّ أسند رأسَه مُضطرِبًا إلى الجدار المُمَلَّط البارد.

وقالت السَّيِّدة ألفينا: "يجب أن أعود لإتمام التحضيرات لأجل هذا المساء. دوميتيان يُقيم مأدُبة للاحتفال بحدَثٍ ضخمٍ ما". ولاحظَت نظرة أتريتِس الشَّاكَّةَ الحادَّة إليها فابتسمَت. "سيُضطرُّ إلى ابتكارِ سبَبٍ جديد للاحتفال بعدَما نجَوتَ الآن. وقد قال روفُس إنَّه سمعَ إشاعةً بأنَّه يَنوي الإتيانَ بكَ وعرضَكَ في الوليمة".

فقالَ ثيوفيلُس: "أأنتِ على يقين بأنَّ من الحِكمة أن تذهبي إلى القصر؟"

"من عدَمِ الحِكمة ألَّا أذهَب. فضلًا عن أنِّي مُهتَمَّةٌ بابنة أُختِ دوميتيان الشابَّة، دوميتيلًا. فقلبُها مفتوحٌ للرَّبِّ، وأنا أُريد أن أنتهِزَ أيَّةَ فُرصة يُعطيني الله إيَّاها كي أتكلَّم معها".

ووضعَت يدَها على ذِراعِ رِصفة. "لا لُزومَ لأنْ تبقَي هُنا، رِصفة. إذا شئتِ، يمكنكِ أن تسلُكي هذا المَمرَّ إلى الرِّواق السرِّيِّ ذي الأعمِدَة. إنَّه جميل إلى حدٍّ بعيد وتحتَ الدَّارة تمامًا. سيبتهِج كالِب بالبَلاط الجميل على الأرض، وستكونان كِلاكُما في أمانٍ تامٍّ هُناك".

فقال أتريتِس: "إنَّها تبقى معي".

ورمقَته السَّيِّدة ألفينا. "خُدَّامي كلُّهم أهلٌ لِلثِّقة".

فبادَلَها أتريتِس النَّظَر ببُرودة. "إنَّها تبقى".

ورقَّت سِيماءُ السَّيِّدة ألفينا تفهُّمًا وشفَقةً. "كما تشاء، أتريتِس. أعتقد أنَّك لا بُدَّ أن تستصعِبَ الوثوقَ بأيِّ رومانيٍّ، حتَّى أُولئك الذين لا يتمنَّون لك إلَّا الخير".

فقال ثيوفيلُس: "لا سيَّما إذا كان لك رأسٌ أقسى من الصَّوَّان". ثُمَّ رفَعَ يدَه. "سأُرافِقُكِ إلى دارَتكِ، سيِّدتي".

ومشى مع ألفينا على الممرِّ التُّرابيِّ الطَّويل المُضاء بالسُّرُج، ثُمَّ دخَلَ الرِّواق السرِّيَّ ذا الأعمِدة...وكان مكانًا هادئًا، جميلًا بقناطِرِه الرُّخاميَّة، وجِداريَّاتِه المُلوَّنة وجصِّيَّاته، وبِركتِه الصغيرة ذاتِ النافورة. وقد دخلَت أشِعَّةٌ من نور الشَّمس عبْرَ فتحاتٍ مُنشأةٍ بدِقَّة في سقفِ السِّرداب. فكان مُعتزَلًا تحتَ سطح الأرض من ضغوط الحياة اليوميَّة، مكانَ سُلوانٍ باتَ ملاذًا لأولئكَ الذين تشاركوا في الإيمان بالمسيح.

"لعلَّ أتريتِس ينضمُّ إلينا هُنا صباحَ غَدٍ ويسمَعُ القراءة من كلام الرَّسول بولس".

"لا بُدَّ أن أحتاج إلى القُيود والسَّلاسل وأربعةِ رجالٍ لِحَمله".

فالتفتت السيِّدة ألفينا ونظَرَت إليه. "رُغمَ ما تقوله، ثيوفيلُس، ألمسُ كم أنتَ مُعجَبٌ به".

"كيف لا أكونُ مُعجَبًا برجُل بقيَ حيًّا بعدَ عَشرِ سنينَ في ساحة المُحاربين؟" وهزَّ رأسَه. "إلَّا أنّي لا أعرِفُ كيفَ أصِلُ إليه. فهو ينظر إليَّ فلا يرى رجُلًا، بل يرى روما".

فقالَت السَّيِّدة ألفينا بلُطف: "وهل في ذلك من عَجَب؟" وقد جعلَت حَملقتَها تطوفُ عليه تحديدًا. "لقد أهلكَ الجيشُ الرُّومانيُّ قومَه وساقَهُ أسيرًا. وما زال تحتَ الحِراسة مُنذُئذٍ. حتَّى في أثناء مُدَّته الوجيزة وهو رجلٌ حُرّ، أتصوَّرُ أنَّه ما زال تحت حِراسة العسكر. ربَّما كان الأمرُ تمامًا كما تقول. فهو لا يرى إلَّا الإنسانَ الخارجيَّ". وابتسمَت. "إنَّ الله يرى القلب، ثيوفيلُس، وهو قد وضعَك في صُحبةِ هذا الرجُل لِقَصدٍ صالح. فدَعِ الرَّبَّ يُرشِدُك!"

ابتسمَت ولمسَت يدَه بمَودَّة، ثُمَّ مشَت مُبتعِدةً. فوقَفَ وقتًا طويلًا في الغُرفة الهادئة. ثمَّ نزَعَ خُوذتَه وأجرى يدَه على المَعدِن البرَّاق. وإذ مسَّت أصابِعُه برِفقٍ الرِّيشَ الأحمَرَ المقصوصَ أعلى الخُوذَة، أطلَقَ نفَسَهُ بثقل ونظرَ إلى فوق.

كان ثيوفيلُس قد تدرَّبَ ليكونَ عسكريًّا منذُ الصِّغَر، عاقِدًا العزمَ على السَّير في خُطى أبيه. وما إنْ بلَغَ السِّنَّ الكافية، حتَّى التحقَ بالجيش. وقد خدَمَ تحت إمرة كلوديوس قبلَما سُمِّيَ نَيرون ابنُه بالتَّبنِّي إمبراطورًا، وكان فاسدَ القلب. وفي أعقابِ ذلك الحُكم الكارِثيِّ جاءَ حُكمٌ أسوأُ منه بَعد. فقد تفجَّرت روما في حربٍ أهليَّة إذ تحارَبَ أخلافٌ من السِّياسيِّينَ الطامحين، لكنِ العُقَماء، لكي يحكموا الإمبراطورية. وجاهَدَ أُوثو وغالبا وڤتليوس كلُّهم في سبيل السُّلطة، ثُمَّ قُتِلَ كلٌّ منهم على يدِ مَن خلَفَه. وقد نجا ثيوفيلُس من أسوإِ الأحداث الدامية في عاصمة الإمبراطوريَّة؛ لأنَّه في ذلك الحين كان غاطِسًا في الثَّورة الجِرمانيَّة، مُحارِبًا سيڤيليس العاصيَ والقبائلَ المُتَّحِدة، بما فيها قَومُ أتريتِس، قبيلة الشَّطّي.

ولمَّا تسلَّمَ فسبازيان زِمامَ السُّلطة، ابتهجَ بأن يتبوَّأ سُدَّةَ الحُكم قائدٌ عسكريٌّ قدير. فقد كانت روما تحتاج إلى الاستقرار. وعلى مدى السنين العشر من حُكم فسبازيان، خدَم ثيوفيلُس في الحرَس الإمبراطوريِّ، ونُقِلَ إلى الإسكندريَّة، وأُرسِلَ ليقود العسكر في أفسُس.

لقد دعاه الله وهو جُنديٌّ، فخدَمَ الرَّبَّ بأمانة فيما استمَرَّ قائمًا بواجباته. ولم يواجِهْهُ مرَّةً واحدةً خِيارٌ بين الله والإمبراطور. وقد علِمَ أنَّ ذلك غالبًا بفضلِ التدخُّلِ الإلهيِّ. فلَم تُطرَح قطُّ، ولا مرَّة، أسئلةٌ مُعيَّنة.

والآنَ أعطاه الله مَهمَّةً أُخرى: إرجاعَ أتريتِس إلى جِرمانيا. ففي أثناء لقائه الأوَّل ويُوحنَّا، قال الرسول فقط كلِماتٍ قليلةً لمَّا رأى أنَّه مدفوعٌ إلى ذلك. حتَّى إنَّه، رُغمَ عِلمِه بما

قد يُواجِهُه في جرمانيا بين الشَّطِّي، كان على يقينٍ بأنَّه يتبع إرشادَ الله. احمِ هذا الرَّجُلَ ورافِقه إلى موطنه! لقد كانت لدى الله خُطَّةٌ لأجل أتريتِس، وكان ثيوفيلُس جُزءًا من هذه الخُطَّة، أحبَّ ذلك أم كرِهَه.

ما زال الجيشُ حياتَه، ولكنَّ الله وضعه في سبيلٍ جديد الآن. فكان خِيارُه بسيطًا: أيُطيعُ أم لا، أإرادتُه عامِلةٌ أم مشيئةُ الله؟ والتوى فمُه ببسمَةٍ ساخِرة. لقد وضَعَ الله يده في حياة ثيوفيلُس منذُ البداية، لأنَّ سِنيه في الجيش الرُّومانيِّ هيَّأته لهذه اللحظة. فقد علَّمَه الجيشُ أن يُطيعَ السُّلطة، وأن يضبِطَ نفسَه في مواجهة الشِّدَّة، ويكونَ مُواليًا لقادته، ويتغلَّبَ على الخوف عندما يواجِهُه الموت.

اخلَعْ ما هو عتيق والبَسْ ما هو جديد!

لم يكُنِ الأمرُ سهلًا. لقد أحبَّ حياتَه في الجيش: الانضباطَ، النِّظام، الاحترام. وقد أمضى خمسًا وعشرين سنةً من حياته في مِهنته، وما ارتداه نوَّهَ بإنجازاته.

اخلَعْ ما هو عتيق والبَسْ ما هو جديد!

حطَّ الخوذةَ المصقولة على بنكٍ رُخاميٍّ. وإذ خلَعَ الكابَ الأحمر، طَواهُ بعِناية وحطَّه. ثُمَّ نزَعَ قِلادةَ رُتبَتِه، وأطبقَ يده عليها وقتًا طويلًا. وإذ رماها على المهد القِرمزيِّ، غادَرَ الرِّواق السرِّيَّ ذا الأعمِدة.

وقال: "لتكُن مشيئتك، أيُّها الآبُ!"

ثُمَّ استدار ومشى راجعًا في الممرِّ الضَّيِّق المؤدِّي إلى الهيبوجيوم، حيثُ رِصفة وأتريتِس ينتظِران.

٢١

جعَلَ المُحيطُ المُزعِج في الهيبوجيوم أتريتِس قلِقًا باطِّراد. علِمَ أنَّ الذين حَوالَيه رأَوا المكانَ مَخبأً، حيثُ يُتاحُ لهم أن يتعبَّدوا لإلههم ويتباحثوا فيه بحُرِّيَّة. ولكنَّ المكان لم يكُن في نظره أكثرَ من مُجرَّدِ مقبرة تحتَ سطح الأرض تُشكِّلُ صورةً تُمثِّلُ العالَمَ السُّفليَّ مُقدَّمًا.

فما عادَ الموتُ مُقترِبًا منه فحسب، بل باتَ مُحيطًا به.

ولمَّا أتى روفُس بطعام وحطَّه أمامه، لم يستطِع حَمْلَ نفسه على تناوُله، مهما كان شهيًّا، لأنَّ الطَّاوِلة التي حطَّه روفُس عليها كانت تابوتًا. كان المُتمدِّنون يُحرِقون مَوتاهم! أمَّا الرُّومان الملاعين فقد لفُّوهم كهدايا ودسُّوهم بعيدًا إمَّا في مِشكاة وإمَّا في توابيت حجريَّة للأجيال الآتية. أمَّا أُولئك الذين كانوا أغنياءَ كفايةً بحيثُ يحوزون كوبِكيولا، فكان من عادتهم حتَّى المجيءُ لتناوُل الطَّعام مع أقربائهم وأصدقائهم الأموات. وكانوا يدعون الجِرمانَ بَرابِرةً أو همجيِّين! وما كان أكثرَ إغثاءً لأتريتِس بَعدُ هو عادةُ هؤلاء القوم، ومن جُملَتِهم رِصفة، أن يتناولوا خُبزًا وخمرًا ويُشيروا إليهما حاسبين إيَّاهما جسَدَ مَسيحِهم ودَمَه.

قال لِرصفة: "عليَّ أن أخرُجَ من هُنا".

"قال ثيوفيلُس إنَّ ذلك غيرُ مأمونٍ بَعد".

"لقد بدأتِ الألعابُ قبل يومين!"

"لِدوميتيان جنودٌ يبحثون عنك في كلِّ مكان. وقد جاءَ بِضعةٌ منهم إلى الدَّارة. أنتَ تعلم أنَّ دوميتيان ما كان لِيروقَه أيُّ شيء أكثرَ من عَرضِكَ أمامَ..."

وقَفَ أتريتِس فجأةً وجعلَته موجةُ دُوارٍ يترنَّح.

فقالت رِصفة مذعورةً: "أتريتِس!" وقامت بسُرعة لتَلُفَّ ذِراعَها حولَ خصره وتُسنِدَه.

دفعَها بعيدًا عنه. "في وسعي أن أقِفَ وحدي". وانحَنى بحَذَرٍ فالتقط فِراشَه وحزمةَ مُتعلَّقاتِه الصَّغيرةَ، بما فيها صُرَّة الذَّهَب، وتوجَّه مُتَقلقِلًا نحوَ مدخَلِ بابٍ، مُتوقِّعًا منها أن تتبعَه.

إلَّا أنَّها شالت كالِب وأجلسَته في حِضنها، قائلةً بهدوء: "ذلك الطَّريق سيؤدِّي بك إلى مكانٍ أعمَقَ داخِلَ السَّراديب. وهذا الطريق سيؤدِّي بك إلى الرِّواق السِّرِّيِّ ذي الأعمدة".

"لا أُريد أن أذهب إلى الرِّواق السرِّيِّ المُعمَّد! أُريد أن أخرج من هُنا!" وإذ توارَت عابِرةً بابًا ضيِّقًا ناداها "رِصفة!" بصَوتٍ خَشِن ترجَّعَت أصداؤه في الكوبِكيولا، مُوفِّزًا أعصابَه أكثرَ بَعد. وتفوَّه بكلمة واحدة حادَّة في الجِرمانيَّة.

إذا سلكَت ذلك الطريق لتَصِلَ إلى الرِّواق السرِّيِّ، خُيِّلَ إلَيه أن يدخُلَ البابَ المُقابِلَ فينجوَ من الهيبوجيوم كلِّه. ودخَلَ ممرًّا طويلًا، والحُجَيراتُ إلى كِلا جانبَيه. فحاوَلَ إلَّا يمسَّ الجُدران، عالِمًا تمامًا بما كان مُتحلِّلًا داخِلَها.

استقامَ الممرُّ مسافةً ثُمَّ انعطَف. ولمَّا تفرَّعَ في ثلاثة اتِّجاهات، سلكَ المجازَ المُتَّجِه يَسارًا. فانتهى عند دَرَج يؤدِّي نزولًا، لا صعودًا، وعلِمَ أنَّه لم يكُن ذاهِبًا إلى حيثُ أراد. وشتَمَ بصوت عالٍ، فكان وَقعُ صوته غريبًا في أُذُنَيه داخِلَ النَّفَقِ المُظلِم. وقد جعَلَ المكانُ جِلدَه يَنمَل.

فانكفأ وعادَ أدراجَه، ثمَّ سلَكَ المجازَ المُتَّجِه يمينًا. ووصلَ إلى مُنعطَف آخر، ثُمَّ انشعبَ الدِّهليزُ إلى ثلاثة مجازات أُخرى. هناكَ خفَقَت سُرُجٌ قليلة وبَدَتِ الظُّلمةُ أحلَكَ والهواءُ أبرَد. فشَرَعَ قلبُه يطرُق. وتصبَّبَ جِسمُه عرَقًا باردًا. لقد ضاع في مَتاهةٍ من القُبور، عالِقًا بينَ الأموات. فكافَحَ الذُّعر وعادَ أدراجَهُ من جديد. ولم يستطِع أن يتذكَّر من أيِّ مَجازٍ أتى.

أطبَقَ الصَّمتُ عليه من كلِّ جهة. وكلُّ ما استطاع سَماعَه كان تنفُّسَه بعَينه، ضَحلًا وحادًّا، وخَبْطَ قلبِه مُحدِثًا صُداعًا مُعذِّبًا. وكان في وسعه أن يُحِسَّ عُيونَ الأموات تراقبه، ويشُمَّ فسادَ الأجسادِ والتُّرابَ اللَّيِّنَ الجافَّ والأثواب البالية. فأنَّ، ونظرَ حوالَيه مذعورًا.

ثُمَّ سمعَ صوتًا عميقًا خفيضًا: "أتريتِس".

فاستدارَ مُسرِعًا في وضعيَّةِ دِفاع، مُتأهِّبًا لأنْ يُقاتِلَ مهما أقبَلَ عليه. وإذا رجُلٌ واقِفٌ عند زاويةِ مَمَرٍّ آخر، ما لبِثَ أن قال: "مِن هُنا!" ومع أنَّ وجه الرَّجُل كان مُظلَّلًا كما كان صوته مُختلفًا في المَجاز التُّرابيِّ الضَّيِّق، علَمَ أتريتِس أنَّه كان ثيوفيلُس. وأوَّلَ مرَّةٍ منذُ التقى ذلك الرُّومانيِّ، سُرَّ بأن يراه.

اقتاده ثيوفيلُس إلى الرِّواق السرِّيِّ المُعمَّد، حيثُ كانت رِصفة تنتظر. فانفرجَت أساريرُها وقامَت إذ تبِعَهُ أتريتِس إلى داخِلِ الغُرفة الكبيرة، قائلةً: "لقد وجدتَه! أنا آسِفة، أتريتِس. ظنَنتُ أنَّك كنتُ ورائي".

وبِلا كَلِمة، طرَحَ مِفرشَه وأشياءه وذهب إلى بِركة النَّافورة. فنضَحَ براحتَيه ماءً على

وجهه مرَّةً ومرَّتين وثلاثًا. وإذ نفَّضَ عنه الماء، استقامَ وزفَرَ نفَسَه ببُطء. "أفضِّلُ أن أُجرِّبَ حُظوظي في ساحة المُحاربين على البقاء في هذا المكان".

قال ثيوفيلُس: "جاءَت مجموعةٌ من الجُنود إلى هُنا أمسِ. وما زالوا يَخفِرون المِنطَقة. فإذا أردتَ أن تُسلِّم نفسك لهم، فامضِ قُدمًا".

وإذ أغضبَته لهجةُ ثيوفيلُس اللَّامُبالية، قَبِلَ التَّحدِّيَ: "دُلَّني على طريق الخُروج من هُنا".

"عُد أدراجَك من هُناك، وابقَ سالكًا المَمرَّاتِ التي إلى يمينك. وعندما تصِلُ إلى دَرَج..."

تمتمَ أتريتِس بشتيمة وضرَبَ سطحَ الماء بيَده جَرًّا. "كم ينبغي لي البقاءُ بَعدُ في هذا المكان؟"

كان في وسع ثيوفيلُس أن يفهم خيبة أتريتِس. فهو نفسُه قد شعَرَ بها. إذ لم تؤاتِهِ أيَّامُ التَّبطُّل، هو أيضًا. وقد كانت زيارةُ سراديب الموتى ومُشارَكةُ المسيحيِّين الآخرين في العِبادة شيئًا. أمَّا الإقامة في السَّراديب، فكانت شيئًا آخَر. "الأمرُ يتوقَّف على تصميم دوميتيان".

فقال أتريتِس ناخِرًا ساخِرًا: "أنت تعرِفُه أفضلَ ممَّا أعرِفُه أنا. ما مدى تصميمه؟"

"لا بُدَّ أن أقول إنَّه يحسُنُ بنا أن نُريحَ أنفُسَنا".

تفوَّهَ أتريتِس بكلمةٍ جِرمانيَّة سفيهة أُخرى، وقعَدَ على حافة النَّافورة. وفرَكَ رأسَه، إذ كان ما يزال يؤلِمُه قليلًا حيثُ ضرَبَه ثيوفيلُس بمِقبَضِ غلاديوسِه. ثُمَّ نظَرَ إلى الرُّومانيِّ عبْرَ الغُرفة. فرفَعَ ثيوفيلُس حاجِبَيه قليلًا.

حَبَا كالِبُ بين قدَمَي أتريتِس المُتباعِدتَين وتشبَّث بواحدٍ من السُّيور حولَ بطَّة ساقِهِ العَضِلة. فدلَّى أتريتِس يدَيه بين رُكبتَيه وأمسكَ يدَي ابنِه. فأطلَقَ كالِب زعقةَ ابتِهاج، وجاهَدَ بنشاط حتَّى دفَعَ نفسَه صعودًا ووقف على قدمَيه.

قالت رِصفة: "سنراه ماشيًا عمَّا قريب".

فقال أتريتِس باكتئاب: "أعلَمُ ذلك...في مقبرة". ثمَّ شالَ ابنه وأقعدَه على رُكبتَيه، مُبقيًا إيَّاه هُناك ومُتأمِّلًا فيه. كانت له عَينا جوليا وشعرُها. فرَفرفَ كالِب بذِراعَيه وأطلَقَ أصواتًا مُشوَّشة.

وضحِكَت رِصفة: "إنَّه يُحاوِلُ أن يُكلِّمَك".

كيفَ أمكَنَها أن تضحك في هذا المكان؟ كيف أمكنها أن تجلِسَ وتبدوَ رائقةً، مُتحدِّثةً إلى ثيوفيلُس والآخرين كما لو كانوا قاعدين في دارة أو في قاعَةٍ ولائمَ، لا في مقبرة تحتَ سطح

الأرض؟ لم يهَمَّها المحيط كما لم يهمَّ الطِّفل. أينما كانت، تبقى هي إيَّاها. وهو أرادَ لابنه أن يتعلَّم المَشيَ على عُشبٍ نَديٍّ، لا على تُربةٍ قاتمة في دِهليزٍ مُسَوَّرٍ بالموت.

رأت رِصفة سيماءَ القلَق في وجه أتريتِس، وأقبلَت لتقعُدَ بجانبه على حافةِ النَّافورة. "لن نبقى هُنا إلى الأبد".

إلى الأبد. مِثلَ الموت. ما كان قد سمَحَ قطُّ للخوف من الموت بأن يعتريَه ويُضنيَه. فمن شأنه أن يُضعِفَه، ويُحوِّلَ تركيزَه، ويوفِّرَ للخَصمِ ثُغرةً. والآنَ لم يستطِع أن يُفكِّرَ في أيِّ شيء آخر. وقد كان السَّبب وجودهم في هذا المكان!

دفَعَ كالِب إلى ذراعيها، وقام. "إنَّنا هُنا منذ وقتٍ طويل". وملأ صُراخُ كالِب الرِّواق السِّرِّيَّ ذا الأعمِدة.

ضمَّت رِصفة الولَدَ وربَّتَت ظهرَه قائلةً: "إلى أيِّ مكان آخر يمكن أن نذهب ونكونَ في مأمَن؟" ثمَّ قبَّلَت الطِّفل وتَمتمَت له بكلامٍ مُعَزٍّ.

أغضبَته مُشاهَدتُها تسكبُ كلَّ عاطفتها على ابنه. "أيُّ مكان لا بدَّ أن يكون أفضلَ من هذا!"

فقال ثيوفيلُس: "حتَّى الزَّنزانةُ؟" ليجذِبَ غضَبَ أتريتِس إلى مكانٍ آخر. كان أتريتِس مُتلهِّفًا لقِتال، وأبَت رِصفة أن تُعطيَه ما أراده. "أو ربَّما كنتَ ستشعر بالرَّاحة أكثرَ في حُجَيرَةٍ عرضُها خمسُ أقدام وطولُها ثَمانٍ". واستدرَّ نظرةً قاتمة، لا أكثر.

لمَّا كفَّ كالِب عن البُكاء، حطَّته رِصفة على فُسَيفِساءِ دُلفين. وإذ ألهَته ألوانُ البَلاطِ وأشكالُه وتركيباتُه، أطلَقَ أصواتَ الابتِهاج من جديد، وبدأ يحبو مُتنقِّلًا حتَّى وصَلَ إلى بُقعةِ نُور. فجلَسَ وحاول أن يَلقُطَ أشِعَّةَ نُورِ الشَّمس التي هبَطَت من فُتحة صغيرة في قُبَّة السَّقف المُلوَّنة.

راقَبَه أتريتِس باكتئاب. "كان ينبغي أن يكونَ مع الأحياء، لا هُنا في الأسفل مع الأموات".

فقال ثيوفيلُس: "سوف يكونُ مع أُولئك، أتريتِس".

"أخرِج رِصفة من هذا الجحيم، أم هي وابني سجينانِ أيضًا؟"

فقالت رِصفة بحَزم: "سنبقى في المكان الذي ننتمي إليه".

وقال ثيوفيلُس: "لا أحَدَ مِنكم سجين". وقد لاحَظَ تجاهُلَ أتريتِس لرِصفة. فالمرَّة

الوحيدة التي فيها نظَرَ إلى رِصفة أصلًا كانت في أثناء نظَرِها إلى مكانٍ آخر، وكان إنعامُه النَّظرَ إذ ذاك حادًّا وكاشفًا لدى أيِّ شخصٍ رآه صِدفةً. "أمَّا بِخُصوص الانتقال إلى مكان مُختلِف، فاسألِ السَّيِّدة ألفينا حينَ تراها هذا المساءَ".

أجال أتريتِس نظَرَه في أنحاء الغُرفة الكبيرة بقناطِرها وجصِّيَّاتها. "هذا المكان أفضَلُ من الآخر الذي وضعتَني فيه. سأبقى هُنا".

ضحِكَ ثيوفيلُس. "عرَضَت السَّيِّدة ألفينا أن تستخدموا هذه الغُرفة أوَّلَ يومٍ وصلتُم فيه".

"قدَّمَتها لرِصفة والطِّفل".

"الدَّعوة اشتمَلَت عليك. سيَسرُّها أنَّك قرَّرتَ المُكوثَ هنا. فاجأها تفضيلُك الكوبِكيولا. الأمرُ يُحزِنُها". وإذ أضحكته نظرةُ أتريتِس المُتَّسِمة بالرُّعب، تمدَّدَ على بنكٍ رُخاميٍّ، ووضَعَ ذِراعَهُ وراء رأسِه، وصالَبَ كاحِلَيه مُستريحًا. "أنا نفسي أُفضِّلُ هذا المكان كثيرًا".

انضمَّ إليهم ذلك المساءَ روفُس والسَّيِّدة ألفينا، وقد تبِعَهما خادمان حاملان صِينيَّتَي طعام ونبيذ. لقد سُرَّتِ السَّيِّدة ألفينا بِقَرارهما أن يبقيا في الرِّواق السرِّيِّ المُعمَّد. وقالَت: "الوَضعُ هُنا أحسَنُ بكثير. مزيدٌ من الهواء".

ابتسَمَ روفُس لمَّا أخَذَ أتريتِس تُفَّاحةً عن الصِّينية وقضَمَها. "يَسرُّني أن أرى أنَّ شهيَّتك قد رجَعَت. بدأنا نقلق".

وقالت السَّيِّدة ألفينا: "إذا جاء أيُّ جنود لتفتيش الدَّارة، فسيأتي أحَدُ الخُدَّام لإنذارِك".

وإذ سكَبَ واحِدٌ من الخَدَم نبيذًا، قال روفُس: "بعضُ الجنود يُستدعَون للخدمة. لقد شبَّ حريقٌ في المدينة". وأخَذَ ثيوفيلُس كأسين فناوَلَ أتريتِس إحداهُما. "بدأ الحريق في مسكن من الإنسولايي الأفقَر جنوب التِّيبر، وأخشى أن يكونَ قد انتشر بسُرعة".

وقالت السَّيِّدة ألفينا بحُزن: "في وسعِكُم أن ترَوا الدُّخان من الشُّرفات. إنَّه يُذكِّرني بالحريق الكبير في أثناء حُكم نَيرون".

ثُمَّ أضافَ روفُس: "أرسل تيطُس مزيدًا من الفَيلقيِّين لمُساعَدة مُطفئي النَّار، ولكنَّها تخرُجُ عنِ السَّيطرة. المُشكِلة أنَّ بعض مَساكِن الإنسولايي عتيقةٌ جدًّا بحيثُ تنفجِر. لقد مات مئاتُ الأشخاص، وأكثرُ منهم بَعدُ باتُوا بِلا مأوى".

استساغَ أتريتِس خبَرَ روفُس. لقد كانت روما تحترق! فأيَّ شيءٍ بَعدُ يمكنه أن يطلُبَ، ما عدا موتَ كاليستُس ودُوميتيان؟

وقال ثيوفيلُس مُكتئبًا: "سيأتي الوبأُ في الأعقاب. لقد رأيتُ ذلك يحدث مِن قَبل".

لاحظَت رِصفة كيف تلقَّى أتريتِس الخبَر، وأزعجَتها قساوَتُه. "لا تُسَرَّ بهذا، أتريتِس. ثمَّةَ أبرياءُ يفقدون بيوتَهُم وحياتَهُم".

فقال أتريتِس ساخرًا: "أبرياء؟" ونظَرَ الآخرون إليه. "هل كانوا كلُّهم أبرياء لمَّا ملأُوا المقاعِدَ حولَ ساحة المُحاربين وصرَّخوا طالبين سفكَ الدَّم؟ دمي، أو دمَ أيِّ شخصٍ سِواي. فليحترِقوا. ولتحترِقِ المدينةُ الفاسِدة كلُّها!" وأطلقَ ضِحكةً خَشِنة ثُمَّ رفَعَ كأسَه على سبيلِ التَّحيَّة. لم يهمَّه إذا أثارَ استياءَ أحَدٍ من الحاضِرين أو جرَحَه. فقد كانوا رومانيِّين، رُغمَ كلِّ شيء. "تروقُني متعةُ المُشاهَدة".

وإذِ اشمأزَّت رِصفة من افتِقاره إلى الشَّفَقة، قالت: "إذًا، كيف تختلِفُ في أيِّ شيء؟" فاحمرَّت عيناه. "أنا مُختلِف".

"لقد عانَيتَ. ألا يمكنك أن تشعُرَ بأيَّة شفَقة على الذين يُعانون الآن؟"

"لِمَ ينبغي لي ذلك؟ إنَّهم ينالون ما يستحقُّون". وتجرَّعَ الكأس ثُمَّ نظَرَ حواليه إلى الآخرين، مُستَدرِجًا تحدِّيَه من قِبَلِ أيِّ واحدٍ منهم.

فقال روفُس: "اليهود يتَّفِقون معك، أتريتِس. إنَّهم يعتقدون أنَّ الله لعَنَ تيطُس بسبب ما فعَلَه بمدينة القُدس. فأوَّلًا، انفجَرَ بُركان ڤيزوف وقتَلَ الآلاف، والآنَ شبَّ هذا الحريق".

وقال أتريتِس: "أُحِبُّ إلهَكُم أكثرَ فأكثر". ثُمَّ نزَعَ ساقًا من طائر التَّدرُج المطبوخ.

فنظرَت إليه رِصفة في إنكارٍ مُفعَم بالحُزن.

وملأ ثيوفيلُس الصَّمت المُربَك. "لعلَّ هذا يُوفِّر لنا الفُرصة التي نحتاجُ إليها لمُغادرة لاسيُوم".

وصَلَ عِدَّةُ أشخاصٍ آخرين، مُعظَمُهم من القَوم الفُقراء الذين عاشوا خارِجَ أبواب المدينة. وكان بعضُهم يشتغلون في خِدمات النَّقل على الطريق الأپِّيانيِّ، فيما اشتغَلَ آخَرون في الأسواق التي قدَّمَت الطَّعام إلى مئات المُسافرين الآتين إلى روما يوميًّا. وشرَعَ أحَدُهم يُرنِّم، فبدأ حَشدُ النَّاس يحتلُّون مقاعِدَهم للاستماع إلى تِلاوةِ رِسالةِ بولس الرَّسول إلى مؤمِني روما.

ورُغمَ عِدَّةِ دَعَواتٍ حارَّة للانضمام إليهم، أخَذَ أتريتِس إبريقَ نَبيذٍ وكأسًا وانزوى في أقصى أركان الغُرفة. وقد فاجأه بعضَ الشيء أن يرى أنَّ ثيوفيلُس لم يكُن هو مَن أمَّ العِبادة، بل كان هو العبدَ الذي قدَّمَ النبيذ. وقد كانَ رجُلًا أصغرَ سِنًّا، بَسيطَ المنظر، يفتقِرُ إلى بنية الجُنديِّ القويَّة، رقيقَ الصَّوتِ، لكنَّ صوته قويٌّ نوعًا ما.

"«لذلك أنت بِلا عُذر أيُّها الإنسان، كلُّ مَن يدين: لأنَّك في ما تدين غيرك، تحكم على نفسك؛ لأنَّك أنت الذي تدين تفعل تلك الأُمورَ بعينها. ونحنُ نعلم أنَّ دينونة الله هي حسَبُ الحقِّ على الذين يفعلون مثل هذه. أفتظنُّ هذا، أيُّها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه، وأنتَ تفعلُها، أنَّك تنجو من دينونة الله؟»"

أحسَّ أتريتِس رِعدةَ خَوفٍ تجري في أوصاله حِيالَ الكَلِمات المقروءة. فكأنَّ مَن كتَبَها، كائنًا مَن كان، قد نظَرَ داخِلَ قلبهِ بالذَّات. وقد جرَت الكَلِماتُ معًا، ثُمَّ ما لبِثَ أنِ انفجَرَ شيءٌ ما على ذِهنه، ساكبًا جمرًا مُشتعِلًا على هامَتِه.

"«ليس عِندَ الله مُحاباةٌ...سيَدينُ الله سرائرَ الناس...»"

باتَ إبريقُ الخمر فارغًا، فاشتهى أتريتِس المزيد، راغبًا في إغراق الخوف القارِضِ الذي ينهشُه.

"...«حنجرتُهم قبرٌ مفتوح...»"

لقد كُتِبَت الرِّسالة إلى الرُّومانيِّين! فلِماذا إذًا جرَحَته وتركَته نازفًا؟ وضغَطَ بكَفَّيه على أُذُنَيه حتَّى لا يسمَعَ صوتَ الرَّجُل.

رأى ثيوفيلُس ذلك، ورفَعَ التشكُّراتِ إلى الله. **إنَّه يسمَعُك، أيُّها الآب. اغرِسْ كلمتك في قلبه وأطلِعْ واحِدًا جديدًا من أولاد الله.**

وبكَت رِصفة بصَمتٍ بجانبِ الرُّومانيِّ، دونَ أن يُلاحِظها أحد، لا بسبب الرَّجاء لأجل أتريتِس، بل يأسًا من خطيئتها هي.

أمَا دانَت أتريتِس لمَّا وقفَ يَدينُ الآخرين؟ لقد سألَته كيف كان مُختلِفًا. ألَم تكُن هي مُماثِلةً له؟

أبَتاه، أُريدُ أن أكونَ مِثلك، وهذا ما أنا عليه! اغفِر لي. رجاءً، أبَّا، اغفِر لي. طهِّرْ قلبي الشِّرِّير واجعلني أداةَ محبَّةٍ وسلام في يَدِك.

لَمَّا مضى الجميع وخيَّمَ اللَّيل، استلقى أتريتِس على حَشِيَّتِه قلِقًا، وما زالَت الكلِماتُ التي سمِعَها تُقِضُّ مضجعه. لقد حاولَ الناس أن يقتلوه بسَيفٍ ورُمح. وقد قُيِّدَ وضُرِبَ وكُوِيَ وهُدِّد بالخِصاء. وفي أثناء ذلك كلِّه، لم يَمَسَّه الخوفُ كما مَسَّه لدى تِلاوةِ رِسالةٍ واحدة من رجُلٍ لم يعرِفه.

لماذا؟ أيُّ قُوَّة كانت لهذا الدَّرْج حتَّى يُعذِّبَ فِكرَه بثِقَلِ ما ينتظِرُه؟ الموت. ولماذا ينبغي له أن يخاف الآنَ فيما لم يخَف قطُّ من قبل؟ جميعُ الناس يموتون.

"«...دُفِنَّا معه بالمعموديَّة للموت...»"

لقد كان هدفُه أن يبقى على قيد الحياة. والآنَ تردَّدَ صدًى مُدَوٍّ: عِشْ، قُم وعِش! قُم من أيِّ شيء؟

ولَمَّا نامَ أخيرًا، رجَعَ الحُلمُ القديم، ذلك الحُلمُ الذي عذَّبَه في كُهوفِ التِّلال خارِجَ أفسُس.

كان يمشي وسطَ ظلامٍ حالِكٍ جدًّا بحيثُ استطاعَ أن يُحِسَّه ضاغِطًا على جسمه. وكلُّ ما استطاعَ أن يراه كان يدَيه. وقد ظلَّ يمشي، غيرَ شاعِرٍ بأيِّ شيء. ثُمَّ رأى الأرطميسيون. فجذبَهُ جمالُه، ولكنْ لَمَّا اقتربَ إليه أكثرَ رأى المَنحوتاتِ حيَّةً تتلوَّى وتتفكَّكُ مِن على المبنى الرُّخاميّ. وقد حدَّقت إلَيه الوجوهُ الحجَريَّةُ من عَلُ حالَما دخَلَ الفِناءَ الداخليَّ. ولَمَّا وصل إلى الوسَط، رأى الإلاهةَ الغريبة. وبدأتِ الجُدرانُ حَوالَيها تنهار. فركَضَ كي ينجوَ والكُتَلُ الحجَريَّة الكبيرة تسقُطُ وتُحطئُه عن قُرب. كان الهَيكلُ ينهارُ حَوالَيه في النَّار والتُّراب. وقدِ استطاعَ أن يُحِسَّ الحرارة ويسمعَ صُراخَ الذينَ في الدَّاخل. فهَمَّ بأن يصرُخَ هو أيضًا، ولكنْ لم يكُن له هواءٌ إذ ركَضَ بين الأعمِدة الضَّخمة. وفيما الهَيكلُ يسقط، هَوى عن قدَمَيه أرضًا. واهتزَّتِ الأرض.

عاد كلُّ شيءٍ أسوَدَ من جديد، بَرْدًا خاليًا من النُّور واللَّون والصَّوت. فقام ومشى مُتعثِّرًا، يَطرُقُ قلبُه أسرَعَ فأسرعَ فيما هو يبحث عن شيءٍ تعذَّرَ عليه أن يُطلِقَ عليه اسمًا.

كان أمامه نحَّات. وقِطعَةُ الحجَر التي اشتغَلَ بها كانت بهَيئةِ إنسان. وإذِ اقترَبَ إليها أكثَرَ، رأى الهيئةَ تتَّخِذُ شكلًا. وقد كان ذلك تَمثيلًا له، كتلك التي باعَها الباعةُ خارِجَ ساحةِ المُحارِبين. واستطاعَ أن يسمع هديرَ الرَّعاعِ كوحشٍ جائع يستولي عليه، إلَّا أنَّه لم يستطِع أن يتحرَّك.

ثُمَّ رفَعَ النحَّاتُ المِطرَقة إلى الوراء.

فأنَّ أتريتِس قائلًا "لا"، عالِمًا ما نوى الرَّجُلُ أن يفعله. وصاح: "لا!" أراد أن يندفعَ إليه ويوقِفَه، غيرَ أنَّ قوَّةً ما أبقَته حيثُ كان إذ أهوى النحَّاتُ بالمِطرَقة بضَربةٍ شديدة وحطَّمَ التِّمثالَ الحجَريَّ.

سقَطَ أتريتِس أرضًا. وبقيَ هناك وقتًا طويلًا في الظُّلمة، حتَّى إذا قام أخيرًا لم يستطِع أن يُحرِّكَ ساقَيه. لقد أحاط به ضَغطٌ بارد، وأحسَّ أنَّه يغرق.

كانَت حَوالَيه غابَةُ مَوطِنه. وكان واقفًا في المُستنقَع، يُحيطُ به بَنو قومِهِ مُتفرِّجين، لكنْ غيرَ فاعِلين أيَّ شيء ليُساعِدوه. وقد رأى أباه وزوجته وأصدقاءه- وكلُّهم ماتوا منذُ زمَنٍ بعيد- يُحدِّقون إليه بعُيونٍ خاوية. وإذ أحسَّ الثِّقلَ يشدُّ برِجلَيه، قال: "ساعِدوني". وابتلعَهُ ضَغطُ المُستنقَعِ البارِدُ حتَّى صَدرِه.

"ساعِدوني!"

ثُمَّ ظهَرَ رجُلٌ أمامه. "امسكْ يدي، أتريتِس!"

فعبَّسَ أتريتِس، غيرَ قادِرٍ أن يرى وجهَ الرَّجُل بوضوح. وكان يرتدي ثِيابًا بيضاء، ولا يُشبِهُ أيَّ رجُل رآه يومًا مِن قبل. فقال: "لا أستطيع الوصولَ إليك"، خائفًا أن يُحاول.

"امسكْ يدي فأُقيمَكَ منَ الهُوَّة". ثُمَّ باتَ قريبًا، قريبًا جدًّا بحيثُ أحسَّ أتريتِس نفَسَهُ الدافئَ وهو مادٌّ إليه ذِراعَيه.

كانَتِ الكفَّان تنزفان دمًا.

استيقظَ أتريتِس فجأةً، مُتنفِّسًا بصعوبة. لقد لَمَسَه شخصٌ ما، فأطلق صرخةً خشِنة وجلَس.

وقالت رِصفة بصوتٍ مكتوم: "اشْش. لا بأس، أتريتِس. لقد كُنتَ ترى كابوسًا آخَر".

قرَعَ قلبُه كطَبل، وتدفَّقَ العرَقُ من جِسمه. فهزَّ رأسَهُ مُرتعِدًا، وكأنَّهُ ابتغى أن يطرُدَ شعورَ الحُلم.

نزعَت رِصفة البطَّانيَّة عن كتِفَيها وأسدلَتها حولَه: "أكُنتَ تحلُمُ بساحةِ المُحارِبين؟"

"لا". أحسَّ سُكونَ الرِّواق السرِّيِّ حوالَيه. وقد خفَقَ لِسانُ لهيبٍ صغيرٌ من سِراجٍ فخَّاريٍّ في أنحاء الغُرفة. ولم يكُن ثيوفيلُس على حَشِيَّته. فتذكَّرَ أنَّ الرُّومانيَّ غادَرَ معَ السَّيِّدة ألفينا وروفُس حالَما انفَضَّ الاجتماع.

لاحظَت رِصفة نظرته. "لم يرجِع ثيوفيلُس بعد. أرادَ أن يرى بنفسه ما هو جارٍ في

المدينة. قال لي إنَّه سيرجعُ قبلَ الفجر".

"أُريدُ أن أخرُجَ من هذا المكان".

فقالت برِقَّه: "هكذا أُريدُ أنا أيضًا".

"أنتِ لا تفهمين. عليَّ أن أخرُج".

أزاحَت شعرَه عن وجههِ إلى الوراء. "سيكونُ كلُّ شيء بخَير". وفرَكَت ظهرَه. "حاوِل أن تُفكِّر في أيِّ شيءٍ آخَر. أنتَ تحتاج لأنْ تنام".

لقد تكلَّمَت إليه كوَلَد! ولمَسَته كوَلَد! ولمَّا طوَّقَت ذِراعُه خصرَها، شهقَت. "ماذا تفعل؟"

"تُريدين أن تُعزِّيني؟ عزِّيني كرَجُل!" وأمسك بذقنها فقبَّلَها غاضِبًا، آسِرًا إيَّاها رُغمَ مُكافَحاتها.

ولمَّا أفلتها أخيرًا، أطلقَت نشيجًا رقيقًا لاهِثًا. "ماذا أنا عندك، أتريتِس؟ وَجهٌ آخَر في الرَّعاعِ الصَّارخين؟ ما كنتُ هُناك! أُقسِمُ لك أمام الرَّبِّ، ما كنتُ هُناك قطُّ!" وتهدَّجَ صوتُها. وإذ أشاحَت وجهها، شرَعَت تبكي.

اجتاحَهُ الخِزيُ، فانكفأ. وإذ دفَعته مذعورةً، جلسَت وحاولَت أن تنصرِف. فأمسَكَ بذراعها. واستطاع أن يرى وجهَها في ضوء السِّراج الباهِت، فلعَنَ نفسَه لكونهِ أحمَقَ فظًّا.

وقال برِقَّة: "مهلا".

"أفلِتني". وكانت ترتجِفُ بشِدَّة.

"ليس الآن". ومسَّ شعرها، فانتخَعَت مُبتعِدةً عنه. حاولَت أن تُفلِتَ من قبضته، ولمَّا لم تستطِعْ أشاحَت وجهَها وبكت. فمزَّقَ نشيجُها قلبَه. وقال بصَوتٍ أجشَّ: "لا تفعلي!"

"أنا أُحِبُّك. ليُساعِدْني الله، أنا أُحِبُّك، وأنتَ تفعَلُ هذا بي!"

ملأتْه كلِماتُها المُفاجئة بشُعورٍ من الفَرَح والنَّدَم. فجَثَا على رُكبتَيه وراءها، وشدَّها مُجدَّدًا بينَ ذِراعَيه، حابِسًا إيَّاها هُناك إذ أحسَّ جِسمَها يتصلَّبُ مُقاوِمًا.

"لن أُوذيَكِ. أُقسِمُ بسَيفي". وأسنَدَ رأسَه إلى مُنحَنى كتِفها.

"فلأضُمَّكِ". فارتجَفَ جِسمُها بالبُكاء. ولم تكَد تُصدِرُ أيَّ صوت، الأمرُ الذي ما زاد الحالَ إلَّا سوءًا. إنَّها لم تثِق به الآن، ولماذا ينبغي لها أن تثق؟

كان قد قال: "أنا مُختلِف". ولكنْ كم كان مُختلِفًا لمَّا صَبَّ غضَبَه عليها؟ ولماذا؟ ألأنَّها لَمَسته بالرِّقةِ التي أبدَتها لابنه، لا بالهوى الذي تاقَ إليه؟

وفي مُحاوَلةٍ للعُثور على تفسيرٍ لِمَحوِ ما يتعذَّرُ اغتِفارُه، قالَ وفَمُه يمسُّ شعرَها: "لمَّا عاملتِني كوَلَد، التهبتُ غضبًا". وأطبقَ عينَيه بإحكام. "كنتُ مجنونًا. كنتُ أفكِّر..."

فتوسَّلَت دامِعةً: "أنتَ مجنون دائمًا. إنَّك لا تُفكِّر أبدًا. أفلِتني".

"ليسَ قبلَ أن أجعلَكِ تفهمين..."

"أفهمُ ماذا؟ أنِّي لاشيء عندك؟ أنَّك لا تراني مُختلِفةً بتاتًا عنِ النِّساء اللواتي جيءَ بهنَّ إليك في اللُّودُس؟" وكافحَت من جديد، لاهِثةً بنَشجاتٍ مُقتطَّعة رقيقة لمَّا أرخى قبضته عنها قليلًا.

وقال بخشونة: "بدأتِ تعنينَ لي الكثيرَ الكثيرَ". فأحسَّها تهدأ بين ذراعَيه. "لقد أحببتُ ثلاثَ نِساءٍ في حياتي: أُمِّي، وزوجتي آنيا، وجوليا ڤاليريان. والثَّلاثُ كلُّهنَّ رَحَلن. زوجتي ماتت في أثناء المَخاض وأخذَت طفلي معها. أُمِّي قتلَها الرُّومان. وجوليا ڤاليريان..." وأغمض عينَيه بإحكام. "لا أنوي أن أُحِسَّ ذلك النَّوعَ من الألَم مُجدَّدًا". ثُمَّ أفلَتها.

فالتفتَت ونظرَت إليه، وعيناها الداكنتان المُفعَمتان بالعاطفة مُغرَورِقتان. "وهكذا ستُغلِقُ قلبَكَ دونَ أيِّ شيءٍ جيِّد".

"لن أُحِبَّ على ذلك النَّحو مُجدَّدًا".

لم تُخبِره عن خسائرها الخاصَّة: العائلة والزَّوج والوَلَد. فما نَفعُ ذلك؟ "كُنتَ تؤثِرُ أن أسلِّمَكَ نفسي كبَغيٍّ، أمَا كُنتَ؟ كُنتَ تؤثِرُ الزَّغَلَ على الذَّهب؟"

"لم أقُل ذلك".

"لستَ مُضطرًّا إلى قَوله. أنت تُريني إيَّاه كُلَّما نظرتَ إليَّ، كُلَّما لمستَني!" وامتزَجَ الحُزنُ والغضَب في وجهها الشاحب. "أنت تَدينُني من أجل أفعالِها هي، وتأخُذُ بثأرك".

"كان ينبغي لي أن أفهم أنَّكِ ما كُنتِ لتفهمي. كيف يمكن أن تفهمَ امرأةٌ رجُلًا؟"

"أفهمُ أنَّك ترفضُ أن تدَعَ نفسَك تحبُّ ابنَك تمامًا لأنَّه قد يموت أو يؤسَر، أو يكبر ويُخيِّبُ أملك على غِرار ما فعلَت أُمُّه. هل من رجُلٍ يُضمِرُ غباوةً كهذه؟"

انتفَضَت عَضَلةٌ في وجهه، وقد ضاقَت عيناه غضبًا. "خُذي حِذرَكِ!"

"مِمَّ؟ مِن سُخطِك؟ لقد فعلتَ بي أسوأ ما لديكَ أصلًا. أنتَ شُجاعٌ وفي يدِكَ سيفٌ

أو رُمح، أتريتِس. فليس لك نِدٌّ في ساحة المُحاربين. ولكنْ في أُمور الحياة التي تهمُّ حقًّا أنتَ جَبان!‘‘

ثُمَّ قامَت مُسرِعةً ورجَعَت إلى طرَفِ الغُرفة الآخَر. وإذِ انطرحَت على حَشِيَّتِها بقُربِ سلٍّ كالِب، التفَّت على جَنبها، وغطَّت جِسمَها ورأسَها بالبَطَّانيَّة.

واستلقى أتريتِس من جديدٍ على فِراشه، إلَّا أنَّه لم يستطِع أن ينام من أجلِ صَوتِ بُكائها الخافِت.

٢٢

لَمَّا رجَعَ ثيوفيلُس، استلقى أتريتِس في الضَّوء القاتم يُراقِبُه. عبَرَ الرُّومانيُّ الغُرفة بهدوء ووقفَ فوق رِصفة. كان كالِب قد استيقظ، وهي قد أرضعَته. ولَمَّا فرِغَت، أبقَته معها. فانحنى ثيوفيلُس وسوَّى البطَّانيَّة مُجدَّدًا بحيثُ تُغطِّيها.

وقفَ أتريتِس على مهل، وحرارةٌ مُزعِجةٌ تُطبِقُ في صدره إذ شاهَدَ الإشارةَ اللَّطيفة. فنظَرَ ثيوفيلُس صَوبَه واستقام، ولم تبدُ عليه المُفاجأة لرؤيته مُستيقِظًا. وقد ابتسمَ بيُسر إذ مشى نحوَه، ثمَّ قتَمَت ابتِسامتُه لَمَّا رأى سيماءه. "ما خَطبُك؟"

"مَتى يُمكِنُني أن أخرُجَ من هُنا؟"

فقال ثيوفيلُس بصوتٍ مكتوم: "نحنُ مُغادِرونَ اليوم. المدينة في اضطرابٍ وفوضى. لقدِ استُدعيَ الجنود لمُكافحة النار وضَبطِ الذُّعر. سيكونُ سهلًا أن نصيرَ جُزءًا من جُمهور المُقيمين المُغادِرين المدينةَ الآنَ".

نسِيَ أتريتِس غضَبَه. "ماذا عنِ الأحصِنة؟"

"سنشتريها في مكانٍ أبعَدَ شمالًا. ستُكلِّفُنا أقلَّ. فضلًا عن أنَّه إذا كُنَّا في عَجَلةٍ فائقة، فقد نجذِبُ انتِباهَ الجُنودِ الذين يخفِرون الطَّريق".

"سنحتاجُ إلى مؤونة".

"لقد رتَّبَ روفُس الأمرَ فعلًا. سنحمِلُ من المؤونة ما يكفينا أُسبوعًا، ونبقى على الطُّرق الرئيسيّة، حيثُ تضعُفُ تمامًا أرجحيَّةُ بَحثِ جُنودِ دوميتيان عنك".

"وما شأنُ دوميتيان؟"

"لقد سُكِّنَ غضَبُه حاليًّا".

وقد أنذَرَ شيءٌ ما في لهجتِه أتريتِس بأنَّ كلَّ شيء لم يكُن على ما يُرام.

"ماذا تبيَّنَ لك ممَّا لم تخبرْني به، يا رومانيُّ؟"

نظَرَ إليه ثيوفيلُس مُتجهِّمًا. "يَغناكْس مات".

"مات؟ كيف؟"

"أُرسِلَ إلى ساحة المُحاربين بتُهمةِ استضافة عدوٍّ للإمبراطور".

فلعَنَ أتريتِس همسًا وزاحَ مُبتعِدًا. وفرَكَ قفا رقَبَتِه. ''حسنًا، نالَ يَغناكْس ما أراده، فُرصةً لمزيدٍ من أيّام المجد''.

''لا أعتقدُ ذلك''.

فالتفتَ أتريتِس ونظَرَ إليه.

''لقد قدَّمه دوميتيان طعامًا لزُمرةِ كِلابٍ بَرِّيَّة''.

فقال مُشمئزًّا: ''كِلاب؟'' لم يكُن من خِزيٍ أسوأَ من أن يُقدَّم رجُلٌ طعامًا لحيواناتٍ برِّيَّة. لقد كان ذلك موتَ إذلال. ثُمَّ نظَرَ إلى ثيوفيلُس وعبَس. ''يوجَدُ مَزيدٌ، أليس كذلك؟''

''أمَرَ دوميتيان باستِجواب اللانيستا في المدرسة الكُبرى''.

فقال أتريتِس ببُطء: ''باطُو''. وقد غاصَ قلبه.

''سجَنَه دوميتيان وعذَّبَه. ولمَّا لم ينفعه ذلك بالمعلومات التي التمسَها، أنزَلَ اللانيستا ضِدَّ أفريقيٍّ آخر. فجرَحَه باطُو، وأصدَرَ الجُمهورُ إشارةَ پوليس قِرسو. إلَّا أنَّ صديقك حوَّلَ الخَنجرَ نحوَ نفسه، بدلًا من طَعنِ خَصمِه''.

استولَى على أتريتِس ثِقلٌ ضاغِط. وغاصَت روحُه في يأسٍ أسود. ثُمَّ أشاحَ وجهَهُ آنًا، غيرَ مُريدٍ للرُّومانيِّ أن يرى مشاعِرَه. مَوتانِ آخَران يُمكِنُ أن يُقيَّدا في حسابه!

علِمَ ثيوفيلُس أنَّ أتريتِس صُعِق. فوضَعَ يدَه على كتِف أتريتِس وقال بهدوء: ''سوف يُجاوِبُ دوميتيانُ من أجلِ ما فعلَه''.

فنفَضَ أتريتِس عنه يدَ ثيوفيلُس. وتلألأت عيناه الزرقاوان الباهِتتان إذ قال ساخِرًا: ''يُجاوِب مَن؟ أخاهُ الإمبراطور؟ أم روما التي تتلهَّف إلى الضَّحايا البشريَّة لمَذابحِ تسلِيَتِها؟''

فقالت رِصفة: ''بلِ الله!'' وقد كانت واقفةً في الناحية الأُخرى من الرِّواق السرِّيِّ ذي الأعمِدَة، وكالِبُ على ذِراعَيها.

وقالَ ثيوفيلُس: ''عُذرًا، رِصفة! لم أُرِد أن أُوقِظَكِ''.

فرفعَت رِصفة نظَرَها إلى الفُتحاتِ في قُبَّةِ السَّقف، قائلةً: ''سيطلُعُ الفجرُ قريبًا. سأُجهِّزُ نفسي وكالِب''.

نقَّلَ ثيوفيلُس نظَرَه بينها وبين أتريتِس، وقد أحسَّ التَّوتُّرَ بينَهُما.

''إلامَ تنظُر؟''

فرمَقَه ثيوفيلُس بنظرة رزينة، وقال: "اجمَعْ مهما نوَيتَ أن تأخُذَه. نحنُ مُغادِرون في غضون ساعة". ثُمَّ مضى ليفعَلَ هُوَ مِثلَ ذلك.

لدى طُلوعِ الشَّمس، انخرَطَ في حَشدِ مُغادِري روما ثيوفيلُس وأتريتِس ورِصفة، وكالِبُ مَصرورٌ ومربوطٌ على ظهرِها. كان الجَوُّ رماديًّا من الدُّخان، وفاحَ الهواءُ ثقيلًا برائحة السُّخام والرَّماد. وقد مَشَوا إلى جانب الطَّريق بين المُقيمين الفلَّاحين، في حينَ استحوَذَ على الطريقِ المُواطِنونُ الأغنى في عرَباتهم، مُسرِعينَ إلى مأمَنِ عَقاراتهم الرِّيفيَّة.

نقَّلَت رِصفة ثِقْلَ كالِب. فمع أنَّها حمَلَته بيُسر عند الفجر، بدا أنَّ كلَّ مَعلَم مرُّوا به أضافَ أرطالًا إلى حجمه الضئيل. ولمَّا بدأ يتلوَّى ويبكي من الاحتِباس الطويل، حلَّتِ الشَّالَ ونزعَته، وأركبَتِ الصَّبيَّ على وَركِها بسهولةٍ أكثر. وبعدَ مِيلٍ آخَر، باتَ شكِسًا، وباتَت هي مُنهَكةً.

لاحظَ ثيوفيلُس إعياءها. "سنستريحُ بقُربِ جدوَلِ الماء".

لم يقُل أتريتِس شيئًا، مُحافِظًا على المسافة التي اعتمدها عندَ الفَجرِ بينَه وبينَهُم. ورمَقَهُ ثيوفيلُس إذ حطَّ حُزمتَه. مهما جرى بينه وبين رِصفة البارحة، فما زالَ ثقيلَ الوطأةِ على ذهنه كما على ذهنها. وقد دأبا في ألَّا ينظُرا أحَدُهما إلى الآخر.

أجفلَت رِصفة حالَما حطَّت كالِب أرضًا، وقد جلسَت إلى جانبه بقُربِ جَدوَلِ الماء. وبزَعقةِ ابتِهاج، شرَعَ الطِّفل يحبو توًّا نحو المياه المُبَقبِقة. فقالَت مُنهَكةً ومُغضَبةً: "آهِ كالِب!" اشتاقَت لأنْ تقعُدَ وتنقعَ قدَمَيها المُوجَعتَين في المياه الباردة، ولكنَّها علِمَت أنَّ كالِب ما كان مُمكِنًا أن يُحجَزَ بَعد.

قال أتريتِس بلهجةِ إحباطٍ مُساوِيَة: "اقعُدي واستريحي". فلَم تُلقِ إليه بالًا، وقامت. وإذ تمتمَ أتريتِس بشَيءٍ في الجِرمانيَّة، حطَّ يدًا قاسية على كتِفها ودفعَها نُزولًا من جديد. "قلتُ اقعُدي!" ثُمَّ شالَ كالِب عن العُشب ومشى هابطًا الضفَّة بخُطًى واسعة، والطِّفل مُدَلًّى تحتَ إبطه ككيسِ طَحين.

قامَت رِصفة مُتورِّدةَ الوجه، وقد دحَرَ الانزعاجُ والخوفُ إعياءها آنيًّا. "لا تحمِلْه هكذا، أتريتِس. إنَّه ولَد، لا كِيسُ دقيق".

كبَتَ ثيوفيلُس ابتِسامةً إذ شاهَدَ رِجلَي كالِب تَتدلدَلان. "دعيهِ يمضِ. لَن يحلَّ بكالِب مكروهٌ على ذِراعَي والِدِه".

حملَقَت وراء أتريتِس، مُدافِعةً الدُّموع. وقالَت بانقِباضِ صَدرٍ: "ليتَني أُشارِكُك في ثقتك". ثمَّ عضَّت شفَتَها وأشاحَت بِناظِرَيها.

اتَّكأ ثيوفيلُس على حُزمَتِه. "امضي قُدُمًا وابكي من أجله، رِصفة. سيُؤتيكِ ذلكَ بعضَ الراحة".

"لَن أبكيَ من أجله. سأبكي من أجل نفسي". وابتلعَتِ الغُصَّةَ المؤلِمة في حَنجَرتها. "إنَّه الرَّجُلُ الأشدُّ إحباطًا وعِنادًا وهو عديم الإحساس..." وإذ صارعَت عواطِفَها المُضطرِبة، قعدَت وطأطأت رأسَها لتُخفيَ وجهها عن تفحُّصِ ثيوفيلُس لها.

"ماذا جرى البارحةَ؟"

فتورَّدَ وجهُها بِجَلاء. وقالت باكتئاب: "لا شيءَ مِمَّا كان ينبغي أن يُفاجئَني".

تُرِكَ ثيوفيلُس ليتساءل. كانت له أفكارُه، ولكنَّه أمَلَ أن تكونَ غير صحيحة. وكان قد رأى كيف نظَرَ أتريتِس إليها. فابتسمَ لنفسه. لو كان أصغَرَ بِسنينَ قليلة، أو لو كانت هي أكبَرَ بسنينَ قليلة، لَما كان لأتريتِس راحةُ بالٍ في ما يتعلَّقُ به. "إنَّه قاسي الحواشي قليلًا، ولكنْ أعطيهِ وقتًا". وتلقَّى نظرةً حامية فاجأته وأعطَته تلميحًا إلى ما جرى. فكان سُخطُه سريعًا. "هل تخطَّى الحدَّ؟..."

وقالت بسُرعة: "لا!" ثُمَّ أشاحَت وجهَها مُرتبِكةً. "لقد غيَّرَ فِكرَه".

ففكَّر ثيوفيلُس: ذلكَ شيءٌ ما. إنَّ لَباقةَ الرَّجُل يمكن أن تتبدَّدَ بعدَ سنتَين في اللُّودُس. وأتريتِس قضى فوقَ عَشرِ سنين في تلك الأمكنة.

وإذ شعَرَ ثيوفيلُس باضطِراره إلى شَرحِ حالة الهَمَجيِّ، قال: "لقد قُيِّدَ بالسَّلاسِل، وضُرِبَ وكُوِيَ، وعُومِلَ كحَيوانٍ مسلوب، يا رِصفة. لن يصير مُتَمدِّنًا بينَ عَشيَّةٍ وضُحاها".

"أنا ما عمِلتُ به أيَّ شيءٍ من ذلك كلِّه".

"لا، ولكنَّكِ خطَرٌ عليه أكثرَ من أيِّ شيءٍ واجهَه حتَّى الآن. إنَّ عواطِفَه مُضطرِمة".

"أنا ما نفختُ عليها".

"قُربُكِ منه كافٍ لإضرامها، أم لم تُلاحظي؟"

فقالَت- وعيناها الداكِنتان تتلألآن- "العاطفة الوحيدة التي يمتلكها أتريتِس بأيَّةِ كمِّيَّة ونوعيَّة عظيمتَين هي الغضب!"

"إنَّه مُضطرٌّ إلى شَحذِه ليَبقى حيًّا. فهل يَسَعُكِ أن تلوميه؟"

وإذ آذاها أن يعمِدَ ثيوفيلُس، دونَ سائر الناس، إلى الدِّفاع عن أتريتِس، قالَت: "يَسَعُني أن ألومَه على ما يفعلُه بي".

"وإلى أيِّ مدًى سيُوصِلُكِ ذلك نحوَ ما تُريدينه؟" ورأى أنَّ سؤالَه سبَّبَ لها انزعاجًا. فيبدو أنَّ عواطف أتريتِس لم تكُن وحدَها المُضطرِمة. "ألستِ مُختبئةً وراء غضَبكِ الشَّخصيِّ الآنَ لأنَّ أتريتِس آذاكِ؟ أحِبِّيه مِثلَما دُعيتِ لأنْ تُحِبِّيه. وإن لم يسَعْكِ ذلك، فأنَّى له- بِاسْمِ الله- أن يعرِفَ الفرقَ بينَ ما كان له وما نُقدِّمه أنتِ وأنا؟"

ماذا كانت تُقدِّم؟ "ليس الأمرُ بتلك السُّهولة".

فابتسَمَ بِرِقَّة: "أهُو سَهلٌ أساسًا؟"

قالت بِوَهن: "لستَ تفهم". ثُمَّ نظَرَت من عَلُ إلى يدَيها المشبوكتَين. كيفَ يستطيعُ ذلك فيما حتَّى هي لم تفهَم نفسَها تمامًا؟

فضحِكَ ضِحكةً رقيقة: "أنا مُتيقِّنٌ تمامًا بأنَّه قالَ لكِ الشَّيءَ نفسَه البارِحة". وأتْكأ ظهرَه على أمتِعَته. ثُمَّ كرَّرَ كلماتِها بعَينها بعدما أراح نفسَه: "الأشدُّ إحباطًا وعِنادًا وعدم إحساس..." وتثاءبَ فاغِرًا فمه، ثُمَّ أغمضَ عينَيه. "أنتُما الاثنَين ثُنائيٌّ مُتوافِق".

جُرِحَت كِبرياؤها، وقعدَت صامتةً. وفيما نامَ ثيوفيلُس نومةً خفيفة تحتَ ضوءِ الشَّمس، فكَّرَت تفكيرًا عميقًا، مُصلِّيةً أن يُنقِّيَها الرَّبُّ من مشاعِرِها الرَّديئة ويُجدِّدَ في داخلها روحَ الاستِقامة.

ولكي لا تُوقِظَ ثيوفيلُس، قالت همسًا: "أيُّها الآب، أبقِ ذِهني مُثبَّتًا عليك. إنَّ أتريتِس عنيدٌ، غيرُ حسَّاس، وحشيٌّ، صعبُ المِراس".

اغفِروا كما غُفِرَ لكُم!

"يا ربّ، ما كنتُ أستحِقُّ مُعاملةً كهذه. قصدتُ أن أُعَزِّيَه، لا أن أُغوِيَه. وهو فكَّرَ أن يستعمِلَني كبَغيٍّ".

اغفِروا...

"أبتاه، أزِلِ انجِذابي إليه. أُصلِّي طالبةً أن تُبدِّدَ مشاعِري في ما يتعلَّق به. إنَّها مُلهيةٌ ومُزعجة، وصعبٌ عليَّ تمامًا أن أسلُكَ هذا السبيل دونَ أن أشعُرَ بأنِّي مُنجَذِبةٌ بجَسَدي الضَّعيف. لا أُريدُ أن أذهبَ إلى جرمانيا. ألا يمكن أن تُغيِّرَ فِكرَه؟ ربَّما قريةٌ صغيرة في شمال إيطاليا؟ إنَّ جرمانيا نائيةٌ جدًّا، وإذا كان بنو قومِه يُشبِهونَه في أيِّ شيء..."

أريد رحمة لا ذبيحة.

لم تَعنِ لها الآيةُ التي تذكَّرَتها أيَّ شيء في وجه مشاعِرها المُضطرِبة، ولكنَّها علِمَت أنْ مهما افتكرَت أو أحسَّت فقد دعاها الله إلى الطَّاعة. لقد قال الربُّ يسوع: اغفِروا، وينبغي لها أن تغفِر، شاءت أمْ أبَت.

وإذِ استمرَّت مُصَلِّيةً، قامَت وتمشَّت على طول الضفَّة العالية. "لا أُريدُ أن أغفِرَ له، يا ربُّ. إنِّي أحتاجُ إلى قلبك إذا كان ينبغي لي أن أفعل ذلك. لقد وهَنَ قلبي تحتَ حرارةِ غضب أتريتِس وغَضبي. أريد أن أصفعَ وجهه وأصرُخَ عليه. لو كنتُ رجُلًا ولي قوَّتُه..."

يا محبوبة، اهدإي.

توقَّفَت رِصفة مُطأطئةً رأسها، خَجِلةً، وقلبُها موجوع.

"يا ربّ، إذا كانت مشيئتُك لي أن أغفِرَ له، فأرجو أن تُغيِّرَ قلبي، لأنَّه الآنَ أسوَد- أسوَدُ جدًّا بحيثُ لا أستطيعُ أن أرى سبيلَ خُروجي من الحُفرة التي طرحَني أتريتِس فيها البارِحة. ساعِدْني كي أفعلَ مشيئتك. أرِني جانِبًا آخر مِنه".

سمِعَت زعقةَ كالِب، فتوجَّهت عائدةً أدراجَها على طول الضفَّة. ورأتهُما في الأسفل من خِلالِ الأغصان المورِقة. كان أتريتِس قاعدًا على الضفَّة الرَّمليَّة، مادًّا رِجلَيه مُنفرِجتَين، وكالِب جالِسٌ بينَهما مُواجِهًا إيَّاه. تشبَّثَ كالِب بقوَّة بيدَي أتريتِس الكبيرتَين، وسحَبَ نفْسَه صعودًا إلى وضعيَّةِ وقوف، ثُمَّ خطا خطوةً مُضطرِبة نحو والِده. وما لبِثَت ساقاه اللحيمتان أنِ التَوَتا، فقعدَ خابِطًا الأرض. ولمَّا شرَعَ يبكي، شالَهُ أتريتِس وحكَّ رقبَتَه بأنفِه، وقبَّلَه.

ضاقَ صدرُها وذابَ غضَبُها. إنَّ الهمجيَّ الذي انقضَّ عليها البارحة هو نفسه هَزهزَ ابنَه برِقَّةٍ نمَّت عن محبَّته أجلَى من أيِّ إعلانٍ مُنادًى به. ولمَّا هدأ كالِب من جديد، حطَّه أتريتِس على الرَّمل مرَّةً أُخرى، وأجرى يدَه برِفقٍ على الشَّعر الطِّفليِّ الناعم. فَرفرفَ كالِب بذِراعَيه مسرورًا.

راقبَتهما رِصفة من خِلال دموعها. طلبتُ، يا ربّ، فاستجبتَ.

شدَّت عزيمتها وهبطَتِ السَّدَّ. بقِيَت هواجِسُها بشأنِ التَّصرُّف المُحتمَل من قِبَل أتريتِس، إذ كانت البارِحةُ ما تزالُ جُرحًا داميًا أبقاها حَذِرةً. وانحلَّ شلَّالُ حِجارةٍ صغيرٌ تحت قدَمَيها المُصندَلتين. فرأت أتريتِس يتصلَّب ويلتفِت وراءه. وانكمشَت سيماؤه، ثُمَّ رجَعَ إلى كالِب، مُتجاهِلًا إيَّاها. إذ ذاك أطلَقَ الطِّفل زعقةَ ابتِهاج مُرَفرِفًا بذراعَيه. "ماما...ماما...ماما ..."

قعدَت على صخرة، ولفَّت شالَها حولَ كتِفَيها. كان الهواء باردًا، أم كان ذلك إطارَ

ذِهنِها فحسْب؟ وراقبَت ابنها يتشبَّث بأصابعِ أتريتِس ويسحَبُ نفْسَه صعودًا من جديد. ثمَّ أطلقَ زعقةً وترنَّح، وكاد ينقلِب. فأزاحَ أتريتِس رِجلَه، داعِمًا إيَّاه. وانغرزَت أصابعُ كالِب الضئيلةُ في الجِلدِ المُسمَرِّ على عضلاتِ فخذِ أتريتِس.

وإذ تضايقَت رِصفة من جمال أتريتِس الجِسمانيِّ، خفضَت حَملقتَها إلى يدَيها. واستجمعَت شجاعتَها فتكلَّمَت، قبلَما سمحَت لكبريائها بأن تسدَّ طريقها. "مهما أردتَ أن تحمِيَ قلبَك كثيرًا، فقد فاتَ الأوانُ فِعلًا، أليس كذلك، أتريتِس؟" وإذ أحسَّت صمته البارد، نظرَت إليه، مُتسائلةً هل دفعَتِ الشَّوكة أعمَقَ. إلَّا أنَّها لم تقصِد ذلك.

يا ربُّ، أعطِني الكَلِمات. لا الكَلِمات التي تجرح، بل كَلِماتِك التي تشفي.

ثُمَّ قامت واقترَبت أكثر، إنَّما ليسَ قُربًا يحولُ دونَ انكِفائها إذا قرَّرَ أتريتِس أن يتصرَّفَ كالهَمَجيِّ مُجدَّدًا. لم تُرِد أيَّ سُوءِ فهمٍ بشأن الأسباب التي جعلَتها تُقبِلُ إليه.

رمَقَها أتريتِس بنظرةِ نَفادِ صبر، وكأنَّه أحسَّ أفكارها. "إذا جئتِ لتأخُذيه، فخُذيه".

فردَّتِ النَّارَ بسُرعة: "لا يُمكِنُك أن تجعل أيَّ شيءٍ سهلًا، أيُمكِنُك؟" ثمَّ لاذت بالصَّمت، مُصارِعةً داخِلَ نفسِها. وأرادت أن تضرِبَه وتبكيَ عليه في الوقت نفسِه. بأيِّ حقٍّ كان هو غاضبًا عليها؟ لقد كان هو مَن سبَّب الصَّدعَ بينَهُما بسُلوكه المَلُوم.

"إنَّه مُضطرٌّ إلى شَحذِ غضَبِه ليبقى حيًّا..."

ارتعبَت إذ تذكَّرت كلماتِ ثيوفيلُس. لقد أرادت أن تَفهم أتريتِس، أن تجعلَه يرى كم تكون الحياة مُختلِفةً مع الرَّبِّ. ولكنْ كيفَ السبيلُ للوصول إلى رجُلٍ مثلِه، قُيِّدَ وضُرِبَ واستُغِلَّ وتعرَّض للخيانة؟ هل يمكن بلوغُه وهو مُتصلِّبٌ جدًّا ضدَّ المحبَّة؟

اللَّهمَّ، ساعِدني.

"نحنُ جميعًا كالأولاد، أتريتِس. نُريدُ أن نقِفَ ونمشيَ بمجهودنا فحسْب. وعلى غِرار كالِب تمامًا، علينا أن نتشبَّث بشيءٍ ما في محاولتنا أن نسحبَ أنفُسَنا خارِجَ الحمأة". ونظرَت إليه. أكانَ مُصغيًا أصلًا؟ أم همَّه أيُّ شيءٍ تقولُه؟ "أحيانًا نتشبَّث بالأشياء الخاطئة فنسقط أرضًا".

أطلقَت ضِحكةً رقيقةً مُتقطِّعة. وإذا أغمضَت عينَيها، طأطأت رأسها وتنهَّدَت. "لقد كنتُ يائسةً نظيرك. ومِن نواحٍ عِدَّة، ما زلتُ كذلك. فلا أستطيع أن أخطوَ خطوةً واحدة دون أن يُسنِدَني الرَّبُّ. وكلَّ مرَّةٍ أُفلِتُ منه، ولو لحظةً، أقَعُ مُنبطِحةً على وجهي مجدَّدًا. كما كان البارحة".

ثُمَّ رفعَت رأسها وفتحَت عينَيها، فوجدَته مُحدِّقًا إليها. فجفَّ حَلقُها وشرَعَ قلبُها يتسارَعُ بضَراوة. ماذا قالت حتَّى جعلَته ينظر إليها على ذلك النَّحو؟ فيمَ كان يُفكِّر؟ ومع خوفِها من الاحتمالات، اندفعَت إلى الأمام رغمَ حِدَّةِ حَملقتِه الشَّديدة، توَّاقةً إلى الانتِهاء والابتعاد عنه.

"أنا آسِفة لأنِّي قلتُ لك كلِماتٍ جارحةً البارِحة". فضاقت عيناه، وتساءلَت هي إن كان صدَّقها. وقالت ثانيةً من قلبها: "أنا آسفة. ليتَني أستطيعُ أن أعِدَ بأنَّ ذلك لن يحدُثَ مُجدَّدًا. لستُ أستطيع". وخطَرَ في بالها تلقائيًّا مئةُ عُذرٍ عن سبَبِ قولها ذلك، ولكنَّها تخلَّصَت من كلِّ واحِدٍ منها لأجلِ غايةٍ واحدة ثابتة: أن تُصلِحَ الحال وتبنيَ جِسرًا بينها وبين الرَّجُل البارِد الصامت الجالِس أمامها. "رجاءً، أتريتِس، لا تتشبَّثْ بالغضَب. سوف يُدمِّرُك في نهاية المطاف".

ولمَّا لم يقُل شيئًا، شعرَت بالوحشة. "ذلك كلُّ ما أردتُ أن أقوله". وهمَّت بالانصِراف. فوقف أتريتِس.

وإذ أجفلَت رِصفة، حبَسَت نفَسَها وتراجعَت عنه. كان ذلك فِعلًا غريزيًّا، فِعلَ حِفاظٍ على الذَّات، وقد أخبرَه بأوضَحَ ممَّا تستطيعُ أيَّةُ كَلِماتٍ يومًا أينَ موقعُه عِندَها. أفينبغي أن يُفاجأ الآن أو يُجرَحَ من جرَّاء عدَمِ ثِقَتها في أعقابِ تصرُّفِهِ البارِحَة؟

بدأ كالِب يحبو نحوَ الجدَول. فخطا أتريتِس خطوةً واحدة، وشالَ ابنَه تحتَ إبطِه من جديد.

"لا ينبغي أن تحمِلَه بهذه الطريقة".

فتجاهَلَ اهتمامَها الأُموميَّ ونفَذَ إلى المسألة بينَهُما. "لا مُوجِبَ لأن تخافي منِّي. لن أُكرِّرَ ما فعلتُه البارِحة".

"لم أحسَب أنَّك ستفعل".

فقال بجفاف: "ألَم تحسَبي؟" مُلاحِظًا النَّبْضَ خافقًا في حَنجرتها.

"لقد جفَّلتَني. ذلك كلُّ ما في الأمر".

اكتفى بأن نظَرَ إليها، مُريدًا إيَّاها بجُملتها مُجدَّدًا. لمَّا سمِعَها تقترب، توقَّع كَلِماتِ انتِقام، وإهاناتٍ، بل سُخريةً أيضًا. وكان قد استعدَّ لهذه الأشياء، وتأهَّب بأسلحته الخاصَّة. فلو انهالَت عليه باللَّوم، لَسُكِّنَ شعورُه بالذَّنب. غيرَ أنَّها اعتذرَت...فجرَّدَته من سِلاحه. وبحث عن كلِمات، فلم يجِد أيَّ كلامٍ كافيًا.

انتظرَته لحظةً حتَّى يتكلَّم. وإذ تفحَّصَت وجهَه، لانَ وجهُها، وامتلأت عيناها الدَّاكِنتان حنانًا ورِقَّة. "أنا أغفِرُ لك، أتريتِس. لن أتكلَّمَ عن الأمرِ ثانيةً". ثُمَّ دارَت لتبتعِدَ مُجدَّدًا وخطَت صاعِدةً الضفَّة. فرأى الجِلدَ المُتقرِّح حول كاحِلَيها، حيثُ حزَّت سُيورُ صَندَلِها البالي في أثناء ساعات المَشي الطويلة. ولم تكُن قد تذمَّرت مرَّةً. فأراد أن يغسِلَ قدَمَيها ويدهنَهما بالمرهَم المُلطِّف ويُضمِّدَهما. وأراد أن يضمَّها ويُعزِّيَها.

"رِصفة". وقد خرَجَ صوتُه خشِنًا وشديدًا، ليسَ كما قصَد. وانتظرَ حتَّى نظَرَت إليه. فقالَ بصِدقٍ مؤلِم: "لو لم تتكلَّمي كما تكلَّمتِ البارِحةَ، لَمَا سمحتُ لكِ بأن تمضي، وإلى الجحيم بمشاعِرِكِ!"

وقالت بصراحة مُماثِلة: "أعرِفُ طُرُقًا أُخرى لحماية نفسي، ولكنِّي لم أُرِد أن أُوذيك".

فضَحِك. لقد كان تصريحًا مُهينًا جدًّا. وردَّت مُبتسِمةً، وعيناها الداكِنتان بريئتان ودافئتان. فتلاشى ضَحِكُه. لقد صعقَه مرَّةً أُخرى مِقدارُ العُمق الذي وصلَت إليه مشاعِرُه تُجاهَها.

"لا أستطيعُ أن أعِدَ بأنَّ الأمرَ لن يحدُثَ ثانيةً". وقدِ التوى فمُه بمَرارة. "إنَّ ذلك يأتي مِن كَوني ما أنا عليه".

"إنَّه يأتي ممَّا سمحتَ أنتَ لروما بأن تجعلَك عليه".

فتشنَّجَ فمُه. وأزاحَ كالِب على ذِراعَيه، ثُمَّ اقتربَ منها. "لم أمَسَّ امرأةً أُخرى منذُ أتَيتِ إلى دارتي. وما كان ذلك بسبب الافتقار إلى فُرصة".

فتورَّدَت، مُتسائلةً إن كان عِلمَ ما كشفه لها. كانَ جمالُه وقوَّتُه الجِسمانيَّان قد روَّعاها دائمًا، ولكنَّهُما لم يُروِّعاها قطُّ كما روَّعَها هذا الاعتِراف؛ لأنَّه كان أقرَبَ ما يمكن أن يبلغَه إلى إقراره بأنَّه يكنُّ لها أيَّ تقدير على الإطلاق. وقد كانتِ استِجابتُها له قويَّةً على نَحوٍ مُروِّع.

يا ربّ، لا تسمَحْ لِهذا الرَّجُل بأن يكونَ سبَبَ خرابي. أنت عليمٌ بجميع ضَعفاتي. ضَع صُخورَ عثرةٍ بينَ أتريتِس وبيني؛ وإلَّا، فلا أعلَمُ هل أتمكَّنُ من الوقوفِ بثَبات.

تأمَّل أتريتِس وجهَها بتركيز، فرأى مِقدارًا كبيرًا ممَّا علِمَ أنَّها لم تقصد له أن يراه. ومشى نحوَها ببُطء، شاعرًا بتوتُّرها يزداد لدى كلِّ خطوة. فنقلَت قدَمًا إلى أرضٍ أعلى. وفهِمَ: لقد أرادت مسافةً بينهما. ونظَرَ داخِلَ عينَيها فرأى شيئًا آخر. لم تُرِد مسافةً لأنَّها اشمأزَّت منه، بل لأنَّه قد ينقضُّ أسوارها.

"أرجِعيهِ معك". ورفَعَ كالِب إليها. فكان عليها أن تنزِلَ خطوتَين لتأخُذَه. وإذ أخذَته، نظرَت إلى أتريتِس من جديد. فشاهَدَ بؤبؤَي عينَيها البُنِّيَّتين يتَّسِعان حتَّى أحسَّ نفسَه مُنجَذِبًا إلى داخلها. واجتاحَهُ الضيق. فابتسم ابتسامةً كئيبة. "يحسُنُ بكِ أن تُبقي تُرسَكِ الصغيرَ على مقربة منكِ!"

٢٣

كان ثيوفيلُس مُتأهِّبًا للرَّحيل لمَّا رجَعا. فحمَلَ أتريتِس أمتِعتَه على كتِفه، ومشَوا ستَّةَ أميالٍ أُخرى، ثُمَّ خيَّموا بقُربِ جَدوَلٍ صغير آخر. ونزلَت رِصفة إلى بُرَيكة فنقعَت قدمَيها المُوجَعتَين فيما حمَّمَت كالِب. كانت المياه باردة، ولكنَّ الولَد أحبَّها، مُطَرطِشًا ومُثَرثِرًا بِسُرورٍ تامٍّ. وضحِكَت لمَّا لطَمَ الماء. فقالت: "كفى!" وانتشلَته.

حملَته صعودًا على الضفَّة، حيث تلوَّى مُريدًا أن يتحرَّر. فخفَضَته، داعِمةً إيَّاه تحتَ إبطَيه ليتمكَّن من المشي. ودغدغَت وُرَيقاتُ العُشبِ الجديدِ الليِّنةُ أصابعَ قدَمَيه، فظلَّ يرفعُهما عن الأرض. فحطَّته أرضًا، ضاحِكةً، وجعلَته يحبو، وبقِيَت قريبةً منه لتضمَنَ إلَّا يُحاوِلَ وضْعَ أيِّ شيء في فمه. وقد بدا أنَّه أراد أن يذوقَ كلَّ شيءٍ في العالَم حَوالَيه.

راقَبَ ثيوفيلُس رِصفة تابِعةً كالِب. وتَواصلَ ضَحِكُها فجعلَهُ يبتسِم. "إنَّها أُمٌّ صالحة".

قعَدَ أتريتِس صامِتًا وكئيبًا، مُسنِدًا ظهرَه إلى شجَرَة سِنديان. وراقبَ رِصفة وقتًا طويلًا، ثُمَّ أتْكأ رأسه إلى الوراء، ناظِرًا إلى الشَّمال بَملامحَ مُتجهِّمة. فانْتابَ ثيوفيلُس شعورٌ بأنَّ أتريتِس كان مُبتدئًا توًّا بإدراك المهمَّة الهائلة التي عيَّنَها لامرأةٍ تحمِلُ ولَدًا على ظهرِها- ولَدًا لا بُدَّ أن يغدوَ أكبَرَ- بل أكثرَ نشاطًا وتطلُّبًا أيضًا- على طُولِ الطَّريق.

غابَت الشمس، وأشعلَ ثيوفيلُس نارًا. وتشارَكَ مع رِصفة في تأمُّلاتٍ تعبُّديَّة من الكلمة المقدَّسة والتَّرانيم. فقام أتريتِس وغادرهما مُنزعِجًا، ناشدًا عُزلةَ بعضٍ من الشَّجَر. ثُمَّ رجَعَ لاحِقًا وراقَبَ رِصفة تُطعِمُ كالِب حِصَّةً من عصيدة الحِنطة التي تخصُّها. ولمَّا أُتخِمَ الطِّفل، أرادَ أن يلعب. وإذ أثارت النَّارُ الخافِقةُ فُضولَه، حَبَا نحوَها.

فقالت رِصفة بلُطف: "لا، لا". ومرَّةً بعدَ مرَّة، حاول أن يتقدَّم إلى النَّار، فكانت تقوم وتُرجِعُه. وقد بكى كالِب من الخَيبة، وبدَت هي مستعدَّةً لمُشاركَته فِعلًا.

فقام أتريتِس مُنزعِجًا وتقدَّم دائرًا حولَ النار: "أعطيني إيَّاه".

"سوف يهدأ عاجِلا".

فمدَّ يدَيه نزولًا وشالَ الولَد، ثُمَّ رجَعَ إلى مكانه في الجِهَة المُقابِلة من النار. وإذ جَثا على رُكبتَيه، أطلَقَ الطِّفل.

"إنَّه قريبٌ جدًّا من النار، أتريتِس".

"سيتعلَّم أن يبقى بعيدًا عنها".

وقامَت إذ حَبا كالِب مباشرةً نحو ألسِنَة اللَّهَب.

"اقعُدي!"

"سيُحرِقُ نفْسَه!"

"عليه أن يتعلَّم الحُدود". ولم يتحرَّكْ أتريتِس قطُّ لإيقافه. إنَّما قال بحَزم: "لا، كالِب". وإذِ انحَنى إلى الأمام، صفَعَ برِقَّةٍ اليدَ الصغيرة المُمتدَّة إلى الجمَرات المُتوهِّجة على عُود. فتراجَعَ كالِب مُجفِلًا وتردَّد. وما لبِثَ الافتِتانُ أن فازَ على الطاعة. فمدَّ الطِّفل يدَه ثانيةً. "لا". وصفَعَ أتريتِس يده صفعةً أشدَّ. فارتعشَت شَفَةُ كالِب، ولكنْ بعدَ تردُّدٍ وجيز فازَت التَّجرِبة.

قامَت رِصفة مُسرِعةً، ولكنَّ الأوان كان قد فاتَ فِعلًا. وقد تغيَّرت سيماءُ كالِب من التَّعجُّب إلى التألُّم المصحوب بالدَّهشة. فأمسك ثيوفيلُس بمِعصَمِها وأبقاها حيثُ كانت لمَّا شالَ أتريتِس ابنَه عنِ الأرض.

وقالت باكيةً: "كيف أمكنَكَ ذلك؟"

فقال أتريتِس: "بِضعُ بُثورٍ لن تقتُلَه. وسيتعلَّم الطاعة". ثمَّ دسَّ ابنَه في ثنية ذِراعه. "المرَّةَ التالية، ستَعرِفُ أفضَل، صحيح؟"

"فلأستَرجِعْه قبل أن يحلَّ به مزيدٌ من الأذى".

تجاهَلَها أتريتِس وتكلَّمَ برِقَّة في الجرمانيَّة إذ تفحَّص أصابعَ ابنِه المسفوعة. وامتصَّها، فخفَّ بُكاءُ كالِب. ولمَّا كفَّ الصغير عن البُكاء، تفحَّصَ أصابِعَه مُجدَّدًا.

"ليسَ من ضَرَرٍ بالغ".

حدَّقت رِصفة إلى كالِب دون أن تنبسَ بكلمة. وقد أمسكَ بِشَفَةِ والِده وشدَّها، مُبتهِجًا بأن يكونَ محطَّ اهتِمامه.

أطلق أتريتِس دَمدمةَ مُلاعَبةٍ وعضَّ على الأصابع الضَّئيلة الدَّخيلة، مُستَدِرًّا زعقةَ ضَحِكٍ. وقد قضَمَ أصابعَ ابنِه برِفق، مُمتصًّا المحروقةَ منها بلُطفٍ هُنَيهةً أُخرى قبلما حطَّه أرضًا من جديد. ونظَرَ كالِب إلى النَّار.

فقالتَ رِصفة: "آه، ربَّاه!" فاشتدَّت يدُ ثيوفيلُس، مُبقيةً إيَّاها حيثُ كانت. "أتريتِس، لا تدَعْهُ..."

"هُوَ صبيٌّ ولا ينبغي أن يُدلَّل!"

"هُوَ طِفل!"

كان كالِب ما يزال مفتونًا، فترجَّحَ إلى الوراء والأمام، مُفكِّرًا.

واتَّكأ أتريتِس إلى الوراء مُراقِبًا.

فقالت رِصفة: "إنَّه عنيدٌ مِثلك. إذا جعلتَه يؤذي نفسَه مُجدَّدًا، فساعِدني. إنِّي سَـ..."

وبدأ كالِب يحبو نحوَ الأنوارِ الخفَّاقة الأخَّاذة. فقال أتريتِس بحزم: "لا!" وسقَطَ كالِب رُجوعًا على عَجْزِه مُرَفرِفًا بذِراعَيه، ومُبَربِرًا بصَوتٍ عالٍ تعبيرًا عن خَيبته. فضَحِكَ ثيوفيلُس، مُفلِتًا رِصفة.

زفَرَت رِصفة نفَسَها برِقَّة، ولكنَّها ظلَّت تُراقبُ كالِب لئلَّا يُغيِّرَ فِكره ويتوجَّهَ مُجدَّدًا إلى بَليَّته. إلَّا أنَّه توجَّه نحو حُزَمِ الأمتِعة وقعد يلعب بالسُّيور الجِلديَّة.

قال أتريتِس، مُبتسِمًا بمَودَّة: "إنَّه عنيد، لا بليد".

فلَم تضحَك رِصفة ولا هدأت. "حسنًا، الشُّكرُ لله أنَّه لم يكُن على جُرُف!"

نبَضَت عَضَلةٌ في حنَكِ أتريتِس. وغَدَت عيناه الزَّرقاوان قاسيتَين ومُستهزئتَين: "أتعتقدين أنَّكِ تُعنَين بابْني عِنايةً أفضلَ من عنايتي أنا به؟ الدَّرس المؤلم يتعلَّمه المرءُ بشِدَّة، ولكنَّه لن يُنسَى بتاتًا". ثُمَّ حدَّقَ مُباشرةً داخِلَ عينَيها. "الأَلَمُ يُعلِّمُ المَرءَ إلَّا يرتكِبَ الخطأ نفسَه مرَّتين".

علِمَت أنَّه حطَّمَ من تَوَّه مُتعمِّدًا الجِسرَ الذي قد بُنيَ بينَهُما عصْرَ هذا النَّهار. وكانت الغلطة غلطتَها هي. يا ربّ، متى أتعلَّم ضبْطَ لساني؟ ورمقَته مُجدَّدًا فأحسَّت الحدودَ التي رسَمَها حولَ نفسِه. بعدَ هذهِ الأشهُرِ كلِّها معًا، ما زال يُساويها بروما وجوليا ڤاليريان. لا بدَّ أن يستمتعَ بحيازتها خليلةً له، ولكن من المُحال أن يُقرِّبها كِفايةً بحيث تكونُ رفيقةً وصديقة.

أبًا، أيُّها الآب...

وإذ أشاحت وجهَها، رَجَت إلَّا يعلمَ بأيةِ سهولةٍ بالغة يمكنه أن يخترِقَ حواجِزَها. وكانت قد استعادت السَّيطرة تقريبًا لمَّا وضع ثيوفيلُس يدَه فوقَ يدِها. إلَّا أنَّ تلك الحرَكة اللطيفة حطَّمت جميعَ الدِّفاعات. فقالت بهَمسٍ مخنوق: "من بعدِ إذنِك!" وقامت.

وإذ مشَتَ مُبتعِدةً إلى قلبِ الظُّلمة، هبَّ أتريتِس واقفًا.

"اقعُد، أتريتِس".

"اِبقَ خارِجَ هذا".

"لقد أحرزتَ انتِصارَك. فتمتَّعْ به إن كان لا بُدَّ من ذلك، ولكنْ دَعها تنسحِب بكرامة".

"اهتمَّ بشأنِكَ الخاصّ، يا رومانيُّ".

"فليكُن، ولكنْ إذا كنتَ ستُطارِدُها، فخُذ كالِب معك". واستقرَّ من جديد مُستريحًا على بَطَّانيَّته. "أنا سأنام".

أطبقَ أتريتِس قبضتَيه بإحكام مُثبِّطًا، وبقيَ حيثُ كان. فهبطَت رِصفة الضفَّة وتوارَت عن الأنظار. وأراد أن يلحقَ بها، ولكنَّه علِمَ أنَّه إذا قامَ بذلك فسيقولُ أو يفعل شيئًا إضافيًّا ما يندَمُ عليه. لقد رأى التأثيرَ الذي كان لكلماته فيها.

وإذِ انحَنى، التقطَ غُصنًا ثخينًا، وكسَرَه نِصفَين، وطرَحَه في النار، مُسبِّبًا انفِجارَ شَرَرٍ مُتطايِرًا صَوبَ السَّماء.

ودونَ أن يفتحَ ثيوفيلُس عينَيه، قال: "سنُحاوِلُ بلوغ سيڤيتا كاستيلانا غدًا، ثُمَّ نتوجَّه غربًا إلى البحر التِّيرانيِّ".

قعدَت رِصفة على شطِّ الجَدوَل، ورُكبتاها مرفوعتان بحيثُ مَسَّتا صدرها.

وهمَست بانكِسار: "يا ربّ، أنا أحتاجُ إليك. أأبقى مُصارِعةً هذا الرَّجُلَ ما بقيَ من عُمري؟ أنا أفتقِد شمعي. أفتقِدُ الأمانَ الذي شعرتُ به في مَعيَّته. لماذا لم يكُن مُمكِنًا أن أمضِيَ في ذلك السَّبيل؟"

أسندَت ذقنَها فوق رُكبَتيها، مُفكِّرةً أنَّه ينبغي لها أن ترجِعَ وترعى كالِب. ولكنَّ أتريتِس أثبت أنَّه قادِرٌ على ذلك فوقَ الحدِّ. وقد أرسَلَ القمَرُ انعِكاساتٍ مُتلألئةً، أشبَهَ بِلآلِئ مُتألِّقة، على الجَدوَل المُظلِم المُتحرِّك. فأطلقَت نفَسَها ببطء، لائذةً بإيمانها.

"أنتَ إله الخليقة، مَن بذَلتَ يسوع. كيف يُعقَلُ أن أقعُدَ هُنا وأقولَ إنَّكَ لا تفهم؟ مَن سِواكَ يمكن أن يفهم، يا ربُّ؟"

ثُمَّ وقفَت فبسَطَت يدَيها، والكفَّانِ إلى فوق، رافعةً نظرَها إلى السَّماوات.

"أيُّها الآب، أشكرُكَ من أجل البَركات التي أغدقتَها عليَّ. لقد أخرجتَني من الظُّلمة التي كنتُ عائشةً فيها ووضعتَ شمعي في حياتي. لقد كان رجُلًا طاهِرًا وطيِّبًا جدًّا. لم يرتكِب قطُّ الأخطاءَ التي ارتكبتُها أنا. وقد استحقَّ زوجةً أفضل منِّي. مِنَ الناس مَن يُولَدون

طائعين لمشيئتك، يا ربُّ، وشمعي كان رجُلًا من هذا النَّوع".

كان صوتُها مُثخَنًا بالدُّموع. "أعِنّي كي أتذكَّرَ أنَّك أنت صنعتَني على ما أنا عليه لأجل مَقاصِدِكَ. ليس عليَّ أن أعرِفَ ما هي. ولستُ أعلَمُ لماذا كان عليَّ أن أفقِدَ شمعي، أو لماذا وَجَبَ أن تموتَ راحيل. لستُ أعلَمُ شيئًا آخر ما عدا كونَك قد عضَدتَني، ربَّاه. لقد نشلتَني من حُزني، وأعطيتَني كالِب والفرَح".

وأنزلَت يدَيها.

ثُمَّ كان هُنالك أتريتِس الآن.

هزَّت رأسَها بِوَهن، مُغمِضةً عينَيها ورافعةً وجهَها حِيالَ اللَّيلِ البارد. وقالَت برقَّة: "المكانُ هُنا هادئٌ وجميل جدًّا، يا ربُّ. حينَ أكونُ وحدي هكذا، في وسعي أن أُفكِّر وأقنعُ نفسي بأنَّك ستُسانِدُني لاجتيازِ مهما أتى. ولكنْ، أبًّا، أنا مُثقلةٌ بالشُّعور في ما يتعلَّق بهذا الرَّجُل. أنت تعرِفُ أيَّةُ امرأةٍ أنا. فأنتَ قد نسجتَني بجُملتي. أمّا كان يمكن أن تصنعَني مُختلِفةً قليلًا؟ لا تُدخِلني في تجرِبة. يا ربّ، أنا أعلَمُ أنّي إناءٌ ضعيف. يتكلَّمُ أتريتِس، فأُدخِلُ كلماتِهِ قلبي. ينظُرُ إليَّ، فتذوبُ أحشائي. يلمِسُني، فأتمرَّقُ توقًا إليه".

داعبَ نسيمٌ ليليٌّ رقيقٌ أوراقَ الشَّجر بقُرب ضفَّةِ الجَدوَل. فكان الصوتُ وادِعًا.

"يا ربّ، لتكن كلمتُك هي المحفورةَ في قلبي، ومحبَّتُك هي التي أتلهَّفُ إليها. افتحْ عقلي وقلبي لأتشرَّبَ الكلمة التي يُعطيني إيَّاها ثيوفيلُس كلَّ صباح. قوِّني لأجلِ قصدِك. اطرُد كلَّ تمَنٍّ وافتِراض- يا ليتَ وماذا لو- ممَّا يعتريني عندما ينظر أتريتِس إليَّ. إنّي أتذكَّرُ حقيقةَ الشُّعور بكوني محبوبةً مِن قِبَلِ رجُل. وأحيانًا أتوق من جديد إلى ذلك النَّوع من الحُبّ. ساعِدني حتَّى أراهُ بعينَيك، ربَّاه، لا بعَيني امرأةٍ جسدانيَّة. حرِّرْهُ بالفداء، أبتاه. أقِمهُ من الهوَّة وثبِّت قدمَيه على الصَّخرة".

طنَّتِ الحشَراتُ حوالَيها وسكَّنَها خريرُ الجدولِ النَّاعِمُ.

غمَرَها شعورٌ بالسَّلام قويٍّ، فلاذت بالصَّمت، وقد خنقَتِ العاطِفةُ الغامِرةُ الكلامَ لدَيها. الموسيقا، يا ربّ. موسيقا خليقتِكَ حواليَّ! وخلَّتِ الأصواتَ تتصاعدُ فوقَها وحولَها بتناغُمٍ عذْب، مُفكِّرةً في جميع المرَّاتِ التي فيها أعانَها الربُّ وأعالَها، فارتفعَ قلبُها واتَّسَعَ، مُنتعِشًا.

يا ربُّ، أنت معي دائمًا. في وسعي أن أستريحَ على وعدِك. سأدَعُ ثِقَتي تستقرُّ فيك.

وإذ تخفَّفت من حِملِها وانتعشَت، شمَّرَت تُنكَها وعقَدَته بحيثُ تتمكَّن من التَّخويض

في الجَدوَل. ودارَت على مَهلٍ، ويداها ممدودتان، مُستمتِعةً بضوء القمَر. ثمَّ انحنَت وغرفَت بِراحتَيها الماءَ البارِدَ كالثَّلج، ورشَّته عاليًا في سماء الليل، قُربانَ لآلئَ مُتألِّقةٍ لذاكَ الذي أروى عطَشَها بالماء الحيّ.

وغنَّى قلبُها هاتفًا في داخلِها، فيَّاضًا.

قعَدَ أتريتِس مُتجهِّمًا بقُرب النَّار، مُنتظِرًا. وبدا أنَّ ساعاتٍ مرَّت قبلَما رأى رِصفة طالِعةً من الجَدوَل. فطأطأ رأسَه قليلًا حتَّى لا تعلَمَ أنَّه كانَ مُراقِبًا ومُنتظِرًا رجوعها. هل استحمَّت في ذلك الجَدوَل البارد كالثَّلج؟ كانت ناظِرةً إلى كالِب، وكان ما يزال يلعب بالأمتِعة، ثُمَّ إلى ثيوفيلُس غاطًّا في النَّوم. وابتسمَت مسرورةً، فضاقَ صدرُ أتريتِس.

رمقَته بنظرةٍ يغلبُ عليها الخَجَل، وقعدَت مُعيِيةً على بطَّانيَّتها في الجِهة المُقابلة له وراءَ النَّار. فلماذا كانت هادئةً جدًّا، وعلى وجهِها ملامحُ السَّعادة القُصوى؟ لقد أرادَ أن يسألها عمَّا أخَّرَها طويلًا.

قال كالِب: "ماما!" وحَبا نحوَها. ولَمَّا أجلسَته في حِضنها، فرَكَ عينَيه بقبضتَيه. فقبَّلَت أعلى رأسِه ومشَّدَت شعرَه الداكن. فمرَّغ وجهَه على صدرها، وأجفانُه مُثقَلةٌ. وإذ أزاحَته برِفق، استلقت ودسَّتهُ بلِزقها لتُبقيَه دافئًا. ثمَّ سحبَت شالها إلى فوقُ لتُغطِّيَ نفسَها قبل أن تفتح ثوبَها وتُرضِعَه كي ينام.

راقَبَها أتريتِس بجُرأة، مُرغِمًا إيَّاها على النَّظر إليه. ولَمَّا فعلَت ذلك، حمِيَ دمُه حِيالَ الرِّقَّة في عينَيها. ما مِن امرأة كانت قد نظرَت إليه يومًا على ذلك النَّحو. وكان وجهُها ذهَبًا نقيًّا في توهُّج جَمرِ النَّار التي جعلَها تهمُد وهو قاعِدٌ هُناك، مُتسائلًا كم سيطول الوقتُ قبلَ أن ترجِع.

قالت برِقَّة: "ليلةً سعيدة، أتريتِس". ثُمَّ أغمضَت عينَيها.

ووَجِعَ من توقٍ عميق. فزادَ مُنزعِجًا على النَّار أغصانًا ثخينةً أُخرى، ثُمَّ انجرفَت حملقَتُه رجوعًا إلى رِصفة. وكانت قد نامَت فعلًا. فأزعجَهُ أن تتمكَّن من أن تكونَ في سلامٍ تامٍّ هكذا، في حينَ كانَ هو في اضطرابٍ بالغ. هل كانَ مسيحُها، مرَّةً أُخرى، هو الذي آتاها هذا السَّلام؟

ثمَّ استقرَّت حَملقةُ أتريتِس على كالِب.

كيف أمكَنَ أن تكونَ لهذا الإله قُدرةٌ كهذه، ومع ذلك يسمَحُ بأن يموتَ ابنُه...نعَم،

ابنُه، على أيدي أعدائه؟ أينَ كانت القُدرةُ في فِعلٍ كذاك؟

نظَرَ من جديد إلى وجه رِصفة وأطبقَ قبضتَيه بإحكام. أرادَ أن يوقِظَها...ثُمَّ ماذا؟ أن يعترِفَ بشُكوكِه وتساؤله واهتمامه بإلهِها البغيض؟ أن يعترِف بِالخواء النَّهَّاش الذي آلَمه في داخله كلَّما رأى السَّلام الذي تشاركَت فيه مع ثيوفيلُس؟

غبيٌّ. غبيٌّ! سيُسافِرونَ أميالًا في الغد، وبدلًا من أن يستريحَ استِعدادًا كان قاعدًا هُنا، مُحدِّقًا عبْرَ النَّارِ إلى امرأة، ولم يبدُ أنَّه قادِرٌ على تمالُكِ نفسِه.

قعَدَ وقتًا طويلًا يُراقِبُها وهي نائمة. وتأمَّلَ كُلَّ خَطٍّ في وَجهِها وجِسمها. كيف كان مُمكِنًا أن تغدوَ إمرأةً أجمَلَ كلَّ يوم؟ وما لبِثَ أن تمدَّدَ على الأرض واستلقى مُحدِّقًا إلى السَّماء السَّوداء المُزرَقَّة المُرصَّعة بالنُّجوم فوقَه.

ثُمَّ أغمَضَ عينَيه، مُرغِمًا نفسَه على النَّوم. وحتَّى فيما غلَبَه النُّعاسُ، تردَّدَت برِقَّةٍ أصداءُ كلماتِها.

"مهما أردتَ أن تحميَ قلبَك كثيرًا، فقد فاتَ الأوانُ فِعلًا، أليس كذلك؟"

٢٤

سافَروا على الطريق عبْرَ مدينة طرقينيا الإتروسكانيَّة القديمة، بقُبورها المدهونة، ومضَوا إلى أُوربيتلُّو بقُربِ سَفحِ جبَل أرجِنتاريوس. وإذ عبَروا الجِسرَ فوق نهر ألبيغنا، واصلوا السَّير شمالًا إلى نهر أُمبرو وغروسِّتو. لم يَمشُوا أكثر من اثنَي عشر ميلًا (نحو ١٩كم) في اليوم، لأنَّ أيَّة مسافة تتخطَّى ذلك فاقَت طاقةَ رِصفة.

واستحال الجوُّ باردًا ورطبًا.

وبينَما جاوزَتهم ثُلَّةٌ من الجنود مُتَوجِّهين على خيولهم، قال ثيوفيلُس: "سنَصِل إلى غروسِّتو في غضون ساعة".

أطرقَت رِصفة ناظِرةً إلى الطريق. ومع أنَّها لم تقُل شيئًا، رأى أتريتِس إعياءها. وانشقَّت الغُيوم ساكبةً عليهم مطرًا غزيرًا جاريًا. فقبلَ وقتٍ طويل من وصولهم إلى طرَفِ المدينة، تبلَّلَت تمامًا وتلوَّثَ هُدبُ تُنكِها بالوحل.

قال ثيوفيلُس: "مِن هُنا"، مُقتادًا إيَّاهُما عبْرَ الشَّوارع بمُحاذاةِ بازار، حيثُ كان الباعة يقومون بتجارتهم داخِلَ دكاكينِ خِيامِهم.

بات أتريتِس قلِقًا إذ رأى في الشارع أمامهم مزيدًا من الجنود. "إلى أين تأخُذُنا؟"

فقال ثيوفيلُس: "أعرِفُ خانًا بقُربِ الحِصن. مضَت عشرُ سنين على مُروري في هذه المدينة آخِرَ مرَّة، ولكنْ إذا كان الخانُ ما يزال هُناك فسنَجِد طعامًا جيِّدًا ومأوًى".

كان يملكُ الخانَ بِضعةُ عسكريِّين رومانيِّين مُتقاعِدين، وقد وُسِّعَ منذ زيارة ثيوفيلُس الأخيرة. وكانت تعرِفةُ المبيت قد ارتفعَت أيضًا، إلَّا أنَّ ثيوفيلُس دفعَها بسُرور لوقاية رِصفة والطِّفل من المطَر البارد.

بدا أتريتِس مُتوتِّرًا ومُتيقِّظًا لدى وقوفه داخِلَ الفِناء. كان الفيلقيُّون يأتون ويذهبون من كلِّ جهة. وقد اصطحبَ بعضُهم نساءً مُستهتِراتٍ.

ضجَّ كالِب إذ مرَّ جنديٌّ شابٌّ تشبَّثَت امرأةٌ بذراعه. وابتسم الفَيلقيُّ للطِّفل، مادًّا يدَه ليُدغدِغَه برِقَّة تحتَ ذقنِه. ثمَّ قال: "ليلةٌ ماطرة يصعب السَّفَرُ فيها!" ولاذ بالصَّمت إذ رفعَت رِصفة نظَرَها إليه. فرفع الشابُّ حاجِبَيه قليلًا بسُرورٍ مقرونٍ بالمُفاجأة. وجأر: "سيِّدتي!"

مُنحنيًا لها انحِناءةً يسيرة ومُزعِجًا المرأةَ المُرافِقة له.

تقدَّم أتريتِس مُقتَرِبًا، ورفعَت الكابَ عن رأسه. ''امضِ في طريق!''

حدَّقَت المرأةُ فاغِرةَ الفم. وشامَتهُ حَملقتُها بإعجابٍ ذاهِل. وابتسمَت مُتلألئةَ العَينين.

استقام العسكريُّ قليلًا، وقد أهانَه أن يُفكِّرَ مَدَنيٌّ في إصدارِ أمرٍ إليه. واسترعى انتِباهَهُ طولُ أتريتِس وعرضُه والنَّظرة الباردة في عينَيه.

أمسك أتريتِس بذِراع رِصفة. لم يُضِف أيَّ كلام، ولكنَّ الرِّسالة كانت جليَّة. وقد بالى بها الجُنديُّ، فأمسك ذِراعَ المرأة وتوجَّهَ نحو الدَّرَج. وفيما مَشَيا مُبتعِدَين، همسَت في أُذنه بشيءٍ ما. ثمَّ انضمَّا إلى باقي أفرادِ مجموعتهما. وإذ تحدَّثوا في ما بيَنهم، التفت نحوَ أتريتِس ورِصفة شخصانِ آخران.

قالت رِصفة برِقَّة: ''لم يقصد أيَّ ضرَر. الناس دائمًا يُلاحِظون الأطفال''.

''كان ينظر إليكِ أنتِ''.

ورجَعَ ثيوفيلُس بعدما نقَدَ المالِكَ الأُجرةَ.

فقال أتريتِس: ''لن نمكُثَ هُنا''. ورأى ثيوفيلُس نِظرته المُضطرِمة والمكانَ الذي وُجِّهَت إليه.

''هدِّئ من روعك. إنَّهم مُغادِرون''. وكان قد نسيَ أسبابَ الرَّاحةِ الإضافيَّةَ التي إفتخرت بها المؤسَّسة. ''لقد أُعطِينا غُرفةً في ذلك الرِّواق. وقد رتَّبتُ أن يُبعَثَ إلَينا بالطَّعام''.

دخلوا فِناءً داخليًّا كبيرًا جدًّا، فيه نافورة رُخاميَّة. وطَرطَقَ المطَرُ فيما مشَوا في الرِّواق ذي الأعمدة. فارتجفَت رِصفة، وقد تسرَّبَت القُشَعريرة عبْرَ ثيابها المُبلَّلة. وكانت غُرفَتُهم كبيرة ومفروشة بأثاثٍ مُريح من بضعِ أرائكَ وطاوِلات صغيرة. وقد تبِعَهُم خادمٌ أخرَجَ جمرًا مُشتعِلًا من دَلوٍ لإضرامِ الوقود في كانونِهم.

طرَحَ أتريتِس عباءته المُبلَّلة على الأرض، ثُمَّ أخذ كالِب ووضعَه أرضًا. وخلَعَ بخشونةٍ العباءة عن كتِفَي رصفة. ''استدفئي''. وأومأ برأسه نحو الكانون. فانطلقَت وراء كالِب، ولكنَّ أتريتِس أمسك ذراعها ودفعَها جانبًا. وإذ أدركَ كالِب، نزع عن ابنه التنكَ والأقمِطة، وطرَحَها جانبًا بلامُبالاة كما سبق أن طرَحَ عباءتَيهما. وإذ ألقى ابنَه على أريكة، نشَّفَه بإحدى البطَّانيَّات الصوفيَّة. فبكى كالِب من المُعامَلة الخشِنة، ولم يتوقَّف قبلَما لُفَّ دافئًا وضمَّه أبوه إليه.

كان ثيوفيلُس قد أبلى حسنًا تحتَ المطَر بعباءته الصُّوفيَّة السميكة ودِرعه الجِلديَّة وتُنكِه. فأخذَ بطَّانيَّة عن أسفَلِ أريكة أُخرى وأسدَلَها على كتِفَي رِصفة. فشكَرَته مُرتجِفةً من البرد

والتقطَت عباءتها عن الأرض. ثُمَّ نفضَتها وأسدلَتها على طرَفِ الأريكة الخشبيِّ المفتول، آمِلةً أن تجفَّ قبلَ الصَّباح.

وقفَت أقربَ ما أمكنها إلى الكانون، مُطوِّقةً نفسها بالبطَّانيَّة. وتصاعَدَ البُخارُ من الصُّوف. فاقترَبَ أتريتِس، وكالِب ينظر مِن داخِلِ صُرَّة البطَّانيَّة على ذِراعَي أبيه، وقد برَزَت رُزَزٌ من الشَّعر الأسود مُستقيمةً على رأسه. فضحِكَت رِصفة وربَّتَت أنفَ كالِب، شاكرةً على كونه جافًّا ودافئًا.

وقال ثيوفيلُس: ''سنستريحُ هُنا يومًا واحدًا. لن يُزعِجَنا أحَد''.

فقالت رِصفة: ''لعلَّ المطَرَ يتوقَّف!'' وكانت ترجو تقريبًا إلَّا يتوقَّف. لقد كانت في أمَسِّ الاحتياج إلى يوم راحة.

أتى خادمٌ بصينيَّةِ طعام شهيٍّ. وشقَّ ثيوفيلُس الفَرُّوجَ المطهوَّ بالعَسَل والمُتبَّلَ بالكُزبرة والبصَل المُشرَّح. وقد شُرِّحَ بيضٌ مطبوخ وتُوِّج بالبَطارِخ على مَهدٍ من الخسِّ والفطر المُقطَّع. وكان على الصِّينيَّة أيضًا كُرَاتُ لَحمٍ في مرَق أحمر مُنكَّه مع أرغِفَة خُبز وتُفَّاح شتويٍّ ناضج.

بينما أطعمَت رِصفة كالِب نُتَفًا من الدَّجاج قبلما أكلَت هي شيئًا منه، قالت: ''مَنٌّ مِن السَّماء!'' إلَّا أنَّ كالِب فضَّلَ البيضَ المطبوخَ مع البَطارِخ.

وفيما أولَت كالِب اهتِمامَها، ملأ أتريتِس كأسًا بخَمرةٍ قويَّة ووضعها أمامها. كان تُنكُها ما يزال رطبًا وبشَرَتُها شاحبة. فمن شأن الخمرة أن تُدفئَها وتُعطيَها نومَ ليلةٍ جيِّدًا. وألقى نظرةً على تُنكِها المُتَّسِخ وصَندَلها البالي. لا بدَّ أن تتجمَّد في الجبال.

أجالَت رِصفة نظَرَها في أنحاء الغُرفة الجميلةِ الأثاث، قائلةً: ''طعامٌ رائع، مكانٌ دافئٌ للنَّوم. كلُّ ما أحتاجُ إليه حمَّامٌ، فأُحِسُّ أنِّي في السَّماء''.

فقال ثيوفيلُس: ''الحمَّاماتُ غير بعيدة عن هذا المكان. لا سبَبَ يحولُ دون ذهابكِ''.

وقال أتريتِس، مملوءًا فمُه لَحمَ تَدرُجٍ: ''إنَّها مُتعَبةٌ فوقَ الحَدِّ''.

''أُحِبُّ أن أستحِمَّ''.

فرمى عظمَ السَّاق على الأرض. ''استحمَمتِ في الجَدوَل البارِحة''.

''غسلتُ وجهي''.

وجأر أتريتِس: ''ماذا تفعلين بالطِّفل؟''

''سآخُذُه معي بالتأكيد''.

فقال ثيوفيلُس: "سنذهبُ معها". وقد ساورَهُ الفُضولُ بشأن موقف أتريتِس.

"والذَّهب؟ مَن سيحرسُه؟"

"سنتناوب على ذلك. سأُبقيه معي وأنت تستحمُّ. ثُمَّ في وسعك أن تحذوَ حذوي".

وقالت رِصفة مُترجِّيةً: "عسى أن يتسنَّى لنا غَسْلُ ثيابنا أيضًا!"

فقال ثيوفيلُس: "ستكونُ غسَّالةٌ في خدمتنا". وقام عن الأريكة فعبَرَ الغُرفة، ونبَّشَ في حُزمته. وأخرجَ طقمَ مَكاشِط للاستحمام وقِنِّينةَ زيت من أمتِعته. فقالت رِصفة: "أعتقِدُ أنِّي نسيتُ عُدَّتي في أفسُس. لم يكُن عندَنا وقت..."

فقال ثيوفيلُس: "في وسعنا أن نشتريَ لكِ ما تحتاجين إليه هُناك".

نقَّلَ أتريتِس نظَرَه بين الاثنين. من الواضح أنَّ أيَّ اعتراض يُقدِّمه سيُستبعَد. ولم ينوِ أن يُخبِرَ أيًّا منهما أنَّه لم يرتَد الحمَّامات العمومية قطُّ من قبل، ولكنَّه سمعَ الكثيرَ عنها. فتجرَّع كأسَ خمرِه ووقفَ مُذعِنًا. "لِنقُم بذلك!"

دلَّهُما ثيوفيلُس على الطَّريق. ولم تكُن الحمَّامات بعيدةً جدًّا عن الخان، الأمرُ الذي ربَّما وفَّر سببًا إضافيًّا لكونِ الخان شعبيًّا جدًّا. وكان عندَ الباب صَفٌّ من الزبائن. فاصطفَّ أتريتِس مع رِصفة وثيوفيلُس، وقد دفَعَ الأخيرُ النُّقودَ النُّحاسيَّة عنهم جميعًا فدخلوا.

دخَلَ أتريتِس غُرفةَ الانتِظارِ المُصدِرةَ للأصداء، تنتابُه الهواجِس. كان يكره الحُشود، وقد عجَّ المكانُ بالرِّجال والنِّساء.

رفعَت رِصفة نظَرَها إلى أتريتِس. بدا مُنزعِجًا ومُنحرِفَ المِزاج. وقد عبَرَ البابَ إلى غُرفة تبديل الملابس ووقَفَ بقُرب القناطِر، ينظر خلسةً إلى داخِل التَّيبيداريوم. وخرجَت بِضعُ نساءٍ نِصفَ عارِياتٍ من غُرفة التَّبديل وجاوَزنَه إلى الحمَّامات.

توجَّهَت رِصفة نحوَ غُرفة التَّبديل النِّسائيَّة، ثُمَّ أجفلَت إذ أطبقَت يدُ أتريتِس على ذراعها، وقال بصوتٍ أجشَّ: "لا!"

فقالت مُرتبِكةً: "لا؟ لستُ أفهم". وانطلقَ نحو غُرفة الحمَّام الرئيسيَّة ساحِبًا إيَّاها معه.

قالت مُحرَجةً ومُرتبِكة: "أتريتِس!" وكان الناسُ يُحدِّقون: "ماذا تفعل؟"

لحِقَ بهما ثيوفيلُس، مُرتابًا في حقيقة الأمر. وكان ينبغي له أن يُدرِكَ ذلك في وقتٍ أسبق.

دخلوا الغُرفةَ الكبيرة التي تحوي التَّيبيداريوم. ووقفَ أتريتِس مُحملِقًا. كانت البِركة

تغصُّ بالنَّاس، مُعظَمُهم عُراةٌ وبعضُهم يرتدون تُنكاتٍ قصيرة. وقد تمدَّدَت عدَّةُ نساءٍ على أرائكَ بقُرب البركة، طارِحاتٍ على أنفُسِهنَّ مناشِفَ بِلا اكتراث. وقعَدَ رجُلان، عاريانِ تمامًا، على حافةِ البِركة يتحدَّثان إليهنَّ. وفاحَت من المُحيط العابق بالبُخار رائحة الزُّيوت المُطيَّبة والبَخور. وأجال أتريتِس نظَرَه حوالَيه باشمئزاز. فعلى الأعمِّ، بدا الرِّجالُ والنِّساء والأولاد مُفتقرين إلى الحِشمة تمامًا. وتخطَّاه بِضعةُ صِبيانٍ راكضين وغطسوا في البِركة. ونسِيَ أتريتِس أنَّه كان مُتشبِّثًا برِصفة إذ صعِدَتِ الدَّرَجَ شابَّةٌ حسناءُ جذَّابة. فعلى غِرار ڤينوس طالِعةً من البحر، عصَرَت شعرَها الطويل، مُبتسِمةً لأتريتِس في أثناء ذلك. ثُمَّ تناولَت مِنشفةً عن الرَّفِّ بقُربها وجفَّفَت شعرها، وحَملَقتُها تنزلِقُ عليه. لقد ذكَّرَته بجوليا.

رأت رِصفة انتِباهَه مُركَّزًا على الشَّابَّة، فغاصَ قلبُها. "رجاءً، أفلِت ذِراعي، أتريتِس". فأفلَتها دونَ كَلِمة.

ناوَلَها أتريتِس بِضعَ قِطَعٍ نقديَّة. وقال: "كان في البَهوِ أطقُمُ حمَّامٍ معروضة للبيع، فاختاري أيَّ طقمٍ أرَدتِه".

قالت "شكرًا!" فيما عبَرَت مجموعةٌ من الشُّبَّان على أوساطِهم مَناشِفُ. وقد كانوا يتضاحكون ويتحدَّثون معًا. والتفت اثنانِ منهم إلى رِصفة في أثناء مرورهما. فأمسكَ أتريتِس بِذراعها من جديد.

"ابقَي معي".

"أُفَضِّلُ أن أستحمَّ مع كالِب وحدَنا؟"

"وحدَكُما؟ في هذا المكان؟ لا تُضحِكيني".

"ما كُنتَ قطُّ في حمَّامات عموميَّة من قبل"، هكذا قال ثيوفيلُس إذ مرَّتِ امرأتان والمِنشفتان مُسدَلَتان فضفاضتَين على أكتافهما. وقد تمهَّلَتا لتتكلَّما إلى الرَّجُلَين القاعِدَين على حافَةِ البِركة. وركضَت بِضعُ فتَياتٍ عاريات على مقربة منهم وقفزنَ إلى التِّيبيداريوم، ثُمَّ خرجنَ وطَرطَشنَ إحداهُنَّ الأخرى. فأضاف ثيوفيلُس: "لن يُزعِجَها أحَد".

"إذا اقتربَ أحَدٌ منها، فسأقتلُه".

اتَّسعَت عينا رِصفة. لم يُخامِرها شكٌّ بأنَّه عنى ما قاله.

وقال ثيوفيلُس مُتجهِّمًا: "ثمَّة أُصولٌ غيرُ مُفصَحٍ عنها للسُّلوك اللائق في مكانٍ كهذا".

فقالت رِصفة: "أعتقِدُ أنَّه أفضَلُ لي أن أرجِع. ابقَيا أنتُما الاثنَين. سأعود لاحقًا حين

يقلُّ عدَدُ المُستحِمِّين". ومرَّت بهم امرأة أخرى فنظرَت إلى أتريتِس باهتِمامٍ جليٍّ.

وقال أتريتِس بصوتٍ عالٍ كفايةً بحيثُ يُسمَع: "لن أستحِمَّ وحواليَّ زمرةٌ من النِّساء المُغفَّلات المُحَملِقات". فتورَّد خدَّا المرأة وحوَّلَت حَملقتَها. "لديَّ ما يكفي منهنَّ في ساحة المُحارِبين". ونظرَت إليه أُخَرُ على مقربة منه باهتِمامٍ سافر.

ثمَّ قال ثيوفيلُس: "سنُرافِقُ رِصفة إلى الخان، ثُمَّ نذهبُ إلى الحِصن. ستكون في رِفقة رِجالٍ فقط في الحمَّامات هُناك".

"هَه! أأستَحِمُّ مع جنودٍ رومانيِّين؟ أُفَضِّلُ أن يَبلى جِلدي عن عظمي!" وقد بعُدَ مدى صوتِه أكثرَ هذه المرَّةَ فاجتذبَ نظَراتٍ من بضعة شُبَّان.

فقالَت رِصفة: "حتَّى لو كانت رائحتُك كرائحةِ ابنِ آوى؟" ثُمَّ مضَت راجعةً عَبْرَ المَجاز تحتَ القناطِر.

فقال أتريتِس: "ابنِ آوى؟" ولحِقَ بها.

فقالت دونَ تمهُّل: "عفوًا! تَيْسِ مِعزًى، تَيْسِ زاعِقٍ شَكِس". ودفعَت كالِب إلى ذِراعَي أتريتِس. وإذ تجاهلَت اعتراضَه، ذهبَت إلى بائع أطقُم الاستِحمام واشترَت طقمَين. والتفتَت فرأت أنَّ أتريتِس دخَلَ غُرفةَ الانتظار وراءها.

وما لبِثَ أن جأر: "إيَّاكِ أن تفعلي ذلك مرَّةً أُخرى!"

فدسَّت المِكشَطة داخِلَ حِزامه، تارِكةً المِكشَطة الأُخرى وقِنِّينة الزَّيت مُتدلِّيتَين. وأخذَت كالِب. "لن يؤذيَك أن تستحمَّ. لا تقلَقْ بشأن أولئك النِّساء كلِّهنَّ. أنا على يقين بأنَّ ثيوفيلُس سيُعنَى جيِّدًا بألَّا تتعرَّضَ للتَّحرُّش".

كظَمَ ثيوفيلُس ابتِسامةً حِيالَ سيماء الذُّعر على وجه أتريتِس إذ مَشَت مُبتِعدةً والطِّفل معها.

نادى أتريتِس وراءها بصوتٍ أصدَرَ أصداءً: "إلى أينَ أنتِ ذاهبة؟"

"راجِعةٌ إلى الخان". ومشَت عبْرَ غُرفة الانتظار مُتواريةً وراءَ الباب فيما دخَلَ ستَّةُ أشخاص.

وقال ثيوفيلُس بجفاف: "لديَّ شعورٌ بأنِّي لن أحظى بسِباحة مُريحة. أتُريدُ أن تستحمَّ أنت أوَّلًا، أم أُباشِرُ أنا؟"

فشتَمَ أتريتِس همسًا، وانتزعَ المِكشَطةَ من حِزامه. وإذ أطبقَ أسنانَه عليها، عادَ بخُطًى

واسعة عبْرَ مدخل الباب إلى الحمَّامات الرئيسيَّة، مُتجرِّدًا من حزامه وهو ماشٍ.

قال ثيوفيلُس: ''أتريتِس، مَهلًا دقيقة!'' ومضى وراءه. ونخَرَ إذ سفَقَ أتريتِس الحِزامَ وصُرَرَ المال على بطنه. ''غُرفةُ التبديل هي...''

خلَعَ أتريتِس تُنكَه وطرحَه على ثيوفيلُس أيضًا. وإذ خطا خُطوتَين، غطَسَ في التَّبيداريوم. ثُمَّ خرَجَ في الوسط ونفَضَ شعرَه إلى الوراء. لقد بدا المكان أهدأ. وما لبِثَ أن ضرَبَ الماء بذِراعَيه وسبَحَ نحوَ الطَّرَف الأقصى، ولَمَّا بلَغَهُ غرَزَ يدَيه على الحافَة ورفَعَ نفسه من الماء. فتوقَّف الرِّجال والنِّساء في مُختلف أنشِطَتِهم ليُحدِّقوا إليه وهو ماشٍ بخُطًى واسعة تحتَ الرِّواق ذي الأعمِدة. ودخَلَ الكَليداريوم.

لدى رجُلٍ استخفَّ بكونه مركَزَ الانتباه، علِمَ أتريتِس يقينًا كيف يصيرُ ذلك تمامًا. فقعَدَ ثيوفيلُس مُتسلِّيًا على بنك واتَّكأ إلى الوراء لينتظِر. وما كان الانتظارُ ليطول.

داخِلَ الكَليداريوم، فتَحَ أتريتِس القنِّينة وصبَّ زيتًا مُعطَّرًا داخِلَ راحةِ يدِه. وفرَكَ الزَّيتَ بسَخاء على صدره وكتِفَيه وإبطَيه نزولًا على ساقَيه، مُستعجِلًا مُغادرةَ المكان.

اقترَبَ منه رجُل. ''أتُريدُ منِّي أن أُدلِّكَ الزَّيتَ ليَدخُلَ جِلدَك...'' وجفَّت الكلِماتُ إذ هزَّ أتريتِس رأسَه. فرفَعَ الرَّجُلُ يدًا وانكفأ بسُرعة.

تمتمَ أتريتِس هامسًا، وهو يكشطُ الزَّيتَ برشاقة عن جِلده وينفضُه عن المِكشَطة. وما إن أنجَزَ ذلك، حتَّى توجَّهَ إلى داخل الفريجيداريوم وغطَسَ غطسةً سريعةً باردة.

رأى ثيوفيلُس أتريتِس مُقبِلًا نحوَه بخُطًى واسعة، وقد لفَّ حولَ خصره مِنشَفةً لفًّا مُحكَمًا. وانتزَعَ منه تُنكَه المنبوذَ فارتداه. وقال: ''تَمَّ الأمر!'' ثُمَّ أخذَ حِزامَه. وما إن ثبَّته، حتَّى أخَذَ صُرَرَ المال ودسَّها في مكانها بإحكام، ونخَعَ رأسَه صارفًا ثيوفيلُس. ''تريَّث بينما تستحمّ!''

ثمَّ مشى بُخطًى حثيثة في المجازات تحتَ القناطِر.

فتبِعَه ثيوفيلُس خارِجَ الباب إلى الشارع ومشى بجانبه مُجارِيًا إيَّاه في سُرعته. ''ما رأيتُ قطُّ رجُلًا توَّاقًا جدًّا إلى نَبذِ لذَّةِ حمَّامٍ مُريح''.

فنَخَرَ أتريتِس دونَ أن يُخفِّفَ سُرعةَ مَشيه: ''اذهبْ وخُذ حمَّامَك، يا رومانيُّ. في وسعي أن أهتديَ بنفسي إلى طريق الرُّجوع إلى الخان''.

''على غِرارك، أشعُرُ براحةٍ أقلَّ بوجودِ نساءٍ حواليَّ. سأستحمُّ في الحِصن. ثُمَّ إنَّ «بَغلَ ماريوس» الكَهْلَ هذا يستطيع أن يستفيدَ من مَسَّاج جيِّد''. وقد استعملَ اللَّقبَ الذي كثيرًا

ما أُطلِقَ على الفَيلقيِّ الرُّومانيِّ لكثرة ما يحمله من أمتِعة.

مَشَيا على الشارع الحجريِّ. وكانت حَصًى بيضٌ موضوعةً بين حِجارة الرَّصف الكبيرة لتعكس ضوء القمر وتُضيءَ انبِساطَ الشارع أمامَ الماشي.

قال أتريتِس مُتجهِّمًا: "كم تبعد الجِبال؟"

"هُنالك جِبالٌ على طول الطَّريق. حتَّى سلوكُ الطريق الساحليِّ إلى جَنَوة ليس سهلًا على شخصٍ غير مُتمرِّس بالسَّفَرِ الشاقِّ".

"إنَّها لم تتذمَّر".

"ما كانت لتتذمَّر".

لفتَت انتِباهَ أتريتِس اللَّوحاتُ المُصوَّرة المُعلَّقة فوقَ عدَّة دكاكين بمُحاذاة الشَّارع كلِّه. وشاهَدَ اثنتين استحوذَتا على اهتمامه. "سنستريح يومين، لا يومًا واحدًا فقط".

ارتفَعَ حاجِبا ثيوفيلُس قليلًا ولكنَّه هزَّ رأسه موافقًا. "فليكُن!" مهما كانت أسباب أتريتِس، فإنَّ رِصفة احتاجت إلى الراحة. ومن شأن ذلك أن يُوفِّرَ له وقتًا زائدًا ليَطرحَ أسئلة في الحِصن ويعرِفَ أيَّ بلاءٍ قد يكون بانتِظارهم. فآخِرُ ما سمِعَه أنَّ قُطَّاعَ طُرُقٍ نشطوا على الطريق الممرِّ عبْرَ سِلسلة جِبال الألپ الغريانيَّة. وربَّما وُجدَ طريقٌ آخرُ أكثرُ أمانًا، بحرًا إلى الرَّاين أو عبْرَ مَجازٍ آخَر. لقد كان يحتاج لأنْ يتحقَّق.

ثُمَّ قال لأتريتِس: "سأترُكُك هُنا. الخانُ في آخِر ذلك الشارع. سأتريَّث. لعلَّ غِيابي يُتيحُ لك ولرِصفة الفُرصةَ لرأبِ الصَّدع بينكما. مهما حصلَ منذ بِضعِ لَيالٍ، فهو ينهشُ كِلَيكُما. سَوِّيا المسألة".

ضاقت عَينا أتريتِس إذ راقبَ قائدَ المئة يمضي في الشارع نحوَ بوَّابةِ الحِصن الغربيَّة. كان حارِسٌ مُركَّزًا هُناك، وتوقَّف ثيوفيلُس ليتكلَّم إليه.

لمَّا دخلَ أتريتِس الغُرفة، رفعَت رِصفة نظرَها مدهوشةً من حيثُ كانت على الأرض تُلاعِبُ كالِب. وقالت: "لم يستغرِق الأمرُ وقتًا طويلا". ثُمَّ تخطَّته بنظرها. "أين ثيوفيلُس؟"

استولَت الغَيرة على أتريتِس دونَ إنذار. "ذهب إلى الحمَّامات في الحِصن". وإذ طرَحَ عباءته على أريكة، نظر إلى رِصفة مُتجهِّمًا. وكان كالِب مُتشبِّثًا بمُقدَّم تُنكِها إذ حاول أن يقِفَ وحده. وقد ارتسمَت على وجهها سيماءُ تَساؤلٍ ذاهِل.

قالت: "لن أسألَ هل تمتَّعتَ بحمَّامك. لم تستغرِق وقتًا طويلًا كافيًا". وأمسكَت

كالِب قبلَما وقَعَ، مُثبّتةً إيَّاه حتَّى استعادَ تَوازُنَه.

"لقد صار أثقلَ من أن تحمليه".

"مسافاتٍ طويلةً، نعم".

"سأحمِلُه أنا من الآنَ فصاعِدًا".

"أيعني ذلك أنّي سأُعطى الأمتِعة؟"

فقالَ بِلا سُلوان: "لا. لن تصمُدي مِيلًا واحدًا".

"لا ضرورةَ لأنْ تُضيفَ كالِب إلى ما تحمِلُه على ظهرك أصلا".

"أنتِ ضعيفة".

قال ذلك على نحو غاية في البُرودة، حتَّى كادت تستبعِدُ اهتمامَه الأصليَّ بها. "أضعَفُ منك، نعم. ولكنّي لستُ ضعيفةً جدًّا بحيثُ لا أقوى على حَمل حصَّتي". ثُمَّ قبَّلَت رقَبةَ الطِّفل وأضافت: "وكالِب هو حصَّتي". وشالَته ووقفَت. "لَعلّي عند وصولي إلى موطِنك أكونُ قويَّةً كأيَّة امرأةٍ جِرمانيَّة أُخرى!"

وإذ حمَلَت كالِب حتَّى الأريكة، رأى أتريتِس أنَّها كانت حافِية. وقد بدَت قدماها مُتَّسِختَين ومُتقرِّحتَين من جرَّاءِ أيَّامِ المشي. ولاحَظَ أيضًا أشياءَ أخرى. "كيف مزَقتِ تُنكَكِ؟"

"علِقَ بنَبتةِ شَوكٍ لَمَّا كنتُ راجِعةً من الجَدوَل البارِحة". وقعَدَت على الأريكة مُسترخِيةً أقلَّ بقليل ممَّا كانت قبلَ لحظة. لقد كانت مُتَّسِخة، وشعرَت بأنَّها غيرُ مُهَندَمة. ثُمَّ لماذا كانَ يُحدِّق إليها على ذلك النَّحو؟ وأقعَدَت كالِب على رُكبتَيها. "سأرجعُ إلى الحمَّامات في ما بَعد، حين يكونُ الوضعُ أهدأ".

"على جُثَّتي!"

"إذا أصرَرتَ". فرمَقَها بنظرةٍ افتقرَت إلى كلِّ مرَح.

"أتريتِس، أنا أحتاج لأنْ أستحَمَّ. وكذلك كالِبُ أيضًا. سأرتدي تُنكي، إذا كان ذلك يُريحُ بالك. ولَعلّي أغسلُه أيضًا في أثناء اغتِسالي".

تبيَّنَ له أنَّها مُصمِّمة، وإذ شامَها بنظَره ثانيةً فكَّرَ أنَّها كانت على حقٍّ. "بعدَ كم من الوقت تُغادِرُ الحُشود؟"

"أغلَبُهم سينصرِفون في غضون ساعتَين. هُنالك غُرفة صغيرة محجوزة للأُمَّهات

المُرضِعات. كان ممكنًا أن أذهب إلى هُناك".

"كان ينبغي لكِ أن تقولي لي".

"لم تُتح لي الفُرصة. هلَّا تقعُد، من فضلك؟ أنت تُوتِّرُ أعصابي إذ تذرَعُ الغُرفةَ على ذلك النَّحو".

تمهَّلَ ليسكُبَ لنفسه شيئًا من الخمر. وكان قلبُه يدقُّ بسُرعة. كان مُتوتِّرَ الأعصاب، مع أنَّه لم يستطِع أن يُخمِّن السبب تمامًا. وتمنَّى لو رجَعَ ثيوفيلُس معه. فمهما أمكن أن يشعُرَ به تُجاه الرُّومانيِّ، وفَّرَت رِفقتُه له إلهاءً عن مشاعِره حِيالَ رِصفة. وكونُه وحدَه معها الآن جعلَه يتذكَّرُ ما فعله في الهيبوجيوم. أكانت هي مُتذكِّرةً أيضًا؟

"ألا يستحمُّ الجِرمانيُّون؟"

فالتفتَ وحدَّقَ إليها. "بلى، الجِرمانيُّون يستحمُّون، ولكنْ ليس بالجُملة، رِجالًا ونساءً معًا. لدى الجِرمانيِّين حِسُّ احتِشام".

وفكَّرَت أنَّ تغييرَ الموضوع هو الأفضل. "كيفَ كانت آنيا".

"آنيا؟"

لم تكُن تنوي أن تسأل. أمَّا الآن، وقد خرَجَ السؤال دونَ تعمُّد، فتابعَته. "زوجتك. قُلتَ إنَّ اسمَها كان آنيا".

"لماذا تُريدين أن تعرِفي عنها؟"

"قد يقولُ لي ذلك كيفَ كُنتَ قبلَما صنع الرُّومان منك مُصارِعًا".

"كانَت صغيرةَ السِّنِّ".

"صغيرةَ السِّنِّ فحسْب؟ أذلك هو كلُّ ما تتذكَّرُه؟"

"أتذكَّر. أتذكَّرُ كلَّ شيءٍ عنها. كانت جميلة. شقراء. بيضاء. زرقاءَ العينَين".

تورَّدَت حِيالَ تحديقِه المُحدَّد. ما كانت قطُّ مُتنبِّهةً جدًّا إلى شعرها الأسود وبشَرَتها الزَّيتونيَّة وعينَيها الدَّاكِنتَين.

قال: "ماتت في أثناء المَخاض". وتجرَّعَ كأسَه. "مات ابني معها". وكان الإبريقُ فارغًا، فحطَّه خَبطًا.

أغمضَت عينَيها، مُتمنِّيةً لو لم تسأله أيَّ شيء. وفكَّرَت في شمعي وراحيل، وكيف ما يزال قلبُها مَوجوعًا عليهما. ثمَّ فتحَت عينَيها ورفعَت نظرها إليه. "أنا آسِفة. ما كان ينبغي أن أسأل".

جعَلَه الحَنانُ في عينَيها يلين ويسترخي. ”كان ذلك منذ زمَنٍ طويل مضى“. وبالحقيقة لقد كذب. فهو لم يستطع أن يتذكَّرَ حتَّى وجهَ آنيا. وأسوأُ من ذلك أنَّ الألَم الذي شعَرَ به في ما مضى من جرَّاء موتها قد ولَّى. لم تبقَ مِنهُ حتَّى وخزةٌ. فقد كانا معًا في زمَن آخر وفي عالَم آخر، عالَمٍ ناءٍ جدًّا عن روما. وأمالَ رأسَه نحوها. ”كلِّميني عن زوجكِ“.

فتقوَّسَ فمُها ومسَّدَت شعرَ كالِب، وحطَّته أرضًا من جديد بحيثُ يُتاحُ له أن يتحرَّك متى شاء. ”كان لطيفًا، لطيفًا مِثلَ يوحنَّا وثيوفيلُس“.

تصلَّبَ حنَكُ أتريتِس. واتَّكأ على الأريكة، مُرغِمًا نفسه على أن يبدوَ مُسترخيًا. ”لطيفًا فحسْب؟ أذلك هو كلُّ ما تتذكَّرينه؟“

”أتصطادُني بطُعمِ أسئلتي؟“

”إذا شئتِ. ما قُلتِ عنه قطُّ أيَّ شيء. أودُّ أن أعلَمَ كيف كُنتِ قبلَما صِرتِ أُمَّ ابني“.

كان في مِزاجٍ كئيب غريب. فتمنَّت لو بقِيَت صامتةً، إذ كانت تجري بينهما تيَّاراتٌ من العاطفة يمكن أن تبتلِعَها. ”كان بنَّاءً بارعًا، وقد اشتغل باجتهاد في مهنته. فكلُّ ما عمِلَه، عمِلَه لأجلِ الرَّبِّ“.

”يُخيَّلُ إليَّ أنَّه كان وسيمًا وجسيمًا مثل أپولو“.

”لم يكُن وسيمًا البتَّة، ليس بمعايير مُعظَم النَّاس. كان قصيرًا وقويًّا ومُمتلئَ الجِسم وفاقِدَ الشَّعر. ولكنْ كانت له عينانِ جميلتان. وقد كان ذلك واحدًا من الأشياء التي صعقَتني لمَّا تكلَّم إليَّ أوَّلَ مرَّة. هل حدثَ لكَ مرَّةً أن نظَرَ إليك الناس ولم يبدُ أنَّ وراءَ عيونهم أيَّ شيء؟ ينظرون إليك دونَ أن يرَوكَ حقًّا؟“

لقد فعل أتريتِس ذلك، عِدَّةَ مرَّات.

”كان شمعي مُختلِفًا. لمَّا نظَرَ إليَّ، شعرتُ بأنِّي محبوبة مِن أجلِ مَن كنتُ“.

كان في طريقةِ قولها ذلك شيءٌ أثارَ اهتمامَه. ”مَن كان أُولئك الناس الذي نظروا إليكِ دون أن يرَوكِ مِن أجلِ مَن كُنتِ؟“ ولمَّا خفضَت عينَيها، عبَس. مهما كانت قبلَ الزَّواج، فقد كان ذلك شيئًا تردَّدَت في مُشاركته به. ”ربَّما كان ينبغي لي أن أسأل ما كُنتِ؟“

”وحيدة“.

فضاقَت عيناه علَيها. ماذا كانت تُخبِّئ؟ ”جوابٌ مأمون لا يقولُ شيئًا. أنا وحيد، الأمرُ الذي لا يقول نِصفَ ما أنا عليه“.

قالت- وقلبُها يدقُّ بِفُتور- "ربَّما كان ينبغي أن نتحدَّث بأُمورٍ أُخرى". يا الله، ليس الآن. لن يفهمَ البتَّة. ليس في مِزاجه الحاليِّ أو حالته الذِّهنيَّة الراهنة.

وقف أتريتِس مخضوضًا. "قطعَتِ عهدًا بألَّا تكذبي عليَّ أبدًا".

"ما كذبتُ".

"إذًا، قولي لي الحقيقة".

لم تقُل أيَّ شيءٍ لحظةً طالت. "كم من الحقيقة تُريد، أتريتِس؟"

"كلَّها".

رفعَت نظرَها إليه لحظةً طويلة. لقد جُرِّبَت، جُرِّبَت بشِدَّة، بأن ترجِعَ إلى أنماطها القديمة في الحِفاظ على الذات. ولكنَّها إن فعلَت ذلك، أفلا تكونُ مُتحوِّلةً بعيدًا عن الرَّبِّ أيضًا؟ يا الله، فليكتفِ بقليلٍ من الحقيقة ولا يُطالِب بها كلَّها.

ثُمَّ قالت ببُطء: "كان أبي يسكر، سُكرًا شديدًا. أحيانًا إلى الحدِّ الذي عندَه لا يعودُ يعلَمُ ما هو فاعِلُه. وكان من شأنه أن يدخُلَ في نوباتِ غضَب، على غِرارك، ويُحطِّمَ الأشياء، وأحيانًا الأشخاص. وكانت أُمِّي إحدى ضحاياه". ثمَّ شهقَت نفَسًا مُرتعِدًا، مُتذكِّرةً. لم تُرِد أن تتكلَّم عن أبيها كما لم يُرِد أتريتِس أن يتطرَّق إلى ساحة المُحاربين. وشبكَت يدَيها معًا، مُحاوِلةً أن تكفَّ عنِ الارتجاف. وراقبَت كالِب يحبو حولَ أرجُل الأريكة التي كان أبوه مُتَّكئًا عليها قبلَ قليل. "هرَبتُ بُعَيدَ موته". لم تُرِد أن تتذكَّر ما جرى آنذاك.

"كم كان عمرُكِ؟"

"إحدى عشرة".

فعبَّس، مُفكِّرًا في فتاة صغيرة تُعيلُ نفسَها في مدينةٍ مثل أفسُس. "أينَ سكنتِ".

"حيثُما استطعتُ. تحتَ الجُسور، في صناديقَ فارغةٍ على أرصِفة المرفأ، في إنسولايي مهجورة، في مداخل الأبواب، أينما تيسَّر لي العُثور على ملجأ. هناكَ أقمتُ".

"والطَّعام؟"

"سرقتُ أيَّ شيءٍ نالَته يداي، وكذبتُ للتملُّص متى قُبِضَ عليَّ. وصرتُ بارعةً جدًّا في كِلا الأمرَين. عِشتُ كواحدٍ من تلك الجِرذان التي تراها مُقتاتةً بأيِّ شيءٍ تستطيع العُثورَ عليه. والأمرُ الوحيد الذي لم أفعله هو الاستِعطاء". وأطلقَت ضِحكةً خفيفةً ضعيفة مُصاحِبة لليأس الذي تذكَّرَته. "كنتُ أكثرَ امتلاءً بالكبرياء الغاضِبة من أن أفعلَ ذلك".

لم يقُل شيئًا بِضعَ لحظات. "هل حدَثَ مرَّةً أن...؟"

شُحِبَت يداها. ونظرَت إليه عبْرَ الغُرفة. لقد امتلأت عيناها الدَّاكنتان دموعًا وألَمًا. علِمَت ما أراد أن يسأل. حتَّى بعدَ شمعي والفِداء والخلاص، ما زالت الأُمور التي عمِلَتها تملأُها خِزيًا وكَرْبًا.

وقالَت بدلًا منه: "هل بِعتُ نفسي؟ نعم. لمَّا كنتُ جائعةً وبَردانةً جدًّا حتَّى تصوَّرتُ أنَّي لن أعيشَ ليلا".

شعَرَ بالغَثَيان. "كم مرَّةً؟"

"مرَّتين".

"وشمعي؟"

هزَّت رأسَها. "وجدني فاقِدةَ الوعي في مدخل بابِ الإنسولا حيثُ كان يسكُن. أخذَني إلى كلوديا، امرأةٍ كبيرةِ السِّنِّ ذاتِ إيمانٍ عميق كانت تُقيمُ وحدَها. فأطعمتني واعتنَت بي حتَّى تحسَّنَت حالي. وكان شمعي يزورُنا أغلبَ الأحيان. علَّمني كيف أقرأ. كِلاهُما أحبَّاني. وما كنتُ قطُّ قد أُحبِبتُ كذلك قبلًا. أخذاني إلى جماعة المؤمنين بالمسيح. فأحبَّني أُولئك أيضًا. كما كنتُ تمامًا، بائسةً وتائهة، هالكةً إلى الأبد كما خُيِّلَ إليَّ. ولمَّا افتقدَني المسيح بفدائه، صار مُخلِّصي، وطلَبَ شمعي يدي لأكونَ زوجتَه".

فقال بجفاء: "وذلك جعلَكِ فاضِلةً بمَعاييرِهم!"

"كلُّ فضيلةٍ لديَّ تأتي من الربِّ، لا مِنِّي، أتريتِس. لمَّا طلبتُ من المسيح أن يدخُلَ قلبي، غسَّلني وطهَّرني..."

قال: "في النَّهر!" وهو شِبهُ ساخِر.

"لقد جعلَني الله سليمةً من جديد. شعرتُ بأنِّي أُقِمتُ من الموت حيَّةً". ولاحظتَ صِراعَه إذ تقبَّلَ كلَّ ما كشفَته عن نفسها. لم يُرِد أن يُصدِّقها. وتمنَّت لو كان ذلك كلُّه غيرَ صحيح. "ما كذَبتُ ولا غشَشتُ ولا سرقتُ ولا بِعتُ نفسي منذُ دخلتُ بيتَ كلوديا. بحياتي أمام الله، أتريتِس، لن أفعل ذلك ثانيةً".

لقد صدَّقها، ولكنْ ماذا هَمَّ ذلك؟

وبصوت تخنقُه العَبَرات، قالت: "رجَوتُ ألَّا تطرح أبدًا أسئلةً كهذه". وتفحَّصَت وجهَه. "أنا آسِفة لأنَّ الحقيقة تؤذيك هكذا".

ملأه الكَرْبُ، عاصِرًا أحشاءه. والغضَبُ أيضًا، مع أنَّه لم يعلَم على مَن أو ما. ولم يعلم بماذا شعر ما عدا الاحتِرابَ مع نفسه ومع ما قالَته توًّا. إلَّا أنَّ بعضَ الأُمور كانت جليَّةً جدًّا.

فقال بخشونة: ''هل تعلمين ماذا يفعلون بمِثلكِ من النِّساء في جِرمانيا؟ يحلقون رؤوسَهُنَّ ويطرحونَهُنَّ في المُستنقَع. تلك هي الطريقةُ السريعة. وأغلبَ الأوقات، يجدَعُ أبو المرأة أو زوجُها أنفَها ويجلدُها. فإذا بقِيَت على قيد الحياة، تُطرَدُ خارِجَ القرية، وتُترَكُ لتُعيلَ نفسَها''.

لم تنبس رِصفة بكلمة. وحَبا كالِب راجعًا إليها، ثُمَّ قعَدَ عِندَ قدمَيها مُرَفرِفًا بذِراعَيه في سُرور. ''ماما...ماما...'' فانحنَت إلى الأمام لِتَشيلَه.

''لا تلمسيه!''

فأجفلَت وانكفأت على مهل، شابِكةً يدَيها في حضنها، مُغمِضةً عينَيها. وبدأ كالِب يبكي.

رفَعَه أتريتِس، وطرَحَ بعضَ الوسائد المُشرَّبة عن الأريكة وأقعَدَه بينَها. فإذِ التهى كالِب أنينًا، باتَ راضيًا.

سأل أتريتِس، ذارِعًا الغُرفةَ من جديد:

''كم شخصًا آخرَ يعرف ماضيَكِ؟''

''كلُّ مَن في كنيسة أفسُس''.

فتوقَّفَ وحدَّقَ إليها، وعضَلاتُ وجهه تَنتَخِع.

''هل كُنتِ فخورًا به حتَّى أخبَرتِ عددًا كبيرًا كذاك؟''

اغرَورقَت عيناها. ''لا! بل قدَّمتُ شهادتي لمَّا قبِلتُ المسيح، ثُمَّ كُلَّما دعاني الرَّبُّ إلى تقديمها''.

''لماذا؟''

''لأُساعِدَ الآخرين أن يجدوا طريقهم للخروج مِن مِثلِ الظُّلمة التي عشتُ فيها''.

جاشَ الغضَبُ في داخله. ''لماذا أخبرتِني؟ يا لَلجحيم! لماذا أخبرتِني الآن؟''

فقالت بكلِّ هدوء: ''أنتَ سألتَ. قلتُ إنِّي لن أكذِبَ عليكَ''.

''أفضَلُ لو فعلتِ ذلك!''

''أفضَلُ لِمَن؟''

''ماذا يُفترَضُ أن أفعلَ بشأن ذلك؟''

ربِّي الكريم، أهذا هو ما آلَ الأمرُ إليه؟ ونظرَت داخِلَ عينَي أتريتِس الزَّرقاوين، فرأتِ الموتَ يُحدِّقُ إليها في المُقابِل.

"ماذا تتوقَّعين منِّي أن أفعل الآنَ، وقد علِمتُ كلَّ شيءٍ عنكِ؟"

اللهُمَّ، سكِّن قلبي المُرتجِف! أتريتِس مجروحٌ وغاضِب، ومن حقِّه أن ينتزِعَ حياتي. لِتكُن مشيئتُك. سأتوكَّل عليك. وسأعهَدُ بكالِب إلى حِفظك. إنَّما، ربِّي، رجاءً...

"قولي لي!"

"ستفعَلُ مهما شعرتَ بأنَّ عليك أن تفعله".

أكانت تتحدَّاه؟ هل تجرَّأت؟ سحَبَ أتريتِس خَنجره من حِزامه وعبَرَ الغُرفة. ثمَّ أمسكَ بخناقها وأوقفَها على قدَمَيها. "ما عليَّ أن أفعلَه". فخفقت عيناها، ثُمَّ هدأتا استِسلامًا. ولمَّا اشتدَّت أصابِعُه، لم ترفع يدَيها للدِّفاع عن نفسها. "ما عليَّ أن أفعلَه". كان في وسعه أن يُحِسَّ نَبْضَها تحتَ إبهامه، ولكنَّها لم تُقدِّم أيَّ التماس.

وبِلا طلَب، حضَرَته ذِكرى لقائه الأخير مع جوليا. كانت في نوبةِ هِستيريا، مُتشبِّثةً به، مُقسِمةً إنَّ الطِّفل الذي تحمِلُه هو طِفلُه. لو لم تكُن حاملًا، لَقتَلَها لِكونها خائنةً. وفي ما بعد، قال لهَدسَّة إنَّه حتَّى لو وضعَت جوليا الطِّفل عند قدَمَيه لَاستدارَ ومشى مُبتعِدًا، رُغمَ عِلمِه أنَّ الطِّفل له.

أكاذيب، أكاذيب...جوليا، رُوما، والباقي كلُّه، أكاذيب.

نظَرَ داخِلَ عيني رِصفة الداكنتَين وعلِمَ أنَّها قالت له الحقيقة بشأنِ كلِّ شيء. كانت قد قالت: "لن أكذِبَ أبدًا!" بُعَيدَ وصولها إلى الدَّارة في أفسُس. مهما كلَّفَ الأمر.

لم يرَ في عينَيها أيَّ خوف، بل حُزنًا فقط. وقفَت أمامَه وحياتُها في يده، ولم تقُل أيَّة كلمة دِفاعًا عن النَّفس. "سأقطعُ لك عهدًا صادقًا، أتريتِس. لن أكذِبَ أبدًا". وأخذ قلبُه يخفقُ مُسرِعًا. طعنة واحدة من خنجره فينتهي الأمر. أو في وسعه أن يضغط بيَده...

باتت راحةُ يدِه باردةً ودَبِقة من العَرَق. "ينبغي لي أن أقتُلَكِ". وكانت الغُرفة ساكِنةً إلَّا من تنفُّسِه الخَشِن فحسْب.

"أستحِقُّ الموت. أعلَمُ ذلك. مئةَ مرَّةٍ مِرارًا".

ضاقَ صَدرُه حِيالَ كلِماتها وحِيالَ نظرةِ الحُزن في عينَيها. واحتشَدَت في ذِهنه وُجوهُ الرِّجال الذين قتلَهُم.

قالت: ''إنَّما بنِعمة الله باتت حياتي مُختلِفةً''.

فأفلَتها. وهزَّ رأسَه صارًّا بأسنانه، مُحاوِلًا أن يُنكِرَ كُلَّ ما قالته له.

وإذ حاولَت ألَّا تبكيَ فتَجعلَ الأُمورَ أسوأ، قالَت: ''أنا آسِفة، أتريتِس. ما ظَنَنتُ قطُّ أنَّ الخِياراتِ التي اتَّخذتُها تهمُّ. كانت أُمِّي مَيتة. وأبي...'' ثُمَّ طأطأت رأسَها. ''لم يهمَّني ما جرى. كان مؤلِمًا كِفايةً أن أبقى حيَّةً دون التفكير في كيفيَّة تحقيق ذلك. غيرَ أنِّي كنتُ مُخطئة، مُخطئةً جدًّا''.

وضعتَ يدَها على ذِراعه. ولمَّا تراجَعَ بحِدَّة، انقبضَت غريزيًّا، متوقِّعةً ضربة. فضاقت عيناه قاتِمَتَين وخطا مُنكفئًا، مُطبَقَ اليد. مهما قصَدَ أن يفعل بها، كان عليها أن تُكمِّل.

''لقد سفَكَ المسيحُ دمَه ليتسنَّى لي أن أتطهَّرَ ممَّا فعلتُ. لقد بذلَ حياته لأجل كلِّ واحد منَّا، مُسامِحًا لنا بجميع الخطايا. لقد شقَّ سبيلًا جديدًا لأيِّ مَن يختار أن يسلكه، وأنا فعلتُ هذا. وسأبقى أفعل هذا، مهما كان الثَّمن. إنِّي أتمسَّكُ بالمسيح من كلِّ قلبي. ولَن أُفلِتَه البتَّة''.

تذكَّرَ أتريتِس هَدسَّة واقِفةً في دِهليزِ الزَّنزانة. ''لئن قتَلَني...''

وقالت رِصفة: ''إنَّه يُقدِّم لك حياةً جديدة، أتريتِس، إذا قبِلتَها منه فحسْب''.

بدا أنَّ كلَّ اهتمامها مقصورٌ عليه، لا على ذاتها. ''إذًا، على غِرار إلهِكِ غيرِ المنظورِ ذاك، يُفترَضُ أن أنسى كلَّ ما فعلتِه. يُفترَضُ أن أغفر؟''

فقالت بهدوء: ''لن تنسَى أيًّا من ذلك، كما لن أنسى أنا. فتَذكُّري كيف عشتُ وما سمحتُ لنفسي بأن أصيرَه يجعلُني أكثرَ تشكُّرًا بكثير من أجلِ ما فعله المسيح لأجلي''.

قال بِنَخرةِ سُخرِيَة: ''أنا مسرورٌ لأجلكِ. ولكنْ لا تتوقَّعي أيَّ شيءٍ منِّي''. وأحسَّ الخَنجَرَ في يده كالرَّصاص. فزلَّقه داخِلَ القِرابِ المدسوس في حِزامه. ''أنا لا أغفِرُ أيَّ شيء''.

انتفَضَت عَضَلاتُ وَجهِها. لم تحتجَّ أو تُجادِلْ أو تتوسَّل، وإن كان قد توقَّعَ منها أن تفعل ذلك كلَّه. فقال بصراحة: ''ينبغي لي أن أُفكِّرَ في ما عليَّ أن أفعلَه الآن''.

قالت: ''وماذا عن كالِب؟'' وقدِ ارتجفَ صوتُها قليلًا.

''افطِميه. بدءًا من الآن''.

فأغمضَت عينَيها، ولاحَظَ أنَّ كَلِماتِه كانت أصعَبَ على الاحتِمال من أيَّة ضَربةٍ كانَ يمكن أن يُسدِّدها إليه.

ثمَّ مضى إلى الباب. ”لا تُغادِري هذه الغُرفة. هل تسمعينَني؟ إذا غادرتِها، أُقسِمُ بطِيواز إنّي سأُطارِدُكِ ككلبٍ وأقتلُكِ“.

رجَعَ ثيوفيلُس فوجَدَ رِصفة جالسةً على الأرض وكالِب نائمًا على ذراعَيها. فكان في وسعه أن يستنتجَ أنَّ الأُمور لم تجرِ حسنًا مع أتريتِس. ”أين هو؟“

”كان هُنا قبلَ حين، ثُمَّ انصرَف“.

”هل قال إلى أينَ كان ذاهبًا؟“

فهزَّت رأسَها نفيًا.

بالنَّظر إلى مِزاجِ أتريتِس، كان ممكنًا أن يفعلَ الجِرمانيُّ أيَّ عددٍ من الأشياء ليُورِّطَ نفسه في مزيدٍ من البلاء: أن يسكر، أو يدخُلَ في شِجارٍ مع بعض الجنود الرُّومان؛ أو أسوأ من ذلك، أن يطلُبَ لنفسهِ بَغيًّا ويمضيَ اللَّيلَ معها، مُحطِّمًا قلبَ رِصفة على الأرجح.

”سأرجِعُ بكِ إلى الحمَّامات“.

”قال لي أتريتِس أن أبقى هُنا“. وقد تهدَّجَ صوتُها ورفعَت نظَرَها إلى ثيوفيلُس بضعف. ”أخبرتُه بماضيَّ. أخبرتُه كلَّ شيء“. واغرَورقَت عيناها وفاضَتا. ”كلَّ شيء“.

”ليُساعِدنا الله!“ وجَثا بقُربها وطوَّقها بذراعَيه، فأحسَّ جِسمَها يرتجف مع النَّشيج المُتكرِّر.

٢٥

طاف أتريتِس في شوارع غروسّتو حتَّى وجَدَ خانًا في طرَفِ البلدة الشَّماليِّ، بعيدًا عن الحِصن والفَيلقيِّين. فطلبَ خمرًا وجلسَ إلى طاوِلة خلفيَّة. كان مكانًا وضيعًا، نائيًا عن الحِصن، اجتذبَ عُمَّالَ المرفإ وسائقي العرَبات الذين أرادوا الكمِّيَّة، لا النَّوعيَّة، في شُربهم. وقد كانوا ذوي أصواتٍ عالية وأنجاسًا، إلَّا أنَّ أحدًا منهم لم يُزعِج أتريتِس.

طَرطقَ المطَرُ على السَّقف مُضاعِفًا الضَّجيج. وشرِبَ أتريتِس كثيرًا، غيرَ أنَّه لم يبدُ قادِرًا على طَردِ ما قد قالته رِصفة من رأسه.

كاذِبة، سارقة، زانية.

ظلَّ يرى عينَيها، قاتِمَتَينِ حُزنًا وهي تُخبِرُه. لم تكُن تُشبِهُ في شيءٍ الشَّخصَ الذي وصفَته. لقد تركَت كلَّ ما عرَفَته لتذهب معه إلى جِرمانيا لأجله ولأجل كالِب، ولم تتذمَّر مرَّةً واحدة من الصُّعوبات المادِّيَّة. لقد أنقذَت ابنه من الموت. وأمسكَت نفسَها عنه رُغمَ محاولاته أن يجعلها تُهاوِدُ في أخلاقيَّاتها.

كاذبة؟ سارقة؟ زانية؟

أنَّ، ضاربًا الطاولة بقبضتَيه.

خيَّمَ الهدوءُ والسُّكون على المكان. ورفعَ رأسَه فرأى الجميع يُحدِّقون إليه. "إلامَ تنظرون؟" فأداروا ظهورَهم، مُتظاهِرين بصرفِ انتباهِهم إلى ناحية أُخرى، ولكنَّه استطاعَ أن يُحِسَّ التَّوتُّر في الغرفة. لا شكَّ أنَّهم حسبوه مجنونًا. وكان في وسعه أن يُحِسَّ خبْطَ قلبهِ الشَّديدَ السريع وحرارةَ دمه. ربَّما كان مجنونًا!

طلَبَ مزيدًا من الخمر. فأحضرَهُ المالِكُ بنفسه، ولم يجرؤ على أن يُجريَ احتكاكًا بَصَريًّا قبلَ انصِرافه. وملأ أتريتِس كأسَه ثمَّ أطبق يده عليها.

ماذا كان مُفترَضًا أن يفعلَ حِيالَ ما أطلعَته رِصفة عليه؟ في جِرمانيا، كان من شأنه أن يقتُلَها. وكان من شأنِ الشُّيوخ أن يطلبوا منه القيامَ بذلك. وما لبِثَ أن تصبَّبَ عرَقًا باردًا لِمُجرَّد تفكيره في ذلك، وتنكَّبَ عن النَّظر في السبب الذي من أجله وصل إلى تلك الحالة.

كاذبة، سارقة، زانية. ظلَّ ذلك يتكرَّر في ذِهنه.

غطَّى رأسه بيدَيه. وماذا كان هو؟ جزَّارَ بَشَر.

أرادَ أن يذهب إلى الدِّيار، إلى الدِّيار في جِرمانيا! أرادَ أن يرجع إلى الحياة التي عرفها قبلَما سمعَ بروما أصلًا. لم يُرِد أن يُفكِّر في أيِّ شيء آخر. أرادَ الحياة بسيطةً من جديد. أرادَ السلام.

ولكنْ، هل كانت الحياة بسيطةً يومًا؟ هل عرَفَ يومًا سلامًا من أيِّ نوع؟ منذُ أن بلغَ عُمرًا كافيًا لأنْ يحمل سِكِّينًا ثُمَّ فراميا، دُرِّبَ على أن يُقاتِل. وقد خاضَ معارِكَ ضدَّ قبائل جِرمانيَّة أُخرى دخلَت أراضيَ قبيلته، ثمَّ ضدَّ الرُّومانيِّين الذين فكَّروا أن يستعبدوهم. ثُمَّ ألَم يفعلوا ذلك؟

عشرَ سنين عاشَ وأيديهم حول حَنجرته، مُقاتلًا لأجلِ حياته، مُسلِّيًا إيَّاهُم في تلك الأثناء كلِّها.

وإذ دَفَعَ الكُرسيَّ العاليَ العديمَ الظَّهر إلى الوراء، نهضَ وتوجَّه مُترنِّحًا نحوَ الباب. كان المطر ينهمِرُ في الخارج. وإذ خرج، تعثَّرَ بشيءٍ ما وسمعَ أنينًا خافتًا. فأسنَدَ نفسَه شاتِمًا إلى إطار الباب ونظَرَ إلى أسفل. وزاحَ من طريقه مذعورًا شخصٌ صغيرٌ ونحيل. كان فتاةً صغيرة. وقد تكوَّمَت بلِزقِ الجدار، مُحدِّقةً صعودًا إلَيه بعينَين قاتمَتَين واسعتين. كان وجهُها شاحبًا وهزيلًا، وشعرُها الدَّاكن أشعَثَ وغيرَ مُهندَم. فقدَّرَ أنَّ لها من العمر ما لا يتخطَّى عَشرًا أو اثنتي عشرة، وكشَّرَ مُشمئزًّا من الخِرَق البالية التي ترتديها.

"سكنتُ حيثُما استطعتُ. تحت الجُسور. في صناديقَ فارغةٍ على أرصِفة المرفأ، في مداخل الأبواب..."

أغمضَ عينَيه ثمَّ فتحَهما ثانيةً، ظانًّا أنَّ ذهنَه المخمورَ قد لفَّقَ رِصفة فتاةً صغيرة. ولكنَّ الفتاة كانت ما تزالُ هناك. وقد كانت ترتجفُ بشِدَّة، إمَّا من البرد وإمَّا من الخوف، لم يدرِ. رُبَّما من كِلَيهما.

ولمَّا تحرَّك، انكمشَت مُنقبِضةً، وقد بدَت أنَّها صارت أصغَرَ أمامَ عينَيه. فقال: "لن أُوذيَكِ". وأخرجَ قِطعةَ نَقدٍ من صُرَّةِ المال في حِزامه. "هاكِ! اشتري شيئًا تأكُلينَه". ورمى القِطعةَ إلَيها.

حاولَت يائسةً أن تلتقطها، ولكنَّ أصابعها الباردة أبت أن تنطبِقَ عليها. فسقطَت القِطعة الثمينة برنَّةٍ صغيرة في بُرَيكةِ الوحل. وبصرخةِ يأسٍ رقيقة، خرَّت على رُكبتَيها قُدَّامَه وتحسَّسَت بأصابعها في الوحل مُحاوِلةً أن تعثُر على قِطعة النَّقد.

حدَّق أتريتِس إليها من عَلُ، وقلبُه ينعصِرُ اشمئزازًا وإشفاقًا. ما من كائن بشريٍّ ينبغي أن يعيش هكذا، ولا سيَّما فتاة صغيرة! وأغمض عينَيه من جديد، فرأى رِصفة على يدَيها ورُكبتيها في الوحل.

"هل بعتُ نفسي؟ نعم. لمَّا كنتُ جائعةً وبردانة جدًّا حتَّى تصوَّرتُ أنِّي لن أعيش ليلا".

كان بُكاء الفتاة كمِلحٍ على جُرحٍ مفتوح.

قال أتريتِس بصوتٍ أجشَّ: "اتركيها!" وإذ كانت جائعة ويائسة، لم تُلَبِّ طلَبَه. "قلتُ: اتركيها!" فانكفأت من جديدٍ مذعورةً. ولمَّا خطا نحوَها، رفعَت ذِراعَيها لتتفادى من ضربة. "لن أُوذيَكِ". وأخرجَ قطعة نقد أُخرى من صُرَّته. "هاكِ!" فلم تتحرَّك. "خُذيها". ومدَّ يدَه بها. فنظرَت إلى وجهه ثُمَّ إلى القطعة. فقال بهدوء: "خُذيها"، كما لو كان يتملَّق حيوانًا جائعًا خائفًا بلُقمةِ طعام. فراقبَته بحَذر، وهي ما تزال مُرتابة، فيما أطبقت على القطعة بأصابعها الموحلة. "تمسَّكي بها هذه المرَّة".

ولمَّا مشى تحت المطر، سمِعَها تقول: "أوريوس! لقد أعطيتني أوريوسًا! باركتكَ الآلِهة، سيِّدي. آه، باركتك الآلِهة!" وقد كانت تبكي.

ظلَّ أتريتِس يمشي، وهو لا يكاد يشعر بالرِّيح الباردة. ثمَّ تضاءلَ تأثيرُ الخمرة بالتدريج، جاعلًا إيَّاه يشعر بمزيدٍ من التَّأذِّي بَعد. ووصل إلى جِسر ضيِّق يعبُر جدولًا شمال غروسِّتو تمامًا. وقد غمرَ الضَّوءُ الأُفُقَ لدى بزوغ الفجر. وكان مُتعَبًا ومكتئبًا، ورأسُه يطرق.

تساءلَ عن رِصفة هل بقِيَت في الغُرفة كما أمرها، أم هل ذهبَت إلى الحمَّامات. وبالنَّظر إلى ما قالَته له وإلى حالته الذِّهنيَّة عندما غادر، كان في وسعه أن يتوقَّع منها أن تكون قد مضَت قبلَ رُجوعه.

وماذا بشأنِ ابنه؟

كم كان أحمق! وتوجَّه عائدًا إلى البلدة.

مرَّ به فَيلقيُّون رومانيُّون. فجعَلَ صوتُ صنادِلهم ذاتِ المسامير الغِلاظ عضلاتِهَ تتصلَّب. ورأى أبواب الحِصن. وقد كانت الخِيام التي تحفُّ بالشَّارع قُدَّامَ الحِصن تُفتَحُ للبيع والشِّراء. كان هنالك أشياءُ أراد أن يشتريَها أمس، ولكنَّه شكَّ في أن تكون ضروريَّة الآن.

كان الخان هادئًا لمَّا وصلَ إليه. فمشى في الرِّواق بخُطًى واسعة وتوقَّف عند باب مَهجعِهم. ووضع يده على المزلاج، ثُمَّ تمهَّلَ. وبدَلَ أن يدخُل، وقفَ خارجًا يُصغي بتوتُّر. لم

يكُن صوتٌ من الداخل، وكان الفجرُ قد ولَّى منذ وقتٍ لا بأس به. كفى حديثٌ عن طاعتها! وإذ شتَمَ هامِسًا، فتحَ الباب ودخل. سيستريحُ قبل أن يذهب للبحث عنها.

كانت رِصفة واقفة بقُرب النافذة. فدارَت، وقد غمَرَ الفرَجُ وجهَها. "أنت بخير! الحمدُ لله".

كانت ما تزال ترتدي التُّنكَ الوسِخَ البالِيَ عينَه. حتَّى إنَّها لم تكُن قد غسَلت قدمَيها. "لم تذهبي إلى الحمَّامات".

"قُلتَ لي أن أبقى هُنا". ولمَّا لم يقُل أيَّةَ كلمة أُخرى، مشَت إلى الأريكة وقعدَت، ورُكبتاها أضعَفُ من أن تحمِلاها.

تساءلَ هل كانت واقِفةً عند النافذة طَوالَ اللَّيل تنتظِرُه. وقد بدا عليها ذلك. ثُمَّ أشاحَ وجهَه عنها، مُنزعِجًا من المشاعِر الجائشة في داخله. إنَّها لم تهرُب. لقد فعلَت ما أمَرَها به وانتظرَت رجوعه.

مهما كلَّفَ الأمر!

ونظرَ حَوالَيه فرأى كالِب ملفوفًا ببطَّانيَّة ونائمًا على نحوٍ مُريح بين الوسائد التي كانت قد ألقَتها على الأرضِ البارِحة.

"أين ثيوفيلُس؟"

"خرَجَ قبلَ سُوَيعاتٍ ليبحثَ عنك".

نظَرَ إليها ثانيةً فعلِمَ أنَّها مهما كانت من قبل فهي شخصٌ آخَرُ الآن. وما كان يستطيعُ أن يرى ذلك الشَّخصَ الآخَر فيها، مهما حاولَ جاهدًا. وقد علِمَ شيئًا آخر. وكان ذلك إدراكًا ثاقبًا- إدراكًا غمَرَه بشُعورِ سلامٍ لم يكُن قد عرَفَه طوَالَ سنين. فلم يهُمَّه ما كانت؛ لقد علِمَ ما باتت.

وقال ببساطة: "لم تقتُلي أحدًا قطُّ". فلا شيءَ ممَّا قد فعلَته لِتَبقى حيَّةً كان أسوأ ممَّا كانَهُ هو.

أذهلَتها كلِماتُه، إذ رأت فيها أنَّه برَّأها من كلِّ ما قد فعلَت. وغمَرَها الشُّكرُ والفرَح، ثُمَّ رقَّا إذا أدركَت أنَّه أيضًا كشَفَ شيئًا عميقًا وقاتمًا ومؤلمًا عن حياته الخاصَّة. لقد دانَ نفسَه. فقامَت وجاءت إليه. "خطاياك ليست أكبرَ من خطاياي أبدًا، أتريتِس. إنَّ الرَّبَّ لا يَقيسُ كما يقيسُ الإنسان. إنَّه..."

فقال: "لن نتكلَّم ثانيةً عن أيِّ شيءٍ من ذلك". ثمَّ خطا بقُربها.

والتفتَت فشاهدَته يعبُر الغُرفة ويتناول إبريقَ الخمر. وإذ وجدَه فارِغًا، شتَمَ وحطَّه. ونظَرَ حوالَيه ذاهِلًا، مُتردِّدًا، قلِقًا. ولم تكُن قطُّ قد رأته مُتعَبًا ومَهمومًا هكذا. فقالت بلُطف: ''استَرِح، أتريتِس. سنُكمِلُ الحديث حين تكونُ مُستعِدًّا''.

تمدَّدَ على الأريكة الكُبرى، ووضعَ ذِراعَه وراءَ رأسِه. وحدَّقَ إلى السَّقف مُتوتِّرَ الجِسم.

أخذَت بطَّانيَّةً عن أريكتها. وتأمَّلَها إذ أقبلَت إليه، مُتشرِّبًا كلَّ لمحةٍ من ملامحها كأنَّه ما رآها قطُّ من قَبل، وكان يُحاول أن يُخمِّنَ مَن كانت من واقعِ هيئتها. ثمَّ ألقَت البَطَّانيَّة عليه. وأمسَكَ بمِعصَمِها لمَّا همَّت بالابتِعاد.

''قُلتِ إنَّ في الحمَّامات غُرفةً تستطيعين فيها أن تغتسلي على انفِراد''.

قالت، وقلبُها يتسارع: ''نعم''.

فأفلَتها. وإذ نزَعَ حِزامَه، أسقطَه مع صُرَرِ المال على الأرضيَّة قُربَ الأريكة. ''خُذي ما تحتاجين إليه واذهبي. خُذي كالِب معكِ وحمِّميه أيضًا''.

أخذَتها المُفاجأة على حينِ غِرَّة. وقالت برِقَّة مُتلَعثِمةً: ''شُـ...شكرًا!'' مُتسائلةً في صَمتٍ عن أسبابه. أكانَ قرارُه امتحانًا أم علامةَ ثِقة؟ في كِلتا الحالَين، ماذا هَمَّ ذلك؟ وجثَت فأخذت من الصُّرَّة بِضعَ قِطَعٍ نُحاسيَّة. ثُمَّ قامت فذهبَت وشالت كالِب عن الوسائد. وإذ فتحَت الباب، حانت منها التِفاتةٌ إلى الوراء فرأت أتريتِس يُراقِبُها.

''لن نتأخَّر''.

كان في الحمَّامات زبائن قليلون، أغلبُهم نِساءٌ مع أولادهنَّ. ولِقاءَ نُحاسيَّةٍ ثانية، غسلَت خادِمةُ حمَّاماتٍ تُنكَها في أثناء استحمامها مع كالِب. وقد أحبَّ اللَّعِبَ في الماء. ولمَّا فرِغَت، فرَكَت جِسمَها بالزَّيت المُعطَّر وكشَطَته بالمِكشَطة.

في طريق الرُّجوع إلى الخان، صرفَت القِطَعَ القليلة الباقية لشِراء ما يكفيهم جميعًا من الخُبز والفاكهة. لا بُدَّ أن يؤدِّيَ الماءُ نفْعَه ما دامت لا تملك مالًا يكفي لشِراء نبيذ، ولكنْ رُبَّما كان أتريتِس أيضًا قد شرِبَ حتَّى التُّخمةِ البارِحة.

دخلَت الغُرفة بهدوء، مُتيقِّنةً بأنَّ أتريتِس لا بُدَّ أن يكون نائمًا. إلَّا أنَّه لم يكُن. لقد كان مُستلقيًا على الأريكة كما تركَته. كان ثيوفيلُس قد رجَعَ أيضًا، وكان نائمًا على الأريكة القُربى من الجِدار. فاسترخى أتريتِس لمَّا دخلَت الغُرفة. وتحرَّكِ، مُريحًا نفسَه أكثر، ثُمَّ غَطغطَ عليه النَّوم وهيَ تُراقِبُه بَعد.

امتحان! هكذا فكَّرَت، وأرادت أن تردَّ الشَّعرَ عن وجهه.

تاقت رِصفة لأنْ تنامَ هي أيضًا، ولكنْ كان ينبغي لها أن تعتني بكالِب. فإذ كان قد نام طَوالَ الليل، كان مُستيقظًا تمامًا وفي مِزاج يُرغِّبُه في اللَّعِب. فتيقَّنت بعدَم وجود أيِّ شيءٍ يؤذيه على الأرض أو في مُتناوَله، وقعدَت مُسنِدةً ظهرَها إلى الباب، مُحاوِلةً أن تُراقِبه. لقد كان مسرورًا، يُسَلِّي نفسَه بين الوسائد.

أيقظَت أتريتِس ثرثرةُ الصَّبيِّ الطِّفليَّة. وإذ انقلبَ، شاهدَ ابنه يدفَعُ وِسادةً على الأرض. وقد تدفَّقَ نورُ الشمس عبْرَ النافذة، مُبيِّنًا أنَّ ساعةً واحدة على الأقلِّ قد مضَت بعدَ الظُّهر. وكانت رِصفة مُستلقيةً على جنبها مُلتفَّةً بلِزق الباب. فتأمَّلَها أتريتِس، مُستمتِعًا بمَرآها. ثُمَّ قام وعبَرَ الغُرفة بهدوء.

لَمَّا شالها، أحسَّ الرُّطوبةَ اليسيرة في تُنكِها لكونه قد غُسِلَ البارِحة. ثمَّ وضعها على أريكتها ووقف فوقها، جاعِلًا حَملقتَه تلتقطُ كُلَّ مُنحَنًى ومُنبسَطٍ من جِسمها. ولفَّ خُصلةً من شعرها الدَّاكِن حولَ إصبعه، فارِكًا إيَّاها بين أصابعه. لن يحزرَ أيُّ مَن ينظر إليها أنَّها عاشت في شوارع مدينة مثل أفسُس، سارقةً وبائعةً جسَدَها لتَبقى حيَّةً. لقد بدَت شابَّةً وغيرَ مُلطَّخة. وترك خُصلةَ الشَّعر تنسَرِح. فارتجفَت قليلًا، والتفَّت على جنبها. وبحَثَ عن بطَّانيَّتها فأدركَ أنَّها كانت قد أعطته إيَّاها.

رأى عباءته مُعلَّقةً بقُرب الكانون. وكان قد أسقطها على الأرض لدى وصولهم إلى الخان ونسِيَها حيثُ ترَكَها. لقد كان مُنكبًّا بجُملته على الخروج من الغُرفة والحُصول على وقت كي يُفكِّر في ما أخبرَته به. وقد كانت الحُلَّة الثَّقيلة مُبلَّلةً على كلِّ حال، وما كانت لتنفعه إلَّا قليلًا. فالتقطَها الآن ووجدها جافَّة ودافئة.

غطَّاها بالعباءة. وإذ مسَّ خدَّها برِفقٍ بمفاصِلِ أصابِعه، وقفَ مذهولًا من إمكانِ أن تكونَ بشَرتُها ناعمةً جدًّا هكذا.

لَمَّا استيقظت رِصفة في وقتٍ مُتأخِّر من عصر النَّهار، كان أتريتِس قد مضى.

وما كانت لِتعثُرَ على كالِب في أيِّ مكان.

٢٦

قال ثيوفيلُس: "سأستعيرُ حصانًا من الحِصن وأسلكُ الطريقَ المُتَّجه شمالًا. أتريتِس يعلَم ما يكفي للذَّهاب في ذلك الطريق. فابقَي أنتِ هُنا وانتظِري في حالَ غيَّرَ رأيَه وعاد".

"وإذا عاد؟"

"باشِرا الارتحال. خيِّما بقُربِ مَعلَم. سأعثُر عليكم". وتركَ لها من المال ما يكفي أُجرةَ مَبيتٍ ليومَين.

ذرَعَت رِصفة الغُرفة ذهابًا وإيابًا، مُصلِّيةً بحرارةٍ أن يعود أتريتِس، مُتيقِّنةً بأنَّه لن يعود. يا ربُّ، أنت صخري وتُرسي، معونتي الحاضرة دائمًا في وقت الضِّيق. يا الله. كالِب. كالِب!

امتلأ صَدرُها حليبًا حتَّى أوجعَها الثِّقل. ومع الألَمِ البدَنيِّ جاء الشَّكُّ، قابضًا على قلبها بأصابعَ ذاتِ بَراثِن.

"افطِميه. ابتداءً من الآن".

مكتبة ياسين
t.me/yasmeenbook

يا الله.

"أنا لا أغفِرُ شيئًا".

يا ربُّ، رجاءً.

وقعدَت تبكي في الظُّلمة المُتعاظِمة، مُصالِبةً يدَيها على صدرها، ضاغِطةً على الألم.

مشيئتَك، يا ربُّ! أعطِني الشَّجاعةَ لأقبلَ مشيئتك.

أضاءتِ السِّراج. وعادت تَذرعُ الغُرفة، مُتمتِمةً بكلماتٍ علَّمها شمعي إيَّاها، مُتشبِّثةً بها بتصميم في أثناء مُحاربتها للشُّكوك التي تنتابُها. "لَديكَ خُطَطٌ لي، خُطَطٌ لخيري لا لِبلائي لتُعطيَني مُستقبلًا ورجاءً. يا ربّ، أنتَ وجدتَني ورددتَ نفسي. ضممتَني في حِضنِك. أخرجتَني من الهُوَّة". وجرَت الدُّموع على خدَّيها. "يا ربُّ، مشيئتَك...مشيئتَك...يا ربُّ..."

ثمَّ انفتَحَ الباب.

فدارت بسُرعة إذ دخلَ أتريتِس بخُطًى واسعة، وكالِبُ على ذِراعَيه.

قال أتريتِس بابتسامة: "أنتِ مُستيقِظةً!" هازًّا عن كتِفَيه صُرَّةً ثقيلة ومُسقِطًا إيَّاها على الأرض.

حدَّقَت رِصفة إليه.

بادَلَها أتريتِس النَّظَر، وقد تضاءلت ابتِسامتُه في عبسةٍ ذاهلة. ''ما الخَطب؟''

فقالت بضعف: ''الخَطب؟''

''تَبدينَ...'' وهزَّ كتِفَيه لاحتياجه إلى كلمة. ''مُنزعِجةً''.

''ما الخَطب؟'' وغلى دَمُها. ''تأخُذُ كالِب وتُغادِرُ بِلا كلمة، وتسألُني ما الخَطب؟''

فقال بِنَطقٍ مُنفِّر: ''كنتِ نائمة، ووجَبَ أن يعتنيَ أحدٌ بكالِب. هاكِ!'' وطرَحَ الولَدَ على ذراعَيها. ''إنَّه جائع''. ثمَّ توجَّه عبْرَ الغُرفة إلى الطَّاوِلة. ''وأنا أيضًا''.

وقفَت فاغِرةً فمَها انشِداهًا.

وإذ رأى قِطعةً من الخُبزِ البائت، قال: ''ليس من شيءٍ هُنا''. ثُمَّ نظَرَ إليها مُجدَّدًا.

''أخذَ ثيوفيلُس الخُبزَ الذي بقيَ''.

''وليس من شيءٍ آخر؟''

فقالت من خلال أسنانٍ مُطبَقة: ''لم تكُن لي شهيَّةٌ''. وقد كانت على يقينٍ بأنَّها ملكَت القُوَّة لقتله بيدَيها المُجرَّدتين. وفيما هي ترتجف غضَبًا، أدارت له ظهرَها، وقعدَت على الأريكة، وفتحَت ثوبها لتتمكَّن من إرضاعِ كالِب.

قال أتريتِس: ''أأنتِ مريضة؟''

''لا''.

فتجهَّم. لم تكُن تتصرَّف كعادتها، وجعلَه ذلك مُتوتِّرَ الأعصاب. ثمَّ قال: ''سأُحضِرُ لنا شيئًا نأكلُه''. وخرَج.

لم تُبالِ رِصفة بأن يعودَ أصلًا، ثُمَّ خشِيَت ألَّا يعود. ولمَّا عاد أخيرًا، أحضَرَ خُبزًا وعِنَبًا وفرُّوجَين مَشويَّين، وزِقَّي خمر، وأثارَ غيظَها الأشدَّ بِمزاجِهِ المسرور.

قال أتريتِس: ''أين ثيوفيلُس؟ أفي الحمَّامات أم في الحِصن مع رُفقائه الأوغاد؟''

''لا هُنا ولا هُناك. ذهبَ يبحثُ عنك. ثانيةً!''

''إلى أين يظنُّ أنِّي ذهبت؟''

''شمالًا''.

حدَّقَ أتريتِس إليها. ''شمالًا؟'' وضحِك. واشتدَّ ضَحِكُه إذ فكَّرَ في الرُّومانيِّ مُحاوِلًا

أن يُدرِكه. فقال: "شمالًا!" وشقَّ فرُّوجًا نصفَين. كم من الوقت سيستغرِقُ الرُّومانيُّ ليُقدِّرَ أنَّه لم يُغادِر غروسِّتو أصلًا؟ وبابتسامةٍ عريضة، انتزَعَ قِطعةَ لحمٍ بأسنانه.

شبعَ كالِب ونام على ذِراعَي رِصفة. فوضعَته على أريكتها وغطَّته بعباءة أتريتِس. وإذِ استقامت، حدَّقت إلى أتريتِس، مُسخَطةً من مرَحِه. "كيف يمكنك أن تضحك على ذلك؟"

"سيكونُ عليه أن يمشيَ وقتًا طويلًا ليعثُرَ عليَّ".

"كان ينوي أن يحصُلَ على حِصان".

"راكِبًا إذًا. ها! أفضَلُ بعد. أُحِبُّ أن تكون بيننا مسافةٌ كبيرة". وضحِكَ ثانيةً، ثُمَّ انتزعَ قِطعةَ لحمٍ أخرى بأسنانه. ولوَّحَ بشَطرِ الفَرُّوج، قاصِدًا أن تُشارِكَه.

فعبَرَت الغُرفة، وقعدَت مُقابِلَه، والتقطَت نِصفَ الفرُّوجِ المَشويِّ الآخَر، وفكَّرَت في صفعه به على جانبِ رأسه. إلَّا أنَّها بدلًا من ذلك نزعَتِ السَّاق، قائلةً: "كان في وسعك أن تُخبِرنَا".

"قلتُ إنَّكِ كنتِ نائمة".

"لم يكُن ينبغي أن تُغادِر".

ضاقَت عَينا أتريتِس. "أنا لا أُجاوِبُكِ، يا امرأة. ولي يقينٌ جحيميٌّ بأنِّي لن أُجاوِبَه هوَ أبدًا".

"إنَّه يدلُّكَ على الطريق إلى الدِّيار".

فقال أتريتِس هازًّا كتِفَيه: "في وسعِ شخصٍ آخَر أن يُرِيَني الطريق".

"إذا سمحَت لك كبرياؤك التي لا تُحتمَل بأن تسأل".

تجمَّدَ لحظةً ثُمَّ رمى الفرُّوج على الطَّبَق، وقد تبدَّدَ مِزاجُه الطيِّب. "كبريائي؟"

فاستحال الغضَبُ سُخطًا، وقالَت: "ماذا كان يُفترَضُ أن أظُنَّ؟ قُلتَ: «افطِميه» وقُلتَ: «أنا لا أغفِرُ شيئًا؟»" ورمَت ساقَ الفرُّوج على رأسه. وإذ كانت ردَّة فعله جيِّدةً كحالها دائمًا، أخطأت هدَفَها. ولم تكُن قطُّ قد رأته يبدو مُفاجأً...حتَّى الآن.

"ظنَنتُ أنَّك غادرتَ وأخذت كالِب معك". وسالَت دموعُها غزيرةً. وإذ أحرجَتها قلَّةُ السَّيطرة على مشاعِرها، وقفَت بسُرعة وغادرت الطاولة.

سادَ صمتٌ طويل وراءها.

ثمَّ قال أتريتِس بهدوء: "لقد غطَّيتُكِ بعباءتي!" وكأنَّ ذلك فسَّرَ كلَّ شيء.

فدارت ونظرَت إليه، غيرَ مُستَوعِبة. وبادَلَها أتريتِس النَّظر كما لو كانت قد أطلعَت قرنَين. ورُبَّما أطلعَت.

شعَرَ بالاضطراب. لماذا كانت تُحدِّق إليه على ذلك النَّحو. وإذ تفلطَحَ فمُه، التقطَ فرُوجَه من جديد. "اقعُدي وكُلي، يا امرأة. لعلَّك تُفكِّرين أفضل وفي معدتكِ شيءٌ من الطَّعام".

عادَت رِصفة وقعدت. "لقد غطَّيتُكِ بعباءتي". وانتظرَت أن ينتظر إلَيها ثانيةً، إلَّا أنَّه بدا مُصمِّمًا على تناوُلِ عشائه والتَّظاهُر بأنَّها لم تكُن موجودةً أصلًا في الغرفة. فقالت بهدوء: "ظننتُ أنَّك نسِيتَ عباءتك مُجدَّدًا".

"ما نسِيتُها". ورمى العظام على الطَّبَق، لا على الأرض. لقد كان سلوكُه آخِذًا في التَّحسُّن.

"أنا آسِفة لِرَميي ساقَ الفَرُّوج عليك".

كيف يمكن أن تكونَ امرأةٌ مُضطرِمةً غضبًا في ثانية، ثُمَّ هادئةً بصَفاء في الثانية التالية؟ "كُوني مسرورةً لأنَّكِ لم تُصيبيني". ومدَّ يده فأخَذَ عُنقودَ عِنَب.

"ما كان ينبغي لي أن أفترِض..."

"كُلي!"

فالتقطَت الفَرُّوج مُبتسِمةً ونزعت جناحًا. وأكَلا بِصَمت، هو بصَمتٍ مُتوتِّر، وهي بصَمتٍ هادئ. ثُمَّ فرِغَ أتريتِس أوَّلًا ومسَحَ يديه على بطَّانيَّة. وقد بدا راغبًا في الابتعاد عنها وعن الطاولة بأسرعِ ما يمكنه.

"بأيِّ توجيهات زوَّدَكِ ثيوفيلُس؟"

"أن نتوجَّه شمالًا ونُخيِّمَ بقُربِ مَعلَم. قال إنَّه سيعثُرُ علينا".

رجَعَ أتريتِس إلى الصُّرَّة التي أسقطَها على الأرض. ففكَّ الحِبال وفتح البَطَّانيَّة. ورمى إليها لفَّةَ ثيابٍ ثقيلةً. وإذ سقطَت مُنحلَّةً في يدَيها، أدركَت أنَّها كانت تُنكًا صُوفيًّا سميكًا. "في وسعِك أن ترتدي الذي لكِ تحتَه". ثُمَّ رمى إليها فردة جزمة مُبطَّنة بالصوف شبيهةً بتلك التي يلبسها الجنود في الجوِّ البارد. وحالما التقطَتها، رمى إليها الفردةَ الثانية. وكان نَعلا الجزمة مصنوعَين من الجِلد الثَّخين ومُرصَّعَين بمسامير قِصار غِلاظ.

"ستبقى قدَماكِ جافَّتَين ودافئتَين في هذه الجزمة. لقد طلبتُ فرْكَها بشَمع النَّحل". ثُمَّ أخرج عباءةً صوفيَّة ثقيلة ووقف. "ستحميكِ هذه من التَّجمُّد في الثَّلج، وسيكونُ كثيرٌ منه حيثُ نحنُ ذاهِبون".

فأسقطَت الجزمة، وضغطَت وجهَها داخِلَ العباءة الصوفيَّة، وبكَت.

وقف أتريتِس صامتًا، مُرتبكًا. أصغى مُتجهِّمًا إلى نشيجها، وأراد أن يُعزِّيَها. وقد علِمَ أنَّه

لا يستطيع ذلك. كان الطِّفل نائمًا، وثيوفيلُس بعيدًا عِدَّةَ أميال، وكانا هُما وحدَهما في هذه الغُرفة. وما شعَرَ به كان قويًّا فوقَ الحدِّ. وقد علِمَ أنَّها شعرَت هي أيضًا شعورًا مُماثِلًا. فإنْ لَمَسَها، فرُبَّما لا يُصغي لأيِّ اعتِراض قد تتفوَّه به. إنَّه لم يثِق بنفسه في ما يتعلَّق بها. قد شُحِذَت غرائزُه الدُّنيا لتسودَ وقتًا طويلًا فوقَ الحدِّ. فلم يُرِد أيَّ أمر إضافيٍّ يندم عليه. وهو قد عايَشَ أصلًا ما يكفي من ذلك.

"إذا ارتدَيتِ هذه الأشياء الآن، رِصفة، فقد نقطَعُ مِيلَين قبلَ هُبوطِ اللَّيل".

وقفَت رِصفة ناشِقةً وحلَّت زُنَّارها. وزلَّقَتِ التُّنكَ الصُّوفيَّ الثقيل من فوقِ رأسها. فانسدَلَ في ثنايا واسعة مُريحة حتَّى كاحِلَيها. ثُمَّ ربطَت زُنَّارها وقعدَت من جديد، لابِسةً الجزمة. وأرخَت السُّيورَ الجلديَّة ثمَّ سحبَتها وأوثقَتها بإحكام وثَنَت أعلى الجزمة بحيثُ لاءمت مُنتصف بطَّةِ السَّاق. ووقفَت شاكِرةً الله لأنَّها لن تُضطرَّ لأنْ تمشيَ ميلًا آخر بصَندَلها البالي.

قالت ببساطة: "شُكرًا لك!" مُحاوِلةً إلَّا تبكيَ من جديد. وأضافَت: "إنَّها تُلائم قدمَيَّ تمامًا. كيفَ عرَفتَ؟"

فتقدَّمَ ووضعَ العباءة حولَها. "أخذتُ معي فَردةً من صَندَلِكِ". وأمسَكَ بأطرافِ الثَّوب، مُحدِّقًا داخِلَ عينَيها ونَبضُه يطرقُ طرقًا. وقد غمرَته رِقَّةٌ ضارية، ورغبةٌ في حمايتها. فلَم يرُقهُ ما جعلَته يشعر به، وأفلَتها.

وفيما هو يُرتِّب أمتِعته مُجدَّدًا ليَسهُلَ حَملُها، قال: "عندما نصِلُ إلى جرمانيا، لن تُخبري أحدًا بما أخبرتِني به". ولمَّا لم تقُل شيئًا، التقطَ الحُزمة والتفتَ لينظُرَ إليها. "أعطيني كلمتَكِ".

"لا أستطيع. أنت تعلم أنِّي لا أستطيع".

أبى أن يُصدِّقَ أنَّها رفضَت. "أخبرتُكِ بما يفعلونه بكِ. إنَّ قَومي لا يُعطون فُرَصًا ثانية". وقد كان وقتٌ فيه ما كان هو أيضًا لِيَفعلَ ذلك. إنَّها كانت مُضعِفةً له.

"لن أكذِبَ".

فحدَّقَ إليها: "سيقتلونَكِ إذا عرَفوا الحقيقة".

"لا يهمُّ".

كانت قد قالت قبلًا: مهما كلَّفَ الأمر. وها هي مُتمسِّكةٌ بذلك. فما كانت لِتُساوِم. وقد كان جُزءٌ منه مسرورًا. كما أنَّ جُزءًا منه شعَرَ بالأمان حِيالَ جوابِها، لأنَّه علِمَ أنَّ في وسعه أن يثِقَ بها. إلَّا أن جُزءًا آخر أحسَّ خوفًا. فقد باتت أصلًا تعني له أكثرَ بكثيرٍ ممَّا بالى بأن يعترِفَ به، وما كان قَومُ الشَّطِّي لِيُبدوا أيَّةَ رحمة.

"هذا حسَن. فليكُن كقولكِ. لا تكذِبي. إنَّما لا تقولي أيَّ شيء". وطرَحَ الحُزمةَ على ظهره.

"مِثلَما لم أقُل لك أيَّ شيء. كان ينبغي أن أُخبِرَك بكلِّ شيء عن نفسي أوَّلَ ما بدأت تطرَحُ أسئلةً، بدَلًا من إعطائك المعلومات شيئًا فشيئًا".

ثمَّ عبَرَ الغُرفة وانحنى إلى الأمام ليُكلِّمَها وجهًا لِوجه مُباشرةً. "لو أخبرتِني بكلِّ شيء يومَ وصولكِ، لَمَا كُنتِ حيَّةً الآنَ! كان من شأني أن أقتُلَكِ دون أن يرفَّ لي جَفنٌ وأن أكونَ مسرورًا بذلك". وقفَت غيرَ مُرتاعةٍ، ولا مُجفِلةً أيضًا. فاستقام. "ما كانت لتُتاحَ لي أشهُرُ العَيشِ معكِ لأعلَمَ أيَّةُ امرأةٍ أنتِ الآن".

"إذًا أنا صالِحةٌ الآن، أتريتِس؟ لقد رمَيتُ توًّا ساقَ فرُّوجٍ على رأسك".

فابتسمَ ابتسامةً عريضة. "وأخطأتِ الهدَف!"

"ما زِلتُ أُجاهِدُ ضدَّ الجسَد. كلَّ يوم، وأحيانًا كلَّ ساعة".

فتحرَّكَت حملقَتُه نُزولًا عليها، وقال: "وهل تظُنِّين أنِّي أنا لا أُجاهِد؟"

فتورَّدَ وجهُها، شاعِرةً بالحرارة في أوصالها. "ليس ذلك ما عنَيتُه".

"هاتي الصَّبيَّ، ولْنذهبْ!" لقد كان عليه أن يخرج من هذه الغُرفة، الآن.

فعلَت كما قال. ومَشَيا تحت أعمِدَة الرِّواق ثمَّ عبَرا الفِناءَ الرئيسيَّ إلى غُرفةِ الانتظار. كان الجنود في كلِّ مكان، وقد راقبَ كثيرون منهم رِصفة. فتجاهلَهُم أتريتِس، وأطبق يدَه على ذِراعها، وتوجَّهَ مُباشرةً إلى الشارِع عبْرَ المدخَل الواسع، توَّاقًا لأنْ يكون خارِجًا في الهواء الطَّلق.

قالَت رِصفة: "أنت تُوجِعُني". ثُمَّ أطلقَت نفَسَها إذ أفلتها. كان يمشي بسُرعة، بسُرعةٍ فائقة، حتَّى اضطُرَّت لأنْ تخطُوَ خطوتَين مُقابِلَ خطوتهِ الواحدة، وسُرعان ما انقطَعَ نفَسُها. فقالت- كارِهةً أن تتذمَّر- "لا أستطيعُ مُجاراةَ سُرعتِك، أتريتِس".

فأبطأ، وقال: "مِن هُنا". وباشَرَ سلوكَ شارع مُتَّجِه شمالًا. ثُمَّ خرجا من الأبواب، وعبَرا جِسرًا، وسارا على الطريق في قلب العَتَمةِ المُتزايِدة. اجتازا مَعلَمًا، ثُمَّ آخَر. وكانت النُّجوم قد بدأت تطلع. ثمَّ اجتازا مَعلَمًا ثالِثًا. وإذ وجِعَت رِصفة ذِراعاها، نقلَت كالِب.

ولمَّا وصلا إلى المَعلَم الرَّابع، توقَّفَت رِصفة. "حلَّ الليلُ تقريبًا".

"في وسعنا أن نقطعَ مِيلًا آخر".

فقالت: "ظنَنتُ أنَّك أردتَ مسافةً بينك وبين ثيوفيلُس". وخرجَت عن الطريق. وقعَدَت مُعيِيةً، مُسنِدةً ظهرَها إلى جِذعِ شجَرة. كان كالِب ما يزال نائمًا. لا بُدَّ أنَّ نهارَه مع

أتريتِس قد أتعبَه. فوضعَته على العُشب، ثُمَّ استلقَت بجانبه، مُلتفَّةً حولَه لتُدفئَه.

طرَحَ أتريتِس حِملَه، وقد بدا واضحًا أنَّه انزعج من التَّوقُّف.

فقالت: "سأُحاوِلُ أن أُبليَ أحسَنَ غدًا".

تنقَّلَ مُضطرِبًا، ثُمَّ قعَدَ على بُعدِ أقدامٍ قليلة عنها، رافعًا رُكبتَيه عنِ الأرض، مُسنِدًا ساعِدَيه إلَيهما. ونظَرَ إلى السَّماء. "كان في وسعنا أن نقطعَ مِيلًا آخَر".

غادَرا لدى طُلوع الشَّمس، وقد أرضعَت رِصفة كالِب. واشترى أتريتِس خُبزًا وتُفَّاحًا عندَ اجتيازِهما في إحدى القُرى. فأطعمَت رِصفة كالِب نُتَفًا مِنهما وهو راكِبٌ على وَركِها مسرورًا. وساعدَته لِيَشرب من زِقٍّ فيه نبيذٌ مخفَّف بالماء.

قُبَيلَ الظُّهر، ركِبَت مجموعةٌ من الجنود نحوَهُم. ورأت رِصفة ثيوفيلُس بينَهم فنادَته. فتوقَّفوا إذ ترجَّلَ الرُّومانيُّ وفكَّ حُزمَته عن الحِصان. وإذ طرحَها على كتِفه، تكلَّمَ بابتِهاج إلى الآخرين قبلَ أن يتوجَّه نحوهم. وأمسكَ أحدُ الجنود عِنانَ مَطيَّةِ ثيوفيلُس، ثُمَّ تابعوا السَّير على الطريق.

شامَ ثيوفيلُس رِصفة، فلاحظَ العباءةَ والتُّنك والجزمة الجديدات. فقال لأتريتِس: "إذًا، ذلك هو المكان الذي ذهبتَ إليه!"

واستأنفَ أتريتِس السَّير، مُحدِّقًا إليه.

جارى ثيوفيلُس رِصفة سائرًا بجانبها. وسألها، رافعًا فمَه إلى فوق: "هل جرَت الأُمور بينكُما جيِّدًا من دوني؟"

فأجابَ أتريتِس بدَلًا منها: "جيِّدًا بِما يكفي". وتابَعَ السَّير.

وابتسمَ ثيوفيلُس لرِصفة ابتسامةً عريضة. "على الأقلِّ، أنتِ مسرورة برؤيتي".

قطعوا مسافةً كبيرة في الأيَّام التالية، مُجتازينَ في كامپيغليا الساحليَّة، وسيسينا، وليڤورنو، وپيسا، وڤيارَغيو. وقد خيَّموا كلَّ ليلة على مقربة من الطريق. واشترى ثيوفيلُس مزيدًا من المؤَن في لاسپيزيا. وأصرَّ أتريتِس على سلوك السَّبيل الأقصر على طول الطريق الساحليِّ الجَبليِّ، بدلًا من السَّبيل الذي يمرُّ في الدَّاخل.

لمَّا وصلوا إلى جَنَوى، رتَّب ثيوفيلُس مَبيتًا من جديد، هذه المرَّةَ في خانٍ لا يرتادُه الجنود كثيرًا وأبعَدَ عن الحمَّامات العموميَّة. فدخلَ أتريتِس الحمَّاماتِ هذه المرَّةَ دونَ تعليق. ولمَّا استأذنَته رِصفة لمُغادرة رِفقته، أذِنَ لها دونَ تردُّد. فأخذت كالِب إلى غُرفة استِحمامٍ مع أُمَّهات

شابَّات أُخَر، فيما تبعَ هو ثيوفيلُس إلى الحُجَر الرئيسيَّة.

استحمَّ أشخاصٌ أقلُّ عُراةً في هذا المكان. وحكَمَ أتريتِس بأنَّه كلَّما ابتعَدَ المرءُ عن روما باتت الأخلاقُ أكثرَ مُحافَظةً. فوجد نفسَه مُسترخيًا في ذلك المُحيط ومُستمتِعًا به. وتمهَّل في استحمامه فيما ثيوفيلُس ينتظِرُ حامِلًا صُرَرَ المال ومُتحدِّثًا مع بضعة رِجال، بدا من مِشيَتِهم ووِقفتهم وبنيتهم أنَّهم جُنود.

ولمَّا رجَعَ أتريتِس لأخذ ثيابه، قال له ثيوفيلُس: "الطُّرق آمِنة عبْرَ المجاز الجبَليِّ".

"جيِّد. سنمضي وقتًا أفضل". وارتدى تُنكَه وحِزامَه، وأخَذَ الصُّرَر.

تساءلَ ثيوفيلُس هل أدركَ أتريتِس أنَّ لكنتَهُ الجِرمانيَّة باتت أثقَلَ كُلَّما توغَّلوا شمالًا. وقال، مُتجرِّدًا من تُنكِه: "لن نتمكَّن من الحِفاظ على سُرعة السَّير نفسها. أمامنا تسلُّقٌ صَعبٌ إلى نوڤي. ثُمَّ يمكننا أن نعود إلى السُّرعة عينها عبْرَ أليسَّندريا وڤرشيلي. وسوف نمشي بمُحاذاة نهر دورا بالتيا من هُناك إلى أوستا، وذاك تسلُّقٌ أصعب. إنَّ عبور الجبال إلى نوڤي سيكون صعبًا على رِصفة، ولكنَّه ليس شيئًا مُقارنةً بما ينتظرُنا بَعد. فعلينا أن نجتاز مُرتفعات الألپ الغرايانيَّة والپينينيَّة".

"في وسعنا أن نشتريَ حِمارَين. يمكن أن يحمل أحَدُهما الأمتعة، والآخَر رِصفة وكالِب".

"يمكنني أن أحصل على سِعر جيِّد في الحِصن".

فتجهَّمَ وجهُ أتريتِس: "احتِمالُ رِفقتِكَ سيِّئٌ كفايةً دونَ مُتاجَرة مع جنود رومانيِّين أيضًا!"

أبى ثيوفيلُس أن يردَّ الهجوم. "حِمارٌ عسكريٌّ جيِّد كحِمارٍ مدَنيٍّ، وأرخَص". وألقى تُنكَه على البنك الحجَريِّ، ثمَّ غطسَ في البركة. ولمَّا خرَج، كان أتريتِس قد مضى. فسلَّم ثيوفيلُس البَربريَّ لله، هازًّا رأسه. ما كان أيُّ شيء يستطيعُ أن يقولَه أو يفعَله لِيُغيِّرَ رأيَ أتريتِس في شيءٍ ما. فكلُّ ما استطاع الجِرمانيُّ أن يراه كان عدوَّته، روما، واقفةً أمامه. وكان أعمى وأصمَّ من جهة أيِّ شيءٍ آخر.

وتساءل ثيوفيلُس بحُزن: **يا ربّ، إن كنتُ لا أستطيع أن أُبلِّغَ أتريتِس بِشارةَ إنجيلِكَ الآن، فكيف يتسنَّى لي يومًا أن أُبلِّغها إلى قبيلة الشَّطّي؟**

إنَّما كان ثيوفيلُس مُتيقِّنًا بأمرٍ واحد: أنَّ صِفَة أتريتِس العمليَّةَ الجِرمانيَّة لا بدَّ أن تتغلَّب على كبريائه التي لا تُطاق. فمالُهم لم يكُن مَوردًا لا ينضُب، وما زالَ أمامَهُم دَربٌ طويلٌ يسلكونه. ولا بُدَّ أن يفيَ بالغَرَض حِماران من عند الجَيش!

٢٧

جعَلَ الحِمارانِ اللذان اشتراهُما ثيوفيلُس من الجيش السَّفَرَ على الجِبال أسهَلَ بكثير. فقد حمَلَ أحدُهما الأمتعةَ التي كانت قد أثقَلَت كاهِلَي الرُّومانيِّ وأتريتِس. وعلى الآخر سوَّت رِصفة مقعدًا لكالِب بالحُزَم والبطَّانيَّات وسيور الجِلد. وقد مشَت هي إلى جانب الحِمار، مُمسِكةً رَسَنًا وحامِلةً عَصًا. وابتهجَ كالِب بمِشية الحيوان الصَّغير مُنَطنِطًا، كما أنَّ الحَمار كانَ يحتاج إلى قليلٍ من النَّخس بوجودِ حِملٍ خفيفٍ كهذا.

انتهى الشِّتاء وكان الربيعُ مُقبِلًا، رافِعًا الأنهارَ بالثَّلج المنصهر. وكانت الطُّرقُ المُنحدِرة مُضنية، وبات الهواءُ أبرَدَ شيئًا فشيئًا. وإذ سلكوا الطَّريق الرُّومانيَّ صعودًا، حلَّ شجَرُ البِيسيَة والصَّنوبَر والتِّنُّوب محلَّ الزَّان والبتولا.

ملأت رِصفة رئتَيها بالأريج الرائع، شاكِرةً الله. لقد أحبَّت جَلالَ الجِبالِ حوالَيها، رُغمَ وجودِ أمكِنة ذاتِ مُرتفَعاتٍ مُخيفة ومَهاوٍ حادَّة. وكانت الطُّرُق غرَّارة، لأنَّ قاعِدةَ إنشاء الطُّرق الرُّومانيِّ أوجبَت وصْلَ المُدُن والأراضي بأقصَرِ سبيل، ولم يكُن ذلك هو الأسهلَ بالضَّرورة. فعندَ الظُّهر كلَّ يوم وجِعَتها رِجلاها، ولدى تخييمِهم ارتجفَت عضَلاتُها إعياءً.

في أوستا، وجدوا فِرقةَ جنود كبيرة مُقيمةً هُناك. فقال ثيوفيلُس إنَّ ذلك العدَد كان دليلًا على بَلاءٍ مُنتظَر، وذهب إلى الحِصن ليستعلِمَ ما أمكنه عن الأوضاع التي سيُواجِهونها على مُرتفعات الألپ البِينِّينيَّة. وبقِيَت رِصفة في المُخيَّم مع كالِب وأتريتِس.

كانت الجبال حوالَيهم عموديَّةً وبيضاء، والهواءُ مُنعِشًا وباردًا. "ما تصوَّرتُ قطُّ مكانًا كهذا بالِغَ الجَمالِ والقَسوة". ونظرَت إلى أتريتِس قاعِدًا مُقابِلَها بقُربِ النار، فشعرَت- على نحوٍ يَسيرٍ ما- بأنَّها بدأت تفهمُه.

قال أتريتِس، دونَ أن يرفعَ رأسه لينظُرَ إليها: "ننزِلُ من هذه الجِبال إلى غاباتِ بِلادي. ليس الهواءُ هُناك بهذه الرِّقَّة، وليس من جِبالٍ كهذه".

"هل تتذكَّرُ هذا كلَّه منذُ أُخِذتَ إلى روما؟"

فرفَعَ نظره إلى الجَبَل الهائل نحو الشمال الشرقيِّ. نعَم، لقد تذكَّر. "ننزِلُ من هُنا إلى نهر الرُّون. ونمشي بمُحاذاته إلى نهر الرَّاين. مِن هُناك، يُمكنني أن أعرِفَ طريقي".

أحسَّت رِصفة قُشَعريرةً حِيالَ طريقةِ قولِهِ ذلك: "ثيوفيلُس صديقُنا، أتريتِس".

"هوَ رومانيٌّ".

لم تكُن قطُّ قد رأت عينَين باردتَين هكذا. "هذا الوقتُ كلُّه، وهذه الطريق كلُّها، وما زلتَ غيرَ قادرٍ على الوثوق به؟"

"لماذا ينبغي لي أن أثِقَ به؟ لأيِّ سببٍ يذهبُ قائدُ مئةٍ رومانيٌّ إلى جِرمانيا؟"

"إنَّه يُريد أن يُوصِلَ بِشارةَ الإنجيل إلى بني قومِك".

فأطلقَ ضِحكةً ساخرة. "يُريدُ الجُنديُّ أن يعرِفَ قوَّةَ العدوِّ وضعفَه لِيَرُدَّ خبَرًا إلى قائده".

"لم يعُد في عِداد الجيش الرُّومانيِّ".

"هكذا يقولُ هو". ونَتَرَ ذقنَه. "كان مع تيطُس قبلما غادرْنا روما. وهو لا يمرُّ أبدًا في مدينة دونَ أن يذهب إلى الحِصن، صحيح؟"

"أنتَ على خطإٍ إذ تشكُّ فيه، أتريتِس. إنَّه يذهب إلى الحُصون لِيَعلم ما ينتظِرُنا، ليَكونَ مُتأهِّبًا لأجلنا".

"أنتِ امرأة. ماذا تعرِفين عن الحرب؟"

"أنت على حقٍّ، أتريتِس. لستُ أعرِفُ أيَّ شيء عن الحرب. ولكنِّي أعرِفُ ثيوفيلُس فِعلًا. إنِّي أستأمِنُه على حياتي. وأستأمِنُه على حياة كالِب". ثُمَّ سمِعَت وقْعَ خُطًى، ورأت ثيوفيلُس مُقبِلًا نحوَهُما.

جلس بقُربِ النار مادًّا فخِذَيه، وقالَ مُتجهِّمًا: "قُطَّاعُ طُرُق! سُلِبَ مُوظَّفٌ رومانيٌّ رسميٌّ وقُتِلَ قبلَ بضعة أيَّام".

فقالت رِصفة: "أينبغي لنا أن ننتظر قبلَ مُتابعةِ السَّفر؟" وقد قلِقَت على سلامة كالِب.

طرحَ أتريتِس عُودًا في النار، وقام. "سنُواصِلُ السَّفَر". لم يكُن أيُّ شيء لِيَثنيَه عن الوصولِ إلى دِياره، لا الرُّومان، ولا قُطَّاع الطُّرق، ولا حتَّى الآلِهَة. حينَ كان فوقَ الجبال وفي غاباتِ موطنِه الكثيفة تحتُ، حينئذٍ فقط تنفَّسَ هواء الحرِّيَّة. وحالَما يَصِلون إلى هُناك، يُقرِّرُ ما سيَفعلُه بشأنِ ثيوفيلُس. ثُمَّ انحنَى نزولًا فالتقطَ زِقَّ الخمر ومضى إلى قلبِ الظُّلمة.

لاحَظَ ثيوفيلُس ضِيقةَ رِصفة، وقدَّمَ أيَّةَ طمأنة مُتاحة له. "هناك دوريَّاتٌ إضافيَّة تطوفُ خافِرةَ الطَّريق".

"كُلَّما توغَّلنا في السَّير، يصيرُ الأمرُ أصعب. وأحيانًا أظنُّ أنَّنا كُلَّما اقتربنا من جِرمانيا ابتعدنا عنِ الله".

"الله معنا، رِصفة".

"البَردُ شديد". وجذبَت العَباءة التي أعطاها أتريتِس إيَّاها حولَ نفسِها. "ما زالَ لا يثِقُ بك".

"أعلَمُ ذلك".

"إنَّه يعرِف طريقه من الرَّاين".

فهزَّ ثيوفيلُس رأسَه مُصادِقًا: "أنتِ وأنا نعلم أنَّه إذا كانت مشيئة الله أن نصِلَ إلى جِرمانيا معًا فسنَصِلُ إليها معًا".

وصلَّت رِصفة بحرارة طالِبةً أن ينفتحَ قلبُ أتريتِس وعيناه لِلحقِّ.

ثُمَّ غادروا عندَ بزوغ الفَجر.

٢٨

خرجَت أنفاسُ رِصفة في نفثاتِ سُحُبٍ رقيقة فيما مشَت بجَهدٍ على الثَّلج فوقَ الطريق الجبليِّ الضَّيِّق. وأخيرًا كفَّ كالِب عن البُكاء بعدما صرَّته تحت التنكِ السميك بلِزقِ دفءِ جسمها. وقد وجِعَتها كلُّ عضَلة في جسمها، وأحسَّت حُرقةً في رئتيها، وخدَرًا في قدَمَيها. كانوا قد وصلوا إلى القِمَّة قبلَ يومَين، ويشقُّون طريقهم مُتعرِّجًا نزولًا من الأعالي الجليديَّة، ولكنَّه كان تقدُّمًا بطيئًا. لقد كان كلُّ يومٍ أصعب وأكثرَ إجهادًا بدَنيًّا.

انبسَطَ الوادي كالجَنَّة في الأسفل، وحدَّقَت رِصفة بابتهاج إلى منظرِ بُحَيرة بلَّوريَّة تُحيط بها أشجارٌ دائمة الخُضرة ومُروجٌ مُنحدِرة. وكان ثيوفيلُس قد قال: ''غدًا يومُ سبت''. يومُ راحة!

فقالتَ في فِكرها: شُكرًا لله! ما كان أُسبوعٌ لِيكفي، لأنَّ السَّفرة الطويلة كانت تُنهِكُ قوَّتها. وتمهَّلت لتنقُلَ ثِقلَ كالِب. لقد كان يكبر باستمرار، مُثقِّلًا حِملَها. وتوقَّفَ أتريتِس أيضًا. مُلتفتًا إليها. فابتسمَت واستأنفَت السَّير، مُصلِّيةً في أثناء ذلك عسى أن تُوهَبَ القوَّة للنُّزولِ من الجبل.

''أتِلكَ جِرمانيا؟''

فقال ثيوفيلُس: ''ليس بَعد''. وقد خرَجَ نفَسُه في نَفثةٍ بيضاء. ''بعدَ أيَّامٍ قليلة نَصِل إلى نهر الرَّاين. وبعدَ يومَين آخَرين، نَلقى حِصنًا''.

رمَقَ أتريتِس رِصفة مُجدَّدًا، فأحسَّت قوَّةَ نظرتِه. لقد عَنَت: تَرين! أوَينبغي لي أن أثِقَ بهذا الرُّومانيِّ؟

''هل ينبغي لنا أن نتوقَّف هُناك، ثيوفيلُس؟''

''قد يتمكَّن الفُويديراتي من إخبارنا عن الشَّطِّي''.

فقال أتريتِس ساخِرًا: ''فُويديراتي!'' غيرَ قادِرٍ أن يُصدِّق أنَّه كان هناك أيُّ جِرمانيِّين يلتحقون بالجيش الرُّومانيِّ مُتطوِّعين. ''عبيدٌ جِرمانيُّون، على الأرجح''.

''ليس جميعُ الجرمانيِّين يرَون رُوما عدوَّةً''.

''نعم! أُولئك الذين هُم أغبياء وخَوَنة''.

''مَضَت إحدى عشرة سنةً وأنت غائبٌ عن دِيارك. لقد تغيَّر الكثير''.

''ليس ذلك الكثير''.

"لقد أُخمِدَت الثَّورة".

"في وسع روما أن تبني مئةَ حِصن، ومع ذلك تبقى هذه الأرضُ غيرَ مُنتمِيةٍ إلى الإمبراطوريَّة!"

فقال ثيوفيلس: "أنا مُوافِق". ولم يخشَ غضَبَ أتريتِس.

حدَّقَ إليه أتريتِس مُرتابًا، وتشدَّقَ غيرَ مُصدِّق: "أنت مُوافِق؟ أنتَ قائدَ المئة الرُّومانيَّ الذي أقسمتَ على خدمة رُوما!"

فقال: "أُخضِعَ الغاليُّون وذابوا، ولكنَّ الجرمانيِّين ما زالوا فَرِي". وقد استخدَمَ كلِمةً تشمل الهَمَجيَّة. "سيكونون هادئينَ مُدَّةً، ربَّما مُدَّةً طويلة، ولكنَّهم غيرُ مغلوبين. رجائي أن أربحَهم لِلرَّبِّ. فإذا اهتدَوا إليه، تصيرُ قوَّةُ مزاياهُم كلُّها لِلرَّبِّ".

أطلقَ أتريتِس ضِحكةَ ازدِراء. "ما من شَطِّيٍّ يقبَلُ إلهًا يجعَلُ ابنَه يُصلَب. أيُّ خَيرٍ في إلهٍ ضعيف وغير نافع". ثُمَّ أومأ إيماءةً شاملة نحوَ الغابات البعيدة. "هذه الأرضُ تنتمي إلى طِيواز".

فقال ثيوفيلُس: "ولكنْ صنَعَها الله القادِرُ على كلِّ شيء".

"فليُحاوِلْ إذًا أن يستردَّها". وأدار أتريتِس ظهرَه ثُمَّ توجَّه نازلًا على الطريق من جديد.

خيَّموا بقُربِ البُحَيرة البِلُّوريَّة. ومضى ثيوفيلُس وأتريتِس إلى الشاطئ ليُحاوِلا أن يُمسِكا سمَكًا، فيما جمَعَت رِصفة أكوازَ صَنوبَر. ونزعَت الحَبَّ من الأكواز، مُبقيةً عينَها على كالِب وهو يَدرُجُ حول الخيمة. لقد كان الولَدُ مسرورًا بكُلِّ ما حولَه، مُتَقلقِلًا من صخرةٍ إلى شجرة إلى رُقعةِ ثلج.

لمَّا فرغَت رِصفة، استخدمت الأكواز اليابسة وَقودًا للنَّار الصغيرة التي أشعلَها ثيوفيلُس. ورجَعَ قائدُ المئة بثلاثِ سمَكات كبيرة، ووضعَهنَّ بقُربها. فشكَّت إحداها بسيخ معدِنيٍّ وحطَّتها على النار لتُشوَى.

غابَت الشَّمس، فرَشَّت الألوان انعِكاسًا رائعًا على سطح المياه الناعم. ولم تكُن رِصفة قطُّ قد رأت أيَّ منظرٍ جميلٍ جدًّا كهذا.

ثُمَّ ظهرَ أتريتِس، شكلًا أسود على خلفيَّة الغُروب الزَّاهي الألوان. وقد مشى صاعدًا المُنحدَر صِفرَ اليدَين. ونزَعَت رِصفة السَّمكةَ الثالثة من السيخ حالَ دخوله إلى المُخيَّم، وجَثَا ثيوفيلُس ليُصلِّي.

"أبانا السماويَّ، نشكرُكَ على هذا الطَّعام الذي دبَّرتَه لنا. عسى أن يُجدِّدَ قوَّةَ أجسامنا ويفتحَ قلوبنا إلى حضورك الدائم معنا ورحمتك لَنا. بارِكِ اليدَين اللَّتَين أعدَّتا هذا الطعام لمنفعة أجسامَنا. نُصلِّي بِاسْم ابنِك المُبارَك، ربِّنا يسوع. آمين!"

انتفضَت عضَلةٌ في حنَكِ أتريتِس إذِ انضمَّ إليهما لتناوُلِ الطَّعام. وقد جرَحَ كبرياءه أنَّ ثيوفيلُس أمسكَ سمَكًا بلا عَناء فيما لم يُمسِك هو أيَّ شيء. فسلَخ الجِلدَ عن السَّمكة وسحَبَ عنِ الحَسَك قِطعةَ لَحمٍ غَضَّة. وكان مَذاقُها كرَمْلٍ في فمه، فعلِمَ أنَّ كبرياءه كانت ما ابتلعَه.

غرَفَ ثيوفيلُس عصيدةَ حُبوب إلى طاسةٍ صغيرة ورشَّ فوقها حبَّاتِ صَنوبَر. وحطَّها أمام البَربريِّ الصامت. "أودُّ أن أسمع عنِ الإله الذي تعبدُه، أتريتِس". ثُمَّ أخَذَ طاسَته واتَّكأ على الأمتِعة، مُتناوِلًا وجبتَه بصَمت، مُنتظِرًا.

تمعَّنَ أتريتِس في قَولِ أيِّ شيء. فإذ فكَّرَ في طِيواز، انفتحَت صُدوعُ شكٍّ قديمةٌ. وقد قعدَت رِصفة، وكالِب في حِضنها، تُطعِمُه نُتَفًا من السَّمَك. بدَت هادئةً جدًّا. كم ستكونُ هادئةً عندما تُواجِهُ الشَّيءَ؟ وإذ لاحظتَ تمعُّنَه، رفعَت رأسها وابتسمَت له. فأراحَ البَريقُ الرقيقُ في عينَيها ذِهنَه، إلَّا أنَّه أيقظَ حواسَّه. أفي وُسعِه أن يحتمِلَ فقدانها؟

تأمَّلَت رِصفة وجهَه التماسًا، قائلةً: "أمَا تُخبِرُنا عن طِيواز؟" ثُمَّ طأطأت رأسها مُجدَّدًا، ووضعَت بالمِلعقة مزيدًا من العصيدة في فمِ ابنه.

ألقى هَيكلَ السَّمكة العظميَّ المُجرَّد في النار، قائلًا: "طِيواز هو إلهُ السَّماء الأعلى. وزوجتُه هي تَلُس ماتِر". الأرضُ الأمُّ. "هو إله القِتال ويترأَّس على الشَّيء".

فعبَسَ ثيوفيلُس: "الشَّيء؟"

"اجتِماعُ بني قومي. فالرجال يجتمعون لتسوية النِّزاعات وسنِّ القوانين. وما من رجُل يمكن أن يُجلَد أو يُسجن أو يُعدَم إلَّا بناءً على كَلِمة من الكهنة إطاعةً لِطِيواز الذي يُهيمِن على المعارِك. إنَّ طِيواز هو إلهُ الذِّئب والغُراب، إلهُ الأموات، سيِّدُ السِّحرِ الأرفَعُ".

ملأ وصفُ أتريتِس رِصفة بالهواجِس.

"هو إلهُ بَسالةٍ أيضًا. لقد كان طِيواز هو الإلهَ الوحيدَ الشُّجاعَ كفايةً لمواجهة الذئب فَنرير. وقد أطعَمَ الذِّئبَ يدَه لكي يُقيِّدَه. فليس في روما أو أيِّ مكانٍ آخر أيُّ إلهٍ أكثرَ شجاعةً".

فقال ثيوفيلُس: "إذا كان ذلك كذلك، فلماذا سمَحَ إلهُك لشعبك بأن يُخفِقوا في ثورتهم على روما؟"

تردَّد أتريتِس، ثُمَّ اضطُرَّ لأنْ يُجاوِبَ بصراحة. "طِيواز معروفٌ أيضًا بكونه المُخادِعَ الأعلى". وكان قد باتَ يُفكِّر في طيواز أكثرَ على هذا النَّحو في غضون السَّنوات الأخيرة في روما وأفسُس. لقد كان طِيواز صَيحةَ حَربِهِ في جرمانيا، وما زالت روما مُنتصِرةً عليه. وبالحقيقة أنَّه كُلَّما هتَفَ لطِيواز ابتهاجًا أو صرَخَ إليه مِن كَرْب، أحاقَ بحياته بَلاءٌ إضافيٌّ ما. "إنَّه يُوزِّع النَّصرَ والهزيمة باللامُبالاة والغُرور اللَّذَين يتَّصِفُ بِهما أيُّ طاغيةٍ أرضيٍّ أو أيُّ إلهٍ آخَر".

فقالت رِصفة: "إذًا، لماذا تعبُده؟"

فرمَقَها أتريتِس بنظرةٍ قاتمة. "لا أعبدُه. ما عُدتُ أعبده. ولكنِّي سأُؤَدِّي له الإكرام عندما أعود إلى الدِّيار. إنَّه إلهٌ أكثرَ من إلهِكُم. قد يكون طِيواز مُتقلِّبًا، ولكنَّه مُقتدِر. فما كان إطلاقًا ليَسمحَ بأن يموتَ ابنُه على صليبٍ رومانيٍّ، أو يترُكَ المؤمنين به ليكونوا طعامًا للوحوش".

قالت: "لقد تركك عبدًا لروما عشْرَ سنين". ولاحظَت أنَّها أثارت غضبَه. "طِيواز غيرُ موجود، يا أتريتِس".

ففاجأهما ثيوفيلُس كِلَيهما إذ قال: "أنتِ تنسَينَ الخَصم. إنَّ عدوَّ الله يُسمَّى أسماءً شتَّى، ولكنَّ هدفَه هو هو: أن يُعميَ الناس عن الحقِّ ويَحولَ بينهم وبين الشَّرِكة مع المسيح".

ألقى أتريتِس طاسَته الفارِغة جانبًا. "لماذا يرغَبُ أيُّ شخصٍ في الشَّرِكة مع إنسانٍ مَيْت، أو مع إله يدَعُ ابنَهُ يموت؟"

فقالت رِصفة بحماسة: "المسيحُ حيٌّ!"

"مَسيحُكم يسوع صُلب!"

"نعَم، وقامَ حيًّا".

"هكذا يقولُ قومٌ، يا امرأة، ولكنِّي ما رأيتُه قطُّ. ولا رأيتِه أنتِ، إذا كنتِ صادقة".

فقالَت باقتِناع: "لم أرَه بالمعنى المادِّيِّ بالتَّأكيد، ولكنِّي أعلم أنَّه حيٌّ. إنِّي أُحِسُّ حضورَه حتَّى في الهواء الذي أتنفَّسُه بعينه".

وقال ثيوفيلُس: "لقد مات الرَّبُّ يسوع ليتسنَّى لنا جميعًا أن نحيا، أتريتِس. إنَّه أطاعَ الآب وصُلِبَ كفَّارةً لخطايانا كلِّها. ولمَّا قام يسوع من القبر، أزال كلَّ حاجز- بما في ذلك الخوفُ من الموت- بين الله والإنسان. فإيمانُنا بيسوعَ المسيحِ يُحرِّرُنا من أيِّ شيء يمكن أن يفعله الإنسانُ بنا. الرَّبُّ يسوعُ هو الطريق والحقُّ والحياة. ولا موتَ فيه. فبالمسيح، وفي المسيح، نغلِبُ العالم".

فقالَ أتريتِس، مُبتسمًا بسُخرية: "إذًا، إذا قتلتُكَ، هُنا والآنَ تمامًا، فأنت تؤمن بأنَّك ستبقى حيًّا بقُدرةِ إلهِكَ هذا؟"

"نعم".

فاستلَّ أتريتِس غلاديوسَه عرَضًا وقلَبَ شفرتَه. "ربَّما وجَبَ أن أمتحِنَ إيمانك".

فقال ثيوفيلُس: "قد يصِلُ الأمرُ إلى هذا الحدِّ". وقد كان يعلَمُ تمامًا أنَّ أتريتِس ما زال يكرهُه ويرتابُ فيه كفايةً بحيثُ يُدبِّر مَقتلَه.

قالت رِصفة بخَوفٍ لثيوفيلُس: "لماذا تدفعُه؟" وقد خشِيَت إطلاقَه تحدِّيًا كهذا. ونظرَت إلى وجه أتريتِس البارد، بقَلبٍ يطرُقُ مذعورًا ومسعورًا. وإذ أدارت كالِب نحوها لئلَّا يشهَدَ والِدَه مُرتكِبًا جريمةَ قتل، ضمَّتهُ إلى جسمها بقُوَّة. وقالت بصوتٍ مُرتجِف: "إذا قتلتَ ثيوفيلُس، فسآخُذُ ابني وأرجعُ إلى روما".

فقال أتريتِس: "هو ابني، ولَن ترَي أبدًا الجانبَ الآخر من الجبال مرَّةً أُخرى". وقد شُحِبَت يدُه حول مِقبَضِ سِلاحه.

وإذ أغضبَتها قساوةُ فؤادِه، وإن كانت لم تُفاجئها، قالت: "تُريد أن تقتُلَني أيضًا؟ هيَّا، إن كان ذلك يسرُّك".

قال ثيوفيلُس بهدوء: "اهدإي، رِصفة. أتريتِس لا يطلبُ أن يؤذيَكِ. إنَّه ينوي أن يُبقيَكِ معه". ونظرَ إلى أتريتِس. "إنَّه يعتقِدُ أنَّ له دعوى ضدِّي".

راعَ أتريتِس أن يأتيَ الدِّفاعُ من تلك الناحية. "أنا أعلَمُ أنَّ لي دعوى ضِدَّك".

"لأنِّي رومانيٌّ".

"لذلك، ولأسبابٍ أُخرى".

وقالَت رِصفة بضيقٍ شديد: "إنَّه يعتقد أنَّكَ ترفَعُ تقاريرَ في كلِّ حِصنٍ نمرُّ به". فاستدرَّت من أتريتِس حَملقةً لاذِعة.

فنظَرَ ثيوفيلُس داخِلَ عينَي أتريتِس مُباشرةً، إذ لم تكُن لديه دَوافِعُ يُخفيها، وقال: "لو كان ذلك كذلك، لاعتُقِلتَ فِعلا".

فقالت رِصفة: "ليسَ إذا كنتَ ناويًا أن تكتشِفَ مَواضِعَ ضَعفِ الشَّطِّي وقوَّتهم".

"يا امرأة، أنتِ تتكلَّمينَ فوقَ الحدِّ!"

وقال ثيوفيلُس: "ربَّما كان ينبغي لك أنت أن تتكلَّم أكثر. كان في وسعي أن أجمَعَ أيَّة

معلومات نحتاجُ إليها من مكان آخر، ولا أُثيرَ أيَّ ارتياب غير ضروريٍّ من جانبك. أنّي أعتذِرُ عن قلّة إحساسي. لديَّ قصدٌ واحد، أتريتِس، قصدٌ واحِدٌ فحسْب، في إرشادك إلى طريق الرُّجوع إلى بني قومك. أُريدُ أن أُقَدِّمَ إليهم بِشارةَ الإنجيل. لقد دعاني الله إلى القيام بذلك، مهما كلَّف الأمر. فإذا كان الأمرُ يُريحُ بالك، فلن نتوقَّفَ بَعدُ عِندَ أيِّ حصون رومانيَّة".

والغريبُ أنَّ أتريتِس صدَّقه، وباتَ أكثرَ حَيرةً بَعد.

وقالت رِصفة: "ماذا عنِ المؤَن؟ لقد بقيَ لدينا قليلٌ من الحِنطة".

فاستَرخى ثيوفيلُس مُتَّكئًا على الأمتِعة، وقال: "الغابات ملأى بالطَّرائد. ونحنُ مُقبِلون على الرَّبيع. سنعثُرُ على كثيرٍ ممَّا يؤكَلُ نابِتًا حَوالَينا".

تأمَّلَه أتريتِس. لم يكُن نهر الرَّاين يبعُدُ إلَّا مَسيرةَ أيَّامٍ قليلة، وما زالَتِ المسافة طويلةً بعدَ ذلك ليَدخلوا أراضيَ الشَّطّي.

وإذ زلَّق الغلاديوس داخِلَ غِمدِهِ مُجدَّدًا، استلقى وحدَّق إلى ألسِنةِ النَّار. سوف يتريَّثُ قبلَ أن يقتُلَ ثيوفيلُس.

وبَعد، أيَّ تضحيةٍ يمكنه أن يُقدِّمَ إلى طِيواز لدى وصوله إلى دياره أفضَلَ من دَمِ قائدٍ مئةٍ رومانيٍّ؟

٢٩

لمَّا وصلوا إلى جُرُفٍ عالٍ مُطِلٍّ على نهر الرَّاين، رفَعَ أتريتِس قبضتَيه في الهواء وأطلقَ صرخةً مُدَوِّية قَفَّ منها الشَّعرُ على قفا رقَبة رِصفة. وضحِكَ ثيوفيلُس، مُشارِكًا في فرحة أتريتِس.

سافَرُوا شمالًا على طُولِ الجُروف المُرتفِعة، ثُمَّ اخترقوا الأجزاءَ الدَّاخليَّة ليتجنَّبوا المرور في أراضي القبائل المُقيمة بقُربِ النَّهر: الثانجيونيِّين، التريبوتشي، النِّيميِّين، الأُوبيي. وقد خيَّموا بقُربِ الينابيع الدافئة، فاستحمَّت رِصفة مع كالِب بكُلِّ راحة فيما مضى الرَّجُلان إلى الصَّيد. ولمَّا عادا، كان أتريتِس حاملًا على كتِفَيه ظَبيَ رَوٍّ مسلوخًا ومُعَدًّا لِيُشوى.

خيَّم اللَّيلُ بسُرعة على غابات جِرمانيا. فعَوَتِ الذِّئاب. وتحرَّكَت الظِّلال. وكانت الأصواتُ غيرَ مألوفة. فلم تستطع رِصفة أن تتخلَّص من خوفٍ نهَّاش، حتَّى لدى شروق الشَّمس. لقد كانت الأراضي محفوفةً بالغابات، فأحسَّت ظُلمةً طاغية تُطبِقُ عليها. لَكأنَّ أحَدًا كان يُراقِبُهم ويُجاري خُطاهُم بصَمتٍ بين الأشجار.

حطَّ غُرابٌ على غُصنٍ فوقَ رِصفة، فوجدت نفسها راجِعةً قَسرًا إلى قلبِ أوقاتٍ ومُعتقدات أشدَّ ظلامًا. لقد كان الطائرُ الضَّخمُ نذيرَ شُؤم، أمَا كان كذلك؟ وكان عليها أن تُذكِّرَ نفسَها بأنَّ الغُراب الذي يُراقِبُهم قد خلقَه الله، كما أنَّ الجِبالَ التي فصلَتها عن المَدنيَّة التي عرَفَتها، والغاباتِ التي مشَت في وسطها- بلِ أيضًا الهواءَ الذي تنشَّقَته بعينه- أبرزَتها إلى الوجود جميعًا يدُ الله.

أيُّها الرَّبُّ إلهي، الأرضُ وكلُّ ما عليها من صُنعِك. أنت مُهَيمِن على كلِّ ما أراه، بل على ما لا أستطيعُ أن أراه أيضًا. فماذا عندي حتَّى أخافَ منه؟

ولاحَظَ أتريتِس تَوتُّرها، فقال: "ما خَطبُكِ؟"

أجابت: "لستُ أدري". ونظرَت إلى ثيوفيلُس. "أُحِسُّ ظِلَّ الموت حَوالَينا".

تلفَّتَ أتريتِس حولَه مُتجهِّمًا. لقد تربَّى على الاعتقادِ أنَّ لدى النِّساء قُدُراتٍ تنبُّئيَّة وحَدسًا حادًّا. وما كانَ ليُهمِلَ غرائزَ رِصفة لمُجرَّدِ كونها أفَسُسيَّة.

ثُمَّ لم يتحرَّك أيُّ شيء. فجعَلَ السُّكون معدةَ رِصفة تتشنَّج وقلبَها يقرع.

ما شدا طائر، ولا تحرَّكَ حيوان، وكانَ الجميعُ في حالِ اختِباء. لقد مضت إحدى عشرةَ

سنةً منذُ قاتَلَ أتريتِس الرُّومان في هذه الغابات، ولكنَّ الذِّكرى عادت مصحوبةً بالإدراك التَّامّ. وأندرَه الصَّمتُ بما كان آتيًا. فاستلَّ غلاديوسَه وصاح بالجرمانيَّة مُعرِّفًا بنفسه. ولكنَّ الأوانَ كانَ قد فاتَ فِعلًا، لأنَّ الباريتُس بدأت قبلَما فتَحَ فمه. فإنَّ صَيحةَ الحرب التي تقشعرُّ منها الأبدانُ علَت في الأشجارِ حولَهُم وفوقَهُم.

قَفَّ الشَّعرُ على قفا رقَبة رِصفة. ''ما هذا؟''

تصاعَدَ الدَّويُّ الفظُّ المُتقطِّع كنشيدٍ غيرِ مُقدَّس، وقد باتَ أعلى وأشدَّ تَردُّدًا إذ رفَعَ المُحارِبون تُروسَهم أمامَ وُجوهِهم، صائحينَ فيها وقارِعينَ إيَّاها بعُنفٍ ضارٍ. فكان الصَّوتُ الصادر رهيبًا، مُروِّعًا، مُنذِرًا بالسُّوء الشَّديد.

لَمَّا أصغى أتريتِس إلى الصَّوتِ المُتصاعِد، علِمَ أنَّه ارتكبَ خطأً- خطأً مُميتًا على وجه الاحتمال. فقد كانوا واقفين في وادٍ صغير مُنعزِل ليس له حِماية. فصاح برِصفة: ''إلى هُناك!'' دافعًا إيَّاها بشِدَّة نحو زنْدِ شجرة ساقط. ''انخفِضي، وابقَي مُنخفِضة!'' ثمَّ تقدَّم إلى الطريق المكشوف ورفَعَ ذِراعَيه، حامِلًا الغلاديوس بإحدى يدَيه ومُكوِّرًا الأُخرى قبضةً، وصاح بصوتٍ أعلى: ''أنا شطِّيٌّ!''

قال ثيوفيلُس: ''لن يُجديَ الأمرُ نفعًا''. ثمَّ سحَبَ سيفَه. لقد أعادَت صَيحاتُ الحرب ذِكرَياتِ معاركَ قديمةِ العهد. وعلِمَ ماذا يتوقَّع، فسقَطَ قلبُه. لن تدومَ المُنازَلةُ طويلًا، وإذا نجَوا أصلًا فلا بدَّ أن يكون ذلك بنعمة الله.

توقَّفَ الهديرُ فجأةً، واستطاعوا أن يسمعوا خبْطَ خُطًى ثقيلةٍ راكضة. فقالَ أتريتِس: ''إنَّهُم آتون!''

وأصغى ثيوفيلُس مُتجهِّمَ الوجه.

اندفَعَ مُحارِبون جِرمانيُّون إلى الطريق أمامَهُم ووراءَهم. وتطايرَت السِّهامُ والرِّماح. وإذ تفادى أتريتِس من طعنةِ فراميا، طعَنَ بالغلاديوس أوَّلَ رجُلٍ وصَلَ إليه. واندفَع نحو الرَّجُلِ الساقط، جائرًا بصَيحةِ حربِه. وقد كان كالِب يزعق. ثمَّ تقدَّم أتريتِس بقوَّة وصدَمَ مُحارِبَين، فجرَحَهُما وأسقطهما دونَ أن يُحِسَّ إطلاقًا رأسَ سَيفٍ كاشِطًا جنبَه.

صدَّ ثيوفيلُس الضَّربات، واستعملَ مِقبَض غلاديوسه لإسقاطِ واحدٍ من مُهاجِميه. وإذِ انحَنى بشدَّه، نجا بصعوبةٍ من قَطعِ رأسه بسَيفٍ هَسَّ فوقَه. وأقحَمَ قبضتَه في فَمِ معدةِ المُحارِبِ الأصغرِ سنًّا.

التقطَ أتريتِس بسُرعةٍ فراميا عن الأرض ورماه. فاخترق مُحارِبًا كانَ هاجِمًا على

ثيوفيلُس من وراءُ. فأطلقَ الرَّجُلُ صرخةً حادَّة وخرَّ صريعًا.

وبالسُّرعة التي بها حصَلَ الهجوم، انتهى. فتوارى الجِرمانيُّون في قلب الغابة وسادَ السُّكونُ من جديد.

كان أتريتِس يتنفسَّ بشِدَّة، ودمُه مُتَّقِد. فأطلقَ صرخةً ساخِرة مُدَويَّة.

أنَّ واحدٌ من المُحارِبَين الأصغر سنًّا اللَّذَين أسقطَهُما ثيوفيلُس، إذ كان يستعيدُ وعيه. فتقدَّم أتريتِس نحوَه بخُطًى واسعة، مُحمَرَّ الوجه ومُتعرِّقًا من فرطِ الجهد، بِنِيَّة جليَّة. فاعترَضَ ثيوفيلُس في سبيله. "حصَلَ قَتلٌ كافٍ اليوم".

"حِد من طريقي!"

صدَّ ثيوفيلُس غلاديوسَ أتريتِس بغلاديوسه، وصاحَ في وجهِه: "قلتُ لا!"

"إنَّهم من قبيلة مَتياتْشي". وصدَمَ ثيوفيلُسَ بكتِفهِ لاعنًا، ثمَّ سدَّدَ ضربةً أُخرى. فصدَّه ثيوفيلُس ثانيةً، وضربَه على جانب رأسه بقبضته الحديديَّة.

وإذ ترنَّحَ أتريتِس، قال له: "لقد كسرتُ جُمجمتَك مرَّةً، وسأفعَلُ ذلك ثانيةً بمعونة الله". ثمَّ أطبَقَ بيَدٍ من حديد على حَنجرة أتريتِس. "ما جئتُ إلى جِرمانيا لأقتُل". ودفعَهُ إلى الوراء. "ولا لأقِفَ جانبًا وأُشاهِدَك تقتُل!"

وما لبِثَ الدَّمُ الحامي الخابِطُ في رأس أتريتِس أن أبطأ وبرَدَ. وفيما هو يتنفَّس بصعوبة من جرَّاء المعركة، ورئتاه ما زالتا تتأجَّجان، واجهَ الرُّومانيَّ، وقالَ من بينِ أسنانه: "كان ينبغي لي أن أقتُلَك لمَّا رأيتُ نهرَ الرَّاين". ثمَّ خَطا إلى الأمام: "ينبغي لي أن أقتُلَك الآن!"

صدَمَه ثيوفيلُس بقوَّة في صدره دافعًا إيَّاه إلى الوراء. فاتَّخذ وقفةً قِتاليَّة. "هيَّا، حاوِلْ ذلك إذا ظننتَ أنَّ عليكَ القيامَ به. هيَّا!"

اخترَقَ صُراخُ كالِب غَمامةَ غَيظِ أتريتِس. فتراجَعَ إلى الوراء عابِسًا، مُنزِلًا غلاديوسَه. "أينَ رِصفة؟"

"قُلتَ لها أن تنخفِضَ وراء ذلك الزنْد".

ولمَّا لم يستطِع أتريتِس أن يراها، مشى مُسرِعًا نحوَ الزنْد، مُتسائلًا عن سببِ عدَمِ رؤيتِهِ ابنَه. هل كانت مُنكمِشةً خوفًا خَلفَ ذلك الزنْد؟ أم هل هرَبَت إلى قلب الغابة ناسيةً الولَد وتارِكةً إيَّاه وراءها؟

"رِصفة!"

وضَعَ يده على الزنْد، فترجَّحَ من فوقه، وهبَطَ بتَوازُنٍ تامٍّ.

كان كالِب قاعِدًا في حِضن رِصفة. وقد كان مُغطًّى بالدَّم وزاعقًا. فخفَقَ قلبُ أتريتِس خفقةً حادَّة. وإذ رأى رِصفة تحسُّ وجهَ الولَد مُحاوِلةً أن تُهدِّئَه، قال بصوتٍ أجشَّ: ''ما مدى سُوء الإصابة؟ أينَ جُرِح؟'' ثُمَّ تقدَّم وشالَ ابنَه عن حِضنها.

عندئذٍ رأى السَّهمَ ناتئًا من صدرها فأدرك أنَّ دمَها هو الذي غطَّى كالِب. لقد كان الطِّفلُ سليمًا من أيِّ أذًى.

سمعَ ثيوفيلُس صُراخَ أتريتِس الحَنجريَّ، فترك المتياثْشيَّين حيثُ كانا مُنطرِحَين. قفَزَ عبْرَ الفُسحة الصغيرة ودار حولَ الزنْد، حيثُ رأى أتريتِس على رُكبتَيه، شاحِبَ الوجه، جاسًّا خدَّ رِصفة برِقَّة. كان يتكلَّمُ إليها بالجِرمانيَّة. وإذ تقدَّم ثيوفيلُس أكثر، رأى الجُرح. لقد كان جُرحًا مُميتًا.

فقال برِقَّة: ''آه، يا يسوع!''

وضعَ أتريتِس يده اليُسرى على صدر رِصفة، مُثبِّتًا إيَّاها وهو يُخرِجُ السَّهمَ بيُمناه. ثمَّ أطلقَت رِصفة صوتًا ضئيلًا، مصدومةً. وتدفَّقَ الدَّمُ من الجُرح إذ ألقى أتريتِس السَّهمَ جانبًا. فضغَطَ بعَقِبِ يدِه على الجُرح لِوَقفِ النَّزف، ولكنَّ ذلك لم يُجدِ كثيرًا. وإذ تشبَّثَ بوجه رِصفة الشاحِب بيده المُضرَّجة بالدَّم، توسَّلَ إليها. ''لا تموتي. هل تسمعينَني؟ لا تموتي!''

حَشرَجَت مُحاوِلةً أن تتنفَّس، والدَّمُ يُبقبِقُ من شفتَيها المُنفرِجتَين ويتقطَّرُ من زاويةِ فمِها.

خرَّ ثيوفيلُس على رُكبتَيه، قائلًا: ''يسوع، يا يسوع''.

قال أتريتِس مُربِّتًا خدَّها: ''حبيبتي، لا...'' وتغيَّرت عيناها على نحوٍ غريب. فرأى أتريتِس ذلك وعرَفَ معناه. ''لا!'' وقد غمَرَه خوفٌ لم يعرِف مِثلَهُ قطُّ.

كان على وشْكِ أن يفقدها. فماذا يفعلُ إذ ذاك؟ قال بصَوتٍ خَشِن: ''اصرُخي إلى إلهِكِ!'' وقد سالت الدُّموعُ من عينَيه. وانغرَزَت أصابعُه في وجهها الشاحِب. ''اصرُخي إلى إلهِكِ الآن!'' لقد سبَقَ أن رأى الموت مِرارًا أكثرَ من أن يفوتَه إدراكُ كونِه قد جاء ليأخُذَها.

ثمَّ تغيَّرَ تنفُّسُها. فالحَشرجةُ الخشِنة والسريعة لأخذ النَّفَس تباطأت وخفتَت.

وقال بصوتٍ أجَشَّ: ''أنا مُحتاجٌ إليكِ''.

فارتعشت يدُها كما لو أرادت أن تلمسَه ولم تكُن لها القُوَّةُ للقيام بذلك. ثُمَّ أطلقت تنهُّدةً طويلةً رقيقة، وصمَتَت. فاسترخى جِسمُها وباتت ساكِنةً تمامًا.

أنَّ أتريتِس قائلًا: "لا!" ووضَعَ يدَه على حَنجرتها، فلم يكُن نَبْضٌ. فقال بكَرْبِ حُزنٍ شديد: "لا!" وتدفَّقت من فمه كلِماتٌ جِرمانيَّة كالسَّيل، تَصحَبُها مشاعِرُ كان قد أبقاها مخبوءة، مشاعِرُ كانَ قد كافَحَها. ثمَّ احتضنَ وجهَها بكِلتا يدَيه. كانت عيناها مفتوحتَين، واسعتَين، جامدتَين، لا تُبصِران، وقد انفرجَت شفتاها برِقَّة. وتوقَّفَ الدَّمُ الذي كان يتقطَّرُ من فمها. كما توقَّفَ نَزفُ الدَّمِ من الجُرحِ في صدرها.

قام أتريتِس باسِطًا راحتَي يدَيه إلى فوق، مُغطَّاتَين بدَمها، وجأرَ مُعبِّرًا عن كَرْبه الشَّديد. ثمَّ صرخ مِرارًا وتَكرارًا. فيما ابنُه يُزعِّقُ متروكًا ومَنسيًّا.

تقدَّم ثيوفيلُس إلى جانب رِصفة، ووضَعَ يدَيه عليها. وبينما سكَبَ أتريتِس حُزنَه ويأسَه، سكَبَ ثيوفيلُس إيمانَه مُصلِّيًا للمسيح.

لا شيءَ مُستحيلٌ عند الله. لا شيء.

لم تخرُجْ أيَّةُ كلِمات من شفتَيه، ولا دارت في رأسه أفكارٌ جليَّة، ولكنَّ نفسَه صرَخَت إلى الله أن تُرَدَّ رِصفة إلَيهم. لأجل الطِّفل. ولأجل الرَّجُل الذي ما زال هائمًا في الظَّلام.

مشى أتريتِس مُبتعِدًا بتَعثُّر. أحسَّ كأنَّ أحدًا كان يخنقه. لم يستطع أن يتنفَّس. وغمرَت ذِهنَه رؤًى عن كلِّ حياةٍ انتزعها يومًا، وكلِّ عزيزٍ فقدَه. ثمَّ قعد مُتهالِكًا، مُسنِدًا ساعِدَيه فوق رُكبتيه. وإذ طأطأ رأسه، بكى.

استمرَّ ثيوفيلُس مُصلِّيًا.

دفَعَ كالِب نفسه صعودًا ودَرَجَ نحو أُمِّه المَيتة. ثُمَّ ارتمى مُتثاقِلًا ووضعَ رأسَه في حضنها، وأخذَ يمصُّ إبهامَه.

لمَّا انقطَعَ بُكاءُ كالِب، رفَعَ أتريتِس رأسَه وبحث عنه. وحينَ رأى أينَ استلقى، أغمضَ عينَيه. كيف سيُربِّيه وحدَه؟ وقد كان ثيوفيلُس جاثيًا على رُكبتَيه، ويداه تُغطِّيان جُرحَ رِصفة بإحكام. ماذا ظنَّ قائدُ المئة أنَّ في وسعه أن يفعلَ الآن؟ أيُّ نَفعٍ كان لصَلواته؟

"دَعها في حالِها. إنَّها مَيتة". فبقيَ ثيوفيلُس كما كان. وقال أتريتِس إذ هبَّ واقفًا: "إنَّها مَيتة، قلتُ لك. أتعتقِدُ أنِّي لا أعرِفُ الموتَ حين يأتي؟"

علِقَت كَلِماتُه الغاضِبة في الهواء البارد إذ خيَّمَت على الغابة سَكينةٌ مُفاجئة. وبدا على مدى نَبضةِ قلب كأنَّ الخليقةَ كلَّها قد سكَنَت، ثُمَّ هبَّ هَمسُ ريح رقيقٌ. فنظَرَ أتريتِس حَوالَيه مُرتاعًا، وقد أخَذَ جِسمُه يَخِزُ إذ همَسَتِ الرِّيحُ حولَه...ثمَّ ابتدأ يرتجف، خائفًا من أيَّةِ قُوًى تحرَّكت حَوالَيهم، مهما كانت.

وجذبَتِ انتباهَه فورًا شَهقةٌ، فاتَّسعَت عيناهُ غيرَ مُصَدِّقٍ إذ سحبَت رِصفة نفَسًا عميقًا، وقد انفتحَت عيناها واسِعتَين إذ تخطَّت ثيوفيلُس بنَظَرِها. وقالَت برِقَّةٍ مُتعجِّبةً: "يسوع!" فسقَطَ أتريتِس أرضًا. وإذ تشبَّثَ بالتُّراب، انبطَحَ مُرتجِفًا بشدَّة، ووجهُه يُلامِسُ الأرض.

رفَعَ ثيوفيلُس يدَيه عن رِصفة، ومسَّ خدَّها برفقٍ بيدَين مُرتجِفَتين. وقالَ مَنهوكًا بصوتٍ مخنوق: "الحَمدُ لِلّٰه!" ثمَّ مسَّها من جديد، مذهولًا.

قالت رِصفة، وعيناها تتلألآن: "لقد كان معي. شعرتُ به يلمسُني".

مهما كانت القوَّة التي ثبَّتَت أتريتِس أرضًا، ارتفعَت بسُرعة مِثلَما هبطَت، فوقفَ على قدمَيه بِجَهد. ثمَّ تقدَّمَ مُقتربًا، مُرتعِبًا، وقلبُه يخبِطُ بشِدَّة. وقالَ هامِسًا: "لقد كانت مَيتة!"

وبهُتافِ ظَفَرٍ، وقفَ ثيوفيلُس وتنحَّى جانبًا، وقد دبَّت فيه الحماسَةُ. وتشبَّثَ بذِراعَي أتريتِس ضاحكًا وباكيًا. "قُل لي الآنَ إنَّ المسيح لا قُدرةَ له! قُل لي إنَّه ليس حيًّا! لقد كانَ في البدء، وهو الآن، وإلى الأبَد سيَكون. إنَّ إلهَنا يملك!" ثُمَّ أفلتَ الجِرمانيَّ، ورفَعَ يدَيه شاكرًا مُتهلِّلًا، وارتفعَ صوتُه قائلًا: "الرَّبُّ الرَّاعي!" وقد انتشرَ الصَّوتُ وتردَّدَت أصداءُ إعلانِه في أنحاء الغابة الكثيفة. "إيل عِليون، الله العَليُّ!"

جثا أتريتِس مُرتجِفًا قُدَّامَ رِصفة، غيرَ قادِرٍ أن يُصدِّقَ ما رأته عيناه. وإذ بلَعَ رِيقه بصُعوبة، مدَّ يدَه ليلمسها، ثُمَّ سحَبَها. لقد قَفَّ الشَّعرُ على قفا رقَبَتِه، لأنَّ وجهَها كان مُتألِّقًا كما لم يرَه قطُّ من قبل وعينَيها كانتا مُتلألِئتَين. إنَّها كانت حيَّةً، حيَّةً أكثرَ ممَّا سبَقَ أن رآها يومًا. لقد شعَّ حولَها بَهاءٌ باهِر.

التقَت عيناها عينَيه. "لقد كان هُنا معي".

"أنا أُصدِّقُكِ".

فمدَّت له يدَها قائلةً: "لا تخَف. ليس مِن شيءٍ يدعو إلى الخوف". ووضعَت يدَها برِقَّة على خدِّه. "الله يحبُّك".

انغلَقَت حَنجرَتُه من التأثُّر العاطفيِّ، ولم يستطع أن يتكلَّم. ثمَّ تشبَّثَ بيدها وقبَّلَ كفَّها، والدُّموعُ جارية. ومسَّ وجهها برَهبة. عندئذٍ لاحظَ كيف كان تُنكُها مُضرَّجًا بالدَّم. وأراد أن يتفقَّدَ الجُرحَ لئلَّا يستمرَّ النَّزف. فسحَبَ خَنجرَه من قِرابِه بيدَين مُرتجِفتَين، وقطَعَ النَّسيجَ الصُّوفيَّ بحَذَر. ولمَّا أرجَعَ القُماش، وجَدَ جِلدَها ناعمًا تحتَه. فبحثَ عنِ الجُرحِ عابسًا.

وإذ أخذَته الرَّهبة، مَسَّ جِلدَها، وأحسَّ قُشَعريرةً تغمرُ بَدَنَه كلَّه إذ فعَلَ ذلك. لقد كان

الدَّليلُ الوحيدُ على وجودِ جُرحٍ نَدْبةً دائريَّةً صغيرة فوق ثَديِها الأيمن تمامًا، بلِزقِ قلبِها. وما كان مُمكنًا أن ينجُوَ أيُّ شخص من جُرحٍ كهذا.

لقد كانت رِصفة مَيتة. وهوَ علِمَ ذلك جيِّدًا كما علِمَ أنَّها حيَّةٌ الآن. كما علِمَ أيضًا أنَّ ثيوفيلُس لم يُجرِ هذه المُعجِزة. ولا طِيواز. فإنَّ إلهًا واحدًا فقط فعلَ هذا: إله هَدسَّة، إله رِصفة، الإله الذي كان قدِ استبعَدَه بثِقةٍ حاسبًا إيَّاه ضعيفًا وغيرَ فعَّال. ذلك هو الإله الذي فعَلَ المُستحيل.

سحَبَ أتريتِس يدَيها عنها وتراجَعَ مُنكفئًا. لم يفهَم الطريقةَ التي بها اشتغَلَ هذا الإله ولكنَّه لم يستطع أن يُنكِرَ القُدرةَ التي أحسَّها ورآها. وقد كان صوتُه مُفعمًا باليقين لمَّا تكلَّم. "إلهُكُم إلهُ آلِهَةٍ ورَبُّ مُلوك!"

فالتفتَ ثيوفيلُس. "هو الإلهُ الوحيد، أتريتِس. الإلهُ الوحيد!"

رفَعَ أتريتِس نظَرَه إلى ثيوفيلُس. لقد باتَ كلُّ عِدائه تُجاهَ الرُّومانيِّ مَنسيًّا في غمرةِ تعجُّبِهِ ممَّا شهِدَه توًّا. "أنِّي أُعطيهِ سَيفي!"

علِمَ ثيوفيلُس أنَّ عهدًا كهذا بالنِّسبةِ إلى شخصٍ جِرمانيٍّ عَنَى شرَفَه وحياته. "كما أعطيتُه أنا سيفي لمَّا دخلتُ مَملكتَه". ثمَّ مدَّ يده.

فأمسك أتريتِس بها، وقال: "عَمِّدني!" ولم يكُن ذلك طَلَبًا، بل كان أمرًا. "عمِّدني لأتمكَّنَ منَ الانتِماء إليه".

قبَضَ ثيوفيلُس على كتِفه، قائلًا: "وهكذا نبدأ".

النُّموّ

"ونَما [البَذرُ]..."

٣٠

عمَّدَ ثيوفيلُس أتريتِس في أوَّل نَبع وجدوه، قائلًا: "أُعمِّدُك باسْم الآب والابن والرُّوح القُدس". وقد جَثا أتريتِس على رُكبتيه. وإذ بذَلَ ثيوفيلُس مُساندةً للجِرمانيِّ، أمالَهُ إلى الوراء، وقال مُغطِّسًا إيَّاه: "لقد دُفِنتَ مع المسيح وأُقِمتَ في جِدَّةِ الحياة". ثُمَّ جذَبَه إلى فوقُ مُجدَّدًا.

وقفَ أتريتِس مُبلَّلًا وقاطرًا. وإذِ التفتَ، رأى رِصفة واقِفةً في الماء حتَّى كاحِلَيها، حامِلةً ابنه، فقرَّرَ قرارًا آخر سيؤثِّر في باقي حياته. "أطلُبُ رِصفة زوجةً لي".

فقَدَت حَملقةُ رِصفة بريقَها الحالِم. "ماذا؟"

"قُلتِ إنَّكِ تُحبِّينني!"

وإذ خوَّضَ في الماء نحوَها، جعلَت نظرةُ عينَيه نَبْضَها يتسارع وجعلَتها راغبةً في الهَرَب. فانسحبَت من النَّبع إلى الضفَّة. "أنا أُحِبُّ ثيوفيلُس أيضًا، كما أحبَبتُ تيمون وبورشيا وبارتيماوُس وكاميلا وطيبُلُّس ومناسون و..."

قال أتريتِس: "قُلتِ إنَّكِ لن تكذِبي عليَّ أبدًا". وقد سمَّرَتها عيناه حيثُ وقَفَت.

"لستُ أكذِب!"

خرَجَ من الماء ووقفَ قُدَّامها، مادًّا يدَيه. "أعطيني الصَّبيَّ".

"لماذا؟"

"أعطيني ابني".

وفعلَت ذلك مذعورةً. فأخذَ أتريتِس كالِب وقبَّلَ خدَّه، وأوقفَه على قدَمَيه. وإذِ استقام، ابتسمَ قليلًا. فسقطَت معدتُها وتراجعَت خطوةً واحدة. ولم يُجدِها الانكِفاء نفعًا، إذ أمسَكَ بها جيِّدًا. ولمَّا جذَبَها بين ذراعَيه، لم يُتَح لها من الوقت إلَّا ما يكفي لإطلاقِ شهقةٍ رقيقة قبلَ أن يُقبِّلَها. وقد مضى وقتٌ طويلٌ قبلَما أرخى عِناقَه، وعندئذٍ لم تستطع أن تُفكِّرَ بجَلاء.

وفيما هو مُتأثِّرٌ على نحوٍ مُعادِل، قالَ مُذعِنًا: "أنتِ تُحِبِّين أُولئك الآخرين، ولكنْ ليس بالطريقة التي بها تُحِبِّينَني".

فقالت بصوتٍ راعِش: "لستُ على يقينٍ بأنَّ زواجي بك فِكرةٌ جيِّدة". وقد خشِيَت قوَّةَ الأحاسيس التي أثارَها فيها. "لكَ أو لي".

وقَفَ ثيوفيلُس في النَّبع، ضاحكًا. "سيكونُ ذلك فرَجًا مُبارَكًا!"

وتقدَّم نحوَهُما مُبتسِمًا ابتسامةً عريضة. "أم نسِيتِ أنَّ الله جمَعَكُما كِلَيكُما في أفسُس؟"

فقالِت رِصفة: "ليسَ كزَوجٍ وزوجة!" وقد حاولَت أن تُحافِظَ على مسافةٍ ما بينها وبين أتريتِس. لقد كانت بحاجة إلى وقت كي تُفكِّر، ولم يكُن ذلك في وسعها وهو مُمسِكٌ بها على ذلك النَّحو. أكانَ أمرًا لائقًا أن ترغَبَ في رجُلٍ ما بهذه الشِّدَّة البالغة؟ أوَكانَ ذلك أمرًا مسيحيًّا؟ ونظرَت إلى ثيوفيلُس مُستنجِدةً، غير أنَّه بدا مسرورًا.

لم يكُن أتريتِس قطُّ ينوي أن يُفلِتَها ما لَم تُذعِن. "نحنُ أُمٌّ وأبٌ للولَدِ عينِه. فمن المنطِقيِّ أن نكونَ زوجًا وزوجةً أيضًا. قولي نعم". ولَمَّا تلعثمَت، احتضن قفا رأسها بيدَيه. "قولي نعم. كلِمةً واحدة. نعم!" ثُمَّ قبَّلَها ثانيةً، بقُوَّةٍ مماثِلة للمرَّةِ الأُولى.

ولَمَّا سمَحَ لها أتريتِس أخيرًا بأن تتنشَّق نفَسًا، قالت لاهثةً: "ثيوفيلُس!"

فقال ثيوفيلُس ضاحكًا: "قُولي نعَم، رِصفة. هُنالك أمرٌ واحد كان ينبغي أن تتعلَّميه منذ وقتٍ طويل عن هذا الرَّجُل: ما إن يُقرِّرُ قرارَه، حتَّى يحتاجَ الأمرُ إلى تدخُّلٍ إلهيٍّ لتغييره!"

أمسكَ بها أتريتِس مَدَّةَ ذِراع، وتأمَّلَ وجهَها مُكتئِبَ السِّيماء. "لماذا تتردَّدين؟"

"ما الذي أوصلَك إلى هذا السَّبيل؟"

"ما الذي أوصلَني؟ لقد فتَحَ موتُكِ عينيَّ. أنا مُحتاجٌ إليكِ، ليس لأجل كالِب فقط، بل لأجلِ نفسي أيضًا".

لم يكُن في وسعها أن تنظُرَ إلى عينَيه تحديدًا بغَيرِ أن تضعُفَ. وإذ أغمضَت عينَيها، صلَّت بِضَراوة، صارِخًا قلبُها إلى الله؟ أهذا هو ما تُريدُه لنا؟ أم هو تَوقُنا الجسدانيُّ؟

ليس جيِّدًا أن يكونَ آدَمُ وحدَه؟

خطَرَت الكلِمات في بالها بكُلِّ رِقَّة حتَّى ظنَّت أنَّ أحدًا همَسَ بها.

أحسَّت رؤوس أصابِع أتريتِس تمَسُّ حَنجرَتها برِفق، فارتجفَت. وإذ فتحَت عينَيها، نظرَت داخِلَ عينَيه فرأت رِقَّةً وضَعفًا ما خمَّنَتهما قطُّ موجودَين. لم تكُنِ الشَّهوة وحدَها ما دفَعَه إلى هذا القَرار. لقد أحبَّها. أحبَّها حقًّا.

أيُّها الربُّ الإله، لا تسمحْ بأن أكون حجَرَ عثرة. ولا تسمحْ له هو بأن يكون حجَرَ عثرة. ساعِدني حتَّى أُنيرَ طريقَه. أنتَ تعلَمُ كيف يجمَحُ لِساني بي.

ومن جديد، جاء الهمسُ الرقيق.

توكَّلي على الرَّبِّ بكُلِّ قلبكِ، وعلى فهمكِ لا تعتمدي.

فأمسكَت يده، وقالت: "ليس لأجل كالِب وحدَه، بل لأجل نفسي، سأتزوَّجُك". واغرورقَت عيناها لمَّا رأتِ الفرحَ يَثِبُ إلى داخِلِ عينَيه. أكانت مهمَّةً عندَه بهذا المِقدار البالغ؟ لم تكُن قطُّ قد تصوَّرت أنَّ هذا الرَّجُلَ العنيفَ القاسيَ يمكن أن تكونَ له مشاعِرُ رقيقةٌ كهذه وحاجاتٌ عميقةٌ هكذا.

يا ربُّ، أنا شديدة الغباوة. فهل أراهُ يومًا بعينَيك وبقلبِك؟

خرَجَ ثيوفيلُس من النَّبع ومشى نحوَهُما. ولمَّا وصلَ إلَيهما، مدَّ لهما كِلَيهما يدَيه. فأمسكَ أتريتِس بيُسراه، ورِصفة بيُمناه.

"أيُّها الرَّبُّ الإله، نقِفُ أمامَك هذا اليوم لِنجمَعَ أتريتِس ورِصفة في الزَّواج. كُن معنا، أيُّها الربُّ يسوع، في توثيقِ هذا الرِّباط". ونظَرَ إلى أتريتِس. "في الزَّواج المسيحيِّ، أتريتِس، الزَّوجُ هو رأسُ الزَّوجة، كما أنَّ المسيح هو رأسُ الكنيسة أيضًا، وهو نفسُه مُخلِّصُ الجسد. ولكنَّ الكنيسة خاضِعة للمسيح، وهكذا ستكونُ أنت خاضعًا للمسيح، ورِصفة أيضًا ستكون خاضعةً لك في كلِّ شيء. فأحبِبها كما أحبَّك المسيح وبذَلَ نفسَه لأجلك. وبروح التضحية، كُن مُستعدًّا حتَّى للموت من أجلها. أحبِبها كما تحبُّ جسدَكَ. أعِلها واحمِها في جميع الأحوال".

"سأفعَلُ ذلك".

ثُمَّ نظَرَ ثيوفيلُس إلى رِصفة وابتسم. "كوني خاضعةً لأتريتِس، يا محبوبة. اخضعي له كما للرَّبِّ. واحترِميه بوصفِهِ زوجَكِ".

"سأفعَلُ ذلك".

وقَفَ كالِب في وسطِ حلقتهم الصغيرة، رافعًا نظَرَه إليهم، فيما وضعَ ثيوفيلُس يدَي أُمِّه وأبيه فوق رأس الولَد.

أحكمَ أتريتِس إمساكَ يَدِ رِصفة بتَملُّك. ووضعَ ثيوفيلُس إحدى يدَيه فوقَ يدَيهما والأُخرى تحتَهُما. "اخضعا أحدُكما للآخَر في مخافة المسيح. ليس من ذَكرٍ ولا أُنثى؛ لأنَّكما واحدٌ في المسيح يسوع، مَدعوَّان لأن تعيشا بحسب مشيئة الله، لا مشيئتِكُما. تذكَّرا ربَّنا يسوع المسيح الذي مات على الصليب لأجلنا وقامَ حيًّا في اليوم الثالث. إنَّ إلهَنا صَبورٌ ولطيف. إنَّه لا يحسد ولا يتفاخر ولا يتصلَّفُ أبدًا. إنَّ يسوع لم يطلب قطُّ ما هو لنفسه، ولا

استُفِزَّ، ولا قيَّدَ في الحساب ظُلمًا عاناه. إنَّ الربَّ لا يفرَحُ أبدًا بالإثم. إنَّ المسيح يسوع احتملَ كلَّ شيء وصبَرَ على كلِّ شيءٍ لأجلنا. إنَّ محبَّته لا تسقطُ أبدًا.

إذًا، يا مَحبوبان، تذكَّرا واسلُكا طريقَه. اسلكا سلوكَ أولادِ النُّور. لازِما أحدُكما الآخر. اخضعا أحدُكما للآخر في محبَّة المسيح، وعِيشا عيشةً تسرُّ يسوع المسيح ربَّنا".

ثمَّ أفلتَ يدَيهما وطلبَ منهما أن يجثُوَا أمامَ الله، وجثا معَهُما. وعانَقَ كالِب جَنبَ رِصفة بهدوءٍ وعينَين مُتَّسِعتَين، فيما وضع ثيوفيلُس إحدى يدَيه على رأسها والأُخرى على رأس أتريتِس.

"أيُّها الرَّبُّ الإله، خالِقَ كُلِّ شيء، خالِقَ هذا الرَّجُل وهذه المرأة، أطلُبُ برَكتَك عليهما إذ يمضيانِ زوجًا وزوجة".

فقالت رِصفة برِقَّة، مُطأطئةً رأسها: "رجاءً، يا ربُّ".

"عسى أن يُربِّيا ابنَهُما كالِب لَمدحِ اسمِك".

وتعهَّدَ أتريتِس: "سنفعَلُ ذلك".

"أقِم ملائكةً حولَهُما واحمِهِما من العدوِّ الذي سيُهاجِمُهما ويُحاوِل أن يُفرِّقَهُما".

فتَمتمَت رِصفة: "رجاءً، احمِنا يا ربُّ".

"ارزُقهُما أولادًا يُربِّيانهم باسْمِك".

فقال أتريتِس بجُرأة: "بَنينَ وبناتٍ!" وغمَرَتِ الحرارةُ وجهَ رِصفة وجِسمَها.

ابتسمَ ثيوفيلُس ابتسامةً عريضة، ثُمَّ أضاف قائلًا: "أيُّها الرَّبُّ يسوع المسيح، ليخدمْكَ أتريتِس ورِصفة بِسُرور ويدخُلا إلى حضرتك يوميًّا بِشُكر، عالِمَين أنَّك أنتَ الله وحَدك. لقد صنعتَهما على صورتك، ولك قصدٌ إلهيٌّ لحياتهما. أنت تُرسُهما وقوَّتُهما. فلا يعتمِدا أبدًا على فهمِهما، يا ربّ، بل ليتوكَّلا عليك، ويعرِفاك في كُلِّ طُرقِهما، حتَّى تُقوِّمَ سبُلَهُما".

وقالت رِصفة: "ليتك ترضى عنَّا، يا ربُّ!"

فأضافَ ثيوفيلُس: "أيُّها الربُّ يسوع، في أيَّة أحوال قد تنشأ، لتمتدَّ نعمتُك ورحمتُك اللامحدودتان إلى الآخرين بواسطتهما. آمين!"

قال أتريتِس: "آمين!" ووقفَ مُقيمًا رِصفة إلى جانبه. كانت عيناه الزَّرقاوان مُتَّقِدتَين، وكان يرتجف. فتدفَّقَت الحرارة إلى خدَّيها. لقد خشِيَت أن يعمِدَ من جديد إلى ضمِّها بين ذِراعَيه ومُباشَرةِ تقبيلها أمام ثيوفيلُس تمامًا.

غيرَ أنَّه طأطأ رأسَه ليُقبِّلَ كِلتا يدَيها، ثُمَّ أفلتَها قائلًا: "ينبغي أن تغسلي الدَّمَ عن

تُنكِكِ". وجلس القُرفصاء أمامَ ابنِه. "هيَّا، يا صبيُّ. أنت تحتاج إلى حمَّام". وإذ شالَ الولَد، وقَفَ وقذفَه عاليًا في الهواء. فزعقَ كالِب بضَحِكِ الابتهاج الشَّديد. والتقطَه أتريتِس فركَضَ به إلى داخِلِ النَّبع، فيما حدَّقت رِصفة مَشدوهةً وراءه. لقد تصارَعَ الارتباكُ والاطمئنان في داخلِها. لن تفهمَ الرَّجُلَ أبدًا. أبدًا!

وإذ رفَعَ ثيوفيلُس عُدَّةَ الرِّجال إلى ظهره، قالَ لرِصفة: "قولي لأتريتِس إنِّي سأنصُبُ خيمةً وأقومُ بالحِراسة".

فرمقَته بنظَرها، مُحرَجةً لنِسيانِها حُضورَه. وابتسمَ ابتسامةً ساخِرة. "لقد كان يومًا حافلًا!"

قالَت: "شُكرًا لك". وقد ملأت عينَيها دموعُ تقديرٍ سريعةٌ وطوَّقت عُنقَه بذِراعَيها فقبَّلَت خدَّه. وقالت بصوتٍ أجشَّ:

"شُكرًا لك على صَلاتِك لأجلي". ولم تقدِر أن تزيدَ شيئًا.

فأسقَطَ حِملَه، وضمَّها قليلًا. "إنِّي أُصلِّي لأجلِكُما كِلَيكُما منذ مُدَّةٍ طويلةٍ جدًّا". وإذ هدأتْ أمامه، ربَّتَ خدَّها كما يُربِّتُ أبٌ خدَّ ابنةٍ. "لقد أصدرَ زوجُكِ إليكِ أمرًا بأن تغسلي تُنكَكِ".

قالت، وعيناها تبرقان: "وسأُطيع!" ثُمَّ أمسكت إحدى يدَيه بكلتا يدَيها. "أنا أُحِبُّك، ثيوفيلُس، وأشكُرُ الله على كونِك أخًا لي. ماذا كانَ سَيجري..." وتهدَّجَ صوتُها مُتلاشيًا.

"اذهبي، يا محبوبة. زوجُكِ ينتظِر".

فطرفَت بعينَيها حَبسًا للدُّموع، وتبسَّمَت، واستدارَت ماضيةً.

حمَلَ ثيوفيلُس المؤونة على كتِفَيه وراقبَها تمشي نازلةً إلى النَّبع، حيثُ لاعَبَ أتريتِس كالِب. ثُمَّ خوَّضَت في الماء، فأقبَلَ أتريتِس لمُلاقاتها. وانحَنى فقبَّلَها.

وفيما شاهَدَ ثيوفيلُس ذلك، أحسَّ وحشةً يتعذَّر تفسيرُها. لقد مرَّت أوقاتٌ فيها ساءته حياةُ عُزوبته، كحالها الآن، إذ شعرَ بأنَّه سُلِخَ عن رِصفة وأتريتِس بسبَب من الرِّباط المُقدَّس الذي من شأنه أن يُغيِّرَ علاقتهما إلى علاقةٍ حميمة. كان قد شاهَدَ هذين الاثنين يتحرَّقان أحَدُهما إلى الآخَر من أفسُس حتَّى جِرمانيا، وصلَّى أن لا ينساقا إلى الخطيئة. فإنَّ الله عليمٌ بطبيعتَيهما واحتياجاتهما. وهو قد أعطاهُما أشواقَهُما ويسَّرَ أُمورَهُما. لقد تزوَّجا.

أمَّا له، فلم يكُن مسموحًا للجنود باتِّخاذِ زوجات. وقد آلَه المَنعُ أحيانًا. وقبلَما خلَّصَهُ

المسيح، تحرَّق واستسلم للخطيئة، فكانت النِّساءُ متعةً أساسيَّة في حياته.

إلَّا أنَّ ذلك كلَّه تغيَّرَ لمَّا صار مسيحيًّا.

أمَّا الآن، وقد تقاعَدَ من الجيش، فسَتكونُ الحياة مُختلفة. باتَ في وسعه أن يتزوَّج، ولكنَّه لم يعتقِد أنَّ ذلك كانَ ضَمنَ خُطَّة الله له. وفي الواقع أنَّ رغبتَه في القيام بذلك كانت قد تضاءلت. فإنَّ خمسًا وعشرين من سنيه الأربعين أمضاها في خوض المعارك وإنشاء الطُّرُق، من روما إلى جرمانيا إلى إيونيا. وقد بقِيَت له سنون قليلة على هذه الأرض. فتِلكَ السَّنوات التي له فعلًا أراد أن يُكرِّسها للرَّبِّ.

ولكنْ مرَّت أوقاتٌ...

شالَ أتريتِس ابنَه على كتِفَيه وانحنى ليُقبِّلَ رِصفة ثانيةً. وشاهدَ ثيوفيلُس ذلك فأحسَّ وخزةَ ألَمٍ سريعةً وغيرَ مُتوقَّعة. لقد كانت شابَّةً رائعة، واتَّضَحَ من تجاوُبِها أنَّهما سيَلقيانِ صُعوبةً يسيرةً في التَّكيُّفِ أحَدُهما للآخر. لقد كانت حياةُ أتريتِس قاسيةً وقاتمةً حتَّى الآن، ولكنَّ الله سيؤتيه فرَحًا بواسطة رِصفة.

وما لبِثَ ثيوفيلُس أن قال: "يا ربُّ، بارِكهُما بِجَعبةٍ ملآنةٍ أولادًا". ثُمَّ أشاحَ وجهَه ومشى صاعدًا التَّلَّ ليُقيمَ مُخيَّمًا ويُعِدَّ وجبةَ طعام.

بعدَ ساعات، رأى ثيوفيلُس أتريتِس ورِصفة ماشيَين نحوَه بين أشجار البيسِية والتَّنُّوب الشَّذيَّة. كان كالِب نائمًا على كتِفِ رِصفة، وكانت ذِراعُ أتريتِس حولَ خصرِها. ولم يكُن ثيوفيلُس قطُّ قد رآهُما في راحة مثل هذه أحَدُهما مع الآخر، فعلِمَ أنَّ الله بارَكَ عصْرَ يومِهما معًا. ولمَّا رفعَت رِصفة نظرَها إلى أتريتِس وقالَت له شيئًا ما، توقَّف ومسَّ شعرَها مسًّا خفيفًا. ورفعَت ذقنَها فقبَّلها ويدُه تنزلِقُ عن كتِفِها نزولًا إلى ذراعها بإشارةِ امتِلاكٍ رقيقة وطبيعيَّة.

أشاحَ ثيوفيلُس بناظِرَيه، آسِفًا على تطفُّله في لحظةٍ حميمة كتِلك.

ثمَّ تقدَّما إلى النار مُتباطئَين تقريبًا. فرفع ثيوفيلُس نظَره وابتسمَ مُحَيِّيًا. "تفضَّلا إلى الأرانِب". لقد علِمَ أنَّ رِصفة لا بدَّ أن تكون خَجِلة، وحاوَلَ إراحتَهُما كِلَيهما. "في القِدرِ كثيرٌ من يخنة الفاصوليا، وفي تلك الطَّاسة تُوتٌ برِّيٌّ".

أبعَدَ أتريتِس ذراعَه عمَّا حولَ كتِفَيها، وأخذَ ابنه. ونظَرَ ثيوفيلُس إليها فرأى لونها يتورَّد. وأنامَ أتريتِس كالِب بين حُزَمِ الأمتعة ثُمَّ غطَّاه ببَطَّانيَّة. وإذ رأى رِصفة ما تزال واقفةً عندَ

طرَفِ ضوء النَّار، قال: "اقعُدي". وإذ تقدَّمَت، رمَقَ أتريتِس ثيوفيلُس. فأومأ هذا له أن يأكُل.

جلَسَ أتريتِس القُرفُصاء، وشالَ واحدةً من الأرانب المَشويَّة الثلاث من السِّيخ وحطَّها على صحن خشبيٍّ. ثمَّ غرَفَ عصيدةَ فاصوليا وعدَسٍ وذُرة إلى جانبها. وقال لرِصفة: "اقعُدي هناك". ولمَّا أطاعَت، ناوَلَها الصَّحن. ومسَّ خدَّها برِفق، ثمَّ خدَمَ نفسَه. ولمَّا حَنَت رأسَها لتُصلِّي، راقبَها أتريتِس وانتظَرَ حتَّى فرِغَت.

كان أتريتِس نَهِمًا إلى الطَّعام نهَمَهُ إلى رِصفة عصرَ النَّهارِ كلَّه. فأكَلَ بسُرعة، مُلقيًا العِظامَ في النار. وأتى على الأرنب قبلَما أكلَت رِصفة نِصفَ أرنَبِها.

قال له ثيوفيلُس ضاحكًا: "في وسعك أن تحوزَ الأُخرى الباقيةَ على السِّيخ". وما كان قطُّ قد رأى أتريتِس جائعًا جدًّا هكذا. "أنا أكلتُ قبلا".

رفَعَ أتريتِس حاجِبَه لرِصفة. فطأطأت رأسها. "ها هُنا كثيرٌ لي ولكالِب عندما يستيقظ".

وإذ زلَّقَ أتريتِس آخِرَ أرنَبٍ مَشويَّة من العُود السِّيخ، قال لثيوفيلُس: "أنا سأصطادُ غدًا. يوجَدُ كثيرٌ من الغُزلان".

ضحِكَ ثيوفيلُس رُغمَ تصميمه ألَّا يضحك. يبدو أنَّ حياة الزَّواج تتطلَّب مزيدًا من الغذاء، ولكنَّه كبَحَ تجرِبةَ التعليق على ذلك. رُبَّما قدَّرَ أتريتِس فُكاهةَ الرِّجال، إلَّا أنَّ رِصفة ستكونُ مُحرَجةً أكثرَ بَعد. فاستلقى إلى الوراء مُريحًا نفسَه على صُرَّة أمتِعته. "ظننتُ أنَّك مُستعجِلٌ أن تعثُرَ على بني قومك".

فقال أتريتِس: "سنتأنَّى". وألقى عَظمةَ ساقٍ في النَّار. "سنمكُثُ هُنا حتَّى تُخبِرَني بكلِّ ما تعرِفه عن يسوع المسيح".

ما كان ممكنًا أن يكون ثيوفيلُس أكثرَ سُرورًا بطَلَب أتريتِس، ولكنَّه كان عسكريًّا وميَّالًا إلى ما هو عمَليٌّ. "ماذا عن قبيلة مَتياتشي؟"

فقال أتريتِس، غيرَ قلقٍ إطلاقًا: "نحنُ على صعيدٍ من الأرض".

"هاجَمونا مرَّةً. يمكن أن يُهاجِمونا ثانيةً".

"إنَّهم يُهاجِمون عدوًّا في فُسحة خالية مُنخفِضة كالَّتي كنَّا فيها اليوم. وقد جرحتَ أنتَ اثنين، وقتلتُ أنا أربعة. لن يأتوا باحثينَ عنَّا". ثُمَّ ألقى باقيَ العِظام في النَّار. "المَتياتْشي جُبَناء!"

استبعدَ أتريتِس مزيدًا من النِّقاش في النِّزاعات القَبَليَّة بعودته إلى طلبه الأسبق. "كلِّمني عن يسوع. أخبِرَتني هَدسَّة عن صَلبه وموته. تصوَّرتُ أنَّه كان ضعيفًا. أمَّا الآن،

فأعرِفُ أفضَل. إنَّه الإله الحقيقيُّ، ولكن عندي أسئلة. أنت تقول إنَّ الله أرسل يسوع. ومع ذلك تقول إنَّ يسوع هو الله. فسِّر ذلك".

"يسوع هو الله، أتريتِس. الله الآب، والله الابن، والله الروح القُدس الذي يسكن في داخلك الآن، جميعًا واحد".

"كيف يكون ذلك مُمكِنًا؟"

بسَطَ ثيوفيلُس يدَيه، مُتمنِّيًا لو طرَحَ أتريتِس سؤالًا أسهل، وقال: "بعضُ الأُمور أروَعُ من أن يفهمَها الإنسان. أنا جنديٌّ بسيط للمسيح، وبقَدرِ ما لديَّ من فَهم جليٍّ أومِنُ بأنَّ هُنالِكَ الله الآب المهوبَ الذي لا يُدنى منه بسبب دخول الخطيئة إلى العالم. وهُنالك يسوع المسيح، ابنُ الله الذي أُرسِلَ للتكفير عن الخطيئة وإزالة الحجاب من أمام قُدسِ الأقداس لنتمكَّنَ من التقدُّم إلى حضرةِ القدير والحُصول على شرِكة وثيقة معه كالَّتي كانت لآدم وحوَّاء في جنَّة عَدْن".

ورأى عَبسةً تخفق على وجه أتريتِس، إلَّا أنَّه غاصَ بَعد. "يأتي الرُّوحُ القدس ليسكُنَ في داخِلنا عندما نؤمن بالمسيح ونُفدَى. وبالرُّوح القُدس يكشِفُ لنا الله الأسرار، لأنَّ الرُّوح يفحصُ كلَّ شيء، حتَّى أعماقَ الله".

"وأنا لي هذا الرُّوح ساكِنًا داخلي الآن؟"

"لحظةَ قبِلتَ المسيح، وافى الروحُ القُدس ليسكُنَ في داخلك".

"إذًا أنا مسكونٌ بهذا الرُّوح؟"

"ليس التعبيرُ «مسكونٌ» كلِمةً نستخدمُها في وَصفِ الأمر. إنَّ الروح القُدس يُقيم في داخلك لدى دعوتِك ويتصرَّف على أساس كونه مُعينَك".

"لم أدعُه للدُّخول".

"هل تؤمن بأنَّ يسوع هو المسيح، ابنُ الله الحيّ؟"

"نعم، أومِن بأنَّه الإلهُ الحيُّ".

"وأنتَ تقبَلُ كونَهُ مُخلِّصَك وربَّك؟"

"هو إلهي. لقد أقسَمتُ على ذلك".

"اعلَمْ إذًا أنَّ المسيح قد أعطاكَ الرُّوحَ القُدس. لقد قال لتلاميذه بعد قيامته وقبلَ صعوده إلى الآب إنَّهم سيُعمَّدون بالرُّوح القُدس. وقال إنَّهم سينالون قوَّةً عندَ حلول الرُّوح

القُدس عليهم. فأنت مُستفيدٌ من ذلك الوعد لأنَّك تؤمن".

ولمَّا سألَ أتريتِس مَن كان التلاميذ، أوضحَ له ثيوفيلُس.

فقال أتريتِس: "لعلَّهم كانوا أكثرَ من بَشَرٍ أيضًا".

"لقد كانوا أُناسًا عاديِّين. كان عدَدٌ منهُم صيَّادي سمَك، وواحدٌ جابيَ ضرائب، وآخَرُ عاصيًا مُسلَّحًا نظيرَك. لم يكُن أيُّ شيءٍ استثنائيٍّ في ما يتعلَّق بأيٍّ واحد منهم، ما عدا أنَّ المسيح اختارهم ليكونوا أتْباعَه. إنَّ الله يختار العاديِّين ويجعلُهم فائقين". ولاحَظَ ثيوفيلُس ارتباكَ أتريتِس فشعَرَ بعدم كفاءته لِمهمَّة الإجابة عن الأسئلة الرُّوحيَّة ومُناقشتها. وقد كانت عبسةُ الجِرمانيِّ المُضطرِبة مؤشِّرًا إلى أنَّ ثيوفيلُس كان مُربِكًا له بدَلَ أن يكونَ مُنوِّرًا.

اللهمَّ، ساعِدني. أعطِني كلماتِك!

"أنا رجُلٌ بسيط، أتريتِس، لي أفكارٌ بسيطة وإيمانٌ بسيط".

مالَ أتريتِس إلى الأمام، ناويًا أن يفهم. "مَن هُما آدم وحوَّاء، وأينَ هي جنَّةُ عَدْن تلك التي ذكرتَها؟"

شعَرَ ثيوفيلُس بالفرَج. **اطلبُوا بِاسْمي، تُعطَوا!** لقد جاء الجواب: انطلِقْ من البداية. فضحِكَ ضِحكةً رقيقة، مُبتهِجًا. الله يستجيب. فلتُعلَم الأسفارُ المُقدَّسة.

"فلأُخبِرك بالقصَّة كاملةً، لا مُجرَّد نهايتها". وقد شعَّ وجهُه في ضوء النَّار، ملائكيًّا ومنحوتًا بالقوَّة، جاذِبًا كامِلَ انتِباهِ أتريتِس.

أصغَت رِصفة فيما حكى ثيوفيلُس خبَرَ خَلقِ السماوات والأرضِ وكلِّ ما كان عليها، بِما في ذلك الإنسانُ. وكالموسيقا، طغى صوتُ الرُّومانيِّ العميقُ على أصواتِ الظَّلام المُطبِق، مُنبِّهًا إيَّاها إلى النُّجوم في السماوات وإلى رجاء الله.

"ثُمَّ خُلِقَ الإنسانُ على صورة الله، وكُوِّنَت حوَّاءُ من ضِلعه لتكونَ رفيقتَه ومُعينتَه".

دُهِشَت رِصفة من جديد. لقد تكلَّمَ الله فبرَزَ كلُّ شيءٍ إلى الوجود. إنَّ الكلمة كانت نسمةَ الحياةِ ذاتَها في البداية كما ستكون إلى نهاية الزَّمان.

ثمَّ تحدَّثَ ثيوفيلُس بشأن الشَّيطان، أجمَلِ مخلوقاتِ الله، وطُرِدَ من السَّماء بسبَب الكِبرياء، ودخل الجنَّة بصورةِ حيَّةٍ وأغوى حوَّاء لتأكُلَ من ثمَرِ شجرة المعرِفة بوَعدِ أن تصيرَ مِثلَ الله. وإذِ انخدعَت، أكلَت فيما زوجُها يقِفُ صامتًا بجانبها، فحُبِلَ بالخطيئة ووُلِدَت. وأعطَت حوَّاء زوجَها من الثَّمَر، فأكلَ هو أيضًا. وبسبب عِصيانهما، طردَهما الله من الجنَّة. فما

عادا يعيشان إلى الأبد، ولا يوجَدان في حضرة الله، بل يعيشان عمُرًا من السِّنين ويُجاهِدان لأجلِ البقاء. وهكذا دخل الموتُ حيِّز الوجود، وهو عاقِبةُ الخطيئة.

ولد آدم وحوَّاء أبناءً حملوا بذرةَ الموت في داخِلهم. وقد تأصَّلَت الخطيئةُ ونَمَت في حسَدِ قايين الذي قتل أخاه هابيل. وإذ تكاثَرَ الناسُ على الأرض، ازدادَ الشَّرُّ حتَّى باتَ كلُّ تَصوُّرٍ لدى الإنسانِ شِرِّيرًا.

تأسَّفَ الرَّبُّ على صُنعهِ الإنسانَ، وقرَّر أن يمحوَه مع الحيوانات وجميع الزَّواحِف التي خلقها. إلَّا أنَّ مخلوقًا واحدًا فقط وجَدَ نِعمةً في نظَر الله، رجُلًا اسمُه نُوح".

جلَسَ أتريتِس مفتونًا، يتشرَّبُ كلَّ كلِمة ويُحِسُّ جَيَشانًا واهيًا في داخله، كما لو أنَّ جُزءًا عميقًا منه كان هاجعًا وأخذَ يستيقظُ الآن. وأصغى مسرورًا كولَد إلى قِصَّةِ نُوح إذ بنى الفُلك، والحيواناتِ إذ دخلَت فيه اثنَين اثنَين، ذكرًا وأُنثى، ثُمَّ الأمطار إذِ انهمرَت طُوفانًا أغرَقَ الأرض وأبادَ كلَّ حياةٍ عليها.

"مات كلُّ كائنٍ حيٍّ، ما عدا أُولئك الذين في الفُلك. ثُمَّ جعَلَ الله المياهَ تنحَسِرُ والفُلكَ يستقرُّ على جبَل، حيثُ قطَعَ لنوح عهدًا. لقد قال الله إنَّه لن يُهلِكَ الناس أبدًا بطوفانٍ مرَّةً أُخرى، وأقام قوسَ قُزَحٍ في الفضاء علامةً على وعدِه. وهكذا غادَرَ الفُلكَ نُوحٌ وزوجتُه وأبناؤه وزوجاتُهم، وبدأُوا يُؤهِلونَ الأرضَ من جديد".

استيقظ كالِب جائعًا، فقامت رِصفة لتقعُدَ معه وتُطعِمَه العصيدةَ المُغَذِّية مع نُتَفٍ من لحم الأرنب مخلوطة فيها.

ومضى ثيوفيلُس قائلًا: "آنذاك استعمَلَت الأرضُ كلُّها لُغَةً واحدة، واجتمعَ الناسُ معًا ليَبنوا لأنفُسِهم بُرجًا من آجُرٍّ وطين كي يصِلوا إلى السَّماء. وإذ رأى الله ما كانوا يعملون، بَلبَلَ لُغَتَهم وبدَّدَهم من هُناك على وجهِ الأرض. ثمَّ مرَّت آلافُ السِّنين قبلَما تكلَّم الله إلى الناس من جديد. عندئذٍ أتى الله إلى إنسانٍ هو أبرام، وقال له أن يُغادِرَ بلَدَهُ أُور وأقرِباءه وبيتَ أبيه ويذهب إلى الأرض التي يُريه إيَّاها. وقد وعدَ الله بأن يجعل أبرامَ أُمَّةً عظيمة تتبارَكُ بها جميعُ أُمَمِ الأرض".

ثُمَّ حَكَشَ ثيوفيلُس النَّار، مُفرِّقًا الجَمرَ المُتأجِّجَ ومَضيفًا مزيدًا من العِيدان الثخينة في أثناءِ كلامه.

"انطلَقَ أبرام فعلًا كما قال له الله، لأنَّه آمَنَ بالله، ولكنَّه اصطحَبَ ساراي أُختَه غيرَ الشقيقة، وقد كانت زوجتَه، ولُوطًا ابنَ أخيهِ الطَّموحَ، وتارَح أباه. كذلكَ أيضًا أخَذَ معه جميعَ

أملاكه، بما فيها العبيدُ الذين اقتَناهُم. ولمَّا وصل إلى الأرض التي أراه الله إيَّاها، نشِبَ نِزاعٌ بينه وبين لوط، فأعطى ابنَ أخيه خِيرةَ الأرض. واستقرَّ أبرام في جُزءٍ من الأرض، كما استقرَّ لُوطٌ في مُدُنِ السَّهل وأقام في سدوم.

قال الله لِأبرام ثانيةً إنَّه سيُصيِّرُه أُمَّةً كثيرةَ الأعداد. فصدَّقَ أبرام الله، رُغمَ عِلمِه بأنَّ ساراي زوجتَه كانت عاقِرًا. وصدَّقَت ساراي إلى حين، إلَّا أنَّها فقَدَت الصَّبر وتولَّت بنفسها إقناعَ أبرام بأنَّ عليه أن يُنجِبَ ولَدًا من خادمتها المصريَّة، هاجَر. فعمِلَ أبرام باقتراحها، وولدَت هاجَر ابنًا، إسماعيل. وأقبَلَ البَلاءُ في الحال. إذ صارت هاجَر مُتكبِّرةً، وساراي غَيورًا.

لمَّا كان أبرام في السَّادسة والتِّسعين من العُمر، وافاهُ الربُّ وقطَعَ له عهدًا. وقد غيَّر الله اسمَ أبرام إلى إبراهيم، ومعناه "أبو أُمَمٍ". وكانت علامة هذا العهد هي الخِتان. فكلُّ ذكَرٍ في اليوم الثامن من عُمره وجَبَ أن يُختَن. وقد خُتِنَ إبراهيم وإسماعيل وجميعُ الصِّبيان والرِّجال في عشيرته إطاعةً لهذا العهد. أمَّا ساراي فقال الله إنَّها ستَلِدُ لإبراهيم ابنًا في شيخوختهما، وسيُسمِّيانه إسحاق، ومعناه «يضحك»".

هبَّ نسيمٌ باردٌ أحدَثَ حفيفًا في الشَّجر، فيما مضى ثيوفيلُس مُتحدِّثًا بشأن العِداء بين المرأتين وابنَيهما. وهزَّ أتريتِس رأسَه مُوافقةً لمَّا سمعَ كيف طُرِدَ هاجَر وإسماعيل؛ لأنَّ الأُمَّة الموعودة لا بُدَّ أن تأتيَ من إسحاق.

"امتحنَ الله إبراهيم إذ طلبَ منه أن يُقدِّمَ إسحاق مُحرَقةً. فنهضَ إبراهيم باكرًا، وأخذَ ابنَه وحطَبًا، وذهبَ إلى المكان الذي سبقَ أنْ طلَبَ الربُّ منه أن يذهبَ إليه. هنالك بنى مذبحًا، ورتَّبَ الحطَبَ، وأوثقَ ابنه، ومدَّده عليه. ولكنْ لمَّا حمَلَ السِّكِّينَ ليذبحَه، طلب منه ملاكُ الرَّبِّ أن يردَّ يدَه. لقد آمَن إبراهيم، فحُسِبَ له ذلك برًّا. وقد دبَّرَ الله كَبشًا للمُحرَقة، وجدَّدَ عهدَه مع إبراهيم، قائلًا له من جديدٍ بَعدُ إنَّه بنَسله ستتبارَك جميعُ أُمَمِ الأرض".

ومالَ ثيوفيلُس إلى الأمام، مُتألِّقَ الوجه. "فإنَّه بإبراهيم برَزَ إلى الوجودِ شعبُ إيمانٍ، ومِنهم وعَدَ الله البشريَّة كلَّها بالمسيح، الشَّخصِ الممسوح الذي سيَدحَرُ الخطيئة التي بدأت في جنَّة عَدْن ويُعطي الذين يؤمنونَ به الحياةَ الأبديَّة". ثمَّ ابتسم. "ولكنِّي أستَبِقُ الأُمور".

ثمَّ عادَ فأخبرَ أتريتِس كيف تزوَّجَ إسحاقُ رِفقة ثُمَّ ولَدَت له توأمَين، عيسو ويعقوب. وفي ما بعد، باعَ عِيسو البِكرُ أخاه الأصغر حقَّ بكوريَّته لقاءَ صَحنِ عدَس، ثُمَّ سرق يعقوبُ بعدَ ذلك بَرَكةَ أخيه بالاحتيال والخِداع. ونشأت عداوةٌ بين الأخوَين، فهرَبَ يعقوب إلى لابان، خالِه. ثُمَّ أُغرِمَ بابنةِ لابان الصُّغرى، راحيل. وباحتيالٍ ومكر من لابان، تزوَّج يعقوب

ليئة ثُمَّ راحيل، وأُلزِمَ أن يخدِمَ خالَه أكثرَ من أربعَ عشرةَ سنة. من هاتين المرأتَين وخادِمتَيهما، صارَ يعقوب أبًا لاثنَي عشَرَ ابنًا.

"كان الابنُ الأحبُّ هو يوسُف، ابن زوجة يعقوب المحبوبة، راحيل. وقد كان يوسُف يرى أحلامًا، وتنبَّأَ بزَمَنٍ فيه يسودُ على إخوته وعلى أبيه. فاحتقرَهُ إخوتُه، وفي غَيرتِهم دبَّروا له مَكيدة. ألقَوه في بئر وباعوه لقافلةِ مُسافرين أخذوه إلى مصر، حيثُ صار عبدًا لفوطيفار، وهو مِصريٌّ من كِبار مُوظَّفي فِرعَون. كان يوسُف شابًّا وسيمًا، فأرادته زوجةُ فوطيفار عشيقًا لها، غيرَ أنَّه أبى. ولمَّا حاولَت إغواءه، فرَّ هاربًا. فإذ لقِيَتِ الازدراء واستولى عليها الغضَب، قالت لفوطيفار إنَّ يوسُف حاوَلَ أن يغتصِبَها، فألقى فوطيفارُ يوسُفَ في السِّجن".

ضحِكَ أتريتِس ضِحكةَ سُخرية، وتمدَّد على أحَدِ جنبَيه، قائلًا: "إنَّ النِّساءَ يُسبِّبنَ البَلاءَ للرِّجال منذُ البَدء".

رفعَت رِصفة نظَرَها من حيثُ كانت تُغيِّرُ بَياضاتِ كالِب، وقالت مُبتسِمةً: "ذلك صحيح. حينَ يكونُ الرِّجالُ ضُعَفاء ومُستسلِمينَ للأهواء بدلًا من إطاعة الرَّبِّ، يندفعونَ عادةً إلى البلاء مُباشرةً".

فتجاهَلَ أتريتِس مُلاحظتَها ورفَعَ حاجِبَه لثيوفيلُس.

وإذ كبَتَ ثيوفيلُس بَسمةً، تابَعَ مُتكلِّمًا عن قُدرة يوسُف على تفسير الأحلام، تلك التي أعطاه الله إيَّاها، وكيفَ جاءت به تلك الموهِبة إلى قصرِ فِرعَون وجعلَته الثانيَ في السُّلطة على مصر كلِّها. ولمَّا حلَّت المجاعة التي تنبَّأ بها يوسُف، سافَرَ إخوتُه إلى مصر طلَبًا للحنطة، مُتمِّمين بذلك نبوَّات شبابه بأنَّه سوف يسودُ عليهم وعلى أبيه.

"سامحَهم يوسُف، قائلًا لهم إنَّ ما فعلوه لِلشَّرِّ حوَّله الله إلى خير".

حطَّت رِصفة كالِب في عُشٍّ من الحُزَم والبطَّانيَّات وعادت لتقعُدَ بقُربِ أتريتِس.

"قام فِرعَونٌ آخَر لم يعرِف أعمالَ يوسُف. ورأى خطَرًا في تزايُدِ أعداد المُتحدِّرين من يوسُف، فجعلَهُم عبيدًا. ولمَّا ظلَّ عدَدُهم يزداد، ارتاعَ فِرعَون وأمَرَ بأن يُقتَلَ جميع الذُّكور عندَ ولادتهم. ثُمَّ وُلِدَ موسى، سليلُ إبراهيم، ووضِعَ في سَلٍّ وخُبِّئَ بينَ قَصَبِ النِّيل. فوجدَته ابنةُ فِرعَون وربَّته كما لو كان ابنَها. ولمَّا بلَغَ عُمرَ الرُّجولة، ذهَبَ إلى إخوته واطَّلَعَ على أتعابهم الشَّديدة. ورأى مِصريًّا يضرِبُ عِبرانيًّا فصرَعَه. ولمَّا انتشَرَ بين العبرانيِّين خَبَرُ ما فعلَه، هرَبَ إلى أرض مديان. هُناك، بعد عَشَراتِ السِّنين في الغُربة، تكلَّمَ الله إلى موسى من عُلَّيقةٍ مُشتعِلة".

ابتسمَ ثيوفيلُس ابتسامةً خفيفة. "والآن، كان موسى رجُلًا عاديًّا فارتعَبَ إذ تكلَّمَ الله

إليه. ولمَّا قال له الله إنَّه أراد له أن يرجِعَ إلى مصر ويُحرِّر العبيدَ العِبرانيِّين من العُبوديَّة، خافَ من المهمَّة خوفًا فاقَ خوفَه من الله نفسِه. فتوسَّلَ قائلًا إنَّه نكِرة. وقال له الله إنَّه سيكونُ الناطِقَ بلسانه. فقال موسى إنَّه لا يعرِفُ اسمَ الله وإنَّ العِبرانيِّين لن يُصدِّقوه. فطلَبَ منه الله أن يقول إنَّ «أنا هو» قد أرسلَه. ومع ذلك قاوَمَ موسى، مُصِرًّا على أنَّهُم لن يُصدِّقوه. وطلَبَ منه الله أن يطرحَ عصاه على الأرض، فلمَّا أطاعَ حوَّلها الربُّ إلى حيَّة. فهرَبَ موسى منها مَرعوبًا، ولكنَّ الله دعاه كي يرجِعَ ويُمسِكَ بذنَبِها. ولمَّا أطاع، عادت الحيَّة عَصًا.

بقِيَ موسى خائفًا، مُصِرًّا على أنَّه لم يكُن بليغًا قطُّ وأنَّه ثقيلُ الفَمِ واللِّسان. فقال الله إنَّه سيُعلِّمه ما يقول. ولكنَّ موسى طلَبَ أن يُرسِلَ الله شخصًا غيرَه".

فشخَرَ أتريتِس. "كان ينبغي أن يضربَه الله فيُميتَه".

وقالت رِصفة مُبتسِمةً: "الله صَبورٌ علينا".

فقال ثيوفيلُس مُوافقًا: "صحيح. ونحنُ شاكرون. قال الله إنَّ شقيقَ موسى، هارون، كان فصيحًا وإنَّه سيُعطي موسى الكلِمات فيُعطيها موسى لهارون، وهو يُكلِّمُ فِرعونَ بها. كذلك قال أيضًا إنَّه سيُقسِّي قلبَ فِرعَون وإنَّ آياتٍ وعجائب ستُجرى أمامَ العِبرانيِّين وأمام المصريِّين أيضًا".

قال أتريتِس مُشمئزًّا: "لماذا يختارُ الله جبانًا كهذا ليقودَ؟"

فضحِكَ ثيوفيلُس: "تساءلتُ عن ذلك أنا نفسي لمَّا سمِعتُ القصَّة أوَّلَ مرَّة. ولكنْ لو كان موسى مُحارِبًا جبَّارًا وألمعيًّا ذكيًّا وصاحِبَ جاذبيَّةِ خطيبٍ ساحِرة، فمَن تفترِضُ أنَّه كان سينال المجد من أجلِ ما سيكون؟"

"موسى".

"تمامًا. إنَّ الله يختارُ ما هو غبيٌّ وضعيفٌ في العالم ليُخزيَ الحُكماء والأقوياء، ليُبيِّن قوَّته وضعفَنا من دونه. إنَّ قوَّةَ الله تُكمَلُ في ضعفنا، لأنَّنا بقوَّته فقط نُنجِزُ أيَّ شيءٍ ذي قيمة".

ومضى ثيوفيلُس فتحدَّث بشأن مُثولِ موسى وهارون أمامَ فِرعَون وطلَبِهما أن يُطلِقَ شعبَ الله. وقد رفض فِرعَون ذلك. ولمَّا ألقى موسى عصاه على الأرض فصارَت حيَّة، استعمَلَ سحَرَةُ فِرعَون فُنونَهم السرِّيَّة ليجعلوا عِصِيَّهم حيَّاتٍ أيضًا. ولكنَّ حيَّة موسى ابتلعَت حيَّاتِ السَّحَرة. ولمَّا أبى فِرعَون أيضًا أن يسمحَ للعبيد العبرانيِّين بالذَّهاب، مسَّ موسى نهرَ النِّيل بعَصاه، فصارَ الماءُ دمًا. ومع ذلك أبى فِرعَون.

"جلبَ الربُّ على مصر ضربةً بعدَ ضربة: ضفادع، بعوضًا، أسرابَ حشَرات، وباءً على

مواشي المصريِّين، دمامل، رعدًا وبرَدًا، جرادًا، ظُلمة. وفي أثناء كلِّ ضربة، كان فِرعَون يَلين، ثُمَّ لدى انقضاء الأزمة قسَّى قلبه مرَّةً أُخرى".

جلس أتريتِس مُعتدِلًا: "لقد كان الرَّجُلُ غبيًّا!"

فقال ثيوفيلُس: "كان الرَّجُلُ مُتكبِّرًا. والمُتكبِّرون غالبًا ما يكونون أغبياء".

"تِسع ضربات! ضفادع، بعوض، دمامل؟ ماذا يُعوِزُه حتَّى ينحنيَ أمام الله؟"

"كم من الضَّرباتِ عانيتَ في حياتك، أتريتِس؟ الهزيمة. العبوديَّة. الجَلد والضَّرب. الإذلال. الخِزي. الخيانة. ماذا أعوَزَك حتَّى تنحنيَ أمام الله وتقبلَ حقيقةَ كونهِ صاحِبَ الجَلالة المُهَيمِنَ على الخليقة كلِّها؟"

فضاقت عينا أتريتِس ببرودة، وقد تصلَّبَ وجهُه.

ورأى ثيوفيلُس ذلك فتساءلَ هل تكلَّم بحرِّيَّةٍ فائقة، مُعثِرًا بدَلَ أن يكونَ مُعلِّمًا. لم يسحَب شيئًا، ولا خفَّفَ أيَّ شيء، بل بالأحرى انتظَرَ، تارِكًا الخِيارَ بيَدِ أتريتِس كما سبَقَ أن فعَلَ أغلبَ الأحيان.

فكَّر أتريتِس في جوليا. وفكَّر في مئات الأُمور التي حدثَت له منذُ أن كان شابًّا يُقاتِلُ لأجل شعبه. وتذكَّرَ كلَّ ما اختبرَه في رجولته مُقاتلًا لأجل البقاء حيًّا في ساحات المُحارِبين في روما وأفسُس. في أثناء ذلك كلِّه، بقيَ طِيواز صامتًا ولامُباليًا. ومع ذلك كان اسمُ هذا الإله هو ما نادى به، لا اسمُ يسوع. حتَّى بعدَما بلَّغَته هَدسَّة بِشارةَ الإنجيل.

وما لبِثَ أن قال: "أنت تقولُ الحقَّ. لقد كنتُ غبيًّا بمقدار ما كانَ الفِرعَونُ المصريُّ".

فقال ثيوفيلُس، مُطَمئنًا البَربريَّ: "الله يقومُ بعمله فيك فعلًا، أتريتِس".

أطلقَ أتريتِس ضِحكةً خافِتة، غيرَ شاعِرٍ بأيِّ تغييرٍ حيويٍّ في داخله، ما عدا فُضولًا مُضطرِمًا لسَماعِ كلِّ شيءٍ عنِ الله. "تابِعْ كلامك". وكان ذلك أمرًا أكثر منه طلَبًا، استِسلامًا مُتَّضِعًا بقَدرِ ما أمكن أن يسمحَ لِنفسه.

"قالَ الله لموسى إنَّه سيُرسِلُ مَلاكَ الموت إلى مصر وإنَّ جميعَ الأبكارِ في البَلَد سيموتون، من ابنِ فرعون الجالس على عرشه إلى أولاد العبيد في المملكة، إلى صِغارِ المواشي في الحقل".

"انتقام".

"جَزاء. ورجاء. لقد قال لموسى إنَّ فرعون لن يُصغيَ إليه حتَّى تتضاعَفَ عجائبُه في البَلَد. كذلك أيضًا قال الله لموسى ما يطلبُ من الشعب أن يقوموا به ليعبُرَ الموتُ عنهم.

جمَعَ موسى العِبرانيِّين وقال لهم إنَّ على أهل كلِّ بيتٍ أن يأخُذوا حَمَلًا ذكَرًا، بِلا عيب، ابنَ سنةٍ، ويذبحوه عندَ العِشاء. وكان ينبغي أن يُوضَعَ دَمُ الحمَل على قائمتَي الباب والعَتَبة العُليا في البيت الذي يأكلونه فيه. فمتى رأى الله دَمَ الحمَل، يعبُرُ عنهم ولا يَمَسُّهم سوءٌ عندما يضرِبُ أرضَ مصر بالموت. والوليمةُ المُعَدَّةُ من الحمَلَ كانت تُسمَّى الفِصحَ، وما زالت".

ثمَّ بسَطَ ثيوفيلُس يدَيه. "كما فعَلَ الله منذُ ألفٍ وخمس مئة سنة لأجل العبيد العِبرانيِّين المحجوزين في عبوديَّة قاسية، فعَلَ ثانيةً لأجلنا جميعًا بواسطة يسوع المسيح ربِّنا. إنَّ يسوع هو حَمَلُ الفِصحِ لنا، أتريتِس. فلمَّا سفك المسيح دمَهُ لأجلنا على الصليب، حطَّمَ قيودَ الخطيئة والموت وأعطانا الحياة الأبديَّة".

استشعَرَ أتريتِس وخزًا خفيفًا في جسمه إزاءَ كلِماتِ ثيوفيلُس. "لماذا لم يأتِ يسوع آنذاك بدلًا من الانتظار طويلًا هكذا؟"

فقال ثيوفيلُس بصراحة: "لستُ أدري. لن تكونَ لي البتَّةَ جميعُ الأجوبة التي أُريدُها. ولو كان لي ذلك، لاستطعتُ أن أضعَ الله في زِقٍّ أو قارورة. وعندئذٍ، فأيَّ نَوعٍ من الآلِهة سيكونُ سوى واحدٍ أصغَرَ من عقلي المحدود؟ إنَّ الله يختار الوقتَ الكامل. فمِرارًا وتَكرارًا في الأسفار المقدَّسة، نرى كيف يُعلِّمُ الله الإنسانَ ويمتحِنُه. ومنذُ الخَلقِ حتَّى هذه اللَّحظة، يُقدِّمُ الله الخلاصَ لأيِّ شخصٍ يُريدُه، عطيَّةً بالنِّعمة، لا شيئًا نكسِبُه".

وقالت رِصفة بهدوء: "أو نُقدِّرُه. لقد صُعِقتُ وأنتَ تتكلَّم، يا ثيوفيلُس. إنَّ يسوعَ تنازلَ من عرشه السَّماويِّ ومجده ومَقامِهِ الرفيع، واتَّخذَ هيئة إنسانٍ مُتَّضِع. لقد تألَّم ومات. لأجلي". ووضعَت يدَها على قلبها. "وماذا أفعَلُ أنا؟ ما أكثرَ ما أحسبَ خلاصي تحصيلَ حاصِلٍ. أملأُ ذهني بأُمورٍ غير مُهِمَّة، من قَبيلِ المُدَّة التي سيستغرِقُها وصولُنا إلى شعبِ أتريتِس وماذا سيفتكِرون فيَّ لدى الوصول إلى هُناك". واغرورقَت عيناها. "ليتَ الله يضَعُ في رأسي وقلبي ما قد فعلَه لأجلي، كلَّ صباحٍ عندما أستيقظ".

قال ثيوفيلُس: "فليكُن كذلك!" وقد باتَ صوتُه أجشَّ إذ مازجَته العاطفة. كم مرَّةٍ وجدَ نفسَه مأخوذًا بخُطَطِ لخدمة الربِّ في المُستقبل، بدَلًا من تسبيحِهِ الآن! فما أكثَرَ ما نهضوا باكرًا، منذُ عهدٍ قريب، وتَلَوا صلاةً روتينيَّة، وأسرعوا في السَّير. وكانَ لا بُدَّ من مُحارِبي المتياتْشي وموتِ رِصفة لدفعهم إلى الإبطاء!

مسَّ أتريتِس خدَّ رِصفة مسًّا رقيقًا، جاذِبًا انتِباهَها. "سوف نُسَبِّحُ الله أوَّل شيءٍ كلَّ صباح". فوضعَت يدَها فوق يده، وعيناها تشعَّان بكثيرٍ من الحُبِّ حتَّى أحسَّ دِفءَ ذلك

يَشيعُ في كامِلِ جِسمه. وأرادها أن تكون بلِزقه، فزاحَ بحيثُ بات جالِسًا وراءها، وساقاه مرفوعتان إلى كِلا جانِبَيها. وقد ألقى إحدى ذِراعَيه عليها. فكنكنَت أقرَبَ إليه، ورأسُها يتوسَّدُ كتِفَه.

وتابَعَ ثيوفيلُس حديثه. "جاءتِ الضَّربة في نصف اللَّيل، ولم يبقَ بيتٌ واحِدٌ في مصر لم يمسَّه الموت. فاستدعى فِرعَون موسى وهارون وطلَبَ منهما أن يخرجوا، أن يمضوا ويعبدوا الله، ويأخُذوا مواشِيَهم معهم. وحثَّهم المصريُّون على الإسراع، خائفينَ أن يموتَ الجميعُ إذا مكثوا. حتَّى إنَّهم أعطَوهم هدايا من فضَّةٍ وذهَبٍ أيضًا. وقد تَبِعَ موسى من رَعَمسيس إلى سُكُّوت ستُّ مئةِ ألفِ رجُلٍ سيرًا على الأقدام، ما عدا النِّساء والأولاد، وذهبَ معهم أيضًا جمهورٌ مختلطٌ كثيرُ العدَد معَ وفرةٍ من القُطعانِ والمواشي".

"مصريُّون؟"

فأجابت رِصفة: "نعم. كلُّ من يؤمِنُ فهو من أولاد الله".

وابتسمَ ثيوفيلُس لها، ثُمَّ مضى يتحدَّث. "قال الله لموسى إنَّه إذا ارتحَلَ أيُّ أجنبيٍّ معهم وخُتِنَ، وجَبَ أن يُعامَلَ كأنَّه وطنيٌّ، لأنَّه صارَ جُزءًا من العهد. وقد سارَ الله أمامَهُم، عَمودَ سَحابٍ في النَّهار وعمودَ نارٍ في اللَّيل، لتوفيرِ الهداية والإنارة لهُم. فإنَّ فِرعَون تقسَّى من جديد وطاردَهم. ولمَّا وصَلَ الشعبُ إلى البحر الأحمر، ارتعبوا. فصاحَ بهم موسى: «الربُّ سيُقاتِلُ عنكم فيما تلوذون أنتُم بالصَّمت». إنَّما طلَبَ منه الله أن يتقدَّم ويمدَّ عصاه فوق البحر. ولمَّا فعَلَ ذلك، انشقَّ البحر. فعبَرَ العِبرانيُّون على أرضٍ جافَّة، وانتقلَ عَمودُ السَّحاب إلى ورائهم. وحاوَلَ فِرعَون وجيشُه أن يتبعوهم، ولكنْ لحظَةً وطئت قدَما آخِرِ عِبرانيٍّ على الأرض الجافَّة، هبَطَتِ المياه فأهلكت المصريِّين وأحصِنتَهُم ومَركباتِهم، مُعطِيةً بذلك المجدَ لِله في مصر كلِّها".

وحكى ثيوفيلُس كيفَ تذمَّرَ الشَّعبُ في أثناء ارتحالِهم فأعطاهمُ الله المنَّ من السَّماء ليأكلوا، وطيورَ السَّلوى بالآلاف لمَّا تذمَّروا بشان المنّ. وقد ثارَ غضَبُ الله على الشَّعب، ولكنَّ موسى تضرَّع لأجلهم. وصعِدَ موسى جبَلَ سيناء، حيثُ تلقَّى الوصايا العشر.

وإذ تلا ثيوفيلُس كلَّ وصيَّة، أصغى أتريتِس بانتِباه. ثُمَّ مضى ثيوفيلُس فتحدَّثَ بشأن توطيد الشريعة والسُّبوت والأعياد وتقدِمات البواكير، وبشأن صُنعِ تابوتِ العهد، ذاك الذي وُضِعَت فيه شهادةُ الله وجُزءٌ من المَنِّ فضلًا عن عصا هارون التي أَفرَخَت.

"عندَ سَفحِ الجَبَل، أخطأ الشَّعبُ بشِدَّة وصنعوا صُوَرًا منحوتةً للآلِهة التي عبَدوها

في مصر". وتكلَّم عن التذمُّر، وعن صَبرِ الله وإمداده، وأيضًا عن عدالته في مُعاقبة الشَّعب. وما زالَ العِصيانُ والتمرُّد حاصِلَين، فتكلَّم هارون ومريم على أخيهما موسى، شاكَّينِ في حقِّه بالقيادة. فضرَبَ الله مريم بالبرَص، ثمَّ شفاها لمَّا صرَخَ موسى إليه من أجلها.

"لمَّا وصَلَ الشَّعبُ إلى أرضِ الآباء، لم يتغيَّروا أيضًا. فقد أُرسِلَ اثنا عشر كشَّافًا إلى داخِلِ البَلَد، وأفادَ عشَرةٌ منهم بأنَّ القوم السَّاكنين هناك كانوا عمالِقةً وأقوى من أن يُهزَموا. إلَّا أنَّ يشوع وكالِب وحدَهُما قالا إنَّ عليهم أن يُطيعوا الرَّبَّ فيصعدوا ويمتلكوا الأرض".

فقالَ أتريتِس مُبتسِمًا: "كالِب، اسمٌ جيِّد".

"حتَّى موسى الذي تكلَّمَ مع الربِّ وجهًا لوجه، تقبَّلَ مشورةَ العَشَرة الذين كانوا خائفين. ثُمَّ نشأ تمرُّدٌ بقيادةِ قُورَح، فيما أوقدَ بَعضٌ بَخورًا وهُم غيرُ مُقدَّسين. فشقَّ الله الأرض لتبتلعَ كثيرين وأرسَلَ نارًا التهمَت آخَرين.

ولأنَّ الشَّعبَ أبَوا أن يؤمِنوا ويثِقوا بالله، جعلهم يتيهون مدَّةَ أربعينَ سنة في البرِّيَّة. ولمَّا ماتَ جِيلُ غيرِ المؤمنين بكامله، تكلَّمَ موسى إلى الشَّعب. فأعطى الشَّعبَ الشَّريعةَ مُجدَّدًا، ثُمَّ صعِدَ إلى الجبل، حيثُ مات. وتولَّى يشوع وكالِب اللذان آمَنا بالله من كلِّ القلب قيادةَ أبناءِ الجيل القديم وبناتِه إلى داخل أرضِ الآباء". ثمَّ حَكَشَ النار، مُضيفًا مزيدًا من الحَطَب.

"شقَّ الله نهرَ الأُردُنِّ كما شقَّ البحر الأحمر، فعبَرَه العِبرانيُّون مع تابوت العهد. وبمَشورةِ الله، أسقط يشوع والشَّعبُ أسوار أريحا واجتاحوا المدينة. ومن هُناك، امتلكوا عدَّةَ مُدُنٍ، مُقسِّمينَ الأرض من الجنوب إلى الشمال، ثُمَّ استقرُّوا فيها. وقد وزِّعَتِ الأرض على الأسباط الاثنَي عشر، وعلى مدى أربع مئة سنة تكلَّمَ الله إلى الشَّعب بواسطة قُضاةٍ".

وابتسمَ لأتريتِس ابتِسامةً عريضة. "واحدٌ مِنهم لا بُدَّ أن تفهمَه جيِّدًا جدًّا، لأنَّكما تتشاركان في ضَعَفات مُتماثِلة. وقد كان اسمُه شمشون. إلَّا أنِّي سأدَّخِرُ قِصَّته إلى وقتٍ آخر". ثمَّ ألقى عُودًا آخر في النار.

"في أثناء ذلك الزَّمَنِ كلِّه، عمِلَ كلُّ واحِدٍ ما حسُنَ في عينَيه، ما عدا راعوثَ الموآبيَّة وصموئيلَ الذي كُرِّسَ لله قبلَ ولادته. ثُمَّ قال الشَّعب لصموئيل إنَّهم يُريدون ملكًا كسائر الشُّعوب حولَهُم. لقد رفَضَ الشَّعبُ الله وأصرُّوا على أن يكونوا كأيِّ شعبٍ آخر. فقال الله لصموئيل أن يُعطيَهم ما أرادوه، ومن ثَمَّ مسَحَ صموئيلُ شاوُلَ، شابًّا طويلَ القامة وسيمًا حسَنَ التكوين، إلَّا أنَّ قلبَه لم يكُن مع الله. لقد كان شاوُل مُتكبِّرًا وغيورًا، فضلًا عن كونه جبانًا بعضَ الشَّيء. وإذ ترنَّحَت المملكة تحتَ حُكمِه، طلَبَ الله من صموئيل أن يمسَحَ آخَر،

راعيًا شابًّا مُتَّضِعًا، اسمُه داوُد. وكان داود رجُلًا حسبَ قلبِ الله. ففي صِباه، قتَلَ جُليات بطَلَ الفِلسطيِّين، بمِقلاع وحجَر. وأحبَّه الشَّعب، فكان ذلك سببًا كافيًا لأنْ يُريدَه شاوُل مَيتًا. إلَّا أنَّ كلَّ مُحاولة منه لقتل داوُد باءت بالفشَل. حتَّى ابنُه نفسُه، يوناثان، أحبَّ داوُد وحماه. ولمَّا قُتِلَ شاوُل في ساحة الحَرب ويوناثانُ معه، صارَ داود ملكًا.

كان داوُد مُحارِبًا باسِلًا وقائدَ مجموعةٍ دُعِيَت جَبابِرةَ البأس. فمآثِرُهم في المعارك لم تكُن أقلَّ من مُعجِزات. وقد أمَّنَ داوُد الأُمَّة، غيرَ أنَّه سقطَ في الخطيئة مع زوجةِ واحدٍ من أصدقائه. ومن جرَّاء ذلك، اعترى البلاءُ عائلته ومملكته مُذ ذاك فصاعدًا. حتَّى أولادُه تعذَّرَتِ السَّيطرةُ عليهم. فارتكبوا الاغتصاب والقتل، بل تمرَّدوا عليه أيضًا ليُحاوِلوا الاستيلاء على العرش. وقد كان حُلمُ داوُد العظيمُ الواحد أن يبنيَ هَيكلًا للرَّبِّ، ولكنَّ الله حرَمَه ذلك الامتيازَ لأنَّ يدَيه كانتا مُضرَّجتَين بالدَّم. فحَظِيَ بذلك الامتيازِ ابنُه سُلَيمان الذي ملَكَ في أثناءِ زمَنِ سَلام.

لمَّا صار سُلَيمان ملِكًا، طلَبَ من الله أن يُعطيَه حِكمةً كي يحكمَ الشَّعب. وبفضلِ اتِّضاعه، أعطاه الله لا حِكمةً فقط، بل غِنًى جزيلًا أيضًا. وقد اشتُهِرَ سُلَيمان بكَونه المَلِكَ الأحكمَ والأغنى بينَ جميع من عاشُوا على الإطلاق، في أيَّة مملكة. ولكنْ حتَّى سُلَيمانُ في كلِّ مَجدِه الأرضيِّ أثبتَ أنَّه غبيٌّ وفاتِرُ القلب تُجاهَ الله. فإنَّه تزوَّجَ نِساءً من الأُمَمِ التي طلب الله من الشَّعبِ القديم استئصالَها: أدوميَّات، حثِّيَّات، أموريَّات، مصريَّات. فأقمنَ مذابحَهُنَّ الخاصَّة وجذَبنَه بعيدًا عن الرَّبِّ. ولم يتُب حتَّى صارَ شيخًا، وآنذاك كان الأوانُ قد فات.

وقد بقِيَت المملكة مُوحَّدةً مدَّةَ مئةٍ وعشرين سنة، ثمَّ سقطَت مملكتُه بيَدِ ابنه رحُبعام الذي رفضَ حِكمةَ مُشيري أبيه الشُّيوخ انحيازًا إلى أصدِقاءَ مُفسَدين نشأُوا في القصر. فارتدَّ الشَّعبُ وقسمَتِ الحَربُ الأهليَّةُ الأمَّة، بين مملكة شماليَّة عُرِفَت باسْم إسرائيل، ومملكةٍ جنوبيَّة سادها سِبطُ يهوذا. وقد تعاقبَ على عرش المملكة الشماليَّة ثمانيةَ عشرَ ملكًا، إلَّا أنَّ أيَّ واحد مِنهم لم يكُن قلبُه مع الرَّبِّ. وحكَمَ مملكةَ يهوذا عشرون ملكًا، ثمانيةٌ مِنهُم فقط طلَبوا الرَّبَّ".

ذُهِلَ أتريتِس. "بعدَ كلِّ ما فعلَهُ الله لأجلهم، ارتدُّوا عنه رُغمَ ذلك!"

"ومع ذلكَ أحبَّهُم الله".

"لماذا؟"

"لأنَّ محبَّةَ الله لا تتغيَّرُ أبدًا. إنَّه أمينٌ وجديرٌ بالثِّقة. إنَّ الله لا يُفكِّرُ كالإنسَان، أتريتِس.

وقد كان الشَّعبُ القديم مثل أولادٍ له، عُصاةٍ ومُتكبِّرين، ولكنَّهم له رُغمَ ذلك، كحالِهم اليومَ. كما أنَّنا نحنُ جميعًا ذُرِّيتُه بحقيقةِ خلقِه. لقد أفرَزَ الله الشعبَ القديم لكي يراه باقي الشُّعوب عامِلًا بواسطتهم، غيرَ أنَّ شعبَ اختيارِه أرادوا أن يكونوا كباقي الممالِك. وقد أرسَلَ الله أنبياء ليتكلَّموا بلسانه، مُنذِرًا إيَّاهُم ليتوبوا، وإلَّا يُدانوا، إلَّا أنَّهم استهزأوا وقتلوا كُلَّ واحدٍ منهم".

"كان ينبغي أن يُبيدَهم".

"جميعُنا نستحقُّ الهلاك، أليس كذلك؟ وبعضٌ منَّا يُبادُونَ أحيانًا. لقد استخدمَ الله أشُّور لتشتيت إسرائيل، وساقت بابِلُ يهوذا إلى السَّبي. ودام السَّبيُ سبعين سنة، زمَنًا يكفي طولُه لأنْ يموتَ جيلٌ غيرُ مؤمن. ثُمَّ حرَّكَ الله قلبَ الملِك الفارسيِّ فسمَحَ لِزَرُبَّابل بأن يعودَ إلى أرضِ الآباء مع بقيَّةٍ من المؤمنين لمُباشرة ترميم الهيكل. وقد صارت أستير ملِكةَ بلادِ الفُرس وأنقذت العِبرانيِّين من الإبادة. ثمَّ جدَّد عزرا ونحَميا الهيكل ورمَّما أسوار مدينةِ القُدس واحتفلا بعِيدِ الفِصح".

"إذًا، رجَعَ العِبرانيُّون إلى الله".

"إلى حين. يحسُنُ بنا أن نتذكَّرَ أمرًا واحدًا، خيطًا واحِدًا يتخلَّلُ سَرْدَ الأسفارِ المُقدَّسة بكامله: أنَّ محبَّة الله لا تتغيَّرُ أبدًا وأنَّ مشيئته تسود. فقد وُجِدَ دائمًا وسوف يوجَدُ أُولئك الذين يحبُّون الرَّبَّ من كُلِّ القلب، في أثناء العبوديَّة والمَشقَّة والمجاعات والحرب والسَّبي والاضطهاد: شعبُ الرَّبِّ. أنت ورِصفة وأنا. فالله يُملِّحُ الأرض بالمؤمنين، لأنَّ الذين يلتصقون بالرَّبِّ في الإيمانِ في جميعِ الأحوال يحفظون الباقين من الخرابِ التامِّ. وعلى كلٍّ، بحسَب عِلمي، فإنَّ آخِرَ أجزاء الكَلمة المُقدَّسة كُتِبَ قبلَ أربع مئة سنة أو أكثرَ من مجيء ربِّنا ليمشيَ بينَنا، وكان النبيُّ ملاخي يُناشِدُ شعبَ الله أن يتوبوا مُجدَّدًا. فالكلِمة المُقدَّسة تقول إنَّ لهم قُلوبًا من حجَر".

"وهكذا، هذه المرَّة، أرسَلَ الله ابنَه نفسَه كي يدعوَهم إلى الرُّجوع من جديد".

"نعم. إنَّ يسوع سفَكَ دمَه لأجلنا في أثناء الفِصح".

وشعَرَ أتريتِس كما لو أنَّ عقلَه امتلأ نورًا، فقال: "آهَه! والموتُ يعبُرُ عن جميع الذين يؤمنون به ويُطيعونه".

"ولكلِّ مَن له عينان ليَرى وأُذنان ليسمع، فإنَّ الحواجِزَ بين الإنسان والله أُزيلَت إلى الأبد. إنَّ الطريقَ إلى الله مفتوحٌ عبْرَ يسوع المسيح. فأيُّ رجُل أو امرأة أو ولَد يطلبُ الرَّبَّ بقلبه وعقله ونفسه لا بُدَّ أن يجِدَه".

غمَرَ التأثُّرُ والحماسة أتريتِس. "إنَّ قومي سيفهمون هذا. إنَّه ليس بعيدًا جدًّا عن

ديانتنا. رجُلٌ واحدٌ يُضحَّى لأجل الكثيرين. فما زالت شعائرُ من هذا القبيل تؤدَّى في البُستان المُقدَّس على مدى قُرون".

اقشعَرَّ بَدَنُ رِصفة لكلِماتهِ غيرِ المُتوقَّعة، والمُروِّعة. ولم ينبِس ثيوفيلُس بكلِمَة. ورفعَت رِصفة نظرَها إليه مُرتاعةً، فرأت أنَّه لم يُفاجأ ولو قليلًا. لعلَّه كان يعلَمُ ذلك كلَّ حين.

"فلنَرجُ لا أن يفهموا فقط، أتريتِس، بل أن يقبلوا الخلاصَ بيسوعَ المسيح ربِّنا أيضًا!"

الشَّوك

"وسقَطَ آخَرُ [من البَذر] في الشَّوك،
فطلَعَ الشَّوكُ وخنَقَه..."

٣١

كان أتريتِس توَّاقًا إلى العُثورِ على بني قومه، ولكنْ لأسبابٍ مُختلِفة جدًّا عن تلك التي كانت لدَيه لمَّا غادَرَ أفسُس. لقد كان على نارٍ بِبِشارةِ يسوع المسيح، مُتلهِّفًا إلى تبليغها. أرادَ لشعبه أن يعرفوا يسوع، المولودَ مِن امرأة، مَن تَبرهنَ أنَّه ابنُ الله بالقيامة من بين الأموات. أراد لهم أن يعلموا أنَّ ابنَ الله بذَلَ حياتَه لأجلهم ليصيروا كِيانًا واحدًا مُتمتِّعًا بقُدرته ومجده وقوَّته. فإن كان الله معَهُم، فمَن يستطيعُ أن يقِفَ ضِدَّهُم؟ حتَّى روما نفسُها لن تقوى على الوقوفِ ضِدَّهم ما دامُ الله في صفِّهم!

وبينما هو ماشٍ بجانبِ رِصفة، قال: "سأجعَلُهم يَقبلونَ المسيح!"

وإذ أدرَكَ ثيوفيلُس سبيلَ الخطيئة، قال: "ليس في وسعك أن تجعل شعبَك يقبلون أيَّ شيء".

"لا بدَّ أن يعرفوا الحقَّ".

"والحقَّ سيعرفون. صبرًا، يا محبوب. أبِالقوَّةِ أقبلتَ إلى الرَّبِّ أم بإعلانٍ من الله؟"

"سأُخبِرُهم كيف أقام الله رِصفة من الموت. سيقبلون كلامي". ولم يخطُر في باله قطُّ أنَّ الأمر قد يكونُ خِلافَ ذلك.

كلَّ مساء، حولَ نارِ المُخيَّم، غذَّى ثيوفيلُس جُوعَ أتريتِس بالاستمرار في إخبارهِ بكُلِّ ما علِمَه. فكلَّم أتريتِس عن مريم، العذراء التي اختارها الله ليُولِد الطِّفلُ يسوع منها. "كانت مخطوبة ليوسُفَ البارِّ الذي كان نجَّارًا. ولمَّا قالت له إنَّها حُبلى من الرُّوح القُدس، كان عليه أن يُقرِّر ماذا يفعل. فبِحسَبِ الشَّريعة، كان من حقِّه أن يجعلَها تُرجَمُ بالحِجارة حتَّى الموت من أجل الخِيانة".

وقال أتريتِس: "ذلك أمرٌ مُشترَك بين الشَّطِّي واليهود. نحن لا نُسامحُ النِّساءَ الخائنات. فإنَّ رؤوسَهُنَّ تُحلَق وهُنَّ يُطرَدنَ من القبيلة أو يُغرَقنَ في المُستنقع. العَذارى وحدَهُنَّ يتزوَّجنَ". ورأى رِصفة تنظر إليه بعينَين واسعتَين، فقال بحَزم: "أنتِ مُختلِفة".

مُختلِفة، كيف؟ هكذا تساءلت. ألأنَّ الله قد أقامها من الموت أحسَّ أتريتِس أنَّ في وسعه أن يتزوَّجها؟ خافَت أن تسأل، ونهَشَها الشَّكُّ في شأنِ حُبِّه.

سأتوكَّلُ عليك، يا ربُّ. سأتوكَّلُ عليك.

وتحدَّثَ ثيوفيلُس بشأن ظُهورِ ملاكٍ ليوسُفَ وقولهِ لَهُ إنَّ مريم حُبلى من الرُّوح الُقدس. ووجَبَ أن يُسمِّيَ يوسُفُ الطِّفلَ يسوع، لأنَّه سوف يُخلِّصُ شعبَه.

"أمَرَ القيصرُ أُغسطُس بإجراءِ إحصاء. وكما كانت العادة في تلك الأيَّام، اصطحَبَ يوسُفُ مريمَ، وهيَ حُبلى، ورجَعَ إلى مسقط رأسه، بيت لحم، ليُسجَّلَ في الإحصاء. هنالك وُلِدَ المسيح، ولكنْ في إسطَبل، لأنَّه لم يكُن في الخان مكان.

وصَلَ مَجوسٌ من الشَّرق سبَقَ أن تَبِعوا نجمًا جديدًا، وقدَّموا للصَّبيِّ هدايا من ذهَبٍ ولبُانٍ ومُرٍّ. وإذ كان الملِكُ هيرودس يعلَمُ بوجود نُبوَّاتٍ تتعلَّق بالمسيح، المُخلِّصِ المُنتظَر، حاولَ أن يجِدَ يسوع أيضًا، إنَّما لأسبابٍ أشدَّ سَوادًا بكثير. ولمَّا لم يتمكَّن من ذلك، أمَرَ بأن يُقتلَ جميعُ الأولاد الذين وُلِدوا في بيت لحم، من ابنِ سنتَين فما دون. وجاء ملاكٌ من الرَّبِّ إلى يوسُف في حُلمٍ وأنذَرَه، فأخَذَ مريم ويسوع وهرب إلى مصر.

ولمَّا مات هيرودس، جاء ملاكٌ ثانيةً إلى يوسُف في حُلم وقال له إنَّ الرُّجوع باتَ آمِنًا. فأتى يوسُف بمريم ويسوع إلى الناصرة في منطقة الجليل. هنالك نما يسوع في الحكمة والقامة، والنِّعمة لدى الله والناس. وبعدما أقبلَ نبيٌّ اسمُه يوحنَّا المعمدان، وقد نادى بالتَّوبة عن الخطيئة على ضِفافِ نهر الأُردنّ، باشَرَ يسوع خدمته العلنيَّة وأعلن أنَّ مملكة الله قريبة.

كان يسوع ابنَ ثلاثين سنة لمَّا جاء إلى يوحنَّا ليعتمد. فمانَعَ يوحنَّا، عالِمًا أنَّ يسوع هو المسيح. وأصرَّ يسوع على أن يُعمِّدَه يوحنَّا لكي يُكمِلَ كلَّ برٍّ. لذلك نقتدي به ونفعَلُ مِثله. فينبغي أن تكون حياتُنا انعكاسًا له. إنَّنا نعقِدُ العزمَ على اتِّباعه ونسلكُ في الطاعة. هُناكَ تكمنُ الصُّعوبة، أتريتِس: العيش وَفقًا لمشيئة الله والتَّضحية بمشيئتنا يوميًّا. وبعدَ معموديَّة يسوع أرسله الله إلى البرِّيَّة، حيثُ صامَ أربعينَ يومًا. وعندَ انتهائها، إذ كان ضعيفًا وجائعًا ومُنهَكًا، جرَّبَه الشيطان".

ارتفعَ حاجِبا أتريتِس ازدِراءً. "ولكنَّ هذا كان ابن الله. لذلك لم يُشكِّلِ الشيطانُ خطرًا فِعليًّا".

"الشَّيطانُ هو عدوُّ الله".

"عدوٌّ بِلا قُدرة. هل يستطيعُ إقامةَ الميت؟"

فقال ثيوفيلُس: "كونك مُحاربًا، فأنت تعرِفُ أفضلَ من أن تستخفَّ بعَدوٍّ. صحيحٌ أنَّ علينا ألَّا نخافَ أيَّ شيء أو أيَّ شخص ما عدا الرَّبَّ. أمَّا الآن، وقد صرتَ مسيحيًّا،

فالمعركة الحقيقيَّة تبتدئ. إنَّ الشَّيطان خدَّاعٌ بارع. أمَا تذكُرُ الكِذبةَ الخبيثة التي قالها لحوَّاء، وعواقِبَها؟ الخطيئة والموت. كان آدم وحوَّاء يسيران مع الرَّبِّ في الجنَّة. وقد تكلَّما مع الله وجهًا لوجه. فإذا أمكن أن يُخدَعا في تلك الأحوال، أفتحسبُه مُستحيلًا أن نُخدَعَ أنت أو أنا أو رِصفة أيضًا؟ إنَّ الشَّيطانَ كائنٌ قديم، والله أزليٌّ. ولئن لم يكُن يعلَمُ بكُلِّ شيء كما يعلَمُ الله به، ولا يملك قدرةَ الله، فهو يعرِفُ ضَعَفاتِنا أفضَلُ ممَّا نعرِفُها نحنُ أيضًا. إنَّه يعرفُنا من كثَب. يعرِفُ الرَّغباتِ الشرِّيرةَ في قلوبنا وعقولنا. ويعرِف أين ومتى يُهاجِمُنا لإحراز أفضَلِ نتيجة. إنَّه يُخطِّطُ بمَكرٍ ويتلاعب بهذه الأُمور كي يفصِلَنا عن الله ويتسبَّبَ في هلاكنا. لا تستخفَّ به أبدًا. فمن دونِ سلاحنا، نحنُ ضُعَفاء ومُنكشِفون".

شعَرَ أتريتِس بحِدَّةِ إنذار ثيوفيلُس وانتبهَ إليه. "أيُّ سِلاحٍ لدينا ضِدَّ هذا الكائن؟"

"الحقُّ، بِرُّ المسيح نفسِه، إنجيلُ السلام، الخلاصُ، إيمانُنا. تذكَّرْ ساحة المُحارِبين، أتريتِس. إنَّك لم تكُن تُرسَلُ إليها لمُواجهة خصم دونَ تدريبٍ ومُمارَسة، دونَ حِمايةٍ وأسلحة. على غِرار ذلك، لا يُرسِلُنا الله إلى المَعركة دونَ العُدَّة التي نحتاجُ إليها للصُّمودِ ضِدَّ العدوّ".

وابتسَمَ ابتسامةً خافتة. "شُدَّ حَقَويك بمنطقة الحقّ الذي يُعلِنُه لك الله. البَسْ دِرعَ البرِّ، واحذُ رِجلَيك بإنجيلِ السَّلام، واعتمِرْ خُوذةَ الخلاص. إنَّ إيمانك بالمسيح هو التُّرس الذي يحمي من سِهام الشَّيطان، وكلِمةُ الله هي سيفُك. فدونَ الإيمان، ودونَ كلِمة الله، نحنُ مكشوفون أمام قوَّات الظَّلام. المعركة هي لأجلِ ذهنِك. أمَّا الهدَف فهو إهلاكُ النَّفس".

قالَت رِصفة: "علينا ألَّا ننسى قوَّةَ الصلاة أبدًا". وأمسكت يدَ زوجها بكِلتا يدَيها. "في كلِّ حين، صلِّ في الروح القُدس، لأجل ثيوفيلُس، لأجلِ ابنِنا، لأجلي، لأجل شعبك، لأجلِ نفسك".

"سأفعَلُ كما تقولين".

قال له ثيوفيلُس: "افعلْ كما يقولُ الرَّبُّ". وقد رأى توقيرًا لرِصفة كان في غير محلِّه. لقد علِمَ أنَّ الجرمانيِّين اعتقدوا أنَّه كانت للنِّساء قُدراتٌ روحيَّة تتخطَّى قدراتِ الرِّجال وتفوقُها. ولكنَّ مُعجِزةَ عودة رِصفة من الموت كانت من صُنعِ الله، لا من صُنعها. "اسلُك في جميع طُرق الرَّبِّ وأحبِبه. اخدِم الرَّبَّ بكلِّ قلبك ونفسك، واحفظْ وصاياه. علينا جميعًا أن نكون مُتيقِّظين ومُتأهِّبين، أتريتِس، لأنَّنا ذاهِبون إلى مكانٍ ظلام، إلى أراضٍ يستولي عليها الشيطانُ الآن".

"إذًا، سنخوضُ حربًا من أجلها!"

"ليسَ بالطريقة التي تعتقِدُها. سوف نثبت في الإيمان والمحبَّة، حتَّى يُقاتِلَ الربُّ نفسُه عنَّا".

اجتازوا بِضعَ قُرًى ودخلوا رِيفَ الغابة الهرسنيانيَّة. وقد تناثرَت التِّلال المكسوَّة بالأشجار، مُنحدِرةً نحوَ السُّهول. فاقتادَ أتريتِسُ ثيوفيلُس ورِصفة حولَ أرضٍ سَبِخة، ووسطَ غابةِ صَنوبَرٍ طويل أسوَدِ الجُذوع. وكان ذلك مكانًا مُخيفًا مملوءًا بصَوتِ الضَّفادعِ والحشَرات، زاخِرًا بالظِّلال وعابِقًا بروائحِ الفسادِ النَّتِنة.

قالت رِصفة: "أشتَمُّ دُخانًا". وقد تساءلَت هل تصاعَدَ رأسًا من نيرانِ الجحيم. إذ كانت الرائحة عابرة، لاذعة، شِبهَ مُتوهَّمة.

فقال أتريتِس: "رُودَنغ". وظلَّ ماشيًا.

وجاراها ثيوفيلُس في سُرعتها، ماشيًا بجانبها. "يقطعُ الجِرمانُ أجزاءً من الغابة ويُحرِقونَها لتحريرِ أراضٍ لزَرعِ الغِلال. إنَّ رَمادَ الخشَب يُخصِّبُ التُربة على مدى بِضعِ سنين، بعدَها يدَعون تلك المساحاتِ تتحوَّل إلى غاباتٍ من جديد".

قال أتريتِس: "صِرنا قريبين. أنا أعرِفُ هذا المكان". وقد أعادَت الرَّوائحُ المألوفة الصادرة من الغابات والسِّباخ والحريق ذِكرَياتٍ قديمةً. فأحسَّ أنَّه في دياره أوَّلَ مرَّة منذُ أكثرَ من عشرِ سنين. وأراد أن يركُضَ وسطَ الغابة صائحًا، والفراميا في يده. أراد أن يتجرَّدَ من ثيابه ويرقُصَ فوقَ السُّيوف أمام النار، صارخًا إلى السَّماوات، كما كان يفعَلُ في صِباه.

ولمَّا تقدَّمت رِصفة إلى جانبه، جذبَها بقُربه.

وإذ مشَّطَ شعرَها بأصابعه، قال: "الدِّيار! وصَلنا إلى الدِّيار تقريبًا!" وقبَّلَها ضاحكًا، فاغِرًا فمَها، مُطلِقًا عِنانَ تأثُّرِه الشديد.

شهقَت رِصفة لمَّا ترَكها، وتراجعَت خطوةً، وقد تورَّدَ خدَّاها بأحمَرَ مُتوهِّج. لقد بدَت مُجفَّلةً وقلِقةً. وإذِ ابتسمَ لها من عَلُ، أخذَ كالِب وأجلسَه على كتِفَيه فيما واصلوا السَّير. "كان من عادتي أن أصطاد في تلك التِّلال. هناك في الأعلى أرضٌ سَبِخة ومُستنقَع. وراءهُما، فوقَ تلك التلَّة تمامًا، قريَتي!" ولكنْ لمَّا وصلوا إلى الفُسحة، لم تبقَ إلَّا أطلالٌ مسفوعةٌ ومُتداعية لقَريةٍ أُحرِقت منذ زمَنٍ بعيد. فمشى أتريتِس خارِجًا إلى العَراء، مُجيلًا النَّظَر. كان جزءٌ من بيتٍ مُستطيل ضخم قد بقيَ، والعُشبُ طالعٌ بينَ العوارِضِ السَّاقطة والجُدران المُنهارة. ووراءَ ذلك، رأى سُقوفَ الغرُوبنهاوس الخشبيَّةَ المحروقة. وكانت الأكواخُ الغائرة مُنهارةً، مُخلِّفةً في الأرض حُفَرًا سطحيَّة.

جاشَ الغضَبُ القديم في داخلِه. روما!

منذُ إحدى عشرةَ سنةً، سجَّى هو وأُمُّه أباه في دارِ جِنازةٍ لا تبعدُ عشرين قدمًا (نحو ٦ أمتار) عن مكانِ وقوفه. وقد احترقَت دُورُ جِنازةٍ أُخرى كثيرةٌ تلك الليلة، إلَّا أنَّ القرية لم يمسَّها سوء. بعدَ ذلك بأشهُرٍ قليلة، تشتَّتَ بنو قومِه أو ماتوا، وقُيِّدَ هُوَ أسيرًا في عرَبة، في طريقِه إلى اللُّودُس الرُّومانيِّ.

في ما مضى، عاشَ هُنا بِضعُ مئاتٍ من الناس. فأينَ كانوا الآن؟

أرجَعَ أتريتِس رأسه إلى الوراء، وأطلقَ صَيحةً تردَّدت أصداؤها. فذُعِرَ كالِب وشرَعَ يبكي. فأنزلَ أتريتِس الصَّبيَّ عن كتِفَيه ودفَعَه إلى رِصفة بِما يُشبِهُ القذف. وإذ مشى مُبتعِدًا عنها وعن ابنه، صاحَ من جديد صِياحًا أعلى، وقدِ انتشَرَ في الغابة هديرُ صوتِهِ العميق. فإذا كان قومُه في مكانٍ قريبٍ ما، فلا بدَّ أن يسمعوا صوته ويعرِفوا أنَّه عاد.

كان صوتُ صَيحتِهِ الحربيَّة شبيهًا جدًّا بصيحة المتياتْشي المُهاجمين، تلكَ التي روَّعَت رِصفة. فأقبلَ ثيوفيلُس ووقفَ بقُربها. ''ما وصلتُ يومًا إلى هذا البُعدِ شمالًا، ولكن في وسعي أن أُخمِّنَ ما جرى''. وركَلَ قِطعةَ خشَبٍ محروقة وبالية.

فقالَت: ''أنا خائفة. ولستُ أيضًا مُتيقِّنةً تمامًا ماذا يُخيفُني''. ورفعَت نظرَها إليه. ''هل تعتقد أن أتريتِس يفهَمُ حقَّ الفهم ما يعنيه كونُ المرءِ مسيحيًّا؟''

''لا. ولكنِّي أنا أيضًا ما فهمتُ ذلك في البداية''.

''ولا أنا. هل رأيتَ سِيماءَ وجهِه لمَّا مشى إلى داخلِ الفُسحة؟''

''رأيتُها''.

''اللهُمَّ، ساعِدنا. أنا أُحِبُّه كثيرًا جدًّا، ثيوفيلُس. ربَّما فوقَ الحدِّ''.

''لقد سلَّم اللهُ حياتَه. إنَّ الآبَ لن يدَعَه يمضي''.

''ولكنْ ماذا أستطيعُ أنا أن أفعل؟''

''اسلُكي طريقَ الرَّبِّ وصلِّي. صلِّي، يا محبوبة، ولا تكُفِّي''. وإذ ترَكَها، مشى نحوَ الجِرمانيِّ. ''أتُريدُ أن نُخيِّمَ هنا لِنَبيتَ ليلتَنا، أم نتوغَّلُ شمالًا بَعد؟''

''هُنا. ونُشعِلُ نارًا كبيرة''.

أحسَّ ثيوفيلُس غضَبَ الجِرمانيِّ كقوَّةٍ سوداء. ''سأجمَعُ حَطَبًا''. فأنزلَ حُزمَه، وتناوَلَ من إحداها فأسًا صغيرة، وتوجَّه إلى الغابة.

وأطلق أتريتِس صيحةً أُخرى.

فما جاء جواب.

بعدَ دقائقَ قليلة، تردَّد صوتُ قَطعِ ثيوفيلُس الحطَبَ رقيقًا. فاستدارَ أتريتِس شاتمًا.

تحطَّمَ قلبُ رِصفة حِيالَ سيماءِ وجهِه. جميعُ سِني الحُلم، وجميعُ أشهُرِ السَّفَر والمشقَّة، ثُمَّ وصلوا إلى هذا: قرية محروقة مهجورة! فأقعدَت كالِب وتقدَّمت إلى زوجها. وإذ أرادت بثَّ الرَّجاء فيه، قالت: "سوف نجِدُهم. لن نتوقَّفَ عن البحث إلى أن نجِدَهُم".

"ماتوا كلُّهم".

"لا. شَمَمنا دُخانًا. وأنتَ قُلتَ رُودَنغ، وأخبرَني ثيوفيلُس أنَّ قومك يستعملون النار لتحريرِ أراضي الغابة".

أقبَلَ ثيوفيلُس بخُطًى واسعة عبْرَ الفُسحة، وطرَحَ حِملَ حَطَبٍ تأبَّطَه بقُرب البيت المُستطيل المُنهار. وقال بحماسةٍ: "ما كانوا لِيَتركوا بُستانَهُم المُقدَّس". وكأنَّ ذلك خطَرَ في بالهِ توًّا.

بدا أتريتِس شِبهَ مُجفَّل. "أنتَ على حقٍّ". وإذِ التقطَ حُزمتَه، توجَّهَ عبْرَ الفُسحة، والفراميا في يده. وهُرِعَت رِصفة لإحضار كالِب، فيما عتَلَ ثيوفيلُس حُصَّتَه من الأمتِعة.

مَشَوا بسُرعة، شاقِّين طريقهُم بتعرُّجٍ وسطَ الشَّجَر. وتغيَّرَت الرِّيح، فشمَّت رِصفة الدُّخانَ مُجدَّدًا، أقوى هذه المرَّة.

وقَفَ أتريتِس بجانب شجرَة صَنوبَر كثيرةِ العُقَد. وكانت حلقةٌ من اللِّحاءِ الأسود قد قُشِرَت، وأحرُفٌ رُونيَّة منقوشة في السَّطح الأملس. "هذه علامةُ حُدودِ الغابة المُقدَّسة. البُستانُ يبعُدُ مِيلًا واحدًا من هُنا. بهذا الاتِّجاه".

أنزلَ أتريتِس حُزمَته هزًّا. "سننتظِرُكَ هُنا".

فرمَقَه أتريتِس مدهوشًا. "أنتَ خائف من طِيواز؟"

"لا، ولكنَّ قومَك لن يُصغوا إليَّ مُتكلِّمًا عن الرَّبِّ إذا دنَّستُ غابتَهُم المقدَّسة بدُخولي إيَّاها".

ازدادَ احترامُ أتريتِس لثيوفيلُس. ومع ذلك، علِمَ أنَّ الأمر الوحيد الذي يحولُ دونَ قتل قبيلة الشَّطِّي للرُّومانيِّ هو الله نفسُه. وقد علِمَ ثيوفيلُس ذلك أيضًا. وغادرَهُم أتريتِس بانحِناءةٍ من رأسه. فحطَّت رِصفة كالِب أرضًا كي يلعب. ووجَدَ الولَدُ بلُوطةً فحاول أن يأكُلَها. فقالت

رِصفة مُنحنِيةً: ''لا، لا!'' وانتزعَتها من فمه ثمَّ رمَتها بعيدًا.

وقال كالِب بِفَم مُرتعِش: ''لا، لا!''

فمسَّدَت رِصفة شعرَه عن وجهه إلى الوراء وقبَّلَته. وإذِ اتَّكأ ثيوفيلُس إلى جِذعِ صَنوبَرةِ الحُدود، قال: ''النَّارُ إلى الشمال الشرقيِّ منَّا''.

تقدَّمَت رِصفة ونظرَت إلى الرُّموز المنقوشة على الشجرة. كانت ذئابٌ تُحيطُ برجُلٍ ذي ثلاثة رؤوس وثَديَين وعُضوٍ ذُكورةٍ مُنتشِر. كان يحمل بإحدى يديه مِنجلًا، وبالأُخرى سيفًا. وقد وقَفَ بقُربِهِ شخصٌ بهيئة ذكَر حاملًا فراميا. وكانت الحروف الرُّونيَّة منقوشة بين الصُّوَر. فانحنَت رِصفة عابسةً ومسَّت أحدَ النُّقوش. ''لبِسَ أتريتِس قِلادةً عليها هذا الرَّمز''. وكانت قد رأتها لمَّا خَلَعَ أتريتِس ثيابه قُربَ النَّبع.

''أما زال يلبَسُها؟''

''لا. لمَّا سألتُه عنها، نزعَها ورماها بعيدًا''. واستقامت ثمَّ أمسكت يدَ كالِب وابتعدَت عن الشجرة. لم تُرِد أن يبقى ابنُها بقُربِ النَّقش.

قال ثيوفيلُس: ''إنَّه راجع''.

وركَضَ أتريتِس نحوَهُم، شاقًّا طريقه بتعرُّجٍ بين الشَّجَر، برَشاقةِ رياضيٍّ بالفِطرة. ثمَّ قال مبهورَ النَّفَسِ تقريبًا: ''رأيتُ الأحصِنة البيضاء. هناك مَجازٌ جديد يتَّجِه نحو الشمال الشرقيِّ. لا بدَّ أن تكون القرية في ذلك الاتِّجاه. على بُعدِ ميلين، وربَّما ثلاثة، من هنا إذا عبَرنا في خطٍّ مُستقيم''.

فقال ثيوفيلُس. ''سنَدور. لن أضَعَ حِجارةَ عثرةٍ في طريق الإنجيل. عندما يقبَلُ الشَّطِّي الحقَّ، أتريتِس، سيفقِدُ طِيواز سيطرتَه عليهم، ولن تعودَ لهذه الغابة أيَّةُ أهمِّيَّةٍ تفوقُ أهمِّيَّةَ الأراضي المُحيطة بها''.

''علَينا إذًا أن نُسرعَ في سَيرنا حتَّى نصِلَ قبلَ هُبوطِ اللَّيل''.

٣٢

وجدوا أطرافَ القريةِ الخارجيَّةَ عند الغسَق. وكان بِضعةُ رجال، يرتدون تُنكاتٍ وبنطلوناتٍ خشِنةٍ منسوجة، يسوقون المواشيَ إلى داخل بيتٍ مُستطيلٍ لأجل الحِماية. ففرَّقَت صَيحةُ أتريتِس المواشي وجعلَتِ الرِّجال يلوذون بالهرَب. ولمَّا اقتربوا، تحوَّلت صَيحاتُهم الحربيَّة إلى ترحيباتٍ صاخبة.

"أتريتِس!" ودونَ إرخاء أسلحتهم، راحُوا يضربونه بفرَح فيما هو يضحك ويردُّ لهم حسَنًا كما تلقَّى منهم.

وقفَت رِصفة جانبًا تُحدِّق، مُرتعِبةً من ترحيبهم العنيف. ما كانت قطُّ قد رأت رِجالًا بمِثل ذَينِكَ المَنظَرِ الخَشِن والصَّخَب. ولمَّا التفتَت إلى ثيوفيلُس، أفرَجَها مَرَحُه الهادئ. حتَّى إذا همَدَ هِياجُ الرِّجال، انتبهوا إليها انتِباهًا جريئًا تامًّا، ثُمَّ نظروا إلى ثيوفيلُس. وخيَّمَ صمتٌ مشدود.

"أتأتي برُومانيٌّ معك؟"

ولمَّا تقدَّم الرَّجُل إلى الأمام، قامَ أتريتِس بحرَكة سريعة، واضعًا رأس فرامياه تحتَ ذقنِ الرَّجُل تمامًا. "ثيوفيلُس لا يأتي بوصفه رومانيًّا".

"وهل يُحدِثُ ذلك فرقًا؟"

"أنا أقولُ إنَّه يُحدِث".

فضاقت عَينا الرجُل، ولكنَّه خفَضَ سلاحه. ثمَّ سحَبَ أتريتِس الفراميا، وقد تغيَّرَ تصرُّفُه. "اهتمَّ بقطيعِك".

فمضى الرِّجالُ الثلاثة بارِدين، لكنْ مقهورين. وراقبَهُم أتريتِس لحظةً طالت، ثمَّ التفتَ إلى ثيوفيلُس. وإذ نخَعَ رأسه، أمسك يدَ رِصفة واستأنفَ السَّيرَ على الطريق.

رأى ثيوفيلُس أنَّ القرية الصغيرة لم تكُن على طِراز رُندلِنغ كما كان قد توقَّع، حيثُ تُجمَّعُ المباني في حلقة حولَ مساحةٍ خالية في الوسط. لقد كانت في شَكلِ ساكْغاسندورف، حيثُ اصطفَّت المباني إلى كلا جانِبَي شارعٍ مركزيّ. وقد عدَّ ثمانية بيوت مُستطيلة كبيرة وأكثرَ من عشرين مسكنًا أصغر، فضلًا عن الغروبِنهاوس، أي بيتِ الاجتماع. وكانت نهايةُ الشارع القُصوى مسدودةً لأغراضٍ دِفاعيَّة.

لوحِظَ وصولُهم حالًا، وانتشرَ الخَبَرُ بسُرعة إذ أرسلَ الراشدون أولادًا يركضون من بيتٍ مستطيل إلى آخر. فخرَجَ الناسُ من بيوتهم وانصبُّوا إلى الشارع، مُحيطينَ بأتريتِس، مُتكلِّمين وصائحين كلُّهم في آن، فيما أتريتِس يضحك ويُعانِقُهم واحدًا بعد واحد.

وشقَّت امرأةٌ شقراءُ طريقها وسطَ الحَشد. فهتَفَ أتريتِس: "مارتا!" وارتمَت بين ذِراعَيه باكيةً. فضمَّها أتريتِس بشدَّة، فيما طرَقَ رجُلٌ ظهرَه. وأمسك بها أتريتِس مادًّا ذِراعَيه، ضاحكًا وباكيًا. وإذ رأى شخصًا آخر، أطلقَ صرخةً وشقَّ طريقَه وسطَ الحشد إلى رجُلٍ طويل القامة قويِّ البنية عرَجَ نحوه. "قارُس!" وتعانقَ الرَّجُلان.

كان رجالٌ ونساءٌ وأولاد يتكلَّمون بتأثُّرٍ بالغ، والكلمات تكرُّ واحدةً إثرَ واحِدة، ولا شيء منها مفهوم، ثمَّ خيَّمَ صمتٌ. وظلَّ أتريتِس وقارُس يتحدَّثان بسُرعة، غيرَ مُلاحِظَين إذ زاحَ الناسُ جانبًا لامرأةٍ بيضاء الثِّياب. وقد مشَت برَصانة، مُطأطئةً رأسها إذ مسَّها الناس مسًّا رقيقًا وتراجعوا احترامًا. كان شعرها الأشيَبُ مضفورًا وملفوفًا داخِلَ تاجٍ سميك مُثبَّت بدبابيسَ من ذهَب، وقد تقلَّدَت حجَرَ كهرَمانٍ كبيرًا مُطوَّقًا بالذَّهَب ومُدَلًّى بسلسلةِ ذهَبٍ ثخينة.

رآها قارُس أوَّلًا وشدَّ ذِراعَ أتريتِس. فاستدار أتريتِس وأطلَقَ نفسَه مدهوشًا. وقال: "أُمِّي!" ومضى إليها بخُطوتَين طويلتَين. وإذ جثا على رُكبةٍ واحدة، عانقَها مُلقيًا رأسَهُ على صدرها.

مسَّدَت فرايجا شعرَه بأصابعها باكيةً، وأمالَت رأسَه إلى الوراء، قائلةً: "ابني!" وقد جرَت الدُّموع على خدَّيها الشاحبَين. "ابني رجَعَ إلى الدِّيار!"

كان انفِعالُ أتريتِس العاطفيُّ أشدَّ من أن يتكلَّمَ بعد، والتصقَ بها. طوالَ الوقت، كان قد حسِبَها مَيتةً أو عبدة.

قبَّلَت كِلا خدَّيه، ثمَّ فمَه. "عِلمتُ أنَّك ستعود". ومسَّدَت برِقَّةٍ شعرَه عن وجهه إلى الوراء. "حتَّى حين تخلَّى جميعُ الذين حواليَّ عن الرَّجاء، عِلمتُ أن طِيواز سيحميك ويردُّك إلينا".

وإذ نهضَ أتريتِس، وضعَت يدَها على ذِراعه. واجتاحَت حَملقَتُها الحشد كما لو كانت تبحثُ عن شخصٍ ما، حتَّى استقرَّت على رِصفة.

رأت رِصفة الإدراكَ يُومِضُ في العينَين الزَّرقاوين الجميلتين الشبيهتين كثيرًا بعينَي أتريتِس. فابتسمَت المرأة لرِصفة وقالت: "هي معك".

قال أتريتِس: "زوجتي، رِصفة".

"والولَد؟"

"ابني".

سرَت في الحَشد هَمهَمةٌ، همَساتُ مُفاجأةٍ وفُضول. وقال أحدَهُم: "داكِنَةُ اللَّونِ جدًّا". وأخذَ أتريتِس الصَّبيَّ من رِصفة وحمَلَه عاليًا بحيثُ يراه الجميع. "اسمُه كالِب".

فصاحَ الجميع: "كالِب!" وتوقَّعَت رِصفة أن يشرَعَ كالِب بالبُكاء بسبب الجَلَبة الصاخبة المُخيفة التي حدثَت. غيرَ أنَّ كالِب أطلقَ ضِحكةَ اهتِياجٍ، مُبتهِجًا جدًّا بالانتباه إليه. وردَّ أتريتِس الولَد إليها مُبتسِمًا ابتسامةً عريضة. فضمَّته إلى صدرها. واستطاعَت أن تُحِسَّ كلَّ شخصٍ مُحدِّقًا إليها، وسمِعَت تلك الكلمات ثانيةً: "داكنةُ اللَّونِ جدًّا..."

نظرَت فرايجا إلى الرَّجُل الواقف بقُربِ زوجةِ ابنها، وعلِمَت فقط أنَّه رومانيٌّ. فبادَلَها النَّظر بعينَين دافئتَين وبِلا مُوارَبة. فاستولى عليها الخوف، على نحوٍ غير منطقيٍّ ومُتعذِّرِ التفسير. "مَن هذا الرَّجُل؟"

تقدَّم ثيوفيلُس إلى الأمام وحَنَى رأسَه احترامًا. ولمَّا تكلَّم، كان ذلك بلُغةٍ جِرمانيَّة سليمة، ولكنةٍ تُضاهي حتَّى لكنةَ الشَّطِّي. "اسمي ثيوفيلُس، سيِّدتي، وأنا أجيء في سلام سفيرًا ليسوع المسيح، ابنِ الله الحيِّ".

شعرَت فرايجا بقُشَعريرة. ورفعَت نظرَها إلى ابنِها. "مَن يسوعُ المسيح هذا؟"

فحدَّق أتريتِس إلى ثيوفيلُس مشدوهًا.

أجاب ثيوفيلُس: "يسوعُ هو صورةُ اللهِ غيرِ المنظور، سيِّدُ الخليقةِ كلِّها". ومدَّ يديه نحو النُّجوم التي بدأت تظهر في السماء. "«فإنَّه به خُلِقَت جميعُ الأشياء، سواءٌ ما في السماوات أو على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، وفيه يقومُ كلُّ شيءٍ مُتماسكًا»".

تسارَعَت دقَّاتُ قلبِ رِصفة إذ أدركَت أنَّها هي أيضًا فهِمَت كلَّ كلِمة قيلَت بالجِرمانيَّة. وأكثرُ من ذلك أنَّها علِمَت أنَّها تستطيع أن تتكلَّم هي كذلك. وإذ تقدَّمَت لتقِفَ بجانب ثيوفيلُس، غمرَها الفرَحُ فقالت: "سيِّدتي، أُمَّ زوجي، أطلبُ إليكِ نيابةً عن المسيح أن تتصالحي مع الله الذي خلقَكِ، الله الذي يحبُّكِ ويدعوكِ إلى التَّوبة".

تراجَعَ الناسُ خوفًا، وغَدَت هَمَساتُهم أعلى.

وحدَّق أتريتِس إليها مُمتلئًا رَهبةً: "أنتُما كِلاكما تتكلَّمان الجِرمانيَّة".

فقالَت، وعيناها تتأجَّجان: "نعم، نعم! لقد أعطانا الله مَوهِبة اللُّغاتِ لكي نتمكَّن من

تبليغِ بشارة الإنجيل. عجَبًا، أتريتِس، إنَّ الله معنا!"

انقبضَت أحشاءُ فرايجا لدى سَماعِها ذلك. وغمَرَها الخوفُ إذ نظرَت من وجه رِصفة المُشرِق إلى ثيوفيلُس، وكان واقفًا بجانبها بكُلِّ هدوء. لقد أحسَّت قوَّةً، قوَّةً مُروِّعةً رهيبة، واشتدَّت يدُها على ذِراع أتريتِس.

سُمعَ صوتُ امرأةٍ مُستهزئ: "أنتِ تتكلَّمين عن التَّوبة؟" وخيَّمَ الصَّمتُ من جديد، والتفتَت الرؤوس. ثمَّ سرى تيَّارٌ من العاطفة العميقة وسطَ الحَشد المُجتمِع، وانشقَّ الناسُ كبحر، فاتحينَ طريقًا أمامَ شابَّةٍ جميلة وقفَت تمامًا خارِجَ بابِ أحَدِ البيوت المُستطيلة.

قال أتريتِس لاهِثًا مصدومًا: "أنيا!" وقد وثَبَ قلبُه.

فنظرَت رِصفة إليه، مُميِّزةً اسمَ زوجته الأولى، وتبخَّرَ فرَحُها، وإذ غلبَتها الصَّدمة، نظرَت إلى الشَّابَّة، فإذا بها أكثرُ جمالًا وشهوانيَّةً من أيَّة امرأة رأتها يومًا. ثمَّ إنَّها كانت صغيرة السِّنِّ جدًّا بحيثُ لم تتخطَّ العشرين. كيف أمكنَ أن تكونَ هذه الفتاةُ زوجتَه الأُولى؟ وقد كان شعرٌ أشقرُ طويلٌ مُتدَلٌّ مُتجعِّدًا حول وجهها وكتِفَيها ومُنسدِلًا على ظهرِها حتَّى خصرها. وكانت ترتدي ثيابًا بيضاء كأُمِّ أتريتِس وتتقلَّدُ قِلادة مُماثِلة. وقدِ التوى فمُها إذ مشَت نحو أتريتِس برَشاقةٍ فريدة جذبَت انتِباهَه إلى خُطوط جِسمِها التامَّة الفتَّانة. وحَنَى كثيرون رؤوسَهم إذ مرَّت، إلَّا أنَّ أحدًا لم يمسَّها كما مسُّوا فرايجا. وقد نبَضَ الصَّمتُ، وهي لم تتوقَّف عن المشي حتَّى وقفَت أمامَ أتريتِس. وانحرَفَت حَملقَتُها عليه بطريقةٍ مُثيرة.

قالت له بصَوتٍ بارِد ومُنغَّم: "أنيا ماتت. أنا أنوميا. هل تتذكَّرُني؟"

فقال أتريتِس: "أُختُها الصُّغرى". وأطلقَ ضِحكةَ مُفاجأةٍ. "كُنتِ مُجرَّدَ فتاةٍ صغيرة".

قوَّسَت أنوميا أحَدَ حاجِبَيها. "مضى على غيابك أحَدَ عشرَ عامًا، أتريتِس. أنت أيضًا قد تغيَّرت". ثمَّ رفعَت يدًا نحيلة ذات أظفارٍ طويلة أنيقة ووضعَتها بخفَّةٍ فوق قلبه.

رأت رِصفة عينَيه تخفقانِ تجاوُبًا.

راقبَ ثيوفيلُس أنوميا، شاعرًا بالظُّلمة في داخلها كقوَّة محسوسة تُنفِّرُه. وكما لو أنَّها أحسَّت تمعُّنَه، أدارت رأسَها ببُطء ونظرَت إليه مُباشرةً بعينَين زرقاوَين باردتَين جامدتَين. وبغيرِ أن تطرِفَ عيناها، انحرفَت حَملقتُها ببُطءٍ منه إلى رِصفة. وابتسمَت بازدراء، مُنصرِفةً عنها، ثُمَّ أولَت أتريتِس كامِلَ انتِباهِها من جديد.

نظَرَ ثيوفيلُس إلى وجه صديقه. وكان جليًّا لأيِّ مَن ينظر أنَّ أتريتِس أحسَّ فعَّاليَّةَ مَفاتِن أنوميا المُغوية.

وإذ غاصَ قلبُ رِصفة، صلَّت بحرارة طالِبةً أن يُعطيَ الله زوجَها تمييزًا وحكمة، فضلًا عن القوَّة لتجنُّب التَّجرِبة.

ضحِكَت أنوميا برِقَّة، مُستمتِعةً بقُوَّتها. "أهلًا بك في الدِّيار، أتريتِس". أخيرًا، بعدَ زمانٍ طويل...باتت الطَّريقُ إلى ما كانت تنتظِرُه كلَّ حين ماثلةً أمامها.

٣٣

قال ڤارُس: ”سنتحدَّث“. وصرَفَ أهلَ القرية على وُعودٍ بأنَّ أتريتِس سيتكلَّم معهم غدًا. وأشار نحو البيت المُستطيل الكبير المَبنيِّ بأخشابٍ مقطوعة دونَ صَقل، والمَكسوِّ بالطِّين على نحوٍ جعلَه يبدو كأنَّهُ مَطليٌّ بأشكالٍ مُلوَّنة.

وكفِكرةٍ حضرت للتوِّ تقريبًا، التفتَ أتريتِس إلى رِصفة وألقى حولَها ذِراعًا حِمائيَّة. وأومأ برأسه لثيوفيلُس أن يتقدَّمَه. وقد دخلَت فرايجا وأنوميا المسكِنَ أوَّلًا، وتبِعَهُما ڤارُس. ثمَّ دخلَت مارتا مع زوجِها أُصيبي أخيرًا برِفقة أولادِهما الأربعة.

فوجئَت رِصفة بضخامة البيت، وفوجئَت أكثرَ بَعدُ بسماعِها مَواشيَ تُصدِرُ أصواتَها في الداخل. وقدِ انبسَطَ أمامها المبنى المُستطيلُ الواسعُ. كان الجُزءُ الأماميُّ، حيثُ تسكُنُ العائلة، مفروشًا بأثاثٍ بسيط من بُنوك وأسِرَّة وكَراسٍ مُغطَّاةٍ بجِلدِ ثعالِبِ الماء. وكان الجزءُ الأكبرُ في المؤخَّر مُقسَّمًا مَرابطَ للماشية والأحصِنة والخنازير. وقد كان السَّقفُ عاليًا ومصنوعًا من عوارِضَ خشبيَّة مقطوعة دونَ صَقل. وكان المسكِنُ دافئًا، تتخلَّلُه رائحةُ الزِّبل.

سكَبَ ڤارُس سائلًا ذهبيًّا فوَّارًا في قَرن. فقال أتريتِس ضاحِكًا: ”بِيرة!“ وأنزَلَ ذِراعَه إذ قدَّم له أخوه القَرن. وبعدَما تجرَّعَ ما فيه، مسَحَ فمه بِقَفا يَدِه وأطلَقَ تَنهُّدةَ رِضًى راعدة.

قعدَت أنوميا على كُرسيٍّ مَكسُوٍّ بجِلدِ ثعلَبِ ماء، وقد استقرَّت يداها الأنيقتان بلباقة على ذِراعَي الكُرسيِّ المنقوشتَين. وبدَت مِثلَ مَلِكة تملِكُ على رعاياها إذ راقبَت أتريتِس بابتسامة هِرَّانيَّة.

التفتَ أتريتِس إلى ثيوفيلُس فرأى أنَّه خالي اليدَين. فنظَرَ إلى ڤارُس بفُتور. ”ألَم تعُد عادةً شطِّيَّةً أن يُعامَلَ الضَّيفُ بحَفاوة؟“

”يبدو لي أشبهَ بخِنزيرٍ رومانيٍّ“.

توقَّفَ قلبُ رِصفة لدى سَماعِها الكَلِماتِ المُهينةَ. وتصلَّبَ أتريتِس بجانِبها، وقد تورَّدَ وجهُه غضبًا.

”ثيوفيلُس صديقي“.

فتجهَّمَ ڤارُس.

وقالَت أنوميا برِقَّة: "أنت لا تنكرُ أنَّه رومانيٌّ؟" فأثارَت تيَّاراتِ العِداء. "هل نسيتَ بسهولةٍ ما فعلَته روما بشعبك؟ وبكَ؟"

فرمَقَها أتريتِس، ثُمَّ ردَّ حملقَته إلى أخيه. "ثلاثَ مرَّاتٍ أنقَذَ هذا الرَّجُلُ حياتي. فلَولاه، ما كنتُ هُنا".

وضعتَ رِصفة يدَها على فَخِذِ أتريتِس، شاكِرةً الله على عدَم نِسيانه كلَّ شيء في غمرَةِ فرَحِه بوجوده بينَ قَومِه من جديد. فوضَعَ أتريتِس يدَه فوقَ يدها، كما لو أنَّه أراد طمأنتَها والتصريحَ بشيءٍ ما. وضاقَت عَينا أنوميا حِيالَ تلكَ الإشارة.

قالت فرايجا: "إذًا، نحن جميعًا شاكرون له". وقد حمَّلَت صوتها دفئًا فاقَ ما شعرَت به. ثمَّ اقتربَت وتقرفَصَت قُدَّامَ رِصفة. وإذ مدَّت يدَيها لكالِب، تبسَّمَت. "هل لي أن أحمِلَ حفيدي؟"

أجابت رِصفة، مُنجذِبةً إليها: "بالتَّأكيد!" وأرخَت ابنَها، إلَّا أنَّ كالِب دارَ على ذراعَيها وتشبَّثَ بها، داسًّا وجهَه في صدرها. وإذ أُحرِجَت، تكلَّمَت إليه برِقَّةٍ باليونانيَّة، محاوِلةً أن تُسكِّنَ مخاوِفَه.

قالت أنوميا بازدراء: "ألا يتكلَّم الجِرمانيَّة؟"

فقالت أتريتِس: "لا، كنتُ أنا الوحيد الذي يتكلَّمُ الجِرمانيَّة حتَّى هذه الليلة".

قالت: "ما أغرَبَ ذلك!" بأوهى نَبرةٍ من الشَّكِّ.

مسَّدَت رِصفة شعرَ كالِب، وأحسَّت أنَّه يسترخي. فأدارَته في حضنها حتَّى واجهَ جدَّته. ولمَّا تكلَّمَت فرايجا إليه، انكمَشَ مُتراجِعًا.

قال أتريتِس بنفادِ صَبر: "أعطيها إيَّاه!" وما إن بدأت رِصفة تستجيبُ حتَّى شرَعَ كالِب يبكي. فهزَّت فرايجا رأسها وقامت.

وبعينَين ندَّاهُما الدَّمعُ، قالت: "لا، أتريتِس. لستُ أكثرَ من غريبةٍ عندَه الآن. فليأتِ إليَّ من تلقاء ذاتِه، وفي وقتِه".

وجِعَت رِصفة من أجلِها.

لوَّحَ ڤارُس بيده، بارِدَ العينَين، وراقبَ إذ مُلِئَ قرنٌ وقُدِّمَ إلى ثيوفيلُس. وقدَّمت فتاةٌ عبدةٌ إلى رِصفة كأسًا صغيرة من النبيذ المُحلَّى بالعَسَل والأعشاب. وعرَجَ ڤارُس إلى كرسيٍّ كبير مُغطًّى بجِلدِ ثعلَبِ ماء، ثمَّ قعَد. وإذ حدَّقَ إلى ثيوفيلُس، فرَكَ رِجلَه العرجاء. "كيف صِرتَ مَدينًا لرومانيٍّ بحياتك، أتريتِس؟"

"مرَّةً، على متنِ سفينة، صدَّ ضربةَ سَيفٍ كان من شأنها أن تقتُلَني. وفي المرَّة الثانية، سحبَني من البحر لمَّا كنتُ فاقِدَ الوعي. وآخِرَ مرَّة، أخرجني من روما قبلَ أن يتمكَّن دوميتيان من إرجاعي إلى ساحة المُحاربين".

قال أُصيبي: "رأيناك تؤخَذ وظنَنَّا أنَّهم سيُضحُّون بك في حفلةِ انتصارٍ رومانيَّة".

فقال أتريتِس باكتئاب: "باعَني القائدُ الرُّومانيُّ لنَخَّاسٍ يُتاجِر بالمُصارعين. قيَّدوني في عرَبة وأخذوني إلى كابوَا". وكادَ يُحِسُّ السِّمَةَ التي وسموها بالنَّار داخِلَ عَقِبه في ذلك المكان الفاسد. فاستحالت البيرة حامِضةً في فمه. ودحرَجَ القرنَ الفارِغَ مُكشِّرًا بينَ يدَيه. "حاربتُ في روما، ثمَّ في أفسُس. وكسَبتُ حُرِّيَّتي هُناك".

قالت أنوميا: "إنَّها شهادةٌ لقوَّة طِيواز أنَّك ما زلتَ حيًّا".

فضَحِكَ أتريتِس ضِحكةَ سُخريَةٍ باردة. "هجَرَني طِيواز قبلَ زمَنٍ طويل من وصولي إلى كابوَا. كلُّ ما يُقدِّمُه إلهُكم هو الموت".

فقالت فرايجا: "أتريتِس!" وقد أذهلَها أن يتكلَّم هكذا ويتحدَّى القُوَّاتِ التي آزَرَت حتَّى وجودَ قبيلتهم.

"أقولُ الحقَّ، أُمِّي. إنَّ طِيواز عديمُ القُدرة مُقارَنةً بيسوع المسيح، ابنِ الله الحيِّ. في وسع طِيواز أن يقتل. أمَّا المسيح فيُقيمُ الأموات". ثمَّ نظَرَ إلى ثيوفيلُس بعينَين مُضطرِمتَين تأثُّرًا بالغًا. "أخبِرهُم!"

قالت أنوميا: "لا تُخبِرنا بأيِّ شيء، يا رومانيُّ". وذلك بصَوتٍ أضفَتِ السُّلطة علَيه بُرودةً.

فرمَقَها أتريتِس ثانيةً بنظرةٍ شُكوكيَّة. واحمرَّ وجهُه غضبًا. مَن كانت هذه الفتاة لِتتكلَّمَ هكذا في بيتِه؟ "سيتكلَّم ثيوفيلُس، وأنتِ ستُصغين أو تنصرِفين".

فقالَت برِقَّة، في سيطرة تامَّة: "لم تعُد زعيمَ الشَّطِّي، أتريتِس. فأنتَ لا تأمُرُ بَعد".

نهَضَ أتريتِس على مهل. فاكتفَت أنوميا بالابتسام، وقد بدَت مسرورةً تقريبًا برؤيةِ غضَبِه أكثرَ اضطِرامًا.

وقالت فرايجا: "أنتِ في بيتي، أنوميا".

فأدارت أنوميا رأسها. "أتُريدين منِّي أن أنصرِف؟"

كان ذلك سؤالًا هادئًا، منطوقًا به بمُفاجأةٍ مُصطنَعة، ولكنَّ رِصفة أحسَّتِ الجوَّ يبرُد. لقد لَمَستِ التَّحدِّيَ الخبيث.

أتلعَت فرايجا ذقنَها بمهابةٍ رصينة. "إنَّه ابني". ووضعَت يدها على القِلادة التي ترتديها، مُواجِهةً نظرةَ أنوميا الباردةَ بجِدَّةٍ مدروسة.

أطرقَت أنوميا رأسَها. "هوَ كذلك". وقامَت بلباقة عن الكُرسيِّ الشَّبيه بالعَرش. "كما تشائين، فرايجا". ونظرَت إلى أتريتِس ثانيةً، مُلاحِظةً برِضًى طريقةَ انزلاق حَملقَته على جسَدِها نزولًا ثُمَّ صعودًا. لقد كان رجُلًا ذا أهواءٍ دُنيويَّة، ويمكن استِخدامُ تلك الأهواء لتَعكيرِ تفكيره وخدمةِ أغراضها. فابتسمَت له.

راقبَها أتريتِس مُنصرِفةً. وأثارَ تَمايُلُ وَرِكَيها أفكارًا شهوانيَّة وابتعَثَ ذِكرياتٍ قويَّة عن أوقاتٍ مع النِّساء في زَنزانة اللُّودُس الحجريَّة الباردة. فتجهَّمَ مُنزعِجًا، ثمَّ دارَ وجلَس من جديد. وكان ڤارُس يُحدِّقُ وراءَ أنوميا بعينَين جائعتَين، وقد لبِثَت حَملقَتُه على الباب الذي أغلقَته خلفَها.

قال أتريتِس بجَفاف: "أليسَت أصغَرَ قليلًا من أن تكونَ كاهِنة؟"

فنظرَت إليه أُمُّه بتحذيرِ واهٍ. "لقد اختارَها طِيواز في طفولتها".

"أهيَ رائية؟"

"لم تختبِر رؤًى كما اختبرتُ أنا. مَواهِبُها تكمُنُ في الشَّعوَذة وفنون السِّحر الأسوَد. أدَّ لها احترامًا، أتريتِس. لديها قُدرةٌ عظيمة".

قالت مارتا: "يجبُ عليك ألَّا تتحدَّاها". وكانَ واضحًا أنَّها مُرتعِبة من المرأةِ الأصغَر سنًّا.

فقال أتريتِس بازدراء: "ليست لديها قُدرةُ الله".

قال ڤارُس: "لدَيها قُدرةُ طِيواز!" وكانت عواطِفُه ما تزالُ تجيش.

وقالت فرايجا- طاوِيةً يدَيها الرقيقتَين بارتخاءٍ في حضنها- "قَومُنا يوقِّرونَها كإلاهة".

فنَخَرَ أتريتِس: "إلاهة! أتُريدون أن تسمعوا عن القُدرة؟ قتَلَ رِصفة مُحارِبو المتياتْشي. أنا شاهدتُها تموت، أُمِّي. بعَينَي رأسي". ورأى شُكوكَهُم، بل أحسَّها. "إذا كان من شيءٍ بعينه رأيتُه بكثرة في السنين الإحدى عشرة الأخيرة، فهو الموت". وأشار إلى ثيوفيلُس. "هذا الرجُل وضَعَ يدَيه عليها وصلَّى بِاسْم يسوعَ المسيح. وأنا شاهدتُها تُوقَظُ من الموت. لقدِ التأمَ الجُرح. أُقسِمُ بسيفي إنَّها الحقيقة! لا شيءَ ممَّا رأيتُه يومًا في البُستان المُقَدَّس يُضاهي يسوعَ المسيح. حتَّى إنَّ أيَّ شيءٍ من ذلك لا يُدانيه!"

حدَّقَت فرايجا إلى ابنها، وقد غمَرَها القلَقُ والتَّوتُّر. أيُّ شيءٍ في هذا الاسم، يسوع،

جعَلَ أحشاءها ترتعِش؟ "هنالك آلِهةٌ كثيرون، أتريتِس، ولكنَّ طِيواز هو الإله الحقيقيُّ الوحيدُ لشعبنا، وهو كذلك كلَّ حين".

"ماذا جلَبَ طِيواز على الشَّطِّي سوى الموت والهَلاك؟"

شهَقَت مارتا، وقدِ اتَّسعَت عيناها خوفًا. حتَّى أُصيبِي انكمَشَ. وقدَحَت عينا ڤارُس شرَرًا.

قالت فرايجا: "لا ينبغي أن تتكلَّم هكذا. إنَّك تُثيرُ استياءَ إلهِنا".

"فلَيَستَأ!"

وقال ثيوفيلُس برِقَّة: "أتريتِس".

تجاهَلَ أتريتِس مناشدَته أن يسكُتَ، مُصرِّفًا غضبَه الجائش. "أينَ كان طِيواز لمَّا صرَخَ إليه قَومُنا في المعركة ضِدَّ الهِرمُندوري؟ في زمانِ أبيكِ، أُمِّي، هل فازَ الشَّطِّي في المعركة لأجل النَّهر وسَهلِ المِلح؟ لا! لقد سفَكَ الهِرمُندوري دِماءنا. وكادوا يُفنونَنا، حسبَ تَنبُّئِكِ أنتِ. أينَ كان طِيواز عندَئذٍ؟ أيَّ قُدرةٍ أبدى؟ أينَ كانَ هذا الإله العظيم لمَّا حاربنا، أبي وأنا، ضِدَّ روما؟ هل أحرَزَ هو أو دُلغا أو رُلف أو مئةٌ آخرونَ النَّصرَ على العدوِّ؟ لا! لقد حاربوا ببسالة وماتوا فيما هُم يصرخون باسْمِ طِيواز. وأنا قُيِّدتُ بالسَّلاسل".

قال ڤارُس: "كفى!"

تجاهَلَ أتريتِس أخاه، وتثبَّتَت حَملقَتُه على أُمِّه. وقد كان وجهُها شاحِبًا تمامًا. فهدأ أتريتِس، نادمًا على فظاظته، إلَّا أنَّه أبى أن يُسكَت. "آمنتُ به، أُمِّي، كنتُ تلميذَه. أنتِ تعرِفين تكَرُّسي. لقد سالَ دمي من أجله وشرِبتُ الدَّمَ من القرن المقدَّس. لقد ضحَّيتُ. قتلتُ من أجله وناديتُ باسْمِه عاليًا في كلِّ معركةٍ خُضتُها من جِرمانيا إلى رُوما إلى أفسُس. وكلُّ ما عرَفتُه على الإطلاق هو الموتُ والهلاك. حتَّى سبعةِ أيَّامٍ مضَت".

وقفَ ڤارُس. "أنت هُنا وحيٌّ بقُدرةِ طِيواز!"

فنظرَ أتريتِس إليه. "ليسَ بسَبَب طِيواز، أخي. إنَّ يسوعَ المسيح أبقاني حيًّا لكي أتمكَّنَ من الرُّجوع إلى الدِّيار مع هذا الرَّجُل وهذه المرأة ومن إبلاغِكُم الحقَّ!"

واحمرَّ وجهُ ڤارُس: "أيُّ حقٍّ؟ الحقُّ الذي ألقَمَك إيَّاه هذا الرُّومانيُّ؟"

فقال بنَبرةٍ خَطِرة: "أنت تشكُّ في كلامي؟"

وما زال ڤارُس يَغلي مُسخَطًا بشِدَّة من الطريقة التي بها رَنَت أنوميا إلى أخيه. "أنتَ غبيٌّ إذا صدَّقتَ أيَّ شيءٍ ممَّا يقولُه هذا الرُّومانيُّ!"

قالت فرايجا: ''كفى!''

وقامَ أتريتِس.

فتشبَّثت فرايجا بذراعه. ''أتريتِس، رجاءً! ليست هذه هي الطريقة''. فنفَضَ يدَها عنه وخطا إلى الأمام.

ووقفَت فرايجا بينَ ابنَيها. ''قلتُ كفى! كفاكُما هذا!'' ومدَّت يدَيها. ''اقعُدا!''

فقعَدَ الرَّجُلان على مهل، مُحدِّقَين أحَدُهما إلى الآخر.

''لقد بقيَ أتريتِس غائبًا إحدى عشرةَ سنةً، ڤارُس. لن نَتشاجَرَ في أوَّل ليلة بعدَ رُجوعه''.

''سيجلبُ علينا لعنةً بكلامه عن هُجرانِ طيواز!''

فرمقَت أتريتِس بنِظرةِ كَرْبٍ وتوسُّل، قائلةً: ''إذًا، لن نتكلَّم بعدُ عن الآلِهة هذا المساءَ''.

أرادَ أتريتِس أن يُقنِعَهم، والتفتَ إلى ثيوفيلُس طلَبًا للمُساعدة. فهزَّ ثيوفيلُس رأسَه ببُطء. وإذِ انزعجَ أتريتِس وشعَرَ بالخذلان، التفتَ إلى رِصفة، مُتوقِّعًا منها تشجيعًا. فإذا هي حانيةُ الرأس، مُغمِضةُ العينَين. وأغضبَهُ سكوتُهما. أمَا وجَبَ أن يكونا مُعلِنَينِ اسمَ يسوع المسيح؟ ألَم يفعلا ذلك لحظةَ وصولهم جميعًا؟ فلماذا كانا ساكتَين الآن؟ لماذا لم يكونا مُنادِيَين بالحقِّ لكي يسمعَه ڤارُس؟''

قالَت أُمُّه مُتوسِّلةً إليه: ''رجاءً، لا مزيدَ من الشِّجار الليلة''. لقد انتظرَت سنينَ كثيرةً لترى ابنَها ثانيةً، مُتوقِّعةً أن يليَ السَّلامُ؛ وفي غضون ساعةٍ بعد وصوله إلى الدِّيار باتت عائلتُها في حَربٍ داخِلَها. ونظرَت إلى رِصفة، الجميلة والدَّاكنة. ماذا عن الرُّؤى طَوال تلكَ السِّنينَ المُنصرِمَةِ؟ هل كانت مُخطئةً؟

قال أتريتِس: ''كما تشائين''. وأطبقَ فمَه. وأومأ بنفادِ صَبرٍ لواحدٍ من العبيد كي يملأ القرنَ من جديد. ولمَّا مُلِئَ، أمسكه بينَ يدَيه كِلَتيهما. ثُمَّ زفَرَ نفَسَه والتفتَ إلى أخيه. ''أأنتَ الزَّعيم؟''

التوى فَمُ ڤارُس بسُخرية. ''برِجلي العرجاء؟'' وأطلقَ ضِحكةً خشِنة، ثمَّ نظَرَ إلى ثيوفيلُس. ''لدَيَّ روما أشكُرُها على ذلك''. ورأى أتريتِس حِقدًا قاتمًا وشديدًا كما كان حِقدُه هوَ كلَّ حين.

ولمَّا لم يُدلِ ڤارُس طوعًا بأيَّة معلومة إضافيَّة، قالَ أُصيبي: ''رُد هو القائد. وهُلت نائبُ الزعيم''.

قالَ أتريتِس: ''هُما رجُلانِ صالِحان''. ومع أنَّهما أكبرُ منه سنًّا، فقد كانا مُوالِيَين له في

الماضي. ''لم أرَهُما في الخارج''.

فقالَ أُصيبي: ''لقد غادرا منذُ بضعةِ أيَّام لِلقاء زعيمَي البرُكتيري والبَتاڤي''. وقد ذكَرَ قبيلتَين تحالفَتا مع الشَّطِّي ضدَّ روما.

وقال أتريتِس: ''عِصيانٌ آخر؟''

فقال أُصيبي: ''أحرَقَ الرُّومانيُّون قريتَنا السَّنةَ الماضية''. وهمَّ بأن يقول المزيد، إلَّا أنَّ ڤارُس رماه بنظرة تهدئة. فشعَّثَ أُصيبي شعرَ ابنه ولاذَ بالصَّمت. وأصرَّ ڤارُس على الالتفات إلى أتريتِس ثُمَّ النَّظَر مُباشرةً إلى ثيوفيلُس قبلَما شرِبَ من قرنه. لن يتناقشوا في شؤون الشَّطِّي أمامَ رومانيٍّ.

علِمَ ثيوفيلُس من خبرة الماضي مع الجِرمان ما يكفي لرؤية حقيقة الأُمور. لقد كانت لدى أُولئك الرِّجال شجاعةٌ وفَخرٌ فاقا ما لديهم من فِطرةٍ سليمة. وقد افتقرَ دوميتيان إلى المجد العسكريِّ الذي تمتَّعَ به أبوه فَسبازيان، وهو الآن مَيْت، وأخوه تيطُس. فإنَّ دوميتيان اشتهى فُرصةً لإثباتِ ذاته. وإذا كان الشَّطِّي أغبياءَ كفايةً بحيثُ ينضمُّون إلى قبائلَ أخرى ويُباشِرون عِصيانًا على روما، يوفِّرون فُرصةً مؤاتيةً لدوميتيان. وأراد ثيوفيلُس أن يُحذِّرهم، إلَّا أنَّه ضبَطَ لِسانَه. فأيُّ شيءٍ يقولُه الآن ما كان إلَّا ليُثيرَ مزيدًا من الشُّكوك.

لقد جاء لأجل غايةٍ واحدة: أن يُقدِّمَ البِشارةَ بيسوعَ المسيح. وقبل أن يتمكَّنَ من تنبيه أتريتِس، كان الرَّجُل قد تطرَّقَ إلى الموضوع في الحال، مُعلِنًا المسيحَ بكُلِّ ما لدى مُحارِبٍ يضرب بسيفه من لباقةٍ ومحبَّة. فلا بُدَّ أن يستغرقَ تخطِّي الأذى الذي حصَلَ الليلة وقتًا طويلًا.

زلَّ كالِب من حِضنِ رِصفة ودرَجَ إلى ابنةِ عمٍّ لا تكبُره بكثير. وإذِ ارتمى بقوَّة أمامَ الفتاة الصَّغيرة ذات الضفائر الشَّقراء، رفرفَ بذِراعيه وأطلقَ زعقةً صاخِبة. فَضحِكَت مارتا.

حوَّلَت فرايجا الحديث إلى الأولاد، ثمَّ إلى شؤون الحياة الأكثرِ بساطةً. فاستغرقوا في تذكُّرِ أوقاتٍ أفضل، حاكينَ قِصصًا عن حداثةِ أتريتِس. وضاءلَ الضَّحِكُ التَّوتُّر. وقد أبقى العبيد قُرون ڤارُس وأتريتِس وأُصيبي ملآنةً. وحطَّ ثيوفيلُس قرنَهُ جانبًا. لقد كان يعلم جيِّدًا أنَّ الجِرمانيِّين يحبُّون بِيرتَهُم ومِيدَهُم. وقد قالَ له مرَّةً قائدُ مئةٍ زميلٌ إنَّ بعض القبائل لم يكونوا يتباحثون إلَّا بعد أن يسكروا كثيرًا بحيثُ لا يعودون قادرين على التَّظاهُر، ولكنَّهم كانوا يُبقون اتِّخاذَ القرارات إلى وقتٍ يكونون فيه صاحين.

أحسَّت رِصفة فرايجا مُتفحِّصةً إيَّاها، فابتسمَت لِحَماتها. ورغمَ أنَّ المرأة كانت كاهِنةً

عُليا لإلهٍ وثنيٍّ، فلم تشعر برِصفة بالهواجِس التي خالجَتها لمَّا شامَت أنوميا. إنَّها لم ترَ عدوَّةً لمَّا نظرَت إلى أمِّ أتريتِس، بل رأت بالأحرى امرأةً ضلَّلَها خَصمٌ ماكِر.

أيُّها الربُّ، إلهَ الرَّحمة، أعِنَّا لِنَفتحَ عينَيها!

قال أُصيبي: "الشَّمسُ تُشرِقُ باكرًا. انتهى الحَرقُ وعندَنا حقولٌ نفلَحُها". وعانقَ أتريتِس، ثمَّ قال له بهدوءٍ، وكلامُه مُفعَمٌ بالمعنى المخبوء: "نحنُ نحتاج إليك. سنُحارِبُ كما حاربْنا في أيَّام هِرمُن". وجمعَت مارتا الأولاد، مع أنَّهُم لم يُريدوا أن يتركوا كالِب. وقبَّلَت أتريتِس سامِحةً له أن يضمَّها لحظةً، ثُمَّ لحِقَت بزوجِها مُغادرةً البيت المُستطيل.

وقام ڤارُس أيضًا، مُتوكِّئًا على العصا، وتوجَّه إلى بَنكِ نَوم. "ليَنَم الرُّومانيُّ في مَربِط".

استاءَ أتريتِس، لكنْ بعدَ فَواتِ الأوان. وتهالكَ ڤارُس مُتثاقِلًا على بَنكِ مَنامته، واستلقى. فغطَّته فرايجا ببَطَّانيَّة. ثُمَّ قالت لثيوفيلُس: "لكَ أن تنامَ هُناك"، مُومئةً برأسها نحو زاوية بعيدة.

"لا بأسَ في مَربِط، سيِّدتي". وشالَ حُزمتَه فطرحها على كتِفه. ثُمَّ فتَحَ دفعًا البَّوابةَ التي تفصل مأوى الحيوانات عن مسكن العائلة، ودخَلَ الرِّواق.

راقبَته فرايجا يُغلِقُ البوَّابة ويُقفِلُها بالمِزلاج. فأدهشَها تصرُّفُه اللطيف. ونظَرَ إليها قبلَ أن يُشيحَ وجهَه. لم يكُن في نظرته أيُّ تهديد، ولكنَّها شعرَت بيقينٍ مُفاجئ بأنَّ هذا الرَّجُل سيقلب حياتَها من الداخل إلى الخارج.

لم تُحوِّلْ نظرَها حتَّى دخَلَ ثيوفيلُس مَربِطًا خلفيًّا: "صديقُك الرُّومانيُّ يمشي مِشيةَ جُنديٍّ".

نظرَ أتريتِس إليها، ولكنَّه لم يقُل شيئًا. فإنَّ إخبارَ أُمِّه بأنَّ ثيوفيلُس كان قائدَ مئةٍ وصديقًا شخصيًّا للإمبراطور تيطُس حتَّى أشهُرٍ قليلة مضت لا بدَّ أن يجعل وضعًا قاتمًا في الأصل مُميتًا.

أوى الجميعُ لينامُوا اللَّيل. وسقسَقَتِ الصرَّاراتُ. وركضَتِ الفئرانُ في التِّبن.

اشتعلَت النار مُنخفِضةً، باعثةً نورًا خفيفًا خافقًا. واستلقى أتريتِس وقتًا طويلًا، محدِّقًا إلى السَّقفِ ذي العوارِضِ فوقَه، مراقِبًا الظِّلالَ تتراقص كما كان يُراقِبُها وهو صبيٌّ. وكانَ قد تصوَّرَ آنذاك أنَّها أرواحٌ أرسلَها طِيواز لتحرسَه.

تنشَّقَ رائحةَ التُّرابِ والقشِّ والزِّبل ورَمادِ الخشَب. والتصقَت رِصفة به التصاقًا أقرب، وجِسمُها مُقوَّسٌ داخِلَ جانِبه. فدارَ وتناولَ قبضةً من شعرها وتنشَّقَ عبيرَها. فتحرَّكت لمَّا لمَسَها،

وعلِمَ أنَّها كانت مُستيقِظة. وفيما هو يبتسِم، نهَضَ قليلًا ودفَعَ كتِفَها إلى الوراء. "فيمَ تُفكِّرين؟"

قالت: "لم أستطع أن أنام".

"قولي لي ماذا يُقلِقُكِ".

"أنوميا. إنَّها جميلةٌ جدًّا".

كان قد نظَرَ إلى أنوميا أطوَلَ ممَّا ينبغي، وقد علِمَ ذلك. إنَّ عدَمَ النَّظر إليها كان مُستحيلًا، ومن الغَباوةِ إنكارُه الآن. فقال مُوافِقًا: "إنَّها جميلة".

"وهي تُشبِهُ آنيا".

"هيَ أجمَلُ من آنيا".

"أُوه!"

فأدارَ وجهَها نحوَه. "ومن الداخِل، هي شبيهةٌ بجوليا".

شكرَت رِصفة الله، وتقصَّصَت وجهَه في الظَّلام، مُتَمتِمةً: "أنا أُحِبُّك. أُحِبُّك كثيرًا جدًّا حتَّى لَيُخيَّلُ إليَّ أنِّي سأموتُ إذا فقدتُك".

فدسَّ ذِراعًا تحتها وجذبَها مُقرِّبًا إيَّاها إليه. ثمَّ قال برِقَّة: "إذًا، أغمِضي عينَيكِ واستريحي مُطمئنَّةً، لأنَّك لن تفقديني بتاتًا".

٣٤

استيقظَ ثيوفيلُس لدى دخولِ نورِ الفَجر عبْرَ شقٍّ ضيِّق في السَّقف. وكانَ أتريتِس ورِصفة ما يزالان نائمَين. فهزَّت كتِفَ أتريتِس مُوقِظةً إيَّاه. "سأكون خارجًا في الغابة، لأصلِّي".

جلسَ أتريتِس وفرَكَ وجهَه. وقد وجِعَه رأسُه من الإفراط في شُربِ البيرة، إلَّا أنَّه هزَّ رأسَه مُوافِقًا. "أمهِلينا دقيقةً، وسنذهبُ معكِ".

مشى ثيوفيلُس وأتريتِس ورِصفة، وكالِب على ذِراعَيها، خارجًا إلى الغابة، وصلَّوا معًا فيما الشَّمسُ تطلُع. كان الهواءُ مُنعِشًا، والنَّدى كثيفًا على العُشب. وفاجأ ثيوفيلُسُ أتريتِسَ بصلاته لأجل ڤارُس. "يُعطيكَ مَربِطًا قُربَ الخنازير، وتُصلِّي لأجله؟"

"صلَّيتُ لأجلك من يومِ لقائنا الأوَّل، أتريتِس، وكرِهتَني لا أقلَّ من كُرهِ أخيك لي. عندما ينظرُ ڤارُس إليَّ، يرى روما، تمامًا كما كنتُ تراها أنت".

"عندما يُهينُك، يُهينُني".

فالتوى فمُ ثيوفيلُس: "البطيءُ الغضَبِ أفضَلُ من الجبَّار، أتريتِس، ومالِكُ روحهِ أعظمُ من أيِّ مُحارِبٍ يستولي على مدينة. لقد خُضتَ شِجارًا مع أخيك البارِحة. فماذا ربِحتَ من ذلك؟"

"قلتُ له الحقَّ!"

"ضربتَه على رأسه بالإنجيل، وهو سمعَ ولم يفهم أيَّ شيءٍ منه".

فقال أتريتِس من بينِ أسنانه: "طَوالَ الوقتِ قعدتَ ساكتًا. لماذا؟"

قالَ ثيوفيلُس، بألطفِ ما أمكنَه: "كنتَ تقولُ أكثرَ ممَّا ينبغي. أصغِ إليَّ، يا صديقي. ضع كِبرياءك جانبًا، وإلَّا أوقعَتك في شرَكِ الخطيئة. إنَّ الغضَب هو عدوُّك الأسوأ. لقد نفعَكَ جيِّدًا في ساحة المُحارِبين، ولكنْ ليس هُنا. فعندما تستسلمُ له، تكونُ كمدينةٍ بِلا أسوار. إنَّ غضَبَ الإنسان لا يصنعُ بِرَّ الله".

"ماذا تُريدُ منِّي أن أفعل؟"

"ثبِّتْ عينَيك على يسوع، رئيس الإيمان ومُكمِّلِه. كُن غيورًا، لكنْ كُن صبورًا. فإنَّما المحبَّةُ هي التي جعلَت ربَّنا يتنازلُ عن عرشهِ السماويِّ ليمشيَ بيننا إنسانًا. والمحبَّةُ هي التي

أبقَته على الصَّليب وأقامته من بينِ الأموات. والمحبَّة هي التي ستربَحُ قومَكَ له".

"قَومي لا يفهمون المحبَّة. إنَّهم يفهمون القوَّة".

"ليس على الأرض أيَّةُ قوَّة تستطيع أن تغلِبَ محبَّةَ الله في المسيح يسوع".

زفَرَ أتريتِس ضِحكةَ سُخريَةٍ. "هذا من رجُلٍ استعمَلَ مرَّةً عقِبَ سيفهِ على جانبِ رأسي". ثُمَّ جلَسَ على زنْدِ شجرة، ودسَّ أصابِعَه في شعره خائبًا.

فقالَ ثيوفيلُس بابتسامةٍ ساخرة: "أنا لستُ كاملا". وجلس القُرفُصاء. وإذ لاحظَ كُوزَ صَنوبَر، التقطَه. فسقطَت في يده بِضعُ حبَّاتِ صَنوبَر. "سأُعطيكَ كلامًا قالَهُ الربُّ يسوع". ثُمَّ رمى كُوزَ الصَّنوبَر بعيدًا، وحمَلَ الحبَّاتِ في كفِّه.

"هُوذَا الزَّارِعُ قد خرجَ ليزرَع. وبينَما هو يزرع، سقَطَ بعضُ البِذارِ على المَمَرَّات، فجاءت الطُّيورُ والتهمَته. وسقَطَ غيرُه على الأرض المُحجِرة، حيث لم تكُن له تُربةٌ عميقة، فطلَعَ في الحال لأنَّ تُربَتَه ضَحلة. وبعدما أشرقَتِ الشَّمس، سفعَته. ولأنَّه كان بِلا جُذور عميقة، يَبِس. وسقطَ قِسمٌ آخَرُ من البِذار بين الشَّوك، فطلَعَ الشَّوكُ وخنَقَه، ولم يُعطِ ثمرًا. وسقطَت بُذورٌ أُخرى في التُّربة الجيِّدة؛ وإذ نمَت وكبرَت، أعطَت غلَّةً وأنتجَت ثلاثين ضِعفًا، وستِّين، ومئة".

ثُمَّ نثَرَ حبَّاتِ الصَّنوبَر. "أنت وأنا ورِصفة سنزرَعُ كلِمةَ الله بينَ بَني قومِك". وإذ نفَّضَ يدَيه، وقفَ. "أمَّا أن يتأصَّلَ البِذارُ وينمو أم لا فلا يعتمد علينا، أتريتِس. إنَّه بيَدِ الربِّ".

كان ڤارُس وفرايجا واقِفَينِ أمامَ البيت المُستطيل لمَّا رجَعُوا. وما إن رأتهُم فرايجا، حتَّى تحوَّلَت عبسَتُها القلِقة إلى فرَج. وبسَطَت يدَيها لأتريتِس حالَما اقترَب. "استيقظتُ، فإذا أنتم غائبون".

فأمسَكَ يدَيها، وانحنى مُقبِّلًا كِلتَيهما. "نحنُ نُصلِّي كلَّ صباح عندَ بداية اليوم".

"باكرًا جدًّا هكذا؟"

تخطَّاها أتريتِس بنَظَرِه إلى ڤارُس، فوجده مُتَجَهِّمًا ومُنكفئًا. فأفلتَ يدَي أُمِّه وتقدَّمَ إلى أخيه. "لقد وثِقتَ بي في ما مضى، ڤارُس. تبِعتَني في المعارك. حاربتَ إلى جانبي. ما من أخٍ يومًا أبدى شجاعةً فاقت شجاعتك". ومدَّ يدَه. "لا أُريدُ أيَّ عِداءٍ بينَنا".

فقال ڤارُس: "ولا أنا"، ماسِكًا اليدَ المُقدَّمة، حانًّا إلى الأيَّام القديمة، حينَ كانا يضحكان ويسكران معًا. لقد مرَّت إحدى عشرةَ سنةً، وها قد رجَعَ أخوه أخيرًا...مُصطحِبًا زوجةً أجنبيَّةً داكِنةَ البَشَرة وابنًا، ورومانيًّا يدعوه صديقَه، وإلهًا جديدًا. فكيف أمكنَه أن يعتقد أنَّ

الأُمور ستبقى كما كانت؟

"المواشي ينبغي أن تُرعى". وقد خطَرَ في بالِ ڤارُس أنَّ الأرضَ التي يتعهَّدُها الآن ستؤول إلى أخيه أيضًا، فغمَرَهُ الاستياءُ والغَيرة.

"في وسع ثيوفيلُس أن يُساعِدَنا".

"أبقِهِ بعيدًا عنِّي، وإلَّا فقَسَمًا بطِيواز إنِّي سأقتلُه".

وإذ دارَ ليمضي، انطلَقَ أتريتِس وراءه. فأمسكَ ثيوفيلُس بذراعه. "دَعه وشأنَه. لم يكُن منذُ أيَّامٍ كثيرة مضَت أنَّكَ شعرتَ مِثلَ شعوره".

أبعَدَ أتريتِس ذِراعَهُ نَترًا، ولكنَّه زفَرَ نفَسَه على مهل، كاظمًا غضبَه. كان ثيوفيلُس على حقٍّ. الصَّبر...ينبغي له أن يكون صبورًا.

"سيستغرقُ الأمرُ وقتًا لأُحرِزَ مكانًا بينَ بَني قومك".

حدَّقت فرايجا إلى ثيوفيلُس مرعوبةً: "مكانًا؟" والتفتَت حالًا إلى ابنها مُتوسِّلةً. "لا يمكن أن تقصدَ السَّماحَ له بالإقامة بيننا. ليسَ بعدَ كلِّ ما جرى على يدَي روما".

وإذ رأى أتريتِس أنَّ أُمَّه أيضًا كانت تُقاوِمُه، قالَ زامًّا شفتَيه: "ثيوفيلُس هُنا تلبيةً لدعوتي، أُمَّاه. بصفتِهِ أخًا، لا رومانيًّا".

"أنا شاكرةٌ على إنقاذِه لحياتك، ولكنْ كان ينبغي أن يُوضِحَ ما جرى البارِحة أنَّ هذا الرُّومانيَّ ليس له مكانٌ بيننا".

"أتودِّينَ أن تُحارِبيني أنتِ أيضًا؟ إنَّه سيبقى".

"ماذا جرى لك؟ الرُّومانُ قتلوا أباك! إنَّهم قتلوا رُلف ودُلغا ونِصفَ قبيلتِنا. ما مِن شخصٍ واحدٍ بينَنا لم يُعانِ المآسيَ على يدَي روما! فهل تجرؤ على الإتيان بهذا الرَّجُل إلى هُنا ليُقيمَ له مسكِنًا بيننا؟"

"أجرؤ".

والتفتَت إلى ثيوفيلُس. "سوفَ يقتلونك".

فوافَقَ ثيوفيلُس برِقَّة: "سوفَ يُحاوِلون".

ورأت مَدهوشةً أنَّه ما كان يخاف الموتُ بتاتًا. "هل تعتقدُ أنَّ إلهَك هذا سيحميك؟ كلُّ رجُلٍ بين الشَّطِّي سيَتآمَرُ لقتلك".

"إذا مسَّهُ أيُّ شخص، فإيَّايَ سيُخاصِمون!"

"أنتَ ستُخاصِمُ الجميع إذا بقيَ! ستُضطَرُّ إلى مُناصِبةِ بني قومِكَ العِداء".

ولكنَّ أيًّا من الرَّجُلَين لم يتزحزحْ من جرَّاء تحذيرها. فإنَّ حنَكَ أتريتِس كان مُطبَقًا، والرُّومانيَّ نظَرَ إليها بحَنان. ولمَّا كانت تعرِفُ عِنادَ ابنِها، لجأت إلى ثيوفيلُس ابتِغاءً للمَنطِق. "أتريتِس يدعوك صديقًا. ماذا سيجري له إذا بقِيتَ؟"

"ستكونُ حالُه أسوأ إذا غادرتُ".

تضايقت فرايجا بشِدَّة من كلماته، لأنَّها أحسَّت قوًى جبَّارة تتحرَّك. "أيُّ سُلطةٍ لكَ على ابني؟"

"ولا سُلطة، سيِّدتي".

رُغمَ تطمينه، ساوَرَها الخوف. وأحسَّت وخزًا خفيفًا وبُرودةً تحذيريَّين إذ حلَّ عليها الرُّوح. ففكَّرَت يائسةً: ليس الآن، مُقاومةً إيَّاه. ليس الآن! وضاقت رؤيتُها وأظلمَت، فظهَرَت صُوَرٌ غائمة ومُتحرِّكة. فأنَّت: "لا!" فيما نفسُها آخِذةٌ في الكِفاحِ والضَّعف إذِ استولَت عليها القُوَّة. لقد رأت رِصفة جالسةً على أرض الغابة، تبكي وهي حامِلةٌ رجُلًا على ذِراعيها. ورأت دمًا.

فقال أتريتِس مُقشعِرًّا: "أُمَّاه!" كان قد رآها على تلك الحال قبلًا، وعلِمَ معنى ذلك. "ماذا ترَين؟"

وقالت رِصفة: "سيِّدةُ فرايجا"، خائفةً وراغِبةً في مُساعدتها.

فدفعَها أتريتِس إلى الوراء. "دعيها وشأنَها!"

"إنَّها مريضة".

"إنَّها ترى رؤيا. يجب ألَّا تلمسيها حين تكون هكذا".

كانت فرايجا تُقاتِلُ وتخسَرُ في مُواجَهةِ ما استولى عليها، كائنًا ما كان. وقد ارتعشَت أجفانُها وانقلبَت عيناها إلى الوراء فيما ارتجفَت بشِدَّة.

قال أتريتِس: "لم يحصل لها مِثلُ هذا قطُّ في ما مضى". وكان خائفًا أن يمسَّها لئلَّا يجلبَ عليها ما هو أسوأ.

تشبَّثَت فرايجا بالقِلادة فوقَ قلبها، مُرتاعةً، وأنَّت قائلةً: "الموت. أرى موتًا!" ولكنْ موتَ مَن؟ لم تستطِع أن ترى الرَّجُلَ المائتَ بوضوح. وازدادت حِدَّةُ الرُّؤيا بقوَّة مُروِّعة. لقد كان شخصٌ ما- أو شيءٌ ما- آخَرُ في الغابةِ معهم، شيءٌ قاتِمٌ وحاقد.

قالت رِصفة: "علينا أن نُساعِدَها". وقد جاشت روحُها من جرَّاء كَرْبِ المرأة.

شعرَ ثيوفيلُس بحُضورِ قوَّةٍ مُظلِمةٍ ما مُستوليةٍ على فرايجا. فتقدَّم إلى الأمام مدفوعًا، وقالَ بصوتٍ هادىءٍ حازم: "بِاسْمِ يسوعَ المسيح، اتركْها!"

انتهَت الرؤيا فجأةً بحيثُ شهقَت فرايجا. فارتخَت مُنحنيةً إلى الأمام، فاقِدةً الحِسَّ. وكان الرُّومانيُّ هو من أمسكَ بها وساندها. وقال لها بلُطف: "لا تخافي". فنفذ الدِّفءُ في أوصالها إذ مسَّها. وولَّتِ البُرودةُ من داخلها.

انكمشَت مُنقبِضةً منه، خائفةً. "لا تمسَّني. هذا محظور".

وإذ رأى أنَّ عينَيها عادتا صافيتَين ومُركَّزتَين، أرخاها. فتراجعَت عنه واسعةَ العينَين. وأرادَ أن يُطَمئنَها، إلَّا أنَّه علِمَ أنَّ أيَّ شيء ممَّا يسَعُه أن يقوله في هذه اللَّحظة لا يمكن أن يُسكِّنَ مخاوِفَها.

وقتٌ، يا ربُّ. يُعوِزُني الوقتُ وعَونُك إذا كان لي أن أبلُغَ هؤلاء القوم.

التفتَت فرايجا إلى ابنِها، وهي ما تزالُ ترتجِف، وأمسكت يدَه بينَ يدَيها. "سِرْ وسطَ قومِك، أتريتِس. عليك أن تعثُرَ على نفسك من جديد قبلَ فواتِ الأوان". ثمَّ أفلتَته وأسرعَت مُبتعِدةً.

شالتَ رِصفة كالِب فورًا وانطلقَت وراءها: "سيِّدتي".

فتشبَّث أتريتِس بذراعها، مُبقيًا إيَّاها بجانبه. "دعيها تذهب".

"ولكنَّها تبدو مريضةً، أتريتِس. لا ينبغي أن تكونَ وحدَها".

"لا يمكنكِ أن تتبعيها. إنَّها ذاهبةٌ إلى الغابة المُقدَّسة".

كانت أنوميا في الخارج تجمع الأعشابَ النافعة لمَّا رأت فرايجا ماشيةً على عجَل وسطَ الغابة. فضاقت عيناها، ونادَتها مُحيِّيةً: "أُمُّ فرايجا!" وقد شعرَت بالاستياء لأنَّ المرأة الأكبرَ سنًّا لم تتمهَّل ريثما تُناديها ثانيةً. كان واضحًا أنَّ فرايجا لم تُرِد أن يُزعِجَها أحَد، ولا حتَّى كاهنةٌ أُخرى. ولمَّا اقتربَت أنوميا، لاحظَت شحوبَ بَشَرةِ المرأة وسُباتَ عينَيها الزَّرقاوين. واستولَت علَيها الغَيرة إذ قرأتِ العلاماتِ الدَّالَّةَ على أنَّ الرُّوحَ قد حلَّ على فرايجا من جديد.

لماذا تنكرُني، طِيواز؟ هكذا صرخَت نفسُها بغضَب إذ حيَّت الكاهِنةَ الكُبرى بقُبلة. ثُمَّ قالتَ مُتظاهِرةً بالاهتمام: "يبدو أنَّكِ مُتضايِقة، سيِّدةُ فرايجا. لماذا؟"

قالت فرايجا، مُحترِسةً من المرأةِ الصُّغرى: "لقد رأيتُ رؤيا". ولم تكُن قطُّ قد وثِقَت بأنوميا. "يجب أن أكونَ وحدي".

"هل كشَفَ لكِ طِيواز المستقبلَ مُجدَّدًا؟"

"نعم".

"ماذا رأيتِ؟"

"رِصفة في الغابة، حاملةً رجُلًا مائتًا".

فقالَت أنوميا مُتوجِّسةً: "أتريتِس؟"

أجابت فرايجا مَخضوضةً: "لستُ أدري. لم يكُن الرجُلُ جليًّا، وكان معهُما شخصٌ ما أو شيءٌ ما سواهُما".

"قد يكشفُ لكِ طِيوازَ المزيدَ إذا ضحَّيتِ".

وضعَت فرايجا يدًا مُرتعِشةً على جبينها. ثمَّ قالت، والمَرَضُ بادٍ عليها: "لستُ على يقينٍ بأنّي أُريدُ أن أعرِفَ المزيد".

أخفَت أنوميا احتِقارها. في صِغَرِها، كانت تهابُ فرايجا، لأنَّها كانت مُختارةَ طِيواز. والآن، رأتها ضعيفةً وغبيَّة. إنَّ فرايجا لم تُرحِّب بالقُدرة التي حلَّت عليها. وهيَ لم تستعملِ السيطرةَ التي وفَّرَتها تلك القُدرةُ لها على الشَّطِّي.

كانت أربَعُ سنين قد مضت على آخِرِ مرَّة فيها امتلكَ الرُّوحُ فرايجا فتنبَّأت. آنذاكَ قالت إنَّ مركوبَص، زعيمَ الهِرمُندوري، ستقتلُه امرأة. وإنَّ موته سيجلب الفوضى وسفكَ الدَّم على نُوَّاب الزَّعيم فيما يُحاولُ كلٌّ منهم تسلُّمَ القيادة. وقدِ ابتهَجَ قَومُ الشَّطِّي برؤيا فرايجا. ولِماذا لا ينبغي أن يبتهجوا؟ لقد انتصرَ قومُ الهِرمُندوري عليهم في الماضي وسلبوهم سهلَ مِلحٍ على نَهر. غيرَ أنَّ فرايجا لم تبتهِج. لقدِ اختلَت في مكانٍ مُنعزل، مُتضايقةً من عُنفِ ما قد رأته. فرايجا الغبيَّة اللطيفة. وتساءلت أنوميا عن السبب الذي يجعلُ طِيواز يستخدم إناءً ضعيفًا كهذا فيما كانت هي نفسُها أكثرَ استحقاقًا بكثيرٍ جدًّا. كانت قد ضحَّت وصلَّت لِطِيواز كي يُنحِّيَ فرايجا جانبًا لأجل مصلحتها هي. وكانت قد حملَت القُرون المُقدَّسة ونطقَت بالنُّذور أمام الكاهِنِ غُندرِد! لقد سلَّمَت نفسَها لطِيواز. ومنذُئذٍ كسفَت قُدراتُها قُدراتِ المرأةِ الكُبرى، بل قُدراتِ غُندرِد أيضًا. فقد كان خائفًا منها، ومع أنَّ فرايجا لم تكُن كذلك فقد بدا أنَّ قُدراتِها تضاءلت، إذ لم تُوافِها رؤًى أُخرى.

بعدَ سنة، بدأت أنوميا تظنُّ أنَّ طِيواز قد نبَذَ فرايجا أخيرًا. وبعد أربعِ سنين، باتت مُتيقِّنةً بذلك. يقينًا أنَّ السَّيِّدَ الأسود قد اختارها الآن، لأنَّ قُدراتِها وجمالَها تضاعفَت في أثناء الصَّمت

الطَّويل تضاعُفًا عظيمًا. فإنَّ رجالَ الشَّطِّي كانوا ينظرون إليها برَهبة، أمَّا النِّساءُ فبِخوف.

ولكنِ الآن...تكلَّمَ طِيواز من جديد عبْرَ فرايجا!

لماذا؟ أرادت أن تزعق. لقد أعطيتُك نفسي! أتُعطيها الرُّؤى لكي تسخَرَ منِّي؟ هل تهزأ بتكرُّسي؟ لماذا تحلُّ على هذه المخلوقة البائسة المُثيرة للشَّفقة والتي لديها الوقاحةُ لتبدوَ مريضةً بعدَما بُورِكَت بامتلاكك إيَّاها؟ خُذني! سأكونُ ظافرةً! سأبتهِج بالأمرِ جدًّا! وحدي أنا مُستحقَّةٌ بين هؤلاء القوم الحُقَراء! لماذا تأبى أن تأخُذني؟

وبينَما ذِهنُها ثائرٌ في أثناء ذلك كلِّه، تبسَّمَت وتكلَّمَت برِقَّة. "استريحي، أُمُّ. سأهتمُّ بالخِدماتِ هذا المساء. لا داعيَ لأنْ تقلقي بشأنِ أيِّ شيء".

لقد طَنَّ ذِهنُها. كيف أثارَت استياءَ طِيواز حتَّى خانَها مع فرايجا؟ أمَا كرَّسَت نفسها لِتُضحِّيَ له وتخدمَه؟ أمَا أدَّتِ الشَّعائر تحتَ ضوء القمر؟ أمَا استعملَت سِحرَها لإخضاعِ الناس له؟ فلماذا ما زال طِيواز يتكلَّم عبْرَ هذه الضعيفة التي يُرثى لها؟

قالت فرايجا: "يجب أن أذهب". لقد أرادت أن تفِرَّ من أنوميا، إذ أحسَّتِ التَّيَّاراتِ الخفيَّةَ المُظلِمة المُدوِّمة حولَها. "سنتكلَّم في ما بعد". فتقوَّسَ حاجِبُ أنوميا قليلًا حِيالَ صَرفِها بهذه السُّرعة البالغة، ولكنَّ فرايجا كانت أشدَّ ذُهولًا من أن تُبالي. ومن ثَمَّ تركَتِ الكاهنةَ الصُّغرى واقفةً بين الأشجار، وقد شُحِبَت أصابِعُها على مَسكةِ سلَّتها.

عِلمَت فرايجا أنَّ أنوميا اشتهَت مكانتها التي كانت لها منذ زمنٍ طويل في قبيلة الشَّطِّي. وكثيرًا ما صلَّت طالِبةً أن يُعطيَ طِيواز أنوميا ما أرادته. أمَّا لنفسها، فما أرادت قطُّ أن يستوليَ عليها الرُّوحُ ويفتحَ عينَيها على الأُمور التي ستأتي. إذ لم يكُن لذلك قطُّ وَقعٌ مُريحٌ عليها. فكُلَّما حدَثَ ذلك، أحسَّت مزيدًا من ذاتها يُستنزَف.

أوَّلَ مرَّةٍ حلَّ عليها ذلك الإله، كانت فتاةً صغيرة. وقد كانت جالسةً في حِضن أُمِّها لمَّا تلاشى كلُّ شيءٍ حولَها وحلَّت محلَّه أُمورٌ أُخرى. لقد رأتِ امرأةً تُرزَقُ ولَدًا. لم تدُم الرؤيا إلَّا لحظةً، ولم تتكشَّف لها بأيَّة طريقة غير مُعتادة. ولمَّا انحسَرَت الرؤيا، كانت ما تزال جالِسةً في حضن أُمِّها قُبالةَ النَّار في البيت المُستطيل. وقد كان الجميع يتحدَّثون حَوالَيها. وكان أبوها يضحك ويشرَبُ مِيدًا مع أصدقائه.

قالت: "سوفَ تُرزَق سِلا طِفلا".

"ما هذا الذي تقولينه؟"

فقالت ثانيةً: "سوفَ تُرزَق سِلا طِفلا". وقد أحبَّتِ الأطفال. فالجميع يفرحون بهم عندما يولَدون. "إنَّ طِفلًا سوف يُسعِدُ سِلا، ألا يُسعِدُها؟"

وقالت أُمُّها بحُزن: "لقد رأيتِ حُلمًا، حبيبتي. لا بدَّ أن تَسعَدَ سِلا كثيرًا بأنْ تُرزَقَ طِفلًا، ولكنَّها عاقِر. لقد تزوَّجت بُوري منذُ خمسِ سنين".

"رأيتُها مرزوقةً طِفلا".

نظرَت أُمُّها عبْرَ المكان إلى أبيها، فخفَضَ قَرنَ شُربِه. "ماذا تقولُ فرايجا لكِ؟"

فقالت أُمُّها مُرتبِكةً: "قالت إنَّ سِلا سوف تُرزَقُ طِفلا".

وقال مُستبعِدًا الأمر: "فتاةٌ صغيرة حلَمَت حُلمًا".

لم يُفكِّر أحدٌ كثيرًا في الرؤيا. إنَّما فرايجا وحدَها عرفَت حقيقتها. فبحثت عن سِلا وأخبرَتها بما رأت. وبدا فقط أنَّ الحُلمَ ضاعَفَ حُزنَ المرأة، فتوقَّفت عن التحدُّثِ بشأن الطِّفل، وإن كانت استمرَّت في قضاء وقتٍ مع المرأة.

وفي خريف السنة التالية، حبِلَت سِلا، الأمرُ الذي أذهل كلَّ شخص في القبيلة. ثمَّ ولدَتِ ابنًا في أوائل الصيف. فعامَلَ الجميعُ فرايجا مُعاملةً مُختلِفة بعدَ ذلك. وعندما رأت رؤًى، سمِعُوا وصدَّقوا.

كانت الرؤى الباكرة جيِّدة. فقد وُلِدَ أطفال. وجرَت زيجات. وتحقَّق الانتِصار في معارِك. ولمَّا تنبَّأت بأنَّ هِرمُن، وهو لا يكبُرها إلَّا بسنتَين، سوفَ يكونُ الزَّعيمَ ذات يوم، كان أبوها وأُمُّها قد رتَّبا زواجَها منه. ولم يحدث إلَّا في ما بعد أنَّ الرُّؤى باتت قاتمةً ومُنذِرةً بالشَّرّ.

جاء آخِرُ بَشيرٍ بالخير في أعقابِ كارِثة. كانت روما قد بدَّدت التَّحالُفَ بين القبائل، ساحقةً العِصيان. وكان هِرمُن قد مات، وأتريتِس قد بات زعيمَ الشَّطِّي الجديد. فإنَّها رأت مُستقبل ابنِها. سوف يصير مشهورًا في روما. وسيُحارِب كما لم يُحارِب أيُّ شطِّيٍّ آخر، وسينتصِر على كلِّ عدوٍّ. وستأتي عاصفةٌ تهبُّ على الإمبراطوريَّة كلِّها وتُدمِّرُها. ستأتي من الشمال والشرق والغرب، وسيكونُ أتريتِس جُزءًا منها. وسوف تكونُ امرأةٌ، امرأةٌ ذاتُ شعرٍ داكن وعينَين داكنتَين، امرأةٌ غريبةُ السُّبُل سيُحِبُّها.

وكان لمَّا ظنَّ الجميعُ أنَّ أتريتِس قد مات أنَّها رأت رؤيا أُخرى تتنبَّأ برجوعه...وبأنَّه سيأتي بالسَّلام معه.

فالآن، كانت مُرتبِكة ومُشتَّتة. لقد تبيَّنَت فِعلًا حقيقةُ جُزءٍ من الرُّؤيا؛ إذ إنَّ أتريتِس أحرَزَ الشُّهرةَ في روما. فقد حارَبَ بصفة مُصارِعٍ مُقاتِل وانتصَرَ على كلِّ عدوٍّ لكي يكسِبَ حرِّيَّته ويرجِعَ إلى دياره. وقد أتى معه بامرأةٍ داكنةِ الشَّعر وداكنة العينَين، امرأةٍ ذاتِ مُعتقَدات غريبة، أحبَّها على نحوٍ واضِح.

أمَّا السَّلام؟ فأين كان السَّلامُ الذي كانت قد رأته حالًا لدى رجوعه؟ لقد جلَبَ التمرُّدَ والتجديف والغمَّ والهمَّ. ففي ليلةٍ واحدة انشقَّت عائلتُها أمامَ عينَيها. إلهٌ جديد؟ الإلهُ الوحيد؟ كيف أمكَن أن يقول أمورًا كهذه؟ كيف أمكن أن يُصدِّقها؟

ثُمَّ ماذا عن العاصفة التي ستهبُّ على الإمبراطوريَّة كلِّها وستُدمِّرُها؟

وصلَت فرايجا إلى البُستان المُقدَّس وجثت على رُكبتيها فوقَ أرضٍ مُقدَّسة. وإذ تشبَّثَت بالقِلادة، انحنَت ساجِدةً أمام الشجرة القديمة الحاملة للأبواقِ المُقدَّسة. "أنا غيرُ مُستحقَّة. أنا غيرُ مُستحقَّة امتِلاكك لي، طِيواز". ثُمَّ انطرحَت وبكَت.

وجدَت أنوميا غُندرِد في المُروج شرق الغابة المُقدَّسة. كان يقتاد واحدةً من الأفراس البيضاء المُقدَّسة في دائرة، ويُكلِّمُها برِقَّة، ويُصغي بانتباه إلى أيِّ صَهيلٍ أو شخيرٍ تُصدِرُه.

سألَت أنوميا: "ماذا تقولُ لك؟" مُجفِّلةً غُندرِد. ففكَّ الحَبلَ عن رقَبَة الفرَس، مُتيحًا لنفسه وقتًا للتفكير قبلَ مُواجهة الكاهنة الشابَّة بجواب. وبالحقيقةِ أنَّه كان فقط يستمتع بالحيوان، مُفصِحًا له عن عواطفه. وإذ أجرى يدًا نزولًا على جَنب الفرس، ربَّتَ فخذَيها وأطلقَها تعدو بسُرعةٍ نحو الحِصانَين الأبيضَين الآخرَين اللذين كانا يَرتعيان تحتَ نورِ الشَّمس.

قال: "سيعودُ هُلت بخبَرٍ طيِّب". فمهما كان الخَبَرُ الذي سيأتي به هُلْت، يستطيعُ أن يُفسِّرَه ليُوافِقَ تصريحه، أكان عِصيانًا على رُوما أم مُهلةَ انتِظار.

فابتسمَت أنوميا ابتسامةً واهية، مُرتابةً. "رأتْ فرايجا رؤيا أُخرى".

"هل رأت؟" ورأى عيني أنوميا الزَّرقاوين تخفقان، فعلِمَ أنَّه كان ينبغي له أن يُخفيَ سُروره بالنَّبأ. "أين هي؟"

قالت: "إنَّها تُصلِّي أمامَ الرُّموز المقدَّسة، وتبكي". وتحوَّلَت لهجتُها لاذعةً.

"سأذهَب وأتكلَّم معها".

فاقتربَت إليه أكثر بحيثُ يُضطرُّ إلى الدَّوران حولها كي يُغادِر. "لماذا ما زالَ طِيواز يستخدمُها؟"

"عليكِ أن تسألي طِيواز".

"سألتُه! إنَّهُ لا يُعطيني أيَّ جواب. ماذا عن الأحصِنة المُقدسَّة؟ ماذا تقولُ لك، غُندرِد؟"

فقال: "إنَّ لكِ قُدرةً عظيمة". وقد علِمَ جيِّدًا ما أرادت أن تسمعه.

قالَت باستياءٍ سافر: "أُريدُ المزيد". ثُمَّ أضافت بحماسةٍ أقلَّ: "ليتسنَّى لي أن أخدمَ شعبَنا على نحوٍ أفضل".

علِمَ غُندرِد أنَّ أنوميا كذبَت. لقد كان يعلَمُ جيِّدًا أنَّها تاقت إلى القُدرة لأجل أغراضِها الخاصَّة، لا لأجل خدمة شعبها. فقال: "سوف يستخدِمُك طِيواز كما يشاء". وقد رجا في سرِّه أن يستمرَّ الإله في التكلُّمِ عبْرَ فرايجا التي تاقت إلى خيرِ شعبِها، لا إلى القُدرة لمصلحةِ ذاتها.

وشاهدَته أنوميا يمشي مَّنصرِفًا، والعصا المنحوتةُ في يده. "رجَعَ أتريتِس البارِحة".

فالتفَت مُفاجأً، وقال: "أتريتِس؟ هو هُنا؟"

"ألم تقُلِ الفرَسُ المُقدَّسة لك ذلك؟" ومشَت نحوه بخُطًى مَوزونة. "جلَبَ معه رُومانيًّا وامرأةً داكِنةَ البشَرة يدعوها زوجتَه. وقد تكلَّمَ كِلاهُما عن إلهٍ آخر، إلهٍ أكثرَ قُدرةً من طِيواز".

"تدنيس!"

"هل من عَجَبٍ أن ترى فرايجا دمًا وموتًا في الغابة؟"

"موتَ مَن؟"

"لم تقُل". وهزَّت كتِفَيها. "لا أعتقِدُ أنَّها تعلم. لم يكشف طِيواز لها إلَّا القليل عمَّا هو آتٍ".

لعلَّ الإله يكشفُ لها الآتيَ بكامله إذا قدَّمت له تضحِيةَ دَم. ونظرَت إلى الكاهن الشَّيخ فتمنَّت لو تستطيعُ أن تُقدِّمه. لقد كان دجَّالًا، يُشِّطُ جلودَ الأفراسِ المُقدَّسة بدلًا من أرواحها. ما رأى أيَّ شيء. ولا علِمَ أيَّ شيء!

فقال: "سأراه بعد أن أُكلِّمَ فرايجا". وغادرَها.

وجَدَ غُندرِد فرايجا ما تزالُ جاثيةً في الغابة.

قامَت فرايجا باحترام حالَما اقتربَ إليها. فأمسكت يدَيه وقبَّلَت كِلتَيهما توقيرًا لمَنصِبه بصفته كاهِنًا أعلى. وغمَرَ الدِّفءُ قلبَه حِيالَها. إنَّ فرايجا ما رفَّعَت نفسَها قطُّ فوقَ أيِّ شخص، وإن كان في وسعها أن تفعلَ ذلك بسُهولة. وقد وقَّرها الناسُ كإلاهةٍ في وسطهم. رُغمَ ذلك كانت هيَ مَن جلبَت له الهدايا أغلب الأحيان، بطَّانيَّةً صوفيَّة في الشتاء القارس، سُلطانيَّةً من حَبِّ الصَّنوبَرِ المُحمَّص، زِقَّ نبيذ، أعشابًا طبِّيَّة ومَراهِمَ مُسكِّنةً لمَّا وجِعَته عِظامُه.

أمَّا أنوميا فما أبدَت له توقيرًا قطُّ. وقد تلطَّفَت لتُبديَ له احترامًا لمَّا خدَمَ ذلك أغراضَها فحسْب.

قالَت فرايجا: ''لقد رأيتُ رؤيا أُخرى''، وعيناها حمراوان من البُكاء. وأخبرَته بكُلِّ شيء من حُلمِها المُوقِظ، كما أخبرَته برجوعِ ابنها.

فقال برصانة: ''أخبرَتني أنوميا بهذه الأُمور''.

''لم أستطِع أن أرى الرَّجُل بوضوح. ربَّما كان أتريتِس أو الرُّومانيَّ أو شخصًا آخر''.

''سنعرِف في حينه''.

''ولكنْ ماذا إذا كان ابني''.

فقال بلُطف: ''أليسَ لكِ إيمانٌ بنبوَّاتك، فرايجا؟ لقد رجَعَ أتريتِس وجلبَ المرأةَ معه، تمامًا كما قُلتِ إنَّه سيفعل. سوف يقتادُ شعبَنا إلى السَّلام''.

قالت برِقَّة: ''السَّلام''، توَّاقةً إليه بكُلِّ قلبها. ''وماذا عن الرُّومانيِّ الذي معه؟''

''ماذا يهمُّ رومانيٌّ واحد؟''

''أتريتِس يدعوه صديقًا. ابني يُناصِرُه ويُقسِمُ أن يحميَه. أنت تعلَم كيف هو ڤارُس. إنَّه مُلتزِمٌ حُسنَ الضِّيافة الآن، ولكنَّ غضبَه أعظَمُ من أن يدَعَ حُسنَ الضيافة يستمرُّ. كادَ ابناي يتضاربانِ البارحة. أنا خائفةٌ ممَّا سيأتي من هذا''.

''لن يأتيَ منه أيُّ شيءٍ مهمٍّ. لقد تشاجَرا. وأيُّ شبابٍ لا يتشاجرون؟ ثُمَّ إنَّهما تصالحا. سوف يقِفان معًا كما فعلا ذلك دائمًا''.

''أتريتِس يتكلَّم باسْمِ إلهٍ جديد''.

''إله جديد؟ مَن سيُصغي؟ إنَّ طِيواز كلِّيُّ القُدرة. كلُّ ما نعرِفُه هو سِيادتُه، فرايجا. السَّماءُ نفسُها ملكُ طِيوازُ''.

انقضَّت عليها الشُّكوك. لَمَّا انجذبَت في الرُّؤيا، تفوَّهَ الرُّومانيُّ بِاسْمِ يسوع المسيح فحسْب، وفرَّ من جسَدِها الرُّوحُ الذي كان طِيواز قد أحلَّهُ عليها. وفكَّرَت في إخبار غُندرِد بما جرى، إلَّا أنَّها لاذت بالصَّمت. لم تُرِد أن تكون سبَبَ موت أيِّ شخص، حتَّى لو كان رومانيًّا. وقد احتاجت لأنْ تُفكِّر. احتاجت لأنْ تُراقِبَ وتعتبِر. لقد كان أتريتِس مُرتبِطًا بهذا الرَّجُل، وما كانت لتفعلَ أيَّ شيء يُعرِّضُ للخطَر رجوعَ ابنها إلى مقامه الشَّرعيِّ زعيمًا للشَّطِّي. وقد صلَّت بحرارة طالبةً ألَّا يفعلَ أيَّ شيء يُبدِّدُ ثِقةَ الناس به.

وإذ رأى غُندرِد ضيقَها الشَّديد، أمسكَ يدَها وربَّتَها. "أنتِ تقلقينَ فوقَ الحدِّ بشأنِ هذا الرُّومانيِّ، فرايجا. إنَّه رجُلٌ واحدٌ ضِدَّ كثيرين. سوفَ يرحل".

"وإن لم يرحل؟"

"عندئذٍ سيموت".

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

٣٥

قبِلَ أتريتِس نصيحةَ أُمِّه، أمضى مُعظمَ وقته مُجدِّدًا الصَّداقاتِ مع أهل القرية. ورافقَه ثيوفيلُس، إلَّا أنَّه مُراعاةً لمشاعر الشَّطِّيِّين تشرَّبَ الأحاديثَ بصَمت دونَ أن يتكلَّم. وقدِ احتملَ القرويُّون حضوره لأجل أتريتِس، غير أنَّ عِداءهم وارتيابهم كانا ملموسَين لدى كِلَيهما. وتجاهَل ثيوفيلُس التعليقات اللاذعة الكثيرة على الرُّومان، وأعارَ هدوؤه أتريتِس قوَّةَ الإرادة للتغاضي عن الإهانات.

كان كثيرون من الشُّبَّان الأصغر سنًّا قد ذهبوا مع رود وهُلت للاجتماع بزعيمَي البرُكتيري والبتاڤي. وبقيَ أُولئك الأكبرُ أو الأصغر سنًّا من أن يُقاتِلوا. وقد تُرِكَت فِرقةٌ صغيرة من المُحارِبين حتَّى لا تبقى القرية بِلا حِماية. فإذا نشأ بَلاءٌ، يُبعَثُ بخبَر إلى الباقين. وكان أُصيبي توَّاقًا إلى التَّخلِّي عن مسؤوليَّاته القياديَّة في الحِراسة الأهليَّة، رُغمَ الهواجس التي ساوَرَت ڤارُس والرِّجالَ الثلاثة الذين رحَّبوا بأتريتِس عند قُدومِه.

قالَ أُصيبي- مُشجِّعًا أتريتِس على تولِّي مَنصِبه الشَّرعيِّ- "أنتَ زعيمُ الشَّطِّي بإعلانٍ من الشَّيء".

فرفَضَ أتريتِس، ولم يكُن أكثرَ من أُصيبي توقًا إلى الزَّعامة. وهو لم يُرِد أن يقبل مَنصِبَه القِياديَّ السابق بوصفه تحصيلَ حاصِلٍ. "ذلك كان قبلَ سنين. رود هو الزَّعيمُ الآن، وقد يكونُ له فِكرٌ مُخالِف". إنَّ إحدى عشرةَ سنةً كانت فترةَ غِيابٍ طويلَة، وما كانَ ليغتصِبَ حقَّ الرَّجُل الذي أبقى الشَّطِّي مُتماسِكين في أثناء أسرِه.

بينما آخرون قد يشتهون نُفوذَ الزَّعيم، لم يُرِد أتريتِس مسؤوليَّة القِيادة من جديد. لمَّا مات أبوه وألحَّ عليه المُحارِبون، أذعَنَ لمشيئتهم لأجل شعبه. ولم يقِف ضدَّه رجُلٌ واحد. أمَّا الآن، فأخوهُ الشَّقيقُ لن يقِفَ مَعه.

تساءل أتريتِس كيف أمكن، في غضونِ أسابيعَ قليلة، أن يشعُرَ بأنَّه أقربُ إلى الرُّومانيِّ ممَّا كان يومًا إلى عشيرته بعينها. فالرِّباطُ بينه وبين ثيوفيلُس باتَ أقوى كلَّ يوم. وأينما كانا، أو مهما كانا يفعلان، تكلَّمَ الرُّومانيُّ عن الرَّبِّ. كان أتريتِس قد طلبَ أن يعرِفَ كلَّ شيء، وكان ثيوفيلُس توَّاقًا إلى إبلاغهِ كلَّ ما عرَفَه. فكانت كلُّ لحظةٍ فُرصةً ثمينةً، وقدِ انتهزَها. وسواءٌ كانا قاعِدَين أو قائمين أو ماشيين، علَّمَه ثيوفيلُس آياتٍ من الكلمة المُقدَّسة، قارئًا أغلبَ الأحيان

من الدَّرْج الذي كان أغابُس قد نسَخَه على متن السَّفينة.

ادَّخرَت رِصفة كلَّ ما قاله ثيوفيلُس، مُتفكِّرةً في ذلك وهي بعيدةٌ عنه. وكان الوقت الذي أمضَوه معًا ثمينًا، لأنَّه كان ساكنًا وهادئًا. أمَّا في الأمكنة الأُخرى، فلم تكُن الأُمور كذلك.

استشاطَ ڤارُس غضبًا لمَّا طلبَ ثيوفيلُس أن يشتريَ قِطعةَ أرض يبني عليها بيتًا مُستطيلًا لنفسه. "سأراكَ مَيتًا قبلَ أن تتمكَّن يومًا من شراء قطعة من الأراضي الشَّطِّيَّة!"

فقال ثيوفيلُس: "لستُ أطلبُ أرضًا داخِلَ حدود القرية بل في ضواحيها". ولم يأتِ على ذِكر الوثيقة التي يمتلكها والتي تُخوِّلُه، بموجب القانون الرُّومانيِّ، حِيازةَ أيَّةِ قطعة أرضٍ حدوديَّة أرادها مُكافأةً على سِنيِ خدمته في الجيش. لقد أراد أن يكسِبَ احترامَ هؤلاء القوم، لا عداوتَهم الدائمة.

"الأرضُ الوحيدة التي يمكن أن أُعطيَك إيَّاها هي تلُّ الزِّبل".

ثارَ انفِعالُ أتريتِس فتدخَّلَ قبل أن يتمكَّن ثيوفيلُس من ردعه: "بحسَب قانوننا، تؤولُ إليَّ حِصَّةُ أبي الكاملةُ كوني الابنَ الأكبر!"

فانتَخعَ رأسُ ڤارُس صوبَه.

وقالت أُمُّه: "أتريتِس! لا يسَعُك أن تفعلَ هذا!"

"يسَعُني ذلك، وسأفعلُه. من جُملةِ حقوقي أن أسترجِعَ كلَّ شيء، مهما كان ڤارُس قد عمِلَ بجِدٍّ وكدٍّ لحِمايته. وهو يعلَمُ ذلك!"

وإذ رأى ثيوفيلُس الصَّدعَ الذي يمكن أن تُحدِثَه كلماتٌ قليلة بين الأخوَين، قال لأتريتِس: "لا تسترجِعْ أيَّ شيءٍ لأجلي. لديه سببٌ لعدم الوثوق بروما، وأنتَ ستزيدُ سببًا للأذى".

فقال أتريتِس ساخطًا: "لا تُدافِعْ عنه!"

وقال ثيوفيلُس بابتسامة ساخرة: "إنَّه لا يختلفُ في شيءٍ عنك لمَّا التقَينا أوَّلًا".

احمرَّ وجهُ ڤارُس. "لا أحتاجُ إلى دفاعٍ من خِنزير رومانيٍّ!" ثُمَّ وقَفَ وبصَقَ نحوَه.

خطا أتريتِس خطوةً وراءَ أخيه. فاعترَضَ ثيوفيلُس في طريقه، وقال هامِسًا: "فكِّر. فكِّر من موقِعِهِ قبلَ أن تقولَ كلِمةً أُخرى".

وردَّ ڤارُس صائحًا: "لقد غِبتَ عشرَ سنين. وطوالَ تلك المُدَّة، أبقيتُ ميراثَ أبي كلَّه محفوظًا. والآنَ ترجعُ وتحسَبُ أنَّ في وسعك أن تتخلَّى عنه لهذا الكلبِ الرُّومانيِّ وتتركَني بلا شيء!"

فهَمَّ أتريتِس بتخطّي ثيوفيلُس، ولكنَّ الرُّومانيَّ تشبَّثَ بذراعه. وعلى مسمعٍ من صديقه فقط، قال: "إنَّ غضبَكَ لن يُجريَ برَّ الله".

جاهدَ أتريتِس لتهدئة نفسه، مُطبِقًا أسنانَه بإحكام.

وإذ فعَلَ ذلك، وافاهُ التَّعقُّل. صحيحٌ أنَّ لدى ڤارُس سبَبًا للاستياء. لقد خسِرَ بمقدار ما خسِرَ هو نفسُه، وتمسَّكَ بما بقي. فلم يكُن في فِكرِ أتريتِس أن يحرِمَ أخاه جميعَ الأملاك، فقط لأنَّ له حقًّا في فَعْلِ ذلك، ومع ذلك علِمَ أنَّ كلامه تضمَّنَ ذلك تمامًا؛ إذ إنَّ غضبَه ما سبَّبَ إلَّا مزيدًا من النِّزاع بدلًا من إضفاء شيءٍ من شِبه المَنطِق على المُباحثة.

وما لبِثَ أن أبدى سخاءً مُتهوِّرًا، إذ قال: "إنِّي أقدِّمُ لكَ النِّصفَ الشَّرقيَّ هديَّة، ڤارُس، فضلًا عن المواشي كلِّها. وستكونُ حُصَّةُ ثيوفيلُس من نصفي. هل يُرضيكَ ذلك؟"

لاذَ ڤارُس بالصَّمتِ مشدوهًا.

وقالَت فرايجا، مشدوهةً بالمِثل: "أنتَ تُعطيه أخصبَ جُزءٍ من الأراضي الصالحة للزِّراعة".

وفيما أتريتِس مُنتظِرًا جوابَ أخيه الأصغر بَعد، قال مُوضِّحًا: "أعلَمُ ذلك. وفي النِّصف الشَّرقيِّ أيضًا أفضَلُ المراعي للمواشي. حسنًا؟ ماذا تقول؟"

تراجَعَ ڤارُس إلى الوراء خطوةً مُتقلقِلة. وقعَدَ مُجفِلًا يُحدِّقُ إلى أخيه كأنَّه لم يرَهُ قطُّ من قبل. نصفَ الأراضي والمواشيَ كلَّها؟ كان في وسع أتريتِس أن يأخذ كلَّ شيء، ولم يكُن أحَدٌ ليُجادِلَ في حقوقه بأن يفعلَ ذلك. بدلًا من ذلك، أعطاه أخوه أفضلَ ما في ميراثه. كان من جُملة حقوق أتريتِس ألَّا يُبقيَ له أيَّ شيء، مهما كان قد اشتغَلَ بكدح للحفاظ عليه. وبالحقيقة أنَّ ذلك كان ما توقَّع حصوله إذا رجَعَ أتريتِس يومًا، وواحدًا من الأسباب الأساسيَّة التي جعلته يتمنَّى ألَّا يرجِع.

وإذ صعَقَ فرايجا هذا التفكير، قالت: "لدَيكَ ابنٌ، أتريتِس. أكُنتَ لِتُعطيَ ميراثه لغريب؟" ماذا جرى لابنها؟ هل ألقى هذا الرُّومانيُّ رُقيةً عليه؟

وبُغيةَ تسكين مَخاوِفها المعقولة، قالَ ثيوفيلُس: "ستبقى الأرضُ مِلكًا له، سيِّدتي". وكان أتريتِس قد فاجأه أيضًا. ثمَّ أضافَ، ناظرًا إلى ڤارُس: "إذا كان الأمرُ يُريحُ خاطِرَ كِلَيكُما، أدفَعُ رَسمًا سنويًّا لِقاءَ استعمالها".

فتجهَّمَ ڤارُس، مُتسائلًا أين تكمنُ الحِيلة في كلام ثيوفيلُس. الرُّومان أخذوا؛ إنَّهم لم يُعطُوا.

لاحظَ ثيوفيلُس ارتيابَه، وفهِمَه. "ليست رغبتي أن آخُذَ أيَّ شيءٍ منك أو من قومك،

قارُس، بل أن أكسِبَ رِزقي في أثناء وجودي هُنا. أنا شاكرٌ على حُسنِ ضيافتِكُم، ولكنّي أعتقِد أنّك ستُوافِق على أنَّ وقتَ مُغادرتي قد حان".

أطلقَ قارُس ضِحكةً باردة، مُخفيًا كيف أقلقَته كلِماتُ الرُّومانيّ.

وتأمَّلَت فرايجا وجهَ ثيوفيلُس، لكنَّها لم ترَ أيَّةَ علامةِ احتِيال.

التوى فَمُ أتريتِس بسُخرية: "أتُوافِقُ على قِسمة الأراضي، أم تُفضِّلُ أن أراعيَ التقليد وآخُذَها كلَّها؟"

فقال قارُس: "أُوافِق".

وهزَّ أتريتِس رأسه لثيوفيلُس نَترًا: "تعال. سأُساعِدُك على اختيارِ حُصَّتِك".

لمَّا انتَقَيا موقِعًا مُناسِبًا لبيتِ ثيوفيلُس، أذعَنَ أتريتِس لفُضوله الشخصيّ. "ماذا ستفعل بالأرض؟ ليس لدَيك مَواشٍ. سيكونُ علينا أن نغزوَ قُطعانَ قبيلتَي التَّنكتيري والتشيروشي لنَحصُلَ لك على بضعة رؤوس".

كان ثيوفيلُس يعلم أنَّ السَّلب كان يُمارَسُ بين القبائل، ولكنْ لم تكُن له أيَّةُ نيَّةٌ لاعتمادِ العادة الجارية، أو لتشجيعِ أتريتِس على القِيام بذلك. "أنوي أن أزرعَ الحِنطة والفاصوليا".

فقالَ أتريتِس ضاحِكًا: "أنتَ، فلَّاح؟" لقد كان الأمرُ مُضحِكًا جدًّا.

وابتسمَ ثيوفيلُس غير مُثبَّطِ الهِمَّة. "سأُطرِّقُ سَيفي شَفرةَ مِحراث، ورُمحي مِنجَلا".

ورأى أتريتِس أنَّه عنى ما قاله. فقال بتجهُّم: "يحسُنُ بكَ أن تتأنَّى إذا فعلتَ ذلك أعجَلَ ممَّا ينبغي، فرُبَّما لا تعيشُ حتَّى تفلَحَ التُّربة".

كان أتريتِس يُساعِدُ ثيوفيلُس في قطع الشَّجر لبناء البيت المُستطيل لمَّا سَمِعا هُتافَ ابتِهاجٍ من القرية. لقد رجَعَ المُحارِبون.

أقحَمَ أتريتِس فأسَه في أصل شجرة، وتوجَّه صوبَ القرية. "ابقَ هُنا حتَّى أُرسِلَ في طَلَبك!" ثمَّ ركضَ وسطَ الغاباتِ وبين بيتَين طويلَين، فوصل إلى الشارع الرئيسيّ. وإذا بحَشدٍ من المُحاربين في حركة دائبة، يُحَيُّون الزَّوجاتِ والأولاد. وكان عددٌ قليلٌ فقط على ظُهورِ الأحصِنة.

صاحَ أتريتِس: "رُود!" حالَما رأى الرَّجُلَ الأكبرَ الذي كان صديق أبيه الأفضل.

فالتفت الرَّجُلُ الأشيَب بحدَّة فوق حِصانه. وإذ رفَعَ فراماهُ في الهواء، أطلقَ صيحةَ حَربٍ نَشوى، وركِبَ نحو أتريتِس، وزلَّ عن ظهرِ الحيوان في آخِرِ لحظة مُعانِقًا إيَّاه في عِناقٍ

ساحِقٍ للجِسم. "لقد رجَعتَ! طِيوازُ معنا!" ثمَّ عانقه ثانيةً، قارِعًا ظهرَه، فيما اندفَعَ الآخرون نحوَهما، مُطلِقينَ صَيحاتِ حَربٍ ومتكلِّمين كلُّهم في آنٍ معًا.

راقبَت رِصفة من باب البيت المُستطيل. أحاطَ الرِّجال بأتريتِس، مُطَبطِبين عليه ترحيبًا. وكان أتريتِس يضحك دافعًا بِضعةً منهم إلى الوراء، ومُترجِّحًا بمَرَحٍ نحوَ آخَرَ راوَغَه ثُمَّ عانقَه. كانوا رِجالًا صِلابًا ذوي مشاعِرَ عميقة، وكِبرياءَ أعمَقَ بَعد.

في الناحية المُقابِلة من الشارع، برَزت أنوميا من مسكنها. وبعدَ استِبعادِ رِصفة بنظرةٍ عابِرة، ركَّزَت حَملقَتها على المُحارِبين الرَّاجعين. وبرَقَت عيناها إذ رأت كيفَ تعبَّدوا لأتريتِس، مُصطخِبين حوله كصِبيانٍ شديدي التأثُّر في حضرة صنَمِهم الحيّ. أيَّةَ سُلطةٍ يُمكِنُه أن يحوزَ بها بَني قومه! وهي ستُعلِّمُه كيف يفعل ذلك.

لم يكُن الشَّطّي قد توقَّفوا قطُّ عن التحدُّث بشأنه. فعلى مدى السِّنين الماضية، بات أُسطورةً، وكانت مآثِرُه ضدَّ الرُّومان تُحكى بقُربِ المَواقِد وفي البيوت حول النِّيران الاحتِفاليَّة. كم سيكون سهلًا عليه أن ينتزع أزِمَّةَ السُّلطة من أيِّ شخصٍ يُحاوِلُ التمسُّك بها! وما كان رود ليفعل ذلك. فقد كان كبيرَ السِّنِّ ومُتعَبًا، رُغمَ كونه مُواليًا لها. وهوَ ما وافق على الاجتماع بقبيلتَي البتاڤي والپرُكتيري إلَّا لأنَّها هي أرادت ذلك، ولأنَّ المُحارِبين الأصغر سنًّا طالبوا به. ولا كانَ هُلت ليعترِضَ في طريق أتريتِس، لأنَّه كان قد أقسمَ منذ زمَنٍ بعيد على الولاء لابنِ هِرمُن.

كانت فتاةً ابنةَ اثنتَي عشرةَ لمَّا اختبأت في ظِلالِ الأشجار القاتمة وشاهدَت في البُستان المُقدَّس الشَّعائرَ التي جعلَت أتريتِس زعيمًا. وما زالت تتذكَّرُهُ رافعًا القُرونَ الذَّهبيَّة فوقَ رأسه، وجسدُه العاري يغمرُه ضوءُ النار. لقد بدا لها آنذاك مِثلَ إله، وما زال يبدو. وقريبًا ستقِفُ بجانبه.

لقد علِمَت دائمًا ما أرادت: أن تكونَ الكاهِنَة العُليا وزوجةَ زعيم الشَّطّي. ولو كانت أُختُها آنيا حيَّةً، لوقفَت في طريقِ مطامِحها. فقد اعتقدَت أنَّ موتَ أُختها كانَ بقَضاءٍ من طِيواز، مُفسِحًا لها في المجال لتكونَ مع أتريتِس.

لمَّا أخذَه الرُّومان، استولى عليها الاضطِرابُ والغضَب. لِماذا، يا تُرى، يسمح طِيواز بحُدوثِ أمرٍ كهذا؟ إنَّ فرايجا تنبَّأت برجوعه، وهي تشبَّثت بتلك النُّبوَّة، مُنتظِرةً تحقُّقَها، صابَّةً ذكاءها على حيازةِ مِلءِ قُدراتِها استعدادًا له. وقد فعلَت ذلك تمامًا على نحوٍ جُزئيٍّ، مع أنَّها ما تزالُ تتوقُ إلى المزيد. إنَّها هي وأتريتِس معًا سيجعلان الشَّطّي أقوى قبيلةٍ في

جِرمانيا. فسيثأرون من جميع أُولئك الذين فكَّروا أن يستعبدوهم. سيُبيدون الهِرمُندوري ويسترجعون النَّهر المقدَّس وسُهول المِلح. وسينتقمون من أجل النِّير الذي حاولت روما وضعَهُ على أعناقهم وفشِلَت. وحين يفعلون تلك الأُمور، تنضمُّ إليهم قبائلُ أُخرى، حتَّى تغدوَ جِرمانيا كلُّها مُندفِعةً جنوبًا إلى قلبِ الإمبراطوريَّة، إلى روما نفسها!

لن يقِفَ في طريقها أيُّ شيء، لا الرُّومانيُّ الذي دعاهُ أتريتِس صديقَه، ولا فرايجا، ولا أيُّ شخصٍ آخر...لا سيَّما تلك السَّاحِرةَ الإيونيَّة السَّوداءَ الشَّعرِ والعينين، الواقِفةَ في مدخَلِ الباب مُقابِلَها.

لأجلِ مجدِكَ، طِيواز، سآخُذُ أتريتِس منها! ومعًا، سنحكُمُ هو وأنا هؤلاءِ القومَ ونستخدِمُهم لأجلِ أغراضك.

وما إن صاحَ أحَدُهم: "اسألْه عنِ الرُّومانيِّ الذي أتى به معه!" حتَّى تضاءلَت جَلَبةُ التَّرحيب.

فقالَ هُلت للمُشتكي: "ما هذا الذي تقولُه، هَرِغاسْت؟ أيِّ رومانيٍّ؟"

نظَرَ أتريتِس إلى الرَّجُل الواقف عند الطَّرف الخارجيِّ من حلقة المُحارِبين. منذُ زمَنٍ بعيد، أُرغِمَ أتريتِس على إصدارِ حُكمٍ ضدَّ ابنِ هَرِغاسْت، واغَسْت. كان المُحارِبُ الشابُّ قد أسقطَ تُرسَه وهرَبَ من ساحةِ القِتال، وتلك جريمةٌ تستحقُّ الإعدام. وجاء تصويتُ الشَّيءِ إجماعيًّا، غيرَ تارِكٍ لأتريتِس أيَّ خِيارٍ سوى إصدارِ الأمر بإغراقِ واغَسْت في المُستنقَع. لقد شاخَ أبو الشابِّ كثيرًا في غضون إحدى عشرةَ سنة. ومع أنَّه ما زال نشيطًا، فقد كان شعرُه أبيض ووجهُه مُخدَّدًا بعُمق.

قال هَرِغاسْت: "لقد أخبرتني زوجتي توًّا". وألقى ذِراعَه حولَ المرأة الواقفة بقُربه في إشارَةِ حِمايةٍ، وعلى وجههِ سِيماءُ تحَدٍّ.

فالتفتَ رود إلى أتريتِس. "أصحيحٌ ما يقوله؟"

"نعم".

توتَّرَ وجهُ رود غضبًا. "نحن نعقدُ تحالُفًا ضدَّ روما، وأنت تأتي بواحِدٍ من الكِلابِ القَتَلة إلى وسطنا".

"إنَّه يأتي في سلام".

فقال مُحارِبٌ شابٌّ: "سلام!" وبصَقَ على الأرض بمِثلِ ما امتلكَ أتريتِس يومًا من

وقاحة وعنفوان.

وصاحَ آخر: "لا نُريدُ أيَّ سلامٍ مع روما! نُريد دِماءً!"

وتصايَحَ الرِّجالُ بغضَب.

"...حرقوا قريتَنا..."

"...قتلوا أبي..."

"...أخذوا زوجتي وابني عبدَين..."

أغمضَت رِصفة عينَيها وصلَّت فيما صاحَ بهم أتريتِس مُسكِتًا. "عندي أسبابٌ لبُغضِ روما بقدْر ما عندَكُم، بل أكثر! ولكنّي أقولُ لكُم هذا! لولا ثيوفيلُس، لكُنتُ مُقاتِلًا في إحدى ساحات المُحاربين، أو مُعلَّقًا على صليب كريه تسليةً لدوميتيان! ثلاثَ مرَّاتٍ أنقذَ الرَّجُل حياتي. وهو هداني طريقَ الرُّجوع إلى الدِّيار!"

"ما مِن رومانيٍّ يمكن الوثوقُ به!"

وصاحَ آخرون مُبدينَ موافقتَهُم.

"أين هو؟"

"لنأتِ به ونَرمِه في المُستنقع!"

"اجعلوهُ تضحيةً دمويَّة!"

وقالت زوجةُ هَرغاسْت تحديدًا: "الرُّومانيُّ يبني بيتًا مُستطيلًا وراء تلك البيوت المستطيلة تمامًا. إنَّه ينوي أن يُقيمَ مسكِنَه بيننا".

باشَرَ أحَدُ المُحارِبين السَّيرَ في ذلك الاتِّجاه. ولمَّا صدَّ أتريتِس سبيله، سدَّدَ ضربةً إليه. فانخفضَ أتريتِس وأقحمَ قبضتَه في صَدرِ المُحارِب، فأوقعه عن قدميه. وقبلَ أن يسقُطَ المُحارِبُ أرضًا، كان غلاديوسُ أتريتِس في يده على نَحرِ المُحارِبِ السَّاقط.

"ابقَ على الأرض، وإلَّا- قسَمًا- فلن تقومَ ثانيةً أبدًا".

وما لبِثَت الجَلَبةُ العظيمة أن همَدَت بسُرعةِ هُبوبِها.

تراجَعَ المُحارِبون قليلًا، مُحَملِقينَ فيما المُحارِبُ الشابُّ يلهَثُ لأخذِ نَفَس. وقال أتريتِس: "ستُصغونَ جميعًا!" مُحدِّقًا من عَلُ إلى الشابِّ الذي اتَّسعَت عيناه لمَّا أحسَّ السَّيفَ تحتَ حَنَكِه. نترة واحدة سريعة فيُقطَع وريدُه. ورفَعَ أتريتِس رأسَه كفايةً لينظُرَ من وجهٍ إلى وجهٍ حَوالَيه. "اقتلوا صديقي فأُحاسِبَكُم أنا!" ثُمَّ نظر إلى أسفَلُ ثانيةً، والدَّمُ يغلي

نابضًا في عروقه. ''أتُريدُ أن تكونَ أوَّلَ من يموت، يا صبيُّ؟''

''دَعهُ يقُم، أتريتِس!''

والتفتَ الرِّجال فرأوا رجُلًا طويل القامة يمشي بخُطًى واسعة نحوَهُم.

لم يَتزحزحَ أتريتِس، بل لعَنَ بصوتٍ مهموس.

وقالت زوجةُ هَرِغاسْت: ''انظُروا! ها هو الرُّومانيُّ آتٍ، مُبتهِجًا بالبلاء الذي جلبَهُ علينا!''

مشى ثيوفيلُس نحوَهُم بهدوء، ومِشيَتُه مِشيةُ سُلطةٍ وتصميم. ''ضع سيفكَ جانبًا، أتريتِس. أُولئك الذين يعيشون به، يموتون به''.

فقال أتريتِس: ''كما ستموتُ أنت، إذا استمعتُ لك!'' ولم يُزحزِح شفرةَ السَّيف قيدَ أُنمُلة.

سمعَ ثيوفيلُس الدَّمدمةَ المُخيفة التي سَرَت بين المُحتشِدين. ولم يتَّسع الوقتُ لِثَني أتريتِس عن نيَّته. فكان لا بُدَّ من أن يتكلَّمَ حالًا ما دامتِ الفُرصةُ سانحةً. فخاطبَ الرِّجالَ قائلًا: ''لستُ هُنا بصِفتي رومانيًّا ولا لأجل روما! ألتمِسُ أن تصبروا عليَّ حتَّى أُثبِت جدارتي بالثِّقة. فإن خادعتُكم، فافعلوا بي ما شئتُم''.

شامَهُ هُلت بعينَين تقدحانِ شرَرًا، قائلًا: ''تبدو أشبَه بجُنديٍّ''.

فنظَرَ إليه ثيوفيلُس مُباشرةً، بِلا خوف. ''خدمتُ في الجيش الرُّومانيِّ خمسًا وعشرين سنة، وكُنتُ برُتبةِ قائدِ مئة''.

خيَّمَ صَمتُ ذُهولٍ. وأطلقَ هُلت ضِحكةَ سُخريةٍ مُقترِنةً بالدَّهشة. أيُّ رجُل يعترِفُ بأمرٍ كهذا في وسط مئة مُحارِبٍ من الشَّطِّي؟ فقد كان إمَّا شُجاعًا جدًّا وإمَّا مُغفَّلًا جدًّا. ولعلَّه كان كِلَيهما.

وقَفَ ثيوفيلُس في مكانه بثبات وهدوء. ''حاربتُ هُنا قبلَ اثنتي عشرةَ سنةً لمَّا تمرَّدَت القبائلُ الجِرمانيَّة على روما''.

فصاحَ أحَدُ الرِّجال بحيثُ يسمَعُه الجميع: ''لقد حارَبَ ضدَّنا!''

''كلبٌ رومانيٌّ!'' ورُشِقَ بألقابٍ أُخرى أكثرَ تدنيسًا وتحقيرًا.

فقال ثيوفيلُس بصوتٍ علا فوقَ أصواتِهم: ''أنا أعرِفُ الشَّطِّي أنَّهُم شعبٌ باسِل! ولكنِّي أعرِفُ هذا أيضًا: إذا تمرَّدتُم على روما في هذه الآونة، فستفشلون. إنَّ دوميتيان ينتظِرُ

فُرصةً لإرسالِ الفيالِق إلى الشّمال. وسوف يوفّرُ له تحالُفٌ قبَليٌّ في سبيل الحرب تمامًا الذَّريعةَ التي يحتاجُ إليها للقِيام بذلك".

"إنَّه ينطِقُ بِلسانِ روما!"

سحَبَ أتريتِس غلاديوسَه ودارَ قليلًا.

ولَمَحَ ثيوفيلُس الشكَّ يخفقُ في عينَيه. "أقولُ الحقَّ، أتريتِس. أنت تعرِفُ المدى الذي سيمضي دوميتيان إليه كي يحصُلَ على ما يُريدُه. إنَّه يشتهي ما كان لأبيه وأخيه من نُفوذٍ وهَيبة، والسبيلُ الوحيدُ لحِيازة ذلك هو أن يشنَّ حملةً عسكريَّة ويفوز بها. وهذه هي المنطقة الحُدوديَّة الوحيدة التي فيها أحرَزَ دوميتيان نجاحًا نسبيًّا".

لم يكُن لتذكيرِ ثيوفيلُس بالمعارك التي وقعَت قبل أحَدَ عشَرَ عامًا وَقعٌ حسَن. فوضَعَ أتريتِس سيفَه داخِلَ غِمده، مُتجاهِلًا المُحارِبَ الشابَّ إذ وثَبَ عنِ الأرض ووقَفَ.

ورأت أنوميا فُرصةً لتدميرِ خَصمٍ واحد، فانتهزَتها. وقالت: "ليُعلِنْ طِيواز مشيئتَه من جهةِ شعبنا!"

التفتَ المُحارِبون إذ مشَت نحوَهُم وكامِلُ ثِقَةِ طِيواز إلى جانبِها. كانوا يُجِلُّونَها جدًّا، وانتظروا أن تتكلَّمَ بَعد. وجعلَتهم ينتظِرون حتَّى باتت قريبةً كِفايةً لتنظُرَ داخِلَ عيونهم، ثُمَّ أشارت بسُخرية نحوَ ثيوفيلُس.

"اللَّيلةَ يهلُّ الهِلالُ. وكما ينطِقُ بِلسان رُوما، فليُحارِبْ لأجل روما. أنزِلوه مُقابِلَ بطَلِنا. وليَقُل لنا طِيواز ماذا نفعل. إذا بقيَ هذا الرُّومانيُّ حيًّا، ننتظِر. وإلَّا مَضَينا قُدُمًا بتحالُفِنا".

حدَّقَ أتريتِس إلى الكاهنة الشابَّة قائلًا: "لا تُصغوا إليها".

فقالت: "إذا كان صديقُك الرُّومانيُّ على حقٍّ، أتريتِس، يفوز. وإلَّا..." وتركَت الكلِماتِ مُعلَّقةً.

نظَرَ رود إلى ثيوفيلُس وشامَه مُجدَّدًا. "لكلامِ أنوميا مَزيَّةٌ". لقد وفَّر اقتراحُها حلًّا سريعًا للمشكلة التي أوجدَها أتريتِس باصطحابه هذا الرُّومانيَّ لدى عودته إلى الدِّيار: "قيِّدوه!"

وقبلَما سعى أيُّ شخصٍ إلى مَسِّ ثيوفيلُس، قال: "ما هربتُ قطُّ من أيِّ قِتال حتَّى الآن. قولوا لي متى وأين تُريدون المُنازَلة، فأكونَ هُناك".

دُهِشَ رود من كون الرُّومانيِّ لم يُبدِ أيَّ خوف. ولكنْ رُبَّما كان الأحمقُ بَعدُ لا يدري ما سيُواجِهُ. فابتسمَ ببرودة. "تصالَحْ مع آلِهَتِك، يا رومانيُّ. بعدَ هُبوطِ اللَّيلِ بساعة، ستكونُ

مَيتًا". ونظَرَ إلى أتريتِس. "سيعقِد الشَّيءُ اجتماعًا الليلة في البُستان المُقدَّس. تيقَّنْ بأن يكونُ هُناك". ثُمَّ مشى مُبتعِدًا، تتبعُه ثُلَّةٌ من المُحارِبين الشُّبَّان في خدمته.

تفرَّقَ الآخرون، وقد انضمَّ إليهم الزَّوجاتُ والأولاد.

وابتسمَت أنوميا لثيوفيلُس بازدراء، ثمَّ مشَت مُبتعِدةً، مُتجاهِلةً نظرةَ أتريتِس السَّاخِطة.

لم يُحوِّل أتريتِس عينَيه عنها حتَّى توارت داخِلَ بيتها الصَّغير. وإذ لعَنَ بصوتٍ مهموس، لحِقَ بثيوفيلُس بعدما توجَّهَ عائدًا إلى الغابة.

"أمجنونٌ أنت؟ أنت في سنِّ الأربعين! سيُنزِلونك مُقابِلَ مُحارِبٍ في نصفِ عُمرِك وضِعفَي قوَّتك!"

"أتعتقِدُ أنَّ المَنطِقَ البسيطَ كان ممكنًا أن يحمِلَهُم على تغيير رأيهِم بغَيرِ هذه الطريقة؟" وانتزعَ ثيوفيلُس فأسَه من أصل شجرة، حيثُ كان قد تركَها.

"إذا حسِبتَ أنَّ في وسعي أن أُخرِجَك من هذا المأزِق، فأنتَ مُخطئ. لقد جعلَت تلك السَّاحِرةُ الموضوعَ مسألةَ عِرافة". وكان أتريتِس يعلَمُ جيِّدًا جدًّا أنَّ الشَّطِّي أركنوا كثيرًا إلى هذه الممارسة من الوثوق بالعلامات والنُّذُر لاتِّخاذِ القرارات.

تردَّدت في الغابات أصداءُ فرَقَعةٍ عالية إذ شقَّ ثيوفيلُس أُخدودًا عميقًا في شجرَةِ بِيسيَة. "لم أمُت بَعدُ، أتريتِس".

"أنتَ لا تفهمُ الأمر. لن تكونَ المُنازَلةُ مُباراةَ قُوَّة. إنَّها قِتالٌ حتَّى الموت!"

"أعلَمُ ذلك". وضرَبَ بالفأسِ ثانيةً ضربةً دائريَّة فأطارَ شظيَّةَ خَشَبٍ ثخينةً.

"هل تعلم؟" وقد تساءَلَ أتريتِس كيف أمكنَه أن يكون هادئًا جدًّا هكذا. "ماذا يُفترَضُ أن أفعَلَ أنا؟"

ابتسمَ ثيوفيلُس وهو يَهوي بالفأس دائريًّا مرَّةً أُخرى. "في وُسعِكَ أن تُباشِرَ الصلاة".

٣٦

كانت القريةُ كلُّها توَّاقةً إلى دمِ ثيوفيلُس، وقد احتفَلَ عددٌ لا بأس به بمقتلهِ قبلَ حدوثه. إنَّما فرايجا وحدَها كانت مُتضايقة من خبَرِ مُنازَلةٍ بين البَطَلِ الشَّطِّيِّ وثيوفيلُس.

"عليكَ أن تُوقِفَ هذا، رود. إذا قتلتُم قائدَ مئةٍ رومانيًّا، فستجلبون الحربَ علينا".

"نحنُ أصلًا في حربٍ مع روما".

"ماذا عن أتريتِس؟"

فقال رود غاضبًا: "نعم! ماذا عن أتريتِس؟ ماذا جرى لابنكِ حتَّى اصطحَبَ هذا النَّبَّاحَ الرُّومانيَّ إلى ديارنا؟"

"لقد أنقذَ الرَّجُلُ حياته".

"هكذا قالَ هو، ولكنَّ ذلك لا يُغيِّرُ الدَّمَ الذي يجري في عروقه. الرُّومان قتلوا زوجَكِ. وهم قتلوا إخوتي. لا تُدافعي عن ذلك الكلب الرُّومانيِّ أمامَ وجهي".

"لستُ أتكلَّمُ لأجله. أنا خائفة على شعبِنا، إذا قُتِل. يجب ان تُفكِّر في العواقب".

"إنَّنا نُعايِشُ عواقِبَ الهيمنة الرومانيَّة على مدى عُقودٍ، وسنَظلُّ نُعايِشُها حتَّى نتمكَّنَ من طرد كلِّ واحد منهم رجوعًا فوقَ جبالِ الألپ! ما عدا أتريتِس، ليس في هذه القبيلة رجُلٌ لا يُريدُ أن يرى رُلف يُقطِّعُ هذا النَّبَّاحَ الرُّومانيَّ إرْبًا إرْبًا. ومن جهتي، سأستمتعُ بمُشاهدةِ ذلك".

ثُمَّ تكلَّمَت إلى غُندرِد، ولكنَّ أنوميا كانت قد سبقَت فأقنعَتِ الكاهِنَ الشَّيخَ بأنَّ العِرافةَ ستحسمُ مسائلَ مُهمَّة. فقالَ، مُبدِّدًا اعتراضاتِها: "إنَّ حصيلة هذه المُنازَلة ستُقرِّرُ عدَّةَ عوامِل. سيتكلَّمُ طِيواز إلَينا عبْرَ رُلف".

"وماذا إذا أخفقَ رُلف ومات؟"

"لن يكونَ ذلك".

والتمسَت ثيوفيلُس يائسةً، راجيةً أن تُقنِعَه بأن يُغادِرَ قبلَ فَواتِ الأوان. فوجدَته في الغابة، جاثيًا على رُكبتَيه، يداه ممدودتان وراحتاهُما إلى فوق. وانقصَفَ غُصَينٌ تحتَ قدمَيها إذِ اقتربَت، فنهضَ والتفتَ نحوَها، مُستريحًا إلى التَّمام. وقال: "سيِّدةُ فرايجا"، حانيًا رأسَه في تحيَّةِ احترام.

"عليك أن ترحل. الآن".

"أخبرَكِ أتريتِس عنِ المُنازَلة".

"لم يُضطرَّ إلى إخباري. القريةُ كلُّها تعلَم. لن تبقى حيًّا هذهِ الليلةَ إذا بقيتَ هُنا".

"إن كانت مشيئةُ الله أن أموت، فسأموت".

"وماذا عن شعبي؟ هل يموتون أيضًا بسبَبِ كِبريائك الرُّومانيَّة؟ إلى أيِّ مدًى ستدفعُنا إلى التَّوغُّلِ في الغابة؟ كم من نَفسٍ ستُزهِقُ قبلَ أن تلينَ وتترُكَنا لنعيشَ في سلام؟" وكافحَت لأجلِ ضبط النَّفس. "لماذا جئتَ إلى هُنا أصلًا؟"

"لا أحَدَ يعلَمُ أنِّي هُنا وسطَ الشَّطِّي. لمَّا استَقلتُ من خدمتي، اقترَحَ عليَّ تيطُس بِلادَ الغال أو بريطانيا. فلَم أُعلِمه بسِوى ذلك".

فتحيَّرَت. "ماذا تُحاوِلُ أن تقول؟"

"أقولُ إنَّه إذا متُّ اللَّيلةَ، فلَن يأتيَ أحَدٌ لِيَثأرَ لي".

أقلقَتها كلِماتُه، هل رحَّبَ بالموت؟ "أنسِيتَ ابني؟ إنَّهُ يدعوك صديقه وقد أقسَمَ أن يحميَك. سيجعَلُ موتُك أتريتِس ضدَّ بني قومه".

كان ثيوفيلُس قد فكَّرَ في ذلك وتكلَّمَ إلى أتريتِس. وكان أيضًا قد أمضى عصرَ النَّهار مُصلِّيًا لأجله. "ليست معركةُ أتريتِس ضدَّ شعبه، بل ضدَّ القوَّة التي تأسِرُكم جميعًا".

لم تفهم، وهزَّت رأسها. "أنت تتكلَّمُ بألغاز. القوَّةُ الوحيدة التي تُحاوِلُ أن تأسِرَنا هي قوَّةُ روما".

"ليست قوَّة روما هي ما أتكلَّم عنه، سيِّدةُ فرايجا".

"لستُ أفهمُ ما تقول".

"ابقَي معي بعضَ الوقت، فأشرحَ لكِ".

فقالت، مُحترِسةً منه: "كم من الوقت سيَستغرقُ الأمر؟"

بسَطَ يدَه نحوَ رُقعةٍ خضراء جذَّابة يغمرُها نورُ الشَّمس. "لن أستبقيَكِ أكثرَ من الوقت الذي يستغرِقُه عبورُ الظِّلال لتِلكَ المرجة". ساعة. ساعة واحدة، يا ربّ. رجاءً!

قعدَت تحتَ نور الشَّمس، وأصغت إليه متكلِّمًا عن البداءات، عن الأرض وخَلقِ الله للإنسان، وعن مُضِلٍّ رئيسيٍّ دخَلَ بُستانًا.

بدأت فرايجا ترتجف. وتصبَّبَ منها عرَقٌ باردٌ حِيالَ كلامه، طارِقًا قلبُها بإنذار. فقالت: "لا أستطيعُ أن أُصغيَ إليك". وقامت.

فقامَ هو أيضًا، ناظِرًا إليها بعينَين لطيفتَين. "لِمَ لا؟"

تشبَّثَت بالقِلادة المُلاصِقة لصدرها. "أنتَ الحيَّةُ في بُستانِنا، لا طِيواز".

"ما تفوَّهتُ قطُّ باسْمِ طِيواز".

"قنِّعْ كلماتِك كما تشاء. أنا أعلَم أنَّك تتكلَّمُ عليه".

"أنتِ ترتجفين، سيِّدتي".

"طِيواز يُحذِّرُني من أن أُصغيَ إليك".

"حقًّا، لا بُدَّ أن يفعل ذلك؛ لأنَّ بِشارةَ يسوع المسيح ستُحرِّرُكِ".

شُحِبَت عُقَدُ أصابِعها على القِلادة. وتراجعَت عنه أكثر. "ستموتُ اللَّيلةَ. سيُمطِرُ طِيواز غضَبَه عليك لمحاولتك أن تقلبَني عليه". ودارت مُريدةً أن تفرَّ من المرجة ومنه، إلَّا أنَّها أرغمت نفسها على المَشي بِوقار.

وقبلَ أن تبلُغَ طرَفَ الشَّجَر، نادى ثيوفيلُس وراءها: "وإذا بقِيتُ حيًّا، سيِّدةُ فرايجا؟"

فاستدارت ووجهُها مَشحوبٌ ومشدود. "لن تبقى!"

"إذا بقِيتُ، فهل تُصغينَ إليَّ عندئذٍ؟ هل تسمعينَني حتَّى آخِرِ ما لديَّ لأُخبِرَكِ به؟"

تصارعَت في داخلها مشاعِرُ مُتضاربة. "أنتَ تطلُبُ منِّي أن أخونَ إلهي".

"أنا أطلُبُ منكِ أن تُصغي إلى الحقِّ".

"الحقُّ كما تراه".

"الحقُّ الذي هو كائن، سيِّدتي. الحقُّ الذي كان دائمًا وسيكون".

"لن أُصغي إليك! لن أُصغي!" ودارت مُجدَّدًا لتمضي مُسرِعةً وسطَ الغابات، جاعلةً بينَها وبينَ هذا الرُّومانيِّ أطوَلَ مسافةٍ مُمكِنة.

ورفعَ ثيوفيلُس رأسه، مُغمِضًا عينَيه. "ربِّي يسوع، ساعِدني".

وافى أتريتِس ثيوفيلُس عندَ الغسَق. وقالَ باكتئاب: "لقد صلَّيتُ كما طلبتَ، ولكنِّي أعتقد أنَّك ستكونُ مع الرَّبِّ يسوع قبل أن ينتهيَ هذا اللَّيلُ".

فقالَ ثيوفيلُس بضِحكةٍ ناشفة: ''ثِقتُك تغرسُ فيَّ الرَّجاء، يا صديقي''.

''رِصفة لن تأكُل. قالت إنَّها ستُصلّي حتَّى ينتهيَ الأمرُ''.

تساءلَ ثيوفيلُس أين كانت فرايجا، ولكنَّه لم يسأل. وتناوَل مِنطقَته فوضَعَها حولَ خصره، مُعدِّلًا إيَّاها بحيثُ صار الغلاديوس في الزاوية الصحيحة. ''أنا مستعدٌّ''. ولم يُضِف أيَّة كلمة أُخرى إذ مشى وسطَ الغابات، وأتريتِس إلى جانبه. ومع كلِّ خطوة، رفَعَ صلاةً إلى السَّماء.

كان الرِّجال مُجتمِعينَ عندَ حدودِ الغابة المقدَّسة. وقد كان بعضُهم سكارى، وصاحوا بإهاناتٍ لدى اقترابِ ثيوفيلُس. وضحِكَ آخَرون إذ أثارَ حماسَتُهم البالغةَ توقُّعُ رؤيةِ دمٍ رومانيٍّ يُسفَك. واستطاعَ ثيوفيلُس أن يُحِسَّ تَزايُدَ غضَب أتريتِس أكثرَ فأكثرَ كُلَّما اقتربا. وقد رأى الرِّجالُ ذلك وأحسُّوهُ أيضًا، وغدا الحَشدُ أكثرَ هدوءًا بسبب ذلك.

وقفَ رُلفُ الشابُّ بجانب رُود، وعيناه تُماثِلانِ عيني أتريتِس زُرقةً وشراسةً. وكان شعرُه الأحمرُ الطويل مُغطًّى جُزئيًّا بغَاليا، أي قَلَنسُوَة من جِلد، إضافةً إلى الكاسِّس المَعدنِيَّة التي تُغطِّيها. وقد حملَت تلك الخوذةُ أحرُفًا رُونيَّة ترمز إلى النَّصر، وعليها اسمُ طِيواز. وكان رُلف حامِلًا بيُمناه سلاحًا طويلًا عريَضًا حادًّا، يُدعى سپاتا، وبيُسراه تُرسًا بيضويًّا مصنوعًا من الخشب، ومنقوشةً عليه صورةُ الإله الذي يعبُده ويخدمه: الكائنُ الأقرن الثُّنائيُّ الحامِلُ بإحدى يدَيه فأسًا وبالأُخرى مِنجَلًا، الإله الوثنيُّ طِيواز.

كان الشَّبابُ والقوَّة بوضوحٍ في صفِّ رُلف، ولم تفتقِر حَملقتُه المُباشَرةُ المُتفحِّصةُ إلى ذكاء. وكانت وِقفَتُه مُتَّسِمةً بالكبرياء، وتكشيرتُه السَّاخرةُ ملأى ثِقةً بالنَّفس وازدِراءً. وقد ذكَّرَ ثيوفيلُس بأتريتِس.

أحسَّ الرومانيُّ أنَّه منبوذ. لقد علِمَ ما رآه رُلف: رجُلًا في ضِعفَي عُمرِه، مُسلَّحًا بسَيفٍ أقصر، وغيرَ حامِلٍ تُرسًا. صَيدٌ سَهل. فقالَ لأتريتِس بابتسامةٍ فاترة: ''على الأقلِّ، نعلَمُ أمرًا واحدًا عِلمَ اليقين. إذا فُزتُ، فسيكونُ ذلك بنعمة الله''.

سألَ رود مُستاءً: ''ماذا قال؟'' لأنَّ ثيوفيلُس تكلَّم بيونانيَّةٍ ثقيلةِ اللَّهجة.

فقال أتريتِس بصوتٍ عالٍ كفايةً بحيثُ يسمعُه الجميع: ''إنَّه يُحارِبُ بِاسْم يسوعَ المسيح''.

وقال رُود- مومئًا لنائبه في الزَّعامة بانحِناءةِ رأس- ''وسيموتُ بِاسْمِ إلههِ أيضًا''.

رمى هُلت أتريتِس بحَبل، وقال: ''أوثِقه!'' ثُمَّ أدار لهُما ظهرَه.

وبينما أتريتِس يربط مِعصمَي ثيوفيلُس، قال الأخيرُ هامسًا: ''هل يعتقدون أنِّي أنوي

أن أهرُب في هذه السَّاعة المُتأخِّرة؟"

وقبلَما لاحظَ ثيوفيلُس أنَّ الآخرين يُقيَّدون أيضًا، قالَ أتريتِس بهدوء: "الزُّعماء وحدَهُم يدخلون الغابةَ المُقدَّسة غيرَ مُقيَّدِين". ثُمَّ أضاف همسًا: "هذا تذكيرٌ بأنَّ طِيواز يربطُنا به". وشدَّ الحبلَ شدَّةً قويَّة مُتيقِّنًا بأنَّه مُحكَمٌ جيِّدًا. "لا تقع".

رفَعَ ثيوفيلُس حاجِبَه إزاء نبرةِ أتريتِس المُنخفِضة المُنذِرة بالسُّوء. "ماذا يجري إذا وقعتُ؟"

تطلَّعَ أتريتِس حوالَيه إلى الآخرين وخفَضَ صوته. "إذا كانوا شاعرين بالرَّحمة، يُسمَحُ لك أن تتدحرَج إلى البُستان المُقدَّس. وإلَّا، علَّقوكَ بِكاحِلَيك وأرسلوا في طلَبِ أُمِّي أو تلك السَّاحِرة الشَّقراء لِتحُزَّ حَنجرتك وتُسيلَ دمَك في طاسةٍ سكيبًا لِطِيواز".

"يا ربُّ يسوع، احفظني". ونظَرَ ثيوفيلُس حواليه إلى المُحارِبين الشَّطَّيِّين. لقد عَلِمَ كلَّ حين أنَّ الجِرمان كانوا جِنسًا مُتعطِّشًا إلى الدِّماء، ولكنَّه ما خمَّنَ قطُّ مدى مُمارَستهم الدينيَّة. ثمَّ قال، مُبتسِمًا بسُخرية: "لا أرى أيَّ شخصٍ في مِزاجِ رَحمةٍ على وجه الخُصوص، أترى أنت؟"

فأطلَقَ أتريتِس ضِحكةً بِلا مرَح. "لا، ولكنَّهم بَعدُ يؤثِرون أن يرَوا رُلف يضَعُ حدًّا لحياتك على أن يُعطوا امرأةً ذلك الشَّرَف". وقيَّدَ ساقَي ثيوفيلُس.

تقدَّمَ رُود وهُلت الموكِبَ إلى قلب الغابات، حامِلَينِ مشعلَين. واصطفَّ المُحارِبون قُدَّامَ ثيوفيلُس وأتريتِس ووراءهُما. وجاراهُم ثيوفيلُس في مِشيَتهم بصعوبة. فالخُطوات القصيرة داخِلَ قُيودٍ جعلَته يشعُرُ بالخَرَق. ونظَرَ حوالَيه إلى المُحارِبينَ القريبين منه، فشعر بالشَّفقة عليهم من أجل بليَّتهم. لقد كانت أرواحُهم مُقيَّدةً كما كانت أجسادهم بكُلِّ يقين. وفيما هو مُركِّزٌ اهتِمامَه عليهم، مشى فوقَ جذور الشَّجَر واستطاع بالكادِّ أن يُحافِظَ على توازُنِه.

سبَّ أتريتِس هامسًا.

أحسَّ ثيوفيلُس توتُّرَه، فقال له همسًا: "يا صديقي، مهما حصلَ اللَّيلةَ، فتذكَّرْ هذا: أنَّ الرَّبَّ هو صاحِبُ السِّيادة المُطلَقة. فالله يجعل جميعُ الاشياء تعمل معًا لأجلِ الخير لدى الذين يحبُّونه والذين هُم مدعوُّون حسَبَ قَصده. سواءٌ عِشتُ أم مُتُّ، لا يهمُّ".

فقالَ أتريتِس مُتجهِّمًا: "بل يهمُّ. لا فُرصةَ لدَيك للثَّبات في مواجهة رُلف. لا بُدَّ أنَّ هُلت علَّمَ ابنَه كلَّ ما يعرِفُه، وهو كان بَطلًا في أيَّام أبي. أُقسِمُ إنَّ موتك سيكونُ..."

"أصغِ إليَّ، أتريتِس. اعمَلْ بمشيئةِ الله. لا تتشبَّه بشعبك، بل غيِّرْ شكلك إلى الأفضل بتجديدِ ذهنِك، حتَّى تختبِرَ ما هي مشيئةُ الله، الصالحةُ والمرضِيَّة والكاملة. تذكَّرْ ما علَّمتُك إيَّاه".

"أنا لستُ مِثلك".

"أنتَ مِثلي أكثرَ ممَّا تعلَم. عليكَ أن تُصغي. الوقتُ قصيرٌ. لقد وهبَتك قُدرةُ المسيحِ الإلهيَّةُ كلَّ ما يتعلَّق بالحياة والتَّقوى، بواسطة المعرفة الحقيقيَّة ليسوع المسيح الذي دعاك. اجتَهِد أن تُقدِّمَ نفسَك مُزكًّى كمُحارِبٍ لا يُضطرُّ لأنْ يخجل".

"أنا مُحارِبٌ، وسأتصرَّف كمُحارِب".

"أنت تتكلَّم كإنسان، أتريتِس. عِشْ لله".

"أعليَّ إذًا ألَّا أفعلَ أيَّ شيء؟"

"كلَّ شيء. أحبِبْ شعبَك".

فرمى الذين حولَهُما بنظرةٍ سوداء، جائرًا: "أُحِبُّهم؟ بعدَ هذه الليلة؟"

"على الرُّغمِ منها".

"كنتُ زعيمًا".

"صحيح. وهكذا كنتَ جُزءًا من هذه الشعائر؟"

رمَقَه أتريتِس بنظرةٍ فاترة. "أنت تعلَمُ أنِّي كنتُ".

"إذًا، تذكَّرِ الحياةَ التي دعاكَ المسيح إلى خارِجِها. تذكَّرْ كيف كانت عِيشتُك في الظَّلام". ورأى كِبرياء صديقه المُعانِدة. "أتريتِس، أصغِ إليَّ حُبًّا بالله. دعِ هؤلاء القومَ يرَوا ثمَرَ الرُّوح مُنتَجًا فيك. دعِ الرَّبَّ يُحطِّم سيطرةَ طِيواز على شعبك. سلِّم نفسك لِلّه من كلِّ القلب ودَعهُ هو يُنتِج فيك المحبَّةَ والفرَح والسَّلام والصَّبر واللُّطف والصَّلاح والأمانة والوداعة وضبطَ النَّفس الذي يُعلِنُه بصفته الله القادرَ على كلِّ شيء. ما مِن قانونٍ ولا إمبراطوريَّة يمكن أن يقفا ضدًّا لهذه الأُمور".

"سأُفكِّرُ في الأمر".

"لا تُفكِّرْ في الأمر! اعمَلْ بالكَلِمة التي علَّمتُك إيَّاها. اسلُك كما يَليقُ بيسوع المسيح. فلتسرَّ الله في جميعِ نواحي حياتك".

"أسهَلُ عليَّ أن أموتَ من أجله أنا نفسي من أن أقِفَ جانبًا وأُشاهِدَكَ تُقتَل!"

"الشَّيطانُ يعلَمُ ذلك أفضلَ منك. فعليكَ أن تُقاوِمَه. تمسَّكْ بإيمانك واثبتْ في المسيح.

وإذا مُتُّ الليلة، فابتهِجْ. سأكونُ مع ربِّنا! ما من قوَّة عظيمة كفايةً بحيثُ تفصلُني عن المسيح يسوع. وأنت تعلَم أنَّ الموت لا يستطيع ذلك".

توقَّفَ الرِّجالُ الذين في المُقدَّمة. ورجَعَ هُلت إلَيهِما، وضوءُ المشعل يُبيِّنُ غضبَه وخوفَه. "اسكُتا!" وحدَّقَ إلى أتريتِس. "أنتَ تعرِفُ القانون".

تصلَّبَ أتريتِس إزاء التأنيب، ولكنَّ ثيوفيلُس هزَّ رأسَه مُوافقًا ولم يقُلْ أيَّ شيءٍ بَعد.

لمَّا وصلوا إلى البُستان المقدَّس، رأى ثيوفيلُس أنَّ نارًا كانت مُشتعلةً في نافذةٍ مَحميَّة. كان كاهِنٌ شيخٌ بانتظارهم، وتُنكُه الكتَّانيُّ الأبيضُ السميك مُوشًّى برُسوم أُرجوانيَّة. وكانت سِنديانةٌ عتيقةٌ في الوسط. فلمَّا جلسَ الجميع، أخرَجَ الكاهِنُ رُموزَ طِيواز المُخبَّأةَ داخِلَ جذعِ السِّنديانة.

رفَعَ غُندرِد القُرونَ الذهبيَّة بوقار لِيراها الجميع. وكان دائمًا يستمتع بهذه اللحظة وبالقُدرة التي أحسَّ أنَّها تَصحبُها. وقد رتَّلَ وتَمايلَ إذ حطَّها على مذبحٍ حَجَريٍّ خَشِن بقُربِ النار التي كانت تُبقَى مُشتعِلةً دائمًا.

فكَّ أتريتِس الحَبل مِن حَولِ مِعصمَي ثيوفيلُس وكاحِلَيه. وإذ لفَّهُ، ألقاهُ جانبًا.

سحَبَ غُندرِد خنجرًا من حِزامه، وحزَّ ذِراعَه، وجعَلَ الدَّمَ يتقطَّرُ على القُرون المُقدَّسة. وتقدَّم رود فحذا حذوَه، ثُمَّ مرَّرَ الخنجرَ الاحتِفاليَّ إلى هُلت. ولمَّا أكملَ هُلتَ الشَّعيرة، أخَذَ غُندرِد الخنجر. وإذ وضعَه مُسَطَّحًا على كِلتا راحتَيه، دارَ وقدَّمه إلى أتريتِس مُترقِّبًا.

"لقد انتظرنا رجوعَك مُدَّةً طويلة. أتريتِس، ابنَ هِرمُن العظيم، زعيمَ الشَّطِّي الأعلى، إنَّ طِيواز ينتظِرُ تجديدَ نُذورِك".

بقيَ أتريتِس جالسًا. ونظَرَ إلى غُندرِد دونَ أن ينبِسَ بكلمة.

تقدَّم الكاهِنُ الشَّيخُ إليه أقرَب. "خُذِ الخنجرَ من يدي". وكانت أنوميا قد أخبرَته بأنَّ أتريتِس قد فقَدَ الإيمان. فإذ أرادَ مَجدَ ردِّه، قال: "أنتَ رجُلٌ ذو شرَف. تذكَّرْ نَذرَك".

وقفَ أتريتِس على مهل. وقال بصوتٍ عالٍ بحيثُ يسمَعُه الجميع. "أنا مُرتدٌّ عن طِيواز".

تراجَعَ غُندرِد عنه. وإذ تشبَّثَ بقبضة الخنجر، أمسكَ به إلى جنبه. وقال: "أتجرؤ على التكلُّم هكذا أمامَ مذبحِ إلهِنا؟" وقدِ ارتفعَ صوتُه مع كلِّ كَلِمةٍ تفوَّهَ بها.

فقال أتريتِس بهدوء: "أجرؤ". وقد كانَ وجهُه شرسًا كأيِّ رجُلٍ آخَرَ حاضِر. ونظَرَ من وجهٍ إلى وجه، فرأى رِجالًا كانوا أصدقاءه والآنَ نظروا إليه باحتراسٍ ارتيابٍ وغضَبٍ وخوف. ثُمَّ صاح: "أجرؤُ أكثر. إنِّي أُعلِنُ أنَّ يسوعَ المسيحَ هو ربُّ الكُلِّ!" وقد تردَّدَ صوتُه في أنحاءِ الغابة المُقدَّسة.

هبَّت ريحٌ قاتمة، هازَّةً الأوراقَ والأغصان فيما هي مُقبِلةٌ إقبالَ كائنٍ شرِّير. فغمَرَ الخوفُ غُندرِد، وأطلقَ صوتَهُ في صلاةٍ مذعورة، مُتضرِّعًا إلى طِيوازَ أن يحجُبَ غضبَه عنهُم. حتَّى أتريتِس شعَرَ بالفزَع إذ صَمتَتِ الضَّفادعُ والحشَراتُ في الغابات حوالَيهم، وزحفَت بُرودةٌ إلى قلب الدائرة التي اجتمعَت حولَ النَّارِ الخالدة. لقد أحسَّ حضورًا، حضورًا بارِدًا جدًّا بحيثُ كان ضاريًا.

ألقى غُندرِد شيئًا ما في النَّار، فتفجَّرَت ألوانٌ حولَه وتطايَرَ الشَّرَرُ صعودًا. وتهادَت على الهواء رائحةُ الكِبريتِ المُتَّقِد، مُمتزِجةً بروائحَ غريبةٍ أُخرى. وانقلبَت عيناهُ إلى الوراء في رأسه فيما بدا أنَّ شيئًا ما استولى عليه. وتدفَّقت من شفتَيه كلماتٌ غيرُ مفهومة، وقد باتَ صوتُه أعمَقَ وبُلعوميًّا، هَريرًا وحشيًّا.

قال رود: "طِيواز يتكلَّم". وجلَسَ جميعُ المُشاهِدين مرعوبين، قارِعينَ أسلِحتَهُم على تُروسِهم وصارخين. وارتَفَعَ الصَّوتُ جهيرًا. "طِيواز! طِيواز! طِيواز!" فكان وَقعُ الاسم شبيهًا بقَرعِ طُبول، وتعاظمَ حتَّى تفوَّهَ الكاهِنُ بزعقةٍ جعلَت معِدَةَ أتريتِس ترتجِف وشعرَه يقِفُ. ومهما كانَ الذي حلَّ على غُندرِد، فقد رحَلَ.

لاذَ الرِّجالُ بالصَّمت، مُراقِبين ومُنتظِرين.

نظَرَ غُندرِد دائخًا إلى أتريتِس الواقفِ أمامه. فرأى ببصيرةٍ نفَّاذةِ الشَّكِّ والخوفَ يخفُقان في عينَيِ الرَّجُلِ الأصغرِ سنًّا. إنَّ طِيواز لم يفقد سيطرتَه كُلِّيًّا.

قال غُندرِد: "لقد خُدِعتَ، أتريتِس". ووجَّه إصبعًا مُتَّهِمةً إلى ثيوفيلُس. "لقد كشفَ لي طِيواز الدوافعَ الخفيَّةَ لدى هذا الرَّجُل!" ثمَّ نظَرَ حوالَيه إلى المُحارِبين المُحتشِدين، وصاح: "الرُّومانيُّ يتكلَّمُ بالسَّلام، ولكنَّه يأتينا بأكاذيبَ وإلهٍ زائفٍ في محاولةٍ لإضعافِ شعبِنا!" وبسَطَ ذِراعَيه، مُطوِّقًا جميعَ الحاضرين. "إذا استمعتُم، فستُبادون!"

صاحَ المُحارِبون الشَّطَّيُّون بنُذورٍ لطيواز. وأصغى غُندرِد، رافعًا يدَيه من جديد ومُشجِّعًا إيَّاهم على أن يصيحوا أعلى بَعد. وقد كان مُبتهِجًا بالنَّصر إذ نظرَ إلى الرُّومانيِّ القاعِدِ بجانب أتريتِس. لقد عرَفَ نهايةً لحياةِ الرُّومانيِّ أكثرَ لِياقةً من مُنازَلةٍ مُشرِّفة مع مُحارِبٍ شطَّيٍّ.

غمَرَ الغضَبُ المُقدَّس ثيوفيلُس إذ نظَرَ في عينَي الكاهن الشَّيخ المُحدِّقتَين بخُبثٍ وحُبور. ورأى بجَلاءٍ جاء من الرُّوح القُدُس أنَّ غُندرِد لم يُرِد للمُباراة أن تجري. وقد نَوى أن يروغَ منها بجَعل المُحارِبين يُصدِّقون أنَّ طِيوازَ تاقَ بالأحرى إلى ضحيَّةٍ بشَريَّة.

يا ربّ، أُفضِّلُ أن أموتَ مُقاتِلًا، لا على مذبَحٍ للشَّيطان! وماذا عن هؤلاء الرِّجال؟ إذا عقدوا تحالُفَ قبائلَ وتمرَّدوا على روما الآن، فسيُبادونَ مثلَ اليهود.

كان الصَّوتُ الجهيرُ المُتكرّر يُصِمُّ الآذان.

فوقَفَ ثيوفيلُس توًّا، وصاحَ مُتحدِّيًا: "جيءَ بي إلى هُنا لأُقاتِلَ بطَلَكم حول مسألةِ تحالُفٍ قَبَليٍّ!" وهدأ الهديرُ المُصِمُّ إذ تقدَّم بجسارة إلى مركز الدائرة وواجهَ غُندرِد. "أم إلهُكم خائفٌ من الحصيلة؟"

شرَعَ الرِّجالُ يصيحون مُقابِلَ تُروسِهم.

وهبَّ رُلفُ الشابُّ واقفًا ثُمَّ مشى إلى داخِل الدائرة، توَّاقًا إلى المعركة. "ستموتُ، يا رومانيُّ!"

"لأجلِ طِيواز! لأجلِ طِيواز!"

نزَع ثيوفيلُس مِنطقَته. وقال: "يا يسوعُ المسيح، كُن معي. أعطِني القوَّة والثَّبات". ثُمَّ سحَبَ غلاديوسَه من غِمده: "لتكُن هذه المعركة لأجل مجدِك، يا ربّ". ورمى المِنطَقة في قلبِ الظُّلمة.

وجاءه صوتٌ هادئٌ ساكِن: **السَّيفَ أيضًا!**

أحسَّ ثيوفيلُس كأنَّ الهواءَ قد دُفعَ بعيدًا عنه. وصارت كفُّه دَبِقةً بالعرَق، وطرَقَ قلبُه بشِدَّة.

وهمَسَ غيرَ مُصدِّق: "يا ربّ؟"

السَّيفَ!

"يا يسوع، هل تُريدُ لي أن أموت؟"

تقدَّمَ المُحارِبُ الشَّطِّيُّ نحوَه، مُكشِّرًا بِضَراوة، تائقًا إلى إعمالِ السباتا الفتَّاكِ الذي في يده.

الذين يحيَون بالسَّيف، يموتون بالسَّيف.

شهَقَ ثيوفيلُس ملءَ رئتيه من الهواء عبْرَ أنفِه، ثُمَّ زفَرَه من فمِه. "فَليكُن كذلك". وطوَّحَ الغلاديوسَ في قلبِ الظَّلام.

توقَّفَ رُلف مدهوشًا، واستقامَ عابسًا.

ولمَّا ماتَ لدى أتريتِس أيُّ رجاءٍ ضئيلٍ كان لدَيه، صاحَ: "ماذا تفعل؟" فلم يُعِرهُ ثيوفيلُس أيَّ انتِباه.

صلَّى ثيوفيلُس: **يا ربُّ، يا ربُّ! أأقِفُ هُنا فحَسْبُ وأموت؟ أأدعُه يُقطِّعُني إربًا إربًا كحَمَل للذَّبح؟ أظنُّ أنِّي جئتُ لأُوقِفَ حربًا.**

يشوع. شمشون. داوُد. أصبحَت الأسماء كضرباتِ طبلٍ في رأسه. يشوع. شمشون. داود. زعَقَ غُندرِد- والرُّوحُ في داخله مُمتلئٌ خوفًا- "اقتُلْه! اقتُلْه الآن!"

نهضَ المُحارِبون بجُملتِهم إذ هجَمَ رُلف صارخًا: "طِيواز!" ورجَّحَ السپاتا بقوَّةٍ تكفي لشَقِّ جِسمِ ثيوفيلُس شطرَين. فراغَ ثيوفيلُس إلى اليسار، ودارَ بحدَّة، وأهوى بقبضَته بقوَّةٍ على قفا رأسِ رُلف. فبَعَجَ الخُوذة، وجعَلَ المُحارِبَ الشابَّ يهوي مُترنِّحًا ليستقرَّ على رُكبةٍ واحدة.

خطا ثيوفيلُس إلى جهةٍ واحدة من الدائرة، وانتظَرَ. وحدَّقَ أتريتِس غيرَ مُصدِّق. "أجهِزْ عليه!"

إلَّا أنَّ ثيوفيلُس لم يفعل ذلك. وقام رُلف، هازًّا رأسَه. فلم يتزحزح ثيوفيلُس. ثمَّ دارَ رُلف، وعيناه غيرُ مُركِّزتَين. كان يتنفَّس بصعوبة، ووجهُه مُتورِّد. وقبلما راقَ رأسُه، رفَعَ السپاتا واندفَعَ إلى الأمام.

وبرشاقةٍ ريَّاضيٍّ مُحنَّك، راغَ ثيوفيلُس وانخفضَ ولكَمَهُ لكمةً قويَّةً على عَظمِ صَدرِه. فتراجَعَ رُلف مُترنِّحًا، إلَّا أنَّه لم يسقط أرضًا. ولكَمَهُ ثيوفيلُس لكمةً ثانية بكامل قوَّته، زافِرًا نفَسَه بشِدَّة. فهَوى المُحارِب الشابُّ أرضًا كشجرةٍ ساقطة. وكافَحَ لأخذِ نفَس، ثُمَّ بعدَ ثوانٍ قليلة ارتخى مُمدَّدًا على ظهرِه ولبِثَ بلا حَراك، مُنفرِجَ الذِّراعَين والسَّاقين.

لم يتحرَّكْ أو يتنفَّس أيُّ مُحارِبٍ شطِّيٍّ. لم تدُم المعركة حتَّى دقيقةً واحدة، وبات بطلُهم مُنطرِحًا على الأرض كما لو كان مَيتًا.

قالَ ثيوفيلُس بصوتٍ عالٍ: "لكَ المجدُ كلُّه، أيُّها الرَّبُّ الإله". ثمَّ رفعَ رأسَه ودار، ناظِرًا إلى الكاهِن مُباشرةً.

ارتعدَ غُندرِد خوفًا. ولم يتنفَّس أحَد.

جثا ثيوفيلُس على رُكبة واحدة بقُربِ رُلف، ووضعَ يدَه على رَقَبة المُحارِبِ الشابِّ. فأحسَّ نَبْضًا قويًّا. ووضعَ يده على صَدرِ رُلف فأحسَّه يرتفع. لقد كان يتنفَّس من جديد. وأخَذَ ثيوفيلُس السپاتا من يدِ رُلف، ثُمَّ قام. ونظَرَ إلى أتريتِس، فرأى عواطِفَ صديقه مُمزَّقة. فرُغمَ كلِّ شيءٍ، فقد كان الشابُّ المُنطرِحُ عاجِزًا مُحارِبًا شطِّيًّا، واحدًا من أنسِبائه.

تحرَّكت حَملقةُ ثيوفيلُس ببُطء حولَ دائرة الرِّجال الواقفين. واستطاعَ أن يرى في وجوههم كيف حاولوا أن يُقَسُّوا أنفُسَهم لموت رُلف. وأغمضَ هُلت عينَيه لأنَّ ابنَ أخيه المُتوفَّى هو مَن كان مُنطرِحًا عند قدمَي ثيوفيلُس. ولم يكُن أيُّ مُحارِبٍ حاضِر ليتحرَّكَ كي

يكفَّ الرُّومانيَّ عن إزهاقِ حياةِ رُلف. فقد كانت تلك مسألةَ شرَف.

رمى ثيوفيلُس السپاتا على الأرض أمام رود.

فتأمَّل الزَّعيمُ الأعلى وجهَهُ مدهوشًا. وبعدَ لحظة، أومأ برأسِه في انحِناءةٍ قاسية. ”لن يكونَ أيُّ تحالُف“.

٣٧

رغم أنَّ الرِّجال والنِّساء ظلُّوا يتجنَّبون ثيوفيلُس بعدَ تلك الليلة، فلم يمضِ وقتٌ طويل قبلَما لاحظَ الجميع أنَّ الأولاد لم يُخالِجْهُم أيُّ خوف أو ارتياب منه. كان يُرنِّمُ وهو يشتغل، وجاء الأولاد، الأصغر سنًّا ليستمعوا. أوَّلَ الأمر، حافَظوا على مسافةٍ تُبعِدُهم عنه، مُختبئين وراءَ الأشجار أو مُتسلِّقين داخِلَها وناظرين إليه من الأغصان. وبالتدريج، فقدوا جبانتَهُم. وقد نادى ولَدٌ جريءٌ بسؤالٍ مِن على غُصنٍ عالٍ، فتوقَّفَ ثيوفيلُس ليُجاوِبَه. وكان تصرُّفُه مؤنِسًا ووَدودًا، فنزلوا من مَجاثِمهم العالية ومن مخابئهم وراء الأشجار، وقعدوا على العُشب تحتَ نور الشَّمس لِيُصغوا إليه.

حكى لهم ثيوفيلُس قِصَصًا.

وجاءت أُمٌّ شابَّةٌ قلِقة تبحثُ عن ابنها. "لا ينبغي أن تكون هُنا. قالَت لكِ أنوميا إنَّ علينا أن نبقى بعيدين عن هذا الرَّجُل. هل تُريدُ أن ينزِلَ غضَبُ طِيواز علينا؟"

فحرَنَ الولَدُ وانتحَبَ: "أُريدُ أن أسمعَ نِهايةَ القِصَّة".

وقال ثيوفيلُس بلُطف من حيثُ كان قاعِدًا: "أطِع أُمَّك. في وسع القِصَّة أن تنتظِرَ إلى وقتٍ آخَر".

فقالَتِ الأُمُّ، ملوِّحةً بيدَيها للباقين: "أنتمُ، اذهبوا إلى بيوتكم واتركوا هذا الرَّجُلَ وحدَه قبلَ أن تعلَمَ أنوميا أنَّكُم هُنا. اذهبوا!"

جلَسَ ثيوفيلُس مُنفرِدًا وقتًا طويلًا، مُطرِقًا رأسَه. ثُمَّ قامَ مُتنهِّدًا ورجَعَ إلى عمله في تقشير لِحاء الأشجار المقطوعة وشقِّ الخشَب لأجل بيته المُستطيل. وأحسَّ شخصًا ما يُراقِبُه. فتوقَّف ونظَرَ حوالَيه، فرأى رجُلًا واقفًا في الظِّلال على بُعدِ مسافةٍ منه. ولم يستطِع أن يُميِّزَ مَن كان ذلك الرَّجُلُ الذي لم يتحرَّكْ ليقترِبَ منه. فرجَعَ إلى عمله. ولمَّا رفَعَ نظَرَه بعدَ لحظة، كان الرَّجُل قد ذهب.

سئمَت رِصفة سَماعَ ڤارُس وأتريتِس يتصايحان. ووَجِعَها رأسُها. لقد بدا أنَّها عادةٌ شطَّيَّة أن يشرَبا قبلَ إجراءِ نقاشٍ جِدِّيٍّ. وكان رجالٌ آخرون قد انضمُّوا إليهم حتَّى غصَّ البيتُ

المُستطيل بالمُحاربين الذين سكِرَ مُعظَمُهم من البيرة وبعضُهم من المِيد المُحلَّى بالعسَل. حتَّى المُحارِبُ الشابُّ رُلف كان حاضرًا، جالسًا بقُربِ الجِدار، كئيبَ السِّيماء، وعيناه الزَّرقاوان تبرُقان فيما يُصغي، إلَّا أنَّه لم يُشارِك في النِّقاش.

اصطدَمَ رفضُ قارُس المُعانِدُ للإصغاء بسُخرية أتريتِس اللاذعة مُباشرةً. وانكمشَت أحشاءُ رِصفة إذ نجحَت مُلاحظاتُ أتريتِس فقط في دفع قارُس إلى غضَبٍ مُتفاقِم. هل نسيَ أتريتِس كلَّ ما علَّمه ثيوفيلُس إيَّاه؟

تمنَّت لو كانت فرايجا حاضرة، لأنَّ أُمَّ أتريتِس كان من شأنِها أن تعرِفَ كيف تُلطِّفُ هذا الاضطِرابَ الهائلَ ليصيرَ نِقاشًا منطِقيًّا، ولكنَّها كانت في الغابات المُقدَّسة تتأمَّل وتُصلِّي لِطِيواز.

اللهُمَّ، ساعِدها حتَّى ترى!

أرادت رِصفة أن تصيحَ بهما كي يتوقَّفا، ولكنَّها علِمَت أنَّ ذلك ما كان ليُجديَ نفعًا. فمتى تكلَّمَت لم يُصغِ أحَد. ولا حتَّى أتريتِس حينما كان مُحلِّقًا هكذا في اصطِخابِ عواطِفه. أوَّلَ الأمر، ظنَّت أنَّ تلك كانت الحال لأنَّها امرأة. غيرَ أنَّ نساءً أُخَرَ عُومِلنَ باحترام. فكُنَّ يُسمَعنَ ويُعمَلُ بكلامهنَّ.

أخبَرَها أتريتِس أنَّ رجالَ الشَّطِّي كانوا يأتون إلى المرأة بمَهرٍ من المواشي، وأنَّ المرأة كانت تُعطي الرَّجُلَ أسلحة. وقد كان الزَّواج عِشرةً تدومُ مدى العُمر، والمرأةُ تشترِكُ في مُغامرة الرَّجُل. إذ تَحمِلُ مؤنَ الطَّعام إلى ساحة المعركة، وتبقى أيضًا لتُشجِّع زوجها وأبناءها على القتال. وقد اعتقد رجالُ الشَّطِّي أنَّ عُنصرًا من القداسة ومَوهِبةَ نُبوَّةٍ يكمنان في النِّساء، الأمرُ الذي يُفسِّر سبَبَ مُعامَلة فرايجا وأنوميا بإجلالٍ ورهبة.

ولم يكُن قبلما سمِعَت رِصفة صِدفةً حديثًا بين فرايجا وقارُس أنَّها فهِمَت لماذا لم يُصغِ أحَدٌ إلى ما كان لدَيها لتقولَه. فقد تيقَّنت أنوميا بألَّا يستمعَ أيُّ شطِّيٍّ إلى رِصفة، إذ نبَّهَتِ الكاهنةُ الشابَّةُ الجميعَ إلى أنَّها كانت ساحرةً إيونيَّة جاءت لتُضِلَّهم.

لم تقُل رِصفة لأتريتِس شيئًا عن ذلك خوفًا ممَّا قد يفعلُه. لقد أثارت أنوميا لدَيه أهواءً من الأفضلِ أن تبقى هامِدةً، وكلَّما قلَّ احتِكاكُه بها كانَ أفضل.

ما كان في وسعِ رِصفة إلَّا أن تقبلَ الوضع. فأصغَت إذ تصايَحا ذهابًا وإيابًا، مُصلِّيةً بوَقارٍ هادِئٍ ومُواظَبة طوالَ وقتِ خدمتها لهُما.

اللَّهُمَّ، بيِّنْ لي ماذا أفعل. أرِني كيف أفعل ذلك. أعطِني محبَّتَك لهؤلاء القَوم. فلأختبئ في سلامك ولا أسمح للعاصفة بأن تُزعزِعَ إيماني.

حتَّى في أثناء تقديمها الطَّعام إلى الرِّجال المُتباحِثين مع أتريتِس، تأمَّلَت في الآياتِ التي كان شمعي وثيوفيلُس قد علَّماها إيَّاها. وحولَها كانَ رجالٌ آخرون يملأون قُرونَهم بالنَّبيذ المُحلَّى بالعسل وبالبيرة. وقد تلَت مزاميرَ تكلَّمَت إليها عن سِيادة الله المُطلقة وإمداده ومحبَّته...كلُّ ذلك فيما الرِّجالُ يتجادلون.

الربُّ راعيَّ، فلا يُعوِزُني شيء. قالَتِ الكلِمات مرارًا وتكرارًا في ذهنها، على مهل، لتهدئة أعصابها، ثُمَّ أكثرَ تمهُّلًا بعدُ، لتستمتعَ بها وتدَّخِرَها إذ أنتجَتِ السَّلامَ الذي حنَّت إليه، سلامًا يفوقُ الفهم.

ولم تعتقد أنَّ أحدًا لاحظَها.

وقفَ ڤارُس على رجلِهِ السَّليمة، وقال غاضبًا بوجهٍ مُلتوي القَسَماتِ ألَمًا: "مُذنب! كيفَ أنا مُذنِب؟"

فصاحَ أتريتِس: "اقعُد واسمعني حتَّى النهاية!"

"لقد سمِعتُ ما يكفي! انحَنِ أنت لإلهِكَ هذا الضَّعيف، أمَّا أنا فلا. يَغفِرُ لي؟ لن أحنيَ عُنقي له أبدًا".

"ستَحني عُنقَك، أو تذهبَ إلى جَهنَّم!"

وضعَ كالِب يدَيه على أُذنَيه مُرتاعًا، وشرَعَ يبكي. فشالَته وضمَّته، مُتكلِّمةً بهدوء لتسكينِ مَخاوِفه. ونفِدَ صَبرُ أتريتِس. "خُذيهِ إلى الخارج! أخرِجيه من هُنا!"

غادرَت البيتَ الطويل، شاكرةً الله على الاستِراحة. فتنفسَّت الصُّعَداء، وداعبَت رقبةَ ابنِها بأنفها. واشتمَّت منه رائحةً طيِّبة جدًّا. فقبَّلته قائلةً: "ليس غاضبًا عليك، يا صغيري. إنَّه غاضبٌ على العالم".

ركَضَ إليها ولَدا مارتا توَّاقين إلى اللَّعِب مع ابن خالِهما الصغير. فوضعَت كالِب على الأرض. كان مُعظَمُ الأولاد في القرية يجولون راكضين عُراةً ومُتَّسِخين. وقد تركَتهم الأُمَّهات يطوفون ويلعبون كما أرادوا، ولم يُعنَينَ إلَّا بأن يتيقَّنَّ بألَّا يتوهوا بعيدًا. فابتهجَ كالِب برِفقتهما الحافلة بالحماسة والمرَح، كما ابتهجَت هي أيضًا. يا له من تغيير مُبارك عن تجمُّعِ الرِّجال الغاضبين في البيت المُستطيل!

نادَت مارتا من حيثُ كانت تشتغِلُ بمِغزَلها خارِجَ بيتها الطويل تمامًا. "ألْسا! دَرِك! تعالَيا مُبتعِدَين عن رِصفة وكُفَّا عن إزعاجها!"

فقالت رِصفة مُبتسِمةً: ''إنَّهما لا يُزعِجانني بتاتًا، مارتا''.

وتجاهلَتها مارتا: ''دَرِك! تعالَ إلى هُنا!''

تلاشَت بَسمةُ رِصفة إذ مشى الولَدانِ باكتئابٍ راجِعَينِ إلى أُمِّهما. ودُعيَ الآخرون إلى الابتعاد عنها حتَّى وقفَت في الشارع وحدَها، وكالِبُ يتمايَلُ صعودًا ونزولًا ويُثرثِرُ بانفعالٍ شديد. وقد تكلَّمَت مارتا إلى ولَدَيها قليلًا، ثُمَّ أومأت برأسها نحو الغابات. فجادَلا، ولكنَّهما أُسكِتا بسُرعة وأُرسِلا في سبيلهما. والتفتَت ألْسا إلى رِصفة بقَسَماتٍ مُتجهِّمة.

''اذهبي، ألْسا!''

أرادَ كالِب أن يذهبَ معَهُما. قال: ''سا! سا! سا!'' دارِجًا وراء ابنةِ عمَّته الكُبرى. فشرعَت ألْسا تركضُ باكيةً. ووقَعَ كالِب. فدفَعَ نفسَه للوقوف، باكيًا. ''سا...سا...''

جثَت رِصفة مجروحةً، وأوقفَته باستقامة. وإذ نفَّضَت تُنكَه الكَتَّانيَّ، قبَّلَته. ثمَّ استقامت شائلةً كالِب، ونظرَت إلى مارتا من بعيد. كيف أمكَنَ أن تفعلَ هذا؟

ضغطَت وجهَها على عُنق كالِب، وصلَّت. تمتمَت مُدافِعةً الدُّموع: ''اللهُمَّ، انزَعْ غضبي!'' وإذ رفعَت رأسها، رأت مارتا قاعِدةً ورأسُها مُنكَّسٌ، ويداها ما زالتا في حِضنها.

تبدَّدَ غضَبُها على أُختِ زوجها. إنَّ مارتا لم تكُن فظَّة. لقد كانت خائفة. ولمَّا رفعَت نظرَها ثانيةً، ابتسمَت رِصفة لها بلُطف لِتُبيِّنَ أنَّها لم تكُن تُضمِرُ أيَّ حقدٍ عليها. لقد تذكَّرَت ما عناه أن تعيشَ في الظَّلام وتكونَ خائفة.

تمتمَت لكالِب: ''سنذهَبُ في نُزهة ونزورُ ثيوفيلُس''. ثُمَّ انطلقَت سائرةً في الشارِع من جديد.

''ثيو...ثيو...''

''نعم، ثيو''. وحطَّته على الأرض ثمَّ أمسكَت بيده، مُقلِّصةً خُطاها مُجاراةً لِخُطاه الأصغَرِ بكثير.

كان بيتُ ثيوفيلُس المُستطيل قد أُنجِزَ تقريبًا. وكانت نارٌ صغيرةٌ مُشتعِلةً في المساحة الخالية أمامَه، ولكنَّ صديقَهُم لم يكُن في أيِّ مكانٍ قريب. فدفعها الفُضولُ إلى دُخولِ الكوخِ الغائر لترى داخِلَه. كان ثيوفيلُس قد قام بمزيدٍ من النَّقب منذُ جاءت آخِرَ مرَّة لرؤية البيت. وكانت الحُفرة بعُمق خمس أقدام وعَرضِ عَشرٍ وطولِ اثنتَي عشرة قدمًا. ورأت رِصفة في الزَّاوية البعيدة حَشيَّةَ قَشٍّ وبطَّانيَّتَين سميكتَين من صوف، وفي مكانٍ قريبٍ عُدَّتَه مُكدَّسةً بترتيب.

كان بناءٌ خشبيٌّ بسيط منصوبًا فوق الغُرفة الغائرة، والبنية الفوقيَّة مكوَّنة من هيكَلٍ جَملونيٍّ

ذي أعمدة مائلة مربوطة برافِدة أُفقيَّة مرفوعة على ستَّة أعمِدة قائمة. وكانت الجُدرانُ مصنوعةً من ألواحٍ غير مصقولة، والسَّقفُ مُغطًّى بغِماءٍ من قشٍّ وطين، والأرضيَّةُ من طِينٍ مَطروق.

فاحت من البيت المُستطيل رائحةُ التُّراب النظيف الخَصِب. وكان الداخلُ لطيفَ البُرودة، إلَّا أنَّ رِصفة علِمَت أنَّه في الشتاء سيكون دافئًا على نحوٍ مريح بوجود نارٍ صغيرة مُشتعِلة.

قالَ ثيوفيلُس من مدخَلِ البابِ فوقها ووراءَها: ''ما رأيُكِ؟'' فالتفتَت إليه مُجفِلةً. وقد أسندَ إحدى ذِراعَيه إلى الباب واتَّكأ مُنحَنيًا، مُبتسِمًا لها.

''إنَّه يبدو جذَّابًا أكثر من بيت قارُس المُستطيل''. وفي الحال ندِمَت على ملاحظتِها. فهي لم تقصد أن تنتقد.

ما إن خرجَت خارجًا إلى ضياء الشَّمس، حتَّى أخذ ثيوفيلُس كالِب منها ورفعَه في الهواء، مُهزهِزًا ومُضحِكًا إيَّاه. فابتسمَت إذ شاهدَته يُلاعِبُ ابنَها. إذ كان أتريتِس مشغولًا جدًّا بمُجادلة أنسِبائه حتَّى لم يبقَ لدَيه وقتٌ لكالِب.

لاحظَت الأرنب المُطيَّب الذي كان ثيوفيلُس قد شكَّه بسيخ ووضعه فوقَ النار.

وعلَّقَ ثيوفيلُس: ''أرنب سمين جيِّد. ابقَي وشارِكيني في الطَّعام''.

''كان بودِّي أن أبقى، ولكنْ شارِك كالِب. لستُ جائعةً جدًّا''.

فتأمَّلَ وجَهَها، ورأى أنَّها كانت مُضطرِبةً بشِدَّة. ''ألا تجري الأُمورُ حسَنًا؟''

''حسنًا كفايةً في إطار الأحوال الراهنة، كما أعتقد''. قالت هذا مُتملِّصةً ورأت نظرته، فأضافَت: ''إنَّه يُبشِّرُ بالإنجيل. وبالحقيقة أنَّه يُنادي به بصوتٍ يبلغُ روافِدَ السَّقف. ثُمَّ إنَّ قارُس والآخرين يردُّون حالًا بالصُّراخ عن قُدرةِ طِيواز''. ثمَّ جلسَت وفرَكَت صُدغَيها. ''إنَّه لا يُصغي إليهم. وهم لا يُصغون إليه. فلا أحَدَ يُصغي إلى أيِّ شخص أو أيِّ شيء''.

''إنَّ الله يعمَلُ بواسطة الناس على الرُّغم من عيوبهم، يا محبوبة، وكثيرًا ما يعمل بواسطتها''. ثمَّ أنزَلَ كالِب وأعطاه تربيتةً على قفاه.

رفعَت نظَرَها إليه مغمومةً. ''أُريدُ أن أُصدِّقَ ذلك، ثيوفيلُس، ولكنْ حين أرى أتريتِس، لا أستطيعُ أن أرى الفرقَ بينه وبينَ جميع الآخرين، ما عدا كوني أُحِبُّه. يا ليتَه يُلجِمُ لسانَه!''

قعَدَ كالِب بقُربها يلعَبُ بالعُشب. فأجرَت يدَها برِفقٍ على شعرِهِ الدَّاكن، فيما تابعَت قائلة: ''قارُس والآخرون مُعانِدون ومُتكبِّرون وشَرِسون فوقَ كلِّ حسبان. وأتريتِس كذلك أيضًا. أحايينَ يبدو على استعداد للإمساك بقارُس من حنجرته وخَنقِهِ إذا لم يؤمن بيسوع

على أنَّه الرَّبُّ".

"لقد شعرتُ بذلك النَّوعِ من الإحباط قبلا". وابتسمَ ثيوفيلُس ابتسامةً عريضة. "كانت الطريق إلى جِرمانيا طويلة".

فابتسمَت. لقد تذكَّرَت كما تذكَّر، بل أفضَلَ من ذلك بكثير، ولم تُرِد أن ترى أتريتِس يرجع إلى نوعِ الرَّجُلِ الذي كانَه.

كان رأسُها موجوعًا. ففركَت صدغَيها من جديد. "كانَ لا بُدَّ من مُعجِزة لتغيير رأيِ أتريتِس بشأنِ المسيح".

"المُعجِزاتُ حادثةٌ حولَنا كلَّ يوم، رِصفة".

فقامَت مخضوضةً. "أنت تعلم نوعَ المُعجِزة التي أعنيها. سيقتضي الأمرُ غيابَ الشَّمس عندَ الظُّهر لإقناع هؤلاء القوم".

وقالَ بلُطف: "اقعُدي". فقعدَت.

"إنَّ أتريتِس لم يتغيَّر، ثيوفيلُس. هوَ الآنَ غاضِبٌ كما كان دائمًا. ما رأيتُ قطُّ رجُلًا مُصمِّمًا هكذا على بُلوغِ مُبتغاهُ بطريقته الخاصَّة. وإذا فعلَ ذلك، فسيجرُّ قومَه إلى داخِل ملكوت الله راكلًا وصائحًا، سواءٌ أرادوا أن يكونوا هُناك أم أبَوا".

ثُمَّ قامَت مُتَململةً وقلبَت أرنبَه.

والتوى فمُه ضاحكًا إذ قعدَت من جديد. لقد كانت مُفعَمةً بالطَّاقة العصبيَّة. فلو كانت في الجيش، لأمَرَها بأن تركُضَ لتُصرِّفها.

قالت: "هل تذكرُ لمَّا قلتَ لنا إنَّ كلِمةَ الله هي سيفُ الحقِّ؟"

"أذكُر".

"حسنًا، لقدِ ادَّخَرَ أتريتِس ذلك في قلبه. فهو يُشطِّب أنسِباءه بكلماته. إنَّه يقصفُهم بالحقِّ بِلا رحمة. لقد صار الإنجيل سلاحًا في يدَيه".

قعَدَ ثيوفيلُس وشبَكَ يدَيه بين رُكبتيه. "سوف يتعلَّم".

"بعدَما دفَعَ هؤلاء الناس رجوعًا إلى ذراعَي طِيواز؟"

"ما غادَروا قطُّ".

"وهذا سيجعلُهم يُريدون أن يُغادروا؟ إنِّي أخاف عليهم جميعًا، ثيوفيلُس. أخافُ على مارتا والأولاد. وأخافُ أكثرَ الكُلِّ على أتريتِس. إنَّه مُتوقِّدٌ لأجل الرَّبِّ، ولكنْ ماذا عن

المحبَّة؟" وقد تساءلت أحيانًا هل كان أتريتِس مُهتمًّا بإنقاذِ كبريائه أكثرَ من اهتمامه بإنقاذ النُّفوس.

فسأل ثيوفيلُس بهدوء: "ماذا لدَيكِ تخافينَه، رِصفة؟ أتعتقدينَ حقًّا أنَّ خُطَّةَ الله ستنهارُ فوق زلَّاتِ انفِعالِ رجُلٍ واحد؟"

وهدَّأَ سُكونُه الوادعُ الأفكارَ المُصطخِبَة المُدَوِّمةَ في رأسها.

لقد علِمَت ما كان يسألُ عنه حقًّا. هل آمَنَت بأنَّ الله هو المُهَيمِن؟ هل آمَنَت بأنَّ لدى الله خُطَّةً لأتريتِس ولها ولهؤلاء الناس؟ هل كان لها إيمانٌ بالمسيح كافٍ لأنْ تُصدِّقَ أنَّه سيُكمِلُ العملَ الذي بدأه؟

ومَثُلَ أمامها سؤالٌ واحد، جليًّا وبسيطًا: **أينَ يكمن إيمانُكِ، رِصفة؟ أفي الآخرين؟ وفي نفسك؟ أم فيَّ؟**

فوَخَزتها الدُّموع. "إيماني ضعيف". **أيُّها الرَّبُّ إلهي، أنا أداةٌ ضعيفةٌ جدًّا. مُثيرة للشَّفقة. مُضحِكة. لِماذا تحتمِلُني؟**

"لدَيكِ ما قد أعطاكِ الله إيَّاه".

"ليس كافيًا".

"مَن يعرِفُ أفضلَ من الله ما تحتاجين إليه، يا محبوبة؟"

رفعَت وجهها، تاركةً للشَّمس أن تُدفئَها. أرادت أن تتمسَّك بكلماتِه وتُمسِكَها بإحكام. ثمَّ حنَت رأسَها وأغمضَت عينَيها. "كلَّ صباح، حينَ نُصلِّي معًا، يكونُ أتريتِس هادئًا جدًّا، يكون سعيدًا. في الصَّباح، أُومِنُ بأنْ لا شيءَ سيُوقِفُ الرَّبَّ عن إتمامِ قصدِه في حياتنا. وأكونُ مُفعَمةً باليَقين والرَّجاء".

ونظرَت إلى صديقها، مُتمنِّيةً لو تكونُ مِثله. "إنَّما في ما بَعد، عندَما أُصغي إلى صُراخ الغضَب كلِّه، أتساءلُ لِمَنِ الإمرَةُ حقًّا".

ثمَّ رفعَت نظرَها إلى السَّماء الزَّرقاء والغُيوم البيضاء. "أحيانًا، أتمنَّى لو يرجِعُ الرَّبُّ يسوع الآن، في هذه الدقيقة، ويضَعُ الأُمورَ في نِصابها. أتمنَّى لو يُزَلزِلُ الأرض ويفتحُ عيونَهم كُلَّها على مَكايِدِ الشَّيطان. عندَئذٍ لا بُدَّ أن يَعرِفَ الحقَّ قارُس وفرايجا ومارتا وجميعُ الذين يعيشون خائفينَ من طِيواز". وفكَّرَت في النَّظرة التي بَدَت على وجهِ مارتا. كانَتِ المِسكينةُ خائفةً وخَجِلة. "أتمنَّى لو يُتاحُ لهم أن يرَوا الرَّبَّ يسوع بكُلِّ جلاله ومجدِه نازلًا من السَّماء.

عندئذٍ لا بُدَّ أن يعلموا أن طِيواز هو لا شيء. عندئذٍ يصيرون أحرارًا".

"ليس كلُّ مَن رأى الآياتِ والعجائبَ التي أجراها المسيح أُقنِعَ بأنَّه ابنُ الله".

"أتريتِس أُقنِعَ".

"كان أتريتِس جاهِزًا لأنْ يُقنَع. كان شخصٌ ما قد زرَعَ البِذارَ قبلَما التقَيتِه أنتِ".

"هَدسَّة".

"كان جائعًا إلى المسيح. ليست العجائب البتَّةَ ضمانةً أنَّ الإيمان سيتبَع، وهي ليست أبدًا أهمَّ من رسالة الخلاص".

"نعم. سننتظِرُ ونرجو. وسنُصلّي".

فابتسَمَ ولم يقُل أيَّ شيء.

وتنهَّدَت. "ما كان الصَّبرُ قطُّ واحدةً من فضائلي، ثيوفيلُس".

"ستتعلَّمين".

"كيفَ سأتعلَّم هو الأمرُ الذي يُقلِقُني دائمًا". وابتسمَت له ابتسامةً حزينة. "ألا تتمنَّى أنتَ لو يرجِعُ المسيحُ الآنَ ويُخلِّصُنا من هذا البَلاءِ كلِّه؟"

"مع كُلِّ نَفَسٍ آخُذُه".

فضحِكَت. "شُكرًا لله أنّي لستُ وحيدة. لدَيَّ فكرة. لماذا لا نبني بيتًا إكرامًا للرَّبِّ وندخَلُ إليه ونُغلِقُ الأبواب ولا نخرجُ منه ثانيةً البتَّةَ؟"

رُغمَ دُعابَتِها، فقد رأى التَّعاسةَ في عينَيها. "أيُّ نُورٍ يمكن أن يشعَّ من بيتٍ مُغلق، يا محبوبة؟ الله يُريدُ لنا أن نكون في العالَم، لا مُختبئين منه".

فتلاشَت ابتِسامتُها، وظهرَ إحباطُها. "أتريتِس ليس مُختبئًا. إنَّه واقفٌ في وسط ساحة المُحاربين من جديد، مُندفِعًا بعُنفٍ على كلِّ مَن يُعارِضُه. إنَّه يجلِدُ الأخَ والأنسِباءَ والأصدقاء على السَّواء". ولوَّحَت بيَدِها نحوَ القرية. "لمَّا غادرتُ، كانَ في وسطِ مُباراة صُراخ مع قارُس عن سلامِ الله وما يمكن أن يعنيَه للشَّطِّي. السلام، ثيوفيلُس. كيف سيفهمون يومًا، وهذه هي طريقةُ إخبارِه إيَّاهُم؟"

"سيتعلَّم، رِصفة. سوف يتعلَّم. علينا أن نكونَ صابِرَينِ عليه".

"كما هو صابِرٌ عليهم؟"

”لا، بل كما الله صابِرٌ علينا. بعكسِ ما تُفكِّرين الآنَ، لا ينبغي أن يكون أتريتِس موضِعَ اهتمامكِ الأَوَّل. إنَّ التزامَنا الأوَّل هو تُجاهَ الرَّبِّ“.

”أنا أعلَم، ولكنْ...“

”أنتِ تعلمين، ولكنْ أتَتصرَّفين بحسَب ما تعلمين أم بحسَب ما تُحِسِّين؟“

جلسَت شاعرةً بأنَّها مُغفَّلة. إنَّها على الدوام مُسرِعةٌ إلى التكلُّم ومُبطئةٌ في الاستماع. وقد كان ذلكَ واحدًا من إخفاقاتها، على غِرارِ طَبعِ أتريتِس المُتَّقِد، السَّريعِ الغضب، وذاكِرتهِ البعيدةِ المدى، الشَّديدة الغَلَيان.

وقفَ ثيوفيلُس، وقلَبَ الأرنَب. ”انظُري إلى أتريتِس كطِفلٍ في الإيمان. إنَّه يتعلَّم أن يسلكَ بالإيمان، كما تعلَّمَ كالِب أن يمشيَ على رِجلَيه. تذكَّري كيف تعثَّر وسقط مِرارًا وتكرارًا أوَّلَ الأمر. وقد آذى نفسَه أحيانًا. لقد كان أخرَقَ. ذهَبَ إلى حيثُ لا ينبغي له أن يذهب. وكثيرًا ما بكى مُحبَطًا“. ثُمَّ استقامَ وأومأ برأسه نحوَ المَرجة المغمورة بأشِعَّة الشَّمس. ”انظُري إليه الآن“. وقد كان كالِب يدرُجُ بسُرورٍ وراءَ فَراشة. ”كلَّ يوم، قدَماه أكثرُ ثباتًا“.

وابتسمَ لها. ”نحنُ على هذه الشَّاكِلة. إنَّنا نتعلَّم أن نمشيَ مع المسيح. وهذه عمليَّة مُستمرَّة، لا فِعلٌ مُنجز. فنحنُ نُصَمِّمُ على اتِّباعِ الرَّبِّ ونُخلِّص، ولكنَّ الأمر لا ينتهي هُنا. علَينا أن ننكبَّ باجتِهادٍ على سلوكِ سبيلِ القداسة. فأيُّ آياتٍ من الأسفار المُقدسَّة أعرِفُها سأُعلِّمُكِ إيَّاها. وأنتِ تعملين بكلمة الله في عيشةٍ عمليَّة يومًا فيومًا. إنَّ الحقَّ نفسَه سوف يشهد لهؤلاء القَوم“.

”لكنِ انظُرْ حوالَيك. ها هُنا كثيرٌ مُناقِضٌ لما يقولُ لنا الله إنَّه الصَّواب“.

”ليس عمَلُنا أن نُغيِّرَ طريقةَ عَيشِ هؤلاء الناس. وليس هو أن نُقاتِلَ معبودًا وثنيًّا، كما أنَّ عمَلَ أتريتِس ليس أن يُحاوِلَ إدخالَ إيمانٍ بالمسيح إلى رؤوسهم بالقوَّة. إنَّ عمَلَنا هو أن نُكرِّس حياتَنا لإرضاء الله. نعَم، الأمرُ بهذه البساطة. علينا أن نُخصِّصَ جُهودَنا كلَّها لنتعلَّمَ أن نُفكِّرَ كما يُفكِّرُ الله، وأن نرى أنفُسَنا والآخرين من خلال عينَيه، وأن نسلُكَ كما سلك ربُّنا. ذلك هو عمَلُ حياتِنا“.

”أتقول إنَّه لا ينبغي لي أن أُقوِّم أتريتِس“.

”بلُطف. على انفراد. وإذا كان سيُصغي فقط“.

”لقد حاولتُ. تكونُ الأمورُ جليَّةً في رأسي، ثُمَّ أفتَحُ فمي فأُخطئُ التَّعبير. وأحيانًا، حتَّى حينَ أُحسِنُ التعبير، يفهَمُ فهمًا خاطئًا“.

"تحدَّثتُ معه أنا أيضًا. وأنا مُستريحٌ على هذا: أنَّ الرُّوحَ القُدس سيعمل في داخِل أتريتِس دونَ مُساعَدتِنا، ورُبَّما على الرُّغم منها". إلَّا إذا قرَّر أتريتِس يومًا أن يُسكِتَ الصَّوتَ الهادئَ الرَّقيقَ الذي دعاه في المقام الأوَّل. وقد صلَّى ثيوفيلُس بِلا انقطاع طالبًا ألَّا يحدُثَ ذلك أبدًا. "يُواجِهُ أتريتِس الآنَ معركةً أعظمَ ممَّا واجه يومًا في أيَّة ساحةِ مُحارِبين".

علِمَت رِصفة ذلك وهمَّت بأن تبكي. وقالَت مُكتئبةً: "إنَّه يخسَر المعركة". **اللهُمَّ، أمَا كان عليه أن يُقاتِلَ كفايةً؟**

شاهَدَها ثيوفيلُس تقِفُ وتلحَقَ بكالِب. انتزعَت حجرًا من فمه وقذفَته بعيدًا. ومسحَت التُّرابَ عن وجهه بطَرَفِ شالِها، مُتكلِّمةً إليه بلُطف، ومُربِّتةً إيَّاه قليلًا. وتبسَّمَت إذ توجَّهَ إلى كُومة التُّراب التي كان ثيوفيلُس قد كوَّمها في أثناء حَفرِهِ لإقامة البيت المُستطيل، وكانت من التُّربة الجيِّدة الخَصِبة التي سيفرشها كي يُعِدَّ حقلًا للزَّرع.

ثمَّ عادَت. كان ذلك يومًا دافئًا، ومع ذلك أرخَت شالَها حولَ كتِفَيها. "أتريتِس لا يُصغي إليَّ على كلِّ حال".

"إنَّه يُصغي. وأهمُّ من ذلك أنَّهُ يُراقِبُ. فمنذُ أن تعرَّفتُ إليه، ما تزالُ عيناهُ عليكِ".

فأطلقَت ضِحكةً قصيرة. "ليس لأنِّي مسيحيَّة".

وجعلَها افترارُه تتورَّد. "صحيح، لقد راقبَكِ في البداية بنيَّاتٍ أقلَّ من شريفة، ولكنَّ ما رآه كان شابَّةً جميلة تُمارِسُ إيمانها. لقد كان لمسيرَتكِ مع الرَّبِّ تأثيرٌ بالغٌ فيه. وستبقى ذاتَ تأثيرٍ عميقٍ فيه".

"كانت مسيرتي أقلَّ من كاملة، ثيوفيلُس". كم مرَّةً قالت كلِماتٍ ندِمَت عليها؟

"ذلك هو سبَبُ تذكيري لكِ. الخطيئةُ التي يجب أن نُعنَى بأمرِها هي الخطيئةُ في حياتنا. إنَّها أصلُ كلِّ بَليَّةٍ بشَريَّة، نَبعُ الكَرْب. دعي الله يتعامَل مع أتريتِس".

ثمَّ قامَت ولحِقت بكالِب ثانيةً، مُقرِّبةً إيَّاهُ أكثر.

ولمَّا رجعَت من جديد، استطاعَ أن يرى أنَّ كلامَه أقلقَها. "لا يبدو أنَّه يُدرِك ما هو فاعِلُه، أو ما يجري حوالَيه. إنَّ لأنوميا تأثيرًا شديدًا في هؤلاء القوم. وقارُس يتمسَّك بكُلِّ كلِمة تقولُها. ليس لدَيها خوفٌ لِله أبدًا، ولا حتَّى لطِيوازَ الذي تعبُدُه".

كان ثيوفيلُس يعلَمُ تمامًا أنَّ ما قالَته رِصفة صحيح، إلَّا أنَّه لم يُرِد أن يتحدَّثَ بشأن الكاهِنة الشابَّة.

"الرَّبُّ يتكلَّمُ إلى هؤلاء القَوم كلَّ يوم. الشَّطِّي من النَّسل الأصليِّ الذي نتحدَّرُ منه نحن. إنَّهم من ذُرِّيَّةِ آدم وحوَّاء. انظُري حوالَيكِ، يا محبوبة، وتَيقَّني بأنَّ الخليقة كلَّها تُحدِّثُ بمجد الله. فحتَّى حينَ يُقاوِمون، بل حين يرفضون أن يرَوا، أعطاهُمُ الله عطيَّةً أُخرى أيضًا: الضَّمير".

ومال ثيوفيلُس إلى الأمام، عاقدًا العزم على إراحة بالِها. "لقد عرَفَ ضميرُ أتريتِس دوافِعَه الدَّاخليَّة وأفكارَه الحقيقيَّة قبلَما قبِلَ فِداءَ المسيح ونالَ الروح القُدُس. فمهما حاولَ جاهدًا أن يُبرِّرَ نفسَه وأفعالَه، فإنَّ الضَّمير الذي أعطاه الله إيَّاه لن يسمحَ بذلك".

ثمَّ أومأ برأسِه نحو الغابة المقدَّسة: "هل شاهدتِ فرايجا؟ شاهدتِها فعلًا؟ إنَّها تُجاهِدُ ضدَّ القوى المُسَيطرة عليها. إنَّها في بلاءٍ من جرَّاء تلك القِوى. ولا راحةَ لها. كما عانى أتريتِس سيطرةَ أرواحِهِ الشِّرِّيرة، تُعاني هي تمامًا سيطرةَ أرواحها. وقد أنذرَهُ ضميرُه غريزيًّا بدينونةِ الله ونارِ جهنَّمَ الآتية، كما يُنذِرُها ضميرُها تمامًا الآن. لقد عذَّبَهُ ضميرُه لأنَّه أخطأ، كما يعذِّبُها ضميرُها الآن تمامًا. فإنَّ الخطيئة تُنتِجُ شعورًا بالذَّنْب".

"ولكنَّ أيًّا منهما لم يكُن مسؤولًا عمَّا جرى له. فمسؤوليَّةُ صيرورةِ أتريتِس مُصارِعًا في ساحة المحاربين لا تقع على عاتِقه".

"كلُّ ما نفعلُه، نفعلُه باختيارنا. إنَّ الأحوال لا تُغيِّرُ الصَّوابَ والخطأ".

"كان مُمكِنًا أن يقتلوه".

"ربَّما".

"ربَّما؟ أنت تعلَم أنَّه كان من شأنهم أن يقتلوه؛ ولو فعلوا ذلك لماتَ غيرَ مُخلَّص".

فالتوى فمُه سُخريةً. "لقد رأيتِ رُلف. كان ينبغي أن أكونَ مَيتًا الآن. وقد افترضتُ أنِّي سأموت لمَّا خطَوتُ إلى داخلِ الدائرة معه. افترضتُ أنَّه الوقتُ لي لأموتَ من أجل الرَّبِّ. فرُلف أصغر سنًّا وأقوى وأسرع وأذكى. ما كانَ في يدي تُرسٌ ليلةَ واجَهتُه، وقالَ لي الله أن أتخلَّصَ من سيفي. فمن غلَبَ؟"

"أنتَ غلَبتَ".

فابتسمَ برِقَّة: "لا، رِصفة. الله غلَبَ".

ثمَّ نزعَ الأرنب من السيخ ودعا كالِب ليأتيَ ويأكُلَ معه. وراقبَته رِصفة يُقطِّعُ الأرنب قِطَعًا وينزِعُ بعض اللَّحم عن العظم كي يبرُدَ لأجل كالِب. وفي أثناء انتظاره، لعِبَ مع الطِّفل بمِثلِ السُّهولة التي بها تحدَّثَ إليها. فإذ راقبَتِ الرَّجُل، كبُرَ قلبُها بالمحبَّة من نحوه.

يا ربُّ، ماذا كُنَّا سنفعل لولاه؟ أيُّها الآب، ما كُنَّا لِننجحَ بتاتًا في مسعانا لو لم تُرسِله إلَينا في أفسُس. لماذا لا يمكن أن نكون، أتريتِس وأنا، أكثَرَ شبَهًا به؟ إنَّ بيِّنةَ إيمانه تُشِعُّ على كُلِّ من هُم حولَه. أمَّا إيماني فتافِهٌ في أفضلِ حالاته، وأتريتِس يُنفِّرُ الناس. ربَّاه، ماذا كُنَّا سنفعل لولا نُصحُ ثيوفيلُس المُتَّسِمُ بالحِكمة؟

وحتَّى بينَما هي تُفكِّرُ في هذه الأمور، حلَّت بها نَوبةُ خوفٍ يتعذَّر تفسيرُها.

استطاعت أن تُحِسَّ الظُّلمةَ مُطبِقةً عليهم من كلِّ جِهَة، مُحاوِلةً أن تطمِسَ النُّور.

٣٨

غادَرَ أتريتِس البيتَ الطويل، ودَمُه يُضَخُّ ساخنًا وسريعًا من الغضَب. لو بقيَ دقيقةً أُخرى، لكانَ ضرَبَ أخاه وحمَلَ على الباقين. فليُمطِرِ اللهُ كِبريتًا على رؤوسهم! لقدِ استحقُّوا ذلك.

رأى مارتا جالسةً إلى نَولِها في الجِهَة المُقابِلة من الشارع، فمشى نحوَها بخُطًى واسعة. "هل رأيتِ رِصفة؟"

قالت: "ذهبَت في ذلك الاتِّجاه". وقد تجنَّبَت وجهَه، وكان وجهُها شاحِبًا.

"هل كُنتِ تبكين؟"

فدفعَتِ المغزلَ بين الخيوط، قائلةً: "لماذا، يا تُرى، تظنُّ ذلك؟"

"لأنَّ ذلك يبدو عليك. ما الأمر؟"

"لا شيء. الأمرُ هو لاشيء". وارتجفَت يداها فيما شغَّلَت النَّول. لقد ظلَّت ترى سيماءَ وجهِ رِصفة لمَّا نادَت ألْسا ودَرِك للابتعادِ عنها. المُفاجأة. التأذِّي.

شعرَت بالخِزي.

"أهي مع أُمِّنا؟"

"لا".

فحدَّقَ إليها بحِدَّة. "لماذا تقولينها هكذا؟"

"أقولُها كيف؟" وأمالَت رأسها دِفاعيًّا.

"لا تستعملي تلك اللهجةَ معي، مارتا". أكانت تنوي أن تقِفَ ضدَّه هي أيضًا؟

فقالَت: "لِمَ لا؟" وعواطفُها في اضطِرابٍ واصطِخاب. "لأنَّك قد تبدأ بالصُّراخ عليَّ كما كنتُ تُصرِّخُ على ڤارُس وأُصيبي والآخرين؟" ووقفَت: "لا تسأل ما خَطبي، أتريتِس. ما خَطبُك أنت؟" وهربَت إلى داخل بيتها الطويل، باكيةً.

انطلَقَ وراءَها مرتبكًا، بل أكثرَ إحباطًا أيضًا.

وجاء صوتٌ مُثيرٌ من ورائه تمامًا: "ستكونُ بخير".

فأدارَ رأسَه مُتجهِّمًا، وإذا به يرى أنوميا. وقد كانت آخِرَ شخصٍ أراد أن يراه تلك اللَّحظة.

شاهدَت حَملقتَه تطوفُ عليها إذ دارَ وواجهَها. كانت قد اختارَت تُنكَها بدِقَّة، عالِمةً جيِّدًا كيف انسدَلَ الكتَّانُ بنُعومة على مُنحنَياتِ جسَدِها الشَّهوانيَّة.

لاحظَ أتريتِس ذلك. ولم يتمالك نفسَه. فاستساغت تلك اللحظة، شاهِقةَ النَّفَسَ برِقَّة وزافِرةً الانتصار. وأظلمَت عيناه بطريقةٍ نامَّة. جيِّد. لقد استمتعَت بشَبَقِه، بل زادَ استمتاعُها بَعدُ لأنَّه قاومَ انجِذابَه إليها. فليُقاومه. إنَّ كِفاحَه الداخليَّ سيجعَلُ الاكتمالَ أحلى بكثيرٍ جدًّا، وضاريًا.

قالت: "ينبغي أن نتكلَّم".

"عمَّ؟"

باختصار شديد. لقد كانت عواطِفُه مُحلِّقة. "كنتُ أُصغي إلى ما لدَيك لِتَقولَه. الإلهُ الذي تتكلَّم عنه يبدو...مُشوِّقًا".

فقال بجفاف: "حقًّا؟"

وابتسمَت له: "هل تشكُّ فيَّ؟"

"أينبغي لي؟"

لم يكُن مِثلَ قارُس، ولكنَّ ذلك كان جيِّدًا. لقد كان قارُس مُملًا، ضعيفًا، يمكن التنبُّؤُ بتصرُّفه. "أأنت خائفٌ من التَّباحُثِ في يسوعِكَ هذا مع كاهِنةٍ عُليا لطِيواز؟"

فمالَ فمُه. "ما زلتُ أُواجِهُ صعوبةً في رؤيةِ أُختِ أنيا الصغيرة كاهِنةً عُليا لأيِّ شيء".

لم تُبدِ كيف أغضبَتها كلِماتُه. كيف يجرؤ على التهكُّم بها كفتاة صغيرةٍ غبيَّةٍ ضعيفة؟ وإذ ستَرَت مشاعِرَها الحقيقيَّة، بوَّزَت له، مُتكلِّفةً التَّسلية. "أأنت قلِقٌ لأنِّي قد أطرحُ سؤالًا لا تستطيعُ الإجابةَ عنه؟"

فخفَقَت عَيناهُ حِيالَ التَّحدِّي. "اسألي".

"كيفَ يُعقَل أن تكون أنت أو أنا مسؤولَين عمَّا فعلَه رجُلٌ واحد أو امرأةٌ واحدة منذُ آلاف السنين الغابِرة؟"

فشرَحَ خبَرَ مُواجَهة آدم وحوَّاء مع الشَّيطان كما كان قد شرحه ثيوفيلُس له، ولكنَّها ضحِكَت.

"قصَّةٌ ظريفة، لكنْ مُضحِكة، أتريتِس. فلا عجَبَ أنَّ الرِّجال أبَوا أن يُصدِّقوك".

"ما المُضحِكُ فيها؟"

تظاهرَت بالدَّهشة لمُجرَّدِ طَرحِهِ السؤال. ووسَّعَت عينَيها إفزاعًا، قائلة: "لا يمكن أن تُحمَلَ

على تغيير رأيك بهذه السُّهولة البالغة. فكِّر في ما أنتَ قائلُه لنا. لماذا ينبغي أن نشعُرَ بالذَّنْب من أجلِ الخِيار الذي اختارَه رجُلٌ وامرأة منذ آلاف السِّنين في مكانٍ لم ترَهُ قطُّ ولا حتَّى سمِعتَ به؟ هل كنتَ هناك؟ لا. هل كنتُ أنا؟ لا. أكُنتَ تقِفُ جانبًا فيما زوجتُكَ تُغوَى؟ قضيتُ وقتًا شاقًّا في تصوُّرِ الأمر، ولكنْ بعدَ ذلك...'' وقد توقَّفَت عمدًا كما لو أنَّ شيئًا بغيضًا خطَرَ في بالِها. وجعلَت حَملقتَها تنجرِفُ إلى الغابات، حيثُ كانَ الرُّومانيُّ يُنجزُ بيتَه الطويل.

وإذ رفعَت نظرَها، رأت حَملقةَ أتريتِس تنجرِفُ أيضًا. لقد كان رجُلًا شَغِفًا ومُتملِّكًا. فلن يكونَ صعبًا فوقَ الحدِّ أن تُثارَ شكوكُه تجاهَ صديقِهِ الرُّومانيِّ وأمانةِ تلك السَّاحِرة الإيونيَّة الصغيرة السَّوداءِ العينَين.

تجهَّمَ أتريتِس. أين كانت رِصفة؟ لقد أرسلها إلى الخارج، مُتوقِّعًا أن ترجِعَ عندما يهدأ كالِب. وقد غابَت أكثرَ من ساعة. فلم تَرُقهُ فِكرةُ كَونِها وحدَها مع رجُل، حتَّى لو كان ثيوفيلُس.

رأت أنوميا بانزعاجٍ مُتفاقِم أنَّها باتت مَنسيَّة. ولمَّا همَّ بأن يمشيَ مُبتعِدًا، مدَّت يدَها بسُرعة ووضعَتها بِخَفَّةٍ على ذِراعه. ''إلى أينَ أنتَ ذاهب، أتريتِس؟''

''لِأجِدَ زوجتي''.

لاحظَت كم أراد أن يجِدَها، فألهبَت دمَها دَفقةٌ غَيرة. ماذا رأى في تلك الغريبة الزَّيتونيَّةِ البَشَرة؟ فقالت، زارِعةً بِزرةً: ''هي في الغابات مع صديقِك ذلك الرُّومانيِّ''.

لم تُعجِب أتريتِس طريقةُ قولها ذاك. أيَّ لُعبةٍ كانت تلعب؟

وما لبِثَت أن سكبَت ماءً على البِزرة التي زرعَتها، قائلةً:

''سؤالٌ واحِدٌ بَعدُ، أتريتِس، عن هذه الفِكرة المُتعلِّقة بخطيئةٍ غامضة نحن مُذنِبون بها افتراضًا: لماذا، برأيك، يُريدُ لك رومانيٌّ أن تُصدِّقَ أُمورًا كهذه؟'' وإذ رفعَت نظَرَها إلى وجه أتريتِس الوسيم، أصعدَت صلاةً صامتةً إلى طِيواز طالِبةً أن يتأصَّلَ الشَّكُّ وينتشر.

دع أتريتِس يتحوَّل عن تلك الدَّخيلة ويُقبِل إليَّ! أحضِرْ جميعَ تابِعيك لِيَفتِنوه. اجعَلْه لي!

ربَّتَ أتريتِس يدَها ذاهِلًا. وقال: ''سنتحدَّث مرَّةً أُخرى''. ومشى مُبتعِدًا.

حدَّقت أنوميا وراءه، مُنفرِجةَ الشَّفتَين، وقد تكوَّرَت يداها قبضتين.

مشى أتريتِس بخُطًى واسعة في شارِع القرية الرئيسيِّ.

''هي في الغابات مع صديقك ذلك الرُّومانيِّ''.

انزعَجَ من كونِ مُلاحظةٍ واحدة يمكن أن تضعَ تفكيرَه على مَجازٍ مُظلِم جدًّا. ما كانت رِصفة قد وفَّرَت له أيَّ سبب ليشُكَّ في أمانتها، ولا فعَلَ ثيوفيلُس ذلك. إلَّا أنَّ تعليقًا واحدًا زائفًا سَمِجًا جعَلَ خَيالَه يُرَفرِفُ عاليًا! لقد علِمَ ما كانت أنوميا تُحاوِلُ أن تفعله، ولكنَّ عِلمَه بذلك لم يُجدِ نفعًا. ففي لحظةٍ واحدة، رأى زوجته في بيت ثيوفيلُس المُستطيل، مُستلقيةً على الأرضيَّة التُّرابية، واقِعةً في شَرَكٍ...

انبعثَ صَوتٌ هادر من أعماقِ حَنجرته. فهزَّ رأسَه مُحاوِلًا نَفْضَ الفِكرة منه. لم تكُن رِصفة مِثلَ جوليا في أيِّ شيء. وما كان ليخطُرَ في بالها يومًا البتَّةَ أن تتزوَّجَ رجُلًا وتحوزَ غيرَه عشيقًا. إلَّا أنَّه أحسَّ إلحاحًا للعثورِ عليهما وتهدئة خاطِره.

لم يجرِ أيُّ شيء كما سبق أن تصوَّر، لدى رجوعِهِ إلى البيت. كان قد توقَّعَ مُقاومةً للإيمان الجديد الذي أتى به، ولكنَّه لم يتوقَّعْ أن تتسلَّلَ مشاعِرُ أُخرى. نظَرَ حواليه إلى القرية ذات المباني الخشبيَّة غير المصقولة، والأولاد المُتَّسخين يركضون عُراةً في الشَّوارع، وتذكَّرَ شوارع رُوما المرصوفةَ بالحَصى وقاعاتِها الرُّخاميَّةَ. ثمَّ قعَدَ في البيت الطَّويل يَشُمُّ روائحَ أجسامِ أنسِبائه غيرِ المغسولة، وتذكَّرَ الحمَّاماتِ الرُّومانيَّةَ العريقةَ العابِقةَ بروائح الزُّيوت المُعطَّرة. وأصغى إلى قارُس والآخرين، سكارى وصائحين في سبيل الجدال، ففكَّر في الساعات الطويلة التي قضاها في المُناقشة الهادئة، لكنِ المُنعِشة، مع ثيوفيلُس. إحدى عشرةَ سنةً! إحدى عشرةَ سنةً طويلة مُضنية، ظلَّ يحلُمُ بالعودة إلى الدِّيار. والآنَ كان...هو لا ينتمي.

كان يشعُرُ بالرَّاحة مع ثيوفيلُس، وهو رومانيٌّ، أكثرَ منه معَ أنسِبائه أنفُسِهم. فأزعجَه ذلك. إذ جعلَه يشعُرُ بأنَّه كان يخونُ شعبَه وتُراثَه وجِنسَه.

مشى على الممرِّ، ورأى الفُسحةَ أمامه. كان ثيوفيلُس قاعدًا بقُربِ نارِ شَيٍّ صغيرة، مُشارِكًا كالِب في الطَّعام. وكان يتكلَّم، فيما أصغَت رِصفة بانتباه، وهي قاعِدةٌ مُقابِلَه. فكان ذلك مشهدًا بريئًا جدًّا: صديقان يتشاركان في وجبة، يتجاذبان أطراف الحديث، مُستريحًا أحَدُهما إلى الآخر. وما كان ينبغي أن يُقلِقَه، إلَّا أنَّه أقلقه فعلًا.

رآه ثيوفيلُس أوَّلًا وهتَفَ مُحيِّيًا.

أدارت رِصفة رأسَها وقامت. وابتسمَت له، فأحسَّ لكمةَ الشَّهوة كقبضةٍ في أحشائه. وأحسَّ شيئًا ما أيضًا. لقد علِمَ، دون أدنى شكٍّ، بأنَّ في وسعه أن يثِقَ بها. فتناوَلَ يدَها، وقبَّلَ كفَّها. وقالَ بصوتٍ أجشَّ: "تساءلتُ أينَ كُنتِ".

"دادا...دادا..." ولوَّحَ له كالِب بسَاقِ أرنبٍ مضوغة جُزئيًّا.

فضحِكَ مُسترخيًا، وقد نُسِيَت كلماتُ أنوميا تمامًا.

قالتَ رِصفة: "أليسَ هذا جميلًا، المكانُ هادئٌ جدًّا بحيثُ يمكنك أن تسمعَ شدْوَ الطُّيور. ينبغي أن ترى بيتَ ثيوفيلُس من الدَّاخل". وشبكَت أصابِعَها بأصابِعه: "تعالَ انظُر!"

كان على أتريتِس أن يُطأطِئَ رأسَه ليَدخُل، ولكنَّه استطاعَ أن يقف مُستقيمًا حالَما دخَل. وقد كان بيتُ ثيوفيلُس المُستطيلُ أكبرَ من البيوت الأُخرى في القرية، والبناءُ الفوقيُّ قويًّا. فنادَى إلى الخارج عبْرَ مدخل الباب: "شُغلٌ جيِّد، ثيوفيلُس! أنت تبني كجِرمانيٍّ".

فضحِكَ ثيوفيلُس تجاوُبًا.

وقالت رِصفة: "ألا يكونُ جميلًا أن نمتَلِكَ نحنُ بيتًا كهذا؟" وقد أفلتَته ودارت دورةً كاملة. فنظَرَ أتريتِس إليها ورأى توقًا لم يسبق أن لاحظَه من قبل. واكتنفَهُما السُّكونُ من جديد. فكانَ كلُّ ما أمكنَه أن يسمعه شَدْوَ الطُّيورِ في الخارج ودقَّاتِ قلبِهِ في أُذُنَيه.

راقَبَها أتريتِس تتحرَّكُ في أنحاء الغُرفة الغائرة. سيكونُ جيِّدًا أن يخرُجا من تحتِ سقفِ قارُس، حتَّى لو كان كلَّ ما لدَيهِما ظُلَّةٌ من السَّماء فوق رأسَيهما. بذلك تمامًا يُتاحُ لهُما أن يكونا وحدَهُما من جديد.

وراقَبَها مُفكِّرًا: سيكونُ عليَّ أن أقومَ بما في وُسعي بشأنِ بيتنا. ثمَّ لَوَتِ ابتسامةٌ شفَتَيه. وعاجِلًا!

قال أتريتِس: "أعتقِدُ أنَّكِ على حقٍّ". وقد سنَدَ رأسَه بيده. فلمَّا لم تُجِب، ابتسمَ ومسَّ برِفقٍ شفتَيها برؤوسِ أصابعه. "لا تنامي، حبيبتي. علينا أن نرجعَ عاجلا".

"أعلَمُ ذلك. إنَّما كنتُ أستمتِعُ بالسُّكون".

انحنى إلى الأمام وقبَّلها برِقَّة. "أكُنتِ تحلُمين ببيتٍ طويل يكونُ مِلكًا لنا؟"

فمسَّت شعرَه، وقدِ ارتسمَت عَبسةٌ فاترة. "ستَستاءُ أُمُّك إذا غادرتَ".

ولاحَظَ أنَّها لم تشمَلْ نفسَها.

إلَّا أنَّها كانت على حقٍّ مرَّةً أُخرى، وقدِ استلقى على ظهره، مُحدِّقًا إلى فوقُ عبْرَ ظُلَّةِ أغصانِ الصَّنوبَر. ستَستاءُ أُمُّه. "من شأنِ الأُمور أن تكون أفضَلَ لوِ استمعَ قارُس إليَّ".

"أو لوِ استمعتَ أنتَ إليه".

فأدار رأسَه بحِدَّة: "إلامَ؟ غباوتِهِ العمياء المُعانِدة؟"

وقالت بلُطف: "لا، بلِ استمعْ إلى خوفه".

فشخَرَ ساخرًا. وقالَ، مُستبعِدًا ذلك الاحتمال: "ما خاف قارُس قطُّ من أيِّ شيء".

استطاعت رِصفة أن تُحِسَّ غضبَه يهدأ قليلًا. ولم تُرِد أن تُثيرَه مُجدَّدًا، إلَّا أنَّها اضطُرَّت لأنْ تتكلَّم. "ذلكَ المساءَ الذي فيه فازَ ثيوفيلُس في المُباراة ضدَّ رُلف. رجَعتَ مُبتهِجًا جدًّا، أليس كذلك؟"

فأطلَقَ ضِحكةً خفيفة. "من غَيرِ رَيب. لقد بيَّنَ الله أنَّ قُدرتَه أعظمُ من قُدرة طِيواز".

"فكِّر في ما قد يشعُرُ به بنو قومِك". ودارَت نحوه، رافعةً رأسَها وناظرةً إليه. "ألَم تخَف لمَّا ردَّني الربُّ إلى الحياة؟"

فقالت: "لقدِ ارتعبتُ!" بعدما راقَ ذِهنُه بالفهم.

"وأنتَ كُنتَ مُعَدًّا".

"مُعَدًّا؟"

"إنَّك تسمعُ الإنجيل من وقتِ مُغادَرتِنا مرفأ أفسُس، إلى السَّراديب، وطولَ الطريق فوق جبالِ الألپ". وتبسَّمَت. "رُغمَ إرادتك، مُعظمَ الوقت".

فضحِكَ ساخرًا. "لم يكُن في وسعي أن أهرُبَ منه".

"أنت تضحكُ الآن، حبيبي، ولكنَّك لم تكُن تضحكُ آنذاك".

قال مُتذكِّرًا: "لا، لم أضحك آنذاك". وكان قد فعَلَ كلَّ ما في وسعه لتجنُّبِ سَماعِ الإنجيل. لقد أصابت الكَلِمة أعصابًا مُوجَعة، وغاصَت إلى الأعماق، وأقلَقَته.

وضعَت يدَها على ذِراعه. "إنَّ قارُس وأُمَّكَ والآخرين جميعًا لم يسمعوا قطُّ اسمَ يسوع مُجرَّدَ سَماع حتَّى أسابيعَ قليلةٍ مضَت". وشاهدَت وجهَه يتصلَّب. فأمرَّت أصابِعَها برِفقٍ على جبينه. "كان الله صابرًا عليك، حبيبي. فكُن صابِرًا عليهم".

فجَلَس. "قارُس يُجدِّفُ على الله. إنَّه يستهزئُ به أمام وجهي".

ورفعَت صلاةً صامتةً سريعة. ثمَّ قالت: "وأنتَ ما فعلتَ ذلك؟" مُذكِّرةً إيَّاه بألطفِ ما أمكَنها.

فأغمضَ أتريتِس عينَيه مُتنهِّدًا، وفرَكَ قفا رقَبَتِه.

قامَت رِصفة وجنَت وراءه. وإذا مشَّطَت بأصابعِها شعرَه الطويل، قبَّلَته ثُمَّ بدأت تُدَلِّكُ العضلاتِ المشدودةَ في عُنقه وكتِفَيه. "أحبِبهُم، أتريتِس".

"لا يُوافيني الأمرُ بالسُّهولة التي بها يُوافيكِ".

فكَّرَت في مارتا مُناديةً ولَدَيها للابتعاد عنها، وفي كالِب باكيًا لأنَّه أراد أن يلعبَ معهما. "ليس الأمرُ سهلًا عليَّ أيضًا، ولكنْ إذا سمَحنا للغضب بأن يستقرَّ فينا، نكونُ مُذنِبَين أكثرَ منهم، لأنَّنا نعرِفُ الطريقَ الأفضل. إنَّ الغضَبَ لا يُتِمُّ بِرَّ الله، ولن يفتحَ قلوبَهم ليسمعوا كلمته. إنَّما الغضَبُ يُثيرُ النِّزاع. عليك أن تُنحِّيَ غضبك جانبًا، أتريتِس. وإلَّا، فلن تسمعَ أبدًا ما يقولُه لنا قارُس والآخرون وما يقِفُ في الطريق حائلًا دونَ قبولهم للمسيح".

"لا أستطيعُ أن أجلِسَ ولا أقولَ شيئًا، على غِرارك".

"إذًا تكلَّمْ، ولكنْ تكلَّمْ من المحبَّة".

فقال هازِلًا: "من المحبَّة". وإذ نفضَ يدَيها عنه، نهضَ وخَطا مُبتعِدًا عنها. "طريقتُكِ تستغرق وقتًا يفوقُ الحدَّ. على شعبي أن يقبلوا الحقَّ الآن، قبلَ فواتِ الأوان".

"ليست هي طريقتي، أتريتِس. إنَّها طريقةُ الرَّبِّ. تذكَّرْ ما عُلِّمناه. «أحبِب الربَّ إلهك بكُلِّ قلبك، وبكُلِّ نفسِك، وبكُلِّ فِكرك، وأحبِب قريبَك كنفسك»، إنَّ المحبَّة ليستِ الطريقةَ السَّهلة. إنَّها فِعلٌ إراديٌّ لاتِّباعِ المسيح. فإن أحببتَ الرَّبَّ يسوع، يجبُ عليك أن تعمَلَ بوصيَّته. ووصيَّتُه هي أن نُحِبَّ الآخرينَ كما أحبَّنا هوَ أوَّلا".

"لا أستطيع".

"صحيح، لا تستطيع".

هزَّ أتريتِس رأسه، مُنزعِجًا لأنَّه لم يفهم كلامها. "تقولين أوَّلًا يجِبُ عليَّ، ثُمَّ تُوافِقين على كوني لا أستطيع. ماذا تُريدينَ منِّي؟"

"أُريدُ منك أن تفهم، وليسَت لديَّ الكَلِماتُ الصَّحيحةُ لأُفسِّرَ الأمر. أنا لستُ مثلَ ثيوفيلُس، مُطَّلِعةً جدًّا على الأسفارِ المُقدَّسة. ولكنِّي أعرِفُ ما يقولُه لي الرَّبُّ".

"ماذا يقولُ لكِ الله؟"

"ليست محبَّتُنا هي التي ستَصِلُ إلى قارُس. إنَّها محبَّةُ المسيح. علينا أن نُقرِّرَ الاستِماعَ إلى الرَّبِّ كُلَّما نشأ وَضعٌ فيه تُريدُ كِبرياؤنا أن تتولَّى السَّيطرة".

"تقولينَ إذًا إنَّ عليَّ أن أتجاهلَ إهاناتِ قارُس؟"

"نعم".

"ولا أقولَ شيئًا عندما يستهزئُ بالله؟"

"نعم".

وأضافَ ناخِرًا ساخرًا: "وأكونَ لطيفًا؟"

"نعم".

"ينبغي لقارُس أن يتعلَّمَ الاحترام، إن لم يكُن لِلهِ، فعلى الأقلِّ لي بوصفي أخاهُ الأكبر وزعيمًا للشَّطِّي".

رأتِ الغضبَ مُتفاقِمًا في عينَيه، الدِّفاعَ عن النَّفس، الكِبرياء، ولكنْ لم يسَعْها أن تتغاضى عن ذلك. لم يسَعْها أن تترُكَ الأُمورَ على ما كانت عليه. لقد كانت مَعنيَّةً بشأنِ قارُس وفرايجا والآخرين، لكنْ مَعنيَّةً أكثرَ بما رأته يحدثُ لأتريتِس.

"أتريتِس، كيف تستطيعُ أن تُبغِضَ أخاك وتظلَّ تُحِبُّ الله؟"

فتجهَّمَ مُنزعِجًا بشِدَّة من كلامها.

ورأت رِصفة ذلك، فصلَّت: اجعَلْه يسمَع، يا ربُّ! ثُمَّ قامَت واقتربَت إليه أكثر. "إذا أضمرتَ غضَبًا على قارُس، فإنَّكَ تُخاصِمُ الله. وكلَّما طالَ وقتُ تمسُّكِكَ بغضَبِك، باتَ أعظَم. وكلَّما أعطَيتَ الغضَبَ مكانًا أوسَعَ، ضاقَ مكانُ الربِّ في حياتك، حتَّى لا يبقى له أخيرًا أيُّ مكانٍ البتَّةَ". وطرَفَت بعَينَيها حَبسًا للدُّموع. لقد أرادت له بكُلِّ جوارِحها أن يفهم. "ألا ترى؟ إنَّكَ لا تستطيعُ أن تخدِمَ سيِّدَين".

وإذ سمَعَ أتريتِس ارتِعاشَ صوتِها، نظَرَ إليها. ورقَّ قلبُه لمَّا رأى عينَيها مُغرَورِقتَين. فمدَّ يدَه واحتضنَ خدَّها بِراحته. "أنتِ رقيقةٌ فوقَ الحدِّ".

"الطريقُ أمامَنا شاقٌّ، ولكنَّه مُستقيم". ووضعَت يدَها فوقَ يده، ثُمَّ قالت والدَّمعُ يجري على خدَّيها: "عندما تُحِبُّ قارُس، فأنتَ تخدمُ الرَّبَّ. وعندما تُقاتِلُه، تخدمُ طِيواز".

"من شأنكِ أن تغفِري لهُم كلَّ شيء، صحيح؟"

"لقد غفَرَ لي الربُّ كلَّ شيء".

كما غفرَ الله لي، هكذا فكَّرَ أتريتِس، مُعتقِدًا أنَّ جرائمَه أسوأ من جرائمها ألفَ مرَّة. وشدَّها إليه قائلًا برِقَّة: "سأُحاوِل". ثُمَّ قبَّلَ شعرها. وفارقَهُ التَّوتُّرُ كلُّه لمَّا طوَّقَته بذِراعَيها. فرفَعَ رأسَه ونظَرَ إلى السَّماء. "سأُحاول".

٣٩

تسارعَت دقّاتُ قلبِ أنوميا إذ شاهدَت أتريتِس يمشي في الشارع. لمَّا غادرَها عصرَ اليوم، كان في مِزاجٍ مُضطرِب قاتم. لقد عذَّبَته الشُّكوكُ التي زرعَتها. والآن، بعد سُوَيعاتٍ تقريبًا، رجَعَ مُبتسِمًا وذِراعهُ مُسدَلةٌ حول السَّاحرة الإيونيَّة الحاملةِ ابنَهما على ذِراعَيها!

وتَّرَ ضَحِكُه أعصابَها وأثارها. وسكَبَ الحَسَدُ سُمًّا حارًّا في دمها. ولمَّا مالَ ليُقبِّلَ الغريبةَ على صُدغِها، أرغَت وأزبدَت.

أغمضَت عينَيها، وجاهدَت للسَّيطرة على العاصفة الثائرة في داخلها. وارتجَفَ جِسمُها باردًا من الغَيرة.

طِيواز، إلهَ الظُّلمة! لماذا تسمحُ بوجودِ رجاسةِ الزَّواجِ هذه؟ ينبغي أن ينتمي أتريتِس إليَّ، لا إلَيها. كانَ ينبغي أن يكونَ الطِّفلُ لي! وراقبَتهُما مُجدَّدًا من خلالِ عينَين مُغطَّاتَين. لقد كانَ بالغَ الوسامة والقوَّة والرُّجولة. ينبغي أن يكونَ لها.

أمرَّ أتريتِس يدًا برِفقٍ على شعر الإيونيَّة الدّاكن، وطوَّقها بذراعه.

لتُعذَّبِ المرأةُ بمَرَض! فلأنتزِعْ قلبَها وأضَعه على مذبحك! أتريتِس يخصُّني أنا.

ما كان لِرَجُلٍ التقته يومًا، بين الشَّطِّي أو أيَّة قبيلةٍ أُخرى، جمالُ أتريتِس أو قوَّتُه أو هالتُه الشخصيَّة. وارتعدَت معدتُها، فيما خبَّطَ قلبُها بإيقاعِ شهوةٍ مُغثٍ لشيءٍ تاقت إليه ولكنَّه ما زال خارِجَ مُتناوَلِها.

أعطني إيَّاه، طِيواز! أعطِني ما يخصُّني!

ستنالين ما تستحقِّين.

قُل لي ما تُريدُ منِّي أن أفعلَه، وسأفعلُه. أيَّ شيء. أيَّ شيء.

توقَّفا ليَتكلَّما إلى مارتا، وانضمَّ إليهما دَرِك وألْسا. ودرَجَت الطِّفلة لويزا إلى خارج البيت المُستطيل، ثمَّ توجَّهَت مُباشرةً إلى رِصفة. وانتظرَت أنوميا باعتِدادٍ أن توقِفَها مارتا. ولمَّا لم تفعَل ذلك، شهقَت نفَسَ غضَبٍ خَشِنًا. لقدِ اكتفت بالجُلوسِ إلى نَولِها والمُراقَبة فيما شدَّت صغيرتُها بتَنُّورةِ الإيونيَّة. وكانت قد حذَّرَتها!

انحنَت رِصفة ضاحكةً وتكلَّمَت إلى لويزا الصَّغيرة. وكان واضِحًا أنَّ الطِّفلة لم يُخالِجها

أيُّ خوفٍ منها. لقد لمسَتها، ومع ذلك لم تقُل مارتا أيَّ شيء. وقبَّلَت رِصفة خدَّ لويزا الصغيرة، ثمَّ سمحَت لها بأن تُمشِّدَ شعرَ ابنِ أتريتِس وهو نائم.

وما لبِثَت مارتا أن تكلَّمَت. لا إلى ابنتها، بل إلى الإيونيَّة. حتَّى إنَّها تبسَّمَت!

انكفأت أنوميا إلى داخِلَ ظِلالِ بيتها. وصعِدَت من صَدرِها دَمدمةٌ خفيضة. لقد أرادت أن تصرُخ. أرادت أن تقتُل! وإذ صرَّت بأسنانها شقَّت ثوبَ الكتَّانِ الأبيضَ الذي ترتديه.

"ستندَمُ على عدم إطاعتِها لي. ستندم!" ومزَّقَت رِداءها. "ستندم. سأجعلُها تندم. سأجعلُهم جميعًا يندمون!"

وإذ نتَرَت الثَّوبَ المُمزَّق عن كتِفَيها، ألقَته جانبًا. وركَلَتِ الرِّداءَ الخارجيَّ من طريقها، ثُمَّ ذهبَت إلى الزاوية المُظلِمة وجثَت عند المذبح، حيثُ صلَّت لطِيواز.

تضرَّعَت إلى ربِّها الأسوَد، مُترجِّحةً إلى الوراء وإلى الأمام. "اكشِفِ الرُّقيةَ التي أحتاجُ إليها لإتمام قصدي. أعطِني قُدرتَك حتَّى أتمكَّنَ من جَعلِ مارتا تُعاني جرَّاء عدَمِ طاعتها".

ثُمَّ أُعطِيَتِ المعرِفة. وقد دخلَت ذِهنَها بصَوتِ طنينٍ كحفيفِ أجنِحَةِ ألفِ جَرادة. وارتفعَت حِدَّتهُ كعويلِ خَفافيشَ جائعة.

وأنَّت: "نعم، نعم! أعطِني أكثر. أكثر!"

وإذ غمَرَتها القُدرةُ السَّوداءُ المُصاحِبة لتوجيهاتِ طِيواز، أخذَت ترتعش. فزفَرَت ضِحكةَ سرور، وقامت مُسرِعةً لتعمَلَ بأمرِ سيِّدها. لقد عرَفَت تمامًا كيف تمزُجُ المَرهمَ وتُلقي الرُّقيَة.

ذهبَت إلى رفِّها، وأنزلَت المُكوِّناتِ واحدًا فواحدًا: حشيشةُ ستِّ الحُسن، رِعيُ الحَمام، تُوتُ الموت، جَذرُ الحيَّة، زنبقُ الكَماسِية، عِيدانٌ من شجرَةِ طَقسوس. وأخيرًا، أنزلَت عُلَيبةً ففتحَتها وأخرجَت صُرَّةَ قُماشٍ صغيرةً، كان في داخِلها جَذرُ اللُّفَّاحِ الثَّمينُ الذي قايضَته بكُلِّ ما لدَيها من العنبر. وهزَّتِ الجذْرَ الذي له شَكلُ رَجُلٍ على راحةِ يدها حيثُ التمَعَ برِقَّةٍ هُنالك في الظَّلام. وقد كان لِلُّفَّاح، أو اليَبروح، عدَّةُ استِعمالات. فهو يحمي المرءَ من جُروحِ المعارك، ويشفي الأمراض، ويجلبُ السَّعدَ في الحُبِّ، ويُعجِّلُ الحَمْل.

ثُمَّ إنَّه قد يقتُل.

حطَّت جَذْرَ اللُّفَّاحِ بحِرصٍ على طاوِلةِ شُغلِها، وتمتمَت رُقيةً إذ قطعَت جُزءًا يسيرًا منه، ثمَّ أعادته إلى المخبإ.

كان كلُّ ما افتقرَت إليه بعدُ دمًا مُراقًا، ولكنَّ الحصول على ذلك كان سهلًا.

تناوَلت سكِّينًا حادَّةً كالمُوسى، وأجفلَت إذ أحدثَت شِقًّا صغيرًا في ذراعها اليُمنى. فتقطَّرَ دمُها في طاسة. ووضعت زعتَرًا أبيضَ على الجُرح قبلَ أن تربطَه بإحكامٍ بقطعةٍ من كَتَّانٍ نظيف.

قطَّعَت العناصِرَ ودقَّتها ومزجَتها بدَمِها. ولمَّا باتَ المَرهَمُ جاهزًا، وضعَته في قِدرٍ فوقَ نارِ طبخِها الخفيفة. ورتَّلت برِقَّة حتَّى بدأ يُبَقبِقُ، ثُمَّ رفعَته ووضعَته جانبًا.

وبتَنهُّدةِ رِضًى خبيثة، جلست وانتظرَت حُلولَ ساعةِ ظُلمَتِها.

لمَّا ظهَرَ القمَرُ والنُّجوم، ونامَت القرية، أخذَت أنوميا المزيجَ المُخمَّرَ السَّامَّ وزحفَت إلى بيتِ مارتا. وبأصابِعها دهنَتِ المَرهمَ على طُولِ أساسِ البيت الجنوبيِّ. وتمتمَت بالرُّقيةِ التي ستؤتيه الفعَّاليَّة. وما إن أنجزَت المَهمَّة، حتَّى أسرعَت راجِعةً إلى بيتها.

أغلقَت الباب وراءها، وحبسَت نفسها داخِلَ الظُّلمة، يغمُرُها الطَّرَبُ الخبيثُ حِيالَ ما فعلَته، توَّاقةً إلى العواقِب المُروِّعة الآتية.

غدًا، ستعرِفُ مارتا كُلفةَ الخيانة.

غيرَ أنَّ الألَم سيبدأُ اللَّيلة.

علِمَت أنوميا أنَّ أُصيبِي سيأتي مُلتمِسًا منها المُساعَدة، وهي ستبذلُها بسخاء. ستقولُ لمارتا ما هو حادثٌ لها، لا بصريحِ الكلام، بل بتلميحاتٍ من شأنها أن تجعلَ الرُّقية أشدَّ تعذيبًا وترويعًا...ومُبهِجةً لها. فقد أرادت المتعةَ غيرَ المُخفَّفةِ الناتجةَ من مُشاهَدةِ البائسة المُثيرة للشَّفقة تتلوَّى مُتضايقةً في قبضةِ الخوف.

"يا طِيواز! إلهي، إلهي! يا له من شعورٍ رائع يُرافِقُ حِيازةَ السُّلطانِ على الآخرين! إنِّي أُحِبُّ ذلك. أعطِني أكثرَ. أكثرَ!"

ستنالين أكثرَ ممَّا حلَمتِ به يومًا.

"أعطِني أتريتِس".

إن أنتِ خدَمتِني فحسْب!

"سأخدِمُك. أُعطيكَ نفسِي بِلا تحفُّظ. أعطِني ما أُريدُه. أعطِني أتريتِس".

واستجابَ سيِّدُها، معطيًا إيَّاها توقًا أعمَق وأفكارًا أشدَّ ظلامًا شدَّتها إلى بُعدٍ أبعَدَ في أعماقِ دُردُورِ خُطَّةٍ دَنِسة. ومع ذلك وافاها الضَّحِكُ، برِقَّةٍ على الرِّيحِ المُظلِمة، ضَحِكَ سُخريةٍ وانتِصار.

٤٠

استيقظَ ثيوفيلُس في ظلامِ اللَّيل. وجلسَ ببُطءٍ حتَّى لا يُصدِرَ أيَّ صوت، ثُمَّ أصغى بانتِباه.

وإذ سمعَ صوتَ أقدامٍ تُجَرُّ خارجَ الباب، نظرَ في ذلك الاتِّجاه، وحدَّقَ فلمَحَ شكلًا ضخمًا وخُيِّلَ إليه أنَّه دُبٌّ كان قد رآه مساءَ البارحة. فتحرَّكَ على مهل، وتناوَل خَنجرَه عن الرَّفِّ الذي كان قد حفرَه في الحائط بقُربِ حَشيَّتِه.

سمعَ صوتَ هَمسٍ عميقًا يقول بإلحاحٍ وإلحافٍ: "يا رومانيُّ".

فارتاحَ ثيوفيلُس وردَّ الخنجر إلى موضَعه. "مَن بالباب؟"

تراجَعَ الرَّجُل بحيثُ لا يُرى، وهمَسَ: "لا حاجةَ بك لأنْ تعلَم".

"ماذا تُريد؟"

طالَ الصَّمتُ حتَّى عادت صرَّاراتُ اللَّيل تُسَقسِقُ من جديد. فتحرَّكَ ثيوفيلُس عابسًا بحيثُ استطاعَ أن يُسرِّحَ نظَرَه عبْرَ الباب المفتوح خارجًا نحو النُّجوم. "أما زِلتَ هُناك؟"

"نعم".

فقال بصوتٍ هادئ: "إذًا تكلَّمْ كما تشاء، يا غريبًا. أنا مُصغٍ".

"اشْش!" وصدَرَ صوتُ خَشخَشةٍ ينمُّ عن حرِكةٍ مُضطرِبة بقُربِ الباب. ثُمَّ همَسَ الرَّجُل: "أُريدُ أن أعرِفَ عن إلهِكَ هذا".

كان الصَّوتُ غيرَ واضح، لكنَّه مألوفٌ بغُموض. "لماذا تأتي لطَرحِ أسئلة في نصف اللَّيل؟"

"لا أُريدُ أن يراني...لا أُريدُ لأحَدٍ أن يعلَم أنِّي أتكلَّمُ معك".

"ألأنِّي رومانيٌّ؟"

فصدَرَت نخرَةُ سُخرية. "لا".

وحاوَلَ ثيوفيلُس أن يقرِنَ الصوتَ بِوَجه، فلَم يستطع. "أأنتَ خائف؟"

"ليسَ منكَ".

قيلَت هذه المُلاحظة بثِقةٍ بالغة، بحيثُ لم يشكَّ ثيوفيلُس في صدقها. وضحِكَ حتَّى

خطَر في باله احتِمالٌ مُفاجئ: "أأنتَ عُضوٌ في الشَّيء؟"

فلم يُجاوِبِ الرَّجُل.

ولم يُلحَّ ثيوفيلُس للحصول على جواب. "ماذا يقولُ لك أتريتِس عن يسوع؟"

أطلَقَ الرَّجُلُ ضِحكةً خشِنة: "يقولُ أكثرَ ممَّا ينبغي، ولا يقولُ ما يكفي".

"إنَّه حديثُ الإيمان، ولكنَّ قلبَه طيِّب".

"لم آتِ لأسمعَ مدحًا لأتريتِس".

عِداء؟ غَيرة؟ ضغينة قديمة؟ تناوَلَ ثيوفيلُس سِراجَ الفخَّارِ الصَّغيرَ عنِ الرَّفِّ فوقه وحطَّه في وسَطِ الغُرفة. "تعالَ إلى الضَّوء، ولنتحدَّثْ".

"لا يعلَمَنَّ أحَدٌ أنِّي كُنتُ هُنا!"

فتجهَّمَ ثيوفيلُس قليلًا. "لن أقولَ لأحَدٍ إنَّك كُنتَ هُنا". ولمَّا لم ينبِسِ الرَّجُلُ بكلمة، حاوَلَ أن يُطمئنَه. "أُعطيكَ كلِمَتي بأنَّ ما يجري بينَنا سيبقى سرًّا مكتومًا".

"كلِمتَك. أنتَ رومانيٌّ. سأبقى حيثُ أنا".

مدَّ ثيوفيلُس يدَه إلى السِّراج، ناويًا أن يُبعِده. فهمَسَ الرَّجُلُ بحِدَّة: "ضَعهُ بجانبك!"

فعَلَ ثيوفيلُس ذلك، عالِمًا تمامًا أنَّ الدَّخيلَ أرادَ أن يتمكَّن من رؤية وجهه. "أهذا جيِّد؟"

"هُوَ جيِّد".

انتظَرَ ثيوفيلُس حتَّى يطرحَ الرَّجُلُ أسئلته. فطالَ الصَّمت، وسَقسقَت صرَّاراتُ اللَّيل، ونقَّ ضِفدعٌ ضخمٌ في مكانٍ ما بين الأعشاب بقُربِ الجدار الغربيّ.

ثُمَّ قال الرَّجُلُ همسًا: "أُريدُ أن أعرِفَ الحقَّ عنِ الله. إنَّما أخبِرني بكُلِّ شيءٍ من البداية".

دخلَت فرايجا البيتَ الطويلَ وتوجَّهَت إلى رُفوفِ أعشابِها وزُيوتِها، قائلةً "مارتا مريضة".

قال أتريتِس مُتعجِّبًا: "مريضة؟ منذُ متَى؟ كانت بخَيرٍ أمسِ".

"منذُ البارِحة. قصَدَ أُصيبِي إليَّ باكرًا هذا الصَّباح".

"ما خَطبُها؟"

"لا أستطيعُ التَّيقُّن، ما عدا كونَها مُتألِّمةً ولدَيها حُمَّى شدِّيدة".

"لعلَّ السَّببَ شيءٌ أكلَته". وأخَذَ قارُس طاسَةَ عصيدةِ الحِنطةِ السَّاخنةِ التي

ملأتها رِصفة له، دونَ أن ينظُرَ إليها. "أنتِ تعرِفين كيف تُحِبُّ التُّوت".

"قالت إنَّها لم تأكُل تُوتًا قَطُّ".

"إذا كُنتِ غيرَ مُتيقِّنة من جهةِ عِلَّتها، فاستَدعي أنوميا لإلقاءِ نظرة عليها. إنَّها ستعرِف".

تكلَّمَ ڤارُس كما لو أنَّ أنوميا كانت وسيطةَ وَحيٍ. "أنوميا معها الآن". ولم تقُل لِابنَيها إنَّ مارتا بدَت أسوأ حالًا بوجودِ الكاهنة الشابَّة. كان ڤارُس مُتيَّمًا بالمُشَعوِذة، وكان طبعُ أتريتِس سريعَ التَّفجُّر. فما كانَ لِيَتردَّدَ في إصدارِ أمرٍ بإبعادِ أنوميا عن أُخته، ومن شأن ذلك أن يؤدِّيَ فقط إلى جَعلِ الأخوَينِ أكثرَ عِدائيةً بَعدُ أحَدُهما تُجاهَ الآخر.

نظرَت فوقَ أعشابِها المخزونة، مُحاوِلةً أن تُقرِّرَ أيٌّ منها أفضلُ أن يُستعمَل. فمن شأنِ شايِ الحُمَّاضِ المُرِّ أن يُطهِّرَ جِهازَها الهضميَّ. ومن شأنِ النَّرجِسِ البَرِّيِّ المدقوق أن يدفعها إلى التَّقيُّؤ. ومن شأنِ البَلَسان أن يحفزَ التَّعرُّق. فإذا كان شيءٌ ما في بَدَنِ مارتا مُسبِّبًا وجَعَ الأمعاءِ والصُّداعَ والحُمَّى، فإنَّ جرعةً قويَّةً من هذه الأعشاب لا بُدَّ أن تُزيلَه بسُرعة كافية.

ولكنْ ماذا لو كان المَرَضُ ناتِجًا من شيءٍ آخر، من عِلَّةٍ أعقَد؟

ودفعَت تلك الفكرةَ بعيدًا.

كانت إكليليَّةُ المُروج والصَّفصافُ الأبيض وعُشبَةُ القوى الخُماسيَّةُ والبَلسَمُ كلُّها نافعةً لِخَفضِ الحُمَّيات. كذلك كان خليطُ الزَّعتَرِ والحبَقِ والخِطميِّ، والألفيَّة. أمَّا نبتةُ رقيبِ الشَّمس فتُسكِّن الألَم، فيما شايُ البابُونجِ والخَشخاشِ الأحمر يُنوِّمُها.

أخذَت نَرجِسًا برِّيًّا وبدأت تدقُّه.

كانَ أُصيبي قد أسرَّ إلَيها قبلَما غادرَت بأنَّ مارتا أزعجَتها طَوالَ اللَّيل أحلامٌ رأت فيها مخلوقاتٍ مُجنَّحةً تنقضُّ عليها وتغرزُ براثِنَها في لحمها وعظمِها.

"قالت إنَّها مَوجوعةٌ حيثُما مسَّتها المخلوقات".

وقد ارتفعَت الحُمَّى مع الشَّمس.

وإذ راقبَت فرايجا طريقةَ اعتِلانِ المرَض، باتت خائفةً أن تكونَ مارتا تحتَ هجمةِ أرواحٍ.

قالت رِصفة: "كيف يُمكِنُني أن أُساعِدَكِ؟" فجفَّلَتها عن أفكارها المُقلِقة.

إذ لَمَحَت فرايجا الإيونيَّةَ الجميلة، استولَت عليها الفِكرةُ السَّوداء: **ماذا لو كانت لعنةٌ قد أُلقِيَت على مارتا؟**

أنوميا!

خطَرَ الاسمُ في بالها وكأنَّ أحدًا قد نطَقَ به تقريبًا. وفي الحال أنكَرَت فرايجا الأمر. أبدًا! ما كانت أنوميا لتُلقيَ لعنةً على أحَدٍ من شعبها. فإذا كانت مارتا قد لُعِنَت، أو قد أُلقيَت علَيها رُقيةٌ، فلا بُدَّ أن يكون الفاعِلُ شخصًا آخر، عدوًّا. أو شخصًا حسَدَها أو أرادَ الانتقام.

تفحَصَّت وجهَ الإيونيَّة، مُستخدِمةً قوى إدراكِها كلَّها، لتُميِّزَ سوءًا.

قالت رِصفة برِقَّة: "ما الأمرُ، سيِّدةُ فرايجا؟" دونَ أن تُشيحَ بناظِرَيها. لماذا كانت مُحدِّقةً إليها على ذلك النَّحو، مُتفحِّصةً وجهَها كما لو كانت تبحثُ عن شيءٍ هناك؟ وتقدَّمَت رِصفة أكثر. "قولي لي ماذا يمكن أن أفعلَ لأُساعِدَكِ". ثمَّ مدَّت يدَها ومسَّت ذِراعَ فرايجا.

ما رأت فرايجا إلَّا اللُّطفَ والحنان في عينَي رِصفة. رُغمَ ذلك، دفاعًا عن النَّفس، نفضَت يدَ رِصفة عنها. لقد كانت كاهنةً عُليا لطِيواز! وعليها أن تتذكَّرَ ذلك. فلم يكُن في وسعها أن تسمحَ لنفسها بأن تثِقَ في هذه المرأة الشَّابَّة، مهما بَدَت. لقد كانَتِ الحقيقةُ أنَّ زوجةَ ابنِها كانت غريبة، وقد أعلنَت أنَّها مؤمنةٌ وخادمة تابِعةٌ لإلهٍ أجنبيٍّ سعى إلى تدميرِ طِيواز. ومن ثَمَّ علِمَت فرايجا أنْ ليس في وسعها أن تضعُفَ حيثُ يتعلَّقُ الأمرُ برِصفة.

فأدارت لها ظهرَها، قائلةً: "اعتني بِابْنِك. أنا سأعتني بِابْنتي".

لم تقُل رِصفة أيَّة كلِمة أُخرى، وقد جرحَتها فظاظةُ فرايجا. وإذ دارت، لاقَت نظرةَ أتريتِس. وكان قد سمعَ كلِماتِ أُمِّه فأغضبَته. فقال: "انا سأرعى ابني. خُذي رِصفة معكِ". وكان ذلك أمرًا، لا اقتراحًا.

قالت فرايجا، وهي تسحَنُ الأعشاب: "ليس من شيءٍ تستطيعُ امرأتُك أن تفعلَه، ومن شأنِ حضورها أن يُزعِجَ مارتا".

امرأتُك؟ اشتدَّ استياءُ أتريتِس. "يُزعِجَها؟" وحطَّ طاستهُ جانبًا، ثُمَّ قام. "لماذا من شأنِ حضورِ رِصفة أن يُزعِجَها؟ لقد عرَضَت أن تُساعِدَ".

وبلهجَةِ تَوسُّلٍ لأجلِ الهدوء، قالتَ رِصفة: "أتريتِس، طبيعيٌّ أن تُفضِّلَ مارتا وجودَ أُمِّها معها على وجودِ غريبة".

"أنتِ لستِ غريبة. أنتِ زوجتي. آنَ الأوانُ كي يقبلوكِ".

وضعَت يدَها على ذِراعه، وهمسَت: "رجاءً، ليست هذه هي الطريقة".

حطَّ قارُس طاستَه الفارِغة جانبًا. "لِتهتمَّ أُمُّنا بأُختِنا". وإذ تشبَّثَ بعُكَّازه، قامَ وعرَجَ نحو البوَّابة المؤدِّية إلى مَرابِط الحيوانات. وتَمتمَ همسًا: "وأبقِ ساحِرتَك بعيدةً عنها".

احمَرَّ وجهُ أتريتِس ثُمَّ ابيَضَّ. "ماذا قُلتَ؟"

فسفَقَ قارُس البوَّابة وحدَّق إليه من ورائها: "لقد سمِعتَني!"

خَطا أتريتِس خطوةً نحوَه.

تشبَّثت رِصفة بكُمِّه. وهمسَت يائسةً: "إيَّاكَ!" إلَّا أنَّ أتريتِس حرَّرَ ذِراعَه نترًا. فتوسَّلَت برِقَّة: "حُبًّا بالله، أتريتِس، فكِّر في ما تفعله. تذكَّرْ ما تحدَّثْنا به".

حضَرَتْه الاستِراحةُ التي تشاركا فيها في الغابة مع دَفقةِ وضوح. اغضبوا، لكنْ لا تُخطئوا. كان عليه أن يستخدِمَ كامِلَ إرادته ليكبحَ الغيظَ الذي هبَّ عليه كعاصفة جامحة، ولكنَّه بقيَ حيثُ كان.

تجهَّمَ قارُس. ونقَّلَ نظرَه بينَهما مُضطرِبًا، قبلما دارَ مُبتعِدًا وعرَجَ في المَمرِّ، فاتحًا أبوابَ المَرابِطِ سفقًا وهو مارٌّ.

ارتعشَت يدا فرايجا وهي تدقُّ الأعشاب. انتشَرَ الخوفُ في داخلها ولم تعرِف سبَبَه. فصبَّت مِيدًا مُحلًّى بالعسل في فُنجان. وقد كانت مارتا تحبُّ طَعمه. وأضافت إلى السَّواغِ الأعشابَ المدقوقة وحرَّكَت المزيج، مُتضرِّعةً إلى إلهِها أن يجعله نافعًا. ثُمَّ مدَّت يدها إلى داخِلِ سلَّة، وأخذت أربعةَ فِصاصِ ثُوم لِتَدرأ قوى السِّحرِ الأسودِ الشرِّيرةَ.

وإذِ التفتَت، رأت ابنَها ينظر إلَيها بكآبة. وقد أمسَكَ بذراعِ رِصفة وسحَبَها قُدَّامَه. ثمَّ جذبَها نحوَه، واضعًا يدَيه على كتِفَيها. وكانت تلك الإشارة مُتعمَّدة. فقد كان يضَعُ زوجتَه أمامَه وأمامَ الباقين جميعًا. وفيما نبَضَت عضَلةٌ في خدِّه، قال: "إذا احتجتِ إلَينا، تعرفينَ أين تجِدينَنا".

غادرَتهم فرايجا مُنزعِجةً دونَ أن تنبِسَ بكَلِمة. وإذ عبَرَتِ الشارع، دخلَت بيتَ ابنتِها.

قال أُصيبي: "السَّيِّدة فرايجا هُنا". فقامت أنوميا من جانبِ سريرِ مارتا.

وقالَت الكاهِنةُ الشابَّة بوقار: "سأذهبُ إلى البُستانِ المقدَّس كي أُصلِّيَ لأجلها". وقد أوحَت عِبارتُها الهادئة بأنَّ طِيواز كان مُفتقِدًا مارتا بهذا المَرَض. ثمَّ أمسكت يدَ مارتا وربَّتَتها. "ستُحاوِلُ أُمُّكِ أن تجعلَكِ مُستريحةً أكثر".

نظرَت مارتا داخِلَ عينَي أنوميا الزَّرقاوين الباهِتَتين فلَم تَرَ أيَّ أمَل. "لستُ أُريدُ أن أموت".

فابتسمَت أنوميا. "مَن قال إنَّكِ ستموتين؟" ستُعانينَ فقط. أجَل، ستُعانين حتَّى

أكتفيَ بأنَّكِ عانيتِ ما يكفي.

وقالت فرايجا: "لن تموتي!" عاقدةً العزمَ على غَرسِ الأمَل في ابنتها. ثُمَّ اقتربَت أكثر، قُربًا بالغًا حتَّى اضطُرَّت أنوميا إلى ترك يدِ مارتا والتَّراجُعِ عنها. وقعدَت فرايجا بقُربِ ابنتها.

تشبَّثت مارتا بمعدتها، قائلة: "إنَّها تؤلمني. إنَّها تؤلمني كثيرًا جدًّا. كأنَّ شيئًا ما يلوكُني".

"اشربي هذا".

"لا أستطيع".

رأت كيف كانت عَينا مارتا ما تزالان مُركَّزتَين على أنوميا. وساعدتها على الجُلوس كفايةً بحيثُ تستطيع، قائلةً: "اشربيه. كُلَّه". وأزاحَت جِسمَها حتَّى لا تتمكَّنَ ابنتُها من رؤية الكاهنة الشابَّة واقفةً على مقربة منها. وإذ مسَّدَت جديلةَ ابنتِها الشَّقراءَ الثخينة إلى الوراء فوقَ كتِفِها، قالَت بطريقة مُهدِّئة: "حسنًا، حبيبتي. إنَّ المزيجَ المُخمَّرَ سيُنظِّفُكِ".

فقالَت أنوميا بلهجةٍ رتيبة: "المُسهِلُ سيجعلُها فقط مَوجوعةً أكثر". وقد زاحَت إلى الوراء، شاعِرةً بالرَّاحة الخبيثة داخِلَ كِيانِها.

التفتَت فرايجا إلى أنوميا في الظِّلالِ وراءها. "قبلَ أن تُغادِري، قولي لِدَرِك أن يَجِدَ ويُحضِرَ باقةً من العُنصُل". فمن شأن تلك النَّبتة ذات الأوراق الضَّيِّقة والزَّهر الأزرق الجرَسيِّ الشَّكل أن تدرأ الرُّقى الشِّرِّيرة.

رَنَت أنوميا بعينَيها إلى مارتا مُجدَّدًا، وقالَت: "كما تقولين، سيِّدتي". وكانت مَسرورةً في سِرِّها. "إذا حَسِبتِ أنَّ ذلك يمكن أن ينفع، فسأذهبُ بنفسي". ودارت مُبتعِدةً.

ارتعدَت مارتا بشِدَّة.

وقالَت فرايجا لأُصيبي: "أحضِر أوانيَ وخِرَقًا. بسُرعة".

ففعَلَ أُصيبي كما قالت له، ثُمَّ وقفَ جانبًا للمُساعَدة. وكان الإسهالُ سريعًا وشديدًا، بحيثُ جعَلَ زوجتَه مُتلاشِيةَ القُوَّة وبالِغةَ الضَّعف. وقد استمرَّت حرَكاتُ المَغصِ والتَّشنُّج طويلًا بعدَما طُرِحَ كلُّ شيءٍ من بَدَنها.

أنَّ أُصيبي قائلًا: "الدَّواءُ لا ينفعُها، أُمَّاه". وقد أحسَّ كلَّ ألَمٍ لدى زوجته كما لو كان ألَمَه هو.

"آهِ ماما..."

غسلَت فرايجا مُرتجِفةً مارتا كطِفلة. وتدفَّقَ العَرَقُ من جسمِ مارتا النَّحيل. يقينًا أنَّ

الأقذارَ طُرِدَت معه، ولكنَّ الألَم كان حادًّا جدًّا. فقالت فرايجا، مُقبِّلةً جبين مارتا: "سأُخمِّرُ شيئًا لتخفيفِ انزِعاجكِ ومُساعَدتكِ على الاستِراحة". ثمَّ التفتَت إلى أُصيبي، بوَجهِهِ المشحوب والمشدود، قائلةً: "حاول أن تُساعِدَها كي تبقى هادئة. وأنتَ أيضًا!"

لَمَّا غادرَت فرايجا، استلقى بجانب زوجته، جاذِبًا إيَّاها إلى جسمِه إذ بدأت ترتجِفُ بِنَوباتِ القُشَعريرة.

على مدى اليومَين التاليَين، خمَّرَت فرايجا شايَ زهرِ الربيع العِطريِّ والبابونج لتسكين ألَمِ ابنتِها، وعُشبِ الطَّيرِ ورقيبِ الشَّمس وشيخِ الرَّبيع البنفسجيِّ لمعالجة الالتهابِ الدَّاخليِّ. وقد جلَبَ الخَشخاشُ الأحمَرُ والزَّعترُ البَرِّيُّ نَومَ تخديرٍ، إلَّا أنَّ الحُمَّى ظلَّت مُستفحِلةً. حتَّى شايُ حشيشةِ السُّعال والأُقحوانِ وإكليليَّةِ المُروج لم يُجدِ نفعًا في تبريدها.

كان جِلدُ مارتا ساخنًا وجافًّا كأوراق الخريف المائتة التي كانت آنذاكَ تمامًا تتساقطُ على الأرض. لقدِ اقترَبَ الشِّتاءُ والموت.

تسلَّقَ دَرَك عاليًا في سِنديانة عتيقة وقطع دِبقًا فِطريًّا لأبيه. وعلَّقَ أُصيبي العَساليجَ في أنحاء البيت المُستطيل كي يدرأ السِّحرَ. وفتَّشَت فرايجا مذعورةً في الغابات حتَّى وجدَت زَنبقَ عُنصُلٍ. ثمَّ علَّقَتِ الزُّهورَ الحُمرَ الجَرسيَّةَ الشَّكل فوق سرير مارتا لتحميَها من الرُّقى الشِّرِّيرة. وعلَّقَ أُصيبي كثيرًا من الثُّوم حتَّى أنتَن الهواءُ برائحته الكريهة.

وما من شيءٍ نفَع.

سمِعَت فرايجا أنوميا تقولُ لمارتا همسًا ذاتَ مساء. "لقد تكلَّمتِ مع الإيونيَّة. لقد أنذرتُكِ بأنَّ طِيوازَ ما كانَ لِيَرضى، صحيح؟"

فسَرَتْ برودة في جسد فرايجا لَمَّا سمِعَتها. ونظرَت إلى يدِ أنوميا تُمسِّدُ ذِراعَ مارتا، فأرادت أن تسلخَها بعيدًا عن ابنتِها. ولكنْ بدَلًا من ذلك، انتقلَت إلى حيثُ ترامى ضوءُ المصباح، فرأت بَدءَ الاندِهاش في عينَي أنوميا. من الجليِّ أنَّ الكاهِنةَ الشابَّة لم تكُن تُريدُ لها أن تكونَ قريبةً كِفايةً بحيثُ تسمَع.

"أودُّ أن أتكلَّمَ معَكِ، أنوميا".

"بالتَّأكيد، أُمُّ فرايجا". وإذ نهضَت أنوميا برشاقة وتبِعَتها إلى الخارج، أمرَّت أصابِعَها على ذِراعِ مارتا بمِسَّة رقيقة. "سنتحدَّث أكثرَ في ما بعد".

ثارَ السُّخطُ داخِلُ فرايجا، ولكنَّ الحِكمةَ أبقَتها صامتة. ولَمَّا صارَتا خارِجَ البيت الطَّويل،

التفتَت إلى المرأةِ الصُّغرى، مُحافِظةً بجَهدٍ على هدوء سيمائها. "هل تؤمنين حقًّا بأنَّ هذا المَرَض جلَبَهُ غضَبُ طِيواز؟"

قوَّست أنوميا حاجبَيها، وعيناها الزَّرقاوان تترجرجان. "هل سمِعتِني أقولُ ذلك؟"

"سمِعتُ ما يكفي لأعرِفَ أنَّكِ أفزَعتِ مارتا حتَّى آمَنَت بذلك. لماذا تُقدِمينَ على فَعلِ شيءٍ كهذا إلَّا إذا آمنتِ بذلك أنتِ نفسُكِ".

"أنَّي أُومِنُ فعلًا بأنَّ الأمرَ حقٌّ". **وطِيواز قد فعل ذلك لأجلي، أيَّتُها الحمقاءُ الضَّعيفة. لأجلي!**

"أنتِ تؤمنين. فهل تعلمين؟"

أثارَت لهجةُ فرايجا كِبرياءَ أنوميا. كيف تجرؤ على التكلُّمِ إليها بهذه الطريقة؟

وإذ رأتِ فرايجا النُّورَ الخَطِرَ في عينَي المرأةِ الصُّغرى، قالت: "إنَّ مارتا سريعةُ التأثُّر. ما لم تكوني تعلمين، دونَ شكٍّ، أنَّ طِيواز مُستاءٌ منها، فلا تُوحي إلَيها بذلك مُجرَّدَ إيحاء".

همَّت أنوميا بأن تقولَ إنَّه لو كانت مارتا سريعةَ التأثُّر جدًّا، لأطاعَت وصيَّتها بألَّا تتكلَّم إلى الإيونيَّة، ولكنَّها ضبطَت لِسانَها. "أتظُنِّينَ أنَّكِ الشَّخصُ الوحيدُ الذي يتكلَّم طِيواز إليه؟"

شعرَت فرايجا بقُشَعريرة مُفاجئة حِيالَ النَّظرة التي بدَت في عينَي المرأة الصُّغرى. لقد علِمَت غريزيًّا أنَّ أنوميا كانت وراءَ بليَّةِ مارتا، مهما كانت، ولكنَّ اتِّهامها بذلك لا بُدَّ أن يُثيرَ سُخطَ الفتاة بدَلَ أن يوظِّف قواها الفائقة للطبيعة لأجلِ القضيَّة المنشودة، لشفاءِ مارتا.

"إذا تكلَّمَ طِيواز، فأصغي. ولكنْ بصفتكِ كاهِنةً عُليا، يجب أن تتذكَّري بأن تلتمسي الرَّحمة لشعبكِ". وأرادت أن تُضيف: لا القُدرةَ لنفسكِ.

أحسَّت أنوميا خوفَ فرايجا واستساغَته. وقالت بابتسامةٍ فاترة: "لقد أصغيتُ. وإنِّي ألتمسُ فعلًا ما هو الأفضلُ لشعبنا". مَن عرَفَ أفضلَ منها ما يحتاجُ إليه قومُ الشَّطِّي؟ يقينًا ليس هذه النَّفس المُثيرة للشَّفقة، الراغِبة في السَّلام!

كانت فرايجا قد عرَفَت أنوميا منذُ نُعومةِ أظفارِها، وعلِمَت ضَعفَها الأعمق. "إذًا، لقد أخفَقتِ، أليس كذلك؟"

"أخفقتُ؟"

"إذا كان طِيواز يستمعُ إليكِ، فإنَّ مارتا ستغدو أحسنَ حالًا، صحيح؟" وشاهدَتِ النَّارَ

السوداء تُومِضُ في عينَي أنوميا الزَّرقاوين. فأضافَت- مُخفيةً غضبَها وخوفها- ''يبدو أنّي كنتُ مُخطئةً بشأنكِ؟''

فقالت أنوميا، رافِعةً حاجِبَيها: ''مُخطئة؟ مُخطئة بشأنِ أيِّ شيء؟''

''ظَنَنتُ أنَّ لكِ قُدرةً''.

اقتحَمَ التَّحدِّي رأسَ أنوميا، وانتشرَت دفقةُ حَرارةٍ نزولًا في أوصال جسمِها كُلِّه. ''إنَّ لي قُدرةً''.

فقالَت فرايجا: ''ليست كافيةً، في ما يبدو''. وإذ هزَّت رأسَها بخَيبةٍ مُتكلِّفة، تركَت الكاهنة الشابَّة واقفةً خارِجَ بابِ البيت المُستطيل.

صرَّت أنوميا بأسنانها لتمتنعَ عنِ الصُّراخ. كيف تجرؤُ فرايجا على الشكِّ في قُدراتها؟ وإذ دارت مُسرِعةً، مَشَت في الشَّارِع. وناداها ڤارُس، إلَّا أنَّها تجاهلَته ودخلَت بيتَها. ثُمَّ أغلقَت الباب، وأسندَت ظهرَها عليه. وأنشبَت أظفارَها في الخشب إذ أطلقَت جأرةً ضاريةً في حَنجرتها. وفيما هي ترتجِفُ غيظًا، ذهبَت إلى مذبحها وجثَت أمامه. سوفَ تُري فرايجا القُدرةَ التي لها!

لدى هُبوطِ اللَّيل، نهضَت بصُداعٍ مُعمٍ ومزَجَت تِرياقًا للرُّقية التي سبقَ أن ألقَتها. ثمَّ حملَتِ المزيج، وانسلَّت عبْرَ اللَّيلِ البارد، ومسَحَت بيتَ مارتا به، مُتوقِّعةً تمامًا أن يُعطِيَها طِيوازُ ما طلبَته، قبلَ إقبالِ الصَّباح.

غيرَ أنَّه لم يُعطِها.

٤١

ما رأت فرايجا قطُّ أنوميا مُضطرِبةً هكذا. وقد دخلَت الكاهنةُ الشَّابةُ بيتَ مارتا دونَ أن تقرعَ البابَ على الأقلِّ، مُتوقِّعةً لها تمامًا أن تكونَ بخير. فلمَّا رأت أنَّ مارتا ما تزالُ في السَّرير، حدَّقَت إليها غيرَ مُصدِّقة. وقالت لاهثةً: "غيرُ مُمكِن. ما كان لِيَفعَلَ هذا بي". ثمَّ تقدَّمت خطوةً، ووجهُها مُحمَرٌّ ودارت بسُرعة، ثُمَّ غادرَت.

فقال أُصيبي، وقد غمَرَ الخوفُ وجهَه: "إلى أينَ هي ذاهِبة؟ هل رأيتِ عينَيها؟" أجابَت فرايجا: "لستُ أدري إلى أينَ هي ذاهِبة". وقد رَجَت أن يكون بُعدُها عن مارتا للخير. ثُمَّ أومأت لحفيدِها دَرِك، وطلبَت منه أن يلحقَ بها من بعيد. ولمَّا رجَعَ أخبرَهُما أنَّ أنوميا مضَت إلى الغابة المُقدَّسة. وإذ كان أصغَرَ سنًّا من أن يدخُل، توقَّفَ عند الحدود ثُمَّ عاد.

مهما كانت الجُهود التي بذلَتها أنوميا لاسترضاء طِيواز، فقد كانت بِلا جدوى، الأمرُ الذي روَّعَ فرايجا جدًّا وحملها على القيام بإجراءاتٍ يائسة. فبعدَما جرَّبَت كلَّ شيءٍ تعرِفُه، ذهبَت لتتكلَّم مع رِصفة.

وجَدَتها تُحرِّكُ يخنةً فوقَ نارِ الطَّبخ.

"إذا كان في وسعكِ أن تفعلي أيَّ شيءٍ لابنتي، فافعليه، وافعليهِ بسُرعة".

ذُهِلَت رِصفة حِيالَ الطَّلَبِ الطارئ، مُتسائلةً عن تغيُّرِ قلبِ فرايجا المُفاجئ. "ماذا جرى؟"

"لا شيء. لا شيءَ جرى. لقد جرَّبتُ كلَّ شيءٍ أعرِفُه. ولكنَّ أنوميا..." وهزَّت رأسها. "إذا كان في وسعكِ أن تفعلي شيئًا ما، فافعليه، رجاءً!"

ارتبكَت رِصفة. ماذا ظنَّت فرايجا أنَّها تستطيعُ أن تفعَلَ ممَّا لم يُفعَل؟ إنَّها تُصلِّي لأجل مارتا منذُ حلَّ بها المرَض، ولكنَّها علِمَت أنَّ إخبارَها فرايجا بذلك ما كان ليأتيَ بأيِّ عزاءٍ بتاتًا. فالأرجحُ أنَّ ذلك لا بُدَّ أن يُفاقِمَ قَلَقها. "لستُ أعرِفُ أيَّ عِلاج، سيِّدةُ فرايجا. أنا آسِفة. وحدَه الرَّبُّ يشفي".

ترنَّحَت فرايجا، فأقبلَت رِصفة إليها حالًا. "أتريتِس! تعالَ مُسرِعًا!"

جاءَ أتريتِس راكضًا من المَربِط الذي كان يُرمِّمه. "ما الأمر؟" وإذ رأى أُمَّهُ بين ذِراعَي

رِصفة، فتَحَ البوَّابة دفعًا ومشى عبْرَ الغُرفة بخُطًى واسعة. فشالَ أمَّه على ذِراعَيه، وحمَلَها إلى سريرها ومدَّدها عليه.

قالَت رِصفة بقلَقٍ بالغ: "ألدَيها حُمَّى؟"

فوضَعَ أتريتِس يدَه على جبهتها. "لا".

ارتعشَت أجفانُ فرايجا وأنَّت أنينًا رقيقًا: "ينبغي أن أرجِع".

"إنَّها مُرهَقة. تحتاجُ إلى راحة".

"سوفَ تستريح. سأهتمُّ بالأمر". وأجالَ نظَرَه فرأى كالِب يلعَبُ بكُتَلٍ خشبيَّة سبق أن صنَعَها له. "الولَدُ بخير ومُنشَغِل. اعتَني أنتِ بمارتا".

أخذَت رِصفة شالَها وخرجَت مُسرِعةً. فعبَرَت الشارع وقرَعتَ بابَ أُصيبي. ولمَّا فتَحَ البابَ قليلًا، غمَرَتها الشَّفقة حِيال اليأسِ المُضني المحفور في وجهه. "هل لي أن أدخُل؟"

تردَّدَ أصيبي لحظةً، مُلقيًا نظرةً فاحِصةً عَجلى على الشارع قبلَ فَتحِ الباب واسعًا كِفايةً بحيثُ تدخُل. وما إن دخلَت، حتَّى أحسَّت ثِقَلَ وطأةِ ذلك البيت. لقد كان مُظلِمًا وملآنًا بالظِّلال. وشعرَت بحُضورِ شيءٍ خَبيثٍ داخِلَ حُدودِ جُدرانِ البيتِ المُستطيل. وجعَلَت رائحةُ الثُّوم رأسَها يدور. إذا كان صعبًا عليها أن تتنفَّس بغير أن تشعُرَ بالغَثَيان، فكم بالأحرى وجَبَ أن تكونَ الحالُ أسوأ لمارتا وأصيبي والأولاد؟

يا ربّ، اطرُدِ الشَّرَّ الذي أُحِسُّه مُحيطًا بي. أشعُرُ بأنَّ عُيونًا تلتهِمُني.

خلعَت شالَها، قائلةً لأُصيبي: "رجاءً، أزِلِ الثُّومَ، أُصيبي. إنَّه طاغٍ!"

فقال: "إنَّه يطرُدُ الأرواح الشِّرِّيرة بعيدًا". ولم يتحرَّك ليعمَلَ بطلَبِها. لقد بدا أسوأ من فرايجا.

"لن يَطرُد أيَّ شيءٍ بعيدًا. على الأقلِّ، اسمَحْ لي بأن أفتَح الباب وأدَعَ الهواءَ يمرُّ عبْرَه".

كان أكثَرَ تعَبًا من أن يُجادِلَ، أو حتَّى يُبالي، بأمرِ الثُّوم. لقد كان كلُّ ما بالى به هوَ مارتا، وها هوَ يفقدُها. وبلا كلِمة، رجَعَ وقعَدَ بجانبِ سريرِ زوجته.

فتحَت رِصفة بسُرعة كُلَّ بابٍ ونافذة. فتدفَّقَ النُّورُ إلى الدَّاخل، حاملًا رائحةَ صَنوبرٍ مُرحِّبًا بها وهواءً مُنعِشًا. وتكلَّمَت باختِصار إلى ألْسا، فخرجَتِ الفتاةُ مُصطحِبةً لويزا الصَّغيرة. وإذ رجَعَت رِصفة إلى أُصيبي، ألقَت يدَها على كتِفه. "نَم قليلًا، أُصيبي. سأجلِسُ أنا مع مارتا".

"لا".

فامتلأتْ حنانًا. لو كانَ أتريتِس مريضًا طريحَ الفِراش، لَما تركَته هيَ أيضًا. "إذًا، استلقِ على السَّرير بجانِبها الآخَر". وساعدَته على النُّهوض والقِيام بما طلبَت. وما إن ألقى رأسَه، حتَّى غفا.

انفتَحَت عينا مارتا. فابتسمَت لها رِصفة وهي تضَعُ بطَّانيَّةً على أُصيبي. ثُمَّ دارت حول السَّرير وجلسَت مكانَه. وقالت: "لا تخافي!" مُمسِكةً يدَ مارتا المُرتخِيةَ بكِلتا يدَيها. ثمَّ فرَكَتها، مُصلِّيةً بصَمتٍ أن تُفارِقها الحُمَّى. وبعدَ دقائقَ قليلة، استَرخَت مارتا بعضَ الشَّيء، وحمدَت رِصفة الرَّبَّ.

نهضَت رِصفة ووضعَت يدَها برِفقٍ على جبين مارتا. فإذا به ساخِنٌ وجافٌّ. "أترغبينَ في كأسِ ماءٍ بارد؟"

وأومأت مارتا برأسها موافِقةً.

فصبَّت رِصفة قليلًا، وساعدَتها لتَجلِس كفايةً بحيثُ تشرَب. ورشفَت مارتا قليلًا أوَّلَ الأمر ثمَّ شرِبَت مِقدارًا كبيرًا. وقالتَ بصَوتٍ ضعيفٍ أجشَّ: "ما تمكَّنتُ من إبقاء شيءٍ في معدتي".

"سأُصلِّي إذًا حتَّى تتمكَّني هذه المرَّة". وصلَّت بِصَمت.

بلَّلَت رِصفة خِرقة. وأحسَّت مارتا الخوف كلَّه ينحَسِرُ عنها إذ غسلَت رِصفة وجهَها برِفقٍ كما تغسِلُ وجهَ طفل. "أينَ أولادي؟"

"دَرِك في الخارج، جالِسًا بقُربِ الجدار. وألْسا مع كالِب. وقد أخذَت لويزا معها. أرجو ألَّا تَقلقي، ولكنِّي طلبتُ أن تُساعِدَ أتريتِس برعاية كالِب في أثناء وجودي معكِ".

ابتسمَت مارتا ابتِسامةً راعِشة. "لا، لستُ قلِقة، ما زالت تتوسَّلُ إليَّ..." وخفقَت عَبسةٌ. النَّدَم. الخِزي. ونظرَت إلى رِصفة فما رأت مشاعِرَ استياء، رُغمَ وجودِ سبَبٍ لَدَيها يُبرِّرُها. "ستَستمتعُ بالأمر". لماذا أصغت إلى أنوميا في حينَ علِمَت لحظةَ لقائها لرِصفة أنَّها كانت لطيفةً وجديرةً بالثِّقة؟

وإذ عصَرَت رِصفة الخِرقةَ ثانيةً، قالت: "وكالِبُ أيضًا". ومسحَت بها وجهَ مارتا برِفقٍ، مُبتسِمةً. "إنَّه مفتونٌ بألْسا، ولكنِّي أعتقد أنَّ لويزا هي التي سرقَت قلبَه".

بادلَت مارتا الابتِسامةَ بمِثلها، نابذةً تحذيرَ أنوميا. لقد نسِيَت مخاوِفَها. نسِيَت كلَّ شيءٍ ما عدَا مدَى تعَبِها الشَّديد. وكانت لَمسةُ رِصفة لطيفةً كلَمسةِ أُمِّها، كما كان صوتُها رقيقًا ومُحِبًّا كذلك أيضًا، بل أكثرَ بَعدُ بطريقةٍ ما. فاستراحَت مارتا في رِحابِ ذلك، شاعِرةً

بالأمان، شاعِرةً بالرَّجاء. ''أنا مسرورةٌ بوجودكِ هُنا. مسرورةٌ جدًّا''. لقد تبدَّدَ القلَقُ الرَّهيبُ الذي ساوَرَها أيَّامًا كضَبابٍ رقيقٍ تحتَ دِفءِ الشَّمس. وعلى مدى لُحَيظاتٍ فحَسْب، خُيِّلَ إليها أنَّها سمِعَت صوتًا يُشبِهُ عويلَ خفافيشَ هاربة.

تقطَّرَ العرَق على وجهِ مارتا. فقالت رِصفة، مُربِّتةً إيَّاها برِفق: ''أظنُّ أن حُمَّاكِ تنخفِض. كلُّ شيءٍ بخَير، مارتا''. ثمَّ جلسَت بجانبها وأمسكت بيَدها. ''نامي''.

''أأنتِ باقيةٌ هُنا؟''

''سأبقى معَكِ حتَّى تقولي لي أن أذهب''. **يا ربّ، كُن معنا. احمِنا من الشَّرِّ الذي شعرتُ به في هذا البيت لَمَّا دخلتُ. أقِم ملائكةً حولَنا. اللهُمَّ أبانا، احفَظنا سالِمين في راحةِ يدِك.**

صلَّت بصَمتٍ طوالَ مُدَّةِ رعايتها لأُختِ أتريتِس.

وأوَّلَ مرَّةٍ في غضونِ أيَّامٍ كثيرة، لم تُعذِّبِ الأحلامُ مارتا. فقد نامت في سلام، حالِمَةً ببُستانٍ جميل، حيثُ مشَت هي وأُصيبي وأولادُهما برِفقةِ رجُلٍ مُشِعٍّ كنُورِ الشَّمس.

''بالتَّأكيد، شَفَتها''. هكذا قالت أنوميا، وأحشاؤها ترتجِفُ، لدى سَماعِها الخبَرَ الذي يُفيدُ أنَّ مارتا بخَير وأنَّ الحُمَّى فارقَتها في غضون ساعةٍ واحِدة بعدما سُمِحَ لتلك السَّاحرة الإيونيَّة الداكِنةِ العَينين بدُخولِ البيت. ''ربَّما كانت تلك المرأة هي التي ألقَتِ الرُّقيَة في المقام الأوَّل''. واضطرَمَ غَيظُ الغَيرة في داخلها.

قالت فرايجا: ''من البَدَهيِّ فِعلًا أنَّ الشَّخص الذي يُلقي الرقية تكونُ له القُدرةُ والمَعرِفة لِنَقضها، ولكنِّي أشكُّ في أنَّ رِصفة هي التي ألقَتها''. وقد دُهِشَت حِيالَ وميضِ الغضَب الحاقِد في عينَي أنوميا.

''لماذا تشُكِّين في ذلك؟''

فقالت فرايجا: ''ما كانت لتفعلَ أمرًا كهذا''.

''كيف تعلمين أنَّها ما كانت لتفعله؟''

خفَقَ حاجِبا فرايجا حِيالَ لهجةِ أنوميا الحادَّة. ''لأنِّي لم أرَ أيَّ شيءٍ سوى الحنان جاريًا منها''. وحمَلَت نفسَها على النَّظر مُباشرةً داخِلَ عيني أنوميا. ''ثُمَّ أنَّكِ كُنتِ أنتِ مَن قُلتِ لمارتا إنَّ المرضَ جلَبَه طِيواز. وكُنتِ أنتِ مَن قُلتِ إنَّ طِيواز أعلَنَ هذا لكِ في حُلم. وكُنتِ أنت مَن قُلتِ إنَّها كانت غيرَ طائعة وقد أثارَت استِياءَ طِيواز، وإنَّه أرادَ منها أن تُصغيَ إليكِ. أتقولينَ

الآنَ إنَّ الأمرَ لم يكُن كذلك؟ أم أنتِ تقولين لي الآنَ إنَّكِ كُنتِ مُخطئةً في تفسيركِ؟"

شعرَت أنوميا بالسُّخونة والبُرودة مع كلِّ كلِمة تفوَّهت فرايجا بها. لقد وقعَت في الفَخِّ، واشتغَلَ ذِهنُها بِضَراوةٍ لإيجادِ سبيلٍ لإلقاء اللَّوم في مكانٍ آخر. وأرادت أن تُصِرَّ على أنَّ رِصفة كانت عِلَّةَ البَلاءِ كلِّه، إلَّا أنَّ تصريحاتِها منعَتها أن تفعلَ ذلك. فقالت كاذبةً: "كان طِيوازُ هوَ الفاعِل. لقد تكلَّمَ إليَّ". ثمَّ حرَثَت الأرض لمزيدٍ من بِذارِ الخراب. "إنَّما يبدو بالفعل أمرًا غريبًا جدًّا أن يُنقِذَ مارتا بحُضورٍ غريبةٍ".

كانت فرايجا أيضًا قد حسِبَت ذلك أمرًا غريبًا، وتوصَّلَت إلى استنتاجاتها. "رِصفة ليست غريبة. إنَّها زوجةُ ابني".

عصَرَتِ الغَيرةُ قلبَ أنوميا عند سماع كلِماتِ فرايجا. زوجة. تموَّجَ اللَّقَبُ مُلاطِمًا كِبرياءها. زوجةُ أتريتِس. وأزَّ دَمُها. زوجة! حوَّمَت الكلمة في ذهنها كطائرٍ آكِلٍ للجِيَف، هازئةً بها. إنَّ استِعمالَ الكلِمة مُتعلِّقةً بتلك المرأة كان بغيضًا جدًّا. إلَّا أنَّ نظرةً واحدة في عينَي فرايجا جعلَتها تُدرِكُ أنَّ التَّكلُّمَ على الإيونيَّة الآن لا بُدَّ أن يجلبَ على نفسِها الرَّيبةَ.

قالت فرايجا: "أنا ذاهبة إلى الغابة المُقدَّسة لأُقدِّمَ تضحيةَ شُكر. أتودِّينَ أن تأتي معي؟"

ما كان في وسع أنوميا أن تُفكِّرَ في أيِّ شيء قد تمقُتُه أكثرَ من ذلك. تُقدِّمُ الشُّكرَ؟ من أجلِ ماذا؟ لقد أعلنَت قُدرتَها في إلقاء الرُّقية على مارتا، وما أمكنَ أن يعرِفَ أحَدٌ بذلك. غيرَ أنَّ مُجرَّدَ حضور الإيونيَّة بينَ أهلِ البيت كان كافيًا لإقناع القرويِّين بأنَّها استَرضَت طِيواز بطريقةٍ ما. ولم يهمَّ أنَّ ذلك كانَ غيرَ مفهوم. فلم تكُن تستطيعُ أن تُجادِلَ بغيرِ أن تُلقيَ الرَّيبةَ على نفسها.

لقدِ انقلَبَ الأمرُ بكامله عليها. لماذا، طِيواز؟ **أيُّ لعبة تلعبُها الآنَ معي؟ تلك الساحرة الإيونيَّة هي عدوَّتُك بمقدار ما هي عدوَّتي. وهي تحظى الآن بتقديرٍ أعلى ممَّا كان لها قبلَ الرُّقية. إنَّها ما عادت تُعامَلُ كغريبة. هل ترى كيف تقِفُ بمرأًى جليٍّ منِّي، مُتحدِّثةً مع زوجةِ هَرغاسْت؟**

وما لبِثَت أنوميا أن قالت: "بالتَّأكيد، سأذهَبُ معكِ". ولم يُبدِ وجهُها الجميلُ شيئًا من جَيَشانها الداخليِّ.

إلَّا أنَّ فرايجا أحسَّت ذلك، فتوافَرَ لديها سببٌ إضافيٌّ لِلشَّكِّ.

٤٢

قالَ الصَّوتُ الهامس: ''يا رومانيُّ، أأنتَ مُستيقِظ؟''

فقال ثيوفيلُس: ''مُستيقِظٌ ومُنتظِر''. وقد فغَرَ فمَه مُتثائبًا. كان قد أمضى مُعظمَ نَهارِه مُتصيِّدًا. وقد يسَّرَ له الربُّ، لأنَّه كان يصطادُ لأجلِ وجبة واحدة، والآنَ باتَ لديه لحمٌ كافٍ بحيثُ يدومُ في أثناء الشِّتاء المُقبِل. فحتَّى الآنَ، كانت شرائحُ لحم الغِزلان مُعلَّقةً فوق الدُّخانِ الصاعِدِ من عِيدانِ شجَرِ جارِ الماء. ''بدأتُ أتصوَّرُ أنَّكَ لن تأتي''.

''لقدِ اصطحبتُ زوجتي''.

زوجة! ضيَّقَ ذلك الاحتمالاتِ المُتعلِّقةَ بهُويَّة رجُلِ الظِّلال. فزائرُه في وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل ما كان ممكنًا أن يكون رُود، كما باشَرَ الاشتباه. إذ كان رُود عازبًا. ولا كان ممكنًا أن يكونَ هُلت، ما دام أرملًا. كما لم يكُن ممكنًا أيضًا أن يكونَ زائرُ اللَّيل أيَّ واحدٍ مِن اثنَي عشَرَ مُحارِبًا أصغَرَ سنًّا لم يتَّخِذوا زوجاتٍ بَعد.

قال ثيوفيلُس: ''أهلًا بِكُما كِلَيكُما. أحضِرا أولادَكُما في المرَّة التالية''. وعلِمَ أنَّه أخطأ بتلك المُلاحظة، لأنَّ صمتًا مُتوتِّرًا أعقبَ كلِماتِه.

وسمِعَ المرأة تهمِسُ بشيء، ثمَّ ردَّ الرَّجُلُ بهمسٍ حادٍّ: ''لا تتكلَّمي عن الأمر. لا تقولي كلمةً واحدةً عنه''. وانخفَضَ هَمسُه من جديد. ''إنَّه صديقٌ لأتريتِس...'' وإذ خَشخشَت الأشجارُ من هَبَّةِ نسيم، باتت الكلِماتُ غيرَ واضحة.

كانت الليلة باردة. وعلِمَ ثيوفيلُس أنَّه كان في دفء بيته المُستطيل مُستريحًا أكثرَ بكثير من الرَّجُل والمرأة الجاثِمَينِ خارجًا في هواءِ تلك اللَّيلةِ من أواخِرِ الخريف. وقد سبَّبت لهُما مُلاحظتُه توجُّسًا غيرَ ضَروريٍّ. فنَدِمَ على مُحاوَلتِهِ إشباعَ فُضولِه.

هذانِ من أولادِكَ، اللهُمَّ. فليمكُثا وقتًا طويلًا كفايةً حتَّى يسمعا البِشارة. لِتَطرُدِ المحبَّةُ خوفَهُما خارجًا!

''أُريدُ منك أن تُخبِرَ زوجتي عن يسوع''.

استطاعَ ثيوفيلُس أن يسمعَ أسنانَ المرأة وهي تصِرُّ. ''زوجتُكَ بَردانة''.

''إذًا، خبِّرها بسُرعة''.

"كلِمةُ الربِّ ليست شيئًا يُعامَلُ بعَجَلة زائدة. إذا وضعتُ عِصابةً على عينيَّ، فهل تدخُلان كِلاكُما إلى حيثُ الدِّفءُ أكثر؟"

وسمعَ المرأةَ تهمِس.

ثُمَّ قال الرَّجُل: "نعم".

فتناولَ ثيوفيلُس خَنجرَه عن الرَّفِ، وقطَعَ طرَفَ بطَّانيَّته ومزَقَ شِقَّة. ثُمَّ ألقى الخَنجرَ بقُربِ المِصباحِ الذي كان قد حطَّهُ في وسط الغُرفة ليُسكِّن أيَّ خوف ممكن. وإذ أغمضَ عينَيه، ربَطَ العِصابةَ بإحكام.

سمِعَهُما يدخلان ويُغلِقان الباب الذي كان قد أكملَهُ أمس. وظلَّت أسنان المرأة تَصِرُّ، رُبَّما بسبَب التوتُّر أكثرَ منه بسبب البَرد.

فقال ثيوفيلُس: "اطمئنِّي، سيِّدتي!" مُتلَمِّسًا بيَدهِ الناحيةَ التي عن شماله، حتَّى وجَدَ طيَّةَ بطَّانيَّتِهِ الإضافيَّة. وأضاف: "خُذي هذه وضَعيها حولَكِ". وسمعَ حركةً، ثُمَّ أُخِذَت البطَّانيَّة من يده بحَذَر.

قال الرَّجُل، بِلا هَمسٍ بَعدُ: "ارجِعْ إلى البداية. خبِّرها عن النَّجم الذي ظهَرَ في السَّماواتِ مُعلِنًا ولادةَ المُخلِّص".

جاءت جماعةٌ من البرُكتيري ببضائعَ للبيع. فعرَضُوا بروشاتٍ سَلتيَّةً ودَبابيسَ وجِزَزَ صوف وأوانيَ فخَّاريَّةً، وأيضًا أوانيَ فِضِّيةً وذهبيَّةً من روما. وقايضَهُم الشَّطِّيُّون بالفِراء وجلود الحيوانات، وأيضًا بالكَهرمان، وهو الرَّاتينَجُ المُتحجِّرُ المطلوبُ كثيرًا في أسواقِ عاصمة الإمبراطوريَّة.

سُمِعَ برُكتيريٌّ يقول: "التُّجارُ الذين جلَبوا هذا إلى الشَّمال سيُكابِدون الخَسارة". ولكنَّ شطِّيِّين قليلين اعتقدوا أنَّ هؤلاء المُتاجِرين قد أتَوا ببضائعهم بوسيلةِ الإغارةِ والنَّهبِ المُشرِّفة. فكانت قَرصةُ الكِبرياء أقلَّ إيلامًا بعدَمِ طرحِ أسئلة.

كان تُجَّارٌ رومانيُّون يتسلَّلون إلى جِرمانيا، مُغرينَ القبائلَ بالهدايا والرِّشى لمُباشرة التِّجارة. وأبحرَت سُفُنٌ شمالًا على الرَّاين، حاملةً البضائع إلى أسكيبورجيوم وترايَر. وقد أتى شُجعانٌ أقِلَّاءُ بقَوافِل، مُعرِّضينَ لخطَرِ الموت وهم يسلكونَ ضِفافَ ليپ ورُهْروماين، داخلينَ أوديةَ الشَّمال من طريقِ نهرَي قَسَر والإلب، عالمين أنَّه سيُثأر لحياتهم إذا أخفقوا.

لمَّا جاء إلى الشَّطِّي بِضعةُ رومانيِّين قبلَ سنتَين، لاقَوا نهايةً عاجلة وسريعة، وصودِرَت

بَضائعُهُم. وجاءَ الانتقامُ الرُّومانيُّ عاجلًا في أعقابِ ذلك، مُخلِّفًا احتراقَ القرية ومقتلَ ثمانيةَ عشرَ مُحارِبًا وثلاثِ نِساءٍ وولَدٍ واحد. وكان الآخرون سيؤخذونَ عبيدًا، لو لم يهربوا إلى الغابات ويبقَوا مُختبئين هناك حتَّى رحيلِ الفَيلَق.

ولم يرجِعوا إلى موقع القرية القديمة إلَّا مرَّة واحدة، لتكريم مَوتاهُم في بيوتِ جِنازةٍ أُنشئَت بسُرعة. وفي الأشهُرِ التي تلَت، بنى قومُ الشَّطِّي القريةَ من جديد على أراضٍ واقعةٍ إلى الشَّمال الشَّرقيِّ من الغابة المُقدَّسة.

والآن، جاءت روما من جديد، مُنتهِكةً الأراضيَ نحوَ الشَّمالِ كلَّ حين، هذه المرَّةَ بتمثيلِ البرُكتيري، حُلَفاءِ الشَّطِّي المُفترَضين ضدَّ روما. وقد تحدَّثَ المُحارِبون الشَّطِّيُّون بشأن الحرب لمَّا غادروا.

"كان ينبغي لنا أن نقتُلَهم في أثناءِ وجودِهم هُنا!"

فقالَ أتريتِس: "ثُمَّ يأتيَ فيلَقٌ آخَر ينفُثُ أنفاسَه فوقَ رِقابِنا!"

"سننقلُ الحربَ جنوبًا هذه المرَّة".

رُغمَ نصيحةِ أتريتِس، انطلقَت زُمرةٌ من المُحارِبين لإظهارِ غَيظِهم. وقد تخلَّفَ أتريتِس عنهم، مُراقِبًا إيَّاهُم يُغادرونَ بمشاعِرَ مُختلِطة. لقد علِمَ الآنَ عن طريقِ الله ما كفى لأنْ يمنعَه ضميرُه من مُرافقَتِهم. إلَّا أنَّ جُزءًا آخَرَ من كِيانه تاقَ إلى الرُّكوبِ معهم. مُنذُ مَتى شعَرَ بذلك التَّدفُّقِ الحارِّ للانفعال الشَّديد في دمه؟ أقرَبُ شيءٍ إلى ذلك كان لمَّا ضمَّ رِصفة بينَ ذِراعَيه، غير أنَّه لم يكُنِ الشيءَ نفسَه.

وإذ لاحَظَ ثيوفيلُس قلَقَه، قال: "أنتَ تفتقِدُ إثارةَ القتال".

كانت الإثارةُ كلِمةً أضعفَ من أن تصِفَ ما قد شعرَ به. فقال باكتئاب: "أحيانًا، ولكنَّ الأمرَ أكثرُ من ذلك بكثير". رُغمَ أنَّ الأمرَ بدا جُنونًا، فقد افتقد الشُّعورَ الذي كان يُخالِجُه في ساحة المحاربين، حيثُ حدَّقَ إلى الموتِ وجهًا لوجه وتغلَّبَ عليه بغريزةِ البقاء فحسْب. فقد كان دَمُه يُبَقبِقُ ساخنًا وسريعًا. وأحيانًا، في سَورةِ غضَب، خالجَه شعورٌ يُقارِبُ ذلك: ابتِهاجٌ، جُموحٌ يجعلُه يشعر بأنَّه حيٌّ. وما كان إلَّا في ما بَعد أنَّ الانخِداعَ انجلى والكُلفةَ أُظهِرَت.

فهِمَ ثيوفيلُس كُلَّ ذلك أتمَّ فَهم. "نحنُ في معركةِ الآن، أتريتِس. كِلانا فيها، ونحنُ نقِفُ ضدَّ عدوٍّ أخطَرَ وأمكَر من أيِّ عدوٍّ واجهناه يومًا من قَبل". لقدِ استطاعَ أن يُحِسَّ قوَّاتِ الظَّلام حولَهُم، مُطبِقةً عليهِم.

لَمَّا رجَعَ مُحارِبو الشَّطِّي غانِمين مُبتهِجين، باتَ مِزاجُ أتريتِس أكثرَ اكتئابًا بَعد. لقد شرِبَ مع أصدقائه وأصغى بتلهُّفٍ إلى تفاصيلِ المعركة كلِّها، وجزءٌ مِنه يشتهي ذِكرَياتِ مآثِرهم الشخصيَّة في أثناء المُغامرة الباسلة.

ذكَّرَه ثيوفيلُس بأنَّ ما قد فُعِلَ يمكن أن يوصَفَ بأيِّ شيء ما عدا كونه باسلًا.

فجأرَ أتريتِس مُدافِعًا: "ولُصوصيَّةُ رُوما صواب؟"

"الخطيئة خطيئة، أتريتِس. أينَ الفَرقُ بين ما فعلَته روما بالشَّطِّي وما تفعلُه الشَّطِّي الآن بالبرُكتيري؟"

كان مُجرَّدُ إصغاء أتريتِس علامةً على مدى تغيُّرِ قلبه. وقد فهِمَ كلامَ ثيوفيلُس حقَّ الفهم. إلَّا أنَّ أيَّ شخصٍ آخر لم يكُن مُصغيًا.

لَمَّا سكِرَ هُلت ورُود والآخرون من البِيرة والنَّصر، أسكرَتهم شَهوةُ الدم فتاقوا إلى معركة أُخرى. لم يكُنِ السَّلام جذَّابًا لهم، وما زالَ الانتصار يجري مُسرِعًا في عُروقهم والغنائمُ مُكدَّسة حواليهم. وقد أغاروا هذه المرَّة على التشيروتْشي. وأُعيدَ سِتَّةُ مُحاربين محمولين على تُروسهم.

كان لنار الجِنازة التي اشتعلَت حتَّى وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل تأثيرٌ مُصَحٌّ في المُراقِبين، وتأثيرٌ في الأُمَّهات اللواتي حملن أولئك الذين سقطوا قتلى أكثر تصحيةً منه في الآباء الذين أتوا بهم إلى الدِّيار. فقد جعَلَ الموتُ الرِّجال يتوقونَ إلى الدِّماء أكثرَ بَعد.

صلَّت رِصفة طالِبةً أن تُبرِّدَ ثلوجُ الشتاء طِباعَ الشَّطِّي وتُسكِتَ حديثَ الحرب. وجاءت العواصف، واحِدةً إثرَ أُخرى، حتَّى لم يعُد لِلشَّطِّي من خِيارٍ سوى البقاءِ داخِلَ إطارِ حُدودِهم. فشكرَت رِصفة الله، ولكنَّها اكتشفَت صعوبةً من نوعٍ آخَر.

كان إطعامُ المواشي أصعَبَ في أثناءِ أشهُرِ الشِّتاء. ورُغمَ مُساعدة أتريتِس، كان قارُس يرجِعُ مُرهَقًا كلَّ حين، رِجلُه المعطوبةُ تؤلِمُه فوقَ طاقتِه على الاحتمال الهادئ، ومِزاجُه سيِّئ. وكان في وُسعِ أنوميا وحدَها أن تُسكِّنَ ألمه. فكثيرًا ما كانت تأتي زائرةً، مُحضِرةً مَرهمًا مُلطِّفًا مصنوعًا من زهرة العُطاس، فرَكَته عميقًا على ساقِ قارُس.

تعجَّبت رِصفة من أفعال أنوميا اللَّطيفة، لأنَّه كلَّما فرغَت من إسعافها كان قارُس أقلَّ ألمًا من ذي قبل، لكنْ أكثرَ قلَقًا وضِيقَ صَدر.

قالَ أتريتِس، بعدَما راقَب أنوميا: "إنَّه يحتاجُ إلى زوجة". وكانت قد نظَرَت إليه في أثناء

إعمالِ سِحرها بفخذِ فارُس المُندَّبة، فأحسَّ كأنَّها كانت تُمسِّدُ جِسمَه بدلًا من جسم أخيه بأصابِعها تلك الجريئةِ والبارِعة. وقد تَغلغلَت مَعرِفةُ ذلك عميقةً وحارَّةً، مُثيرةً إيَّاه بطريقةٍ لم يشعر بها منذُ جوليا.

أطلَقَ عِنانَ الوحشِ على زوجته، صادمًا ومُخيفًا إيَّاها بشَبَقِه. ولم يكُن حتَّى تفوَّهَت بصَرخةٍ رقيقة أنَّه أدرك مُجرَّدَ إدراكٍ ما كان جاريًا له، وقطَعَ تسارُعَه الأخرَقَ نحوَ بلوغِ ارتوائه الشَّخصيِّ.

ارتاعَ أتريتِس وغمَرَه الخجَل، فدسَّ وجهَه في شعرها، هامِسًا: ''أنا آسِف''. لم يكُن قد آذاها من قبل، وروَّعَه حِسُّ ارتجافِ جِسمِها بمقدار ما روَّعه. وصاحَ ذِهنُه: اللهُمَّ، سامِحني. ثمَّ همَسَ بصوتٍ أجشَّ: ''أنا آسِف!'' وعانقَ رِصفة برِقَّة، خائفًا من القوى القاتمة التي استولَت عليه مجدَّدًا بسهولة بالغة.

بينَما هو مُضطجِعٌ مع زوجته، استحضَرَ ذِهنُه صُورةَ امرأةٍ أُخرى. حتَّى الآن، فيما هو يُعزِّي رِصفة، عاودَته ذِكرياتُ مُواقَعاتٍ شهوانيَّة. وقد انتصبَت كجِيَفٍ نتِنة من قبورٍ نجِسة. ففي لحظة، وبِلا طلَب، كانت معه أولئك النِّساءُ الأُخَر، مُدنِّساتٍ فِراشَ زوجيَّته.

ذاتَ مرَّة، منذ زمانٍ بعيد في أفسُس، شاهَدَ رجُلًا يتعثَّرُ على الطريق خارِجَ أبوابِ دارته وجُثَّةُ مَيْتٍ مربوطةٌ على ظهرِه. كانت الجيفة المُتحلِّلة مُحزَّمةً عليه بطريقةٍ لا يستطيع أبدًا أن يتحرَّرَ منها، ليس قبلَ أن يبدأ التحلُّلُ ينهَشُ من جسمِه أيضًا. يومَذاك سأل: ''لماذا يفعلُ هذا؟'' فأجاب غالُص: ''هُوَ القانون. إنَّه يحمِلُ جثَّةَ الرَّجُلِ الذي قتلَه''.

اخلعوا الإنسانَ العتيق.

كان أتريتِس قد لَبِسَه من جديد. وكان في وسعه أن يُحِسَّ ثقلَ الخطيئة على ظهرِه، ودنَسَها مُتسرِّبًا إلى داخله عبْرَ مَسامِّه.

أطلقَت رِصفة شهقةَ إجفالٍ إذ أفلتها أتريتِس فجأةً وجلس. فسألَت بدفقةِ قلَقٍ مذعور: ''ما الأمر؟ ما خَطبُك؟''

قالَ بصوتٍ مُخشَوشِن: ''أمهِليني دقيقةً''. ولمَّا جلسَت ومدَّت يدَها لِتَلمسه، كان فظًّا: ''لا تقتربي إليَّ!''

ذلك هو ما شعرَ به، وكانت أنوميا قد أيقظَت ذلك. فما كانَ في وسعه أن يكونَ بقُربها ولا يرى ما أرادت، ولا يُحِسَّ الرَّغبةَ تتعاظَمُ في داخلِه أيضًا. وقد صعَقَه ذلك الإدراك. وما كان أسوأ هو أنَّه علِمَ أنَّ الأمرَ سوف يحدُثُ ثانية.

أكان ذلك لأنَّها بدَت شبيهةً جدًّا بآنيا؟

أمرَّ أصابِعَه في شعره، وأمسكَ برأسِه. وكان فعلًا قد وَجِعَ ممَّا بدأه ولم يُكمِّله. وما كان ليُكمِّلَ بوجودِ ما كان جاريًا في ذِهنه.

لقد أحبَّ رِصفة، وتعلَّقَ بها، وكان على استِعدادٍ للموتِ من أجلها. فكيفَ أمكَنَ أن يضمَّها بين ذِراعَيه ويُعاشِرَها فيما هو يُفكِّر في أُخرى؟ لقد كان ذلك أسوأ نوعٍ من الخِيانة. إذ فاحَت منه رائحةُ الزِّنى الكريهةُ.

"اللهُمَّ، سامِحني".

سَمِعَته رِصفة يُغَمغِمُ بشيءٍ ما، ولكنَّها لم تدرِ ما كان.

"اللهُمَّ، حرِّرني".

وسمِعَت ذلك، فتقدَّمت إليه، واضعةً ذِراعَيها حولَه. فهزَّ جِسمَه ودفعَها عنه إلى الوراء.

ثمَّ صلَّى أتريتِس بحرارة: **اسمَع صُراخي، يا ربُّ. امحُ تلك السَّاحرةَ من ذِهني. امحُ كلَّ امرأةٍ لَمستُها يومًا من ذِهني. اجعَلني طاهِرًا لأجلِ رِصفة. اجعلَني طاهرًا.**

وإذ صفا ذِهنُه، التفتَ ليُطَمئنَ زوجتَه. ولكنَّ الأذى كان قد حصَلَ فعلًا.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

٤٣

وافَقَ الشِّتاءُ دمَ أنوميا البارد. فاختارَت وقتها ومُستمِعيها بدقَّة. وكان بين مُختاريها مُضمِرو الأحقاد، وأصحابُ الرَّغبات غيرِ المُتمَّمة، والمستاؤون والخائبون. وقد دعَتهم إلى مسكنها ذي الظِّلال، وسكبَت نبيذًا مُحلًّى بالعسل في قُرون شرابِهم ونقدًا قاسيًا، حلوًا مُرًّا، في قلوبهم. فكانوا ينصرِفون عطشى ويرجِعونَ مِرارًا وتَكرارًا، ظانِّينَ أنَّ في وسعها أن تُرويَ عطشَهُم.

قالت: "يتكلَّم أتريتِس عنِ الذَّنْب، ذنْبِ الخطيئة، مهما كانتِ الخطيئة؟" وقد زادتها السُّخرية حِدَّةَ جَمال. "لماذا ينبغي أن نشعر بالذَّنب؟ البرُكتيري يخونونَنا بزِناهُم مع روما، أليس كذلك؟ والهِرمُندوري سرقوا سُهولَ مِلحِنا المُقدَّسة. إنَّه مخدوع".

وافقَ الرِّجالُ بسُرعة، وعيونُهم تطوفُ عليها بافتِتانٍ مُتَّقِد.

فابتسمَت شاعرةً بالسَّطوة التي كانت لها عليهم، بالسُّلطةِ التي بذَلُوها لها بمَحضِ إرادتهم.

"نحنُ القبيلةُ الكُبرى بين القبائل الجرمانيَّة. لقد تولَّت الشَّطّي قيادةَ القوَّاتِ ضدَّ روما. كنَّا أوَّلَ النازلين إلى ساحة القتال وآخِرَ المُغادِرين. والآن، هذا الرُّومانيُّ وهذه المرأةُ الإيونيَّة قد أثَّرا في أتريتِس وحوَّلا قلبَه بعيدًا عن طِيواز. ماذا يُريدان لنا أن نعتقِدَ بشأنِ أنفُسِنا؟ أنَّنا لاشيء. لاشيء!"

صدَرَ هديرٌ من الرِّجال، وقد تأجَّجَت كِبرياؤهم.

لقد نفَخَت نيرانَ استيائهم، وأضافَت وَقودَ الرَّغَباتِ الفاجرة.

"يزعُمانِ أنَّنا أخطأنا". وأطلقَت ضِحكةَ سُخريةٍ، مُلوِّحة بيدها. "كيف يمكن أن نُعدَّ، أنا أو أيُّ واحدٍ منكم، مسؤولين عمَّا فعله رجُلٌ واحد أوِ امرأةٌ واحدة قبلَ آلافِ السِّنين في بُستانٍ لم يسمع أحَدٌ منَّا قطُّ بوجوده أصلًا؟ إنَّه أمرٌ سخيف. إنَّه مُضحِك! هل هَرغاسْت مسؤولٌ عن إسقاطِ ابنهِ تُرسَهُ في المعركة؟ لا. هل هُلت مسؤولٌ عن الرِّجال الذين ماتوا دِفاعًا عن أرضِنا؟ لا. لا أحَدَ منَّا مسؤولٌ عمَّا فعلَه شخصٌ آخَر. ونحنُ لسنا مسؤولين عن خطيئةِ آدمَ وحوَّاء هذين اللَّذين لا وجودَ لهُما".

دارت داخِلَ الدائرة خادمةً إيَّاهم، مُتقرِّبةً منهم دائمًا كفايةً بحيثُ تنظرُ داخِلَ عيونِهم، كي تحفِزَ أهواءَهُم. "إنَّها خُرافةٌ يحكيانِها لنا، حكايةٌ صغيرة بغيضة لها غايةٌ قاتمة. وسأقول لكُم ما هي".

رأت أنَّها مُمسِكةٌ بهم في يدها، واستساغت إصغاءهُم الحالمَ إلى كلِّ كلمةٍ تقولُها. وقد تشرَّبوا كلَّ كلِمة كما تتشرَّبُ الأرضُ العَطشى المطَر.

"يُريدانِ لنا أن نؤمن بأنَّنا نحمِلُ خطيئة آدم وحوَّاء هذين، لأنَّنا بإيماننا بذلك نصيرُ ضُعفاء. يُريدان لنا أن نشعُرَ بأنَّنا كالدُّودِ أمام إلهِهما هذا. يُريدانِ أن يهزمانا دونَ مجرَّد الاضطِرار إلى إرسالِ فَيلَق".

وأطلقَت ضِحكةً رقيقة مُقلِقة. "أنحنُ دُودٌ في نظَرِ طِيواز؟ لا. ولكنْ إذا أصغَينا إلَيهما، نكونُ دودًا. دُودٌ في نَظرِ الرُّومان".

قالَ أحَدُ الرِّجال مُرتبِكًا: "أتريتِس يُقسِمُ بسَيفِهِ إنَّ زوجتَه أُقيمَت من المَوتِ حيَّةً".

قالت: "حِيلةٌ!" مُستبعِدةً ذلك بخِفَّة، وصبَّت مزيدًا من النَّبيذ. وفي أثناءِ صبِّها، لامسَتِ الأيديَ برِقَّة، مُقتربة جدًّا بحيثُ يُتاح لحلقةِ الرِّجال الصغيرة أن يتنشَّقوا أريجَ الأعشابِ العَطِرة التي كانت قد فركَت جِلدَها بها. فليجوعوا. وليعطشوا.

"يُريدانِ منَّا أن نبتلعَ ديانتَهُما المُخترَعة هذه. يقولان إنَّهما يُريدان أن يُخلِّصانا. ولكنْ هل ذلك صحيح؟ أيعنيهما أمرُنا حقًّا؟ لمَ يُعوِزُكم أن تُخلَّصوا؟ مِن مفخرة كونِكم شطِّيِّين؟ نحنُ قومُ الشَّطِّي فعلًا. نحنُ الأشرَسُ والأشجَعُ بين أهل جِرمانيا كُلِّهم. نحنُ جِنسٌ فوقَ جميع الأجناس الأُخرى. فهل مِن عَجَبٍ أنَّهما يأتيانِ إلينا تحتَ قِناعِ السَّلام، جالِبَين مَعهُما أفكارًا سامَّة؟"

شحَنَتهُم بمرارةِ الشَّكِّ والغضَب، ثُمَّ قالت لهم أن يُبقوا الأمر سرًّا في ما بينَهم.

"أينَما نذهب، فستتبَعُنا قبائلُ أخرى، فوقَ جبالِ الألبِ تمامًا لننتزِعَ القلبَ من روما. ولكنْ إذا أصغَينا إلَيهما وقبِلنا هذا الإلهَ الجديد كما يفعَلُ أقلَّاءُ ضُعَفاءُ، تكونُ روما قد هزمَتنا دون أن تُحرِّكَ إصبَعًا. وعندئذٍ نكونُ أذِلَّاءَ وضُعَفاءَ وحُقَراء، تمامًا كما يعتقدانِ أصلًا أنَّنا كذلك".

"ينبغي أن نقتُلَهما".

فقالت: "لا". وقد رأت كِلماتِها تتجذَّرُ وتنتشِر كعِنَبِ الثَّعلب وحشيشةِ ستِّ الحُسن. "لا. لن نقتُلَهما. ليسَ الآن. علينا أن نكون أذكياء مِثلَهُما لنربحَ أتريتِس من جديد. سيأتي الوقتُ الذي فيه يُدمَّرانِ كِلاهما، إنَّما علينا الآنَ أن ننتظِرَ ونكونَ حُكماء.

عندما تتكلَّمون مع أتريتِس، تظاهَروا بالإصغاء فيما أنتُم مُغلِقونَ آذانَكُم وقلوبَكُم حِيالَ ما يقولُه. استغلُّوا الفُرصة لتذكيره بالأفعال الفظيعة التي أدامَتها روما علينا. ذكِّروه بموتِ أبيه. ذكِّروه بالآخَرين الذين لا يُعدُّون مِمَّن ماتوا أو أُخِذوا عبيدًا. اسألوه عن حياته في روما. لقدِ

استُعمِلَ وسيلةَ تَسلِية. دعوه يتذكَّر حقيقةَ وَضعهِ لمَّا عُومِلَ كحيوان. إنَّ التذكُّرَ سيُعيدُه إلى رُشدِه. نحنُ نحتاجُ إليه. تصرَّفوا بحَذَر".

وتبسَّمَت. "سوفَ ننتصِر". لقد غرَسَت فيهم ثِقتَها المُتصلِّفة. "تذكَّروا، نحن كثيرون، وهُم قليلونَ فحسْب. والآنَ اذهبوا واعملوا بمشيئةِ طِيواز".

٤٤

كان لكلِمات أنوميا تأثيرٌ فتَّاك. فقد اتَّبعَ الرِّجالُ تعليماتها بمهارة، مُتظاهِرين بالاستماع إلى الحقِّ في أثناء طرحِهم أسئلةً أثارت ذِكرياتٍ كان أتريتِس قد كافحَ بضراوةٍ لِدَفنها.

لاحظت رِصفة كيف عذَّبَت الأسئلةُ أتريتِس. فهو ما تكلَّمَ قطُّ عن حياته في اللُّودُس، ولا عن طبيعةِ القِتال في ساحة المُحارِبين. وهي ما سألته قطُّ. أمَّا الرِّجال، وهُم حسَّاسون حِيالَ الكِبرياء، فقد تجنَّبوا سؤالَه من قبل. إلَّا أنَّهم الآن بدَوا فُضوليِّين بإفراط، مُصِرِّين على أن يعرفوا.

لم يُرضِهم إيجازُ أجوبةِ أتريتِس، ولا تجاوبوا معه. لقد أرادوا المزيد. فكان أحدُهم يقول: "لقد سمِعتُ أنَّ..." مُمهِّدًا لسؤالٍ أرجعَ أتريتِس إلى عهدِ العُبوديَّة.

وسأله مُحارِبٌ شابٌّ: "كيف كان شَكلُ القِتال في ساحات المحاربين في رُوما؟"

"أصحيحٌ أنَّهم يُلبِسونك دِرعًا برَّاقةً وريشًا مُلوَّنًا فاخرًا، ويجعلونك تجولُ استِعراضيًّا ليُتاحَ للرَّعاعِ الرُّومانيِّين أن ينظروا إليك؟"

كانَ من شأنِ رِصفة أن ترى النظرةَ التي طلعَت إلى عينَي أتريتِس: "أحيانًا أقلَّ من ذلك".

فقال رُلف: "أقلَّ بأيِّ مقدار؟"

أدارَ أتريتِس رأسَه ببُطء ونظر إلى الرَّجُلِ الأصغرِ سنًّا. فلم ينبِس رُلف بكلمة أُخرى.

"سمِعتُ أنَّ اللَّانيستا يُعطيكَ امرأةً إذا كان أداؤك جيِّدًا كفايةً".

خفَقَت عينا أتريتِس صوبَ رِصفة، ثُمَّ بعيدًا.

وقال آخَرُ من الجانب المُقابِل: "كعظمةٍ لكلبٍ مُطيع".

فشُحِبَ وجهُ أتريتِس غضبًا.

أحاطَت به المُلاحظات كسِربِ ذئاب. فقد نهَشَت وعَوَت وانتزعَت أجزاءً من سلامِ ذِهنه. وبدأت الشُّكوك تصعَدُ كجَمرٍ مُتَّقِد تحتَ غِطاءٍ مُوَّهٍ من الرَّماد الداكن، وقد نفَخَ لهيبُه الحارُّ الحِجابَ الرَّقيقَ وبدَّدَهُ مُضرِمًا الذِّكرياتِ السَّوداءَ الهاجعةَ تحتَه.

احتمَلَ أسئلتهم بضَبطٍ للنَّفس نادِرٍ، ولكنْ في الصَّباحِ التالي، داخِلَ بيتِ ثيوفيلُس المُستطيل، ترَكَ غضبَه يتبدَّى.

"يطرحون أسئلةً عنِ الله لا أستطيعُ الإجابةَ عنها". وإذِ اكتنفَهُ دِفءُ بيتِ ثيوفيلُس، شعَرَ بحُرِّيَّةٍ كي يستسلِمَ لإحباطه. "أجِب عن هذا! إذا كان الله رحيمًا ومُحِبًّا جدًّا، فلِماذا يسمح للشَّرِّ بأن يوجَد؟ لماذا لم يُهلِك الشَّيطانَ بدَلَ أن يسمح له بحرِّيَّة السِّيادة على الأرض؟"

حمَلَت رِصفة كالِب في حضنها، وراقبَت أتريتِس. لقد تصرَّف كحيوانٍ مقفوص. وكان البارحةَ قد استلقى مُستيقظًا عدَّةَ ساعات، ولمَّا نام فعلًا أزعجَته الكوابيس. وقد صرَخَ مرَّةً وجلسَ، ولكنْ لمَّا حاولت أن تتكلَّمَ إليه قال لها أن تدَعَه وشأنه.

قال ثيوفيلُس بهدوء: "اقعُد، أتريتِس".

فجأرَ أتريتِس: "اقعُد! ما زلتُ قاعِدًا طَوالَ أسابيع! لقد نسِيتُ كم كنتُ أكرَهُ الشِّتاء". وحدَّقَ إلى صديقه. "أجِب عن الأسئلة فحسْب، إذا كنتَ تستطيع".

"يسمحُ الله بالشَّرِّ لكي يعمِدَ إلى إبداء رحمته ونعمته بفداء الخَطَأة. الأشياءُ كلُّها تؤول إلى إتمامِ القصدِ الصالح..."

"لا تُحدِّثْني بشأن القصد الصالح! أيُّ قصدٍ صالح في أن أُوسَمَ بالنَّار؟ أيُّ قصدٍ صالح في تكرارِ الضَّربِ والجلْد واستمرار التدريب؟ قُل لي!"

أدركَ ثيوفيلُس ما كان جاريًا. "ما كان الله هو مَن جعلَك عبدًا، أتريتِس. بلِ الناسُ فعلوا ذلك. ما كان الله هو مَن فعلَ تلك الأُمور بك. إنَّ قلب الإنسان شِرِّير".

شاهدت رِصفة الغضَبَ القديمَ جائشًا داخِلَ زوجِها. وما أكثر ما انفجَرَ غيظًا مؤخَّرًا حِيالَ أتفهِ مسألة وأبرإِ مُلاحظة! إذ كان يُهاجِمُها بسبَبِ شؤونٍ يسيرة بعد أن يقضيَ الرِّجال سهرتَهُم الطويلةَ معًا. حتَّى الجوابُ اللَّينُ كان يجعلُه يَستشيط.

قال أتريتِس: "ربَّما كانت رِصفة على حقٍّ. ربَّما كان ينبغي أن أُصغيَ إليهم أكثر". وغادرَ سافِقًا باب ثيوفيلُس بقوَّة حتَّى خبَطَ مرَّتَين. وإذ وضعَت رِصفة كالِب جانبًا، قامَت فشاهدَته يمشي بخُطًى واسعة وسطَ الثَّلج ثمَّ يدخُل الغابات.

وقالت: "ليتنا نستطيعُ أن نرجِعَ. ليتنا نستطيع أن نأخُذَ كالِب ونرجِع إلى روما ونجتمع مع الآخرين!"

"الله يُريدُ لنا أن نكونَ هُنا".

"لماذا؟" وقد كانت مُنزعِجةً وساخطةً جدًّا على غِرارِ أتريتِس. إذ بدا أنَّ غضبَه أثارَ غضبَها. "لا أحَدَ من هؤلاء القوم يُريدُ أن يسمع الحقَّ. ينبغي أن تسمعَ الرِّجالَ كلَّ ليلة

في البيت الطويل، مُتحدِّثين مِرارًا وتَكرارًا بشأن المعارك التي ربِحوها أو يُريدون أن يربحوها. إنَّهم يتباهَون ويَتغنَّون بحُبور، ويشربون حتَّى لا يكادوا يَقوَون على الوقوف والانصراف إلى بيوتهم. لا أحَدَ منهم قلبُه مَيَّالٌ إلى الرَّبِّ، ثيوفيلُس. لا أحد!"

فقال: "بلِ اثنان، ورُبَّما آخرون، وإن كانت تُعوِزُهما الشجاعة لإظهار أنفُسِهما، حتَّى الآن!" وسكَّنَتها المُفاجأة. "ماذا تعني؟"

فأخبَرَها عن زائرَيه اللَّيليَّين. "ثِقي بالرَّبِّ، رِصفة. إنَّ كلِمتَه لا ترجِعُ إليه فارِغةً".

وضمَّت نفسَها بين ذِراعَيها اتِّقاءً للبَرد، قائلة: "حسنًا، الله متمهِّلٌ أكثر ممَّا ينبغي. إنَّ إيمان أتريتِس ينهار".

"وفي هذا سببٌ إضافيٌّ أوفَرُ لكي تبقَي قويَّة، يا محبوبة".

فالتفتَت ونظرَت إليه. كانت ترجو تطمينًا، ولكنَّ ثيوفيلُس رأى ما كان حادثًا لأتريتِس كما رأته هي: "أنت تقولُ لي: كوني قويَّة". واغرورقَت عيناها. "أنا لستُ قويَّة، ثيوفيلُس، لستُ مِثلَك. لو لم يكُن في وسعنا أن نأتيَ إلى هُنا ونتكلَّمَ معك، لَانْهَرنا كِلانا".

وقفَ ثيوفيلُس وأمسك يدَيها بكِلتا يدَيه. "يجبُ أن تُصغي إليَّ، رِصفة. انظُري إلى الرَّبِّ، لا إليَّ".

"أنا خائفةٌ مِمَّا هو جارٍ له. إنَّهم لن يلينوا، بل يُعذِّبونه بالأسئلة والنِّقاش. أحيانًا، أظُنُّ أنَّهم يفعلون ذلك عمدًا، فقط ليجعلوه يكرهُ روما والبرُكتيري والهِرمُندوري وكُلَّ مَن ليس شَطِّيًّا. إنَّهم يُغضِبونني جدًّا. وتلك المرأة..."

"أنتِ تعرفين كلمة الرَّبِّ. لا تدَعي نفسَكِ تتزعزعينَ من جرَّاء كلامهم. إنَّ الله سامحٌ بأن يُغَربِلَ الشَّيطانُ أتريتِس، تمامًا كما غُربِلَ الرَّسولُ بطُرس. كلُّ واحدٍ مِنَّا يُغربَلُ. إنَّنا نجتازُ وسطَ النَّار".

"عند بعضنا، الأمرُ أسوأ". وسحَبَت يديها من يدَيه ثُمَّ خرجَت خارجًا. وإذ شهَقَتِ الهواءَ البارد إلى داخِل رئتَيها، تساءلت هل ينبغي لها أن تلحقَ بأتريتِس وتتحدَّثَ معه.

"دَعيهِ وشأنَه، رِصفة". هكذا قالَ ثيوفيلُس بهدوء من البابِ المفتوح. "دعيه يُفكِّر".

"أحيانًا، يُفكِّرُ فوقَ الحدِّ، وتفكيرُه كلُّه في الأُمورِ الخاطئة".

"سوفَ يُضطرُّ إلى الاختيار".

علِمَت أنَّه كان على حقٍّ. فقد كان أتريتِس بحاجة إلى الانفراد. كان بحاجة إلى الابتعاد

عن صخَبِ الرِّجال وعنها. فالجميعُ كانوا يضغطون عليه. وقالت بكآبة: "إنَّهم يُريدونُ استِرجاعَ قائدهم. يُريدونه كما كان، مُحارِبًا يتقدَّمُهم إلى القِتال".

"لقد وضَعَ أتريتِس نفسَه في يدَي الله لمَّا آمَنَ بالمسيح ونالَ الخلاص".

"أنتَ لا تفهَمُ قصدي. أعتقِدُ أنَّه يُريد أن يقودهم".

"إلى الله".

"كان ذلك صحيحًا أوَّلَ ما جئنا إلى هُنا. لا أدري هل هو كذلك بَعدُ".

"إنَّه يتعلَّمُ بالطريقةِ الصَّعبة أنْ ليس في وسعه أن يستخدِمَ أساليبَ الإقناعِ التي استخدمها دائمًا بعينها. القوَّةُ والكِبرياء لا يُجديانِ نفعًا. الضَّعفُ والتَّواضُع هُما السبيلُ الوحيد".

"أتريتِس لا يعرِفُ كيف يكونُ ضعيفًا ومُتواضعًا".

"إذًا أفلِتيه، رِصفة، ودَعي الله يُعلِّمه".

فأغمضَت عينَيها. "أحيانًا أرى على وجههِ سِيماءَ..." وسرَّحَت نظرَها على الثَّلجِ الناصِعِ البياض مُجدَّدًا.

خرجَ ثيوفيلُس خارجًا ليقِفَ بقُربها. كان في وسعه أن يرى الصِّراعَ جاريًا في داخلها، وأراد أن يُطوِّقَها بذِراعَيه ويُعزِّيَها. ولكنْ كان مِقدارٌ كافٍ من البَلاءِ آخِذًا في الاختِمار دونَ إضافةِ مزيدٍ من التَّوتُّرات. فأتريتِس لم يكُن في مِزاجٍ عقلانيٍّ، وهو شكٌّ في أن يكونَ قد تمادى.

تنهَّدت رِصفة: "قالَ له هُلت البارحةَ إنَّ الرَّجُلَ يشعرُ أكثرَ بكونهِ حيًّا حين يكونُ في مواجهة الموت. هل ذلك صحيح؟" ولمَّا لم يُجِب، رفعَت نظَرَها إليه، وانفرجَت شَفتاها ذُهولًا: "أنتَ تفتقِدُ القتالَ أيضًا، أليس كذلك؟"

فابتسمَ ثيوفيلُس لها ابتِسامةً ساخِرة. "أحيانًا، أقلَّ إذ أتقدَّمُ في السِّنِّ". وصارت سيماؤه أكثرَ رزانةً. "أقلَّ إذ اقتِربُ إلى الرَّبِّ أكثرَ".

"ليتَني أستطيعُ أن أفهم".

"أنتِ تفهمين، جُزئيًّا. فأنتِ لا تتنازعين مع أتريتِس كما كُنتِ تفعلين في الماضي. لقد رقَّقَكِ الربُّ".

"رقَّقَ رأسي، رُبَّما".

فضَحِكَ. "رقَّقَ قلبَكِ، يا محبوبة". ومَسَّ كتِفَها. "دعيه يُرقِّقْكِ أكثر. صلِّي لأجل

هؤلاء القوم، لا سيَّما أُولئك الذين يُحاوِلون أن يجتذبوا أتريتِس رجوعًا إلى الطُّرقِ القديمة. حتَّى أنوميا".

"إنِّي أُصلِّي، ولكنِّي لا أرى أيَّةَ استِجابةٍ تلوحُ في الأُفق".

وإذ نظَرَ ثيوفيلُس نحو الغابات إلى حيثُ كان أتريتِس قد ذهب، ساوَرَه الحُزن. "ارفعي التشكُّراتِ من أجلِ ما هو جارٍ". لقد علِمَ أنَّ ما هو أسوأُ كان آتيًا. واستطاع أن يُحِسَّ الظُّلمةَ تحشدُ قوَّتها حولَهُم. "الضِّيقُ يُنشئُ صبرًا، والصَّبرُ تزكيةً، والتَّزكيةُ رجاءً". ونظَرَ إليها. "والرَّجاءُ لا يُخزي أبدًا، يا محبوبة، لأنَّ محبَّة الله قد انسكبَت في قُلوبنا بالرُّوحِ القُدس. ولَسوفَ تكونُ تلك المحبَّة، محبَّةُ الله، هي التي تُحوِّلُ هؤلاءِ القومَ إلى المسيح".

فقالت مُبتسِمةً: "اثنان، وربَّما أكثر".

شعَرَ برِباطٍ معها باتَ أقوى على مرِّ الأشهُر القليلة الماضية. وكان قد شاهدَها تنمو في المسيح. قالت إنَّها لم تكُن قويَّةً، ولكنَّها كانت أقوى ممَّا أدركَت، وسيُعطيها الربُّ حتَّى قوَّةً أكثرَ بَعدُ، حينَ يأتي وقتُ الصُّمود. لقد ظنَّت أنْ لم يكُن لها أيُّ تأثير، وأنْ لا شيءَ كان مُتغيِّرًا، وأنَّ الله لم يكُن يعمل. فأيُّ سبَبٍ آخر كان لدى الشَّيطان لِلانقِضاضِ عليها من كلِّ جِهة؟

أجرى ثيوفيلُس يدَه برِقَّةٍ على شعرها. لقد أحبَّها، رُبَّما فوقَ الحدِّ قليلًا.

"البَسي سِلاحَكِ، يا محبوبة. المعركةُ مُقبِلة".

"ماذا ينبغي لي أن أفعل لأُساعِدَ أتريتِس".

"أعطيهِ وقتًا".

٤٥

جاء الربيعُ مُبكِّرًا، جالِبًا معه سرورًا وحماسةً نابضةً اجتاحا الشَّطِّي. كان الصَّيدُ جيِّدًا، واستمرَّ الاحتِفالُ حتَّى وقتٍ مُتأخِّر من اللَّيل. وقد تجرَّد المُحارِبون الأصغرُ سنًّا من كلِّ قطعةِ ثياب، ورقصوا فوق السُّيوفِ والفراميات فيما الرِّجال والنِّساء يتضاحكون ويهتفون بالتشجيع.

غادرَ رُلف بيتَ العُزوبة الطويل وبنى بيتًا مُستطيلًا خاصًّا به. ولمَّا اختفى بِلا خبَر، ذهبَ بعضُ المحاربين يبحثون عن جُثَّته، إلَّا أنَّهم لم يجدوا له أثَرًا.

مضى أُسبوعان، ثُمَّ ظهَرَ رُلف ومعه فتاةٌ هِرمُندوريَّة. كانت يداها مربوطتَين أمامها، وأُنشوطَةُ حَبلٍ أخرى حولَ عُنقِها. وقد أمسك رُلف الحبلَ بإحكامٍ في يده.

"أشبهَ بأيِّ شيءٍ تبدو تحتَ ذلكَ الوَسَخِ كُلِّه؟" وضحِكَ رود.

أحاطَ الرِّجال بِرُلف وأسيرته وبدأوا يُغايِظونه بمُلاحظاتهم السَّفيهة.

شامَ ريودي الفتاةَ من رأسها إلى قدمَيها، وقال مُفترًّا: "أُعطيكَ حصانًا لِقاءها. قد تكونُ وسِخةً، ولكنَّ لها شَكلًا حسَنًا".

وقفَت رِصفة خارجَ البيت المُستطيل تمامًا، مُفعَمةً بالشَّفقة على الفتاة.

وراقبَت أنوميا أيضًا، مُبتهِجةً جدًّا بإثمارِ خُطَّتها. كان رُلف قد لمَحَ الفتاةَ في أثناء المعركة مع الهِرمُندوري في الرَّبيع السابق، وشجَّعَته أنوميا على الرُّجوع والإتيان بها. وقد رجَت أن يأتي أبو الفتاة أو إخوتُها في طلَبِها. فمن شأنِ هُجومٍ أن يؤول إلَى إيقاظِ الشَّطِّي من سُباتِهم الشَّتويِّ وبثِّ الرُّوح القتاليَّة فيهم مُجدَّدًا.

نادى رجُلٌ أكبَرُ سِنًّا: "سأُعطيكَ لِقاءها حِصانَين!"

وازدادَ غضَبُ رِصفة إذ أصغت إلى الرِّجال يُهينونَ الفتاةَ المِسكينة ساخرين ويُزايِدون عليها كما على حيوان.

باتَ رُلف راعِدًا، وإن كان عادةً قادرًا على تقبُّلِ المُزاح. "إنَّها ليست للبيع!"

أطلقَت الفتاةُ صرخةَ ذُعر، واستدارت بِسُرعةٍ إذ تخطَّى واحدٌ من المُحارِبين أُصولَ اللِّياقة، فدفعَ رُلف الرَّجُلَ إلى الوراء، وسطَ قَهقهاتِ الآخرينَ العالية.

"لا تكُن أنانيًّا. شارِك فيها!"

"المسْها ثانيةً، بوري، فأقطَعَ يدَك!"

فجأرَ المُحارِبُ بضحكة. "تبدو داكِنةً مِثلَ امرأةِ أتريتِس". وأمسكَ بمُقدَّمِ تُنكِها فمزَقَه. "ولكنَّها تبدو بيضاء تحت الخِرَقِ الوسِخَة".

وهجَمَ رُلف عليه. فشهَقَت رِصفة حِيالَ ضراوة القتال، وتمنَّت لو كان أتريتِس هُناكَ ليُوقِفَ الشِّجار، ولكنَّه كانَ يصطادُ مع ثيوفيلُس. وكانت فرايجا في الغابة المُقدَّسة تجمع أعشابًا. أمَّا أنوميا، وقد كان في وسعها أن تفعل شيئًا ما لوقف المُشاجرة، فوقفت في بابها ضاحِكةً ومُستمِدَّةً متعةً جليَّة من رؤية الرَّجُلين يضربان أحدُهما الآخر.

سقَطَ بوري أرضًا وسطَ هُتافاتٍ ومزيدٍ من الضَّحِك.

كانت الفتاة الهِرمُندوريَّة تبكي على نحوٍ هِستيريٍّ وتصفع رجُلًا آخر حاوَلَ أن يُداعِبَها. فأنهى رُلف تَصدِّيَه لِبوري سريعًا وانهالَ على الرَّجُل.

أزاحت رِصفة كالِب وأوقفَته على قدمَيه. وإذ جَثَت أمامَه، تشبَّثَت بكتِفَيه. "اِبقَ هُنا تمامًا ولا تتحرَّك". فهزَّ رأسَه إيجابًا. وقالت: "صلِّ لأجلِ ماما!" ثمَّ قبَّلَته. فهزَّ رأسَه ثانية. فتركَته في باب البيت المُستطيل ومشَت بسُرعة في الشارع نحو الرِّجال المُحتشِدين الذين كانوا يُطلِقون التَّحديات بأصواتٍ عالية. وقدِ استاءت من ضِحكِهم الفَظِّ.

لمَّا وصلَت إلى مؤخَّر الحَشد، شقَّت طريقها بين الرِّجال حتَّى واجهَت رُلف. وكان وجهُ المُحارِبِ الشابِّ أحمَرَ ومُتصبِّبًا عرَقًا. فصُدِمَ إذ رآها.

قالت: "كفى هذا". وتخطَّته ففكَّت الحَبلَ الرَّابِطَ مِعصَمَي الفتاة معًا.

وبينما رُلف يتنفَّس بشِدَّة من مُقاتلة بوري ويودو، قال: "ماذا تظُنِّينَ أنَّكِ فاعلة؟"

"تمامًا ما يبدو أنِّي فاعِلَتُه". وفكَّت الحَبلَ مِن حولِ عُنق الفتاة، تاركةً إيَّاه يسقُطُ في التُّراب عندَ قدمَيها.

"إنَّها لي!"

"أنا أعلَمُ أنَّها لك، رُلف، ولكنْ هل تريدُ لها أن تُداسَ بالنِّعال؟"

نبَضَت عَضلَةٌ في وجه رُلف إذ أمسكت رِصفة بالفتاةِ الباكية من يدها ومشَت راجِعةً وسطَ حشدِ الرِّجال. ولم يقُل أيُّ واحد منهم كلمة أو يُحاوِلْ إيقافَها.

"أُريدُ إرجاعَها إليَّ!"

أخذَت رِصفة الفتاةَ الهِرمُندوريَّة إلى داخل البيت المُستطيل، ودَرَج كالِب وراءهُما. وإذ

تكلَّمَت برِقَّة إلى الفتاة، حاولت أن تُسكِّنَ مَخاوِفَها، مُتسائلةً عمَّا ستفعلُه إذا جاء رُلف عازمًا على جرِّها بعيدًا. ثمَّ أمسكَت بالفتاة ومسَّدَت ظهرَها. وقد فاحت منها بشِدَّة رائحةُ الوسَخ وعرَقِ التَّوتُّر، كما دبَّتِ الحشَراتُ الطُّفيليَّة في شعرها المجدول.

رجَعَت فرايجا، وسلَّتُها مملوءةٌ أعشابًا. "أخبرَتني أنوميا بما فعلتِ. ما كان لكِ حقٌّ بأن تتدخَّلي". ونظرَت إلى الهِرمُندوريَّة فتساءلت كم من الشَّطِّيِّين سيموتون كي يتمكَّن رُلف من الاحتفاظِ بها. يا له من مجنونٍ غِرٍّ!

لم تُحِسَّ رِصفة أيَّ توبيخ. "عِلمتُ أنَّه ما كان لي حقٌّ، ولكنْ لم يكُن في وسعي أن أقِف جانبًا وأتفرَّجَ كيف كانوا يُعذِّبونها".

كانت فرايجا قد ذُهِلت لمَّا سمِعَت. فما كانت امرأةٌ شطِّيَّةٌ واحدةٌ تعرِفُها لِتجرؤَ على التَّدخُّل كما تدخَّلَت رِصفة. حتَّى أنوميا عرَفَت أن تبقى بمنأًى عن أُمور كهذه. وقالت مارتا إنَّ الرِّجال كانوا يتصايحون ويتقاتلون لمَّا نزلَت رِصفة إلى الشَّارع ثُمَّ إلى وسطهم. "لقد فرَّقَتهم بعيدًا عن رُلف. وما مِن أحَدٍ سبقَ أن أخذَ منه أيَّ شيءٍ يومًا".

كانت أنوميا شاحِبةُ الوجه. ولم تستطع فرايجا أن تتذكَّر رؤيةَ الكاهنة الشابَّة غاضِبةً هكذا.

"الفتاةُ تخصُّ رُلف بحقِّ الاستيلاء، رِصفة. يجب أن تفهمي".

"بالاستيلاء! تقولين ذلك بكلِّ سهولة".

"ليس ذلك سهلًا. إنَّها الحياة".

"على غِرار ما كان لمَّا أُخِذَ أتريتِس وقُيِّدَ بسَلاسِل؟"

فشُحِبَ وجهُ فرايجا. "أيَّ خَيرٍ تحسبين أنَّكِ فاعلةٌ إذ تُذكِّرينَني بذلك؟"

"هذه الفتاةُ ابنةُ شخصٍ ما، تمامًا كما كان أتريتِس ابنَكِ".

"لقد بنى رُلف بيتًا لها".

"وهكذا، فكلُّ ما يُعوِزُه الآنَ هو أن يجرَّها إلى داخل البيت ويغتصِبَها، فتكونَ زوجتَه؟"

أدارت فرايجا ظهرَها لرِصفة، غيرَ مُريدةٍ أن ترى كم كانت مُتضايِقة. إنَّها لم تستحسِن ما فعلَهُ بعضُ الرِّجال، ولكنَّها فهِمَت الحقيقة. ثُمَّ أخرجَت الأعشابَ من سلَّتها، ووضعَتها على الطاولة. وكان ما يزالُ في وسعها أن تسمعَ بُكاءَ الفتاة، فاخترَقَ قلبَها. "أنتِ لا تفهمين عوائدنا".

"أفهمُ جيِّدًا إلى حدٍّ كافٍ. إنَّ عوائدكم لا تختلِفُ في شيءٍ عن عوائد روما".

استدارت فرايجا مُغتاظةً جدًّا. "على مدى آخِرِ عشرِ سنين، خسرنا كثيرين من قومنا. لمصلحة روما. لمصلحة الهِرمُندوري. وبعضُ الرِّجال يسلكون هذا السبيل للعُثورِ على زوجات. لانا تشيروتشيَّة وهَلدا من الصُّوبيي".

"أتساءلُ هل كُنتِ تشعُرين الشعورَ نفسَه لو أنَّ مارتا أُخِذَت لمَّا كانت في عُمرِ هذه الفتاة".

ثُمَّ أدارت فرايجا ظهرَها من جديد. ما كان هِرمُن لِيَسمحَ بحدوثِ ذلك. وقد ربَطَتِ الأعشابَ بحِرصٍ رُغمَ ارتِجاف يدَيها.

"أينَ يقِفُ الأمرُ، سيِّدةُ فرايجا؟"

ملأتها كلماتُ رِصفة بالانزعاج. وعلَّقَت الأعشابَ رأسًا على عَقِب لكي تَيبَس.

"ستُريدُ عائلتُها استِرجاعَها، وسيَعني ذلك موتَ المَزيد من الشَّطِّي".

نظرَت فرايجا إلى رِصفة، فأدرَكَت أنَّها كانت معنيَّةً بِما يتخطَّى كثيرًا وضْعَ الفتاة. لقد كانت رِصفة قلِقةً من أجلِ عواقبِ فِعلةِ رُلف كما كانت هي نفسُها. "ليس من شيءٍ تستطيعينَ فعْلَه. إنَّ رُلف يُريدُها، ولا نِيَّة لدَيه بإرجاعها. فإذا أفلَتَها ورجَعَت، فلا أحَدَ من بني قومها سيُريدُها بَعد. لقد دُنِّسَت".

"لم يَقسِرْها رُلف على مُعاشَرته".

"كيف تعلمين ذلك؟"

"هيلينا قالت لي".

"هيلينا؟"

"ذلكَ اسمُها".

تعجَّبَت فرايجا من كونِ رِصفة قد كسَبَت ثقةَ الفتاة بهذه السُّرعة الفائقة. "لا يهمُّ. فهي معه طَوالَ عِدَّةِ أيَّام".

هَزهزَت رِصفة الفتاةَ ذهابًا وإيابًا، مُتَمتمةً بكَلماتِ عَزاء. واغرَورقَت عيناها إذ نظرَت إلى فرايجا. "على الأقلِّ، اسمحي لي بأن أُحمِّمَها وأُعطيَها شيئًا لائقًا تلبَسُه قبل أن أُرجِعَها إلى ذلك الذِّئبِ الفَتِيِّ".

تحرَّكَت أحشاءُ فرايجا شفَقةً. لقد كانت الهِرمُنديَّة صغيرةً. "استعمِلي نبتةَ العايق. وأبقي بعضَ الفروع الغضَّة لشعرها. سيقتُلُ ذلك القملَ والصِّئبان علَيها. وما دمتِ مُمسِكةً بها، أقترِحُ أن تضعي بعضَ الفروع في شعركِ أيضًا".

وبينما اعتنَت رِصفة بالفتاة، أعدَّت فرايجا مَرهمًا من زهر العُطاس والزَّعتر. "افركي هذا على الجِلدِ المُقرَّح حول مِعصمَيها وعُنقِها. سأقولُ لِرُلف إنَّكِ ستُحضِرينها إليه قبلَ هُبوطِ اللَّيل". ومضَت إلى الباب، حيثُ توقَّفت والتفتَت إلى رِصفة. "لانا وهِلدا تقبَّلتا وضعَهُما. وهي أيضًا ستتقبَّلُ وضعَها".

علِمَت رِصفة كلَّ ما استطاعَته عن الفتاة في أثناء الوقت القليل المُتاح لها.

عادت فرايجا لاحِقًا. "قال رُلف أن يؤتى بها إلى بيته المُستطيل". فهزَّت رِصفة رأسها إيجابًا، فيما استمرَّت تُمشِّطُ شعرَ الفتاةِ الطويلَ حتَّى خَصرِها ثُمَّ تجدلُه ضفائرَ رخوةً.

دخَلَ أتريتِس ضاجًّا من الجِهة الخلفيَّة. وسفَقَ البوَّابةَ الفاصلة بينَ ملجإِ الحيوانات ومسكن العائلة. وإذ تجاهَلَ الفتاة، حدَّقَ إلى زوجته مشدوهًا: "ماذا تحسبينَ أنَّكِ فاعلة؟"

"لا أُحِبُّ مُشاهَدةَ شخصٍ مُقيَّدٍ يُعنَّف". وكانت قد أمضَت قبلَ الظُّهرِ كلَّه وجُزءًا من بَعده مُتسائلةً عن الغاية التي خدَمَتها. ما كان وضعُ الفتاةِ المسكينة لِيَتغيَّر، وربَّما زادته سوءًا بإغضابِ رُلف. فهل يعمِدُ إلى تصريفِ غضَبِهِ على الفتاة متى عادت إلى حَوزته؟

إذ رأى أتريتِس أسَى زوجته، وتذكَّرَ أسْرَه، هدأ غضَبُه. فوقفَ يُفكِّرُ بِضعَ لَحَظات، ثُمَّ سحَبَ خَنجرَه من حِزامه وقدَّمَه إلى الفتاة. "لِرُلف".

رفعَت فرايجا يدَها المُرتجِفةَ إلى صدرها، وقد وجعَتها حَنجرتُها من الدُّموع. لم تكُن قطُّ قد رأتِ ابنَها يؤدِّي فِعلَ لُطف. وكان واضحًا أنَّ رِصفة لم تفهم مغزى ما فعلَه، إلَّا أنَّ الفتاة فهِمَت. فأخذَتِ الخَنجَر وضمَّتهُ إلى صَدرها، باكيةً من جديد.

وضعَ أتريتِس يدَه على كتِفِ رِصفة وضغَطَ برِفقٍ حالَما وقفَت. "خُذيها إليه قبل هُبوبِ البَلاء".

فعلَت رِصفة كما أوصاها. ولمَّا غادرَت مع الفتاة، توجَّه أتريتِس راجعًا داخِلَ البيتِ الطَّويل. فأخذَ من المَرابِط ثورَين وفَرَسًا. وقالَ لأُمِّه: "قولي لِقارُس إنِّي سأُسَوِّي الأمرَ معه لاحقًا". ثُمَّ خرَجَ من الجِهَة الخلفيَّة.

خرَجَ أهلُ القرية من بيوتِهم ليُشاهِدوا رِصفة ماشيةً في الشارع مع الأسيرة الهرمُندوريَّة. وإذ كانت الفتاة قد غُسِلَت، وجُدِلَ شعرها. وارتدَت تُنكًا جديدًا من كَتَّان، باتَت حسَنَةَ المنظر، إلَّا أنَّ رِصفة هي التي جذبَت انتِباهَهُم.

كان رُلف ينتظِرُ خارجَ بيتِهِ الطويل، وقد بدا شَرِسًا. ولكنْ لمَّا اقتربَت رِصفة إليه، رأت أنَّه كان أكثرَ أسْرًا من الفتاة المُرتجِفَة بقُربه.

وقفَت الفتاةُ بلِزقِ رِصفة، مُطأطئةَ الرأس، فيما قالت رِصفة لِرُلف: "اسمُها هيلينا. قُتِلَ أبوها منذ إحدى عشرةَ سنةً وهو يُقاتِلُ روما في صفِّ الشَّطّي. وماتت أُمُّها بالحُمَّى في الشِّتاء الأخير". وتساءلت هل سمعَ رُلف كلِمةً ممّا قالت، إذ كانت عيناه شاخِصَتين إلى هيلينا وحدَها. فتحيَّرت رِصفة في ما يمكن أن تفعلَه بعد. من الواضح أنَّها لن تتمكَّن من إقناعِ المُحارِب الشابِّ بعدَم حِيازةِ الفتاة. ولكنْ ما كان ينبغي لها أن تقلق.

أفلتَت هيلينا يدَها وتقدَّمَت إلى الأمام باستِحياء. وخفقَت حَملقتُها إلى رُلف فتورَّد خدَّاها. ورفعَت الخَنجرَ بكِلتا راحتَيها، مُرتجِفةً.

ارتسَمَت على وجه رُلف سيماءُ تألُّم إذ نظَرَ إلى الخَنجر الذي قدَّمته هيلينا إليه. لقد بدا مَخضوضًا فجأةً، وغيرَ واثقٍ بنفسِه. وإذ حدَّقَ إلى رِصفة، لم يأتِ أيَّةَ حرَكةٍ لقُبولِ السِّلاح.

لم تفهم رِصفة شيئًا سِوى أنَّه كان خَجِلًا ومُرتبِكًا.

نادى أتريتِس: "رُلف!" إذ أقبَلَ نحوَه من الغابة وراءَ البيتِ الطَّويل. ثمَّ انزلَق عن ظَهرِ فَرَسٍ وقدَّمَ العِنانَ إلى الرَّجُلِ الأصغرِ سنًّا. "الثَّوران يَرعَيان في الغابة".

قَبِلَ رُلف الهديَّة المُقدَّمة مُرتبكًا في ما بدا، لكنْ مُنفرِجًا إلى حدٍّ بعيد. وإذِ التفتَ إلى هيلينا، التقطَ الخَنجَر وعقَدَ العِنانَ أنشوطةً فوقَ يدَيها بسُرعة.

فيما أتريتِس يُراقِبُ رُلف، تذكَّرَ نفسَه منذُ زمانٍ بعيد. أمَّا رِصفة فلم تَدرِ ما كانَ يجري ورفعَت نظَرَها إلى أتريتِس مُرتبِكةً. فغمَزَها بعينه وتبسَّم.

تقدَّمَت هيلينا إلى الفرَس وبدأت تُربِّتُ عُنقَ المَطيَّة بطريقةٍ خالية من التَّسَرُّع. فتساءلت رِصفة هل كانت الفتاة تُفكِّرُ في امتِطاء الفرَس وهُروبِها راكبةً بأسرَعِ ما يُمكِنُها. ويبدو أنَّ الفِكرةَ خطَرَت في بالِ رُلف أيضًا، لأنَّه اقترَبَ خطوةً وعيناه شاخصتان إلى الفتاة. وعلِمَت رِصفة أنَّ الفتاة ما كانت لتبتعِدَ كثيرًا لو حاولَتِ الفِرارَ.

أسندَت هيلينا رأسها إلى عُنق الفرَس. وقد كان قلبها يخبطُ خبطًا. والتفتَت إلى الوراء لتنظُرَ المرأةَ التي أخذَتها من الرِّجال، فشعرَت بالاطمئنان. ما مِن أحَدٍ اهتمَّ يومًا بما يجري لها. واختلسَت نظرةً إلى المُحارِب الشَّابِّ الذي كان قد اختطفَها. ثُمَّ تأمَّلَته عاضَّةً على شَفَتِها، فوجدته طويلَ القامة وقويَّ البنية. وقد تورَّدَ خدَّاه! واستطاعَت أن ترى حَنجرَتَه تبتلِعُ غُصَّة.

تأمَّلَته هيلينا أكثرَ، مَدهوشةً. كانت قد خافت منه كثيرًا. ولم كان ينبغي ألَّا تخاف؟ لقدِ اختَطفَها على مقربة من النَّهر، فسَدَّ فمها وربَطها، ثُمَّ حمَلَها على كتِفه وسطَ الغابات.

ومِن ثَمَّ جرَّها وراءه مَسافةَ مئةِ ميل (١٦٠كم تقريبًا)، رابطًا إيَّاها بشجرة كلَّ ليلة لَيَضمنَ عدَمَ هُروبِها. والآن، بعدَ تبادُلِ هدايا الزَّواج، بدا مُنكشِفًا ومُتقلقِلًا ومُرتبكًا على نحوٍ غريب.

إذ ذاكَ تبدَّدَ خوفُها. وقدِ ارتعشَت عضَلةٌ في حَنَكِه، إلَّا أنَّه لبِثَ صامتًا، صامتًا مِثلَما كان طوالَ وقتِ إحضارِها إلى هُنا. ولم تكُن قد علِمَت أنَّه يستطيعُ حتَّى التكلُّمَ إلى أن أخَذَ يصرُخُ على الرِّجال الذين كانوا يُخاشِنونها. فأمالت رأسها، وتفحَّصَت عينَيه. وبعدَ بِضعِ لحظات، جعلَتِ العِنانَ يسقطُ على الأرض.

ندَّت عن رِصفة تَنهُّدَةُ اندِهاشٍ إذ دخلَت الفتاةُ بيتَ رُلفَ المُستطيلَ دونَ كلِمَةِ تشجيع.

حَملَقَ رُلف وراءها. وإذ قالَ شيئًا ما همسًا، خطا خطوةً ليلحقَ بها، وتذكَّرَ أتريتِس. "أنِّي سوف..."

"أنتَ لستَ مديونًا لي بشيء. الثَّورانِ والفرَسُ هديَّة". والتوى فمُه. "عامِلِ الفتاةَ بلُطفٍ لئلَّا تسترِدَّها زوجتي منك".

التفتَ رُلف إلى رِصفة، وعَيناهُ تبرقان. وإذ دسَّ الخَنجرَ في حِزامه، دخَلَ إلى البيت الذي كان قد بناه لعروسه الأسيرة.

أمسكَ أتريتِس يدَ رِصفة وأدارَها بثباتٍ نحوَ القرية. "إنَّها زوجتُه الآن. ونظَرًا إلى الطريقة التي نظَرَ بها إليها، لا أظنُّ أنَّه ينبغي لكِ أن تقلقي خائفةً أن يُسيءَ مُعامَلَتها".

"هل يأتي الهِرمُندوريُّون؟"

فكَّرَ أتريتِس في الاحتماليَّة، وهزَّ رأسه نفيًا. "لا أظنُّ ذلك. لو همَّهُم أمرُ الفتاةِ أصلًا، لطاردوا رُلف وأردَوه قبلَ وصولِهِ إلى هُنا بوقتٍ طويل".

أقبلَت أُمُّه لمُلاقاتِهما. "هل سُوِّيَ كلُّ شيء؟"

فابتسمَ أتريتِس ابتِسامةً عريضة: "سُوِّيَ جيِّدًا".

ومَشَوا راجِعينَ إلى البيتِ المُستطيل معًا. ورأتِ فرايجا أنوميا، فخطَرَ في بالها أن تُفرِجَها بالخبَرِ السَّارّ. "سأَلحَقُ بكُما بعدَ قليل". واقتربَت مُبتسِمةً إلى الكاهِنة الشابَّة. "أعادَت رِصفة الفتاةَ إلى رُلف. لقد تزوَّجها".

"تزوَّجها؟ كيف يمكنه ذلك وليس من شيءٍ بِاسْمِه؟"

"لقد أعطاهُما أتريتِس ما يحتاجان إليه. قُضيَ الأمر".

"سوف يأتي الهِرمُندوريُّون".

"لا يعتقدُ أتريتِس ذلك. أبو هيلينا وأُمُّها كِلاهُما مَيتان".

تبدَّدَت خُطَّةُ أنوميا لإيقاظِ المُحاربين من سُباتهم الشَّتويِّ مع كلِماتِ فرايجا. ومسَّت فرايجا كتِفَها في إشارةِ طمأنةٍ. "سأقولُ للآخرينَ إنَّه ما مِن داعٍ لأنْ نقلق".

استشاطَت أنوميا غضبًا، وكظَمَت مشاعِرَها كأفضلِ ما في وسعها. كانت الخُطَّة قد تظهَّرَت في ذِهنها لمَّا جاءها المُحارِبُ الشابُّ مُتيَّمًا وطالِبًا إلقاءَ رُقيَةٍ لِجَعلِ فتاةِ أحلامهِ التي شُغِفَ بها تُبادِلُه أشواقَه. وقد سُرَّت بنفسِها كثيرًا لمَّا أضرمَت شهوةَ رُلف إضرامًا كافيًا جعَلَه يُلقي حذَرَهُ أدراجَ الرِّياح ويسعى وراء الفتاة التي أرادها. ومِن وصفِهِ، تيقَّنَت أنوميا بأنَّ الفتاة لا بُدَّ أن تكونَ ابنةَ زعيم. غير أنَّ رُلف رجَعَ بالأحرى بصَبيَّةٍ قرويَّةٍ من العامَّة، جميلةٍ لكنْ غيرِ مُهِمَّةٍ كفايةً بحيثُ تُسبِّبُ حربًا.

وتفاقَمَ غضَبُها المُرُّ لمَّا مَرَّ هُلت وبِضعَةٌ من الآخرين دونَ أن يُلقوا إليها بالًا، بل مُتحدِّثين بشأنِ الإيونيَّة. "بدأتُ أرى ما يجِدُه أتريتِس خلَّابًا في تلك الإيونيَّة". وكانَ علامةَ سوءٍ أنَّ المُتكلِّمَ كان هُلت.

لم يستأ ڤارُس من خَسارة الثَّورَين والفرَس، بل رفَضَ أيضًا عرْضَ أتريتِس إعطاءه قِطعةَ أرضٍ أخرى على سبيل التَّعويض. ومع أنَّ فرايجا لم تقُل أيَّ شيءٍ آخر عن الحادثة، فقد كان واضحًا لأنوميا ولغيرها أيضًا أنَّ الكاهنةَ العُليا باتت تنظر إلى زوجةِ ابنِها الأجنبيَّة بدفءٍ وفُضولٍ مُتزايِدَين.

راقبَت أنوميا رِصفة تؤدِّي مَهامَّها المُعتادة. بدَتِ المرأةُ غيرَ مُنتبِهةٍ إلى الأثَرِ الذي كان لِلُطفِها تُجاهَ الهِرمُندوريَّة لدى القرويِّين، غير أنَّ أنوميا عرَفَت ذلك وتلوَّت داخليًّا من الغَيرة. ومن قلبِ أنوميا نبَعَت أفكارٌ شِرِّيرَةٌ، جرَى منها نهرٌ جارِفٌ في عُروقها معَ دمِها. لقدِ اشتَهَت أتريتِس، راغِبةً فيه بحِدَّةٍ هزَّتها بالحسَد والشَّهوانيَّة المُضطرِمَين. وقدِ استخفَّت برِصفة، مُستسيغةً أفكارًا تتوخَّى الإضرارَ بها، مُستنبِطةً مَكايِدَ لإهلاكها. أمَّا الآن فما كان في وسعها أن تفعَلَ أيَّ شيء.

ولكنْ لا بُدَّ أن يأتيَ وقتُ مؤاتٍ.

٤٦

مرَّت عِدَّةُ أيَّامٍ في أثنائها شعرَت رِصفة بالتغيُّرِ الطَّفيفِ في موقف أهلِ القرية منها. فقد حيَّاها بعضُهم، وإن كانوا لم يتمهَّلوا لِمُحادثتها. حتَّى إنَّها وجدَت ڤارُس يتأمَّلُها في أوقاتٍ قليلة من المساء.

خرَجَ الرِّجال يصطادون، وانهمكت رِصفة في مهمَّةِ تنظيفِ بضعةِ مَرابِطَ وإخراجِ الزِّبل إلى الحديقةِ وراءَ البيت الطويل. ولحِقَ بها كالِب، لاعِبًا على رُقعةِ عُشبٍ في أثناء جَرفِها السَّمادَ إلى التُّربة حولَ نبات الفاصوليا. وتَلَت مزمورَ تَسبيحٍ وتَعبُّدٍ كان ثيوفيلُس قد ساعدَها على حفظه. وقد غمَرَها فرَحُ الرَّبِّ إذ كرَّرتِ الكلماتِ مرَّةً بعد مرَّةٍ، وغِنى الوُعودِ يدفَعُ قلبَها إلى التَّرنُّم.

"سيِّدةُ رِصفة؟"

التفتَت رِصفة مُجفِّلةً، وردَّت بِضعَ خُصَلٍ من الشَّعرِ الأسود عن جبينها. فإذا هِلدا واقفةٌ على بُعدِ بِضعِ أقدام عند طرَفِ الحديقة. ولم تكُن أيُّةُ واحدة من النِّساء قد قصدَت إلى رِصفة يومًا من قبل. فابتسمَت رِصفة وحيَّتها تحيَّةً بسيطة.

اقتربَت إليها هِلدا باستِحياء. وقالت: "صنعتُ هذا لكِ". ثمَّ مدَّت كِلتا يدَيها وعليهما ثَوبٌ مَطويٌّ.

وضعَت رِصفة المِجرَفة جانبًا ونفَضَت يدَيها قبلَ قُبولِ الهديَّة. وقالتَ مُرتبِكةً: "شُكرًا لكِ".

فقالت هِلدا: "إنَّهُ ثوبٌ يحلُّ محلَّ ذاكَ الذي أعطيتِهِ للفتاةِ الهرمُندوريَّة. لو أنَّ أحدًا ما عاملَني بِمثلِ هذا اللُّطف، لجَعَلَ ذلك الأُمورَ أسهلَ عليَّ". وبعدما انحنَتِ انحناءةَ احترام، انصرَفَت بسُرعة. فنشَرَت رِصفة الطَّيَّاتِ بحِرصٍ وأطلقَت شهقةَ تعجُّبٍ رقيقةً. لقد كان الرِّداءُ الكتَّانيُّ الخارجيُّ المَحبوكُ باليَد مُزيَّنًا بِنَقشٍ أُرجوانيٍّ جميل.

حطَّتِ الثَّوبَ جانبًا بِحَذَر، وأنهتِ العمَلَ في الحديقة ثُمَّ ردَّت المِجرَفة إلى مكانها. ونقلَت ماءً فسخَّنته للاستحمام. وإذ أخرجَت بعض اللُّعَبِ الخشبيَّة التي كان أتريتِس قد نحَتَها لكالِب ووضعَتها أمامه، تركَته ليلعب فيما دخلت أحَدَ المَرابِطِ النَّظيفة لتغتسِل. ولمَّا انتهَت، ارتدَت التُّنكَ التَّحتانيَّ الطويل. وإذ تركَت تُنكَها الخارجيَّ البالِيَ مُعلَّقًا على الجِدار، لبِسَت ذاكَ الذي صنعَته هِلدا لها. وبعدَما ربطت زنَّارَها، التقطَت تُنكَ العمَلِ الوسِخَ لِتَغسِلَه.

رجَعَ قارُس قبلَ أتريتِس أو فرايجا. فأدخَلَ الأحصِنة إلى مَرابِطها، ثُمَّ ساقَ المواشيَ إلى الفِناء الخلفيّ. ولَبِثَ واحدٌ من عبيده التَّنكتيريِّين ليملأ المَذاوِدَ بالعَلَف، فيما عرَجَ هو في الرِّواق وفتحَ البوَّابة المؤدِّية إلى موضع السَّكَن.

رحَّبَت رِصفة به بحرارة. وما كانَ هدوؤها قطُّ لِيُخفِقَ في إثارةِ استيائه. وقدِ استمرَّت في تحريكِ العصيدة الكثيفة المكوَّنة من الفاصوليا والذُّرة والعَدَس وقطع لَحم الغِزلانِ المُملَّح. وقد جعلَت رائحةُ الطَّعام السَّخيَّة فمَهُ يتحلَّب، واستِياءه يزداد حِدَّةً بَعد. وإذِ اجتازَ الغُرفة، قعَدَ على كُرسيِّه، كاظِمًا أنَّةً وهو يمدُّ ساقَهُ السَّقيمة. وقدِ افترضَ أن أتريتِس كان قد انطلَق إلى الصَّيد من جديد. ففرَكَ رِجلَه وأجفَلَ إذِ اخترَقَ الألَمُ فخذَه وبلَغَ وَرِكَه. لقد كان الصَّيدُ واحدةً من المسرَّات التي لم يعُد في وسعه أن يتمتَّع بها.

سكبَت رِصفة مِيدًا وأحضرَته إليه، عالِمةً أنَّ الشَّرابَ القويَّ سيُسكِّنُ ألَمَه. وقد خفَقَت عَينا قارُس إلى وجهِها، ثُمَّ نزولًا عليها، إذ أخذ القرنَ وتجرَّعَ ما فيه. أمَّا هي فرجَعَت إلى مَوقِدَ الطَّبخ.

بينَما قارُس يمسَحُ الزَّبَدَ عن فمه بِقَفا يدِه، تأمَّلَها عابِسًا. "من أينَ حصلتِ على هذا الرِّداء؟"

فوجئتْ بمُخاطبته لها، ولكنْ قبلَما تمكَّنَت من الإجابة فتحَت فرايجا البابَ الأماميَّ ودخلَت.

ودخلَت أنوميا وراءها تمامًا، قائلةً: "قالت إنَّها ما زالت ترى تلك الأحلامَ على مدى يومَين".

حيَّت فرايجا قارُس ورِصفة بابتسامة سريعة، وقالت لأنوميا: "هل أعطيتِها حِجابَ كَهرمانٍ لِتَلبسه؟" ونسيَ كالِب لُعَبَه فأقبلَ إليها، وكانَ قد تخلَّى عن خجَلِه مِن زمانٍ بعيد في ما يتعلَّقُ بجدَّته.

قالت أنوميا كاذبةً: "أعطيتُ ريكا آخِرَ قطعةِ كَهرمان لدَيَّ". إذ لم تُرِد أن تعرِفَ فرايجا أنَّها قايَضَتها باللُّفَّاحِ وستِّ الحُسن. وانحنَت فرايجا فشالَت حفيدَها وقبَّلَته.

وإذِ انزعجَت أنوميا منِ استِلابِ طفلٍ انتِباهَ فرايجا، رمَت رِصفة بنِظرةِ شؤم. ثُمَّ جمَدَت، والغضَبُ فيها كنَبعِ مياهٍ حارَّةٍ ساخن. "من أينَ حصلتِ على هذا التنك؟"

قلَّبَت رِصفة نظَرَها بينَ قارُس وأنوميا. لم يكُن أيٌّ مِنهُما قطُّ قد تكلَّمَ إليها قبلًا، وحقيقةُ أنَّهُما تكلَّما إليها الآن عَنَت وجودَ خَطبٍ ما.

ولمَّا التفتَت فرايجا ونظرَت إليها، اتَّسعَت عيناها إذ شامَتاها.

استقامت رِصفة لامِسةً حاشيةَ قَبَّةِ الرِّداءِ الخارجيّ. واحتِراسًا من كشفِ هُوِيَّة هِلدا، قالت: "أعطَتني إيَّاه إحدى النِّساء".

تقدَّمت أنوميا إلى الأمام، وقدِ انطوَت أصابِعُها قبضتَين إلى جنبَيها. "أيَّةُ امرأةٍ تجرؤ على إعطائكِ أنتِ ثوبًا كهذا؟"

أسبلَت رِصفة يدَيها إلى جنبَيها. "كانَ هديَّةً".

وقدَحَت عَينا أنوميا شرَرًا. "مِمَّن؟"

لم تنبِسْ رِصفة بكلمة. وحطَّت فرايجا كالِب على الأرض ثمَّ استقامت. وتقدَّمَت أنوميا خطوةً إلى الأمام. "جاوِبيني!"

"ماذا تقصدين أن تفعلي؟"

"ليسَ ذلك من شأنكِ أبدًا! الآنَ قولي لي!"

بسَطَت فرايجا يدَها طلَبًا للسُّكوت. "أشكُّ في أنَّ أيَّةَ إساءةٍ قُصِدَت بالهديَّة".

فقالَت أنوميا: "طِيوازُ سيَستاء". وقد حاولت أن تستعيدَ السَّيطرة. فإنَّ الدَّمَ الحارَّ ضُخَّ في عُروقها حتَّى باتَ كلُّ ما في وسعها أن تكظُمَ الغيظَ الذي غمَرَها. ما كان للأجنبيَّةِ أيُّ حقٍّ في رداءٍ كهذا! وإذا كان ثمَّة شخصٌ يحقُّ له ذلك، فإنَّه كان هيَ، لا هذه المُتطفِّلة!

حدَّق ڤارُس إلى أنوميا، وقد لاحَت له أوَّلَ مرَّةٍ الطبيعةُ الضاريةُ المخبوءة تحت الوجه والجسد الجميلَين على نحوٍ مُغرٍ. فغمَرَه الاشمئزازُ والخوف.

قالت أنوميا بصَوتٍ مُنخفِض ومُرتعِش: "قولي لي مَن كانت تلك المرأة!"

بَقِيَت رِصفة هادئةً، قلِقةً لكنْ غيرَ خائفةٍ. "امرأةً كانت تُبدي نحوي لُطفًا".

"لُطفًا؟ إنَّهُ تجديف!"

فوجئت رِصفة بالتُّهمة ولم تفهمها، فوضعَت يدًا على قلبها. ونظرَت من عَلُ بارتباكٍ إلى الرِّداء الذي كانت ترتديه. "ماذا تعنين؟" ورنَت إلى فرايجا طلبًا لتفسير.

زعقَت أنوميا مُكشِّرةً: "اخلعيه!"

نظرَت إليها رِصفة، مُشمئزَّةً من غطرستها. وكانَ الكبرياءَ والغيرةَ هو ما تأجَّجَ في عينَيها الزَّرقاوَين، غيرةً ولوديَّةً بسيطة.

قالت فرايجا بهدوء، مُتضايقةً جدًّا: "افعلي كما تقول. رجاءً!"

فخلعَت رِصفة الرِّداءَ الخارجيَّ مُرتاعةً. وإذ طوَته بحِرص، قدَّمَته إلى فرايجا. وقبلَما تمكَّنت فرايجا من أخذه، انتزعَته أنوميا وألقَته في النَّار.

شهقَت رِصفة. "كيفَ أمكنَكِ أن تُحرِقي شيئًا جميلًا جدًّا؟"

"لا حقَّ لكِ فيه!"

"أولَم يكُن للأُمِّ فرايجا حقٌّ؟ أنا على يقينٍ بأنَّ المرأة التي أعطَتني إيَّاه كانت ستُسَرُّ بأن تحوزَه فرايجا بدلًا من إتلافهِ برُعونة في نوبةِ غضَبٍ طفوليّ".

صُعِقَت فرايجا إذ عمَدَت رِصفة إلى التكلُّم هكذا بكُلِّ جُرأة، وإلى أنوميا دونَ سائرِ الناس.

أطلقَت رِصفة تَنهُّدةً، وراقبَتِ الرِّداءَ يحترِق. وامتلأ الهواءُ برائحةِ الكتَّانِ المُحترِقِ الكريهة.

ثمَّ نظرَت إلى أنوميا ثانيةً وهزَّت رأسها. كم ساعةً أنفقَت هِلدا في صُنعِ ذلك الثَّوبِ الجميل؟

قالت أنوميا بصوتٍ مُنخفِض: "والآنَ، قولي لي مَن أعطَتكِ ذلك التنكَ؟"

تذكَّرت رِصفة كيف جاءت هِلدا إليها خُلسةً، مُقدِّمةً الهديَّةَ في الخَفاء. ورأتِ الآنَ في وجهِ الكاهنة الشابَّة أنَّ هِلدا خاطرَت كثيرًا بإعطائها هديَّةً كهذه. فقالت: "أعطتني إيَّاه صديقةٌ!" مُتمنيَّةً لو تُدرِكُ كاملَ المغزى. واستأنفَت تحريك اليَخنة، غيرَ مُريدةٍ لها أن تتلفَ أيضًا من جرَّاء قِلَّةِ انتباهها.

قالت أنوميا بسُخريةٍ حاقِدة: "صديقة؟ ليسَ لكِ أيَّةُ صديقاتٍ بين الشَّطَّيَّاتِ الوفيَّات". وبذلك وضعَت نفسها دونَ تَعمُّدٍ في مُواجهةِ فرايجا التي علِمَت أنَّ ابنتها مارتا تنظُرُ إلى رِصفة بأرفعِ تقديرٍ، ولِسببٍ وجيه. "أعطيني اسمَ المُجدِّفة!"

غمَرَ رِصفة هدوءٌ يتعذَّرُ تفسيرُه إذ نظَرَت داخِلَ عينَي أنوميا الزَّرقاوَين الخبيثتَين. "لا!"

لم يكُن فرايجا وفارُس أقلَّ انشِداهًا من أنوميا.

وقالت أنوميا بصوتٍ راعِش: "لا؟"

"تكهَّني أنتِ بالمعلومات إذا كنتِ تظُنِّين أنَّكِ تمتلكين قُدرةً فائقة".

تقدَّمَت أنوميا مُستشيطةً نحوَها خطوةً، رافِعةً يدَها. فأمسكت فرايجا بمِعصَمِها قبلَما تمكَّنَت من الضَّرب، وقالت بحزم: "سأتولَّى أنا هذا الأمر".

انتخَعَت أنوميا مُحرَّرةً يدَها، وهي ترتجِفُ غيظًا لأنَّ أجنبيَّةً تحدَّتها ثُمَّ أحبَطَتها نسيبةً. وزمجَرَت على رِصفة: "علَيكِ لَعنةٌ، وليكُن إلهُكِ ملعونًا!" وقد زادَها غضبًا بعدُ أنَّ رِصفة

نظرَت إليها برباطةِ جأش. وإذ رمَقَت فرايجا بنظرةٍ تنضَحُ حِقدًا، غادرَتِ البيت المُستطيل.

تشبَّثت فرايجا بحِجابِ الكهرَمان على نَحرِها، ومعدتُها مُتشنِّجةٌ خوفًا. ولم يكُن ڤارُس أقلَّ تأثُّرًا. لقد أشعَّت قُدرةُ طِيواز من أنوميا. فكانَ كأنَّ الكاهنةَ الشابَّةَ كانت تجسيدًا لذلك الإله.

زفَرَت رِصفة نفَسَها برِقَّة: "أنا آسِفة، أُمُّ فرايجا. كيف أثَرتُ الاستِياءَ هذه المرَّة؟"

نظرَت إليها فرايجا جافًّا حَلقُها، مذهولةً من كونها رابِطةَ الجأشِ تمامًا. ألَم تدرِ ما قد واجهَته توًّا؟ "كائنةً مَن كانَتِ التي أعطتكِ ذلكَ الرِّداءَ، فقد حبَكَت فيه رُموزَ شجَرَتِنا المُقدَّسة. إنَّ أوراقَ السِّنديانِ وبَلُّوطَه رموزٌ مُقدَّسة للحياة الطويلة والخصب".

وضحِكَ ڤارِس ضِحكةً قابِضةً للصَّدر. "يبدو أنَّ واحدةً على الأقلِّ من نساء قبيلتنا تتمنَّى لكِ الخير".

فقالت فرايجا: "ڤارُس، رجاءً!" وقد رمته بنظرةٍ مُهدِّئة.

فهِمَت رِصفة بوضوح تامٍّ كيف كان من شأنِ ارتدائها التُّنكَ أن يُثيرَ الاستياء. فقالت: "أنا آسِفة!" قلِقةً بشأنِ العواقب التي يجرُّها الأمرُ على هِلدا أكثرَ من قلقها بشأنِ تلك التي يجرُّها عليها شخصيًّا. ماذا سيحدث لِهِلدا إذا عرَفَت أنوميا؟ "أنا على يقينٍ بأنَّ المرأة لم تقصدْ قطُّ الإساءةَ إليكِ أو إلى أنوميا، أُمُّ فرايجا. فكما قال ڤارُس، كانت تتمنَّى لي الخيرَ فحسْب".

فقالت فرايجا مُتضايقةً: "لا! لقد كانت فاعلةً أكثرَ من ذلك". لقد كانت على يقين بأنَّ دلالاتِ الهديَّةِ اللطيفةَ دفعَت أنوميا إلى فقدان السَّيطرة كلِّيًّا إلى التَّمام. "إنَّ غُندرِد يلبسُ الرُّموز، كما تلبسُها أنوميا وألبسُها أنا".

فتضايقَت رِصفة، وقالت مَرعوبةً: "ولكنَّ الجميعَ يعلمونَ ما أُومِنُ به، أليس كذلك؟ إنَّ يسوع هو مُخلِّصي وسيِّدي، أُمُّ فرايجا، لا طِيواز. فلماذا يعمِدُ أيُّ شخصٍ إلى إعطائي رداءً مُعَدًّا لكاهِنة؟"

وقالَ ڤارُس مُقترِحًا: "لكي يُثيرَ البلاء".

فقالت فرايجا: "لا أظنُّ ذلك. إنَّ المرأة التي أعطَتكِ الهديَّة تُكرِّمُكِ حاسبةً إيَّاكِ قائدةً روحيَّة". وقد علِمَت فرايجا أنَّ أنوميا تُشارِكُها في المُدرَكاتِ عينِها.

التَّضحية

"الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم:
إن لم تقع حبَّة الحِنطة في الأرض وتُمت، فهي تبقى وحدها.
ولكنْ إن ماتت، تأتي بثَمرٍ كثير..."

٤٧

قالت أنوميا: "إنَّ داءَ الخِداع مُتفَشٍّ وسطَ شعبنا". وقد أجالَت نظَرَها على حلقة الرِّجال الجالسين تحتَ ضوءِ المِصباح في بيتها أمامَ مذبحِها. "لقد تكلَّمَ طِيواز. لقد حانت ساعةُ التَّصرُّف".

كانت قدِ اختارت كلَّ رجُلٍ بحِرص، مُغَذِّيةً عِداءَهُم وخيباتِهم، مُثيرةً أهواءَهُم حتَّى باتوا مُستعبَدين. وقد علِمَت أنَّ بعضَهم جاءُوا فقط بسَبَبِ الولاء، لا الاقتناع. "لقد أوقدتُم البَخورَ وقدَّمتُم قَرابينَكُم. لقد شربتُم دَمَ الذَّبيحة وأكلتُم لحمها. وقد أعلَنَ لنا طِيواز ما يجب أن نفعله. فالآنَ سنتبيَّنُ مَن بينَنا سيكونُ له شرَفُ تنفيذِ مشيئةِ طِيواز".

أخرجَت قِطعةَ الكَتَّانِ البيضاءَ من أحَدِ جوانب المذبح المنحوت، ونشَرَتِ الطَّيَّاتِ برَزانة. وإذ تفوَّهَت برُقيَةٍ دَنِسة، وضعَت قِطعةَ القُماش على الأرض في مركَزِ الحلقة. وبطَقسيَّةٍ بالغة، تيَّقنت أنَّ جميعَ التجاعيدِ أُزيلَت وأنَّ القِطعةَ بُسِطت مُسَطَّحةً ومُملَّسةً على أرضيَّتِها التُّرابيَّة.

وإذ دارت من جديد، أخرجَت طاسةً فضِّيَّةً من جانب المذبح الأيسر. وكان كلُّ رجُلٍ قد وضعَ فيها قِطعةَ خشَب منقوشًا عليها رمزٌ رُونيٌّ عدَّهُ مُقدَّسًا على الصعيد الشَّخصيِّ. فهزَّت الطَّاسة برِفق، مُتمتِمةً برُقيَةٍ أُخرى في أثناء قِيامها بذلك. مرَّةً، اثنتين، ثلاثًا، ثُمَّ من جديد، حتَّى هزَّتِ الطَّاسةَ سبع مرَّات. ثُمَّ طرحَت رُقاقات الخشَب على القُماشةِ البيضاء.

ارتدَّت أربَعُ رُقاقاتٍ إلى التُّراب، فالتقطَها أصحابها سريعًا ووضعوها في أسلاكِها من جديد وعلَّقوها حولَ رِقابِهم. وقد سقطَت ثلاثٌ أُخرى مقلوبةً بحيثُ لا تُرى الرُّموزُ الرُّونيَّة. فقلَبَت أنوميا تلك الرُّقاقات وردَّتها واحِدةً واحدة.

التقطَت أنوميا الرُّقاقاتِ الخمسَ الباقيةَ وأعادتها إلى داخلِ الطَّاسة، ثُمَّ أجرَتِ الطَّقْسَ مرَّةً أُخرى. ولمَّا طرحَتِ الرُّقاقات على القُماشةِ البيضاء، استقرَّت أربَعٌ منها وأوجُهُها إلى فوق، وواحدةٌ مقلوبةً. فأخَذَ الأربعَ أصحابُها بهدوء.

نظرَت أنوميا بعينَين مُتوهِّجتَين إلى الشَّابِّ الذي وقعَت عليه المهمَّة. وشالَت قِطعةَ الخشَب وناولَته إيَّاها على راحةِ يدِها. "غدًا. عندَ شُروقِ الشَّمس". وإذ رأت عينَيه تَترجرجان مرَّةً، أدركَت شكَّه. فضاقت عيناها برودًا. وتعَمَّدت إثارةَ فشَلِه الماضي ونَبْشَ كِبريائه، فقالت: "قد أعطاكَ طِيوازُ فُرصةً أُخرى لِتَفتديَ نفسَك. كُن شاكرًا!"

تناوَلَ رُلف الرُّقاقة وأطبقَ عليها قَبضتَه، وقد أحسَّ غَثَيانًا في قعرِ معدته. "لأجلِ شعبِنا".

فقالت: ''لأجلِ طِيواز!'' وأعطَته الخَنجرَ الطَّقسيَّ.

خرَجَ ثيوفيلُس من بيته المُستطيل، وملأ رئتَيه بهواء الصباح العابق برائحة الصَّنوبر. كان الظَّلام قد تبدَّدَ قليلًا لدى اقترابِ الفجر، ولكنَّ النُّجومَ ما زالت تُشِعُّ في السماوات. فرفعَ ثيوفيلُس يدَيه، وراحتاهُما إلى فوق، وسبَّحَ الله.

''بارِكي يا نفسي الربَّ، وكلُّ ما في باطِني ليُبارِكِ اسمَه القُدُّوس. بارِكي يا نفسي الربَّ، ولا تنسَي كلَّ حسَناته: الذي يغفِرُ جميعَ ذنوبكِ، الذي يشفي كلَّ أمراضِكَ، الذي يفدي من الحُفرة حياتَكِ، الذي يُكلِّلُكِ بالرَّحمة والرأفة، الذي يُشبعُ بالخيرِ عُمرَكِ، فيتجدَّدُ كالنَّسرِ شبابُكِ!''

أحسَّ قلبُه كأنَّه سينفجِرُ فرَحًا في اليوم الجديد. كانَ الظَّلامُ آخِذًا في الزَّوال. وكانَ ذانِكَ اللذانِ دأبا في المجيء إلَيه مُتخفِّيَين قد دخَلا النُّور، فكشَفا نفسيهما أخيرًا وكلَّماهُ وجهًا لوجه.

''كَبُعدِ المشرِقِ من المَغربِ، أبعَدَ عنَّا معاصيَنا''.

خرَجَ رُلف من الغابات، فراقَبَ وأصغى، وقلبُه يطرُقُ بشِدَّة. كان الرُّومانيُّ واقفًا في وسط الوادي الصغير، رافعًا ذِراعَيه وهو يتكلَّمُ إلى السَّماوات. فسحَبَ رُلف نفَسًا عميقًا ليُهدِّئ تَوتُّرَه، ومشى نحوَه في الغابة.

''الربُّ في السَّماء ثبَّتَ عَرشَه''.

واصَلَ رُلف تقدُّمَه، مُتشنِّجَ المَعِدة، مُثبِّتًا فِكرَه على المهمَّة التي أُرسِلَ للقِيامِ بها.

''بارِكي يا نفسي الرَّبَّ!''

أحسَّ رُلف العَرَق مُتصبِّبًا على قَفا عُنقِه. سبعَ مرَّات، قالت أنوميا. سبعَ مرَّات.

التفتَ ثيوفيلُس إذ أحسَّ أنَّه لم يكُن وحدَه. وتجهَّمَ قليلًا، مُتسائلًا عمَّا جاء بِالمُحارِبِ الشابِّ. ثمَّ رآه يسحبُ خنجره من حِزامه، فعرَفَ.

الآنَ، يا ربُّ؟ أيُّها الرَّبُّ الإله، الآن؟

اقتربَ البطَلُ الشَّطِّيُّ، فدارَ ثيوفيلُس تمامًا، مُواجِهًا إيَّاه كما سبَقَ أن فعَلَ في البُستانِ المُقدَّس. ولم يقُم بأيَّةِ حركةٍ لِحمايةِ نفسه أو للفِرار، فغمَرَ الضِّيقُ والشَّكُّ وجهَ الشَّابِّ.

"في وسعك أن تختارَ سبيلًا آخر، رُلف".

فقالَ ببرودة: "ليسَ من سبيلٍ آخر". وقدِ انسَدَّت حَنجرتُه إذ نظَرَ في عينَي الرُّومانيِّ، ولم يرَ أيَّ خوف، بل حُزنًا وشفَقةً عميقينِ فحسْب.

"أنوميا تخدعُك".

أحسَّ رُلف أنَّه يضعُف، ولكنَّه علِمَ أنَّ أنوميا كانت على حقٍّ بشأنِ الرَّجُل. لقد كان خَطِرًا. فقال: "لقد خذَلتُ قَومي مرَّةً من قبل". وضرَبَ ضربتَه الأُولى، مُقحِمًا الخَنجرَ حتَّى المِقبَض. "لا يمكنني أن أخذُلَهُم ثانيةً". وإذ هوى الرُّومانيُّ إلى الوراء مُتعثِّرًا، تشبَّثَ رُلف بالتُّنكِ المُضرَّج بالدَّم وأمسك به. وإذ حرَّرَ الخَنجرَ نترًا، رفعَه ثانيةً. وقال بصَوتٍ خشِنٍ صارَّ عبْرَ دُموعه: "لا يمكنني أن أخذُلَهُم".

بسَطَ ثيوفيلُس ذراعَيه مشبوحتَين: "أنا أُسامِحُك، رُلف".

انقلَبَ قَلبُ رُلف حِيالَ نظرةِ الحَنان في عينَي الرُّومانيِّ. وإذ أطلقَ صرخةً خشِنة، طعَنَه بالخَنجر من جديد. سبعَ مرَّات، قالت أنوميا. سبعَ مرَّاتٍ كان عليه أن يطعنَ الرُّومانيَّ بالخنجر الطَّقسيِّ. غير أنَّ ذِهنَه تمرَّد. لماذا تلك الطَّعناتُ كلُّها في حين أنَّ الأولى لا بُدَّ أن تكون مُميتة؟ أكانَ عليه أن يطعنه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ من أجلِ القساوة؟ أم ليُبَرهِنَ على ولائه؟

لمَّا سحَبَ الخَنجَر ثانيَ مرَّة، تدفَّقَ الدَّمُ من الجُرحِ في صدرِ الرُّومانيِّ. فألقى رُلف الخَنجَر جانبًا، وهو مُشمئزٌّ، وسنَدَ الرَّجل وهَوَى معه على الأرض المُبلَّلة بِنَدى الصَّباح. لقد تذكَّر تلك الليلةَ في البُستان المقدَّس لمَّا كان في وسع الرُّومانيِّ أن يُجهِزَ عليه ولم يفعل ذلك.

تشبَّثَت يداه قبضتَين بالتُّنكِ المُضرَّج. "لماذا لم تُدافع عن نفسك؟ لماذا؟"

فقال ثيوفيلُس بصَوتٍ مُتهدِّج: "تحوَّلْ مُبتعِدًا عن أنوميا، قبلَ فواتِ الأوان".

أرخاهُ رُلف إلى الوراء وبكى. "لماذا لم تُقاتِلْ رادًّا؟ لماذا لم تفعل ذلك؟"

رأى ثيوفيلُس كَرْبَه، فتشبَّثَ بذراعه، وقالَ بصَوتٍ خَشِنٍ مُتقطِّع: "تحوَّلْ...تحوَّلْ إلى يسوع".

هبَّ رُلف واقفًا. ونظَرَ إلى يدَيه المُضرَّجتَين بدَمِ الرُّومانيِّ. ثمَّ دارَ وهرَب.

وصلَت رِصفة إلى نهاية المَمرِّ فيما ركَضَ رُلف إلى قلبِ الغابة عندَ الطَّرَفِ البعيد من الوادي الصغير. فتجهَّمَت لمَّا رأته ودخلَتِ الواديَ، ناظِرةً نحوَ البيتِ المُستطيل. يقينًا أنَّ رُلف لم

يكُن واحِدًا من الذين قال ثيوفيلُس إنَّهم جاءُوا إليه ليَستعلِموا عنِ الرَّبِّ؟

كانت قدِ استيقظَتِ البارحة، شاعرةً بالضِّيق ومُفعَمةً بالاضطِراب. وكان مَشهَدُ ما جرى لها مع أنوميا ما يزالُ نابضًا في ذهنها، فصلَّت لأجلِ هِلدا والآخرينَ غيرِ المعروفينَ الذين وافَوا ثيوفيلُس ليلًا. حتَّى إذا نامت أخيرًا، تلوَّت وتقلَّبَت، وقد أقضَّت أحلامٌ غريبةٌ مضجعَها. ثمَّ استيقظَت فجأة في ظلام اللَّيل، خائفةً على ثيوفيلُس دونَ سبَبٍ جليٍّ. فأيقظَت أتريتِس مُتضايِقةً وقالت إنَّها ذاهبةٌ لرؤية ثيوفيلُس.

"سيبزغُ الفجرُ عاجلًا. انتظري حتَّى ذلكَ الوقت".

"عليَّ أن أذهبَ الآن".

"لماذا؟"

"لستُ أدري، ولكنْ يجبُ أن أذهب. رجاءً، تعالَ بأسرعِ ما يمكنك".

فجلَس مُمشِّطًا شعرَه بأصابعِه، وقال: "ماذا عن كالِب؟" وكان رأسُه يخبطُ من المِيد الذي شرِبَه مساءَ البارِحة مع هُلت ورود والآخرين.

"اترُكْه مع أُمِّك".

وها هي الآنَ واقِفةٌ في هواء الصباح البارد، والفضاءُ يُطلقُ بتباشيرِ الشُّروق، تبحثُ في الوادي الصَّغير عن أثَرٍ لثيوفيلُس. فإنَّه لم يكُن في البيت المُستطيل ولم يُجِب عن ندائها. وما لبِثَت أن وجدَته في طرَفِ حديقتِهِ الأبعَد، مطروحًا على العُشبِ المُبلَّلِ بالنَّدى.

"لا!"

حَشرَجَ ثيوفيلُس مُتألِّمًا، شاعرًا بأنَّ القوَّةَ تنمَلِصُ منه مع كلِّ نبضةِ قلب. "ربَّاه..." ورأى رِصفة فوقَه، والشَّمسُ وراءَها، ثُمَّ غدَت على رُكبتَيها بجانبه، جاذِبةً إيَّاه بينَ ذِراعَيها.

قالت باكيةً: "اللهُمَّ، لا. آهِ ثيو!"

فقال: "الكلُّ خير، يا محبوبة. الكلُّ خير".

فنادَت زاعقةً: "أتريتِس!" فيما الدُّموعُ تجري غزيرةً على خدَّيها الشاحِبَين. "يا الله، رجاءً!" وضغَطَت بيَدِها على واحدٍ من الجُروح، إلَّا أنَّها رأت أنَّ ذلك عديمُ الجَدوى. "أتريتِس! أتريتِس!"

استطاعَ ثيوفيلُس أن يقول: "أبقي...كالِب بعيدًا". وقد لقِيَ صعوبةً في التنفُّس.

"هو في البيتِ الطويل. لم أصطحِبْه هذا الصَّباح. لقد حذَّرني شيءٌ ما منِ اصطِحابه. عِلمتُ أنَّ عليَّ أن آتيَ. يا الله، لماذا لم آتِ عاجلًا جدًّا؟ لماذا فعل رُلف هذا بك؟"

وبعدَ جَهدٍ، قالَ ساعلًا: "أُرسِلَ، لم يُرِد أن يفعل هذا".

"ولكنَّه فعلَه. إنَّه فعلَه".

"سامحيه، يا محبوبة".

قالت باكيةً: "كيفَ أستطيعُ ذلك وقد أخَذَك منَّا؟"

فأمسكَ ثيوفيلُس بيَدِها المُرتجِفة، وقال: "يسوعُ سامَحَ. قولي ذلك لأتريتِس. تذكَّري الرَّبَّ". وسعَل. ولَئن جعَلَ كلُّ نفَسٍ أخَذَه الجُرحَ في صدره يُبَقبِقُ مُحمَرًّا، فقد تشبَّثَ بِمعصَمها بقُوَّةٍ مُدهِشة. "لا تقولي لأتريتِس إنَّ الفاعِلَ هو رُلف. إنَّه ضعيف. سيطلبُ الانتِقام". وقد أخَذَ ثِقَلُ دمهِ يملأُ رئتَيه. "اثبُتي!"

"لا تُحاوِلْ أن تتكلَّم". ورأت زوجَها راكضًا نحوَها، فقالت باكيةً: "عجِّل!" وضمَّت ثيوفيلُس أشدَّ، إذ أحسَّته مُنزلِقًا بعيدًا. "يا يسوع، رجاءً، لا تأخُذْه منَّا. لا تأخذْه. تماسَكْ، ثيوفيلُس. أتريتِس آتٍ".

وما لبِثَ أتريتِس أن وصل، فجثا على رُكبةٍ واحدة مُحدِّقًا إلى صديقه، مشحوبَ الوجه. "مَن فعَلَ ذلك؟"

تشبَّثَ ثيوفيلُس بِمعصَمِه: "ارعَ الخِراف!"

وأراد أتريتِس أن يفهمَ الكلِماتِ غيرَ المُترابِطة، فقال: "ليس لديَّ خِراف! مَن فعَلَ هذا بك؟"

فتلمَّسَ ثيوفيلُس حتَّى أمسكَ بِمُقدَّمِ تُنكِ أتريتِس وتشبَّث به، قائلًا: "ارعَ الخِراف".

نظَرَ أتريتِس إلى رِصفة بارتباك، وقد صعَقَه الحُزنُ: "عَمَّ يتكلَّم؟"

"ارعَ الخِراف". وارتخَت أصابعُ ثيوفيلُس. ثُمَّ أطلقَ تَنهُّدَةً طويلة واسترخى على ذِراعَي رِصفة، وما زالت عيناهُ البُنِّيَّتان مفتوحتَين ومُثبَّتَين على أتريتِس.

همَسَت رِصفة: "لقد رحَلَ"، والخَوفُ يجري في أوصالها.

وأمَرَ أتريتِس: "أرجِعيه! أرجِعيهِ كما أرجعَكِ هو!"

"لا أستطيع". وارتعشَت يدُها إذ أطبقَت عينَيه برِفق.

فقال يائسًا: "لمَ لا؟ حاوِلي". ووضعَ يدَيه على صدرِ ثيوفيلُس، مُغطِّيًا الجُروح. "حاوِلي!"

صرَخَت: ''أتظنُّ أنَّنا نستطيع أن نأمُرَ الله بأن يُعطيَنا ما نُريد؟ لقد رحَلَ!''

فتراجَعَ أتريتِس.

وارتجَفَت رِصفة بشدَّة، مُرتعِشًا نَفَسُها. **اللهُمَّ أبانا، ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعَلُ من دونِه؟ يا الله، أعِنَّا!**

وإذا بجوابٍ يأتيها، في دفقةِ دفءٍ مُفاجئة. إذ تذكَّرَت الكَلِماتِ التي علَّمَها ثيوفيلُس إيَّاها، فقالَتها بصَوتٍ عالٍ حالَما حضَرَتها الآنَ لمَّا احتاجت إليها. ''الرَّبُّ نورُنا وخلاصُنا، فَمِمَّن نخاف؟ الرَّبُّ حِصنُ حياتنا، فَمِمَّن نرتعِب؟''

خرَقَ صُراخُ أتريتِس هدوءها. فرفعَت نظرَها إليه، وهو واقِفٌ فوقَها بوَجهٍ الْتَوت قَسَماتُه حُزنًا وغضَبًا. ولم تكُن قطُّ قد رأت سيماءً كهذه. إذ كان يتنفَّس بصعوبةٍ، كأنَّه قد ركَضَ أميالًا، وتأجَّجَت عيناه.

''سأقتلُ الرَّجُلَ الذي فعَلَ هذا. أُقسِمُ أمامَ اللهِ القدير إنِّي سأجِدُه وأفعَلُ به كما فعَلَ هو!''

وإذ رأت رِصفة أنَّ ثيوفيلُس كان أخبَرَ منها، قالت: ''لا، أتريتِس. لقد قالَ لك ثيوفيلُس أن ترعى الخِرافَ. إنَّ الخِرافَ هيَ شعبُك. قال لي ثيوفيلُس إنَّ شخصين كانا يأتيان إلى بيته المستطيل ليلًا ليسمعا الكلمة. وقد يوجَدُ آخرون من الجِياعِ إلى الرَّبِّ. فعلَينا أن نُغذِّيَهم بالكلمة''.

''لعلَّ واحدًا من هؤلاء هو مَن فعَلَ هذا به!''

فقالت: ''لا، ليسَ مِنهم''، ناظِرةً نحوَ الغابة حيثُ كان رُلف قد توارى. وإذ طرَفَت بعينَيها حبسًا للدُّموع، وضعَت يدها برِقَّة على وجهِ ثيوفيلُس الرائق.

فضاقت عينا أتريتِس، وقال بهدوء: ''ماذا تَعنين؟''

''انظُر إليه، أتريتِس. إنَّه في سلام. هوَ مع المسيح''. وربَّتَت خدَّه، مُدرِكةً كم أحبَّته وكم ستفتقِدُه.

''أجيبيني!''

رفعَت نظرَها إليه، فرأت فيه السُّكون، بل الارتيابَ البارد...إنذارًا جليًّا بالعاصفة المُقبِلة. وارتعَشَ قلبُها.

''لقد رأيتِ مَن فعَلَ هذا، أليس كذلك؟''

''قال ثيوفيلُس إنَّه لم يُرِد لكَ أن تطلُبَ الانتِقام''.

''أتظُنِّينَ أنَّ في وسعي أن أدَعَ الأمرَ يمضي فحسْب؟''

"ارعَ الخِراف، أتريتِس. ذلك هو ما طلَبَ ثيوفيلُس منك أن تقومَ به. ارعَ الخِراف. لا تدَعْ نفسَك تُفكِّرُ في أيِّ شيءٍ آخر سِوى ذلك".

"قولي لي مَن فعَلَ هذا!"

"أحِبُّوا، يقولُ الله. أحِبُّوا أعداءكم".

فشتَمَها، وفي عينَيه نظرةٌ لم تقلَّ قذارةً عن تلك التي رأتها في وجهِ أنوميا أمسِ. لقد كانَ مُتعطِّشًا إلى الدَّم!

وخطَرَ في بالِها هَمسٌ قاتِم: **أنوميا. قولي له إنَّ أنوميا وراءَ مقتلِ ثيوفيلُس. قولي له إنَّها هي المسؤولة. سيُزهِقُ روحَها ويُخلِّص الشَّطِّي من نُفوذِها. ولن ينظُرَ إليها بعينِ الشَّهوةِ ثانيةً. قولي له إنَّها...**

فأغلقَت ذِهنَها حالًا دونَ تلك الأفكار، مُرتعِدةً من مُجرَّد السَّماحِ لها بالدُّخولِ أصلًا. **اللهُمَّ، ساعِدني!**

كان عليها أن تحميَ رُلف، تمامًا كما حمَت هِلدا. وكان عليها أن تُجاهِدَ لجَعلِ كلِّ فِكرٍ خاضعًا لمحبَّة المسيح، مهما اصطخَبَ في داخِلها من مشاعِرَ عنيفةٍ. وكان عليها أن تستأسِرَ كلَّ فكر إلى إطاعة المسيح، ولا تترُكَ أيَّ مكانٍ للغضَبِ والغَيرة وأفكارِ الانتقام. فإن لم تفعَل ذلك، فماذا سيحلُّ بزوجها؟

لقد عرَفَت.

يا ربّ، ساعِدني، ساعِدني!

كان ثيوفيلُس قد قال أغلبَ الأحيان: "كُفّي واعلمي. الله معكِ".

فقالت برِقَّة: "يا محبوب، ماذا يطلبُ الرَّبُّ إلهُكَ منك؟" وقد اغرورقَت عيناها إذ تذكَّرَت وتلَت آياتٍ أُخرى. "أن تخافَ الربَّ إلهَك، وتسلُكَ في جميعِ طُرقه، وتُحِبَّه؛ أن تخدِمَ الربَّ إلهَك بكُلِّ قلبك وكُلِّ نفسكَ، وتحفَظَ..."

"لقد قُتِلَ!"

وفي مُحاوَلةٍ يائسة لإعادته إلى رُشده، قالت: "كما قُتِلَ ربُّنا. إنَّ يسوعَ سامَحَ. وثيوفيلُس سامَحَ. فعليك أن..."

قال: "لا! سيُجرَى العدل". وقد نبَضَت عضَلةٌ في خدِّه.

"العدل، أتريتِس؟ إنَّ لُعابَكَ يسيلُ طلبًا للانتِقام".

"أفضَلُ أن يموتَ اللئيمُ بيَديَّ من أن يُلقى في المُستنقَع!" ولمَّا لم تنبِس بكلمة أيضًا، فجَّرَ غضَبُه الزِّمامَ الذي حاول أن يضبِطَه به. فأمسكَ بها من شعرها وسحَبَ رأسَها إلى الوراء، قائلًا: "قولي لي مَنِ الفاعل!"

رفعَت نظرَها إليه، صارَّةً بأسنانها على الألَم. فقد كانت خائفةً لا على نفسها، بل عليه. ولمَّا اشتدَّت قبضتُه، شهقَت من الألَم وأغمضَت عينَيها.

فلمَّا رأى أتريتِس نُزوحَ اللَّونِ من وجهها، أفلَتها فجأةً وخطا مُبتعِدًا، شاتمًا بِبَذاءة. ثمَّ أطلقَ صيحةَ سُخطٍ مُحبَط. لقد أراد أن يقتُلَ قاتِلَ ثيوفيلُس، كائنًا مَن كان. أرادَ أن يُطارِدَ الرَّجُل ويُردِيَه ويَشقَّه بيدَيه المُجرَّدتَين. أرادَ رِضى سَماعهِ مُتوسِّلًا لأجلِ الرَّحمة. أراد أن يُقحِمَ خَنجرًا في القاتل مرَّةً بعدَ مرَّةٍ مثلَما فعَلَ بصديقه!

بكَت رِصفة لمَّا رأتِ الصِّراعَ مُحتدِمًا في داخله. لقد كان مُتحوِّلًا ومُبتعِدًا عن الله أمام عينَيها تمامًا، وكانت هي عاجزةً عن إيقافِ ذلك. فوَجِعَت من الأسى، وصلَّت مُشوَّشةً، طالِبةً معونةَ الله.

وانهالَ أتريتِس عليها بوَجهِ الْتَوت قَسَماتُه حُزنًا وغضَبًا. "اللَّعنةُ عليكِ من أجلِ حِمايتكِ لقاتِل!"

رأتِ الكِبرياءَ والغضبَ اللذَينِ سبق ان رأتهُما في عينَي أنوميا مُتأجِّجَين في أتريتِس. وهالَها ذلك. فقالت، باكيةً بُكاءً أشدَّ: "لا، لن أفعل ذلك، بل أنا حاميةٌ إيَّاك".

وما لبِثَ أن مشى مُبتعِدًا بخُطًى واسعة، تاركًا إيَّاها في الوادي وحدَها، وجُثمانُ ثيوفيلُس مُتوسِّدٌ ذِراعَيها. فضمَّت صديقَها إلى قلبها، مُهَزهِزةً إيَّاهُ بكَرْبٍ شديد.

٤٨

أعدَّت رِصفة جُثمانَ ثيوفيلُس للدَّفن، ولكنَّ أتريتِس رجَعَ وأعلَمها أنَّه سيُحرِقُه جَريًا على عادةِ الشَّطِّي. وقضى باقيَ النَّهار في بناء سقيفةِ دَفْن. وجاءت فرايجا بطعامٍ ونبيذ، إلَّا أنَّ رِصفة كانت فاقدةَ الشهيَّة، وأبى أتريتِس أن يتوقَّفَ ليأكُل.

راقبَت فرايجا ابنَها، قائلةً لرِصفة برِقَّة: "أنا آسِفة. لم أتَّفِق مع صديقِكُما، ولكنِّي ما كنتُ لأتمنَّى له نِهايةً كهذه".

فسألَت رِصفة بلُطف: "هل كان في وسعكِ أن تحولي دون حدوثِ هذا؟"

نظرَت فرايجا من عَلُ إلى وجه ثيوفيلُس وتعجَّبَت من السَّلامِ البادي عليه. ثمَّ قالت همسًا: "لستُ أدري. ربَّما. لستُ أدري". وألقَت يدَها برِفقٍ على ذِراعِ رِصفة. "سأُحضِرُ كالِب إليكِ في ما بعد".

بعد ذلك بساعات، اشتعلَت سقيفةُ الدَّفنِ على خلفيَّةِ سماءِ اللَّيل. وقد وقفَت رِصفة تُشاهِدُ ذلك، باكيةً برِقَّة، حاملةً كالِب مضمومًا على ذِراعَيها. ووقفَ أتريتِس بجانبها، دونَ أن ينبِسَ بكلمة، أو يلمسَها. ولم يكُن قد أطالَ الصلاة قطعًا. فأحسَّت فيه البُرودة، ولم تدرِ ما يسَعُها أن تفعلَ لتُساعِدَه. وإذ رفعَت نظرَها إليه، رأت عضَلةً ترتعِشُ في حنَكِه، وعينَيه مُتأجِّجتَين بمِثلِ حرارةِ النارِ المُلتَهِمةِ جُثمانَ ثيوفيلُس. فأحسَّت المسافةَ مُتباعِدةً بينهما.

وإذ غمَرَت طيَّةَ عُنقِ كالِب بوَجهها، استمرَّت تُصلِّي مِثلَما بدأت تمامًا صباحَ ذلك اليوم في الوادي الصغير. يا ربّ، حوِّل قلبَه، أمِل أُذنَه، دع نفسَه تتجاوب.

تصاعَدَ انفجارُ لَهَبٍ وشرَرٍ شديدٌ إذِ انهارت سقيفةُ الدَّفن. وإلى لحظةٍ فقط لَمَحَت رِصفة جُثمانَ ثيوفيلُس مُمدَّدًا على البنك قبلَ أن تلتهِمَه النَّارُ المُتأجِّجة المُتوهِّجة.

أطلقَ كالِب زعقةَ ابتهاجٍ فَرِحةً، رافعًا يدَيه إذ تطايرَ الجَمرُ نحوَ السَّماء. ونظرَت رِصفة أيضًا إلى العلاء. فإذا فوقُ النُّجومُ والقمَرُ كحالِها كلَّ حين، مُذكِّرةً إيَّاها أنَّ الله ما يزال موجودًا قبلَهُنَّ وسيبقى بعدَهُنَّ أيضًا. فملأها إدراكُ ذلك بالسَّلام، وعلى نحوٍ غريبٍ إلى حدٍّ بعيد: بالفرَح. لقد مضى ثيوفيلُس ليَستوطِنَ عندَ الرَّبِّ. لقد كسَبَ معركته. إنَّما هي وأتريتِس وحدَهما ما زالا يتصارعان مع الوجود الوقتيِّ وقوَّاتِ الظُّلمة المُعادِية لهُما.

يا ربّ، إليكَ يتوقُ قلبي. أنت تعلَم كم اعتمدنا على روح ثيوفيلُس الطيِّبة. أَلِذلكَ أخذتَه منَّا؟ حتَّى نقِفَ على أقدامنا ونضَعَ كامِلَ ثقتِنا فيك؟

قالَ أتريتِس دونَ أن ينظُرَ إليها: "هل تُوشِكين أن تُخبِريني مَن قتَلَه؟"

فأطرقَتِ رأسها، وأغمضَت عينَيها، وقالت بكُلِّ رقَّة: "لا!" مُصلِّيةً أن يَلين.

فاستدارَ وانتزَعَ كالِب عن ذِراعَيها: "أنتِ غيرُ مُرحَّب بكِ في البيتِ الطويل".

وحدَّقَت إليه، مُنفرِجةَ الشَّفتَين. "ماذا تَعني؟"

بدأ كالِب يبكي بين ذِراعَي أبيه. ومدَّ يدَيه نحو رِصفة، فخَطَت خطوةً إلى الأمام. إلَّا أنَّ أتريتِس تراجَعَ عنها. "هُوَ ابني، هل تذكُرين؟ لا ابنُكِ".

جمَّدَتها بُرودةُ صوتِه. ثُمَّ قالت مُرتجِفةً: "وأنتَ زوجي". وقد كافحَت لأجل الهدوء والتعقُّل في مواجهة ما رأته في عينَيه الزَّرقاوين.

"إذًا تذكَّري وعودَكِ بالطَّاعة. قولي لي مَن قتَلَه".

يا الله، أمحتومٌ أن يؤولَ الأمرُ إلى هذا؟ واقتبسَت قائلةً: "لي النَّقمة، يقولُ الربُّ. لا أستطيعُ أن أقولَ لكَ ما دمتُ أعلَمُ ما في قلبك. لا أستطيع!"

"أتعتقِدينَ أنَّ الرَّبَّ أرادَ لثيوفيلُس أن يُقتَل؟ أتعتقِدينَ أنَّ يسوعَ أرسل شخصًا ما لِيَفعلَ ذلك؟" وشتَمَ ثانيةً، بصوتٍ مُرتفِع. "إذا كان قد فعَلَ ذلك، فأين الفَرقُ بين المسيح وطِيواز؟"

لم تُرِد أن تُجادل. فالله هو المُهَيمِن، وهو قد عَلِمَ. ونَشِطَ ذِهنُها يائسًا بحثًا عن أسباب. "الله يسمح بالشَّرِّ لِيَعمِدَ إلى إظهار رحمته ونعمته بالفِداء..."

فقال أتريتِس مُتهكِّمًا: "هلِ القاتلُ هُنا، يلتمِسُ الغُفران؟" وأزاحَ كالِب راجًّا إيَّاه. فزعقَ الطِّفلُ مُرتاعًا، ولكنَّ أتريتِس، في غضَبه، لم يُلاحِظ أو يُبالِ، بل حدَّقَ إليها كما لو كانَت هيَ الجانِيَة، وقال: "هل ترَينَ القاتِلَ تائبًا؟ أتحسبينَ أنَّه خائفٌ من الله؟ أتظُنِّينَ أنَّ أحدًا من شعبي سيكنُّ الاحترامَ حين لا يرَونَ أيَّ شيءٍ حادثًا بعدَما قُتِلَ رجُلٌ بدَمٍ بارد؟"

"هل دمُكَ أحَرُّ ولو قليلًا؟"

بَدَت غَمامةٌ حمراءُ مُغشِّيةً بصَرَه. "أنتِ تخونين ثيوفيلُس بِسُكوتكِ. أنتِ تخونينَني!"

"قال لي ثيوفيلُس ألَّا أقولَ لك!"

"أنتِ تقِفينَ بيني وبينَ العَدل!"

"أنا أقِفُ بينَك وبينَ الانتِقام!"

فصفَعَها قبلَ أن يتمكَّن مِن إيقافِ نفسه، وكانتِ الصفعة شديدةً جدًّا حتَّى تدحرجَت وسقطَت على الأرض. وجعلَته الصَّدمةُ والنَّدامةُ يخطو خطوةً نحوها، ثمَّ منَعَه الغَيظُ الأسودُ في داخِله وأوقفَه. فاحتدَمَت حربٌ في داخله. وأنَّ من حِدَّة المعركة. ثمَّ رآها تدفَعُ نفسَها لتقوم، ورأى كيف ارتجفَت بشِدَّة من الصَّدمة، وقد اتَّسعَت عيناها السَّوداوان ألَمًا وإنكارًا، وسالَ الدَّمُ من شفَتِها.

اشمأزَّ جُزءٌ منه ممَّا فعل وأرادَ أن يلتمِسَ المغفِرةَ منها، ولكنَّه قسَّى نفسه في مواجهة ذلك. ولو استسلَم، لَمَرَّ مَقتلُ ثيوفيلُس بِلا مُحاسبَة، فمَا كان في وسعه أن يسمَحَ بحدوث ذلك. وصرَخَ دَمُهُ في عُروقِه ضدَّ الإذعان.

"لا أُريدُ أن أرى وجهَكِ إلى أن تُصبِحي مستعدَّةً لإخبارِي بِاسْمِ الجاني. فعندما تفعلينَ ذلك، أسمَحُ لكِ بالرُّجوع إلى البيت المُستطيل. وليس قبلَ ذلك".

"أتريتِس..."

"أطبِقي فمَكِ! لا ترجِعي إلَّا إذا حصَلَ تغييرٌ في قلبكِ، رِصفة، وإلَّا- قسَمًا بالله- فإنَّكِ ستعيشينَ لتندَمي على تصرُّفكِ...إذا عِشتِ أصلا". والتوى فمُه من المرارة، مِثلَما التوى قلبُه في داخِلِه أيضًا. "إنَّكِ لستِ أفضلَ من زوجةٍ خائنة، وسأُعامِلُكِ على هذا الأساس".

بهذه الكلمات، أدارَ ظهرَه لها ومشى مُبتعِدًا بخُطًى واسعة، وكالِبُ زاعِقٌ على ذِراعَيه.

جذبَت رُكبتَيها إلى فوقُ وألصقَتهما بصَدرها، وغطَّت رأسَها بيدَيها، وبكَت.

في مكانٍ غير بعيد، كانت أنوميا تُراقِبُ وهي مُختبئة في الظَّلام بينَ الشَّجَر. وقد سمِعَت كلَّ كلمة تفوَّه أتريتِس بها. وارتقصَ قلبُها بفَرَحٍ خبيث لَمَّا صرَعَ أتريتِس الإيونيَّة أرضًا. والآنَ أصغت باستِمتاع إلى بُكاء المرأة المُتقطِّع يتهادى على هواء اللَّيلِ الساكن.

وبعينَين مُتلألئتَين، تبسَّمَت مُبتهِجةً بالنَّصر.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

٤٩

انتقلَت رِصفة إلى بيت ثيوفيلُس المُستطيل. وغطَّت نفسَها ببَطَّانيَّتِه، مُتنشِّقةً عبيرَ جِسمه، حزينةً عليه كما تحزَنُ على أبٍ أرضيٍّ.

هاجَمتها المَخاوِفُ من كلِّ جِهَة، وانقضَّت عليها الكوابيس متى نامت. كان كالِب يصرخ، ولم تستَطِع أن تعثُرَ عليه. ورُغمَ تفتيشها بِذُعر وسَعر، وجدت نفسَها مُتوغِّلةً في أعماقِ الغابة أكثرَ فأكثر، والظُّلمةُ تُطبِقُ عليها من كلِّ ناحية. وصادفَت أتريتِس عالِقًا بينَ ذِراعَي الكاهنة الشابَّة. فصرخَت إليه. إلَّا أنَّه لم يسمعها، أمَّا أنوميا فسمِعَتها وابتهجَت جدًّا.

استيقظَت رِصفة باكيةً، وضَحِكُ أنوميا ما زال يرنُّ في أُذنَيها. وكانت دقَّاتُ قلبها تتسارع، وجِسمُها كلُّه يرتجف. فغطَّت وجهَها.

"يا ربُّ، أنتَ تُرسٌ حولي. ارحَمني واسمع صلاتي. قوِّم سبيلَك قُدَّامي".

جلسَت في الظَّلام، تُصلِّي وتنتظِرُ الفجر، مُتضرِّعةً إلى الله بِلا انقطاع. يقينًا أنَّ أتريتِس سيُتاحُ له وقتٌ ليُفكِّرَ ويلينَ ويرُدَّها إليه في البيت الطويل. كان قد أحبَّ ثيوفلُس. يقينًا أنَّه سيُلبِّي طِلبةَ صديقه الأخيرة. ثُمَّ إنَّ كالِب لا بُدَّ أن يحتاجَ إليها. لم يكُن قد فُطِمَ بَعد، وسيبكي في الصَّباح، فلا يكونُ لأتريتِس صَبرٌ عليه. وقارُس سيغضب.

"هو ابني، أتذكُرين؟ لا ابنُكِ".

لفَّت ذِراعَيها حولَ نفسها، وتَهزهزَت. **عينَيه، يا الله... افتَح عينَيه!**

جرَحَت كلِماتُ أتريتِس قلبَها كُلَّما فكَّرت فيها، مُحييةً أُمورًا مؤذيةً أُخرى من أوَّل مرَّةٍ قابلَته فيها. كيف أمكنَ أن تفتكِرَ أنَّ فيه أيَّ لُطف؟ كيفَ أمكنَ أن تظنَّ أنَّه أحبَّها حقًّا مرَّةً؟ كانت ما تزالُ جوليا عنده، وما تزال كمئة امرأةٍ أُخرى أُعطِيَهُنَّ في زنزانته.

"اطرحوا عنكم كلَّ مرارة وغضب، أيُّها الأحِبَّاء، وكونوا لُطَفاءَ بعضُكم نحوَ بعض". هكذا قال يوحنَّا الرَّسولُ منذ زمَنٍ بعيد في أفسُس. هل مرَّت حقًّا سنتان منذُ أن تركَت كلَّ ما عرَفَت لتأتيَ إلى هذا المكان المُقفِر؟ "كونُوا لُطَفاء وشُفَقاءَ، مُسامِحينَ بعضُكم بعضًا، كما سامحكم الله في المسيح".

علِمَت أنَّ عليها أن تُسامِحَ أتريتِس بتخلِّيه عنها. وعليها أن تضَعَ الكلِماتِ المؤذيةَ جانبًا،

وإلَّا تأصَّلَتِ المرارةُ فيها وتفاقمَت. لقد عاملها أتريتِس كما لو كانت هي قد قتلَت ثيوفيلُس، ولكنْ لم يكُن في وسعها أن تُفكِّرَ في ذلك. ولم يكُن في وسعها أن تسمَحَ لغضبه وتصرُّفاته بأن تحولَ دون إطاعتها للرَّبِّ.

"اثبُتي".

فكَّرَت في رُلف فارًّا إلى الغابات، ويداه مُضرَّجتانِ بالدَّم. وأرادت أن تُخبِرَ أتريتِس وترى العدلَ يُجرى. إلَّا أنَّها علِمَت أنَّ استِسلامَها لمشاعرها ما كان ليُعزِّزَ العدل. لقد تكلَّم ثيوفيلُس بصراحةٍ ووضوح. فما كان في وسعها أن تتظاهرَ بأنَّها لم تفهم. ولا كان في وسعها أن تُقنعَ نفسَها بأنَّ ذلك صواب.

لماذا وجَبَ أن تكون الحياةُ شاقَّةً جدًّا هكذا؟ ألا ينبغي أن يجعلَها الإيمانُ بإلهٍ حيٍّ أسهَل؟ هل توقَّعَ الرَّبُّ منها حقًّا أن تقِفَ ضدَّ زوجها وتخسَرَ ابنَها في سِياقِ ذلك؟ ولأجلِ ماذا؟ أن تحميَ قاتلًا؟

"اغفِرْ لهم لأنَّهم لا يدرون ماذا يفعلون؟"

ثُمَّ جاء الفجر. أمَّا أتريتِس فما.

ولمَّا مرَّ اليومُ الأوَّل، ثُمَّ الثاني، يئِسَت رِصفة، وأضنى العذابُ عقلَها وقلبها. كيفَ انهارَت الأُمور بهذه السُّرعة؟ أكان مُمكِنًا أنَّ فِعلَ عُنفٍ واحدًا يمكن أن يُزيلَ الإيمان؟ وأحسَّت كما لو أنَّ إيمانَها كان ينهار. هل كانت تقومُ بالأمر الصائب؟ أرادت أن تكون مع كالِب، لا وحدَها في هذا البيت التُّرابيِّ الساكن البارد. وأرادت أن تُكلِّمَ أتريتِس وتُحاجَّهُ وتُفهِمَه. ولكنْ هل يسَعُها ذلك؟ هل يسَعُ أيَّ مِقدارٍ من المَنطِق أن يؤثِّر في رجُل أسلَمَ نفسَه لشهوة الانتقام؟

كانت تعرِفُه جيِّدًا جدًّا. فما كان لِيَلين، وإذا لانَت هي يُدرِكُه الضَّياعُ. إذ ذاك يموتُ رُلف، ويكونُ دمُ المُحارِبِ الشَّابِّ على يدَيها، وتُضطَرُّ لأنْ تعيشَ شاعِرةً بذنْبِ عِلمها أنَّ ضعفها مهَّدَ السبيلَ لأتريتِس لارتكابِ جريمةِ قتلٍ ليسَت أقلَّ فظاعةً ممَّا فعَلَه رُلف.

وهكذا ثبَّتت فِكرَها على المسيح.

ثمَّ اعتراها الضَّعفُ لمَّا عثَرَت على الخَنجر. كان مُلقًى شِبهَ مخبوءٍ في حديقةِ ثيوفيلُس، ونَصلُه يَبرقُ تحتَ أشِعَّةِ شمسِ الرَّبيع. فالتقطَته قبلَما عرَفت ما هو. وكان النَّصلُ مُلطَّخًا بشريطٍ من الدَّم الجافِّ، دمِ ثيوفيلُس! فأسقطَته من يدها مرعوبةً، والدَّمعُ فائضٌ في عينَيها. وتسرَّبت إلى ذهنها أفكارٌ سوداءُ نهَّابةٌ، جعلَت دمَها يَغلي وعضَلَها يتوتَّر. أيَّ رحمةٍ أبدى

رُلف لِثيوفيلُس لمَّا أقحمَ الخَنجرَ في صَدرِه؟ فلِماذا ينبغي أن تُبدى له أيَّةُ رحمة؟ وتمنَّت لو يُتاحُ لها أن تُقحِمَ هيَ الخَنجرَ في جِسمِ رُلف وتُعطيَ ذلكَ الوَغْدَ للإلهِ الذي عبَدَه.

غيرَ أنَّ ضميرَها نفَرَ من ذلك التفكير، فتجاوبَت بالتَّوبة. لقد كان رُلف غيرَ مُخلِّصٍ وغيرَ قادرٍ على فهم الحقّ. إنَّه كان غيرَ قادرٍ على الإيمان بالله، وغيرَ قادرٍ على إرضاء الرَّبِّ، أو على التماسهِ بالأَقلّ. أمَّا هي فكانت قادرة. وقد علِمَت. إلَّا أنَّها رُغمَ ذلك وجدت نفسها مُنغمِسةً في أفكارِ المُعاقبة العُنفيَّة.

لقد عرَفَ الله قلبها، كما عرَفَ كلَّ فِكرٍ في ذهنها. فكيفَ كانت مُختلِفةً في أيِّ شيء عن أتريتِس؟ وجعلَها إدراكُها لذلك أكثرَ اتِّضاعًا بَعد.

كان ثيوفيلُس قد قال: "لا تقولي له. إنَّه ضعيف. سيَطلبُ الانتقام".

أمَا تَبرهَنَ أنَّ كلام ثيوفيلُس كان صحيحًا؟ وها هي الآنَ وجدت نفسَها ضعيفةً كزوجها، مُتعطِّشةً إلى المُعاقَبة، توَّاقةً إلى مَوتِ رجُل. لقد تحوَّل أتريتِس مُبتعِدًا عن كلِّ ما علَّمَه ثيوفيلُس إيَّاه. إنَّ كلماتِ ثيوفيلُس الأخيرةَ كانت وصيَّةً، وقد تجاهلَها أتريتِس، مُصمِّمًا على الانتِقام تصميمًا مُفرطًا. فهل كانت هي أيضًا تنوي أن تتحوَّلَ مُبتعِدةً عنِ الرَّبِّ؟

وإذ غمَرَها الحَنانُ نحوَ زوجِها، صلَّت: "اللهُمَّ، سامِحني. طهِّرْني، يا ربُّ. أحْيِ في داخلي روحَ الاستِقامة". لم يكُن للغضب أو الاستياء أيُّ مكان. وكم وجَبَ أن يكون الأمر أسوأَ لدى أتريتِس بعدَما تمرَّسَ بالعُنف سنينَ كثيرة! كان قد بدأ توَّا يعرِفُ الرَّبَّ. فأيُّ عُذرٍ كان لها هي التي تتبعُ الرَّبَّ طوالَ سَبعِ سنين؟ "يا الله، ساعِدني. رُدَّه إليك".

لمَّا فتحَت عينَيها، وقَعَ نظَرُها على الخَنجرِ من جديد. أيُّ قوًى سيطرَت على رُلف حتَّى دفعَته إلى قتلِ ثيوفيلُس؟ أمَا أبقى ثيوفيلُس على حياته في الغابة المُقدَّسة؟ لقد قال إنَّ المُحارِبَ الشابَّ ما كانَ يُريدُ ارتكابَ تلك الفِعلة. فلماذا ارتكبَها؟ والتقطَت الخَنجر. كانت مَسكةُ العَظم منحوتةً بشَكلِ قدَمِ مِعزاة، وقد نُقِشَت رموزٌ رُونيَّة على طولها. إنَّه لم يكُن سِلاحًا عاديًّا. فقلَبَته ورأت نقشَ رجُلٍ ذي قرنَين، حاملًا بإحدى يدَيه مِنجَلًا وبالأُخرى فراميا. إنَّه طِيواز.

هل أرسل غُندرِد رُلف؟ يقينًا أنَّ فرايجا ما كانت لِتُشارِكَ في فِعلٍ مَقيتٍ كهذا. ولم تكُن رِصفة لتُصدِّق حصولَ ذلك من قِبَلِ أُمِّ أتريتِس. أنوميا؟ نعم! أمَّا فرايجا فلا. إنَّ فرايجا ما كانت لِتفعلَ ذلك أبدًا.

فكَّرَت في الكاهنة الشابَّة التي لم يكُن لديها أيُّ خوفٍ لله، ولا حتَّى للإله الذي

عبَدَته. لقد سبَقَ أن رأت رِصفة الظَّلامَ وراء عينَي أنوميا. وقد أحسَّت ذلك كلَّما نظرَت المرأةُ الشابَّة إليها. وفي اليوم السابق لموت ثيوفيلُس، كشَفَت مشاعِرَها الحقيقيَّة. فإنَّ أنوميا كانَتِ ابنةً للغضَب، عِدائيَّةً، مُتأجِّجةً بِبُغضِها للرَّبِّ.

تساءلت رِصفة هل ينبغي لها أن تُعطيَ أتريتِس الخَنجر. فأصابَها الغَثَيانُ حِيالَ تلك الفِكرة، عالِمةً أنَّ أكثرَ مِن رُلف سيُقتلون إذا فعلَت ذلك. وماذا لو أنَّ أُمَّه نفسَها كانت قد شاركت في مَصرعِ ثيوفيلُس؟ ماذا يكونُ عندئذٍ؟

خبَّأتِ الخَنجرَ في جَوفِ شجَرةٍ بقُربِ جدوَلِ الماء.

لقد أعطى ثيوفيلُس أتريتِس وصيَّة. "ارعَ الخِراف!" ولكنَّه أعطاها وصيَّةً هي أيضًا، إذ قال: "اثبُتي!" ولكنْ هل كان ذلك في وسعها؟

"اثبُتي!"

مِرارًا وتَكرارًا في غضون الأيَّام التالية، عاودَتها كلماتُه، لا سيما في أثناء ساعات الظَّلام، حينَ كانت تضعُفُ وتُريدُ أن تركُضَ راجعةً إلى البيت الطويل وترجو أن يسمحَ لها أتريتِس بالعودة إلى البيت، حينَ أرادت أن تُعطِيَه الخَنجر ولا تُفكِّرَ في العواقِبِ المُحتمَلة.

"اثبُتي!"

هل علِمَ ثيوفيلُس أنَّها ستُترَك وحدَها؟ وهل كان من شأنِ عِلمِه أن يُحدِثَ أيَّ فرق؟

"اثبُتي، يا محبوبة".

كم مرَّةً كان قد قال لها تلك الكلِمات طَوالَ أشهُرِ السَّفَر من أفسُس إلى روما، ومن رُوما إلى غاباتِ جِرمانيا عبْرَ جِبالِ الألپ؟ "اثبُتي. اثبُتي".

استلقَت على حَشِيَّة ثيوفيلُس كلَّ ليلة وصلَّت. **يا ربّ، تعِبتُ من تنهُّدي. كُلَّ ليلة أُعوِّمُ سريري بدموعي وأُبلِّلُ هذه الحشيَّة. إنِّي أذوبُ كَرْبًا.**

كادت تسمَعُ ثيوفيلُس مُتكلِّمًا إليها. وإذ أغمضَت عينَيها، استمدَّت عزاءً من ذِكرَياتها عنه. وفكَّرَت فيه قاعدًا بقُرب النار مُقابِلَها، مُبتسِمًا ابتسامتَه، تلكَ الجميلة.

ألَم يثبُتْ هوَ هذهِ الشُّهورَ كلَّها، وحدَه في هذا البيت المُستطيل؟

وحضَرَتها أشياءُ أُخرى قالها: "تذكَّري الرَّبَّ، يا محبوبة. لقد أنقذَنا الله من سُلطان الظُّلمة ونقَلَنا إلى مملكة ابنهِ الحبيب. البَسي سِلاحَكِ. مَنطِقي حَقَويكِ بالحقّ. ارتَدِي دِرعَ

البِرّ. أنعِلي قدَمَيكِ باستِعدادِ إنجيلِ السَّلام. خُذي خُوذةَ الخلاص، واحمِلي تُرسَ الإيمان وسيفَ الرُّوح. وصلِّي كلَّ حين".

"وعليكِ أن تكوني عامِلةً بكلمة الله، رِصفة. تذكَّري كلامَ الأسفارَ المقُدَّسة. دعي كلمةَ الله تنزِل في قلبك وتُنتج ثمرًا".

"كوني راسِخة. ثبِّتي فِكرَكِ على الأُمور التي في العلاء. إنَّ تثبيتَ الفِكر على الجَسَد هو موت. أمَّا تثبيتُ الفِكر على الروح فهو حياةٌ وسلام. احفظي قلبَكِ، فمِنه تجري ينابيعُ الماء الحيّ. تمثَّلي بالرَّبِّ. اسلُكي في المحبَّة".

لقد وافَتها الآياتُ المقدَّسة، غامِرةً فِكرَها.

"ذاك الذي فيكُم هو أعظَمُ من الذي في العالم".

"أُحِبُّ زوجي، يا ربُّ. أُحِبُّ ابني".

"**أنا الرَّبُّ إلهُك، وليسَ سِواي**".

أقبلَت كلِمةُ الله كرعدٍ قاصِف، ثُمَّ تلاها مطَرٌ أرقُّ.

"**أنا كافٍ. أنا كافٍ. أنا كافٍ**".

ثُمَّ بكَت، عالمةً ما طلَبَه الربُّ منها.

"يا ربُّ، أنت صخري وفاديَّ. أنت تسمَعُ طِلبَتي. أنت تتقبَّلُ صلاتي. لقد سمِعتَ صوتَ بُكائي. ساعِدني حتَّى أقِفَ ثابتةً فيك. أعطِني القوَّة، أبًا، لأنْ لا قوَّةَ لي. املأني بِمَعرفةِ مشيئتك واحفَظني في الطريق الأبديّ. أيُّها الربُّ إلهي، إنِّي أحيا لأعبدك".

وإذ سكَبَت رِصفة قلبها خضوعًا للرَّبِّ، أفاضَ إلهُ الكون فيها المحبَّةَ واليقينَ من جديد. لقد بكَت، فعزَّتها كلمتُه. وكانت ضعيفة فقوَّاها. وعادت إلى ذهنِها آيةٌ بعدَ آيةٍ من الأسفار المقدَّسة، حيَّةً وحيويَّةً، طاردةً الخوفَ والوحشة، مُبدِّدةً كلَّ شكٍّ. وفيما مضَتِ الأيَّامُ ثقيلةً وبطيئة، أطبقَت عليها قوَّاتٌ سوداء، ولكنَّها التصقَت بالمسيح بعزمٍ وطيد، وعَمُقَ شغَفُها به.

كانَ ثيوفيلُس قد قال في وقتٍ شِدَّة: "نستطيعُ أن نفرح. نستطيعُ أن نُصلِّي. نستطيعُ أن نُسبِّحَ الله".

فجعلَت عقلَها وقلبَها مُثبَّتَين على القيام بهذه الأُمور، مهما جاءَ عليها.

٥٠

قالت فرايجا: "لقد مضى عشرةُ أيّام، أتريتِس". ورأت وميضَ الغضَب في عينَي ابنها، إنذارًا جليًّا بأنّه لم يُرِد أن يتكلّم عن زوجته. إنّما كان عليها هيَ أن تتكلّم عن رِصفة. فإنّ عشرة أيّام كانت مُدّةً أطولَ من أن تقضِيَها امرأةٌ وحدَها عندَ طرَفِ الغابة. وهوَ علِمَ ذلك. وكانت أُمُّه قد شاهدَت تَوتُّرَه يزدادُ مع كلِّ يومٍ يمرُّ. فلم يكُن عندَ رِصفة أيُّ طعام، ما عدا المِقدارَ الضئيل الذي ربّما كانَ ناميًا في حديقة الرُّومانيِّ، وكم سيدومُ ذلك؟ ولم يكُن لها حِمايةٌ أيضًا، وقد أحسَّت فرايجا القُوّاتِ الرُّوحيَّةَ مُتحرّكةً حتّى ارتعشَ الهواء.

"لا يُعقَلُ أن تتركَها هُناك خارِجًا وحدَها".

كان شاحِبًا، جريحَ المشاعِر. وظلَّ يُحدِّقُ إلى النار، وعَضَلُ حَنَكِه يرتعش.

"يجب أن تُرجِعَها".

"لا".

"كالِب يحتاج إلى أُمِّه".

"لدَيهِ أنتِ".

"إنّه يَفتَقِدُها. وأنتَ تفتقِدُها".

وقفَ أتريتِس فجأةً، شاتمًا. "دَعكِ من هذا!"

لمَحَتِ الألَمَ وراءَ سُخطِه. كان قد توقَّع من رِصفة أن تستسلم. لمّا رجَعَ من مَحرَقة الجنازة، دفَعَ كالِب إلى ذِراعَي أُمِّه وقعَدَ قُبالةَ النار. وسألَته أين رِصفة، فكان كلُّ ما قالَه: "إنّها تعرِفُ مَنِ الجاني، ولكنّها تأبى أن تُخبِرَني. فإلى أن تفعلَ ذلك، غيرُ مُرحَّبٍ بها في هذا البيت". لقد قعَدَ أمامَ النار، تارِكًا إيّاها مَشدوهةً ومُفعَمةً بالأسئلة. وقد أقحمَ قبضتَه اليُمنى في كفِّه اليُسرى، قائلًا: "ستأتي! ستأتي قبلَ الصَّباح".

ثمَّ انتظَرَها طوالَ اللَّيل. ولمّا أقبَلَ الصباح، كان ما يزال قاعدًا أمامَ النار، محدِّقًا بحِدَّةٍ إلى ألسِنَةِ اللَّهيب بحيثُ لم يسمع حتّى انتِحابَ ابنهِ الجائعِ ذاكَ المُثيرَ للشَّفقة. فأخذَت فرايجا كالِب إلى مارتا إذ كانت ما تزالُ تُرضِعُ لويزا. وقد كان لَدَيها حليبٌ كافٍ لطِفلَين.

والآنَ، أجالَ أتريتِس بصَرَه في أنحاء الغُرفة. وقالَ بعينَين مُتأجِّجتَين: "أينَ كالِب؟ هل

أخذْتِه إلى رِصفة؟"

"أخذتُه إلى مارتا. إنَّه لم يُفطَم بعد".

"إنَّه كبيرٌ كفايةً".

"هُوَ مُرتبِكٌ ومُرتعِبٌ كفايةً دونَ أن نفعَلَ هذا به".

فأجرى أتريتِس أصابعَه في شعره، قائلًا: "لستُ أُبالي. افعلي ما تحسبينَه الأفضلَ، إنَّما لا تُعطيهِ لرِصفة البتَّة. ومهما توسَّلَت، فلا تدَعِيها تلمِسُه".

"ما جاءت إليَّ قطُّ، ولا توسَّلَت. إنَّها..."

"كفى! اهتمِّي بالصَّبيِّ واترُكيني وحدي!"

نشَرَ ڤارُس الخَبَر في القرية بأنَّ أتريتِس طرَدَ رِصفة لأنَّها أبت أن تقولَ له مَن قتَلَ الرُّومانيَّ. ولم يفهَم أحَدٌ التعليل، وأقلَّ الكُلِّ ڤارُس حامِلُ الخبَر. لماذا تعمِدُ الإيونيَّة إلى وضعِ نفسِها في طريق الأخذِ بالثأرِ لرجُلٍ أحبَّته كما أحبَّت أتريتِس؟ لم يكُن ذلك مفهومًا قطُّ. فقد تحدَّى مَنطِقُها العقل. هل جُنَّتِ الإيونيَّةُ من الحُزن؟

إنَّما أتريتِس وحدَه علِمَ أنَّ ذلك لم يكُن جُنونًا. فقد كانت إرادتُها العنيدة هي التي منعَتها أن تستسلم. وجعلَته معرِفتُه ذلكَ أكثرَ غضبًا بَعد.

كان في وسع الناس أن يتحدَّثوا بشأن قليلٍ من الأُمور الأُخرى، إلَّا أنَّهم لم يجسُروا على التحدُّث بمسمعٍ من أتريتِس.

وفي اليوم الثاني عشر، انتظرَت فرايجا حتَّى خرَجَ أتريتِس مع أُصيبي لِلصَّيد. ثمَّ سلَكَت السبيلَ الذي كان قد باتَ باليًا، مِن مؤخَّرِ البيت الطويل إلى الوادي الصغير وبيت ثيوفيلُسَ المُستطيل. وإذ عبَرَت الفِناءَ المكشوف، رأت رِصفة تشتغِلُ في الحديقة. بَدَت كأيَّةِ امرأةٍ أُخرى تقوم بمَهامِّها اليوميَّة. ولكنْ لمَّا اقتربَت فرايجا أكثر، سمِعَت رِصفة تُكلِّمُ نفسَها وهي تشقُّ التُّربة وتقتلِعُ الأعشابَ الضارَّة. لقد جُنَّتِ المِسكينة!

قالت باحتِراس: "رِصفة؟"

فرفعَت نظرها مدهوشةً، ورأت فرايجا الكدمةَ البشِعة المُصفرَّة على جانب وجهها الأيسر. قالت رِصفة: "لقد جفَّلتِني!" واستقامت. ومسَّدَت إلى الوراء بِضعَ خُصَلٍ مُرتخية مِن الشعر الداكن بِقَفا يَدِها.

"هل أرسلَكِ أتريتِس؟"

غاصَ قلبُ فرايجا حِيالَ نِظرةِ الأمَلِ في عينَيها الداكِنتَين. "لا".

فقالت رِصفة برِقَّة: "أُوه!" ونظرَت نحوَ القرية. وبعدما أغمضَت عينَيها هُنَيهةً، مُكافِحةً الدُّموع، نظَرَت إلى فرايجا من جديد. فأحسَّتِ استياءَ المرأةِ الكُبرى وعطفَها، وابتسَمَت. "كيف كالِب؟"

"مارتا تعتني به".

هزَّت رِصفة رأسَها استِحسانًا. وكانَ كلَّ ما قالته: "علِمتُ أنَّ في وسعي أن أعتمِدَ عليكُما لتلبيةِ حاجاته". وقدِ ابتسمَت بَسمةً مُفعَمةً بالشُّكر. لم تحتجَّ قطُّ، ولا تفوَّهَت بمُناشَدةٍ تعصِرُ القلبَ، أو بأيَّة شكاوى غاضِبة، ولكنَّ فرايجا أحسَّت ضريبةَ الانفصال الرهيبة. إنَّ رِصفة لم تكُن مجنونةً قَطُّ. لقد كانت مُوطَّدةَ العزم. لقد حدَّدت مَسارَها، وما كانت أيَّةُ ريحٍ لِتُغيِّره. وتمنَّت فرايجا لو تستطيعُ أن تفهم.

"لماذا تأبَين أن تقولي لأتريتِس مَن قتلَ ثيوفيلُس؟"

"لأنَّه سيقتُلُ الرَّجُل".

"أذلك أمرٌ أصعَبُ من أن يُصدَّق؟"

"أأنتِ توَّاقةٌ إلى مزيدٍ من الدِّماء؟"

"بالتَّأكيد لا، ولكنِّي أيضًا لا أتغاضى عن القتل".

"ولا أنا، أُمُّ فرايجا". وفكَّرت في الخَنجرِ الطَّقسيِّ المُخبَّإِ في شجرة. تفحَّصت وجهَ فرايجا بحثًا عن ذريعة، فلم تَرَ شيئًا من ذلك. ثمَّ فكَّرت أن تُرِيَها الخَنجر لتتبيَّنَ أغُندرِد كان وراءَ مقتلِ ثيوفيلُس أم أنوميا، ولكنَّها ما لبِثَت أن قرَّرَت ألَّا تفعلَ ذلك. ما كان رُلف وحدَهُ سيُقتَل. فكم شخصًا آخَرَ كان مُتورِّطًا؟

قالت فرايجا: "أُريدُ أن أفهم".

فقالت رِصفة ببساطة: "طلَبَ منِّي ثيوفيلُس ألَّا أقول لأتريتِس مَن الجاني".

"ولكنْ لماذا؟ يقينًا أنَّ الرُّومانيَّ من شأنه أن يُريدَ الثأرَ لحياته".

وابتسمَت رِصفة ابتسامةً رقيقة. "لا! لقد غفَرَ يسوعُ لأُولئك الذين صلبوه. وثيوفيلُس غفَرَ أيضًا. فلا يسَعُني أن أفعلَ أقلَّ من ذلك أبدًا".

"أتريتِس يسَعُه أن يفعل".

"في وسعه ألَّا يفعل، إذا أراد".

"ما كانَ لِيُريد. فليسَ من طبيعته أن يغفِرَ بالطريقة التي تقصدينَها. ليست تلك طريقةَ الشَّطّي".

"ليس ذلك من طبيعة أيِّ إنسان، سيِّدةُ فرايجا، ولكنَّهُ إرادةُ الله". واغرَورقَت عيناها مُجدَّدًا. "في المسيح، كلُّ شيءٍ مُمكِنٌ، حتَّى تغييرُ قلبِ الإنسان. إنِّي أُصلِّي لأجل ذلك دائمًا: أن يُغيِّرَ الله قلبَ أتريتِس، وقلبي". فما كان في وسعها أن تطلُبَ من الله أن يفعلَ في حياةِ أتريتِس شيئًا لم تكُن على استِعدادٍ لأنْ يُفعَلَ في حياتها.

تمنَّت فرايجا لو جلبَت لها شيئًا ما: خُبزًا، جُبنًا، شالًا يُبقيها دافئةً.

ورأت رِصفة ارتِباكَها، فابتسمَت. "الرَّبُّ معي، أُمُّ فرايجا".

أحسَّت فرايجا دفئًا راعشًا في داخلها حِيالَ كلماتِ رِصفة، ورأت سِيماءَ صَفاءٍ فاقت أيَّ شيءٍ شعرَت به يومًا في حياتها. فكيف كان ذلك ممكنًا؟ "ليسَ صائبًا أن تكوني أنتِ مَن يُعاقَب".

"ظَنَنتُ ذلكَ أوَّل الأمر، ولكنَّه كان خُدعة. إنَّ هذا ليس عِقابًا، بل هو حَرب. لقد حارَبَ ثيوفيلُس قوَّاتِ الظُّلمة التي تُقيم وتتنفَّس في هذا المكان".

فشُحِبَت فرايجا وانقبَضَت.

ورأت رِصفة خوفَها. "أنت تعلمِين ما أعنيه، أليس كذلك؟ في وسعي أن ألمَحَ في عينيكِ أنَّكِ تفهمين. وأنتِ خائفة. إلَّا أنِّي أقولُ لكِ هذا: إنَّ محبَّة المسيح تطرُدُ الخوفَ، أُمُّ فرايجا. إن سمحتِ ليسوع بأن يفدِيَكِ، فلا حاجةَ بكِ لأنْ تخافي ثانيةً أبدًا".

قالت فرايجا: "ما جئتُ لأتكلَّم عن إلهِك". وقد أزعجَتها المشاعِرُ التي استولَت عليها، مُتسائلةً مرَّةً أُخرى بَعدُ عن أيِّ شيءٍ في اسم يسوعَ جعلها ترتجِفُ في داخلِها. فتشبَّثَت بقِلادة الكَهرمان لتَحميَ نفسَها، مُصلِّيةً ألَّا يَغشاها الرُّوحُ مُجدَّدًا.

وما كانَ قد غَشِيَها منذُ لَمَسَها ثيوفيلُس.

أحزَنَ رِصفة أن تراها خائفةً جدًّا. "إنَّ الرَّبَّ سوفَ يُحضِرُ إلى النُّورِ الأُمورَ المخبوءَة في الظَّلام، ويكشِفُ نيَّاتِ قلبِ الإنسان"، رجُلًا كان أم امرأة. وتساءلت هل أدَّت فرايجا دورًا في المأساة دونَ أن تدري، عالِمةً أنَّه لو كان لها دورٌ لَضايَقَ كِلتَيهما أن تعرِفا ذلك. "ليس في وسعي أن أضَعَ قدَمَي أتريتِس على السبيل المؤدِّي إلى القتل. ما كنتُ لأفعلَ ذلك. وإنْ هوَ سلَكَ ذلك السبيل، يَسلكُه بمحضِ إرادته، لا بمُساعدتي".

فقالَت فرايجا بكلِّ إخلاص: ”أنا آسِفة لمقتل صديقكِ. إنَّه لم يكُن مثلَ باقي الرُّومان“. وإذ رأت عينَي رِصفة تغرورِقانِ من جديد، تمنَّت لو أنَّها لم تتكلَّم. ”لم يكُن قصدي أن أُوجِعَكِ أكثر، رِصفة، بل أن أرى إن كان في وسعي أن أُجرِيَ المُصالَحة“.

فتلألأت عَينا رِصفة محبَّةً، وقالت برِقَّة: ”طُوبى للرُّحماء، فإنَّهُم سيُرحَمون“.

وإذ كظَمَت فرايجا الصَّرخة الخفيفةَ التي نبعت داخلها، استدارت ومضَت مُسرِعةً.

فنادَت رِصفة وراءها: ”قولي لأتريتِس إنِّي أُحِبُّه، أُمُّ فرايجا. قولي له إنِّي سأفعَلَ ذلك دائمًا“.

توقَّفَت فرايجا والتفتَت إلى الوراء. وفيما الدُّموعُ جاريةٌ على خدَّي رِصفة، تقَرفصَت من جديد وشدَّت لتقتلِعَ بعضَ الأعشابِ القصيرة عندَ قاعدةِ ساقِ ذُرَةٍ صغير.

”سأقولُ له“.

ولكنْ لمَّا قالت له، أبى أن يُصغي. ”حتَّى أُمِّي تخونُني!“

ثُمَّ أخذ مُتعلَّقاتهِ وانتقل إلى بيتِ رود الطَّويل ليُقيمَ مع المحارِبين الذين كانوا بِلا زوجات.

٥١

اغتاظَت أنوميا من مِقدار الاهتمام المبذول تُجاهَ الإيونيَّة، ولكنَّها ستَرَت مشاعِرَها. وقد دعَتِ المجلِسَ السِّرِّيَّ مرَّتين بعدَ مَصرعِ الرُّومانيِّ، وكلَّ مرَّة حضَرَ عدَدٌ أقلُّ. أمَّا رُلف فلم يظهَر في كِلتا المرَّتَين. ولمَّا سألت أينَ كان، تضاحَكَ الرِّجالُ بشأنِ شهوةِ شابٍّ، إلَّا أنَّ أنوميا أحسَّت أنَّ الأمرَ انطوى على أكثرَ من ذلك.

كان ينبغي لِرُلف أن يأتيَ لرؤيتها. فقد رأته في القرية بِضعَ مرَّات منذُ ليلةِ وقوعِ القُرعة عليه وإعطائه الخَنجر. ولكنَّه تجنَّبَها دائمًا. فإذا لم يأتِ إليها عاجلًا، فستُضطرُّ إلى طلَبه. وقد ثارت الكِبرياء على تلك الفكرة، غير أنَّ أنوميا كانت تحتاج إلى الخَنجر. لقد كان واجبًا أن يُعادَ إلى الشَّجرة المُقدَّسة ليُحفَظَ مع باقي رموز الإيمان بطِيواز. وكان ينبغي أن يُوضعَ هناك قبلَ طُلوعِ الهِلال.

فكَّرَت في تهديده بفضحه، ولكنَّها علِمَت أنَّها لا تستطيعُ ذلك. فكما منَعَ عهدُ السرِّيَّةِ والدَّم الرِّجالَ أن يُفصِحوا عن هُوِيَّة قاتلِ الرُّومانيِّ، ألزَمَها هي أيضًا. وإذا فضحَته، تخسَرُ ثِقةَ الآخرين.

أرادت أن يكونَ الخَنجرُ في يدَيها من جديد.

ثُمَّ صرفَت أفكارها عن ذلك مُحبَطةً. فلم يكُنِ الأمرُ مُهمًّا حقًّا. إذ باتَتِ الآنَ المسألةُ مسألةَ وقتٍ قبلَ أن توضَعَ الأُمورُ كلُّها في نِصابِها وتنالَ كلَّ ما استحقَّته. حتَّى لو كشفَتِ المرأةُ أمرَ رُلف الآن، شكَّت أنوميا في أنَّ أتريتِس سيُسامِحُها. لقد كان شطِّيًّا حقيقيًّا. فلم يكُن من طَبعِه أن يُسامِح. وابتسَمَت.

لقد فازت فعلًا. يا ليتهم كُلَّهم يعلمون فحسْب. إنَّ الحربَ كادت تنتهي. وعاجلًا سيعلمون ذلك. كلُّهم. بِضعةَ تلميحاتٍ مدروسة، فيأخُذَ أتريتِس بثأرِه. سيموتُ رُلف عِقابًا على ارتِداده. وحينَ يقتلُه أتريتِس، فإنَّ السَّيطرةَ المُرتخيةَ التي كانت للإيونيَّة وإلهِها الضعيف عليه لا بُدَّ أن تُنقَض. إذ ذاك يسودُ طِيواز من جديد مَلِكًا أعلى في حياته. وسيكونُ زعيمَهم المُحارِبَ. ولن يؤتى البتَّة على أيِّ ذِكرٍ لاحتياجِ الشَّطِّي إلى مُخلِّص أو لانحِنائهم أمامَ إلهٍ آخر. وهي ستُعنى بالأمر.

ضحِكَت أنوميا بابتهاجِ دَنِس، مُنتَشية بمَرَحٍ صاخِب لعِلمها بأنَّها هي، وإيَّاها وحدَها،

قد أنجزَت المهمَّة التي جعَلَها طِيوازُ أمامَها. إذ يكونُ الرومانيُّ قد مات، والإيونيَّة قد طُرِدَت.

فماذا بَعدُ أمكنَ أن يطلُبَ طِيوازُ منها؟

عاجلًا ستَحوزُ السُّلطةَ التي تاقت إلَيها ومعَها الرَّجُلَ الذي أرادَته...أتريتِس!

أيقَظَ رِصفة قَرعٌ في الساعات السابقة للفَجر.

وجاء هَمسٌ أجَشُّ: "يا امرأة، تركتُ شيئًا لكِ. الأفضَلُ أن تأخذيه قبل أن تأخُذَه الحيوانات". ثُمَّ سمِعَت وَقْعَ خُطًى راكضة.

نهضَت ناعِسةً، وفتحَت الباب وخرجَت لِتَرى مَن جاء، ولكنَّهُم كانوا قد رحلوا. كان خُبزٌ وجُبنٌ وزِقُّ نبيذٍ مُحلًّى بالعَسَل وأرنبٌ مذبوحٌ قد تُرِكَت لها على حصيرةِ قشٍّ محبوكة. فشكَرَتِ الله على الطَّعام وعلى القَلبِ الذي حرَّكَه لإعطائها ذلك.

لقد سبَقَ أن قالَ لها ثيوفيلُس: **اثنان، على الأقلِّ. وربَّما أكثر.**

هل كانوا يُصَلُّونَ لأجلها؟ وصلَّت لأجلهم طَوالَ الصَّباح إذ أوقدَت نارًا وشَوَتِ الأرنب. **كائنينَ مَن كانوا، يا ربّ، احرسْهُم واحمِهم. دع إيمانَهم يَعمُق.** لم تكُن قد أدركَت كم كانت جائعة. كانت قدِ اقتاتت بالفاصوليا الخضراء والقَرع، ولكنَّ هذه كانت وليمةً من السَّماء.

ولَمَّا كانت تحتاجُ إلى اغتِسال، توجَّهَت إلى الجَدولَ الصغير القريب. وقصَدَتِ المكانَ الذي كانت تأخذ إليه كالِب للاستِحمام. وإذ خوَّضَت في الماء، بكاملِ ثيابِها، تركَتِ الدُّموعَ تُوافيها وهي تستحمُّ. كانت مارتا تُعامِلُ كالب مُعاملةً جيِّدة، وكان هو يحبُّ لويزا. فقد كان في أمان. فتعزَّت إذ علِمَت ذلك، مع أنَّها ما كانت قطُّ لتَكُفَّ عنِ الاشتياقِ إليه. لقد كان جُزءًا منها، كما كان أتريتِس تمامًا، فكانَ الانفِصالُ مؤلِمًا كم لو أنَّ لحمًا سُلِخَ عنها.

مَن سيُعلِّمُ ابني عنك، يا ربّ؟ إن لم يرجِع أتريتِس إليك، فمن سيُعلِّمُ كالِب الحقَّ؟ هل يتربَّى كما تربَّى أتريتِس، مُدرَّبًا ليكون مُحارِبًا، مُتَلمِذًا في الضَّغائنِ بين الجيرانِ وبني قومِه؟ هل يكونُ مِثلَ رُلف أو قارُس أو رود ومئةٍ آخرين؟ يا ربّ، رجاءً، كُن معه. اجعَلْه رجُلًا بحسَب قلبِك. رجاءً، يا ربّ.

لَمَّا خرَجَت من الجَدوَل، عصَرَت الماءَ من شعرها وأرخَت طيَّاتِ ثوبها. وقد كان ذِهنُها مشغولًا جدًّا بالصَّلاة بحيثُ لم تسمَعِ الرَّجُلَ مُقتربًا ولا رأته واقفًا بينَ الأشجار. فلمَّا رأته، تراجعَت مُتعثِّرةً، وكانَ الخوفُ ردَّ فعلِها الأوَّل، ثمَّ تلاه الغضَبُ سريعًا.

"هل جئتَ لِتَقتُلَني، رُلف؟"

فلم ينبِس بكلمة، بل وقَفَ هُناك في الظِّلال، ساكتًا، ساكِنًا، إلَّا أنَّها رأت في وجهه ما لم تكُن أيَّةُ كلمات لتستطيعَ التعبيرَ عنه. وإذ حرَّكَها الحَنان العميق، تبدَّدَ الخوفُ والغضَب. فصعِدَت الضِّفَّةَ حتَّى وقفت على بُعدِ أقدامٍ قليلة عنه.

"في وسعك أن تتحدَّثَ إليَّ. أنا سأُصغي".

ارتجفَت حَنجرَتُه. وانتظرَت، فيما اغرورقَت عيناها لمَّا رأتِ المُعاناةَ في عينَيه.

"لقد خُدِعتُ. إنِّي..." وخفَضَ نظَرَه إلى الأرض، غيرَ قادرٍ أن ينظُرَ إلى داخلِ عينَيها. ورأت يديه تنطبِقان ثُمَّ تنفتِحان إلى جنبَيه. وما لبِثَ أن قالَ مُصحِّحًا: "إنِّي سمحتُ لنفسي بأن أُخدَع". ثُمَّ نظرَ إليها من جديد. "ما كان مِنه إلَّا أن وقَفَ هُناكَ وسمَحَ لي بأن أفعلَ فِعلتي. لقد قال..." وارتعشَ وجهه. "لقد قال..."

ولمَّا لم يستطِع أن يُكمِل، قالت رِصفة بهَمسٍ راعِش: "لقد قالَ إنَّه سامحَك". وقد رأت بِجَلاء كيف اخترقَت المحبَّةُ أسوارَه.

فشرَعَ رُلف يبكي. "هُوَ أنقَذَ حياتي، وأنا انتزعتُ حياته". لم يكُن قد أراد أن يستسلمَ للدُّموع غيرِ اللائقةِ بالرِّجال، إلَّا أنَّها وافَت، حارَّةً وغزيرة. ولم يستطع أن يكبحَها. وإذ تذكَّرَ وجه ثيوفيلُس لمَّا طعَنَه ثانيَ مرَّةٍ، خرَّ على رُكبتَيه، واضعًا رأسَه بينَ يديه، والبُكاءُ المُتقطِّع يهُدُّ جِسمَه.

طوَّقَته رِصفة بذراعَيها، ومسَّدَت شعرَه كما قد تُمسِّدُ شعرَ ولَدٍ مَوجوع، قائلةً: "أنا أُسامِحُكَ أيضًا. المسيحُ يُسامِحُك. اذهبْ بأحمالِكَ الثقيلة إلى الرَّبِّ، لأنَّه وديعٌ ومُتواضِعُ القلب، فتجِدَ راحةً لنفسِك. إنَّ نِيره خفيفٌ وسَهْل، يا رُلف، وهو سيُعطيكَ الراحة".

٥٢

استيقظَ أتريتِس فجأةً، مُتنفِّسًا بصعوبة وهو يُحدِّق إلى السَّقفِ ذي العوارِضَ فوقَه. وتباطأت دقَّاتُ قلبهِ إذ أدرك أنَّه كان مُستلقيًا على القشِّ في بيت العُزَّابِ الطَّويل، يُحيطُ به الشَّخيرُ المُزعِجُ من الآخرين المُضطجِعينَ مُتفرِّقينَ بقُربه، وقد طرحَتهم أيُّ ريحٍ هوًى هبَّت عليهم. إفراطٌ في شُربِ المِزر، وإفراطٌ في لذَّاتِ الحياة.

وَجِعَه جِسمُه ونبَضَ رأسُه من كَثرةِ الخمر. فقد شرِبَ البارِحةَ حتَّى لم يعُد يَقوى على الوقوف، ولكنْ ليس كفايةً لطَردِ الأحلام بعيدًا، ولا لِسَدِّ الفراغِ الذي أحسَّه.

فكَّرَ في رِصفة. كانَ ما يزالُ في وسعه أن يرى سِيماءَ وجهِها بعدَما ضرَبَها. ولم يستطِع أن ينسى أيضًا شيئًا آخر. فحاوَلَ أن يُبرِّرَ نفسه. لو قالَت له مَنِ الجاني، لكانَ كلُّ شيءٍ قد سُوِّيَ الآن. إذ يكونُ الثأرُ لموتِ ثيوفيلُس قد أُخِذَ وباتَ في وسعهما أن يُكمِلا حياتَهما على حالها.

ثارَ الرُّوحُ في داخله على هذا التفكير. فما كان ذلك ليؤتيَه السَّلام، مُعذِّبًا إيَّاه باستمرار. وحاولَ أن يكذِبَ على نفسِه، إلَّا أنَّ الحقَّ كان هُناك، في داخله.

"ارعَ الخِراف".

فتنهَّدَ وجلس، فارِكًا وجهَه. ازدادَ الصُّداعُ حِدَّةً، فيما تحرَّكَت معدتُه مُضطرِبةً. كان الحُلمُ ما يزال حيًّا نابضًا في ذِهنه، جليًّا كفايةً للإتيان بعواقِبَ بَدَنيَّة. وإذ وقف مُتقلقِلًا، لم يكَد يصِلُ إلى خارج البيت الطويل قبلَما تقيَّأ. ولمَّا انتهَت التشنُّجاتُ، أسنَدَ نفسَه مُتثاقِلًا إلى حائطِ المبنى، زامًّا عينَيه تحتَ أشعَّةِ شَمسِ العصر. أيَّ وقتٍ من النَّهار كان ذاك؟

وماذا يهمُّه؟ لم يكُن ذاهبًا إلى أيِّ مكان. ولم يكُن فاعلًا أيَّ شيء.

كان قد نسِيَ حقيقةَ العَيشِ بلا رجاء، بلا محبَّة.

كانت قوَّةُ جسمِه آخِذةً في الضَّعف. لقد بدا أنَّه يمضي كلَّ يوم نائحًا. وأحسَّ يدًا ثقيلةً عليه. وكانت حيويَّته تَنزحُ كما لو أنَّ حُمَّى الغيظ استنزفَت قوَّته. ولَم تمرَّ ليلةٌ واحدة ما حلَمَ فيها بالموت أو بالحياةِ مؤلِمةً جدًّا بحيثُ لم يُرِد أن يعيشها. وقد رأى وجوه الرِّجال الكثيرين الذين أزهقَ أرواحَهُم. فرأى باطُو مائتًا على يده هو. ورأى يغناكْس تُطارِده الكلابُ وتصرَعُه أرضًا وتُمزِّقُه إرْبًا إربًا. وكان أحيانًا يركض معه، مُرتاعًا ومُتوتِّرًا جدًّا، سامِعًا نباحَ الكِلاب وشاعِرًا بالأنياب النَّهَّاشة خلفَه.

ثُمَّ عاودَته أحلامُ جوليا مُلقيةً كالِب على الصُّخور، وضاحكةً لمَّا عجَزَ عن الوصولِ إليه قبلَ وصولِ الأمواج. وكانت تتلاشى دائمًا متى ركَضَ إلى قلب الموج المُتكسِّر، مُحاوِلًا بيأسٍ أن يعثُرَ على ابنه في المياه الباردة المُزبِدة. ومن ثَمَّ كان يرى كالِب- وهو بعيدٌ دائمًا عن مُتناول يده- مُدَوَّمًا وغائصًا تبتلِعُه التَّيَّاراتُ المُظلِمة.

وأسوأَ الكُلِّ، حلَمَ برِصفة واقفةً خارجَ البيت المُستطيل تبكي. "لماذا لم تفعل ما طلَبَه منك؟ لماذا لم تَرعَ الخراف؟" وأينَما نظر، وجد أُناسًا عَرَفَهُم مطروحينَ قتلى...في المُروج، تحتَ الأشجار، في البيوت المُستطيلة، على طُولِ شوارعِ القرية، وكأنَّهم صُرِعوا في أثناء قيامِهم بالمَهامِّ المألوفة وأُمور الحياةِ المُعتادة. رود، هُلت، أصيبي، مارتا، ڤارُس، أُمُّه، الأولاد، كلُّهم موتى!

"لماذا لم تَرعَ الخِراف؟" وتبكي رِصفة كما بكَت هذا الصَّباحَ قبلَما استيقظ. ثُمَّ توارَت هي أيضًا، وقد ابتلعَها الظَّلامُ المُطبِق، وتُرِكَ هو وحدَه، مواجِهًا رُعبًا لا يوصف.

أراد أتريتِس أن يُنفِّضَ عنه ذِكرى ذلك الحُلم.

"ارعَ الخِراف".

أنَّ أتريتِس بصوتٍ عالٍ، قائلًا: "لقد حاولتُ!" ورفَعَ نظره إلى السَّماء غاضبًا. "لقد حاولتُ، ولم يُصغِ أحَد!"

"أتُكلِّمُ نفسَك الآن، أتريتِس؟"

التفَتَ بحِدَّة لدى سماعه الصَّوتَ الرقيق، السَّاخِرَ قليلًا، فرأى أنوميا واقفةً عند زاوية البيت المُستطيل. وتبسَّمَت له بسمةً بطيئةً مُغرية، ثُمَّ تقدَّمت إلى الفُسحة. وفيما مَشَت نحوَه، لم يتمالك نفسَه عن مُلاحظة جسَدِها المُثير والرشيق. "ليلةُ شُربٍ طويلة؟"

"ماذا تفعلين هُنا؟"

"آه، صُداعٌ أيضًا". ودلَّت صُرَيرةً من جِلد. "لَديَّ هُنا شيءٌ سيجعلُكَ تشعرُ بالتَّحسُّن".

ساوَرَه الحَذَرُ حِيالَ النَّظرة البرَّاقة في عينَيها الزَّرقاوَين. واقتربَت أكثر، قُربًا كافيًا لجعله يشمُّ رائحة المِسك العَطِر الذي فرَكَت جِسمَها به. فثارَتِ الرَّغبة. ولمَّا رفَعَت نظرَها إلى داخل عينَيه، أحسَّ الجوعَ فيها، نهِمًا مُظلِمًا مُغريًا...واستجابَ جسَدُه.

"هل لي أن أجعلَك تشعُرُ بتَحسُّن؟"

انبسطَتِ التجرِبةُ أمامَه، صارِخةً بصخب. فكافَحَها. "من أينَ جئتِ؟" وألقى نظرةً

على الجِهَة التي جاءت منها. "هذا سبيلٌ غير مطروق تقريبًا".

لم تكَدَ عَينا أنوميا تترجرجان. كانت ما تزال مُتبسِّمةً، ولكنَّه أحسَّ غضَبَها بقوَّةٍ مماثِلة لإحساسِه هواها، فعرَفَ سبَبَ ذلك. "كنتُ أجمع أعشابًا من الغابة. كلَّ صباح، نحوَ هذا الوقت، أذهبُ بنفسي لأستكمِلَ مخزوني. وأحيانًا، أذهب في المساء أيضًا. اللَّيلةَ، مثلًا. سيَهلُّ الهِلالُ بعد بضعة أيَّام. هُنالك أشياءُ ينبغي أن أجمعها استعدادًا".

"صحيح؟" لقد علِقَت شرارةُ النار بقلبه، وإن كان عقلُه برَدَ بفهمٍ أعمق.

فقالت: "صحيح!" مُبتسِمةً من جديد ابتِسامةً فاتِرةً عابِثةً نقَرَت نِهاياتِ أعصابِه. وجعلَت صُرَيرةَ الجِلد تترجَّحُ ذهابًا وإيابًا على طرَفِ إصبعها. "أأمزُجُ قليلًا من هذا في شيءٍ من النبيذ؟"

"شرِبتُ ما يكفي من النبيذ".

"مِزرًا، إذًا، إذا كان يروقُك أكثر، أو ميدًا مُحلًّى بالعسَل".

أخَذَ رأسُه يطرُقُ طرقًا أشدَّ. لعلَّ قليلًا من النبيذ ينفع. فاستدارَ ودخَلَ البيتَ الطويلَ مُجدَّدًا. ولمَّا ملأ قرنًا ورجَعَ، كانت واقفةً في الظِّلال. فقالت: "كيفَ يَنطرِحُ الجبابرة!" وقد بدَت مُتسلِّيةً. ولم يدرِ أإليه كانت تنظر أم إلى الآخرين المَغشيِّ عليهم فوقَ القشِّ.

"إنَّنا نحتفل".

فضحِكَت ضِحكةً رقيقة. "تحتفلون بماذا؟"

"لا أتذكَّر. أذلِكَ يهمُّ؟" وأحضَرَ القرنَ إليها. فلمَّا مسَّت أصابِعُها أصابِعَه، جاشَ دَمُه. وفتحَتِ الصُّرَيرةَ بأسنانها، فوجدَ نفسَه مُحدِّقًا إلى فمها. ثُمَّ أضافت الأعشاب، وحرَّكَت السائلَ ببُطء، ورطَّبَت شفتَيها قبلَ أن تجرعَ رشفةً منه، ثُمَّ رفعَتِ القرنَ إليه مُتألِّقةَ العينَين.

"اشرَبْهُ كُلَّه، أتريتِس".

فشرِبَ، وحَملقتُهُ ما زالَت مُثبَّتةً عليها. وتجرَّعَ القرنَ كلَّه. ثُمَّ قال: "ليسَ رديئًا جدًّا!" ماسِحًا فمَهُ بقَفا يدِه.

"والآنَ، اقعُد".

فضاقَت عيناه. "لماذا؟"

"تبدو أشبهَ بصَبيٍّ يهوى القِتال. أأنتَ خائفٌ منِّي؟"

وضحِكَ ضِحكةً ساخِرة.

"إذًا، افعل ما أطلبُه منك. أنتَ تُريد أن تتخلَّص من الصُّداع، صحيح؟"

وقعَدَ على القَشِّ مُتربِّعًا. فانتقلَت إلى ورائه وبدأت تُمشِّدُ صُدغَيه.

"استرخِ، أتريتِس. لن أُوذيَك أبدًا". وكانت تضحك عليه. فأرغمَ نفسه على الاسترخاء، شاعِرًا بالسُّخفِ حيالَ تَردُّده. وسحَقَ مشاعِرَ الإنذار في داخله.

"هل ترى أحلامًا؟"

قال: "إنَّها لا تتوقَّف أبدًا". وقد أحسَّ تأثيراتِ ما وضعَته في المِزر، كائنًا ما كان، إذ بدأ الألَم يزول. ومشَّدَت شعرَه إلى الوراء، فكانت يداها كالسِّحر، قويَّتَين لكنْ رقيقتَين، عالِمَةً تمامًا أينَ تضغطُ وتفرُك. وأحسَّ أيضًا الحميميَّةَ غيرَ المُفصَحِ عنها إذِ استكشَفَت عَضَلاتِه.

سَمعَ القَشَّ يُخَشخِشُ وراءه، وأحسَّ نفَسَها الدافئَ على قفا رقَبَتِه. فسخَنَ جِسمُه.

"أيجعَلُك هذا تشعُرُ بحُسنِ الحال؟"

ففكَّر أنَّ ذلك أحسَنُ ممَّا ينبغي، ولكنَّه لم يستطع أن يَروضَ نفسَه على الانكفاء. كم من الوقت مرَّ منذُ أحسَّ حرارةَ شيءٍ آخر فضلًا عن الغضَب؟ ما حصَلَ مثلُ ذلك منذُ أن ضمَّ رِصفة بين ذِراعَيه في الليلة السابقة لمصرعِ ثيوفيلُس.

رِصفة!

تشبَّثَت يدا أنوميا بكتِفَيه. "في وسعي أن أجعلكَ تشعُرُ بتحسُّنٍ أكثر".

جعَلَ همسُها ذِهنَه يترنَّح. فابتلَعَ نفَسَه وأغمضَ عينَيه، مُكافحًا الشَّهوة التي ثارت في داخله. وكخَبطةٍ حادَّة، سمعَ بابَ زنزانةٍ يُغلَق، وإذا به في اللُّودُس من جديد. فتفوَّهَ بشتيمة، وانتخَعَ مُبتعدًا عنها، وهبَّ واقفًا.

قالت أنوميا: "ما خطبُك؟" وقد جفَّلَها انكِفاؤه. فابتعدَ عنها بِضعَ أقدام. وكانت قد شعرَت بشهوته برؤوس أصابعها. فماذا جرى لينقُضَ المِزاجَ؟ "قُل لي، أتريتِس".

"لا شيء!"

قالت: "هل فعلتُ شيئًا؟"

بادَلَها أتريتِس النَّظر، فبَدَت محضَ براءةٍ وارتباكٍ مُستاء. "لستُ أعلم. هل علِمتِ أنتِ؟" كان ما يزالُ يتنفَّسُ بصعوبة، وأمرَّ في شعرِه إلى الوراء يدًا مُرتجِفة. لقد قُتِلَ صديقُه الأفضل. وأُقصيَ عن زوجته. وباتَ ابنُه يتربَّى على يدِ أُخته. كان يعيش الحياةَ الجامحة التي تاقَ إليها في مطلعِ شبابه! وها قد عَبَثَ لِتوِّه بأفكارِ زِنًى. فضَحِكَ بِلا مَرَح. ماذا أمكنَ أن يكونَ الخَطب؟

وقالَ بمرارة: "ليسَ مِن خَطب". لا شيء ما عدا حقيقةَ كون حياتهِ قد باتت خرابًا بِخَراب.

ماذا جرى للسَّلام الذي سبَقَ أنِ اختبَرَه؟

اللهُمَّ، ليتَني أستطيع أن أرجِعَ إلى تلك الأسابيع القليلة التي أعقبَت معموديَّتي وزواجي برِصفة. ما كنتُ قطُّ أسعَدَ منِّي آنذاك. ولن أكون سعيدًا كذاك ثانيةً. هل كان ذلك كلُّه حُلْمًا، يا ربّ، فِردَوسًا عَرَضيًّا قبلَما برزَت الحقيقةُ الصادمة؟ أكُنتَ تُمازِحُني بمزحةٍ سمِجة؟ وهل أنت موجودٌ حقًّا؟

ودونَ استِدعاء، وافَتهُ أصواتٌ أُخرى.

"قالت لِي أن أقولَ لك إنَّها تحبُّك وستحبُّك دائمًا".

"أقطَعُ لك عهدًا صادقًا، أتريتِس. لن أكذِبَ أبدًا. حتَّى لو كلَّفَني ذلك حياتي".

رأت أنوميا عذابَه ورَجَت أن يكون الهوى الذي أثارَته فيه هو الذي سبَّبه. فقامت واقتربَت إليه. "ارجِع إلينا، أتريتِس".

"لقد رجَعتُ".

"ليس كما كنتَ قبلًا. آه، إنِّي أتذكَّرُك، مُفعمًا بالشَّغَفِ والحماسةِ والقوَّة. لقد كُنتَ مِثلَ إله. كان من شأنِ الجميع أن يتبعوك إلى الجحيم لو طلبتَ ذلك منهم".

فأغمضَ عينَيه. وصرَخَت نفسُه: يسوع!

واستطاعَ أن يرى وجه ثيوفيلُس ويسمعَ صوتَه. "ارعَ الخِراف".

فقالَ بخشونة: "اتركيني وحدي!"

وقالت أنوميا بعَطفٍ مُصطنَع: "أنتَ في عذاب!" مُفتخِرةً بذلك سرًّا. لقد جعله الأمرُ ضعيفًا ومُنكسِفًا. "في وسعي أن أرى كَرْبَك. إنِّي أُشارِكُك فيه. يمكنني أن أُساعِدَك. اسمَح لِي. في وسعك أن تعودَ الرَّجُلَ الذي كُنتَه في ما مضى، أتريتِس. أنا أعلَم أنَّ ذلك في وسعك. دَعني فلأدُلَّك على الطريق".

أنا هو الطريق.

استيقظَ أحَدُ الرِّجال من النوم. فتراجعَت أنوميا إلى الظِّلال، حيثُ لا تُرى. وأطبقَت أصابعَ يدَيها، نابِضةً بقِلَّة الصَّبر، حتَّى تهالَكَ الرَّجُلُ وعادَ يغطُّ في النَّوم بِتأوُّهٍ عالٍ.

حينَ باتَت قادرةً على الرُّجوع إلى جانب أتريتِس، كانَ مِزاجُه قد تغيَّر. وإذِ استغرَقَ فوقَ الحدِّ في حُلمِ يقَظَتِه، لم يُلقِ إلَيها بالًا. فوضعَت يدًا على ذراعه، وأحسَّت عضلاتِه مشدودةً.

وهمَسَت، لاعِنةً المكانَ والظَّرف: ”يجبُ أن أذهب. اخرُجْ خارجًا معي اللَّيلة، وسنتحدَّث“.

لم يسمعها، إذ كان مُستغرِقًا جدًّا في أفكاره عن رِصفة. وتاقَ تَوقًا مُوجِعًا إلى زوجته، كارِهًا في أثناءِ ذلك كلَّه سيطرتَها عليه بكُلِّ ذَرَّةٍ من إرادته.

قالت أنوميا: ”أنت تتصرَّف كما لو كُنتَ مسحورًا“. وقد أخذها الغضَبُ وغمَرَتها الغَيرة حِيالَ كونه لامُباليًا بتاتًا.

فقال بتجهُّم: ”لَعلِّي مسحور. لَعلِّي!“

٥٣

أمضى أتريتِس يومَه مُتدبِّرًا ومُعزِّزًا شكاواه على زوجته. لقدِ اختارت أن تعترِضَ في سبيل العدالة، صحيح؟ لقد اختارت أن تعيشَ من دونه. فلماذا ينبغي له أن يسمح للمرأة بأن تُكدِّرَ كلَّ فكرٍ من أفكارِ يقَظَتِه؟ وكوى ضميرَهُ المُتقَّد بالأعذار.

وإذ زاده الشَّرابُ بَلادةً، ترَكَ خيالَه يتيه. ثُمَّ جاءت أنوميا لتُكلِّمَ واحدًا من الرِّجال، ولمَّا نظرَت إليه، برَقَ إغراءٌ مُتَّقِد في عينَيها الزرقاوَين الباهِتَتين. وحينَما انصرَفَت، تذكَّرَ نِساءً أُخَرَ أُحضِرنَ إليه. أراد من قبلُ أن يكون ذهنُه ممسوحًا نظيفًا من ماضيه حتَّى لا يُدنِّسنَ سريرَ زواجِه. أمَّا الآن فنبَشَ الذِّكريات، عائشًا إيَّاها من جديد، آمِلًا أن تطرُدَ لذَّاتُ الماضي ألَمَ الحاضر بعيدًا. إلَّا أنَّه بالأحرى هوى إلى يأسٍ أعمَقَ وأكثرَ إرباكًا.

لم ينفَعهُ الرِّجالُ المُحيطون به. فبعدَ أشهُرِ الشِّتاء الطويلة الخاملة، تاقوا إلى الحرَكة توقًا شديدًا. ولكنْ قبلَ إعلانِ حَربٍ، كان لديهم قليلٌ يفعلونه ما عدا الشُّربَ والتحدُّث بشأن المعارك التي انتصروا فيها. لم يتحدَّث أحدٌ بشأن الخسائر. وقد حَكَوا نوادِرَ داعرة، وكلٌّ منهم يُحاوِلُ أن يتفوَّقَ على الآخر. فكانَ الضَّحِكُ مُزعِجًا جدًّا. وانفجَرَت مُجادلاتٌ حولَ مسائلَ تافِهةٍ في مُقاتَلاتٍ بين مُحارِبينَ أصغرَ سنًّا توَّاقينَ إلى إثباتِ رجولتهم.

لم ينضمَّ أتريتِس إليهم، بل قعَدَ في زاوية بعيدة، وفي سيمائه ما يكفي لإنذار الآخرين بوجوبِ الابتعاد. وقد شرِبَ لِغايةٍ: أن يُغرِقَ ألَمَه. إلَّا أنَّه أخفق.

ارتفعَت الجَلَبة، إذ تجادَلَ بعضُ الرِّجال بشأنِ لُعبةِ نَرْد. وكان رأس أتريتِس يدورُ من المِزر. فقامَ وتوجَّه إلى الباب الخلفيِّ، مُريدًا أن يكونَ وحدَه.

ألقى ضَوءُ القمَرِ الشاحِبُ ألَقًا غريبًا فيما مشى أتريتِس مُضطرِبًا إلى داخلِ الغابة. لم يَدرِ أينَ كان ذاهبًا. ولم يهمَّه ذلك. ثُمَّ سمِعَ صوتًا رقيقًا يدعوه، فوثَبَ قلبُه، وهمَسَ: "رِصفة؟" ناظِرًا حوالَيه.

ولكنْ كانت تلك أنوميا في الظِّلالِ المُعتِمة.

فذهَبَ إليها مكروبًا بلا تفكير. فأمسكَت يدَه وجذبَته أكثرَ إلى قلبِ الظُّلمة. وما لبِثَت أن صارت بين ذِراعَيه، قائلةً: "علمتُ أنَّك ستأتي". وقد كانت ضاريةً، فخَضَّته قوَّةُ شَغَفِها. "علمتُ أنَّك ستأتي". وكان صوتُها محمومًا بالرَّغبة، فتذكَّرَ وقتًا آخر وامرأةً أُخرى. وقد

حزَّتِ الذِّكرى في ذهنه، فاتِحةً جِراحًا قديمة.

جوليا! لقد كانت أنوميا على غِرارِ جوليا، مُضطرِمةً بالشَّهوة.

فقال آنًّا: "ماذا تفعلين هُنا؟" وقد كان بليدًا من المِزر الذي شرِبَه.

"أنتَ أردتَني أن أكونَ هُنا. عرَفتُ ذلك لمَّا نظرتُ داخِلَ عينَيكَ اللَّيلة".

"خرجتُ كي أُفكِّر".

"لا، لم تفعل ذلك". وهجمَت عليه، غارزةً أظفارَها في جسمه. "جئتَ كي تكونَ معي. أنتَ تُريدُني بمقدار ما أُريدُك أنا". وقد كان صوتُها كهريرِ حيوانٍ في تجويفِ حَنجرَتِها. "أرى ذلك في عينيك كُلَّما نظرتُ إليك. إنَّكَ تتحرَّق بذلك كما أتحرَّقُ أنا".

ثُمَّ تحرَّكَ جسَدُها، وتحرَّكت يداها. فلم يستطع أن يتنفَّس. "إيَّاكِ!"

"لماذا تصدُّني؟ أنتَ تُريدُ هذا. لَطالَما أردتَني مُنذُ البداية". وأتلعَت رأسها إلى الوراء، راغِبةً أن يضغطَ بفمه على حنيةِ عُنقِها، "هيَّا، أتريتِس. افعلْ ما تُريد".

"قالت رِصفة أن أقولَ لك إنَّها تحبُّك وستحبُّك دائمًا".

نظرَ أتريتِس إلى أنوميا من عَلُ، وأحسَّ في وجهه أنفاسَ الجحيم الحارَّة. لقد كانَت حَنجرَتُها قبرًا مفتوحًا. فدفعَها بعيدًا عنه وتراجَعَ مُترنِّحًا. "لا". وقد كافَحَ الغمامةَ التي أحدَثَها الشَّرابُ في رأسه. "لا".

اقتربتَ أنوميا إليه، وشعرُها المُتهدِّلُ يتطايَرُ مع ريح الليل الباردة. فأحسَّ خُصلةً منه كخيوطِ بيتِ عنكبوتٍ تُغَشِّي عينَيه. وقالت مُتنفِّسةً: "أنتَ تُريدُني". وقد بسَطَت يدَيها على صدره. "في وسعي أن أُحِسَّ قلبَكَ طارقًا".

فقال بصَوتٍ خَشِن: "أنتِ مِثلُ جوليا".

"جوليا؟ مَن جوليا؟" وانزلقَت يداها مُبتعِدتَين، وقد ضاقت عيناها.

تراجَعَ أتريتِس عنها، دائخًا من المِزر.

وقالَ بِلا تفكير: "أُمُّ كالِب". وقد ضاعفَ هواءُ الليلِ البارِدُ حِدَّةَ مفاعيل المِزرَ.

أُمُّ كالب؟ تلألأتْ عينا أنوميا. ثُمَّ اقتربَت أكثر.

ترنَّحَ قليلًا، ضاحِكًا ضِحكةً مُرَّة. "جوليا، جوليا الجميلة الداعرة. جاءت إليَّ في معبد ديانا، مُرتديةً ثِيابَ بَغِيٍّ، وعلى كاحِلَيها جَلاجِل. كانت جميلة، مثلَكِ، وفاسِدةً كلَحمٍ مُتحلِّل".

فاسدة كلَحمٍ مُتحلِّل؟ غمَرَ الغضَبُ كِيانَها، باردًا وحذِرًا. "أنا أُحِبُّكَ. لَطالَما أحبَبتُك منذُ أستطيعُ التَّذكُّر".

فقال: "الحبُّ؟ ماذا تعرِفينَ من الحُبِّ؟"

ارتجفَت، وقد بلَّلَت عينَيها دموعٌ ساخِنة، دموعُ غضَبٍ شديد. "أعرِفُ حقيقةَ التَّوقِ القويِّ إلى شخصٍ ما وهو غيرُ مُبالٍ بك". كيف يجرؤ على معاملتها بهذه الطريقة؟ لقد كانت كاهِنةً عُليا، أكثرَ نُفوذًا من أُمِّه، وأكثرَ نفوذًا من غُندرِد. وكان نِصفُ رِجال القرية مُغرَمين بها! فكان من شأنِ بعضهم أن يبذلوا أرواحَهم ليذوقوا ما كانت تعرِضُه عليه!

رأى أتريتِس دموعَها وندِمَ على كلماتِه الفظَّة. لعلَّها أحبَّته فِعلًا. لقد أعماهُ الغُرورُ عنِ القلبِ الماكِرِ الكامن وراءَ مظهرِ البراءة الكاذب.

لقد عرَفَت أنوميا ذلك. لقد كان أتريتِس بالغَ الكبرياء، مُمتلئًا جدًّا من ذاته. فوضعَت يدَها على ذِراعه، وشعرُها يطفو مع النَّسيم، فيما تشابكَت خُصَلٌ منه حوله. "لقد أرادني رِجالٌ آخرون".

قالَ بصوتٍ أجشَّ: "لا شكَّ لديَّ".

"لقد صُنتُ نفسي لأجلك. أنا عذراء. ما مسَّني قطُّ رجُلٌ آخَر. لقدِ انتظرتُك".

نظَرَ إليها مشدوهًا. ما خطَرَ في بالِه قطُّ أنَّ عذراء يمكن أن تحوزَ ذِهنَ زانية.

استجابَ جسَدُه. عرَفَ ما كانت تعرِضُه، وهزَّته التَّجربة. فقال "لا!" قبلَ أن يُتاحَ له تغييرُ رأيِه.

"لِمَ لا؟"

"لأنِّي سلكتُ هذا السَّبيلَ من قبل، ولن أسلُكَه ثانيةً". سيحلُّ به الخرابُ إذا فعَلَ ذلك. وقد عرَفَ ما يعنيه أن يكون مُقيَّدًا بامرأةٍ من أجلِ الشَّهوة.

اقتربَت منه جدًّا حتَّى مسَّ جسَدُها جسَدَه. "في وسعي أن أُحِسَّ كم تريدُني". وقد كانت لمسَتُها كالنَّار. "الإيونيَّة لا تُحِبُّك كما أُحِبُّك أنا". وزلَّقَت يديها صعودًا، مُستسيغةً شعورَها بالسُّلطة لمَّا أحسَّت قلبَه يطرقُ تحتَ كفَّيها. "لو كانت تحبُّك، لجاءت إليك قبلَ أسابيع، مُتوسِّلةً أن تردَّها".

انكمَشَ أتريتِس نُفورًا من تلك الفِكرة.

مسَّته أنوميا مسًّا رقيقًا من جديد، وسمِعَته يبتلعُ نفَسَه. "لَطالَما انتظرتُك. لن أُوذيَك

أبدًا كما أذنتك هي. هذه المرَّةَ فقط، أتريتِس". مرَّةً واحدة فلا يتمكَّنَ أبدًا من أن يقولَ لا ثانيةً. "مرَّةً واحدةً فقط. لا داعيَ لأنْ يعلَمَ أحد".

لا بُدَّ أن يعلَمَ العليمُ!

أمسَكَ أتريتِس بمِعصمَيها وأبعَدَ عنه يدَيها. "هي زوجتي، أنوميا، وأنتِ تعرفينَ الشَّرع".

ومضَت عيناها، ثمَّ برَدَتا من جديد. "لكَ زوجةٌ لا تُريدُك. لك زوجةٌ غريبة ولا تنتمي إلى هُنا. لقد بِتَّ تُدرِكُ هذا، وإلَّا فما كُنتَ هَجَرتَها".

تراجَعَ إلى الوراء، مُبتغيًا مسافةً بينَهُما، مُحتاجًا إليها ليتمكَّن من التفكير بجَلاء. هَجَرتَها. ضرَبَته الكَلِمةُ ضربةَ سَهْم، طاعِنةً إيَّاه بالذَّنْب. وبأنَّةٍ، مشى باضطِراب مُبتعِدًا عن أنوميا.

اجتاحَ الغيظُ الباردُ أوصالَ الكاهنة، وقد غشِيَها كأمواج مَدٍّ مُندفعة، وفي تكسُّرِ الأمواج غَيرةٌ. وشاهدَته يتعثَّر فانتظرَت أن يسقط. حتَّى إذا سقط، اقتربت إليه خِلسةً وجثَت بجانبه.

وإذ أرجعَت شعرَها عن وجهه، تمتمَت: "قلتَ إنَّ امرأةً اسمُها جوليا أنجبَتِ ابنَك".

"أمرَت بأن يُلقى على الصُّخور ليموت". وضحِكَ ضِحكةً مُرَّة. "النِّساءُ الرُّومانيَّات يفعلنَ ذلك. يرمينَ أولادَهُنَّ بعيدًا عندما لا يُردِنَهم. ولو لم تأخُذه رِصفة، لمات".

فقرصَته بقوَّة في جنبه، مُتمتِمةً: "لا تغِب عنِ الوعي الآن، أتريتِس. هل أخذَتِ ابنك؟ دونَ عِلمِك؟"

"أحضرَتهُ إليها فتاةٌ عَبدة". وفكَّر في هَدسَّة واقفةً تحتَ ضوء المشعل في رِواقِ السِّجن، رائقةَ الوجه. "لئن قتلَني، فإنِّي سأتوكَّلُ عليه". وتذكَّرَ كيف وقفَت قبلًا في مدخل الكهف الذي عاشَ فيه بعدَما خانَته جوليا. "السماواتُ تُحدِّثُ بمجد الله، والفلَكُ يُخبرُ بعمل يدَيه". هكذا قالت مُسَرِّحةً نظَرَها في سماء اللَّيل. وكانَ من شفَتَي هَدسَّة أنَّه سمعَ إنجيلَ يسوعَ المسيح أوَّلًا، وفيها أنَّه رأى أوَّلًا السَّلامَ الذي يستطيع الله أن يأتي به إلى حياةِ إنسانٍ ما.

كان في وسعه أن يرى النُّجوم الآن، رافِعًا نظرَه عبْرَ أغصان الشَّجرة التي قعَدَ تحتها. أيُّ شيءٍ يأبى أن يبذِلَه ليشعُرَ بذلك السَّلام مجدَّدًا؟

اغفِروا لأعدائكم.

المسيحُ غفَرَ.

وثيوفيلُس غفَرَ.

رأته أنوميا يُكشِّرُ كما لو كان يتألَّم. وأنَّ مُدلِّيًا رأسَه إلى الوراء وإلى الأمام. ثُمَّ انطلقَ

منه الصَّوتُ الرقيقُ الغادِرُ الذي بدا أنَّه كان يشقُّ طريقَهُ داخِلَ رأسه: "رِصفة...أنا أُحِبُّها".

"ليس ذلك. هل أحضرَت هيَ الطِّفلَ إليك؟"

لِكَونهِ مُضطرِبًا وسكرانًا، لم يُفكِّر. "لا. كان عليَّ أن أبحثَ عنها. كلُّ ما علِمتُه أنَّه كان في حوزةِ أرملة".

"أرملة؟"

"فقدَت طِفلَتَها". وفرَكَ أتريتس وجهَه. مُحاوِلًا أن يُصَفِّيَ رأسه. "أخذتُ كالِب منها، ولكنَّه أبى أن يرتضِعَ من أيَّةِ امرأةٍ أُخرى".

"مسحور!"

فقال بوَهَن: "كما أنا مسحور. لقد سحَرَتني من أوَّلِ لحظةٍ فيها وقعَت عيناياَ عليها. لا أستطيعُ الكفَّ عن التفكير فيها. لا أستطيع الكفَّ".

كانَ كلُّ ما أرادَ فعْلَه هو أن يغرَقَ في خَواء النَّوم الخالي من الأحلام. وإذ أغمضَ عينَيه، كانَ له ما أراده.

التوى فمُ أنوميا. لقد كان أشدَّ سُكرًا من أن يُدرِكَ القُدرةَ التي وضعها توًّا في يدَيها. فانحنَت مُقتربةً إليه، ودغدغَت عُنقَه بأنفها، ثمَّ همسَت في أُذنه. "ولكنَّك ستستطيع. ما عليك إلَّا الانتظارُ حتَّى تُدرِكَ..."

جذبَت رأسَه إلى الوراء. كان المِزرُ الذي شرِبَه قد أفقدَه الوعيَ. فمسَّت وجهَه، مُتعجِّبةً من مدى جمالِه البالغ، شاعِرةً بالمرارة والخيبة في رغبتها، توَّاقةً إلى انتقامها لتَلقِّيها الازدراء. إذا لم تستطع أن تحوزَه، فلن تتمكَّنَ الإيونيَّة من ذلك يقينًا.

"أمرٌ يدعو إلى الرِّثاء أنَّك لم تُردني". وطبَعَت قُبلةً قاسية على فمه غيرِ المُتجاوِب. "سوفَ يكونُ لك كثيرٌ جدًّا تندمُ عليه".

وتركَته نائمًا في الغابة.

الحَصاد

"وسقَطَ [بَذرٌ] آخَرُ في الأرض الجيِّدة، فأعطى ثمرًا يصعد وينمو، فأتى واحدٌ بثلاثين، وآخَر بستِّين، وآخَر بمئة".

٥٤

استيقظَ أتريتِس على شخصٍ يُناديه باسمه. فظنَّ أنَّه تصوَّرَ ذلك. وجلَس، فأدركَ أنَّه كانَ في الغابة. وكانَ تُنكُه مُبلَّلًا بندى اللَّيل، وما زالت النُّجومُ على صفحةِ الفضاء المُعتم. ماذا كان فاعلًا هُنا في العَراء؟

تذكَّرَ مُغادرتَه البيتَ المُستطيل، راغبًا في الفِرارِ من الضَّجيج، مُحتاجًا إلى هدوءٍ كي يُفكِّر. وتذكَّرَ أنوميا بغُموض. فأحسَّ أنَّه غيرُ نظيف، ونهَشَه القَلَقُ الأكَّال.

"أتريتِس!"

لم يشعر بميلٍ إلى التكُّلم مع أحَد، ولكنَّ الصَّوتَ كان مِلحاحًا، فأنهضَ نفسَه.

"أتريتِس! أينَ أنت؟"

فقالَ مُكشِّرًا: "ها هُنا".

وظهَرَ هَرِغاسْت. كان مبهورَ النَّفَسِ من الرَّكض. "يجب أن تأتيَ معي. غُندرِد والشَّيءُ أمَرا بإحضار زوجتك من البيتِ المُستطيل".

هزَّت أتريتِس نوبةُ غَثَيان، قائلًا: "عمَّ تتكلَّم؟ إلى أينَ أخذوها؟"

"إلى البُستان المقدَّس للمُحاكَمة. قالت أنوميا إنَّها عاشرَت رجالًا آخَرين".

غادرَتِ الغَمامةُ ذهنَ أتريتِس واشرأبَّ برأسِه. كان قد حذَّرَ رِصفة من التكلُّم بتاتًا عن ماضيها، لأنَّه عرَفَ كُلفةَ أن يصيرَ ذلك معلومًا. "ماذا قُلتَ؟"

"قالت أنوميا إنَّكَ أنت أخبرتها بأنَّ زوجتك عاشرَت رِجالًا آخرين قبلَك".

فسَبَّ بصوتٍ مُنخفِض وحاول أن يقوم. وإذ جلسَ ثانيةً بصعوبة برَدَ دَمُه. "جوليا!" لقد تذكَّرَ أنَّه ثَرثَرَ بمرارةٍ عن جوليا!

أمسَكَ هَرِغاسْت بمُقدَّم تُنكِ أتريتِس وهزَّه، قائلًا: "أأنتَ مُصغٍ إليَّ؟ إنَّهم سيقتلونَها، إلَّا إذا قُلتَ لهم إنَّ أنوميا تكذِب!"

"لن أكذِبَ أبدًا". انتابَته كلماتُ رِصفة هذه مرَّةً أُخرى. وعلِمَ أنَّها ستقولُ الحقَّ، حتَّى لو خسِرتَ حياتها لِقاء ذلك.

قال هامِسًا: ”يا الله، يا يسوع، ماذا فعلتُ؟“ ثُمَّ تحرَّرَ من هَرِغاسْت نَترًا وأخذَ يركض. وإذ فعَلَ ذلك، حاولَ أن يتذكَّرَ ما قد قاله، ومِقدارَ ما أخبَرَ أنوميا به ممَّا يُمكِن أن يُستخدمَ ضِدَّ رِصفة. ما يكفي لإعدامها.

لمَّا وصلَ إلى الاجتماع، شقَّ طريقَه عَنوةً للوصول إلى الدائرة الداخليَّة. كانت رِصفة واقفة في الوسط مُكبَّلةَ اليدَين. فقال لها: ”لا تقولي أيَّ شيء! لا تُجاوِبي عن أيٍّ واحِد من أسئلتهم!“

تقدَّمت أنوميا إلى الأمام بسُرعة، مُشيرةً إليه. ”أبقوهُ بعيدًا عنها! لقد ألقَتْ عليه رُقيةً، وفي وسعها أن تجعلَه يقولُ أيَّ شيء!“

فأُلقِيَت عليه الأيادي.

”أفلِتوني!“ وكافَحَ إذ جرُّوه إلى الوراء. ”لستِ مُضطرَّةً إلى ردِّ اتِّهاماتِهم، رِصفة! لا تقولي أيَّ شيء!“ وانتشبَ الألَمُ في قلبهِ حِيالَ نِظرةِ الحُزن في عينَيها. لقد خانَها. من شفَتَيه، تفوَّهَ بالكلام الذي سيُستعملُ ضدَّها.

صاحت أنوميا مُخاطِبةً الحَشْد: ”أخبرَني أتريتِس نفسُه بأنَّها سحرَته!“ وقد تلألأت عيناها إذ حدَّقت إليه.

”أنتِ هي السَّاحرة!“

استساغَتِ الكَرْبَ والغيظَ اللَّذَين رأتهُما في وجه أتريتِس، مُبتهِجةً جدًّا علانيةً. فليتألَّمْ من أجلِ لامُبالاتهِ تُجاهَها. ”قال إنَّ الولَدَ أيضًا ليس لها“.

”رِصفة هي أُمُّه!“

”قُلتَ لي بنفسِك إنَّ اسمَ الأُمِّ كان جوليا! قُلتَ لي إنَّ هذه المرأة أخَذَتِ ابنَك...“

”لا تُصغوا إليها!“ وقاومَ أتريتِس أُولئك المُمسِكين به، فيما ساعدَهُم آخَرون، مُرغِمينَ إيَّاه أن يجثُو على رُكبتَيه.

”وقلتَ أيضًا إنَّها ألقَت رُقيةً على الولَد حتَّى لا يرضَع الحليبَ من أيَّة امرأةٍ سواها“.

نظرَت رِصفة إليه، فوَدَّ لو يموت.

قالَ رُلف: ”هيَ كلِمَةُ أتريتِس ضدَّ كلمتكِ“. وقد أذهَلَ كلَّ مُحارِب حاضِر لمَّا دخَلَ الدائرة.

صرَخَت أنوميا عليه، مُتأجِّجةَ العينَين: ”خائن! أتجرؤ أنت على استِجوابي، أنا كاهِنَة طِيواز العليا؟“

فقال: "أجرؤ! بل أجرؤ على المزيدِ بعد!" وأشارَ إلَيها مُخاطِبًا الآخرين بصوتٍ عالٍ. "أنوميا هي التي أرسلتني كي أقتُلَ الرُّومانيَّ! لها قلبٌ ميَّالٌ إلى القتل. لا تُصغوا إلَيها!"

أطلَقَ أتريتِس صرخةً عالية وحاوَلَ أن يُكافِحَ مُتحرِّرًا من الرِّجال المُمسِكين به. "ما أنا أرسلتُك! طِيواز أرسلك". وأحسَّت نظرةَ غُندرِد فالتفتَت إليه. "أُلقِيَت القُرعةُ فوقَ القُماشةِ البيضاء، ووقَعَ الشَّرَفُ على رُلف. لقد كان الرُّومانيُّ مُضِلًّا!" وجعَلَه خوفُه مِنها يُذعِن، مُتغاضيًا عن ذلك التَّهديد اليسير.

فصاحَ رُلف بمَسمعٍ من الجميع: "لقد عفَّ الرُّومانيُّ عن قتلي!"

وقالت أنوميا بازدراءٍ: "لكي يخدَعَنا فنُصدِّقَ أنَّه جاء مُسالِمًا! لقد جاء لِيُضعِفَنا، لِيَجعلَنا نؤمنُ بإلهِه الذي قالَ أن ننسَى التَّعدِّيات المُرتكَبة بحقِّنا! أينبغي لنا أن ننسى ما فعلَته روما بنا؟ أينبغي لنا أن ننسى أُولئك الذين ماتوا، وأُولئك الذين أُخِذُوا عبيدًا، وأُولئك الذين تُرِكوا عاجزين؟" وأجالَت نظَرَها من وجهٍ إلى آخر، عارِفةً الذين كانوا الأكثرَ انجِراحًا، مُقحِمةً كلماتِها داخِلَ قلوبهم.

وما لبِثَت أن صاحت: "جاءَ الرُّومانيُّ لكَي يرُدَّنا عن طِيواز! ارتدُّوا عن طِيواز، فتَهلِكوا! فهل من عَجَبٍ أنَّ طِيوازَ طلبَ إعدامَ الرُّومانيِّ؟ لقد رأى طِيواز حقيقتَه".

ثمَّ مدَّت يدها كالسَّهم. "كما يعرِفُ طِيوازُ حقيقةَ هذه المرأة! إنَّها دَنِسة! إنَّها ساحرةٌ سوداءُ العينَين! لقد أخبرَني أتريتِس نفسُه. قالَ إنَّها عاشرَت رجُلًا قبلَه، وربَّما أكثرَ من رجُلٍ واحد. وقالَ إنَّها ولَدَت طفلةً أُخرى من رجُل آخر وتلك الطِّفلة ماتت. وقالَ إنَّ النِّساءَ الرُّومانيَّاتِ يُلقينَ أولادَهُنَّ على الصُّخور".

فصاحَ بعضُ الرِّجال: "فاجرة! اقتلوها!"

وصاحَ أتريتِس: "إنَّها تكذِب". وقد كافَحَ بكُلِّ قوَّته، فلم يجنِ شيئًا.

ثمَّ شقَّت فرايجا طريقها إلى الأمام، مُجاهِدةً في سبيل الهدوء الداخليِّ والتمسَت من الجميع أن يهدأُوا. "يجب أن يكون لدَيكِ بُرهان، أنوميا".

فجأرَ أتريتِس أعلى ما في وسعه: "ليسَ من بُرهان! هيَ كلمتُها مُقابِلَ كلمتي".

"انظروا كيف سحَرَته الإيونيَّة!"

وصاحَ الرِّجال.

رفَعَ غُندرِد يدَيه عاليًا في الهواء، وقالَ بصَوتِه الجَهوَريِّ: "الأُمُّ فرايجا تُريدُ بُرهانًا. سأُعطيكم

بُرهانًا على جرائمَ أُخرى ارتكبَتها المرأةُ في أثناء وجودها بيننا هُنا. إنَّها تُمارِسُ أكْلَ لَحم البشَر، وهي جريمةٌ تستحقُّ الموت. إنَّها تأكُلُ اللَّحمَ المُتجدِّدَ الشَّبابِ وتشرَبُ الدَّمَ المسفوكَ، العائدَين ليسوع المسيح ذاكَ الذي تخدمُه. وبواسطة السِّحر، اجتذبَت أتريتِس إلى هذه المُمارسة الممقوتة".

"اقتلوها!"

"لا!"

ولمَّا كان غُندرِد قد تسلَّلَ مُقتربًا وتجسَّسَ عليهم دونَ عِلمٍ منهم، صرَخَ قائلًا: "سمِعتُ الرُّومانيَّ يقولُ إنَّهم كانوا يأكلون جسَدَ رجُلٍ اسمُه يسوع ويشربون دمَه!"

فصاحَت أنوميا: "يجبُ أن يُستأصَلَ الشَّرُّ من بيننا!" وقد رأت أنَّ وقتَها قد حلَّ. "لديكُم أصلًا جميعُ الأدِلَّة التي تحتاجون إليها. هل تذكُرون أوَّلَ يومٍ فيه جاء إلينا الرُّومانيُّ وهذه المرأة؟ لقد تكلَّما بلُغتنا بقوَّةِ الشَّياطين. ذلك كافٍ لخَتم مصيرهما. لا نحتاج إلى بُرهانٍ على كونها قد سرقَت طفلًا حديث الولادة لكي تستولي على الوالد. لا نحتاج إلى بُرهان على كونها قد عاشرَت رجالًا آخرين. نحنُ نعلَمُ أنَّ هذه الأُمور صحيحة. أما رأيتُمُ السَّطوةَ التي لها فعلًا على جميع أولادنا؟ اسألوا أصيبي عن لويزا التي تذهبُ إليها كُلَّما ظهرَت! اسألوا آخرين كيف ذهبَ صِغارُنا إلى قلب الغابة ليسمعوا الرُّومانيَّ يُرتِّلُ لهُم. أتَنوون أن تُبقوها حيَّةً لتسرقَ أولادكم أيضًا؟"

"كلَّا!"

"هيَ عدوَّةٌ لطِيواز!"

ما كان في وسع فراجيا أن تُصدِّقَ الأُمورَ التي سمِعَتها، وأبَت أن تُصدِّقها. فقالَت مُتوسِّلةً: "دعوها تتكلَّم مُدافِعةً عن نفسها. بمُوجبِ شِرعَنا، لها الحقُّ في ذلك".

وقالت أنوميا بذُعر: "ستُلقي رُقيةً علينا نحنُ أيضًا. يجب ان نُبيدَها قبلَ أن تُبيدَنا".

فصاحَ رُلف: "دعيها تتكلَّم! أم تخشَين أن تكونَ أكثرَ منك قُدرةً؟"

وانضمَّ هَرِغاسْت إليه: "دَعيها ترُدَّ التُّهَم!"

نظرَت أنوميا إلى الأفراد الذين ارتدُّوا عنها، وقد غمَرَها الغضَب. ورأت آخرِين شاكِّين. ستجعَلُهم يندمون. ستجعَلُهم يدفعون الثَّمَن.

"دعيها تتكلَّم!"

حاول أتريتِس أن يتحرَّرَ بالاندفاع إلى الأمام. "لا!"

وإذ سمِعَت أنوميا ما كانَ في صوته، التفتَت إليه بدهشةٍ مُقنَّعةٍ. لقد كان خوفُه كمُخدِّرٍ في جِسمها، مُثيرًا أحاسيسَها، جاعلًا ذِهنَها يطنُّ. لم يُرِد أتريتِس من المرأة أن تتكلَّم. لماذا؟ ودارَت فتأمَّلَت رِصفة. وأوَّلَ الأمر، كان كلُّ ما رأته شابَّةً جميلة، عدوَّتَها، واقفةً أمامَه. ثُمَّ رأت أكثرَ من ذلك. رأت تواضُعَها الهادئ، وقارَها، استقامتَها، وعلِمَت لماذا أراد أتريتِس منها ألَّا تقول أيَّ شيء.

رفعَت أنوميا يدَها طلبًا للسُّكوت. ''ربَّما كان ينبغي لنا أن نسألها''.

فقال أتريتِس: ''لا تقولي لهم أيَّ شيء''. وقد جاهَدَ بكُلِّ ذرَّةٍ من قوَّته، فلم يكسِبْ أيَّ شيء. ''رِصفة!'' فبادلَته النَّظَر، بوجهٍ شاحِب لكنْ رائق، وعلِمَ أنَّها ستَفي بوعدها له. لقد سبَقَ أن قالت: مهما كان الثمن.

ويمكن أن يكون الثَّمن حياتها.

لاحظت رِصفة حُزنَه وخِزيَه. فقالت: ''أنا أُحِبُّك، أتريتِس''. ورأتِ الدُّموعَ تملأُ عينَيه قبلَما أغمضَهُما.

لطمَتها أنوميا على وجهها. ''لا تتكلَّمي معه ولا تنظُري إليه، يا ساحرة!''

قالت رِصفة بهدوء: ''هذه ساعتُكِ، أنوميا، ساعةُ الظُّلمة''. ونظَرَت مُباشرةً داخِلَ عينَيها الزَّرقاوين الغامضتَين بلا خوف.

''أتعتقِدينَ أنَّكِ تُفزِعينَني؟ أنتِ أو إلهُكِ المُتوهَّم؟''

''سوف يأتي يومٌ فيه تجثو كلُّ رُكبة ويعترِفُ كلُّ لسان أنَّ يسوع المسيح هو الرَّبُّ. حتَّى أنتِ سوف تسجُدينَ له!''

وفيما حَملقةُ أنوميا ما تزالُ مُثبَّتةً على رِصفة، صاحت بضِحكةٍ هازئة: ''هل تسمعون ما تقولُه؟ إنَّها تُريدُ لنا أن نكونَ على رُكَبِنا. إنَّها تُريدُ للشَّطِّي، أعظمِ جِنسٍ على الأرض، أن يدبُّوا أمامَ مُخلِّصٍ مصلوب''. ثمَّ التفتَت إلى الآخرين ناشِرةً ذراعَيها. ''كم سيستغرقُ الأمرُ من الوقت قبلَ أن تقتُلَ روما كُلَّ فَردٍ مِنكُم؟''

حَنَت رِصفة رأسَها، مُصلِّيةً بصَمتٍ وحرارة. **يا الله، أنت تعرِفُ قلبي الغبيَّ وكلَّ ضَعفٍ فيَّ. أيُّها الآب، لا يخفى عليك أيُّ من آثامي. رجاءً، لا تدَعْ أتريتِس ورُلف وجميعَ الذين سمعوا كلمتك يَخزَون بسببي. أيُّها الرَّبُّ الإله، لا تدَع طالِبيك وسطَ هؤلاء القَوم يخورون أو يُهانون بسببي الليلة.**

صاحَت أنوميا: "ما قرارُكِ؟"

وصاحَ رِجالٌ يطلبون موتَها، إلَّا أنَّ بعضًا طلبوا العفو.

ثمَّ دخَلَ هَرِغاسْت الدائرة. "كونُ المرأة تؤمن بإله آخر لا يجعلُها بغيًّا!"

فصاح المُحارِبون بغضَبٍ أشدَّ لمَّا سمِعوا واحدًا منهم يتكلَّم لمصلحتها.

وقالَ هُلت: "ما سامحتَ أتريتِس قطُّ لأمره بإغراقِ ابنِك في المُستنقَع من أجلِ الجُبن!"

وصاحَ آخر: "غالبًا ما سمِعتُك تتكلَّم عليه وعلى زوجته. فلماذا تُدافعَ عنها الآن؟"

فصاحَ هَرِغاسْت رادًّا: "لأنِّي سمِعتُ كلمةَ الله من الرُّومانيِّ، وقد نزعَتِ البُغضَ والألَمَ من قلبي!"

وقالت أنوميا بازدراء: "ونزعَت قوَّتَك أيضًا!"

ثمَّ قال غُندرِد: "لقد سحَرَتِ الإيونيَّةُ هَرِغاسْت كما سحَرَت أتريتِس!" فصاحَ مزيدٌ من الرِّجال. "كم سحَرَت سِواهُم!"

التفتَت أنوميا إلى رِصفة مُجدَّدًا. "قولي الحقَّ، وإلَّا فليضرِبْكِ إلهُكِ ويُمِتْكِ!"

"كوني قويَّة وشُجاعة، يا محبوبة!" كادت رِصفة تسمَعُ أتريتِس مُتكلِّمًا من جديد. وفي أعقابِ ذلك التَّذكُّرِ جاءت كلِماتُ الله: "لا تخافوا منهم ولا ترتعِدوا، لأنَّ الربَّ إلهَكُم هو مَن يسيرُ أمامكم. إنَّه لن يُهمِلَكُم ولا يترُكُكم".

وما لبِثَت رِصفة أن تكلَّمَت بصوتٍ عالٍ كفايةً بحيثُ يسمعُه الجميع. "سأقولُ الحقَّ. اسمعوا كلِمةَ الرَّبِّ! الرَّبُّ هو إلهُنا، الرَّبُّ واحد! هوَ الرَّبُّ مَن يغفِرُ جميعَ آثامِكُم، مَن يَشفي جميعَ أمراضِكُم، مَن يفدي من الهاوية حياتَكُم، مَن يُكلِّلُكم بالرَّحمة والرأفة، مَن يُشبِعُ نفوسَكُم!"

زعقَت أنوميا مُستشيطةً غضبًا، وقد وقعَتِ الكلِماتُ كالجمر المُشتعِل على ذهنها.

"هوَ الرَّبُّ الإلهُ مَن صنعَنا. هو الرَاعي الصالح ونحنَ خِرافُ مَراعيه!"

صاحَ غُندرِد من الخوف، ناظرًا إلى السماوات: "كُفِّي عنِ الكلام!" فقد تَدهدَهَت فوقَ الرُّؤوس غيومٌ مُظلِمة مُتلبِّدة. "انظروا كيف أغضبَت كلماتُها طِيواز!"

"إنَّما الربَّ الإلهَ أغضبتُم!" هكذا صاحَت رِصفة، إذ رأت سماءَ اللَّيل تَسوَدُّ، وكانت توَّاقةً أن يسمعوا. "ليست لطِيواز أيَّةُ سُلطة عليكم سِوى ما تُعطونه. ارجِعوا عنه. ارجِعوا عنه قبلَ فَواتِ الأوان. ارجِعوا إلى الرَّبِّ".

فقالَ غُندرِد آمِرًا: ''لا تُصغوا إليها! سُدُّوا آذانَكُم! اصرُخوا إلى طِيواز! اصرُخوا!''

وبدأ المحارِبون يُطلِقون صَيحةَ حَربِهم.

فنادَت رِصفة: ''الربُّ صنعَ السماواتِ والأرضَ والبحرَ وكلَّ ما فيها! ليسَ قدُّوسٌ مثل الرَّبِّ. ليس من إلهٍ سِواه، وليس من صخرة مثل إلهِنا''.

وضربَتها أنوميا بشدَّة كافية لجعلها تخرُّ على رُكبتَيها.

فاندفعَ أتريتِس إلى الأمام، ولكنَّه جُرَّ إلى الوراء. أُلقِيَت عليه أيادٍ أُخرى وأُرغِمَ على الانبِطاح أرضًا ووجهُه إلى تحت. وقد وضعَ هُلت رُكبتَه على ظهرِه، فيما أمسكَ آخرون ذِراعَيه وساقَيه.

ثمَّ ارتفَعَ صَوتُ صَيحةِ الخَربِ ضِدَّ الرَّبِّ.

وتذكَّرَ أتريتِس ثيوفيلُس قائلًا: ''تَقلَّدْ سِلاحَك، يا محبوب. رجُلٌ واحد لله يهزمُ ألفًا، لأنَّ الربَّ إلهَكُم هو مَن يُحارِبُ عنكم''.

فقالَ آنًا: ''يا الله، يا الله، حارِبْ عنها!'' وإذ كان مُقيَّدًا وعاجزًا، صلَّى صارخًا بقلبه إلى الرَّبِّ. **يا يسوع، لقد أخطأتُ. أنا أستحقُّ الموت، لا هيَ. لقدِ ابتعدتُ عنك. أيُّها الرَّبُّ إلهي، قِف بينَ زوجتي وهذا الجُمهور. أيُّها الرَّبُّ الإله، إلهي، سامِحني.**

ثمَّ بكى. ''يسوع! يسوع!''

اللهُمَّ، لا تدَعْها تموتُ بسبَبِ إيماني الضعيف وحماقتي. يا ربُّ، لا تدَعْهم يفوزون ضِدَّك.

دوَّمَتِ الغيومُ وغَلَت فائرةً، حاجِبةً النُّجومَ والقمر بحيثُ ألقَتِ المشاعِلُ فقط نورَها على البُستان المُقدَّس. ودوَّى رَعدٌ مُنذِرٌ بالسُّوء.

زعقَت أنوميا- وقلبُها يتسارع بجموح- ''اسمعوا صوت طِيواز!''

ونشَجَت رِصفة خوفًا عليهم، صارِخةً: ''توبوا! بالتَّوبة والراحة ستُخلَّصون، بالهدوء والثِّقة. حوِّلوا قلوبَكُم إلى الرَّبِّ!''

فصاحَت أنوميا فوق الضَّجيج: ''اصرُخوا إلى طِيواز! دعُوهُ يسمع أصواتَكُم! نعم! نعم! دعُوهُ يسمعكُم!''

''طِيواز! طِيواز!'' وقرَعَ المُحارِبون أتراسَهُم بِفرامياتهم.

لَمَعَ البَرقُ، وضرَبَ رُمحُ النُّورِ الحارِّ المُثلَّمُ الشجرةَ المقدَّسة. فإذا بالسِّنديانة الجبَّارة تنشقُّ حتَّى نِصفِها وتسقطُ هازَّةً الأرضَ التي وقفوا عليها. وقد شبَّت ألسِنةُ اللَّهب صاعدةً من جذورها.

زعقَ الرِّجالُ، وهرَبَ بعضُهم من الدائرة مَرعوبين، وبينَهم غُندرِد.

وبقِيَت أنوميا، صارِخةً عليهم. "ادعُوا إلى طِيواز قبلَ أن يُبيدَكُم!"

"طِيواز! طِيواز!"

ومضَ البَرقُ ثانيةً، ضارِبًا المذبحَ هذه المرَّةَ ومُذيبًا القُرونَ الذَّهبيَّة.

فانطرحَت رِصفة ساجِدةً في رُعبٍ مُقدَّس. "اللَّهُمَّ، سامِحْهُم. يا الله، سامِحهُم". وبَكَت.

وسقط هَرِغاسْت على وجهه ثُمَّ التصَقَ بالأرض.

أمَّا رُلف فبقيَ وحدَه واقفًا، شابكًا ذِراعَيه، وقد غمَرَه ابتهاجٌ شديد. "العَدلُ يخصُّ الرَّبَّ!"

ثُمَّ زعقَت أنوميا: "أخرِسوهم قبلَ أن يجلبوا علينا مزيدًا من الغضَب!" فتألَّبَ عليهم أعضاءُ مجلِسها المُختار. "هيَ العدوَّة! خلاصُنا يتوقَّفُ على موتها!"

وصاحَت فرايجا، مُحدِّقةً إلى السماوات المُدَوِّمة: "لا! سيُطبِقُ إلهُها علينا. لا تمسُّوها!"

"يجب أن تموت!"

وصاحَ آخرون: "لا!"

رأت أنوميا الرُّعبَ لدى الذين بَقُوا، وعلِمَت أنَّ عليها أن تستغلَّه. "خيرٌ أن يموتَ شخصٌ واحد لإنقاذِ الكثيرين!"

وارتاعت فرايجا. "ماذا لو كان ما تقولُه عن إلهِها صحيحًا؟"

"لقد خُنتِ طِيواز بشفتَيكِ! ولَطالما خُنتِه كلَّ حين في قلبكِ. لقد رأيتُ. أنا أعرِف!"

فتراجَعَت فرايجا.

أنهضت أنوميا رِصفة عن الأرض جارَّةً إيَّاها بشعرها. "ماذا لو كانت قد كذبَت بشأنِ كلِّ شيءٍ آخر؟ تكلَّمي، يا ساحرة! هلِ الولَدُ من جسمكِ؟"

غرَزَ أتريتِس أصابِعَه في الأرض وأنَّ.

وقالت رِصفة: "لا".

"وقد كانَ اسمُ أُمِّهِ جوليا؟"

"نعم".

"وهلِ استرجَعَ أتريتِس ابنَه منكِ؟"

"نعم".

"هل كان لكِ طِفلةٌ من رجُل آخر؟"

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

"نعم".

"وتلك الطِّفلة ماتت؟"

فأغمضَت رِصفة عينَيها: "نعم".

وأنَّ أتريتِس بِخُفوت: "يا الله".

قالت أنوميا: "بِشفتَيها، أصدرتِ الحُكمَ على نفسها". وقد اشتدَّت قبضتُها على شعرِ رِصفة إذ نظرَت حوالَيها إلى حلقة الوجوهِ المشدوهة. "لقد ضرَبَ طِيواز الشَّجرةَ والرُّموزِ المقدَّسة لأنَّنا مُخالِفونَ شريعتَه بتركها حيَّةً! انظروا كيف تنجلي السَّماواتُ الآن وتُشعُّ النُّجومُ من جديد!"

تَمتمَت رِصفة بخُضوعٍ تامٍّ: "يا ربُّ، أنتَ صخرتي وفاديَّ".

سحَبَت أنوميا رأسَ رِصفة إلى الوراء بَعد، كاشِفةً حَنجرتها الشاحبة. "أتريتِس يعرِفُ الشَّرع! لقد أتى بها إلى هُنا، لأنَّه علِمَ في قلبه أنَّنا نحن وحدَنا نستطيع أن نُحرِّرَه من الرُّقية التي ربَطَته بها هو وابنَه. فما إن تموتُ، حتَّى يرجِعَ الرَّجُلَ الذي كنَّا نعرِفُه. إنَّه سوف يقودُنا إلى النَّصر".

رفَعَ أتريتِس رأسَه، وعيناه عائمتان بالدُّموع. "اقتُلوا زوجتي فأُقسِمَ أمامَ الله إنِّي سأقودُكم كلَّكم إلى الجحيم!"

فقالت رِصفة بحُزن: "لا، أتريتِس. لا، يا محبوب. تذكَّرِ الرَّبَّ. تذكَّرْ ما عُلِّمناه".

ارعَ الخِراف.

وبكى. "سيقتلونَكِ بسَبَبي!"

"الله معنا. مِمَّن نخاف؟"

"أنا أُحِبُّكِ! أنا أُحبُّكِ. سامحيني". ورأى في عينَيها أنَّها قد سامحته فعلًا.

صاحَت أنوميا: "انظُروا السُّلطةَ التي لها عليه! لا نجاةَ لنا إذا تركناها تعيش".

وصاح رُود: "خذوها إلى المُستنقع!" ولأنَّه زعيم، سُمعَ كلامُه.

فوافقَ الآخرون: "المُستنقع!" حتَّى غاصَ صَوتا رُلف وهَرِغاسْت في خِضَمِّ الضَّجيج والفوضى.

برَقَت عينا أنوميا ببهجةٍ خبيثة إذ نظَرَت من عَلُ في وجهِ رِصفة. وقالت مُهَسهِسةً: "انظُري السُّلطانَ الذي لي عليكِ!"

"ليسَ لكِ سُلطانٌ سِوى ما أعطاكِ الله".

فقالت هازئةً: "إذًا، حتَّى هو يسمَعُ كلمتي". ومالَت مُقتربةً أكثر. "أنا مُتعطِّشةٌ إلى انتزاعِ حَنجرَتكِ بأسناني، ولكنْ يجبُ أن يقوموا هُم بالعمل". ثُمَّ أطلقَتها وتراجعَت، واستَدْعَت رُود لتنفيذِ الشَّرعِ والعُرف. "احلِقْ شعرَها!"

أخرَجَ رُود مُوساهُ، وشرَعَ يحلِقُ الجانبَ الأيسر من رأسِ رِصفة حلْقًا ناعمًا. وعلى الجانب الأيمن، قصَّ الشَّعرَ مُبقيًا على طُولٍ يوازي عرْضَ ثلاثِ أصابع، تارِكًا الخُصَلَ الدَّاكِنة الكثيفة تسقط على الأرض حوالَيها.

رأت رِصفة فرايجا تبكي، مُتمسِّكةً بحِجابِ الكهرمان على صدرها. "ارجِعي إلى الرَّبِّ، أُمَّاه".

وضرَبَتها أنوميا ثانيةً فدوَّخَتها: "عَرُّوها وألبِسوها طَوقَ العُنق!"

شقَّ رُود ظهْرَ تُنكِ رِصفة وسلَخَه عنها. وأخذَ طوقَ العُنقِ الجِلديَّ الثقيل من يد أنوميا، وجعَلَه حولَ عُنقِ رِصفة، ثُمَّ جرَّها بعُنفٍ حتَّى وقفَت على قدَمَيها.

استغلَّت رِصفة ما بقيَ لها من وقت، قائلةً: "الربُّ سيُحضِرُ الحقَّ إلى النُّور، لو طلبتُم ذلك منه فحسْب. لقد مات المسيحُ من أجلِ خطاياكم. وقد دُفِنَ وقام في اليوم الثالث حيًّا. بإنسانٍ واحد، آدَم، دخلَت الخطيئة إلى العالَم؛ وبيسوعَ المسيحِ، ربِّنا، لنا الحياةُ الأبديَّة".

قدَحَت عَينا أنوميا شرَرَ الغضَب، قائلةً: "أخرِسها!"

فسدَّدَ رُود إلى رِصفة ضربةَ ضارية، ثمَّ دفَعَها نحوِ المُستنقَع. ولحِقَ به الآخرون.

نادَتهم أنوميا قائلةً: "أحضِروا أتريتِس! يجب أن يُشاهِدَها تموت إذا كان للرُّقيةِ أن تُنقَض". ونظرَت داخِلَ عَينيه، مُريدةً منه أن يعلمَ أنَّها نشدَت تعذيبَهُ، لا تحريرَه.

سُحِبَ أتريتِس حتَّى وقَفَ على قدمَيه، وأُخِذَ معَ الحَشْد. وإذ قلِقَ آخرون بشأنِ رُلف وهَرِغاسْت، أخذوهُما أيضًا.

اقتادت أنوميا حشْدَ المُحاربين الشَّطِّيِّين بنُورِ المشعل وسطَ الغابة الكثيفة إلى حافةِ المُستنقَع. وأحسَّت تغييرًا غريبًا حولها، كما لو أنَّ الهواءَ نفسَه كان مشحونًا بالطاقة. كانت ساعة الظُّلمة زائلةً، وسيطلُعُ الفجرُ عليهم عاجلًا. فلا بُدَّ من إنجاز المَهمَّة.

سارعَتِ الخَطْوَ، وحثَّتِ الآخرين على المُضيِّ قُدُمًا.

تدلَّى الطُّحلُب الرَّماديُّ من أغصان الأشجار العتيقة. وفاحَت من الهواء رائحةُ الفساد.

ولمَّا وصلَت أنوميا إلى حافة المُستنقَع، استدارت وواجهَتِ الذين تبِعوها. وبكى أتريتِس علنًا، دونَ أن تتحوَّل عيناه بتاتًا عن وجه زوجته.

شامَتِ الكاهِنةُ رِصفة بنظرةِ احتِقار. لقد كانَتِ امرأةُ أتريتِس أيضًا مُنكسِرة، إذ كانت عيناها مُغمَضتَين وشفتاها تتحرَّكان كما لو كانت قد جُنَّت تمامًا.

"بالسُّلطةِ التي أعطاني طِيواز إيَّاها، أُعلِنُ هذه المرأةَ غيرَ عفيفةٍ، ساحِرةً ومُضِلَّةً فاسدة، وأُصدِرُ عليها حُكمَ الموت. فلتُطرَحْ في المُستنقع!"

رفعَت رِصفة رأسَها وأجالَت نظَرَها من وجهٍ إلى وجه. "إنَّ إلهي الذي أعبُدُه قادِرٌ أن يُنجِّيَني من الهُوَّة".

فسَخِرَ المُحارِبون.

وضحِكَت أنوميا، قائلةً: "ينُجِّيكِ؟ ستُبتلَعينَ إلى الأعماق داخِلَ أحشاء الأرض، ولَن يُرى وجهُك ثانيةً أبدًا". وإذ تراجعَت قليلًا، تكلَّمَت بصوتٍ عالٍ إلى المُحتشِدين: "أصغُوا إليَّ وأطيعوا! لا يُسمَعنَّ اسمُها أبدًا بين الشَّطِّي مرَّةً أُخرى. ليكُن كما لو أنَّها ما مَشَت قطُّ على وجهِ الأرض". فصاحُوا مُبدينَ تصديقَهم على ذلك.

خرَّ أتريتِس على رُكبتَيه، وشفتاه تتحرَّكان كما تحرَّكَت شَفَتا الإيونيَّة. ورأت أنوميا رِصفة تبتسِمُ له برِقَّة.

"خُذها!"

فأمسك رُود بذِراعَي رِصفة.

وإذ نظرَت رِصفة وجهَه، قالت: "لا، رُود. فلأذهبْ وحدي لئلَّا تموتَ أنتَ أيضًا".

فتَرجرَجَت عَيناه.

"أإليها تُصغي أم إليَّ؟"

اشتدَّت قبضةُ رُود. ودفَعَ رِصفة فوقَ لَوحٍ عريض. ولكنْ لمَّا اقتربَ من الطَّرَف، زلَّت قَدَماه. فأفلتها وحاولَ إنقاذَ نفسِه. إلَّا أنَّه فقَدَ توازُنَه، فسقَطا كِلاهُما.

صاحَ هُلت: "ألقُوا إليه حَبلًا!" وانتشَرَ الذُّعرُ بين المُحتشِدين إذ رأوا زعيمَهم الأعلى في المُستنقع مُتخبِّطًا يطلبُ مُتَمسَّكًا.

وزعَقَ: "عجِّلوا!"

فطُرِحَ إليه طَرَفُ حَبْل، ولكنَّه كان قد بدأ يغوص.

أغمَضَ أتريتِس عينَيه بإحكام حتَى لا يُضطرَّ إلى رؤيةِ زوجته تغرَقُ مع صديقه. وقالَ مُنتحِبًا: ''أيُّها الربُّ يسوع، إلهَ الرَّحمة!'' فيما صرَّخَ الرِّجال. وسمِعَ رُود يختنِقُ ويصرُخُ مُستغيثًا.

شدَّ الرِّجال وشدُّوا، ثُمَّ سقطوا إلى الوراء إذِ انفلتَ الحَبْل.

وخيَّمَ السُّكوت، ثُمَّ شقَّ الهواءَ صُراخٌ آخر، صُراخُ امرأة.

نزَحَ كلُّ لونٍ من وجهِ فرايجا، وأشارت بيَدِها قائلةً: ''انظروا! انظروا! هل ترَون؟''

سقطَت الأيدي الرادعة عن أتريتِس إذ صرَّخَ المُحارِبون الشَّطِّيُّون وهربوا أو وقعوا على وجوهِهم رُعبًا. وإذ أطلقت أنوميا عويلَ انتِحاب، حدَّقَت وهي تأبى أن تُصدِّقَ بَعد. ثُمَّ غمَرَها خوفٌ لم يسبق أن خبَرَتهُ يومًا، فركضَت بِضَراوة وتوارَت داخِلَ ظِلالِ الغابة.

''أنقذَني من هوَّةِ الهلاك، من طينِ الحمأة، وأقامَ قدَمَيَّ على صخرة، مُثبِّتًا خطواتي''.

ظلَّت رِصفة تمشي حتَّى باتت على بُعدِ عِشرينَ قدَمًا (نحو ٦ أمتار) وراءَ المكان الذي فيه غرِقَ رُود في المُستنقع، وهُناكَ وقفَت، في وسط المُستنقع، كما لو كانت على أرضٍ صُلبة.

إلى جانبها كان رجُل، طويلٌ وجبَّار، يتلألأُ ببَياضٍ ناصِعٍ باهِر.

أشرقَت الشَّمسُ مُتألِّقةً وراءَ رِصفة، وإلى هُنَيهةٍ تساءلَ أتريتِس هل جُنَّ وكان يتصوَّرُ ما ظنَّ أنَّه رآه. ونادى بصوتٍ عالٍ: ''رصفة!''

ثُمَّ رآها فجأةً من جديد. كانت راكضةً نحوَه، والنُّورُ الباهِرُ ما زال يترامى على ظهرها. فلاقاها عندَ حافةِ المُستنقع وطوَّقَها بذِراعَيه، جاذِبًا إيَّاها بقوَّة ومُمسِكًا بها بلِزقه إمساكًا مُحكَمًا. ودسَّ رأسَه في حنيةِ عُنقِها، مُغطِّيًا بيدَيه رأسَها المحلوق، لاويًا ساقَيه. ثُمَّ جَثَت على رُكبتَيها معه.

حدَّقَ هَرِغاسْت إلى عُرضِ المُستنقَع، مُرتجِفًا بشِدَّة، مُتَّسِعَ العَينَين. وقد تدفَّقَ نُورُ الشَّمس من خلال الأشجار البعيدة، باهرًا حتَّى كادَ يُعميه. وأدركَ أنَّه كان يصيح ويبكي ويضحك في الوقتِ نفسِه. ثُمَّ خَبا النُّورُ الأبيضُ إلى ألوانِ الصباحِ الأرقّ.

قامَ رُلف عن الأرض حيثُ كان قدِ انبطَح. وقامَ معه الإقِلَّاءُ الذين بَقُوا هُناك. فالأكثرون كانوا قد هربوا.

نهَضَ أتريتِس، جاذبًا معه زوجتَه صعودًا. وقال: ''يسوعُ هو الرَّبُّ!'' وقد رنَّ في صوتهِ اقتِناعٌ بهيج لم يكُن موجودًا من قبل. وتردَّدت في أنحاء الغابة أصداءُ ذلك مُبدِّدةً الظُّلمة. ''هو ربُّ السماوات والأرض وكلِّ ما فيها. بارِكوا اسمَهُ القُدُّوس!''

فقالَ هَرِغاسْت برَهبة: "بارِكوا اسمَهُ القُدُّوس!" وقلبُه ما زال يطرُق.

قامَت فرايجا مُرتجِفةً عن الأرض حيثُ كانت قد انبطحَت. وتلمَّسَت بارتِباكٍ طِلَسمَ الكَهرَمانِ الذي عليه رموزُ طِيواز الرُّونيَّة، نازِعةً إيَّاه من حَولِ عُنقِها. وبصرخةٍ خفيفة، طوَّحَت القِلادة بعيدًا في المُستنقع وراقبَتها تغوصُ سريعًا مُختفيةً عن نظَرِها. لقد تلاشى الخوفُ واليأسُ اللَّذانِ أسَراها أغلبَ الأحيان.

انتظَرَ رُلف مُرتابًا. قبلَ أن يلتفِتَ أتريتِس وينظُرَ إليه ما كان لِيَدري أيعيشُ أم يموت. وفي كِلتا الحالَين، فليكُن. ثُمَّ أفلتَ أتريتِس رِصفة والتفَت. ولمَّا أطلقَ أتريتِس زوجته ومشى نحوَ رُلف، أطرَقَ هذا رأسَه شاعرًا بالعزمِ الوطيد في كُلِّ خطوةٍ قرَّبَت أتريتِس إليه.

قال أتريتِس بصَوتٍ أجَشَّ: "سامِحني. لقد كنتُ غبيًّا".

ارتفَعَ رأسُ رُلف، وملأتِ الدُّموع عينَيه. "أقلَّ منِّي".

فأمسَكَ أتريتِس كتِفَ الرَّجُلِ الأصغر سنًّا. "يبدو أنَّه العيبُ في جميعِ الرِّجال".

وقالت فرايجا بوجهٍ مُشرِق: "يجِبُ أن نُخبِرَ الآخرين!"

إلَّا أنَّ شخصًا آخر كانَ قد وصَلَ إليهم أوَّلًا.

اندفَعَت مارتا خارجةً من الغابة، دافِعةً كالِب وثيابًا إلى ذِراعَي رِصفة. "يجب أن تمضوا. خُذها بسُرعة، أتريتِس، وإلَّا قتلوك أنتَ أيضًا".

قالت رِصفة: "مارتا!" مادَّةً يدَها لها، ولكنَّ مارتا هزَّت رأسَها رفضًا، ودارت مُبتعِدةً.

قالت مارتا: "انفُضوا غُبارَ هذا المكانِ عن أرجُلِكُم وارحلوا". وقد ولَّت هاربةً لمَّا ظهَرَ القَرويُّون.

صاحَ الرِّجال والنِّساءُ على نحوٍ هِستيريٍّ: "غادِرونا! خُذ زوجتَك الأجنبيَّة وارحلوا عنَّا قبلَ أن تجلبوا علينا مُصيبةً أُخرى".

وقد رُمِيَت عليهِم مُمتلكاتُ ثيوفيلُس ومُمتلَكاتُهما أيضًا.

"اذهبوا!"

فصاحَت فرايجا: "لا! الرَّبُّ يسوعُ المسيحُ هو الإله الحقيقيُّ". وركضَت إلى وسطهم، باحثةً عن قارُس، وعن أُصيبي، وعن أيِّ شخصٍ قد يُصغي.

وركَضَ هَرِغاسْت ورُلف باحِثَين عن زوجتَيهما.

"إلهُهم سيُبيدُنا!"

"اغرُبوا من هُنا!"

والتقَطَ بعضُهم حِجارةً وكُتَلَ تُرابٍ لِيَرموها.

"غادِرونا!"

"غادِرونا!"

سحَبَ أتريتِس رِصفة إلى الوراء. "يجِبُ أن نمضيَ".

"لا يسَعُنا أن نُغادِرَهُم".

شالَ أتريتِس العُدَّة، وحمى زوجتَه وابنه فيما حثَّهُما على التَّوجُّه نحو الغابة الواقعة شرق القرية. ولمَّا نظرَت رِصفة إلى الوراء، تمسَّكَ بيدها وظلَّ ماشيًا.

كان ثيوفيلُس قد قال لأتريتِس: "ارعَ الخِراف!" ولكنَّ شيئًا إضافيًّا دفَعَه إلى المُضيِّ قُدُمًا ومَنَعه أن يلتفِتَ إلى الوراء مرَّةً جديدة: " وأيُّ مكانٍ لا يستقبِلُكم ولا يُصغي إليكم، فانفُضوا غُبارَه عن نِعالِكُم شهادةً عليهم".

بَكَت رِصفة على الهالكين، وبكى هو أيضًا، ولكنَّهم قرَّروا قرارَهُم، تمامًا كما فعَلَ رُود في اللَّحظة التي سبقَت تَردِّيَهُ في الهُوَّة.

نادى أحدُهم: "انتَظِروا! انتَظِرونا!"

فتوقَّفَ أتريتِس ونظَرَ إلى الوراء، وارتعشَت حَنجرَتُه إذ رأى رُلف راكضًا نحوَه، مُمسِكًا بزوجته من يدها. ولمَّا وصلا إلَيهم، شكَرَت رِصفة الله وعانقت كُلًّا منهما بِدَوره، فيما وقف أتريتِس جانبًا وحَملَقتُهُ تجوبُ الغابة بحثًا عن آخرين، مُصلِّيًا بحرارة أن يتبعَهم مزيدٌ من الأشخاص. "هل مِن آخَرين سيَأتون؟"

فقالَ رُلف مَبهورَ النَّفَس: "لستُ أدري. لم أنتظِر. لم أنظُرْ إلى الوراء".

واقتادَهُم أتريتِس إلى الأمامِ وسطَ الغابة.

٥٥

خيَّموا على تلَّةٍ شرقيَّة تبعُدُ عن القرية كثيرًا.

ولمَّا خيَّم الظَّلام، قعَدَت رِصفة قُدَّامَ زوجها مُتَّكئةً عليه، وكالِبُ في حِضنها. فطوَّقها أتريتِس بذِراعَيه، مُدَغدِغًا بأنفهِ شعرَها المَجزوز، شاكرًا الله على كونهِ لم يخسَرها. ثمَّ أغمضَ عينَيه.

عرَفَت رِصفة أنَّه كان يُصلِّي. لم يَكَد يقولُ أيَّ شيء طَوالَ النَّهار. وقد علِمَت ما كان في قلبِه، فانضمَّت إليه في التَّضرُّعِ إلى الرَّبِّ.

ثُمَّ انقصَفَ غُصَينٌ، فرفَعَا نظَرَهُما. وشهَقَ أتريتِس نفَسًا خَشِنًا، مُتأثِّرًا جدًّا. وقالَ بصوتٍ أجَشَّ: "شُكرًا لله!"

أطلقَت رِصفة صرخةً رقيقة، وحطَّت كالِب جانبًا بسُرعة، وهبَّت واقِفةً.

ارتمَت فرايجا بين ذِراعَيها والتصقَت بها. "أينَما ذهبتِ، أذهَب. إلهُكِ إلهي".

وقد جاءَ معها آخَرون.

تقدَّم أُصيبي مُبتسِمًا ابتسامةً عريضة، وصافَحَ أتريتِس قائلًا: "جيِّدٌ أنَّكُم خيَّمتُم على مُنحدَرِ تلٍّ". وحطَّت مارتا لويزا أرضًا ثُمَّ ارتمَت بين ذِراعَي أخيها، والأولادُ حولَها. وقد جاءَ هرِغاسْت وآنا، كما جاءت أيضًا هِلدا وزوجُها سِغ. وراحَ الجميعُ يتكلَّمونَ في آنٍ معًا.

نظَرَ أتريتِس حَوالَيه إلى أُولئكَ الذين خرجوا من الظُّلمة إلى دائرة النُّور.

عدَدٌ ضئيلٌ جدًّا، هكذا فكَّر، ثُمَّ دفَعَ الحُزنَ بعيدًا عنه. كانَ هُنالك أُمورٌ أُخرى يُفكِّرُ فيها، وأشياءُ كثيرةٌ يعمَلُها؛ وبالتَّصميمِ الضَّاري الذي حازَهُ دائمًا في شؤونِ الحياة والموت، بذلك التَّصميمِ عينِه حوَّلَ إرادتَه وحياتَه إلى المهمَّة التي تنتظِره.

كان ثيوفيلُس قد قال: "ارعَ الخِراف...ارعَ الخِراف".

وكانَ ذلك قطيعًا صغيرًا.

ولكنَّها كانت بداية.

خاتمة

اقتاد أتريتِس مجموعة المسيحيِّين الصَّغيرة إلى داخلِ السُّهول الشَّماليَّة الشَّرقيَّة، حيثُ أسَّسوا مُجَمَّعًا صغيرًا بقُرب إحدى الطُّرُق التِّجاريَّة الرُّومانيَّة. وباشَرَ أتريتِس ورِصفة مهمَّةَ التَّعليمِ والإرشاد لأُولئك الذين تركوا كلَّ شيءٍ وراءهم لأجل مجدِ الإنجيل. وقد تقوَّى أفرادُ المجموعَةِ الصغيرة في إيمانِهم، وسرعانَ ما مضَوا يُقدِّمون شهادتَهُم إلى التجَّارِ المُسافِرين الذين جاءُوا إلى قريتهم. فلم يطُلِ الزَّمَنُ حتَّى انتشرَت كَلِمةُ الرَّبِّ شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا.

وجَدَ أتريتِس ورِصفة فرَحًا جديدًا وأعمَقَ أحَدُهما في الآخر، إذ باتا أقرَبَ إلى الرَّبِّ باطِّراد. وغمَرَتِ البهجةُ كالِب يومَ زادت عائلتُهم لدى ولادة أُختِه، هَدسَّة. وقد كانت أوَّلَ طِفلةٍ بين أطفالٍ كثيرين وُلِدوا بعدَها في المُجَمَّع الصغير، فكانوا الجِيلَ الثاني من شَعبٍ مُكرَّسٍ كلِّيًّا ليسوعَ المسيح.

أمَّا أنوميا، ففي غُضونِ سنةٍ واحدة بعدَ رحيلها من البُستان المقدَّس رجَعَت إلى قَومِها واستمالَتُهم بادِّعاءاتٍ تَلقَّيها وحيًا من طِيواز. فقالت لهم إنَّ روما ستسقُط، وإنَّهم هُم سيكونون مَن يُسقِطونها. وصدَّقوها. فطُلِبَتِ التَّحالُفاتُ وعُقِدَت، واحتشَدَ المُحارِبون.

سنةَ ٨٣م، تزعَّمَ الشَّطِّي عِصيانًا ثانيًا على الإمبراطوريَّة. فأرسَلَ دوميتيان، الإمبراطورُ الجديد، فَيالِقَهُ إلى الشَّمال. وفي غُضونِ سنتَين، أُبيدَ الشَّطِّيُّون، وبقيَ على قيد الحياة قَرَويُّون قلائل، بينَهم أنوميا.

ثُمَّ ماتوا كلُّهم عبيدًا في بُلدانٍ أجنبيَّة.

لمَّا سَمعَ أتريتِس الأخبار، جمَعَ شعبَهُ معًا. وقالَ بصوتٍ مُجَلجِل: "وعودُ الله يَقينيَّة، شأنُها شأنُ دَينونَتِه. وفي وسعنا أن نتيقَّن بأنَّ كِلَيهما سيأتيان، كيَقينِنا بأنَّ الفجرَ سيأتي كلَّ يوم. والآن، إذ نحزَنُ على إخوَتِنا وأخَواتِنا الهالِكين، فلنبتهِجْ بكُلِّ ما صنَعَهُ الله لأجلِنا، ولنتذكَّرْ أنَّ الفارِق الوحيد بينَنا وبينَ الذين يهلِكون هو المسيح. فبِمَعزِلٍ عنه، نُخفِقُ جميعُنا. ومعه نخرُجُ من الظَّلام وندخُلُ في الفَجر، لأنَّه قد أعطانا مُستقبلًا ورجاءً".

فقالت رِصفة بهدوءٍ قُربَهُ: "آمين!"

وتجاوَبَ الآخرون: "آمين!"

"رِصفة، هلَّا تُعلِّمينَني القِراءة؟"

رفعَت نظَرَها إلى أتريتِس مدهوشةً، فابتسمَ ابتِسامةً ساخِرة. "كُلَّ يوم أسمعُكِ تقرأين كلامَ الله، وأنا أتوقُ لأنْ أقومَ بذلك بنفسي، أن أمضيَ وقتًا مُتأمِّلًا في ذلك الكلام، أن أحمِلَهُ إلى الآخرين". ومدَّ يدَهُ نُزولًا فتناوَلَ يدَها وأمسكها برِقَّة. "رجاءً، حبيبتي، أمَا تُعلِّمينَني القِراءة!"

تأثَّرَت رِصفة بالتَّواضُعِ الذي اتَّسَمت به كلِماتُه، فما كان في وُسعها إلَّا أن تومئ برأسها مُوافقةً. مع كُلِّ يوم جديد، كانت قد رأتِ المزيدَ فالمزيدَ من كِبرياء أتريتِس يُمات، وفي مَوضِعه كان الله مالئًا الرَّجُلَ الذي أحبَّته بالحكمة والوداعة والعزم الوطيد على اتِّباعِ قُدوَةِ المسيح. وإذ حدَّقت إلى وجهه، اجتاحَها شعورٌ غامِرٌ بعِرفانِ الجميل.

يا ربّ، كم أنتَ صالح!

في غضونِ بضعةِ أشهُر، علَّمَت رِصفة أتريتِس أن يقرأ نُسخةَ الدَّرْجِ الذي أتى به ثيوفيلُس من أفسُس، وهو نفسُه الدَّرْجُ الذي سبَقَ أن نسَخَه أغابُس في أثناء الرِّحلة البحريَّة الطويلة منذُ سنين. وقد تُرِكَ الدَّرْجُ الأصليُّ لدى الكنيسة في روما.

أخيرًا، ذاتَ صباحٍ باكِر، جمَعَ أتريتِس المؤمنين معًا وجلَسَ أمامهم. وقد كانت رِصفة بجانبه، والدَّرْجُ في حِضنِها. ولمَّا مدَّ أتريتِس يدَه فتناوَلَ الدَّرْجَ، ثُمَّ بدأ يقرأُ لهُم، خيَّمَ سُكوتٌ تامٌّ على الغُرفة. وأصغى المُجتمِعون بسرور إلى صوتِ الجِرمانيِّ الخفيض إذ قرأ من شهادةِ شخصٍ سارَ مع الرَّسول بولس، وأيضًا مع آخَرين تكلَّموا مع المسيح وجهًا لوجه.

بدأتِ الرِّسالةُ هكذا: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليفِ قِصَّة في الأُمور المُتيقَّنة عندَنا، كما سلَّمَها إلَينا الَّذين كانوا منذُ البدء مُعاينينَ وخُدَّامًا للكلمة، رأيتُ أنا أيضًا، إذ قد تتبَّعتُ كلَّ شيء من الأوَّل بتدقيق، أن أكتُبَ إليك على التَّوالي- أيُّها العزيزُ ثيوفيلُس- لتَعرِفَ صِحَّةَ الكلامِ الذي عُلِّمتَ به".

وقد كتَبَ الرِّسالةَ طبيبٌ، صديقٌ لثيوفيلُس، رجُلٌ اسمُه لُوقا.

عند انتِهاء القراءة، تقدَّم كثيرون إلى الأمام ليُصافِحوا أتريتِس ويُرَبِّتوا ظهرَه. وقالتَ فرايجا لابنها، وفي عَينيها تلألؤ فخرٍ: "القائدُ الأصيلُ لا يكُفُّ عنِ التعلُّمِ أبدًا". فجذَبَها أتريتِس إليه، وعانقَها بقُوَّة. وراقبَتهُما رِصفة، مُغرَورِقةَ العَينَين.

ما دامَ أتريتِس حيًّا، أمَّ اجتماعاتٍ من هذا القبيل، مُعلِّمًا ومُرشِدًا أهلَ المُجتمَع في كلامِ الرَّبِّ. وكلَّ صباح، لدى شُروقِ الشَّمس، كان أتريتِس ورِصفة يَجثُوانِ على رُكَبِهما مُصلِّيَين

لأجل ولَدَيهما. وإذ تضرَّعا إلى الله من أجلِ هَدسَّة وكالِب، توسَّلا إليه أن يغرِسَ كلامَه داخِلَ قلبَي ولَدَيهما، وأن يُوجِدَ داخِلَهما جوعًا إلى كلمته ويجعلَهُما ولَدَيه، لا ولَدَيهما فقط.

وقد استجابَ الله. إذ كبِرَ كالِب وهَدسَّة كِلاهُما قويَّين في الرَّبِّ. وكانَت هَدسَّة مَفخرةً لِسَميَّتها، إذ عُرِفَت في جميعِ أنحاء المِنطقة بكونها شابَّةً ذاتِ حِكمةٍ ولُطفٍ عظيم. ولكنَّ كالِب كان مَن بدا مُدَوزنًا بوجهٍ خاصٍّ لأُمورِ الرُّوح. فقد درَسَ كلمة الله بجُوعٍ شديد، كما لو لم يكُن في وسعه أن ينال كفايتَه منها.

قال هَرِغاسْت ذاتَ أُمسِيَّةٍ: "لدى الله قصدٌ خاصٌّ لهذا الفتى". وقد شاهَدَ كالِب حيثُ كان مُكِبًّا على الدُّروج. فما كان من أتريتِس ورِصفة إلَّا أن هزَّا رأسَيهما مُوافَقةً، مُبتسِمَين.

ومَن ثَمَّ كانت المُفاجأةُ ضئيلةً لَمَّا دخَلَ ابنُهما ذاتَ مساء، وعيناه مُتَّقِدتانِ حماسةً.

وما لبِثَ أن هتَف: "لقد تكلَّمَ الله إليَّ!"

قعَدَ أتريتِس صامِتًا، بانتِظارِ أن يُكمِلَ ابنُه.

"أبي، أُمِّي، لقد دعاني الله لحَمْلِ كلِمته إلى قَومِ القايكِنغ".

نظرَت رِصفة إلى أتريتِس مُتوجِّسةً وقالت: "القايكِنغ؟ ولكنْ، يا كالِب..."

"رِصفة". أوقَفَ صوتُ أتريتِس الهادئُ كلماتِها، وتلقَّت حَملقتَهُ المُحِبَّة. "هوَ ليسَ لنا وحدنا، أتذكُرين؟"

فهزَّت رأسَها مُوافقةً، وذهبَت لتُعانِقَ ابنَها. وقد صلَّت: **هُوَ لكَ، يا ربُّ. إنَّه لكَ من البداية!**

كانت لحظةً حُلوةً مُرَّةً، شأنُها شأنُ الصَّباح الذي فيه اجتمَعَ أهلُ القرية لتوديع كالِب. وقد صلَّوا معًا، مُكلِّفينَ إيَّاه باسْمِ الله وعاهِدينَ به إلى عناية الرَّبِّ.

ومع أنَّ أيَّ واحِد منهم لم يرَ كالِبَ ثانيةً قطُّ، فقد علِموا أنَّه كان في يدَيِ الله- تمامًا كما كانَ كلُّ واحدٍ منهم- وكانوا في سلام.

مسردٌ ألفبائيٌّ

[شَرحُ ألفاظ]

أپولو:

عند الرُّومان واليونانيِّين، هو إلهُ نور الشَّمس والنُّبوَّة والموسيقا والشِّعر. وهو الأجمل بين الآلهة.

أتريوم:

الفِناءُ المركزيُّ في المسكن الرومانيّ. وقد كانت مُعظَم المنازل الرومانيَّة تتكوَّن من سلسلةِ غُرَف مُحيطةٍ بفِناءٍ داخليّ.

إروس:

إله الحُبِّ الجسديِّ عند اليونانيِّين. وقد جرَت مساواته بالإله الرُّومانيِّ كيوپيد.

أموراتا:

(الجمع: أموراتَيي): نَصيرٌ مُعجَب بمُحارب ما (ذكرٌ أو أنثى).

أَوريوس:

(الجمع أَوريايي): قطعةُ نقدٍ رومانيَّة، تُساوي خمسة وعشرين دينارًا، وزنُها بين خمسة غرامات وأحَدَ عشر غرامًا.

إيل عِليون:

الله العَلِيُّ.

ببليوتيكا:

غُرفة المكتبة في المسكن الرُّومانيِّ.

بَتافي:

قبيلة من بلاد الغال (فرنسا الآن) حاربت روما في صفِّ الشَّطِّي والبرُكتيري.

برُكتيري:

قبيلةٌ جِرمانيَّة شاركَتْ الشَّطِّي في مُحاربَة روما. ويبدو أنَّ البرُكتيري حاربت الشَّطِّي قبلَ اتِّحادها معهم ضدَّ روما.

پالُس:

رداءٌ كالعَباءة، كانت نِساءُ الرُّومان يَرتَدينَهُ فوق الستولا.

البرُوقُنصُل:

حاكم- أو قائد عسكريٌّ- لولاية رومانيَّة، كان مسؤولًا أمامَ مجلس الشُّيوخ.

پوليس ڤِرسو:

كانت هذه، في الألعاب الرُّومانيَّة، إشارةَ الموافقة على القتل. وكانت، في العادة، إشارةَ "إنزال الأباهِم إلى تحت".

تَپيداريوم:

غُرفةٌ في الحمَّامات، الماءُ فيها ساخِنٌ قليلًا ومُهدِّئ.

تريكلينيوم:

قاعةُ السُّفرة في المسكن الرومانيّ. وكان التريكلينيوم عادةً فخمًا ومُزخرفًا، وله عدَّةُ أعمدة، وفيه تشكيلة من التماثيل.

التُّوجة:

الرِّداءُ الخارجيُّ المُميَّز الذي كان الرُّومان يرتَدونَه (مع أنَّ استِعماله بَطُلَ بالتَّدريج). وهو قطعةُ قُماش بَيضويَّة واسِعة، تُسدَل على الكتِفَين والذِّراعين. وكان لونُ التُّوجة وشكلُها محدَّدين على نحوٍ حاسِم: إذ كانَ لكلٍّ من أهلِ السِّياسة، والحادِّين على مَيْت، والرجال، والصَّبيان، تُوجَةٌ مُختلِفة. وكان الصِّبيان يلبسون توجةً أُرجوانيَّةَ الحواشي، ولكنْ عندَ بُلوغِهم سنَّ الرُّشد كان يُسمَحُ لهم بأن يرتدوا تُوجا ڤيريلِس، أي تُوجةَ الرَّجُل، وهذه كانت بسيطة وغير مُزخرَفة.

حادِس (هادِس):

إلَهُ العالَم السُّفليِّ عند اليونانيِّين؛ ومملكُته أيضًا.

الحَرَسُ البريتوريُّ:

الحُرَّاس الشَّخصيُّون الإمبراطوريُّون عند الرُّومان.

دينار:

(دِناريوس، ج: دِيناريي): وحدةٌ من العُملة عند الرُّومان، تُعادِلُ أُجرةَ يومٍ واحد للعامل العاديِّ (راجِع أيضًا: أوريوس، سَستَرس، كُوادرَنس).

رُندلِنغ:

مساكِنُ مُجمَّعة في دائرة، تُحيطُ بفُسحةٍ مركزيَّة.

سپاتا:

سيفٌ طويل، عريضُ النَّصل.

ستولا:

ثوب طويل، يُشبِه التَّنُّورة، كانت النِّساء الرومانيَّات يَرتدينَه.

سَسْتَرس:

عُملة رومانيَّة، قيمتها رُبعُ دينار.

سيڤيتا:

(الجَمع: سيڤيتاتِس): مدينةٌ (أو قرية) صغيرة.

شطِّي:

إحدى القبائل الجِرمانيَّة.

صَيحة الحرب:

كان المُحارِبون الجِرمانيُّون يستعملون صَيحةَ حربٍ ضاريةً (باريتُس). وكانت تصدر بحَملِهم تُروسَهم أمامَ وجوههم والصُّراخِ فيها مع الطَّرق عليها بأسلحتهم.

الطريق:

لفظةٌ تُستعمَل في الكتاب المقدَّس (سفر الأعمال) للدَّلالة على الإيمان المسيحيّ. وربَّما سمَّى المسيحيُّون أنفُسَهُم "أتْباعَ الطريق"، أو "أهل الطريق". ومعلومٌ أنَّ "الطريق" هو لَقَبٌ استخدمه المسيح بالإشارة إلى نفسه.

طِيواز:

إله الحرب عند القبائل الجِرمانيَّة (شطِّي، برُكتيري، بَتافي). وكان يُرمَزُ إليه برأسِ مِعزاة.

عِرافة:

مُمارسَةُ معرِفة الغَيب؛ استِعمالُ علامة (بشير أو نذير) لتحديد المعنى أو التَّصرُّف.

غالِيا:

قَلَنسُوَة جِرمانيَّة من جلد.

غروبِنهاوس:

بيتٌ جرمانيٌّ مُستطيل، يحتوي عادةً على مسكن للبَشَر ومَبيت للمواشي.

فانُم:

(الجمع: فانا): معبدٌ كان أكبرَ من مزار، لكنْ أصغر من الهياكل المُعتادة.

فراميا:

رُمحٌ ذو رأس طويل حادٌّ، كانت تستعمِلُه القبائل الجِرمانيَّة. وكان يمكن أن يُرمى كرُمحٍ عاديٍّ أو تُستعمَل قناتُه كهِراوة.

فريجيداريوم:

غُرفةٌ في الحمَّامات، الماءُ فيها بارد.

قائدُ مئة:

ضابطٌ رومانيٌّ تحتَ إمرَتِهِ مئةُ جُنديٍّ (يُشكِّلون فِرقةً صغيرة في الفَيلَق الرُّومانيِّ).

قُربيطة:

سفينة تجاريَّة بطيئةُ الإبحار.

قُنصُل:

قاضٍ رئيسٌ في الجمهوريَّة الرُّومانيَّة. وقد وُجِدَ مَنصِبان كانا يُنتخَبان سَنَويًّا.

كاسِّس:

خُوذَةٌ مَعدِنيَّة تُلبَس فوق القَلَنسُوَة، غالبًا ما كانت رموزٌ رُونيَّة منقوشةً عليها.

كَلِداريوم:

غُرفةٌ في الحمَّامات كانت القُربى إلى المراجِل، ومن ثَمَّ كانت الأكثر سخونةً. لعلَّها تُشبِهُ الجاكوزي أو غُرفة البُخار اليوم.

كُوادرَنس:

(الجمع: كُوادرانتِس): قِطعةُ نقدٍ رومانيَّة برُونزيَّة. وكانت أربَعٌ منها تُساوي قِطعةً نُحاسيَّة واحدة، وستَّ عشرةَ قطعةً تُساوي سَسْتَرسًا واحدًا، وستٌّ وأربعون تُساوي دينارًا واحدًا.

كوبِكيولا:

غُرفةٌ تحت الأرض؛ نواةُ سِردابِ عائلةً ما.

لاراريوم:

جزءٌ من المسكن الرومانيِّ، كان غُرفةً خصوصيَّة تُنصَبُ فيها الأوثان والأصنام (التي تُمثِّل آلِهةَ البيت).

لانيستا:

مُدرِّب المُحارِبين. كان اللانيستا الرئيسُ في اللُّودُس صاحِبَ مهنة تُعامَل باحترام وازدراء معًا. ولكنَّ امتلاك المُحارِبين وتأجيرَهُم كانا مصلحة مألوفة ومشروعة.

لُفَّاح (يَبروح):

نباتٌ عُشبيٌّ من الفصيلة الباذنجيَّة، مَوطِنهُ الشَّرق الأوسط، كان يُستعمِل لتعجيل الحَمْل، وبوصفهِ مُسهِلًا، أو مُسَكِّنًا، أو مُبيدًا للأبواغ.

لودُس:

(الجمع: لودي): سِجنٌ /مدرسة حيثُ كان المُحارِبون يُدرَّبون.

لودي:

(جمع): إشارة إلى الألعاب الرومانيَّة: "لُودي مِيغالَنسِز".

لوكيولي:

حُجَرٌ فرديَّة للدَّفن في سِرداب.

مُحارِبون (مُصارِعون):

سُجَناء أو أسرى من الذُّكور يُرغَمون على التدرُّب كي "يتبارَوا" في "ألعاب" المُحارَبة الرُّومانيَّة. كان سِجنُهم /مدرستُهم يُسمَّى لودُسًا، ومُدرِّبُهم لانيستا. وقد كان هنالك عدَّةُ أصناف من المُحارِبين، يوُصَفُ كلٌّ منهم بالسِّلاح الذي يُعطاه للاستعمال، والدَّور الذي يُحدَّد له كي يؤدِّيَه في الألعاب. وفي ما عدا الأوضاع الاستثنائيَّة، كان المُحارِبان يتقاتلان إلى أن يموتَ أحَدُهما.

هِميوليا:

سفينة قَراصِنة ذاتُ أشرِعة ومجاذيف؛ تُعرَف أيضًا بِمُصطلَح "واحِدة ونصف".

هَيبوجيوم:

سِردابُ دَفنٍ للعائلة.

هيبوكريت:

مُمثِّل. وتُستخدم هذه الكلمة أيضًا لوصف الشخص المرائي.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

بعد رائعتَي فرنسين ريڤرز "صوت في الريح" (A Voice in the Wind)
و"صدى في الظلام" (An Echo in the Darkness)، تعودُ إلينا
ريڤرز لتكمل ثلاثيَّة علامة الأسد برواية:

يقينٌ كالفجر

As Sure As the Dawn

بعدَ أنْ نالَ أتريتِس حرِّيَّته، علمَ أنَّ ابنَه ما يزالُ على قيد الحياة. وإذ يبحثُ عنه، يعرفُ أنَّه لدى مربِّيةٍ أرملةٍ اسمها رصفة، فيقرِّر استردادَه عنوةً. غير أنَّ حالَ الطفلِ تفرضُ على أتريتِس واقعًا مُربِكًا، وما يزيد من تعقيد الأمور هو اشتباك أتريتِس مع أحَد المرموقين الرُّومان المقرَّبِ من الإمبراطور.

أين يتَّجه أتريتِس بعد ذلك؟ ما مصيرُ رصفة؟ ما دور قائد المئة ثيوفيلس الذي يظهرُ فجأةً على مسرح الأحداث؟ ما المؤامرة التي تحبكُها أنوميا الكاهنةُ العُليا لطيواز؟ سنعرفُ الإجابات عن هذه الأسئلة والكثير غيرها في ثنايا روايتنا الثالثة.

أتريتِس المقاتل الجرمانيّ، وبطل ساحة المحاربين. بعدما كسب حرِّيَّته بعناءٍ طويل، انطلق في رحلةٍ قلبت مسيرة حياته إلى الأبد.

فرنسين ريڤرز كتبَتْ ما يزيدُ على عشرين رواية من أكثر الكتب مبيعًا، وقد نالَتْ عدَّة جوائز بينها جائزة (RITA) لروائيِّي قصص الحبِّ في أميركا. في عام ١٩٩٧م، وبعد حصولها على هذه الجائزة للسنة الثالثة على التوالي، دخلَتْ فرنسين ريڤرز قاعةَ مشاهير الروائيِّين في أميركا.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

ISBN 978-90-5950-234-5
9 789059 502345
أوفير
ophir
www.ophir.com.jo
@ophirpub
ophirpub